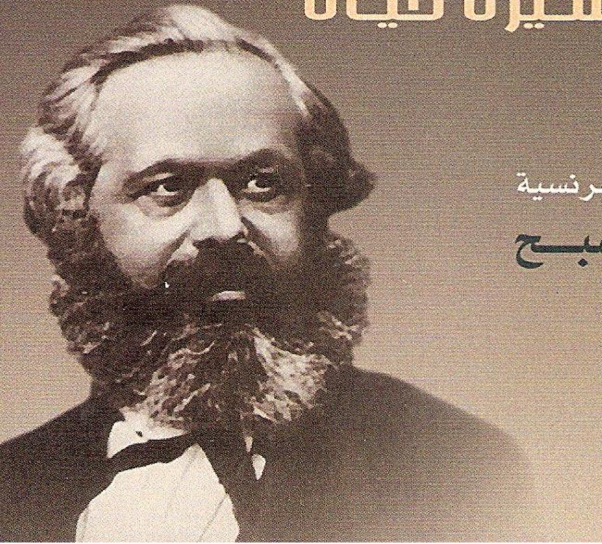
جاك أتالي

كارل ماركس
أو
فِكرُ العالم

سيرة حياة



ترجمه عن الفرنسية

محمد صبح

كارل ماركس
أو فكر العالم

«سيرة حياة»

كارل ماركس أو فكر العالم «سيرة حياة»

العنوان الأصلي للكتاب:

Jacques Attali

Karl Marx

Ou

L'esprit du monde

Biographie

Fayard

تأليف: جاك أتالي

ترجمه عن الفرنسية: محمد صبح

الناشر : دار كنعان

للدراسات والنشر والخدمات الإعلامية

دمشق – ص.ب 443 تلفاكس: 2134433 (11 - 963 +)

E-mail: said.b@aloola.sy

الطبعة الأولى: **2008** / عدد النسخ **1000**

إخراج: لبنى حمد

يمكن الاطلاع على كتب الدار ومنشوراتها

على صفحة الشبكة التالية:

http://www.furat.com

http://www.neelwafurat.com

جـــاك أتـــالـــي

كارل ماركس

أو

فكر العالم

سيرة حياة

ترجمه عن الفرنسية

محمد صبح

«فحتى نفهم النص المقدس، لا بد لنا من حصافة، تتفق معها كل الفقرات المتضادة. ولا تكفي حصافة تناسب عدة فقرات متطابقة، بل حصافة توفق حتى بين الفقرات المتناقضة».

باسكال، تأملات.

مُقدِّمة

ما من مؤلف حظي بقراء أكثر منه، وما من ثوري بعث من الآمال أكثر، ولم يثر أي صاحب مذهب من الشروح والتعليقات أكثر منه. وباستثناء بعض مؤسسي الأديان، ما من إنسان أحدث تأثيراً مماثلاً لما كان لكارل ماركس في القرن العشرين.

ومع ذلك، فقبيل فجر القرن التالي الذي نحن فيه، نُبذت نظرياته وتصوراته للعالم بصفة جماعية؛ والإنجاز السياسي الذي أقيم حول اسمه أرسل إلى مزابل التاريخ. ولا أحد يدرسه اليوم تقريباً، ومن المناسب القول إنه أخطأ في اعتقاده بأن الرأسمالية محتضرة وأن الاشتراكية في متناول اليد. ويبدو في نظر كثيرين، المسؤول الرئيسي عن بعض أفظع جرائم التاريخ، وبخاصة الانحرافات الأسوأ التي طبعت نهاية الألفية السابقة، المتمثلة في النازية والستالينية.

لكننا لدى قراءة أعماله بتمعن نكتشف مع ذلك أنه رأى قبل الجميع، كيف أن الرأسمالية كانت تشكل تحريراً من الاغترابات السابقة. ونكتشف أيضاً أنه ما فكر قط بالاحتضار، ولا أعتقد بأن الاشتراكية ممكنة في بلد واحد، بل أثنى بالعكس على التبادل الحر وعلى العولمة، وتنبأ بأن الثورة لن تقوم، إذا ما قامت، إلا كتجاوز لرأسمالية أضحت كونية.

وبإلقاء نظرة أخرى على حياته، نعي شدة تماهي هذا المصير الفذ بكل تناقضاته مع الواقع الراهن.

بداية، لأن القرن الذي عبره يشابه بصفة مدهشة قرننا الحالي. فكما اليوم، كانت آسيا تهيمن على العالم ديموغرافياً، ويهيمن العالم الأنغلو – سكسوني عليه اقتصادياً. وكما اليوم، كانت الديمقراطية وآليات السوق تحاول التغلب على العالم. وكما اليوم، كانت تقانات تحدث ثورة في إنتاج الطاقة والأدوات، والاتصالات والفنون والإيديولوجيات، وتؤذن بتخفيف شديد في مشقة العمل. وكما اليوم، ما من أحد كان يعلم ما إذا كانت الأسواق تشرف على موجة نمو لا سابق له أم أنها في ذروة تناقضاتها. وكما اليوم، كانت الفوارق ضخمة بين الأكثر قدرة والأكثر بؤساً. وكما اليوم، كانت مجموعات ضغط عنيفة أحياناً بل يائسة، تتصدى لعولمة الأسواق، ولصعود الديمقراطية والعلمنة. وكما اليوم، كان أناس يأملون في حياة أخرى، أكثر أخوية، تحرر بني الإنسان من البؤس، ومن الاغتراب والعذاب. وكما اليوم، كان العديد من الكتاب يتنازعون شرف عثورهم على السبيل الذي سيقودون عبره بني الإنسان طوعاً أو كرهاً. وكما اليوم، كان رجال شجعان ونساء، وبخاصة صحافيون مثل ماركس، يموتون من أجل حرية الكلام والكتابة والتفكير. وكما اليوم أخيراً، كانت الرأسمالية هي السيد، ترخي بثقلها في كل مكان على تكلفة العمل، مُشَكِّلة تنظيم العالم على صورة الأمم الأوروبية.

ثم، لأن عمله هو في أساس ما هو جوهري في حاضرنا: ففي إحدى المؤسسات التي أسسها، وهي الدولية، ولدت الديموقراطية الاجتماعية؛ وبمسخ مثله الأعلى أقيمت أسوأ ديكتاتوريات القرن الماضي التي لا تزال عدة قارات تعاني من ذيولها. ومن خلال العلوم الاجتماعية التي كان أحد آبائها، تشكَّل تصورنا عن الدولة وعن التاريخ. ومن خلال الصحافة التي كان أحد أعظم محترفيها، لا ينفك العالم عن فهم نفسه وبالتالي عن التحول.

وأخيراً، لأنه في نقطة التقاء كل ما يكوِّن الإنسان الغربي الحديث. فهو يرث من اليهودية فكرة أن الفقر لا يطاق وأن لا قيمة للحياة إلا إذا

سمحت بتحسين مصير البشرية. ويرث من المسيحية حلم مستقبل محرِّر يحب الناس فيه بعضهم البعض. ويرث من عصر النهضة طموح تذهن العالم بصفة عقلانية. ويرث من بروسيا اليقين من أن الفلسفة هي أولى العلوم، وأن الدولة هي القلب المتوعد لكل سلطة. ويرث من فرنسا الاقتناع بأن الثورة هي الشرط لتحرير الشعوب. ويرث من إنجلترا الولع بالديمقراطية وبالنزعة التجريبية وبالاقتصاد السياسي. أخيراً، إنه يرث من أوروبا الولع بما هو كوني وبالحرية.

فيصبح بهذا الميراث الذي يأخذه على عاتقه تارة، وينكره تارة أخرى المفكر السياسي العالمي والمدافع عن الضعفاء. وعلى الرغم من أن العديد من الفلاسفة قبله تذهنوا الإنسان بكليته، إلا أنه الأول في مقاربة العالم بكليته كوحدة سياسية واقتصادية وعلمية وفلسفية في آن. إذ إنه يقصد، على غرار هيجل، معلمه الفكري الأول، إعطاء قراءة كلية للواقع؛ إلا أنه على خلافه، لا يرى الواقع إلا في تاريخ البشر وليس في حكم الله. وبإبدائه نهماً لا حد له للمعارف في كل فروعها، وبكل اللغات، فإنه يبذل قصاراه إلى النفس الأخير للإلمام بالعالم بأسره وبدوافع الحرية. إنه فكر العالم.

وفي الإجمال، إن المسار الفريد لهذا المنبوذ، مؤسس الدين الجديد الوحيد في هذه القرون الأخيرة يتيح لنا أن نفهم كيف تأسس حاضرنا على هؤلاء الرجال النادرين الذين اختاروا العيش مهمّشين في الفاقة، ليحافظوا على حقهم بأن يحلموا بعالم أفضل، في الوقت الذي كانت أروقة السلطة مفتوحة أمامهم. فنحن مدينون لهم بواجب العرفان بالجميل. كما يرينا مصير أعماله في الوقت ذاته، كيف انزلق أفضل الأحلام إلى الهمجية الأسوأ.

أقوله دون تفاخر ولا حنين. لست ولم أكن قط «ماركسياً» بأي معنى للكلمة. وأعمال ماركس لم ترافقني في شبابي؛ حتى إنني – وهو شيء لا يكاد يصدق – لم أسمع باسمه ينطق خلال دراساتي في العلوم

والحقوق والاقتصاد أو التاريخ. وأول اتصال جدي لي معه حدث لدى قراءاتي المتأخرة لكتبه، وبوساطة مراسلات مع مؤلف (مع ماركس)، لويس ألتوسير. ومنذئذ لم تغادرني الشخصية ولا أعمالها قط. فلقد فتنني ماركس بدقة فكره، وبقوة جدله، وبمتانة محاكمته العقلية، وبوضوح تحليلاته وشراسة انتقاداته، وظرف خصاله، ووضوح تصوراته. وشعرت أكثر فأكثر من خلال بحوثي بالحاجة إلى معرفة ما كان رأيه في السوق والأسعار والإنتاج، وفي التبادل والسلطة والظلم، وفي الاغتراب والبضاعة والأنتروبولوجيا، وفي الموسيقى والزمن والطب، وفي الفيزياء والملكية، وفي اليهودية وفي التاريخ. واليوم، مع وعيي بالتباساته، ومع عدم مشاطرتي استخلاصات تابعيه أبداً تقريباً، ما من موضوع عرض لي التطرق إليه إلا وتساءلت عن رأيه فيه، ووجدت فائدة عظيمة في قراءته.

كُتبت عن هذا الفكر العظيم، عشرات الآلاف من الدراسات، وعشرات الكتب عن سيرة حياته، إما بلهجة التقديس وإما بروح العداء دائماً، دون أن تكون محايدة قط تقريباً. وما من سطر كتبه إلا وتسبب في مئات الصفحات من التعليقات الغاضبة أو المبهورة. فالبعض جعلوا منه مغامراً سياسياً، وانتهازياً مالياً، وطاغية منزلياً، وطفيلياً اجتماعياً. ورأى فيه آخرون نبياً، وكائناً من عالم آخر، وأول كبار الاقتصاديين، وأب العلوم الاجتماعية والتاريخ الجديد، والأنتربولوجيا وحتى التحليل النفسي. وذهب آخرون أخيراً إلى حد اعتباره آخر فيلسوف مسيحي. واليوم، وفي الوقت الذي يبدو أن الشيوعية امحت أبداً من على وجه الأرض، وأن فكره لم يعد موضوع رهان للسلطة، بات من الممكن أخيراً الكلام فيه بهدوء وجدية، وإذن بما يعود بالنفع.

لقد آن الأوان إذن لتعقب، دون خداع وبطريقة عصرية، مصيره المذهل ومساره الفذ الفكري والسياسي. ولفهم كيف استطاع وهو دون الثلاثين تأليف النص السياسي الأكثر قراءة في تاريخ البشرية؛ والكشف عن علاقاته الغريبة مع المال، والعمل والنساء؛ واكتشاف كاتب الرسائل

الهجائية الاستثنائي الذي كانه. ولإعادة تفسير هذا القرن التاسع عشر الذي نشكل وارثيه المباشرين، المليء بأشكال العنف والنضال والشقاء والمذابح، والديكتاتوريات والاضطهاد، والبؤس والأوبئة، الغريبة عن توهج الرومنطيقية، وشذى الرواية البورجوازية، وطلاءات الأوبرا الذهبية وكواليس الزمن الجميل.

الفصل الأول

الفيلسوف الألماني

مهما صعدنا في سلسلة نسب كارل كاركس، سواء من جهة أبيه أم من جهة أمه، فإننا نجد حاخامات.

ففي بداية القرن الخامس عشر، يغادر المدعو هاليفي مينز ألمانيا هرباً من الاضطهاد. ويصبح ابنه، أبراهام هاليفي مينز المولود نحو 1408، حاخاماً لبادوا. ومن بين أحفاده ماير كاتزينللينبوغن، مدير الجامعة التلمودية في بادوا، وجوزف هاركوهن المتوفى في 1591 بكراكوفي. وفي مطلع القرن السابع عشر تعود هذه العائلة، تحت اسم مينز إلى أرض أصولها لتقيم في تريفز بمنطقة الراين.

وتريفز يومذاك مدينة صغيرة، الأقدم في ألمانيا، أسست من قبل الإمبراطور أوغست عند التقاء ما سيصبح فيما بعد الثقافتين الألمانية والفرنسية. فبعدما كانت المقر الإمبراطوري وإحدى العواصم الأربع للإمبراطورية في عهد ديوكليسيان، وضمت من ثم إلى مملكة فرنسا لدى تقسيم فردان (843)، ثم عادت جيرمانية من جديد، ظلت كاثوليكية بينما حُولت عدة دول ألمانية من قبل لوثر وأتباعه إلى البروتستانتية.

وعائلة مينز إذ أقامت هناك في القرن السابع عشر لن تنتقل منها أبداً. فالذكور يصبحون فيها حاخامات أباً عن جد؛ والإناث يتزوجن بحاخامات يصير أولادهم حاخامات، في تريفز بصفة عامة، وفي منطقة

الراين دائماً. وبما أن من المتعذر العيش من الكهنوت، فهم خياطون ونجارون أو مرابون. وهكذا نجد في مطلع القرن الثامن عشر المدعو آرون لفوف، حاخاماً في تريفز ثم في ويستوفن في الألزاس. ويخلفه ابنه جوشوا هيرسيل لفوف حاخاماً لتريفز؛ وابنة هذا الأخير إيفالفوف تتزوج بحاخام آخر من المدينة، وهو مردخاي ماركس ليفي، الحاخام منذ 1788 وابن حاخام آخر في المدينة، وهو ماير ماركس ليفي الذي جاء من سارلوي، وهي مدينة في السار كان فوبان حولها إلى قلعة، حيث كان يحمل اسم ابراهام مارك هاليفي. فلا يرجع تحويل «مارك» إلى «ماركس» إذن إلى خطأ في كتابة الاسم في شهادات الأحوال المدنية فقط.

وتريفز يومذاك كاثوليكية تماماً إلى الحد الذي يتكلم غوته الذي يقيم فيها عنها على هذا النحو: «داخل أسوارها، تزدحم - ولا تختنق - بالكنائس والبيع والخلوات ودور الرهبانيات أو جماعات الأديرة؛ وخارجها تُحبس - ولا تحاصَر - من قبل مصليات ووقفيات دينية وأديرة».

وتظل المنطقة موضع تنازع بين مملكة فرنسا وبعض الدول الألمانية. أما اليهود فقليلون فيها ويعيشون في فقر مدقع؛ إذ لا تزال كل المهن تقريباً محظورة عليهم بما فيها الزراعة. والكثير منهم مرابون، لأن الإقراض هي المهنة الوحيدة المفتوحة على مصراعيها أمامهم، ويضطرون أحياناً لممارستها.

وبينما تبنى في فرنسا أمة حديثة، ليست الإمبراطورية الرومانية الجرمانية المقدسة بعد إلا كونفيديرالية من الإمارات المستقلة الموزعة نتيجة لتنافس الدولتين الأكثر قوة: بروسيا والنمسا. فلا الشعب الذي أبقي في الأمية، ولا الأمراء المنشغلون فقط بمصالح أسرهم الحاكمة، يهتمون بفكرة الأمة. وفقط بعض التجار والفلاسفة وبعض الشعراء يحلمون بتوحيد ألمانيا.

وعندما تبدأ الثورة الفرنسية، تضحي تريفز ملاذاً

للأرستقراطيين، وموقعاً متقدماً للرجعية، وطليعة لكوبلانس[1]. حيث يلتقي جيش كونديه مع الكتائب البيضاء؛ ويحيك المهاجرون مؤامرات لا حصر لها. ومع ذلك، لقيت جيوش الثورة في 1794 بالمدينة، بعد انتصارها على الجيوش الملكية نتيجة لهجوم معاكس صاعق، استقبالاً حماسياً. إذ كان شباب مفتونون بمثل الديمقراطية يرقصون فيها حول شجرة للحرية. وتصبح تريفز مركزاً لمحافظة السار الفرنسية، ويقدم من باريس موظفون لإدارتها، وسينشئ بعض الأعيان نادياً لليعاقبة.

كان اليهود في المدينة يعدون عندئذ نحو ثلاثمائة. ومع وصول الفرنسيين، يأملون في الحصول على التحرر السياسي الذي استفاد منه أخوانهم الفرنسيون منذ المجلس التأسيسي. وفي 1801 تؤكد فرنسا سلطتها على المدينة عندما يحصل القنصل الأول بونابارت من النمسا على الضفة اليسرى من الراين.

في مواجهة الإمبراطورية النابليونية، تنهار الإمارات الألمانية الواحدة بعد الأخرى. وما إن تنهزم بروسيا والنمسا في 1801 ويتم احتلالهما، حتى يعمد نابليون إلى حل الإمبراطورية المقدسة.

وبينما تجري هذه الأحداث، يتهيأ صموئيل، أحد ابني مردخاي ماركس ليفي، لخلافة أبيه حاخاماً لتريفز، ويموت ماير ماركس ليفي في 1798. أما ابن مردخاي الثاني، هيرشل، المولود في 1777 - وكان أبوه عندئذ حاخاماً في سارلوي - فلم يكن يميل إلى الكهنوت؛ حتى إنه شديد البعد عن الدين. ذلك أن الثورة الفرنسية أثرت فيه بقوة إبان مراهقته. ففي 1799، يذهب، بموافقة والده المتحفظة - وهو أحد أوائل اليهود في منطقة الراين - لدراسة القانون بالفرنسية في جامعة ستراسبورغ، حيث يتشرب روح الثورة وقوانينها، إذ يريد أن يصير محامياً، وبخاصة للدفاع عن اليهود ضد أي اعتداء. وهو الوحيد من

---

[1] مدينة في ألمانيا تجمع فيها المهاجرون الفرنسيون بعد الثورة في 1792. المترجم.

مدينته. فيهود فرنسا يستطيعون منذ وقت قصير ممارسة هذه المهنة؛ وليس يهود تريفز بعد.

وعلى غرار كل يهود الإمبراطورية النابليونية، دعي يهود تريفز لتعيين مندوبين إلى المجلس الذي جمعه في باريس بورتاليس، وزير الأديان، في 26 تموز 1806، لتحديد وضعية يهود الإمبراطورية. وهيرشل ماركس ليفي الذي لا يزال طالباً في ستراسبورغ، مثل غالبية أبناء دينه، معجب دون حد بنابليون. أفلم يكتب سفير النمسا في باريس، الآونة ذاتها، في أيلول / سبتمبر 1806 إلى وزير الخارجية في فيينا، الكونت ستاديون، قائلاً: «يرى كل اليهود في نابليون المسيح المنتظر»؟

وفي 1807، بينما كان دافيد ينهي (تتويج نابليون) وينشر هيجل في برلين (فينومينولوجيا الفكر)، أُدخل القانون المدني إلى منطقة الراين. وبعد عام من المناقشات، صدر في 17 آذار / مارس و20 تموز / يوليو نظام أساسي يحدد وضع اليهود: إذ حُددت صلاحيات المحاكم الحاخامية بالمسائل الدينية، ويصبح اليهود مواطنين مثل غيرهم: فعليهم حمل اسم عائلي، ويستطيعون شراء أراضٍ، والزواج بحرية، وبخاصة يستطيعون ممارسة المهنة التي يختارونها، وهو تحرر عظيم يهم هيرشل في المقام الأول. لكن يحظر عليهم مغادرة البلد الذي يعيشون فيه، كما يحظر على اليهود الأجانب عن الإمبراطورية الإقامة فيها إلا إذا حصلوا على ملكية زراعية أو استُخدموا فيها. وبصفة أكثر دقة، لا يستطيع أي يهودي غير مقيم في الراين الأعلى أو الراين الأسفل أن يأتي للإقامة فيهما بما أن أعداد اليهود فيهما كبيرة. وفي المقابل - وهي نكبة بالنسبة ليهود تريفز - حظرت عليهم مهنة المرابي، وهي المهنة الوحيدة التي تجعلهم على اتصال مع جماعات السكان الأخرى، كما حظرت على أي كان، باعتبار الإقراض مقصوراً منذئذ على المصارف. فيستطيع هيرشل، بعبارة أخرى، ممارسة المهنة التي يريدها، لكن في تريفز وليس في أي مكان آخر من الإمبراطورية. ويلاحظ هيرشل ماركس ليفي أيضاً أن منع اليهود من

إقراض المال، وهو ما يعني حرمانهم من وسيلة عيشهم، قد يتسبب في نشوء روح الانتقام، والريبة إزاء حقوقهم الجديدة كمواطنين.

ويحاول بعض الحاخامات في منطقة الراين، ومنهم مردخاي ماركس ليفي وابنه صموئيل منع أعضاء طائفتهم من عرض النزاع أمام المحاكم الإمبراطورية. لكن بلا لاجدوى: فالنفاذ إلى العمل والدخول إلى الجامعات، والعلاقات مع المسيحيين تبعث الاضطراب في القواعد والعادات. فالشباب المتحمسون للعهد الجديد، المفتونون بالعلم والديمقراطية، والفلسفة والحرية، أكثر ما يخشونه هزيمة للإمبراطورية تحرمهم من حقوقهم الجديدة.

أما هيرشل ماركس ليفي، فيستطيع من جهته الأمل في ممارسة مهنة المحاماة التي يحلم بها. فيصبح دون شك ملحداً بصورة أكثر علنية. ويُعد على كل حال متخصصاً ممتازاً في قانون نابليون الذي يدخل، شيئاً فشيئاً، حيز التطبيق بكل أبعاده في منطقة الراين كما في بقية الإمبراطورية. وفي 1810 - وهو في الثالثة والثلاثين من عمره - يستقر محامياً في تريفز، حيث أصبح أخوه صموئيل حاخاماً لدى وفاة أبيهما مردخاي. وهو أول يهودي محامٍ في المدينة. وهناك محامون يهود آخرون أيضاً في كولونيا، أول مدينة في منطقة الراين، حيث اليهود أكثر عدداً وأكثر ثراء وأفضل قبولاً مما هم في تريفز. وينضم إليهم بعض اليهود من منطقة الراين في ممارسة مهن جديدة: فيصبحون صحافيين، وقضاة، وضباطاً، ومهندسين، وكيميائيين، وصناعيين، ورسامين، وموسيقيين، وروائيين أو شعراء. وعلى قدر ما يكون النشاط جديداً يجذبهم، لأنه ما من سلطة ولا فئة تكون احتكرته بعد، بعكس مهنة المحاماة. وقد أفلح البعض على الرغم من الخطر في مغادرة منطقة الراين إلى باريس حيث كانت ممارسة هذه المهنة الجديدة لا تزال أكثر يسراً.

في تشرين الثاني / نوفمبر 1812، وبينما يغرق جيش نابليون الكبير في البيريزينا، تتذمر شعوب الإمبراطورية أكثر فأكثر من وطأة

الضرائب ومن التجنيد الإجباري. إذ يُقتل فلاحو الموزيل وحرفيو تريفز بأعداد كبيرة، مثل الكثير غيرهم خلال محن الجيوش الإمبراطورية. وينذر اللهيب الثوري بالانطفاء، كما يضعف الألق البونابارتي، ليحل العداء محل عدم الاكتراث. لكن اليهود، من جهتهم، يظلون من بين آخر المساندين للإمبراطورية، حتى إنهم يتهمون أحياناً بأنهم جواسيس لنابليون. وبالفعل، يحمي بعضهم فلول قوات الإمبراطور أثناء انسحابها من روسيا.

وهم على حق في مساندته: فسقوط نابليون يؤذن ليهود أوروبا بأوقات عصيبة. ففي غضون كل هذا الوقت، أبقى فريدريك - غليوم الثالث، ملك بروسيا، الإلزام المفروض على اليهود باعتناق المسيحية من أجل ممارسة مهنة حرة أو وظيفة حكومية. أما المرسوم البروسي الذي ألغى من حيث المبدأ بعض الإجراءات التمييزية، فاتحاً أمامهم المدارس والجامعات، فلم يطبق قط. وكذلك الأمر من جهة أخرى في النمسا وروسيا.

في 22 تشرين الثاني / نوفمبر 1814، بُعيد نفي نابليون إلى جزيرة إلب، وافتتاح مؤتمر فيينا، يتزوج المحامي هيرشل ماركس ليفي، وهو في السابعة والثلاثين من عمره، في كنيس تريفز التي لا تزال تحت الإدارة الفرنسية، من يهودية هولندية في السادسة والعشرين، هي هنرييتا بريسبورغ.

تنحدر هنرييتا من عائلة يهودية ذات أصل هنغاري، استقرت منذ وقت طويل في هولندا، حيث يتمتع اليهود، منذ مغادرة الإسبان، بحرية دينية واقتصادية فريدة في أوروبا. كان جدها لأمها حاخاماً في نيميغ؛ ولا يزال أبوها فيها تاجراً ناجحاً؛ وقد تزوجت إحدى أخواتها لتوها مصرفياً يهودياً من المدينة، هو ليون فيليبس، الجد الأكبر لمؤسس الشركة المعروفة بهذا الإسم. تعرف هنرييتا القراءة والكتابة بالهولندية، وهو ما لم يكن مألوفاً لدى امرأة آنذاك؛ ولا تتقن الألمانية التي تعلمتها

عن طريق اليديش التي تتكلمها أيضاً، ككل الأسر اليهودية التي قدمت من الشرق.

تتلقى هنرييتا لزواجها مهراً مقداره 4536 تالِر، أي ما يعادل راتباً محترماً لمدة خمسة عشر عاماً. ويقيم الزوجان الشابان في تريفز بمنزل جميل، عنوانه 664 بروكنشتراس (الرقم 10 اليوم).

في كانون الثاني / يناير 1815، سكان المدينة الأحد عشر ألفاً الذين كانوا احتفلوا بمجيء الفرنسيين، يستقبلون القوات المتحالفة كمحررين. وتُضم تريفز إلى بروسيا. والأكثر فرحاً هم اللوثريون الثلاثمائة في المدينة، من دين الحكام الجدد نفسه. ويعامل البروسيون المنطقة بارتياب؛ إذ يُرسل إليها موظفون من مستوى عالٍ مع تعليمات باحترام الخصوصيات المحلية: فلا يعاد النظر في بيع الممتلكات الوطنية: ويظل قانون نابليون فيها مرعي الإجراء؛ وتحتفظ فيها المحاكم بالإجراءات العلنية والشفاهية. ولا تحكم بروسيا منطقة الراين إلا عن بعد. وفي 1815، لدى اختتام مؤتمر فيينا، ينشئ المنتصرون «كونفدرالية جيرمانيه»، كتحالف بين أمراء وليس بين دول وطنية، يحل محل الإمبراطورية المقدسة السابقة. والهيئة المشتركة الوحيدة هي الدييت دون سلطات الذي يجمع في فرانكفورت تحت رئاسة نمساوية مبعوثين معتمدين من قبل التسعة وثلاثين أميراً وحاكماً للدول الألمانية المختلفة.

وفي كل مكان يَنقض التحالف المقدس الترتيبات المتصلة بتحرير اليهود: حيث يعادون إلى الغيتو في فلورنسا كما في فرانكفورت. وفي منطقة الراين التي عادت بروسية، منعوا من شراء الأراضي، ومن الزواج بحرية، ومن اختيار مكان إقامتهم، وممارسة المهنة التي يختارونها. ويجب على اليهود النادرين الذين عينوا أثناء النظام الفرنسي في وظائف رسمية، التخلي عن خدمة الدولة. وفي تريفز بالخصوص، ثلاثة يهود شملهم هذا الإجراء، منهم هيرشل ماركس ليفي.

وقد كان ينتظر ذلك: فمنذ أخذت الإمبراطورية الفرنسية تترنح،

كان يعلم أن الحلم سينتهي، وأنه سيفقد الحق الذي افتكه بصعوبة في ممارسة المهنة الوحيدة التي عرفها وأحبها. وهو لا يستسلم، ويبحث عن دعم، ويريد الحصول على استثناء، ويطرق جميع الأبواب.

بُعيد معركة واترلو، نهاية شهر حزيران / يونيو 1815، يتوجه هيرشل ماركس ليفي إلى اللجنة التي كلفها البروسيون في تريفز بتنظيم نقل السلطات بين الحكام السابقين والحكام الجدد: إذ يبين في مذكرة أنه مواطن صالح، وأنه سيكون مخلصاً للملك؛ معبراً عن ثقته بعدالة بروسيا، ملتمساً استثناءً. فينقل رئيس اللجنة التماسه إلى برلين، ناصحاً سلطات الاحتلال بالموافقة وهو يقدم هيرشل كـ«رجل واسع الثقافة، عالي الهمة، شديد الإخلاص». إلا أن الجواب يتأخر، ثم يصل بالرفض. إذ لا محاباة في المعاملة! وجميع اليهود في كل الولايات الألمانية مستبعدون من المهن الحرة.

ومثل كل اليهود في الإمبراطورية الفرنسية السابقة، على هيرشل ماركس ليفي إذاً أن يختار بين مهنته ودينه.

وكثير من يهود منطقة الراين الذين واجهوا المأزق نفسه يختارون التحول عن اليهودية، إلا أن هيرشل يتردد: فهو متزوج منذ وقت قصير، وقد وضعت زوجته لتوها - طفلة - وتنتظر مولودها الثاني. وهو لا يتخيل نفسه يمارس مهنة أخرى من المهن التي ظلت مرخصاً بها لليهود. إنه مؤمن، ولكن ليس بإله اليهودية هذا، بكل خصوصياته، بل بإله مجرد يخاطب العلماء أكثر مما يكلم الكهنة. ومنذ وقت طويل لم يعد يذهب إلا لماماً إلى كنيس أخيه، حيث يرى أن طقوسه عتيقة. وكان يجد نفسه بشكل أفضل في يهود هامبورغ الذين يؤدون الصلوات بالألمانية، ولم يعودوا يذكرون لا العودة إلى صهيون ولا نزول المسيح، ولا تضحيات الهيكل، حتى أنهم يقيمون الصلاة الأسبوعية الأحد. لكن أخاه، حاخام المدينة، يتوسل إليه أن لا يخون شعبهما، وأن يوفر على أمهما المريضة هذه البلية.

وهيرشل يتردد، ثم يتخذ القرار: فلن يتحول عن اليهودية. ويتوقف عن ممارسة نشاطه في المحاكم، ليعيش من معونات أسرته. ويواصل أصدقاؤه المسيحيون رؤيته. ويستمر في الأمل وفي بذل الجهود. فيتعرف على الموظفين الجدد الذين قدموا من برلين لتنظيم انتقال السلطات؛ وأولهم البارون لودفيغ فون ويستفالن الذي يحاول مساعدته، دون جدوى. هذا البارون أرستقراطي فريد من نوعه، كان أبوه المرافق العسكري للدوق برونسويك أثناء حرب السبعة أعوام، وزوجته الثانية كانت ابنة راعي كنيسة اسكتلندي متحدر من عائلة الأرجيل الكبيرة. ويتلقى هذا المثقف والأب لسبعة أطفال دون ثروة شخصية الراتب الأعلى في المدينة: 1800 تالر سنوياً.

ويمسي وضع هيرشل المالي حرجاً. وتموت ابنته الأولى قبيل ولادة أختها صوفي، في 13 تشرين الثاني / نوفمبر 1816، أي بعد بضعة أسابيع من اجتماع الدييت الجرماني الأول في فرانكفورت. فيفكر لحين في الذهاب إلى فرنسا، حيث استطاع اليهود، في الظاهر على الأقل، الحفاظ على حقوقهم، لكن لم يرخص له بذلك. ولا يرى لا أين ولا كيف سيتمكن من ممارسة مهنته، كما لا يتخيل نفسه مغادراً هذه المدينة التي تربطه بها الكثير من الروابط، أو عالة على المعونة الأسرية إلى ما لا نهاية.

ولدى وفاة والدته، السنة التالية، لم يعد هيرشل قادراً على الاحتمال. فيقرر التخلي عن اليهودية ويستبدل باسم هرشل ماركس ليفي اسم هنريش ماركس. لكنه لا يقاطع طائفته مع ذلك، وأخاه بالخصوص. وحتى يبين أن اعتناقه المسيحية هو لغاية سياسية ليس إلا، وأنه مؤقت دون شك، لا يختار الدين السائد في المدينة، أي الكاثوليكية، بل اللوثرية، دين الحكام في برلين، التي لا تعد إلا ثلاثمائة عضو بين السكان الأحد عشر ألفاً، وإذن ليس أكثر من عدد اليهود. ويعود إلى المحاماة. وسيستمر طوال حياته بتأمين الدفاع عن يهود

منطقة الراين، والاحتجاج على الظلم الذي يشعر بأنه ضحيته هو نفسه، على غرار اليهود الألمان الآخرين.

وولد كارل ماركس. وفي تلك السنة ينشر شوبنهاور (العالم كإرادة وكتمثل) وتنشر ماري شيللي روايتها (فرانكشتاين) التي ستؤثر قراءتها بعد خمسة وعشرين عاماً كثيراً على الشاب كارل. وفي تلك السنة يعيد المستشار هارونبرغ، رئيس الحكومة، تنظيم بروسيا إلى ثماني محافظات ويُقر تعريفات جمركية جديدة تسمح بازدهار كروم العنب في منطقة الراين. وتشجع برلين من جهة أخرى أهل تريفيز على عقد الصلة مع ماضيهم، وتدعم بسخاء أعمال التنقيب التي يقوم بها في أوقات فراغهم أطباء ومحامون وأساتذة: كوسيلة لمنعهم من الاهتمام أكثر من اللازم بالتعطش إلى الحرية.

لكن هذا التعطش على أشده في أماكن أخرى: ففي العام التالي عبر الأطلسي للمرة الأولى مركب يسير بالبخار، هو (السافانا)، في ثمانية وعشرين يوماً، بينما تضم مظاهرة من أجل الإصلاح والحقوق المدنية ستين ألفاً من الناس بالقرب من مانشستر؛ ويتسبب قمعها في ستة قتلى.

عاد هيرشل محامياً ناجحاً؛ وتستعيد عائلته اليسر المادي، فينقل مسكنة في تشرين الأول / أكتوبر إلى منزل مريح في 1070 سيمونشتراس (الرقم 8 اليوم)، بالقرب من لابورتا نيغرا.

في 1820 - سنة نشر (إيفنهو) للسير والترسكوت، الذي سيصبح أحد الكتب المفضلة لدى كارل - تولد طفلة ثالثة، هي هنرييت. ويصير هنريش ماركس محامياً لدى محكمة الاستئناف التي أقيمت لتوها في تريفز. وباعتباره مولعاً بالشأن العام ومحباً للديمقراطية في ألمانيا حيث الشرطة حاضرة في كل مكان وقد تقود أي عثرة لسان إلى السجن، يؤسس مع بعض الأصدقاء - ومنهم هوغو ويتينباخ، أستاذ الفلسفة، ومدير لثانوية فريدريك - غليوم في تريفز، نادي كازينو، وهو حلقة

يجتمع فيها البورجوازيون المتنورون في المدينة. فيرتبط فيها بالبارون لودفيغ فون ويستفالن وبأكبر التجار الكاثوليك في المدينة. ويصبح الجميع زبائن له. كان يجري الحديث في هذه الحلقة بحذر في الفلسفة والأدب، وحتى في السياسة. ويناقش صنع أول مدخرة حرارية - كهربائية من قبل فيزيائي ألماني هو توماس سيبيك، وفي السنة التالية 1821 إنشاء أول مصنع بمانشستر للأقمشة المشمعة من قبل المدعو ماكينتوش.

ويرى طفلان آخران النور ضمن الأسرة: ذكر هو هيرمان في 1821، وأنثى أخرى هي إميلي في 1822. وفي السنة التالية، يناقش هنريش في نادي كازينو حركة رأي عام قوية في إنجلترا حصلت لتوها على مصادقة على قانون يشرعن اتحادات العمال أو تحالفاتهم، ويسمح بالإضراب.

بعد سنتين - في 1824، سنة صنع أول محرك كهربائي في لندن -، يتخذ هنريش، على الرغم من معارضة زوجته، القرار بتعميد أبنائه الأربعة في معبد لوثري بالمدينة. فالقطيعة مع اليهودية تامة منذئذ: إذ لم يعد يعتقد بعودة ممكنة إلى دين أجداده سواء بالنسبة له أم لأبنائه. ذلك أن الحكم المطلق، كما يظن، باقٍ هنا لوقت طويل.

ولولعه بالأدب والفلسفة والعلم، فإنه يهتم بالإفادة من فُرجات الحرية النادرة المتاحة له. ففي 1824 يتلقى بانبهار إقامة أول خط حديدي في إنجلترا. كما يناقش بحماس في ناديه، إنشاء أول جماعة بالقرب من نيويورك تدعى «اشتراكية» انطلاقاً من كلمة ابتدعها قبل ثلاث سنوات المدعو إدوارد أوبن في رسالة وجهها إلى روبيرت أوين، مؤسس الجماعة المذكورة. هذا الأخير المولود في ويلز، ذهب إلى الولايات المتحدة في 1824 لتأسيس «انسجام جديد» New Harmony، يقوم على مبدأ المساواة والاستقلال.

ويناقش أيضاً أعمال الكونت سان سيمون، الذي يتوفى تلك السنة. وهو مفتون بنظريته في «الطبقات الاجتماعية» التي تقابل غالبية من

العمال المستغَلين بأقلية من المستغِلين البطالين، وبالملاك ذوي الريوع وكل الذين لا ينشطون عموماً. ويعجب بفكرته في «مجلس للأنوار» مكون من علماء وفنانين وحرفيين ورؤساء منشآت اقتصادية. حتى إنه يتحدث بشأنها مع كارل، ابنه، وهو عندئذ في السابعة من عمره، إذ يقيم معه علاقات قوية، راشدة. ذلك أن الطفل كما يبدو يتحلى بشخصية استثنائية؛ تدهش أيضاً أختيه اللتين ستتحدثان فيما بعد عن إعجابهما بموهبته كراوٍ. وستنقل إليانور، ابنة كارل، عن عمتيها وصفهما لكارل طفلاً كمستبد، وهو يجعلهما تهبطان من تلة ماركوسبيرغ راكباً على ظهريهما، أو يجبرهما على ازدراد «حلوى» يصنعها بيديه القذرتين من عجينة كيفما اتفق، فينصاعان على مضض أملاً في مواصلة الاستماع إلى القصص التي كان يرويها لهما. وكارل بقسماته العادية وبشرته السمراء وصحته الهشة بالأحرى، يبدي حناناً غامراً إزاء أمه. والأسرة الميسورة الحال، المنسجمة، تعيش حياة دون مشكلات حتى الساعة..

في 1826، تصيب أزمة مالية حادة، ناجمة عن فرط الإنتاج الزراعي، أوروبا بأسرها، وفي الحقبة ذاتها، يلتقط نيسيفور نييبس أول صورة فوتوغرافية (منظراً لمنزل أسرته). وتمضي الأيام في تريفز بهدوء. وعائلتا ماركس وويستفالن تتزاوران. وتصبح جيني فون ويستفالن، ابنة البارون، صديقة لصوفي ماركس، وتلتقي بأخيها كارل في المدرسة مع أخيها هي، إدغار. وكانت في الثانية عشرة بينما كان كارل في الثامنة.

في 1927، بعد وفاة بيتهوفن بشهر، ووفاة غويا بعام، يهلل هنريش لافتتاح أول خط حديدي فرنسي بين سانت إتيين وأندريزيو. وفي السنة ذاتها يموت صموئيل ماركس ليفي، حاخام تريفز، وشقيق هنريش وعم كارل. ولأول مرة منذ قرون، لن يكون حاخام المدينة من أفراد العائلة. أما هنريش فهو مؤمن بالدين الطبيعي صراحة.

في السنة التالية، يناقش نادي كازينو مسألة إلغاء الرق في ولاية نيويورك، وإخفاق جماعة أوين الأمريكية الاشتراكية الناجم عن

انشقاقات داخلية. وهنريش الذي يعجب بفرنسا ويتابع كل ما يجري فيها، يُسر برؤيتها تعود إلى المسرح الدولي: فتحت حكم شارل العاشر، تعبر عشرة مراكب حربية البحر المتوسط لمساندة ثورة اليونانيين؛ وبتحالفها مع الإنجليز والروس تحرز فرنسا نصراً في نافاران على الأسطول العثماني.

في 1829، يحيي هنريش صنع ستيفنسون أول قاطرة مخصصة لنقل المسافرين. ويتنبأ مثل سائر أعضاء نادي كازينو بأن السكة الحديدية ستشكل ثورة في أوروبا، وهو يترقب بتشوق أية علامة على عودة ريح الحرية: فيهلل لإنشاء عمال الخزف في ليموج، أول جمعية للتضامن، ويعلم من أوغست بلانكي وأيوجين كافينياك، عن تأسيس جمعية تود أن تكون سرية هي «جمعية أصدقاء الشعب» التي تجرؤ على النضال من أجل الجمهورية. وهي أيضاً سنة نشر (الشوان) كأول نجاح لهونوريه دوبلزاك الذي سيصبح فيما بعد الكاتب الفرنسي المفضل لدى كارل، إلى الحد الذي سينوي معه أن يخصص له كتاباً.

في تموز / يوليو 1830، يتابع هنريش بحماس الثورة التي تُضطر شارل العاشر إلى التنازل عن العرش، وتجعل من لويس فيليب الأول «ملكاً للفرنسيين». بينما تتحرك الخطوط في أوروبا: فبلجيكا تنفصل عن مملكة هولندا؛ وفي شمال إيطاليا وبولونيا، وبعض الولايات الألمانية في الجنوب، وفي كولونيا نفسها، تندلع فتن. إذ يطلب أحد تجار إكس لاشابيل، وهو هانسمان، رئيس غرفة التجارة، من فريدريك - غليوم الثالث بسط الهيمنة البروسية على ألمانيا، وإقامة برلمان يمثل فيه «الجزء الأكثر نشاطاً من الأمة»؛ ويذهب إلى حد قول: «لنُلغِ البقايا البائسة للاقطاعية!» ويعتقد هنريش مثل الكثيرين من بورجوازيي تريفز بأن الوقت حان لجمهورية بورجوازية في منطقة الراين طبقاً للنموذج الهولندي، ويعبر عن هذا بشيء من التهور. وفي الوقت ذاته يهلل لافتتاح الخط الحديدي الواصل بين ليفربول ومانشستر من قبل رئيس الوزراء

البريطاني، الدوق ويللينغتون: فالديمقراطية، كما يظن، تشجع كلياً التقدم الاقتصادي.

يبلغ كارل هذه السنة الثانية عشرة من عمره، وهو العمر الذي يهيئ فيه فتيان اليهود، أبناء عمه، حفل بلوغهم الديني (بارميتسفا). إنه يصادف الطائفة اليهودية في المدينة، لكنه لم يعد يخالطها بعد وفاة عمه. وحتى مع علمه بأن أباه اضطر للتحول عن اليهودية حتى لا يتخلى عن مهنته، وأن أمه لا تزال تعد نفسها يهودية وتواصل الذهاب إلى الكنيس، فإنه ينوي الاندماج. وحتى مع قراءته للعبرية التي تلقنه أمه إياها، فهو يرفض صورة اليهودي المرابي التي يستهجنها والده والتي يدرك أنه الوارث لها. ولا يؤمن بإله أمه، ويؤمن بإله أبيه بعض الشيء. لكنه مفتون بالمقابل بعائلة فون ويستفالن، هؤلاء الأرستقراطيون الميسورون الذين يحكمون المدينة دون أن يعملوا حقاً. والفتى إدغار فون ويستفالن أفضل أصدقائه؛ وجيني التي تكبره بأربعة أعوام هي أجمل فتيات العالم بنظره. وهذه تحب أخاها الصغير بحنو، وستتكلم عنه فيما بعد كـ«الأخ الوحيد المحبوب، المثل الأعلى لطفولتي وشبابي، رفيقي العزيز والوحيد».

تعرف تريفز هذه السنة (1830) أزمة اجتماعية حادة وظروفاً اقتصادية صعبة. فالمدينة التي تستمد جزءاً كبيراً من مواردها من الكرمة، تشهد انهيار أسعار الخمر: إذ تنخفض الأسعار بمعدل 90٪ عن أسعار 1818. فينخرط هنريش ماركس في نشاطات مكافحة الفقر بشرائه أسهماً في مستودع عام للأغذية، يستهدف بيع الخبز بسعر مخفض.

ويدخل كارل لثانوية فريدريك - غليوم في تريفز، حيث يكتشف أعمال هنريش هاينه، وهو شاعر يهودي ألماني اعتنق المسيحية، سيلجأ قريباً إلى باريس، وأعمال غوته وإيشيل. ويدرب ذاكرته الاستثنائية بحفظ أشعار عن ظهر قلب بلغات يجهلها.

أما في فرنسا فالملكية تترنح من جديد تحت ضربات الأزمة الاقتصادية. وتتظاهر الجماهير أمام القصر الملكي والتويلري مطالبة «بالعمل وبالخبز»؛ ويثور أربعون ألفاً من عمال الحرير في ليون: فهم يربحون أقل من أجورهم في ظل الإمبراطورية بست مرات. وينشر فيكتور هوغو هذه السنة ذاتها (أحدب نوتردام). ويندلع في فيرجينيا تمرد للعبيد، بينما يؤذن اختراع الحصادة الآلية من قبل الأمريكي ماكورميك بانقلاب في الزراعة العالمية. وفي مرسيليا، يؤسس ثوري إيطالي سابق في المنفى هو غيوسيب مازيني الجمعية السرية «إيطاليا الفتاة» قبل أن يلجأ إلى لندن. وتخفق مؤامرة بألمانيا في غوتينجن. أما في برلين، ولدى وفاة هيجل، عملاق الفلسفة البروسية، تصادر السلطة الامبراطورية المستبدة أكثر من أي وقت مضى كرسيه لمصلحة فيلسوف شاب من إرلانجن هو لودفيغ فويرباخ، جرؤ لتوّه في كتابه (أفكار حول الموت وحول الخلود) على إعلان أن العقل وحده الخالد وليست النفس.

وكما في فرنسا، تستمر في ألمانيا الهزات والانتفاضات المنادية بالحرية. ففي 27 أيار / مايو 1832، يتظاهر أكثر من عشرين ألفاً في نوستاد أمام قصر هامباخ مطالبين بالديمقراطية وبالوحدة الألمانية. وفي 28 حزيران، يمنع ملك بروسيا الصحافة من الكلام في السياسة؛ وفقط (الغازيت) في أوغسبورغ، لتمتعها بمعاملة خاصة، يظل مسموحاً لها نشر رسائل من هاينة أو تيير أو مولتكه. وفي باريس، يستخدم دوجاردان، في سلسلة مقالات نشرت في (لاتريبون)، لأول مرة كلمة «بروليتاريا» للإشارة إلى الطبقة العاملة. وفي هذه السنة، يُذهل عازف بيانو بولوني شاب، التجأ إلى فرنسا منذ التمرد البولوني 1830، باريس بأول حفلة يقيمها في صالة بلاييل، بينما يخلف وباء الكوليرا ثماني عشرة ألف وفاة في العاصمة الفرنسية، بينها وفاة رئيس مجلس الوزراء كازيمير بيرييه.

في 1933، يتلقى المحامي هنريش ماركس لقب «مستشار قضائي» ويصبح نقيباً للمحامين في تريفز، وقد أثرته أعماله إلى حد سمح له

بشراء كرمين للعنب في موزيل، كما يفعل الأثرياء في تريفز. وتقدر ثروة زوجته الشخصية بـ 11136 تالر.

كارل عندئذ في الخامسة عشرة من عمره. ويتكلم دائماً بالقدر نفسه مع أبيه عن فرنسا، وعن اليهودية، وعن الله، وعن الأخلاق، وعن الحرية. ويتخذ البارون فون ويستفالن كارل المراهق صديقاً ويعرفه بشكسبير. ويتكلمان عن هوميروس وسيرفانتس وغوته - الذي توفي لتوه - وعن الكونت سان سيمون؛ عالم الاقتصاد الفرنسي الذي طالما أثنى والد كارل على نظرياته والذي ترك لدى وفاته قبل ثمانية أعوام أثراً عميقاً في مجتمع المثقفين الأوروبيين.

وتظل صوفي أخت كارل الكبرى، الصديقة الحميمة لجيني «أفضل فرص الزواج في تريفز»؛ والشابة مفتونة بوقاحة وسرعة بديهة هذا الصبي الأصغر منها بأربعة أعوام.

في 1 كانون الثاني / يناير 1834، يشير دخول الاتحاد الجمركي الذي أنشئ بمبادرة بروسيا حيز التطبيق إلى وعي بوحدة المصالح الاقتصادية بين الولايات الألمانية التسع والثلاثين المجتمعة ضمن الكونفدرالية. وفي بعض هذه الولايات، ومنها منطقة الراين، يترافق التحرير الاقتصادي ببداية تحرير سياسي؛ حيث تنتخب فيها مجالس برلمانية ذات سلطات ضئيلة.

وأثناء الاحتفال بانتخاب بعض النواب الليبراليين في مجلس منطقة الراين، يقترح هنريش ماركس متهكماً شرب نخب ملك بروسيا، فينقل ذلك مباشرة إلى الشرطة. ويوضع النادي عندئذ تحت المراقبة، ويشار إلى هنريش ماركس على أنه «مثير للشغب»؛ كما يوضع صديقه ويتينباخ، مدير الثانوية، تحت وصاية مدير مشارك عينته الإدارة البروسية.

ينتقد كارل وأبوه طويلاً هذه الإجراءات، كما يتطرقان إلى الاضطرابات العمالية في فرنسا: ففي ليموج، يتوقف عمال الخزف ثانية

عن العمل للاحتجاج على انخفاض الأجور، وتتحول مظاهرات جمهورية إلى مذبحة، في الوقت الذي يتم بلزاك وينشر (الأب غوريو). ويتحدثان أيضاً عن الإلغاء في إنجلترا «لقانون الفقراء» القديم الذي يؤدي إلى السجن، وعن افتتاح الورشات Warkhouses المكلفة منذئذ باستقبال المعوزين. وهنريش يقلق ويتخذ جانب الحذر: إذ يريد أن يكون محامياً، لا أكثر.

في 1834، بعد إخفاق المؤامرة في هس التي دبرتها جمعية حقوق الإنسان، تتقاطر أعداد كبيرة من اللاجئين إلى العاصمة الفرنسية حيث ينضمون إلى لودفيغ بورن وهنريش هاينه الذي يصرح بأنه في باريس «لممارسة فنه في ظروف الحرية الضرورية له». ويستعمل بيير لورو الكلمة المستحدثة «اشتراكية» للمرة الأولى بالفرنسية في آذار / مارس 1834 في نص عنوانه «في الفردانية وفي الاشتراكية»، نشر في (المجلة الموسوعية). ويعرّف لورو «الاشتراكية» بأنها «المذهب الذي لم يضحِّ بأي من عناصر الصيغة حرية - أخوة - مساواة».

وفي 1835، ينشر ألكسيس دو توكفيل الجزء الأول من «الديمقراطية في أمريكا»، بينما تعلن تكساس استقلالها عن المكسيك، ويخترع كولت المسدس ذا الطاحونة، ويفتتح خط حديدي بين سانت اتيين وليون للمسافرين، ويسمح مرسوم ببناء خط باريس - سان جيرمان - ليه. وكارل مفتون أكثر فأكثر بتطور وسيلة النقل هذه، وجيني التي صرح لها بحبه - وهو في السابعة عشرة من عمره - تسخر منه ملقبة إياه بـ«السيد سكة حديدية».

والنصوص الأولى لماركس التي احتُفظ بآثارها هي ثلاثة موضوعات إنشائية، كتبت تلك السنة وهو يتردد على الثانوية. والثالث منها، «تأملات شاب حول اختيار طريقه» هو الأكثر دلالة على الاتجاهات التي سيتخذها في حياته. يرسم فيه صورة ذاتية حساسة، بالغة الأهمية، لا سيما أنه لا يحلل فيها شواغله الشخصية عبر منظور آرائه اللاحقة

حول طبيعة التجربة الإنسانية. يعترف ماركس بأن على الشاب الذي يتهيأ لاختيار مهنة أن يضع نصب عينيه «الواجب، التضحية بالنفس، خير البشرية، وهَم الكمال الذاتي»، وأنه من الخطأ الظن بأن هذه الاهتمامات تتعارض فيما بينها. ويربط إيمانه في تقدم البشرية بمجموعة من ضروب القلق المتصلة بمستقبله. فاختيار مهني سيء، قد يجعل الإنسان تعيساً طوال حياته. زد على ذلك أن الشاب في وقت هذا الاختيار خاضع لضغوط شخصية أولها ذو طبيعة اجتماعية. كما أن بنيتنا الجسمية، يعترف ماركس آسفاً، تشكل أيضاً تحديداً لتطلعاتنا. فمنذ سن السابعة عشرة، يطرح هكذا وجود صراع بين محددات «مثالية» ومحددات «مادية» في الطبيعة البشرية.

في تشرين الأول / أكتوبر من هذه السنة ذاتها 1835، لدى إنهائه دراسات ثانوية بنتيجة أكثر من مشرفة، حيث تعلم اللاتينية والإغريقية والفرنسية وشيئاً من العبرية، أرسل كارل من قبل والده إلى بون لدراسة الحقوق. وهو اتجاه طبيعي: فهناك الجامعة الأقرب التي أسست في 1786، ويدرس فيها ما يقرب من سبعمائة طالب. ومن الطبيعي أيضاً أن يهيء هنريش ابنه لمهنة المحاماة أو الأستاذ في الحقوق. يدعي بعض كتاب سيرة ماركس أن كارل أرسل إلى هناك لإبعاده عن جيني. وهذا ليس صحيحاً: صحيح أن الوالدتين قلقتان من جاذبية مبكرة أكثر من اللازم، ولكنهما ليستا كذلك بأي حال من زواج غير متكافئ، لم يُذكر قط إلا من قبل فيرديناند، أخ جيني غير الشقيق الذي يعيش بعيداً عن تريفز ويكره عائلة ماركس منذ أن علم بأن والده يخالط يهوداً اعتنقوا المسيحية.

في بون، حيث وصل كارل في تشرين الأول / أكتوبر 1835، كانت الحياة الطلابية جيدة التنظيم، وأكثر حرية من أي مكان بألمانيا نسبياً. وعلى الطلاب الجدد، من أجل الاندماج، أن ينضموا إلى إحدى الجمعيات العديدة التي تهيكل الحياة الجامعية. وهي على ثلاثة أنماط: كجمعيات (الكوربس) التي تجمع الشباب من ذوي الأصل الاجتماعي الواحد (مثل

بوروسيا كوربس التي تجمع ورثة الأرستقراطية البروسية)؛ والجمعيات التي تجمع المتحدرين من المدينة نفسها (مثل تريفيرانر كلوب، الذي يجمع طلاب تريفز) والجمعيات المسيَّسة، والمراقبة عليها شديدة.

وفي خطوة ذات معنى، لم ينضم كارل لأول وهلة إلى نادٍ سياسي بل إلى تريفيرانر كلوب الذي يضم عندئذ أكثر من ثلاثين عضواً. ومن سبعة أتوا من تريفيز تلك السنة إلى جامعة بون، أربعة جاؤوا لدراسة الحقوق، والجميع انضموا إلى هذا النادي.

وقد برز كارل في الحال بجلده على العمل وبإشعاعه الشخصي. إذ يعتني بشعره الغزير ويترك لحية صغيرة تنمو. وبتوسطه بالطول والضخامة يتكلم بشيء من اللثغ بلهجة منطقة الراين. ويبدأ بعمل كل شيء بتطرف: العمل، السهر حتى الصباح، ضروب العنف اللفظية والجسدية.. والكحول. فيتردد على الحانات، والمراقص؛ ويتعارك، حتى إنه يحصل على مسدس ليحمي نفسه من منافسيه. وما من مورد لديه إلا ما يرسله أبوه، وينفقه دون حساب على الشراب والطعام والسكن وشراء الكتب. وفي ظرف بضعة أشهر يستدين مبلغاً باهظاً يناهز 160 تالر، اضطر أبوه لتسديده محتجاً بقوة. وهكذا تبدأ علاقة كارل الشديدة التعقيد مع المال، بما فيها من افتتان وكراهية، التي ستفضي به قريباً إلى المرض بمعنى الكلمة. وهكذا يبدأ أيضاً وضعه العمل الإلزامي موضع الاتهام، من أجل كسب العيش. العمل المأجور، العمل المستَغَل. وحتى، كما سنرى، كل انتزاع لشيء من يدي من أنتجه.

فيما كان كارل يمضي شتاء وربيع 1836 في دراسة الحقوق ببون، أنشئت في إنجلترا جمعية العمال اللندنيين التي تطالب بالاقتراع الشامل. ويحصل الأخوان شنيدر، في فرنسا، على السيطرة على أفران كروزو العالية، ويطلق إميل دو جيراردان صحيفته (لابرس)، ويدخل خط باريس – سان جيرمان الخدمة. ويؤسس العامل – الخياط الألماني ويتلينغ في باريس عصبة برينوس.

ويجتهد كارل كثيراً: فإلى جانب دروس القانون ودروس الأدب اللاتيني حول برزبيرس، يكتشف الفلسفة، وأي كشف! لأنها ستكون ميدانه. ومعها يشعر بأنه في أحسن أحواله. ولن يتركها أبداً.

إنه يكتشف على وجه الخصوص هيجل، عَلَم الفلسفة الألمانية المطلق يومذاك الذي يرى أن العقل هو الذي يحكم العالم. وكل حقبة من تاريخ البشرية، بالنسبة له، مرحلة ضرورية لتطور الفكر. «إن الموت - كما يقرأ في مقدمة (فينو مينولوجيا الفكر) - هو الشيء الأكثر مخافة، والصمود بثبات في مواجهة ما هو ميت هو الذي يتطلب القوة الأكبر». ومع ذلك، يواصل «ليست هذه الحياة التي تتراجع رعباً أمام الموت وتحافظ على نفسها نقية من التحطيم، بل الحياة التي تحمل الموت وتتماسك في الموت نفسه هي حياة الفكر». ويضيف هيجل «ينبغي النظر بعين العقل الذي يخترق سطح الأشياء وظاهر الأحداث البراق». وكارل مبهور باكتشاف معنى للتاريخ في هذا الكتاب، التاريخ الذي يدفعه تقدم العقلانية والأخلاق والحرية، متوجهاً نحو هدف يسميه هيجل «الله»، أو «فكرة» أو «الفكر المطلق» أو «المعرفة المطلقة»، كتحقق الحق ومحل الكونية والحرية. والأفراد باعتبارهم أشكالاً للتعبير عن الحرية هم، بالنسبة للفيلسوف، دون إرادة منهم ولا معرفة، في خدمة التاريخ من خلال ما يسميه «خدعة العقل». ودور الدولة، ككيان مثالي ومطلق فوق التاريخ، هو السماح للجميع بالحصول على ما هو ضروري للعيش «بكرامة» والسهر على ألا «يحرم أحد منه، ولا يستعمله أحد بصفة تعسفية» ووضع حد للنزاعات. وسيختفي في نهاية التاريخ «الاغتراب» الذي يعني لدى هيجل (نزع صفة الإنسانية، وخروج المرء من جوهر الإنسان) و(خروج المرء من نفسه، وصيرورته إلى ما ليس هو).

هذا اللقاء مع هيجل سيطبع كارل إلى الأبد. فبوساطته يكتشف أهمية الفكر، الذي يصبح في نظره أول النشاطات الإنسانية، وأكثر أهمية حتى من التماس الخير. وسيشهد بول لافارغ، وهو أحد صهريه: «غالباً ما

سمعته يكرر كلمة هيجل، معلمه في الفلسفة أثناء شبابه: «وحتى الفكر الإجرامي لقاطع طريق، أعظم وأنبل من كل روائع السماء».» فالعلم يسبق الأخلاق. وينبغي أن يكون التحليل الاجتماعي عقلانياً وموضوعياً قبل أن يكون أخلاقياً. وكارل لن ينسى أبداً هذه التعاليم.

هذه السنة، يتراسل كثيراً مع أبيه ومع جيني. فيتكلم مع الأول في القانون والأدب والسياسة، وحتى في الفلسفة؛ ويرد أبوه ناصحاً بالدرس وبتخفيض النفقات. ويثني هنريش في رسائله على كانت مشيراً إلى أن الإيمان بالله – إله «نيوتن ولوك وليبنتز» – عون ثمين وضروري لحياة أخلاقية. ففي رسالة مؤرخة في 1836، يكتب هنريش إلى ابنه:

«إذا شاءت إرادة الله، فلا تزال أمامك حياة طويلة تعيشها لخيرك ولخير عائلتك - وإذا كان حدسي صحيحاً - لخير البشرية». وتوجه هنرييتا ماركس إلى كارل وصايا مؤثرة، ناصحة ابنها بـ«ألا يعد النظام والنظافة كأمور ثانوية»، لأن «الصحة والسعادة ترتبطان بهما»؛ وترجو ألا يحتسي الكثير من الخمر ولا من القهوة، ولا يأكل الطعام الكثير الأفاوية، ولا يدخن، وأن ينام ويستيقظ باكراً، «ويتقي الزكام ولا يرقص حتى يتعافى تماماً».

ويتبادل مع جيني رسائل غرامية؛ والفتاة مغرمة لكنها رصينة: إذ تخشى أن يكون ولع كارل بها عابراً، كحب شباب. فالرجل، كما تعتقد، لا يحب إلا مرة واحدة. وبفهمها اهتمام كارل بهيجل، أخذت الفتاة التي لم تتابع الدراسة، تقرأ بدورها الفلسفة.

يعيش كارل حياة بلغ من اضطرابها أنه حكم عليه في حزيران / يونيو 1836 بالحبس يوماً واحداً بتهمة السكر والصخب ليلاً. وبما أنه يحب دائماً القيادة في كل ما يقوم به، يصبح في تموز / يوليو رئيساً لتريفيرانر كلوب؛ وفي صورة ليتوغرافية التقطت آنذاك تمثل أعضاء هذا النادي وهم يحتفلون في حانة الحصان الأبيض، يمكن التعرف على كارل

وهو يتأمل المشهد بالوقار الواجب لرئيس نادٍ. وفي الوقت الذي ينهي سنته الجامعية الأولى في آب / أغسطس 1836، يثور شجار بين أعضاء بوروسيا كوربس وأعضاء تريفيرانر كلوب. هل هو أول صراع للطبقات..؟ فيجرح ماركس في حاجب عينه اليسرى، وسيحتفظ طوال حياته بأثر هذا الجرح. أبوه غاضب: فعلى المحامي أن يرضى بالكثير من التضحيات لدفع نفقات الدراسة لابنه الأكبر، الذي ينفق هذا المال على السكر والعربدة ويذهب إلى السجن! شيء لا يقبل.

إلا أن كارل درس ما يكفي من القانون لتلقي شهادة نهاية السنة في جامعة بون التي تمتدح «جودة اجتهاده وانتباهه» مشيرة إلى توقيفه لليلة «بتهمة الصخب والسكر». ولدى قراءة هذه الملاحظات يقرر والده جعله يغير الجامعة، لكن كارل يرغب في متابعة الدراسة في بون ليدرس الفلسفة وليس الحقوق؛ ولا يجرؤ على مفاتحة أبيه بذلك. ذلك أن الفلسفة تستمر تلك السنة في النظر إليها بريبة في كل الجامعات الألمانية: إذ تنكر الحكومة البروسية على الفيلسوف الشاب لودفيغ فويرباخ الذي أثار فضيحة قبل عدة سنوات، حق التعليم في الجامعة، وهو ما يدفعه للانضمام إلى مجموعة من الفلاسفة الناقدين الشباب، لقبوا بـ: «الهيجليين الشباب»، يرون أن الدولة البروسية كما هي عليه ليس لديها من المثالي شيء، وينبغي إصلاحها: ولا يجرؤون بعد على التميز عن هيجل، لكنهم يعطون لأنفسهم الحق في تفسيره: فأن يكون المرء «هيجلياً شاباً»، يعني الإيمان بدور العمل السياسي في انتزاع الحرية.

في أيلول / سبتمبر 1836، يعود كارل إلى تريفز لقضاء العطلة. ولا يعرف بعد أن أباه لا يريد أن يتابع دراسته في بون. حيث يلتقي أمه وأباه وأخاه الأصغر المريض هرمان، وأخواته الأربع: كارولين، لويز، إيميلي وصوفي. وسمحت له بداية سل بالإعفاء من الخدمة العسكرية. فيقرر هو وجيني، بعد مكاتباتهما الكثيرة إعلان خطوبتهما. وهنريش لا يرى في

ذلك مشكلة: بل قد يعيد الزواج شيئاً من الهدوء إلى حياة ابنه. لكن هنرييتا تبدي بعض التردد: فكارل جد صغير على الزواج - في الثامنة عشرة من عمره - وجيني في الثانية والعشرين، ومعتادة على مستوى معيشة لن يستطيع كارل تأمينه لها.

أما البارون فون ويستفالن المفتون بكارل، المبهور بطاقاته وثقافته، فهو موافق من جهته على اقترانه بجيني. لكن فرديناند، الأخ غير الشقيق، وهو عندئذ المستشار الأول للحكومة في تريفز، يبذل قصاراه لمعارضته؛ إذ يطلب من الشرطة البرلينية تقريراً عن حياة ونشاطات صهره المستقبلي ويبلغ البارون بمغامرات كارل في بون. لكن البارون لا يكترث بها. فيُحتفل إذاً بالخطبة، مع القرار بأن الزواج لن يتم إلا حين يعثر كارل على وظيفة ثابتة. بعد ذلك بوقت طويل، ستكتب إحدى بنات جيني: «كان أبي يقول إنه كان يومذاك نوعاً من رولاند هائج. لكن المسألة سرعان ما سويت، وجرى قبوله خطيباً قبل سن الثامنة عشرة سنة».

وبما أن الوالد يأمل دائماً أن يصير كارل مثله محامياً في تريفز أو على الأقل أستاذاً للقانون، فإنه يرسله لمتابعة دراسته في برلين. وهناك سيبقى خمسة أعوام على الأقل. وسنرى عندئذ ما ستصير إليه هذه العلاقة.

في هذه المدينة الصارمة، الشبه ريفية، يظن هنريش أن ابنه سيتعرض إلى إغراءات أقل من بون. لكن العكس هو الذي سيحدث: فالتعصب الذي يسود فيها سيجعل منه متمرداً.

تعد عاصمة مملكة بروسيا آنذاك 190.000 نسمة. وجامعتها التي أسست في 1810 كرد فعل على الاحتلال الفرنسي، موضوعة عندئذ تحت رقابة شديدة، وبخاصة ما يتصل بتخصصي الحقوق والفلسفة. وتستخدم الفلسفة الهيجلية ضماناً إيديولوجياً لهذه السياسة التسلطية. إلا أن فلاسفة شباب ينشقون عنها: فهم يشاطرون أساتذتهم المسلمة المؤسِّسة للجدلية الهيجيلية التي تقول بأن «كل ما هو واقعي عقلاني وكل ما هو

عقلاني واقعي». غير أنه في الوقت الذي يشدد المحافظون حصرياً على الجزء الأول من القضية، يلح الشباب التقدميون على الثاني. علاوة على أن الصحافة في برلين مكممة الأفواه، ولا صوت للجمعيات الطلابية.

في 22 تشرين الأول / أكتوبر 1836، يكتري كارل غرفة ببرلين في 61، ميتيلشتراس، قريباً من جامعة فريدريك - ويلهلم. وليس معه إلا القليل من المال، والغرفة رطبة؛ فيقع مريضاً. إنه يقرأ، ويشرب، ويكتب إلى جيني قصائد ملتهبة (لا أقل من مائة واثنتين وخمسين، في دفتر من مائتين واثنتين وستين صفحة أرسل بمناسبة عيد ميلاد 1836). «لقد كان يمتلك خيالاً شعرياً لا مثيل لثرائه»، سيقول أحد صهريه: «أول أعماله الأدبية كانت أشعاراً. وكانت السيدة ماركس تحتفظ بعناية بأعمال شباب زوجها، لكن لم تكن تريها لأحد». ونعلم من خلال مراسلاته مع أبيه الذي كانت له معه شراكة فكرية استثنائية كل شيء عن قراءاته تلك السنة: شيللر، غوته الـ(لاوكون) لليسينغ، وكتّاب متنوعون نُسيوا اليوم بالنسبة للبعض (هينسيوس، تيبو، الـ«الإروين» لسولجر)، (تاريخ الفن) لوينكلمان، (التاريخ الألماني) للودنف. ويترجم إلى الألمانية الـ(جيرماني) لتاسيت، والـ(تريستيا) لأوفيد، ومجموعتين في التشريع اللاتيني. ويتعلم الإنجليزية والإيطالية لوحده، حتى دون كتاب في القواعد. ويشرع في تأليف رواية تاريخية، هي (سكوربيون وفيليكس) ويوقفها بعد عدة فصول، ومأساة هي (أولانام) لا يؤلف منها إلا مشهداً يرسله إلى أبيه. ويريد أن يكون كاتباً وفيلسوفاً وشاعراً؛ وقبل كل شيئ ذائع الصيت، معروفاً في العالم أجمع. ينام قليلاً ويعمل دون كلل، يشطب، يعيد الكتابة. وهو يعرف أن ما يكتبه ليس جيداً، وأن الحياة والحماس غائبان عن صفحاته. وييأس إذ لا يجد قيمة لشعره. فينتهي إلى الظن بأنه ليس موهوباً للكتابة.

وهنا تظهر سمة في طبعه سترافقه طوال حياته، وستؤثر بعمق في أعماله. هي استحالة عد أي مخطوط منتهياً، حيث ينزع منه العمل نزعاً. وهو ما سيجعله يستنتج أن العمل يؤدي إلى الاغتراب.

وخلال سنوات الدراسة هذه في برلين بُدء بتسميته بصفة معتادة «المغربي» Le Maure وستظل هذه الكنية اللقب الأثير لديه. وهو راجع بالتأكيد إلى بشرته السمراء، لكنه تلميح أيضاً إلى يهوديته فلم يكن البرلينيون في 1830 يعرفون المغاربة إلا من الأدب، وأشهرهم عطيل: وشكسبير عندئذ يلقى الرواج، وماركس مولع به بعدما عرّفه والد زوجته المستقبلي به. كما يوجد مغاربة أيضاً في بعض مسرحيات شيللر، وشخصية من (قطاع الطرق)، هو كارل فون مور (مع أنه ليس مغربياً)، أحد أعظم الأبطال الرومنطيقيين، ونوع من مقيم العدالة ذي القلب الكبير، اضطر للعنف نتيجة خيانة أخ له. والمسرحية التي كتبها شيللر في الثانية والعشرين من عمره وتشكل صدى لـ(آلام فيرتر) لغوته، المأساة الأخرى لتمرد المراهقة، ذات مغزى. إذ يقول «إن عيوب المجتمع تمنعه الإفادة من فضائل أفضل أعضائه». ويتماهى كارل مع الشاب كارل فون مور بعلاقاته العاصفة والحانية في آن مع أبيه التي تشابه علاقات كارل من هنريش ماركس.

من أساتذة «المغربي» في الحقوق إدوارد جين، فريدريك كارل فون سافينيي، وبرونو برير بالخصوص، وهو عالم لاهوت بروتستانتي مرتبط بالحركات الليبرالية، تحمله ثقافته الواسعة وبلاغته وتهكمه وإقدامه بصورة طبيعية إلى رئاسة حركة «الهيجليين الشباب» في المدينة، وكذلك رئاسة نادٍ جد مغلق هو الدكتور كلوب الذي يضم الأكثر ميلاً للصراع والأكثر موهبةً من هؤلاء الفلاسفة الشباب. ولا يقدمون فيما بينهم موضوعات للنقاش. فينبغي أولاً بالنسبة لبعضهم، ومنهم بوير، القيام بالثورة في النفوس؛ لأن الإنسان بالفكر سيمارس تأثيراً على العالم. وبالنسبة لآخرين، مثل أدولف روتنبرغ - الذي ما إن خرج من السجن حتى يدعم دخول كارل إلى الدكتور كلوب - يجب التخلي عن التفكير للانتقال إلى الفعل. وتشكل الملكية البروسية بالنسبة للبعض منهم التحقق المثالي للدولة كما عرفها هيجل. أما الآخرون،

فعلى العكس، إذ يرون أن الهيجلية هي في الأساس مذهب الحركة، ولا يمكنهم الإقرار بأن التاريخ قد توقف، وبلغ تمامه في هذه الملكية، وهكذا يزعم اليسار الهيجلي أن هناك بالفعل هيجلين: الحقيقي، الملحد في صميمه، المنتقد للنظام القائم، الذي يكون عبر عن نفسه للمطلعين فقط، وهيجل الرسمي الذي يكون قد أكثر من التنازلات للسلطة السياسية في زمانه. وشباب الهيجليين يدَّعون بطبيعة الحال أن الدولة البروسية لا تتماهى في شيء مع الدولة المثالية والعقلانية التي حلم بها هيجل في بروسيا. والسبب الجوهري في ذلك لديهم هو الدين المطلق القدرة الذي يعرقل نمو الحرية. ذلك أن المعنى العميق والمستور لفكر هيجل هو الإلحاد. فيجب أولاً، كما يقولون، تحرير الإنسان والدولة من سلطان الدين.

يعتقد ماركس مثل بوير و«الهيجليين الشباب» بأن تفسيراً جديداً للعالم ضروري وكافٍ لتغييره. ويتحدث لأبيه آنذاك عن طموحه الأدبي: **«مرة أخرى، كنت أريد الغوص في البحر، ولكن بقصد محدد تماماً هو إثبات أن طبيعة الفكر ضرورية ومحسوسة ومحددة كطبيعة الجسم. ولم تكن غايتي عرض مهارتي بل إخراج لآلئ حقيقية إلى ضوء النهار»**. وفي رسالة من السنة ذاتها، يكتب عن أمه المتفانية بكليتها في سبيل أسرتها، إنها «أم ملاك».

نهاية شتاء 1837، وبعد ستة أشهر من الحمى والسعال في غرفته البرلينية، يكترى كارل بناء على وصايا الطبيب غرفة في الريف، عند أحد سكان سترالو، وهي قرية صيادين على الضفة اليمنى لنهر سبري، تبعد عن الجامعة مسيرة ساعة عبر الغابة. إنه يحاول التعمق في هيجل لكنه يشعر بخيبة الأمل هذه المرة مما يجده فيه: «فلحنه السخيف لا يوحي له بشيء».

وتتكاثر تلك السنة أشكال التقدم التقني، ويعود النمو الاقتصاد إلى الإقلاع في أوروبا. إذ يتم الإنجليزيان كوك وويتستون أول تلغراف

بالتحريض الكهربائي؛ ويودِع الفرنسي إنغلمان شهادة اختراع طريقة للتصوير الليتوغرافي بالألوان.

وينهمك كارل أكثر في كتب القانون لتهيئة امتحاناته: دراسة لسافينيي حول الملكية، مبسوط في القانون الجنائي لغرولمان كرامر، مجموعة القوانين الرومانية: مجموعة قانون جوستنيان تتضمن مختارات من أعمال فقهاء القانون الرومان في العصر الكلاسيكي. يدرس كتب وينينغ - إنغنهايم وكتب مولنبروخ المفسرة لتلك المجموعات. وينهمك في مجلدات القانون المدني والإجراءات للوترياخ، وفي (كونكورديا ديسكور دانتوم كانونم) لغراسيان، وفي (الأنستيتوسيون) للانسيلوتي. يدرس تاريخ القانون الألماني مهتماً على وجه الخصوص بمراسيم ملوك فرانكونيا (شمال - غربي بافاريا) الملكية، وبالمراسيم البابوية. ويترجم جزءاً من (الخطابة) لأرسطو، ويلتهم (دو أوغمنتيس سيانتياروم) لفرنسيس بيكون، وكذلك مؤلَّف هيرمان صموئيل ريماروس حول الغريزة الفنية للحيوانات. وينتهي بالانفصال عن هيجل الذي تتصف إنجازاته حقاً «بعظمة لا حد لها»، والذي اكتشف لديه أهمية مفهوم «المجتمع المدني» لتأسيس نظريته المادية الخاصة، وأدرك انطلاقاً منه بالخصوص ضرورة المضي قدماً ليتمكن من علم جديد هو: الاقتصاد السياسي. فيبدأ عندئذ باكتشاف آدم سميث، آدم فرغسون، دافيد ريكاردو، فرانسوا كيناي، بواغيبيرت..

والكتب تتكدس في غرفته بفوضى عارمة. إذ سيكتب صهره لافارغ: «لم يكن ماركس يسمح لأحد بوضع شيء من النظام - أو بعض الفوضى بالأحرى - في كتبه وأوراقه. لأن فوضاها لم تكن إلا ظاهرية: فكل شيء في الواقع كان في مكانه، وكان يعثر دائماً دون عناء على الكتاب أو الدفتر الذي كان يحتاج إليه. وحتى خلال محادثة ما، كان يقطع حديثه غالباً ليُريَ في كتاب فقرة أو رقماً، ذكره لتوه. ولم يكن يشكل مع حجرة عمله إلا جسماً واحدا، حيث كانت الكتب والأوراق تطيعه كأعضاء جسمه».

وهكذا يبدأ كارل في اكتشاف نصوص فويرباخ، أستاذ الفلسفة الشاب هذا الذي طرد من الجامعة لأنه أثار فضيحة بإلحاده وبنقده لهيجل. وهو منبهر بمن «له الشجاعة ليكون سلبياً تماماً، والقوة لإبداع الجديد»، ويجرؤ على انتقاد هيجل لأنه طرح الوجود كتجريد، وأصر على أن التناقض ضروري لولادة الجديد، مدعياً أن التاريخ سينتهي إلى نظام دون تناقضات.

وهكذا يتلمس طريقه بين هيجل وفويرباخ. يعمل كثيراً، ويكتب بانتظام إلى والده، وجيني، لكنه يخرج أيضاً للعشاء مع أصدقائه، ويتناقش في الفلسفة، ويشرب كثيراً، ويلتقي مع نساء. ولاهتمامه بمقارنة نفسه مع العمالقة، يؤلف حواراً من أربع وعشرين صفحة، (نقطة الانطلاق والاستمرارية الضرورية للفلسفة)، وهو نقد جذري لهيجل، الصنم المحطم، لكنه يجد بعد تفحص أن نصه دون قيمة فيستشيط غضباً ويحرقه مع بدايات رواياته؛ ويهيم دون هدى في الغابات، حتى إنه يقبل مرافقة مالك مسكنه في سترالو إلى الصيد، وهو ما كان يرفضه دائماً.

ويبدأ في التساؤل عما إذا كانت مواهبه حقاً في مستوى مطامح طفولته. يتساءل عن مستقبله المهني. فماذا لو تخلّى عن كل شيء؟ وماذا لو استسلم لحياة الدعة؟ إذ إن كثيرين فعلوا ذلك قبله! ويلتقي مصادفة مفتش ضرائب، يدعى شميد تانر، ينصحه بدخول سلك القضاء – وهو «ما لم يكن يوافق ميلي، لأنني أفضل الاجتهاد القانوني على كل علم إداري»، يكتب إلى أبيه، ويشرح له مفتش الضرائب هذا أن ذلك سيسمح له يوماً بالدخول إلى الجامعة من باب خلفي، حتى لو كان دون أي موهبة. مثلما بلغ هو في ظرف ثلاث سنوات بمونستر درجة إدارية تعطيه ما يعادل الدكتوراه في الحقوق - وهو ما يفتح أمامه أفق الحصول على منصب أستاذ للقانون، وهو منصب حصل عليه بالطريقة ذاتها، في بون، صديق لم تكن له من حصيلة علمية سوى عمل تافه حول التشريعات

الإقليمية. ويبدأ كارل بالتفكير في أن من الممكن له جيداً الاكتفاء بهذا النوع من الحياة.

في صيف 1837، لدى نهاية سنته الجامعية الأولى في برلين، يعود لقضاء العطلة إلى تريفز، ولقاء أمه، وأخيه هرمان المريض جداً، وأخواته الأربع. ويمضي بعض الوقت مع جيني المتوعكة أيضاً، ومع الكونت فون ويستفالن المتأثر برؤية الفتى المتوسط وقد صار شاباً مثقفاً في التاسعة عشرة من عمره، مولعاً بالأدب والفلسفة، وطموحه دون حدود. ويتكلم الإثنان عن برلين، ويتحدثان عن الديمقراطية والتقدم العلمي، وعن العالم القادم. ويمضي كارل بالخصوص ساعات طويلة مع والده الذي لا تنتابه الغيرة من علاقته بالبارون. لكن هنريش لا يزال قلقاً من مصروفات ابنه في وقت، لم يعد يحصل على الدخل نفسه، لإصابته هو نفسه بسل حاد. ولا يحب أيضاً رؤيته يتكلم في السياسة بحرية أكثر من اللازم، ويرى أنه يحط من قدر نفسه إذ يهتم بالاقتصاد السياسي، وهو علم لم يكن بعد رائجاً في ألمانيا؛ ويناشد ابنه الاجتهاد في القانون أكثر، وعدم التخلي عن بناء مستقبل مهني جيد.

بعد الصيف، يعود كارل إلى برلين، حاملاً معه صورة ذاكرية dagurreotyre من هذا الأب الذي أعاد له الثقة في مستقبله، ويصبح الدكتور كلوب الذي هو الآن أحد أعضائه الأكثر نشاطاً مكاناً سيء السمعة. إذ لا يتردد النادي، بتأثير من لودفيغ فويرباخ في إعلان إلحاده. وماركس مع أنه أصغر سناً بكثير من الأعضاء الآخرين فإنه يمارس سحراً حقيقياً حتى على فويرباخ عندما يأتي هذا للقاء أقرانه.

ويحلم كارل بنفسه منذئذ أستاذاً للفلسفة مثل معلمه برونو بوير ومثل فويرباخ نفسه. وهو لا يريد أن يكذب على نفسه ولا الكذب بالخصوص على أبيه. فيقرر العودة إذاً إلى تريفز في عيد الميلاد ليشرح له كل شيء. ويكتب له عن نواياه. لكن هنريش يمنعه من الاستمرار فيها: إذ يجب على كارل إنهاء دراسته بأسرع ما يمكن. ولا

يريد، من جهة أخرى، أن يراه ابنه مريضاً: فقد تفاقم لديه السل فجأة.

في 10 تشرين الثاني / نوفمبر 1837، يكتب كارل لأبيه رسالة جديدة وجد طويلة، يكرر فيها طلبه المجيء لرؤيته سريعاً. ويلخص له ما عمله في سنته ملمحاً بأنه سيترك الحقوق للانتقال إلى الفلسفة. وتستغرق كتابة هذه الرسالة ليلة بطولها؛ ويضطر إلى التوقف في الرابعة صباحاً لنفاذ الشموع لديه. وتستحق هذه الصفحات الشديدة التفخيم، بما تكشف عنه من نفسية الشاب كارل -- لما يبلغ العشرين --، الاستشهاد بها مطولاً:

«الوالد العزيز، هناك لحظات في حياة الإنسان، كمراكز حدودية تشير إلى نهاية مرحلة وتبين بوضوح اتجاهاً جديداً. في مثل لحظات الانتقال هذه، يشعر المرء بأن عليه النظر إلى الماضي والمستقبل بعيني صقر ليكون واعياً بالواقع. والحقيقة هي أن تاريخ العالم نفسه يحب النظر إلى الوراء، لعمل جرد الحساب، وهو ما يعطي أحياناً الشعور بالتقهقر أو الجمود، بينما لا يتعدى الأمر الجلوس على أريكة، ليفهم المرء نفسه ويستعرض فكرياً كل نشاط عقله. يمكن لكل واحد، في أوقات تحول كهذه، أن يستسلم إلى الغنائية، لأن كل استحالة هي جزئياً كصيحة البجعة، وجزئياً كافتتاحية قصيدة جديدة جزلة (..). لدى كل امرئ عندئذ الشعور بأن من واجبه تشييد تذكار لما عاشه، بصورة تجد التجربة ثانية في الانفعالات ما كان نُسي في العمل. وما من مكان أفضل لتشييد هذا التذكار من قلب أب، هو الأكثر حلماً والأكثر تعاطفاً وجدانياً، وتدفئ شمس حبه كل أفعالنا. وما هو أفضل غفران يأمل المرؤ به عما يستحق اللوم من محاولة عده تجلياً لضرورة؟ وكيف الإقناع بأن ما

يـأتي، فـي جوهـره، مـن المصادفـة أو مـن أخطـاء فكريـة لا يستحق أن ينتقد كأنه ناتج عن عمل إرادي لقلب فاسد؟ (..) في نهاية سنة أمضيتها هنا، أنظر إلى الوراء، والدي العزيز، واسمح لي أن أنظر إلى حياتي كما أنظر إلى الحياة عموماً، أعني باعتبارها التعبير عن نشاط فكري يتطور في كل الاتجاهات، في العلم، في الفنون وضمن الحيِّز الشخصي (..). فحزناً على مرض جيني وعلى جهودي الفكرية المخفقة للإفلات من هيامي بفكر الآن أمقته، وقعت مريضاً، كما كنت كتبت إليك، يا والدي العزيز. وعندما تحسنت صحتي، أحرقت كل قصائدي وبدايات رواياتي، ناوياً التخلي تماماً، لأنه ما من شيء، حتى اليوم، يسمح لي بالظن بأن هناك أقل دليل على موهبتي. وحتى إقامتي في برلين التي كان من المفروض أن تعجبني كثيراً، وتحثني على تأمل الطبيعة، بعثت في عدم الاكتراث (..) لأنه ما من جمال عمل فني يعدل في النهاية جمال جيني (..). لكن يا عزيزي، يا والدي الجد عزيز، أليس ممكناً الكلام عنها معك شخصياً؟ إن صحة أخي، وصحة أمي العزيزة، ومرضك (الذي آمل أن لا يكون خطيراً)، كل ذلك يجعلني أرغب بالإسراع إليكم، وهذا يشكل لي شبه ضرورة. ولو لم أشك في سماحك لي بمغادرة برلين لكنت بينكم الساعة. صدقني يا عزيزي، والدي العزيز، إنني لا أنطوي على أي نية أنانية (حتى لو كانت نعمة بالنسبة لي رؤية جيني)؛ إلا أن هناك فكرة تؤثر بي وليس لدي الحق في التعبير عنها. وعلى الرغم من صعوبة الإقرار به، كما تكتبه لي عزيزتي جيني، فإن هذه الاعتبارات دون قيمة، مقارنة بتأدية الواجبات المقدسة. أتوسل إليك، الوالد العزيز، مهما كان قرارك، أن لا تُريَ أمي هذه الصفحة من رسالتي:

فوصولـي فجـأة يمكن أن يسـاعـد هـذه المـرأة الرائعـة علـى الشـفـاء (..)، آمـلاً أن تنقشـع الغيـوم التـي تجمعـت فـوق العائلـة، وأن تتـاح لـي الفرصـة للتـألم والبكـاء معكـم، وربمـا إعطائكم الدليل على حبي العميق دون حد الذي لا أحسن عمومـاً التعبير عنـه. وعلـى أمـل أن تـأخذ بالحسـبان أنـت أيضـاً، أيها الوالـد العزيـز المحبـوب، حالـة اضطـراب فكـري لتغفـر لـي ضـلالات قلبـي الغـارق فـي عقلـي، وأن تسـتعيد صحتـك سـريعاً حتـى أسـتطيع أن أشـد عليـك بـين ذراعـيَّ، وأبوح لك بكل أفكاري. ابنك المحب أبداً».

ويضيف في حاشية:

«أرجوك، والدي العزيز، أن تعذرني على سوء أسلوبي وخطـي غير المقـروء. إنـها الرابعـة صباحـاً تقريبـاً، والشـمعة تشـرف علـى نهايتـها، وعينـاي متعبتـان، وتتملكنـي إثـارة شديدة لا أستطيع معها تهدئة هذه الأطياف الهائجة قبل أن أكون معكم، أنتم الأعزاء علـي. أرجوك أن تبلـغ أفكـاري إلـى اللطيفـة والرائعـة جينـي. لقـد قـرأت رسـالتها الأخـيرة اثنتـي عشـرة مـرة، واكتشفت فيها كل مرة مِتعاً جديـدة، بمـا فيها الأسلوب. إنها في رأيي أجمل رسالة كتبتها امرأة على الإطلاق».

يرسـل مـاركس رسـالته وينتظـر الجـواب مـن أبيـه. لكنـه لا يـأتي. فيبقى إذاً في برلين لعيد الميلاد، ويواصل الدرس أثناء الشتاء، قلقـاً ممـا يجري في تريفز، ولا تقول جيني عنه شيئاً.

في 10 شباط 1838، يجيبه أبوه أخيراً: رسـالة تبعث الاضطـراب، متبوعـة بحاشـيتين، واحـدة مـن أمـه، والأخـرى مـن أختـه صـوفـي. رسـالة ستوجه، في رأيي، حياة كارل برمتها.

هنريش يبدي أولاً قلقه من علاقة كارل بالمال؛ ويطلب منه عدم

المجيء لرؤيته، ومواصلة دراسته، ويلمح له بموافقته على تغيير اتجاهه. ويجب الاستشهاد بهذه الرسالة شبه كاملة للأهمية التي ستكتسيها في المستقبل.

«العزيز كارل، (..) آمل اليوم أن أكون قادراً على النهوض بضع ساعات، لمعرفة ما إذا كنت قادراً على كتابة رسالة. واقع الحال إنني أرتعش، أستطيع ذلك، لكن.. ليست لدي القوة لخوض مناقشة نظرية معك. نعم الأمر إن كان وجدانك منسجماً مع فلسفتك ومتطابقاً معها. في نقطة واحدة، التزمت بأدب في رسالتك صمتاً أرستقراطياً: حول مسألة المال التافهة، التي تكتسي لدى رب العائلة قيمة كبيرة، حتى وإن يبدو عليك عدم الاعتراف بذلك. إنني آلوم نفسي لتركك حراً أكثر من اللازم بهذا الشأن. نحن الآن في الشهر الرابع من السنة الدراسية، وقد سحبت إلى الآن 20 تالر. والحال إنني لم أجن مثل هذا المبلغ هذا الشتاء. وتخطئ إذ تقول إنني أسيء الحكم عليك أو إنني لا أفهمك. فأنا أثق تماماً بقلبك وبأخلاقك. لقد وثقت بك دائماً، حتى في سنتك الأولى بالحقوق، حيث لم أسألك تفسيراً لهذه القضية الغامضة (مبارزة كارل). وذلك لأن ثقتي بسمو أخلاقك هي التي سمحت به. ولا يزال الأمر كذلك، والحمد لله. إن قرارك الأخير (تغيير موضوع الدراسة) جدير بالثناء، حكيم، ويستحق التنفيذ؛ وإذا ما أنجزت ما وعدت به، فإن هذا سيفضي إلى أفضل النتائج. ولتكن متأكداً أنك لست وحدك من يقوم بتضحيات كبيرة. فهذا صحيح بالنسبة لنا جميعاً. لكن على العقل أن ينتصر، أنا متعب، يا عزيزي كارل، علي أن أتوقف (..). إن مقترحك الأخير المتعلق بي (المجيء لرؤيتي) يصطدم بصعوبات جمة. فبأي حق لي أرجوك؟ أبوك المخلص».

وفي تناقض مع ما سيقوله كتّاب السيرة السيئي النية عن علاقاتها السيئة مع ابنها ومع جيني، تضيف والدة كارل:

«عزيزي كارل المحبوب، حباً بك، بذل أبوك العزيز للمرة الأولى جهده في الكتابة لك. إن أباك الطيب شديد الضعف: وعسى الله يعينه على استعادة قواه سريعاً. أنا بخير، عزيزي كارل، وأنا هادئة، ومذعنة لوضعي. إن العزيزة جيني تتصرف كفتاة لطيفة مع والديها، وتواسينا بنفسيتها الطيبة، كأنها ابنة للعائلة التي تحاول دائماً رؤية الجانب المشرق للأشياء. اكتب لي لتطمئنني على أن كل شيء على ما يرام. وأنا الأكثر ضيقاً من عدم مجيئك في عيد الفصح، إذ إنني أترك عواطفي تذهب إلى ما وراء العقل، وأنا آسفة، عزيزي كارل، على أنك عاقل أكثر من اللازم، وعليك أن تأخذ رسالتي دليلاً على حبي العميق. فهناك لحظات نشعر فيها بالكثير، ونقول فيها القليل، ولهذا أقول لك، عزيزي كارل إلى اللقاء، أكتب سريعاً إلى والدك العزيز، لأن هذا سيساعد على شفائه سريعاً. أمك التي تحبك إلى الأبد».

وهنريش، كما هو واضح، لم يطلع زوجته، مثلما طلب منه ابنه، على الفقرة التي يقترح فيها كارل المجيء إلى تريفز، وجعلها تعتقد أن الشاب كان قرر من نفسه البقاء في برلين.

وتتبع حاشية من أخته صوفي، تبلغه فيها من طرف خفي بأن الوضع المالي للعائلة مقلق مثل صحة الوالد:

«يشعر الوالد العزيز بأنه أفضل. والأمور تُسوى. إنه في السرير منذ ثمانية أسابيع، ولم يغادر إلا منذ أيام حتى نتمكن من تهوية الغرفة. وقد بذل اليوم جهداً كبيراً ليكتب لك هذه الأسطر بيده المرتعشة. وليس في ذلك ما يدهش: إذ إنه كان طوال الشتاء بعيداً عن أعماله. وشعوره بالحاجة إليها هو الآن أكبر بأربع مرات من قبل. أغني له كل يوم،

وأقرأ له. أرسل إلي الأغنية التي تعدني بها منذ وقت طويل. أكتب سريعاً، فسيكون في هذا مواساة لنا جميعاً. كارولين ليست على ما يرام. ولويز نائمة؛ إذ يبدو أنها مصابة بالحمى القرمزية. إميلي تحتفظ بمعنويات عالية. أما جت (هرمان، أخوها الأصغر) فليس في أحسن أحواله».

كارولين وإيميلي وهرمان سيموتون قريباً.

هذه الرسالة الهامة التي تمنح كارل حق دراسة ما يشاء («فأنا أثق تماماً بقلبك وبأخلاقك. (..) إن قرارك الأخير (تغيير موضوع الدراسة) جدير بالثناء، حكيم، ويستحق التنفيذ؛ وإذا ما أنجزت ما وعدت به، فإن هذا سيفضي إلى أفضل النتائج») تتضمن أيضاً، برأيي، جملة جوهرية: تلك التي تتعرض إلى «صمتك الأرستقراطي حول مسألة المال التافهة التي تكتسي لدى رب العائلة قيمة كبيرة، حتى وإن يبدو عليك عدم الاعتراف بذلك. إنني ألوم نفسي لتركك حراً أكثر من اللازم بهذا الشأن». فطريقة الأب في مماهاة الأرستقراطية بعدم الكلام في المال ستنذر بما سيكون المال بالنسبة لكارل: سلسلة عبودية، ومصدر تبعية. وسيكون هناك، في تنديد ماركس بالاستغلال، ما يشبه إسباغ المثالية على النبالة. استغلال بوساطة المال، لا يجب التحرر منه بكسبه، كبورجوازي، ولا بعدم الكلام عنه كنبيل، بل بمحاربة سلطته، كبروليتاري.

ولا يعود كارل إذاً، طاعة لأبيه، إلى تريفز، ويمضي عيد الفصح في برلين. ولن يرى والده أبداً: ففي 10 أيار / مايو 1838، يموت هنريش ماركس بالسل، في تريفز، وسنه إحدى وستون سنة. ومنذ هذا اليوم سيحمل كارل حتى موته في جيب سترته الداخلي، قرب قلبه، الصورة الذاكرية التي أعطاه أبوه إياها العام الفائت، آخر مرة رأى فيها أحدهما الآخر.

يشكل هذا الموت قطيعة: فكارل لن يذهب، كما يبدو، إلى تريفز لحضور مراسم الدفن، ولن تدفع له أمه نصيبه من الميراث، أي مبلغ 6000

فرنك ذهبي الذي لا يستهان به، لأن ذلك يقتضي بيع المنزل الذي تعيش فيه الأسرة.

يرى عدد من كتّاب السير أن كارل لا يحضر مراسم دفن أبيه نتيجة لعدم اكتراثه، لكن تبادلهما الرسائل الأخير يكذب ذلك. ولا يفسّر غيابه – إذا صح – إلا بالوقت اللازم لإبلاغه بالوفاة. ثم، ألم يطلب أبوه منه في رسالته الأخيرة بإلحاح البقاء في برلين للدراسة؟ أخيراً، إذا لم يتلق نصيبه من الميراث، فليس لأن أمه نبذته أو لأنها لا تحب جيني – وهو باطل أيضاً كما تشهد الرسالة ذاتها –، بل لأن أخوات كارل وأخاه وجميعهم مرضى، عليهم العيش على ما تركه الأب. وفضلاً عن ذلك تواصل هنرييتا دفع مخصصات ابنها الشهرية، وتقر رسمياً بأنها مدينة له بنصيبه في الميراث.

وهكذا، مثلما كان أبوه انتظر وفاة أمه لاعتناق المسيحية، يتخلّى كارل الذي حصل على موافقة هنريش في رسالته الأخيرة، عن مهنة المحاماة لدى وفاة هذا الأخير، وينطلق في حلمه الجديد: أن يصير أستاذاً للفلسفة.

وهذا يعني أيضاً أنه سيشتغل بالسياسة. لأن انتقاد هيجل تلك السنة هو أسلوب آخر في معارضة النظام البروسي. ويظهر عندئذ التعبير الغريب «الاشتراكية الحقيقية» الذي ابتدعه كارل غرون (الاسم المستعار لإرنست فون هايد) للإشارة إلى حركة الشباب الهيجليين الذين كانوا يعبرون عن أنفسهم غالباً في مجلات مثل (مرآة المجتمع) أو (لاغازيت دو تريفز). ويصبح الدكتور كلوب، مقرهم البرليني، المكان الأكثر مراقبة في العاصمة. ويظهر رجلان سيقومان بدور هام في حياة ماركس:

يأتي أولاً أرنولد روج، أستاذ الفلسفة المساعد في هال حيث يدير مجلة (حوليات هال)، وهي نقطة التقاء الشباب الهيجليين والطبقة المثقفة السابقة للثورية، وحيث ينشر فويرباخ كتابه المثير (إسهام في نقد فلسفة هيجل).

ويمر من هناك أيضاً العامل – الخياط الألماني ويلهلم ويتلنغ، اللاجئ إلى فيينا ثم إلى باريس، الذي ينشر بيان جمعية سرية هي، عصبة المنفيين، التي أسست في باريس منذ سنتين. (الإنسانية كما هي وكما يجب أن تكون)، وهو نص يندد فيه باستغلال الأجراء من قبل أصحاب رأس المال، ويقترح، دون انتظار، إقامة ملكية مشتركة، انطلاقاً من دولة قوية: «إذا كانت لدينا السلطة، يجب سحق رأس المال الأفعى (..). فلا يجب مهادنة الأعداء، ولا فتح مفاوضات معهم، ولا تصديق وعودهم.»».

في الوقت ذاته، لدى كارل مشروع للبحث في آخر الفلاسفة الإغريق بمجموعهم. فيكتب رسالة (ضاعت منذئذ) إلى برونو بوير حتى ينقلها إلى ناشر في بون، هو ماركوس، لإقناعه بإصدار نصه القادم. لكن بوير يرد عليه بأنه لا يستطيع نقل رسالة بمثل هذه الوقاحة: «أفترض أنك تستطيع الكتابة إلى غسالة ملابسك بهذه الطريقة نوعاً ما، ولكن ليس إلى ناشر تسعى لإقناعه!» ويرسل إليه مجموعة من الأسئلة غالباً ما سنجدها مطروحة طوال حياة ماركس: «يجب أن تكتب لي أولاً ما كان عليك أن تذكره منذ وقت طويل لماركس: ما إذا كان الكتاب موجوداً، وإذا كان منتهياً، وكم من ورقة سيحتوي، وما المبلغ الذي تطلبه فيه..»

بعد قليل، يتخلى ماركس عن هذا المشروع، وبناءً على نصيحة من برونو بوير يشرع عندئذ في عمل أطروحة في موضوع غريب في الظاهر، أكثر تحديداً بكثير، هو: المادية القديمة لدى ديموقريطس وأبيقور. ويحاكي عنوانها (اختلاف فلسفة الطبيعة لدى ديموقريطس وأبيقور) عنوان بحث لهيجل (الاختلاف بين منظومة فخته ومنظومة شيللينغ). ويتصل الأمر للوهلة الأولى باستعراض للأسلوب. لكنه في الواقع، تأكيد لاستحواذ الملاحظة النقدية للواقع عليه، ولماديته. ففيزياء ديموقريطس وفيزياء أبيقور جد قريبتين، لكن الفيلسوفين، انطلاقاً من مقدمات واحدة، يجدان نفسيهما «متضادين كلياً بالنسبة لكل ما يتصل بالحقيقة

واليقين، وتطبيق هذا العلم، وعلاقة الفكر بالواقع عموماً». وفي الوقت الذي يختزل ديموقريطس الواقع المحسوس إلى المظهر الذاتي، فبالنسبة لأبيقور، على العكس، لا يمكن لأي شيء دحض الإدراكات الحسية: إذ إنه مادي. وحيث يرى ديموقريطس أن الضرورة جبرية، يعتقد أبيقور أن المصادفة واقع «ليس له قيمة أخرى سوى الإمكان». ويشرح ماركس أن موت الفكر الإغريقي شابه حياته، مستعيداً الصلة هكذا مع الموضوع الهيجلي القائل: إن المصير هو الطبع. وكل المدارس الفكرية الإغريقية صورة الـ(سوفوس) - الإنسان الحكيم - لشرح مفهوم الحكمة الفلسفية؛ حيث ينتمي هذا المفهوم حصرياً للعالم الداخلي لبعض الأفراد، وليس للعالم الخارجي للحياة الاختبارية. وسقراط هو أفضل من شخص هذا الانفصال بين العقل والوجود. وبانقسامه الداخلي هو نفسه والحكم عليه، فإن موته صور مصير الفكر الإغريقي بالمعنى الواسع. فيبين كارل أن الفلسفة الهيجلية، تسمح إذا جرى تجاوزها، باكتشاف المكوِّن المثالي للوجود ضمن الحياة الاختبارية، لأنها أبانت الطريقة التي انبثق بها العقل من معارك العالم الواقعي. وبالتالي ليس عليها الانسحاب من الحياة باسم الفكر. وهكذا سيكون الفلاسفة الحديثون محميون من الانعزال المدمر الذي كانه مصير الإغريق. ويظن كارل نفسه أنه تجاوز عندئذ أعراض مثاليته الهيجلية هذه.

وفيما هو يدرس شتى الفلسفات، يضع قواعد تصوره لدور الفيلسوف في المجتمع، هذا الفيلسوف الذي يجب عليه، وهو يقول الحقيقة، التأثير في الواقع. وبعمله عن الإغريق، فإنه يعمل بالفعل حول الإلحادية والمادية؛ إذ إن العمل حول أبيقور هو أيضاً أسلوب في الابتعاد عن الديني والاقتراب من الاجتماعي.

ذلك أن كارل يهتم بالسياسة أكثر فأكثر. إذ يتملكه الحماس عندما تفضي اضطرابات في باريس إلى احتلال مقر المحافظة ودار البلدية. ويكتشف حركة إنجليزية جديدة هي الميثاقية، نسبة إلى «ميثاق الشعب»

الذي نشر السنة ذاتها 1838، ويطالب بتحسين الظروف الصحية في الضواحي العمالية، وبالاقتراع السري الشامل، وبحق الإنسان في الترشيح دون أن يكون ملاّكاً؛ ونشرة الميثاقية الرئيسة (ذا نورثن ستار) تباع منها حال صدورها عشرات الآلاف من النسخ. ولولعه الدائم بالسكك الحديدية، يهتم كارل أيضاً بالقاطرة الفرنسية الأولى التي خرجت من مصانع كروزو، متبوعة بعد بضعة أشهر بأول سفينة على البخار.

وتتواصل مراسلاته مع جيني، بالحرارة ذاتها. وقد قررا الزواج ما إن يتم أطروحته: أي انتظار ثلاثة أعوام! وتكتب له الفتاة:

> **«عزيزي ومحبوبي الوحيد، (..) إن حب فتاة مختلف عن حب رجل، فلا تستطيع فتاة بالطبع أن تعطي رجلاً أكثر من حبها ونفسها كما هي، إلى الأبد (..). لكن، فكر فيَّ يا كارل: إذ ليس لديك أي اعتبار، أي ثقة بي. أنا أعلم منذ البداية أنني لن أحتفظ طويلاً بحبك الرومنطيقي الراهن. (..) إن حبك الرائع، المؤثر، الحار، والأشياء الجميلة التي تقولها لي، تجعلني تعيسة، لأنني أخشى أن يتوقف كل هذا يوماً ما. إن الأشياء الوحيدة التي تسعدني هي اللحظات التي أفكر فيها أن في إمكاني أن أكون زوجتك الصغيرة. (..) أود أن أستدرك تأخري في القراءة وأتسلى. ولعلك تعرف كتاباً صغيراً صعباً، لا أفهمه كله، لكنني أستطيع مع ذلك فهمه بعض الشيء، مثل هذه الكتب التي يحب الجميع قراءتها، ليس كتاب حكايات ولا شعر، فأنا لا أطيقها. وسيفيدني هذا في إعمال فكري..»**

إنها تخشى الآفاق المحدودة التي تفتحها الحياة أمام النساء، أي: أن تنسى نفسها في حب رجل. وهي تكون لنفسها أفكاراً سوداوية. كارل يبدو حذراً: فهي مضطربة على الدوام عندما يشتبه بوجود منافس. وإزاء

جفاف العتاب الذي يوجهه لها في رسائله، تخشى عندئذ من تحول ولعه واهتمامه إلى برودة وانغلاق. مشاطرة هكذا هنريش الصورة التي لديه عن ابنه: فمع تأجج عاطفته وغنائيته قد يبدو أحياناً جافاً ولا مبالياً. وجيني إذ تحاول إعادة ماركس إلى العالم الواقعي، تستعيد الدور الذي لعبه أبواه. ورسائلها تُظهر تبعية وروح تضحية متبادلة: ففي إحداها (في 1839)، تتخيل حتى أن كارل بعدما فقد يده اليمنى في مبارزة، يبقيها إلى جانبه دائماً لتكتب نصوصه.

في 1839، يواصل كارل العمل في أطروحته عندما يضطر برونو بوير إلى مغادرة برلين إلى بون للتعليم فيها. ويحث الأستاذ الشاب تلميذه على الحذر حتى لا يُمنع، وينصحه عندما يحين الوقت، أن يدافع عن أطروحته في يينا، وهي جامعة أكثر ليبرالية من جامعة برلين. ويعده بأنه سيواصل متابعة عمله، ويأخذه فيما بعد مساعداً له. وهكذا يرى كارل مهنة أستاذ في الجامعة تتفتح أمامه. وفي الوقت ذاته، في 4 تشرين الثاني / نوفمبر، بإنجلترا نحو ألف من عمال المناجم كانوا يحاولون الاستيلاء على مدينة نيوبورت، صُدوا بإطلاق الرصاص من قبل الجيش.

ويكتب بوير عندئذ رسالة هجائية مغفلة، (بوق يوم الحساب الأخير ضد هيجل، الملحد والمسيح الدجال)، كان المفترض أن يكتب ماركس جزأها الثاني، وهو يعمل في نقده الخاص لهيجل.

ويشهد العام 1840 استمرار تجذر الحركة السياسية. ففي بروسيا يُخيب ملك جديد هو فريدريك - غليوم الرابع كل الآمال بمزيد من الحرية، عندما يعين شيللينغ مستشاراً، وينشئ الرقابة على الصحافة ملغياً الإعفاء الجامعي، في الوقت الذي كان الملك الجديد أعلن على الملأ قبل تتويجه، احترامه للمبادئ الديمقراطية، باعتبارها في نظره منسجمة مع الروح الوطنية ومع الملكية. ويجعل فريدريك - غليوم الرابع من نفسه على الفور خليفة مترنيخ المخلص لقمع الديمقراطيين في كل أوروبا.

فتصبح حياة الطلاب البرلينيين عسيرة. والدكتور كلوب يتجذر؛ إذ يتخذ أعضاؤه عندئذ اسم «أصدقاء الشعب» أو Freien (المُعتَقين).

في فرنسا، يندد الطبيب لويس – رينيه فيّرميه، بظروف العمل في (صورة عن الحالة البدنية والمعنوية للعمال في معامل الصوف والحرير). وينشر عامل أصبح فيلسوفاً هو، بيير جوزيف برودون، (ما هي الملكية؟) الذي يجسد اتجاهات المعارضة الأكثر تشدداً للمجتمع الرأسمالي الذي كان قيد الولادة. وتندلع «اضطرابات البطاطا» في لينز. وتظهر كلمة «شيوعية» للإشارة إلى المذهب الاقتصادي لرجل القانون الفرنسي اتيين كابيه، وتقام «مأدبة شيوعية» أولى في باريس، بينما يفضي نقل رفات نابليون الأول إلى الأنفاليد إلى هياج شعبي عارم.

رأس كارل الآن مليء بالمشروعات، المرتبطة كلها ارتباطاً وثيقاً ببرونو بوير: إذ يتكلمان عن التعليم معاً، ونشر (أرشيفات الإلحادية) معاً، والنضال معاً ضد الخصوم. ويَنقد كارل أيضاً تلك السنة إلى أفضل الأوساط في برلين، ومنها صالون بيتينافون آرنيم، المولودة برينتانو، التي كانت صديقة لبتهوفن وغوته. وفي 1841، يصادف ربما شاباً أصغر منه بعامين، دون أن يراه، يمر ببرلين عندئذ ليؤدي فيها خدمته العسكرية، وسيقوم بدور جد هام في حياته، هو: فريدريك إنجلز.

كان جد فريدريك الأكبر، جان غاسبار إنجلز، أسس في بارمن بجوار ووبرتال، تجارة صغيرة للخيوط حولها إلى معمل للنسيج المخرم (دانتيل) والأشرطة وبياضات المنزل؛ ولدى موته أضاف إليها ابنه الأكبر تجارة الحرير بالجملة. وبعده يعمد الأحفاد الثلاثة غير المتفاهمين إلى اختيار واحد منهم بالقرعة لتؤول إليه المنشأة. وكانت لدى أحد الخاسرين الجرأة ليؤسس مع أخوين يدعيان إرمن مغازل للقطن، في مانشستر أولاً (إنجلترا) حيث توجد أفضل الآلات، ثم في بارمن وفي إنجيلسكيرشن، وابنه فريدريك الذي تربى من قبل أم يقدسها، في عالم شديد التدين، مولع بالتاريخ والفلسفة والرياضيات وعلوم الحياة والكيمياء وعلم النبات

الفيزياء، وحتى بالاستراتيجية العسكرية (وهو ما سيجعله يلقب بـ«الجنرال»)؛ يحلم بالدراسة ولا يرغب في خلافة والده. لكنه يضطر من قبله في 1837، وهو في السابعة عشرة من عمره، إلى ترك الثانوية والدخول إلى المنشأة العائلية التي سيحتفظ منها بنفور عنيد من عالم الشغل، وفي 1841 يصل إلى برلين متطوعاً لسنة في مدفعية الحرس – كذريعة للإفلات من المصنع وإشباع ولعه بالاستراتيجية – يستفيد منها لمخالطة الهيجليين الشباب وأعضاء آخرين في الدكتور كلوب، لكن كارل ليس من بينهم.

تلك السنة، يقرأ كارل (جوهر المسيحية) لفويرباخ، حال ظهوره، وهو حجر الزاوية في أعماله ويزعم فيه، أنه من أجل السماح بارتقاء مجتمع إنساني حقاً، يجب على الفلسفة أن تجد امتدادها في السياسة، القادرة وحدها على تحرير الإنسان من اغتراباته بإلغاء الملكية الفردية والأجراء بالتالي. فينبغي، كما يقول فويرباخ، توحيد البشرية المعذبة التي تفكر، والبشرية المفكرة المضطَّهدة، أي العمال اليدويين والمثقفين؛ ويجب تحويل الدولة جذرياً، لأنها ليست كما كان يظن هيجل، تجسداً لمطلق فوق الطبقات، بل انعكاس للعلاقات الاقتصادية والقانونية والاجتماعية في حقبة ما. وما من طبقة اجتماعية تستطيع النهوض بالتحرر الشامل إذا لم تواجه بالضرورة التي تواجهها البروليتاريا وحدها، باعتبارها الطبقة التي يُنكر فيها تماماً ما هو إنساني.

وعلى غرار كثير من الشباب الألمان آنذاك، تأثر ماركس بعمق من هذا الكتاب. «على المرئ أن يشعر هو نفسه بالفعل المحرِّر» لهذا الكتاب، سيكتب فيما بعد فريدريك إنجلز الذي سيصبح أفضل أصدقائه، والذي لا يزال بعدُ في برلين. «أصبحنا جميعاً على الفور فويرباخيين!».

بعد أربعة أعوام من العمل، يتم كارل أطروحته أخيراً. وهي نص صعب حول علاقة الفلسفة بالعالم، وحول الصلة بين الفكر النافذ للوجود والمادة النافذة للفكرة. إذ يظهر التضاد بين ديموقريطس وأبيقور فيها

كمنظومة تضادات على جبهات مقلوبة: فبينما ديموقريطس «شكاك» وأبيقور «وثوقي»، فإن الشكاك هو الذي يتعلق بالعلوم التجريبية في الوقت الذي ينظر الوثوقي إلى الظاهرة على أنها واقعية، و«لا يرى في كل مكان إلا مصادفة، ويميل في تفسيره بالأحرى إلى إنكار كل واقع موضوعي في الطبيعة». وتقوم أصالة مقاربة ماركس في أنه، على عكس المفسرين الذين جعلوا من الفيزياء الأبيقورية نسخة من نظرية ديموقريطس، يبين أن هذا الأخير كان مادياً خالصاً حيث رأى أبيقور الطبيعة كمكوِّن للفراغ المثالي. وتناقض أبيقور الرئيس - إنكار عقلانية الطبيعة - هو أيضاً، بحسب ماركس، إسهامه الأكثر عمقاً والوجه الأكثر حكمة في منظومته: إذ يتأكد الشعور الفردي بذاته فيها باعتباره العنصر الحقيقي الرئيس. وهكذا يجعل ماركس من أبيقور رمزاً للحكيم الإغريقي بامتياز؛ وتعرف الفلسفة الإغريقية معه موتاً بطولياً. أما ديموقريطس فيواجه منذ البداية تناقضاً: إذ على الرغم من أن الذرة هي العنصر الرئيس للوجود، فما من ظاهرة طبيعية تجعل الذرات قابلة للإدراك في العالم المرئي. وهذا ما قاده إلى التخلي عن الفلسفة إلى الدراسة الاختبارية للطبيعة. وفي النهاية، بينما يقلب أبيقور الدين، «يظل الباب مع ديموقريطس مفتوحاً للاعتقادات الباطلة والتصوف العبودي». وقادتهما تصوراتهما إلى التوصية بطريقتين متضادتين في الحياة: حياة اعتكاف وسلبية بالنسبة لأبيقور، وحياة تمضي بالتجوال في العالم والإطلاع على كل التخصصات لإشباع تعطش لا يرتوي إلى المعارف، بالنسبة لديموقريطس. ودون أن يعلم أنه يتحدث عن حياته الآتية، يكتب ماركس: «في أوقات الأزمة الكبرى، على الفلسفة أن تصبح عملية، لكن ممارسة الفلسفة هي ذاتها نظرية».

يهدي كارل هذه الأطروحة إلى والد جيني «لست بحاجة للصلاة من أجل صحتك الجسمية الجيدة. فقد اتكلت على العقل الذي هو طبيب جيد بارع في السحر». وينال من جامعة برلين شهادة نهاية

الدراسة في 3 آذار / مارس 1841. وبعد مداولات مختلفة، يرسل أطروحته للدكتوراه، في 6 نيسان / أبريل، إلى جامعة يينا المعروفة آنذاك بسهولة إعطائها شهادات الدكتوراه. وفي الأسبوع التالي، يقدم العميد لكلية الفلسفة المرشح كارل هنريش مردخاي ماركس؛ وتحمل درجته في الدكتوراه تاريخ 15 نيسان / أبريل. فيلتحق عندئذ ببوير في بون، بعد مرور سريع بتريفز.

في مطلع صيف 1841، يذهب كارل وبرونو بوير إلى كولونيا، عاصمة مدن الراين التابعة لبروسيا، التي أصبحت مركزاً صناعياً وتجارياً كبيراً بفضل تطور «شركة القطر البخاري على الراين» وإنشاء أول خط للسكك الحديدية كولونيا – إكس لاشابيل. علاوة على أن مقرات غالبية المنشآت الألمانية الحديثة فيها. والبورجوازية في كولونيا، التي تضم بعض اليهود، منهم عائلة باسم ماركس!، تنادي بتوحيد الدول الألمانية حول مؤسسات ديمقراطية تضمن حق الأشخاص وحرية الصحافة والحرية الدينية.

ويلتقي كارل فيها مجموعة من التجار الشباب والصناعيين الليبراليين الذين، لاستيائهم من صحيفة (لا غازيت دو كولونيه)، البابوية المتطرفة والمحافظة، يؤسسون شركة تضامنية لدعم صحيفة أخرى، هي (لا غازيت رينان). ومنهم موزس هس، وهو شاب يهودي في الثامنة والعشرين، كاتب وسوسيولوجي يصف نفسه بأنه «شيوعي»، لكن أفكاره فوضوية في الواقع، وداغوبير أوبنهايم وهو شقيق الصيرفي سالومون أوبنهايم؛ وجورغ يونغ وهو موظف كبير، متزوج بابنة صيرفي آخر من كولونيا؛ وصناعيون مثل لودولف كامفوسن ودافيد يوستوس هانسمان الذي سنتحدث عنه ثانية.

يعود كارل إلى بون حيث يجد في تموز / يوليو 1841 مع جيني ذريعة ليلتقيا أخيراً على انفراد فجيني التي كان عليها الذهاب إلى نوس، تبلغ والدتها باحترام أنها ستتوقف في بون لترى كارل، وهو ما تقبله

السيدة فون ويستفالن، بشرط أن يرافقها شقيقها الأصغر إدغار. لنذكر أن جيني عندئذ في السابعة والعشرين، وكارل في الثالثة والعشرين.

ولدى عودتها إلى تريفز، تكتب له جيني بعد قليل:

«آه! يا لقلبي الصغير كم هو ثقيل بالعبء الذي أوقعه كل هذا على روحي! ومع ذلك، فأنا لا أشعر يا كارل، ولا أستطيع أن أشعر بأي تأنيب من ضميري. أطبق عيني وتتراءى لي نظرتك السعيدة (..) أنا أعرف تماماً ما فعلت، كأن ذلك يستوجب النبذ والاستهجان العلني، إلا أنني لن أستبدل بذكرى هذه الساعات أي كنز في العالم».

وهو يريد أن تعود لكنها لا تستطيع. فتكتب له في 10 آب / أغسطس 1841، في رسالة تُظهر جهودها للتوصل إلى مقاسمته ثقافته:

«يا دبي الصغير المتوحش، (..) آسف لأنك لا تثني علي قليلاً للغتي الإغريقية، كان بإمكانك تخصيص فقرة تمدح فيها بلاغتي. لكنكم، حضرات الهيجليين، لا تعترفون بشيء حتى لو كان ممتازاً، إذا لم يكن متوافقاً تماماً مع آرائكم؛ فعلي إذاً أن أكون متواضعة وأكتفي بأمجادي الخاصة (..). الآن تتدخل أيضاً في السياسة! إنه الشيء الأكثر خطورة، (..) لو لم أكن جد مريضة لحزمت أمتعتي منذ وقت طويل لألحق بك (..). أفكر فيك الليالي التي أمضيها مؤرقة دون نوم وأبعث لك ببركاتي.. وأطبع على كل من أصابعي قبلة كي تطير إلى عزيزي كارل، ولا تكون الرسل الصامتة لحبي، بل تهمس له بكل تعبيرات الحب الظريفة واللطيفة والسرية.. وداعاً، حبيبي الوحيد.. وداعاً، أيها السكة الحديدية الصغيرة العزيزة، وداعاً يا رجلي الصغير العزيز. من المؤكد أنني سوف أتزوجك، أليس كذلك»؟

في الخريف، لا يزال كارل في بون، يرقب منها الثورة التي تتصاعد وتزمجر في أوروبا. ففي باريس، بينما يطلق غيزو شعاره «اغتنوا بالعمل وبالتوفير!» يتظاهر أناس صائحين «تحيا الجمهورية!»، ويقيد قانون عمل القاصرين في المعامل، ويحدد سن الثامنة حداً أدنى للعمل.

في أيلول / سبتمبر 1841، تتعرض كل أحلام ماركس المهنية للخطر: فبناء على طلب الملك فريدريك غليوم الرابع، يُعلَّق برونو بوير من منصبه في الجامعة لأنه شارك في مظاهرة ليبرالية وألقى فيها خطاباً معادياً للرقابة. لكن كارل لا يفقد الأمل: فالعقوبة ليست نهائية.

ويقترح موزس هس على ماركس الإسهام في صحيفته المستقبلية، (لاغازيت رينان) التي سيكون أدولف روتنبرغ «أفضل صديق لكارل في برلين» الذي كان أوصى بقبوله في الدكتور كلوب، رئيساً لتحريرها. فيقبل كارل مع بقائه في بون، حيث لا يزال يأمل في أن يسمح لبوير وله بالتعليم.

لكن الصحيفة تخضع للمراقبة حتى قبل ظهورها. إذ إن مرسوماً في 24 كانون الأول / ديسمبر 1841، يُخضع الصحف بالفعل إلى سيطرة متزايدة؛ وتمنع بالخصوص كل التي تنتقد «مبادئ الدين الأساسية» و«تنتهك الأخلاق». وتمضي الرقابة حتى إلى حظر الإعلان عن ترجمة (الكوميديا الإلهية) بذريعة أنه «لا تُعمل كوميديا في شؤون الدين»!

وموزس هس، مثل كل الذين يعرفون ماركس، مفتون بثقافة الشاب الواسعة وذكائه الشديد وبخاصة ثقته بنفسه. ففي 1842، في اليوم الذي يظهر العدد الأول من (لاغازيت رينان) التي تعد أقل من ألف مشترك، يُسر هس إلى أحد أصدقائه، وهو برثولد أورباخ: «تستطيع أن تتهيأ للقاء الفيلسوف العظيم - وربما الحقيقي الوحيد - في الجيل الحالي (..) تخيل روسو وفولتير وهولباخ وليسينغ وهاينة وهيجل مجتمعين في شخص واحد - أقول مجتمعين وليسوا متجاورين -، فلديك الدكتور

ماركس». وفي آذار / مارس، يطلب هس منه كتابة سلسلة مقالات حول حرية الصحافة كرد فعل على «مرسوم كانون الأول / ديسمبر». ويكتب كارل عندئذ ستة مقالات ضد الرقابة، شارحاً أنه ليس من شأنها التدخل في الفلسفة. وتُنشر المقالات، فيقترح كارل بعد ذلك مقالاً حول الزواج المختلط يساند فيه فكرة أن الزواج بين شخصين مختلفين بالدين يمكن أن يكون علمانياً. لكن رئيس التحرير روتنبرغ يرفض المقال، معتبراً إياه متسامحاً أكثر من اللازم مع الشأن الديني. ويتصادم الرجلان. إذ يلوم كارل روتنبرغ على انتقاده الدين غافلاً عن أنه ليس إلا نتاجاً للظروف الاجتماعية. علاوة على أنه يعتقد أن روتنبرغ يتورط بخطورة مع المتطرفين الذين يجاهرون بازدراء تبسيطي للدين وللدولة البروسية، ويرسلون للصحيفة نصوصاً مضطربة عن الحرية. وينشر مقال ماركس أخيراً بقرار من هس.

لكن ماركس في نيسان / أبريل 1842، وفي بون دائماً، لا يبدو حذراً هو نفسه بصفة خاصة. إذ يتظاهر ضد الرقابة «لإغاظة الأتقياء، وصدم ضيقي الفكر، وإثارة سخط البورجوازيين»، ويساعد برونو بوير لإتمام (بوق يوم الحساب الأخير ضد هيجل، الملحد والمسيح الدجال) الذي بدأه قبل عامين، وينشر بتوقيع وهمي هو مسيحي تقليدي التفكير.

وهذا كله لا يساعد بوير في الحصول على رضى السلطة. ففي أيار / مايو، يطرد نهائياً من الجامعة. إذ يظل أي منصب عام محظوراً على كل من يدعي التشكيك بأسس الدولة أو الدين. ولا بوير ولا ماركس ولا أي شاب هيجلي آخر لديهم أقل فرصة لمواصلة مستقبل مهني جامعي.

لكن ذلك لا يعرقل الزواج مع جيني الذي حدد في شهر آذار / مارس التالي. ونادراً ما يأتي كارل إلى تريفز: فيرى قليلاً أمه وأخواته اللواتي تظل علاقاته معهن ممتازة. إلا أنه يقلق من مرض أخيه الذي يشتد.

ويلجأ جزء من الشباب الهيجليين عندئذ، ومنهم بوير الذي عاد إلى برلين، إلى التشاؤم الفلسفي وإلى التخلي عن السياسة. لكن كارل يرفض الانضمام إليهم: وهكذا لم تعد القطيعة بين المعلم والتلميذ بعيدة.

في تموز / يوليو 1842، هوجم ماركس في (لاغازيت دو كولونيه) من قبل رئيس التحرير، كارل هنريش هرمز، لأنه دافع في صحيفة هس عن فكرة زواج علماني؛ وجواباً عنه، يوضح كارل في الصحيفة نفسها، (لاغازيت دو كولونيه) أنه من أنصار دولة علمانية، حرة وعقلانية، على نمط الثورة الفرنسية، ويستخدم لأول مرة بهذه المناسبة مفهوم «التيمية» fetichisme للإشارة إلى الوسواس، المستمد من مؤلف لشارل دوبروس، ظهر في 1760. وفي آب / أغسطس ينحو باللائمة على المدرسة التاريخية للقانون التي يديرها كارل فون سافينيي، أستاذه السابق في برلين. وبحسب هذا المقال، يلومه الموظفون البرلينيون على «بثه في منطقة الراين الانحياز إلى فرنسا، والأفكار الفرنسية». فيوضع منذئذ تحت مراقبة شرطية شديدة. ولن ينفك مراقباً أبداً.

ويشرع كارل في عملية طويلة للانفكاك من تأثير أساتذته. فبعد هيجل وبوير وسافيني، يأتي دور روتنبرغ ليقاسي من هجوماته إلى الحد الذي يقرر فيه هس، صاحب الصحيفة، استبدال كارل برئيس التحرير، مقابل مرتب 500 تالر. أول وظيفة له، وآخر مرتب.

فيستقر الشاب حينئذ في كولونيا، ويأخذ بأعنة الـ(غازيت). وتلك بداية علاقة قوية بمهنة الصحافة التي سيمارسها حتى وفاته. فينوي جعل المجلة أكثر صرامة وتشدداً فيرفض بالخصوص بعض المقالات الجذرية أكثر من اللازم لبعض الشبان البورجوازيين في كولونيا، آخذاً عليهم افتقارهم للاستقامة الفكرية وازدراءهم للوقائع. ويقلق هس: إذ إن هؤلاء الشباب أصدقاؤه ومشتركوه في آن؛ لِمَ لا تتساهم؟ يرد كارل على هس برسالة حاسمة، يلوح فيها العنف والشعور بالتفوق لدى هذا الشاب ذي الأربعة والعشرين عاماً: «لقد أرسل إلينا ماير وأمثاله بالفعل أكواماً

من كتابات رديئة ملهبة للمشاعر، وخاوية من الأفكار، كتبت دون عناية، وخُلطت بشيء من الإلحاد والشيوعية (التي لم يدرسها هؤلاء السادة قط). فلم أعتقد أن علي تحمل أن تستخدم هذه الصحيفة لوقت أطول مِكباً للنفايات». كلام لا رجعة فيه. إنه المعلم!

في 16 تشرين الأول / أكتوبر 1842، وإذ توفي أخوه لتوه في تريفز، يكتب كارل أول مقالاته السياسية: «الشيوعية و(دي أوغسبرغر ألجيمين زيتونغ)» يشرح فيه أن «الشيوعية» حركة ترجع أصولها إلى أفلاطون، وإلى الطوائف اليهودية وإلى الأديرة المسيحية الأولى، وأنها تتقدم في فرنسا، وفي بريطانيا العظمى وفي ألمانيا.

وإلى تلك الفترة يرجع موت أخيه والقطيعة مع أمه وأخواته اللواتي يتخلى عنهن تماماً، فيلمنه سواء على آرائه السياسية أم على لامبالاته بمصيرهن. والواقع أنه لم يعد لديه ما يقوله لهن. ولن يطأ عملياً أبداً تريفز، ولن يرى إلا في فترات متباعدة جداً عائلته. ذلك أن تريفز، كانت أباه، ولا شيء غير ذلك.

وفي اللحظة نفسها بالضبط تنشر (الحوليات الألمانية) لأرنولد روجيه «الرجعية في ألمانيا»، وهو نص سياسي للمدعو جول إليسار، الاسم المستعار لمثقف روسي شاب، هو ميشيل باكونين: «أوه! إن الجو ثقيل ويحمل العاصفة في جنباته؛ ولهذا نصيح بإخواننا المتعامين (..): افتحوا أعين العقل، اتركوا للموتى مهمة دفن ما هو ميت، وافهموا أخيراً أنه ليس ضمن الخرائب المتهاوية ينبغي البحث عن العقل الفتي أبداً، الوليد أبداً!» الذي سيكون بعد ثلاثين سنة ألد أعداء ماركس.

في هذا الشهر ذاته تشرين الأول / أكتوبر 1842، يحظر قانون في منطقة الراين جمع دِقاق الحطب والأغصان من الغابات الخاصة، تحت طائلة السجن. ولتبرير هذا النص يصرح أرستقراطي في مجلس منطقة الراين: «فلأن اختلاس الحطب لا يعتبر سرقة، يحدث مراراً». وعلى هذا يرد ماركس في تشرين الثاني بمقال غاضب: «سيستطيع المشرع، عن

طريق المماثلة، استنتاج: لأن الصفعة لا تعتبر كجريمة قتل، أصبحت متفشية هكذا. وعليه إذاً التقرير بأن الصفعة جريمة قتل».

يُظهر له التحضير لهذا المقال المتعلق بالملكية أن معارفه في الاقتصاد السياسي لا تزال ضعيفة. فينهمك عندئذ في قراءة الاشتراكيين الفرنسيين. يقرأ كتابات سان سيمون - الذي طالما حدثه عنه أبوه -، الذي يؤكد المساواة بين الرجال والنساء، وأولية الاقتصادي على السياسي، ويتكلم هو أيضاً عن الطبقات: «قبل الثورة كانت الأمة منقسمة إلى ثلاث طبقات، هي: النبلاء، البورجوازيون، والصناعيون (العمال في الصناعة). فالنبلاء يحكمون والبورجوازيون والصناعيون يدفعون لهم. أما اليوم، لم تعد الأمة منقسمة إلا إلى طبقتين هما: البورجوازيون والصناعيون..» ويقرأ مؤلفات سيسموندي، الذي يرى أن العمل ينتج أكثر مما يَعد الأجر بشرائه؛ ويكتشف لديه مصطلحي القيمة الفضلى والقيمة المضافة، كما يكتشف تحليلاً أولياً لتركز رأس المال ولإفقار الطبقة الكادحة (البروليتاريا)؛ إذ يقترح سيسموندي التسليم للأجراء بملكية رأس المال، وإلزام أرباب العمل بدفع الأجور حتى في حال البطالة التقنية أو المرض. ويقرأ لجيمس مل، والد جون ستيورات، الذي يوحي بتكوين تعاونيات عمالية و-منتهى الجرأة بالنسبة لتلك الحقبة- تحديد الميراث تبعاً لثروة الوارث. ويقرأ لروبيرت أوين، المحسن الأمريكي العائد إلى إنجلترا الذي يرى أن «طبع الإنسان مُنْتَج، ليس الإنسان إلا مادته الأولية»، وينادي بنظام اجتماعي، تلغى فيه الملكية الفردية. ويقرأ أعمال لويس بلان الذي يقترح فتح مشاغل وطنية ويوصي بالتخطيط. ويقرأ مؤلفات شارل فورييه الذي يقترح إنشاء جمعيات إنتاجية كبيرة تكون فيها كل المناشط الإنسانية على النظام الفردوسي، ومن يعملون فقط لهم الحق في الملكية: «لا يمكن أن يؤسَّس الحق الفردي في الملكية إلا على المنفعة المشتركة العامة لممارسة هذا الحق، وهي منفعة قد تتنوع بحسب الزمان (..). فبقدر ما تتزايد الملكية، يزداد إرغام العامل على القبول بثمن بخس

لعمل يتنافس عليه الكثيرون؛ ومن جهة أخرى، بقدر ما يزداد عدد التجار، يزداد لجوؤهم إلى الخداع نتيجة لصعوبة الأرباح (..). وكل ماهر هو في حرب مع الجمهور، وسيء النية تجاهه من أجل مصلحته الشخصية».

ويقرأ أيضاً مؤلفات برودون، هذا العصامي الجوراسي (من منطقة الجورا)، ابن صانع براميل أفلس، فعمل بالطباعة والتصحيح، بين منحتين دراسيتين، ونشر لتوه كما ذكرنا، (ما هي الملكية؟ إنها السرقة)، وهو مؤلف يكتب فيه: «خمسة آلاف عام من الملكية تدل على أن الملكية هي انتحار المجتمع»، ويقترح فيه إنشاء تعاونيات يكون كل العمال فيها مالكين لأداة الإنتاج، وينتخبون رؤساءهم.

يرى كارل ماركس عندئذ أن الاقتصاد أساس لكل العلوم الاجتماعية الأخرى. وأن لا شيء يمكن له الإفلات من قوانينه أو من قوانين المادية. فيتخلى عن الشيوعية الطوبائية ليبتدع الاشتراكية العلمية. ويكتب في تشرين الثاني / نوفمبر 1842، بـ(لاغازيت رينان): «إن العقل الذي يبني المنظومات الفلسفية في دماغ الفلاسفة هو نفسه الذي يبني السكك الحديدية بأيدي العمال.» ومنذئذ، يعتقد حتى أن منطقاً مادياً قيد العمل، يجعل الفن والفلسفة والقانون تابعة للبنى الاجتماعية – الاقتصادية وللملكية.

المادية! إن التجديف مطلق. وقد طفح الكيل، فيوجه حاكم الولاية، هر أوبربراسيدنت فون شابر، إنذاراً لكارل الذي يرد بحذر وأدب: إذ لا مجال لتعريض (الغازيت) للخطر. فترسل الشرطة عندئذ من برلين ويلهلم سانت – بول، رقيباً خاصاً، لمراقبة كل مقال والتأشير عليه قبل إرساله إلى رئيس حكومة الولاية كارل هنريش غيرلاخ في كولونيا.

في هذه اللحظة بالذات، في 16 تشرين الثاني / نوفمبر 1842، يصل إلى مقر الصحيفة في كولونيا، شاب يصغر كارل بسنتين، صودف قبل عام في برلين، هو فريدريك إنجلز، مقترحاً مقالاً، لكن دون أن يلتقي رئيس التحرير الشاب. وضاعت فرصة اللقاء الثانية بين ماركس وإنجلز.

وتنال (لاغازيت رينان) تحت إدارة ماركس نجاحاً واضحاً. إذ يتضاعف عدد مشتركيها ثلاث مرات، ويسارع الكثيرون للكتابة فيها.

ويواصل ماركس الحرب على كل الجبهات. وها هو الآن يواجه أستاذه برونو بوير علناً فيما يتصل بوضعية اليهود. إذ يؤكد بوير أن الواجب عدم منحهم حقوقاً وحريات سياسية إلا بشرط اعتناقهم المسيحية. لكن ماركس الذي لم ينس قط المذلة التي عانى منها أبوه قبل ولادته، حتى وإن لم يحدثه عنها إلا قليلاً، يعتقد على العكس، كما كتب في مقالين بـ(الغازيت)، بأن التحرر السياسي يجب أن يمنح لهم دون إرغامهم على صرف النظر عن هويتهم الدينية، كما هي الحال في الولايات المتحدة، وكما كان وضعهم في منطقة الراين إبان احتلالها من قبل الفرنسيين. وسيشكل هذا التحرر السياسي تقدماً عظيماً لألمانيا، وما من سبب في رأيه لتفضيل المسيحية التي ليست أكثر قبولاً من اليهودية. غير أنه يضيف أن هذا التحرر السياسي لن يكفي لضمان حق الضعفاء منهم؛ لأن الحرية ليست مجرد وضعية فردية، بل نتيجة لوضع جماعي، وما من حرية ممكنة طالما لم يجر التخلص من كل دين، وليس من اليهودية بالخصوص. وهكذا يُدخل تمييزاً بين «التحرر السياسي» وما يسميه بتعبيرات غامضة «التحرر الإنساني» ولم يوضح بعد محتواه.

بعد قطيعته هكذا مع بوير في كانون الأول / ديسمبر 1842، يختصم في كانون الثاني / يناير 1843، مع ويلهلم ويتلنغ، الخياط - الكاتب، إذ يجده أحمق ومزهواً بنفسه. والوحيد من أصدقائه القدامى في الدكتور كلوب ببرلين، الذي لا يزال متفاهماً معه هو أرنولد روج، الأستاذ في هال، الذي يواصل من برلين نشر (الحوليات الألمانية) وهي المجلة الوحيدة باللغة الألمانية التي يعجب بها كارل، مثلما أن صحيفة كارل هي الوحيدة التي يتنازل روج باحترامها في ألمانيا.

لكن كارل يرتكب خطأً: ففي الـ(غازيت رينان) ليوم 4 كانون الثاني / يناير 1843، يوقع على هجوم يتهم روسيا القيصرية بأنها الداعم

الرئيس للدكتاتوريات الأوروبية، وستكون هذه الكراهية للدكتاتورية الروسية، على كل حال، إحدى ثوابته التي ستجعله يحكم دائماً على سياسة خارجية ما، في ضوء ما تقدم للقيصر أو تكلفه. وما إن علم نيقولا الأول حتى طلب من حليفه البروسي أن «يمسك» صحافته جيداً. فيندد غليوم الرابع في 21 كانون الثاني / يناير بـ«وجود ونشاطات هذه العصبة من اليهود» الذين يجرؤون على نشر صحيفة يأمر بإغلاقها قبل 31 آذار / مارس القادم. ويريد المساهمون التفاوض مع السلطة. ويعرض جورغ يونغ على ماركس تعويضاً بمبلغ 1000 تالر إذا استقال. وهو ما يقبل به ماركس دون أسف: فـ(الغازيت) جد متواضعة بالنسبة لمطامحه.

لكن مغادرته الصحيفة لا ينقذها مع ذلك، كما لا ينقذ الكثير غيرها: إذ يحصل فريدريك - غليوم الرابع من حكومة ساكس أيضاً على تعليق (الحوليات الألمانية) لأرنولد روج و(لاغازيت يونيفرسيل) في ليبزيغ التي يديرها غوستاف يوليوس. فلم يعد ممكناً في بروسيا لأحد أن يكون صحافياً أو أستاذاً للفلسفة إذا لم يكن بإمرة السلطة.

وكارل ليس مندهشاً، ويربط هذا المنع جزئياً بالموقف الذي اتخذه مؤخراً حول حق الملكية. وهو يرى أن هذا المنع «يجعل الوعي السياسي في ألمانيا يتقدم»، كما أنه ليس منزعجاً من استعادة حريته.

وفي هذا الوقت يقترح أرنولد روج عليه دمج الصحيفتين في واحدة، يشتركان في نشرها وتوزيعها من جنيف.

يميل كارل للقبول. فهو في الرابعة والعشرين. وقد قطع العلاقات لتوه مع أمه وأخواته اللواتي لا يرضين عن التزاماته السياسية التي يرينها الآن «مبتذلة» ولا تليق ببورجوازي من تريفز. ولا شيء يبقيه في منطقة الراين سوى جيني التي سيتزوجها قريباً. والحال أنها مستعدة لمرافقته في أي مكان.

في 25 كانون الثاني / 1843، يكتب إلى روج، وهو الآن موطن سره: «لقد تعكرت علاقاتي مع عائلتي، وطالما بقيت أمي على قيد الحياة، لن

يكون لي أي حق في نصيبي من الميراث (..). إن من المحزن التكفل بالأعمال الخَنوع حتى من أجل قضية الحرية، والقتال بدبابيس عوضاً عن الهراوات. لقد كنت متعباً من لفنا ودوراننا، ومن حركاتنا البهلوانية، ومن كل هذه الثرثرة. فالحكومة حررتني إذاً». ويضيف: «نحن نأتي للعالم بالمبادئ التي طورها هو في صميمه. نحن نبين له فقط بصفة دقيقة لماذا يناضل، وأن وعيه بذاته شيء عليه اكتسابه». وهذه الجملة الأخيرة توجز كل ما بقي له من الحياة.

هل سيغادر؟ إن العديد من الديمقراطيين يغادرون البلاد، معتقدين بأنه لم يعد أي شيء ممكناً فيها. الكثيرون يذهبون إلى باريس، بروكسل، لندن أو نيويورك. فلنتخيل هذه المجموعة من المنبوذين الألمان في طرقات العالم. ومنهم باكونين الذي يقيم في بيرن لدى عائلة البروفيسور ويلهلم فوغت – الذي سنتحدث عنه.

في بداية آذار / مارس 1843، أثناء التحضيرات للزواج وعلى الرغم من الجهود التي يبذلها فرديناند لإقناع أبيه بمنع أخته غير الشقيقة من الزواج بهذا اليهودي الثوري، يتحدث كارل وجيني عن مغادرة ألمانيا، ربما إلى جنيف أو ستراسبورغ. وتظن جيني أن هذا لن يكون لوقت طويل: فالتسلطية لن تدوم أبداً، وستكون الغلبة في النهاية للمبادئ الديمقراطية. وهي منحازة إلى مُثُل ماركس، وأكثر منه تشدداً أحياناً. وتهيء نفسها للعيش بمال أقل بكثير مما كان لديها حتى الآن. فترسل إلى كارل الذي كان آنذاك في كولونيا، رسالة مفعمة بخفة الروح، تأخذ عليه فيها ببراعة عدم كتابته لها منذ مغادرته، وإنفاقه الكثير: «على الرغم من أن مؤتمر قمة القوتين العظيمتين الأخير لم يكن واضحاً حول نقطة، وأن ما من معاهدة نصت على الإلزام بالشروع في مراسلة، ولا توجد بالتالي أية وسيلة انتقامية، فإن الكاتب الصغير ذا الشعر المعقوص يعتبر نفسه ملزماً بافتتاح الرقص..» وباللهجة ذاتها، تواصل: «ألا تذكر مناقشاتنا اللامعة، وحزازيرنا، وساعات خمولنا؟» ثم، للمرة الأولى، تتكلم عن الحال

كما لو كانا متزوجين: «عندما ذهبتَ، جاء الحلاق مطالباً بدينه. ولم أستطع أن أطلب منه الباقي مما أعطيته له (..). بصفة عامة يا عزيزي، لا تشتر شيئاً بدوني، بحيث إذا ما سَرَقنا أحد، نُسرق معاً (..). وإذا أردت شراء زهور، فلتكن وروداً، لأنها تنسجم أكثر مع فستاني الأخضر. لكن من الأفضل ألا تفعل (..). إلى اللقاء، محبوبي الوحيد، زوجي الأسود اللطيف. ماذا؟ كيف؟ يا لمظهرك الخادع! تالاتا، إلى اللقاء، اكتب سريعاً، تالاتا، تالاتا!».

في 13 آذار / مارس 1843، يتكلم كارل ماركس مع أرنولد روج عن زواجه القريب، المقرر في الأسبوع التالي: «أستطيع أن أؤكد لك دون أي رومنطيقية إنني أحب بجنون (..). أنا خطيب منذ أكثر من سبعة أعوام، وكادت خطيبتي أن تتلف صحتها وهي تخوض من أجلي أشد المعارك..» ويكرر في الرسالة ذاتها وجهة نظره حول تحرر اليهود مضيفاً توضيحاً هاماً: «استقبلت لتوي رئيس الطائفة اليهودية هنا (لا يقول إن اسمه رافائيل ماركس)، الذي طلب مني أن أقدم عريضة للمجلس الولائي لصالح (تحرير) اليهود، وأنا مستعد لعملها. فمهما كانت كراهيتي شديدة للدين اليهودي، تظهر لي وجهة نظر بوير في إلزام اليهود اعتناق المسيحية مجردة أكثر من اللازم. والغاية هي عمل ما أمكن من الفجوات في الدولة المسيحية، وإدخال العقلاني خلسة بقدر ما نستطيع». فاليهودية بالنسبة لكارل وسيلة لإدخال العقلاني في الدولة المسيحية. ويفاجأ الجميع بمن فيهم ماركس، إذ يوافق المجلس على الالتماس رافعاً اليهود لأول مرة في تاريخ ألمانيا إلى مصاف المواطنين العاديين.

إلا أنه بعد ثلاثة أيام من هذه الرسالة، يتوفى والد جيني، فيؤجل الزواج ثلاثة أشهر، وترسل البارونة فون ويستفالن جيني إلى منزلهم في باد كروزناخ، وهي مدينة للمياه المعدنية، حتى تبعدها عن تأثير أخيها غير الشقيق الذي يبذل قصاراه خلال جنازة أبيهما لإقناعها بالتخلي عن هذا الزواج غير المتكافئ.

يلتحق كارل بجيني في باد كروزناخ، حيث يلتقي ثانية الشاعرة بيتينا فون أرنيم التي كان يتردد سابقاً على صالونها البرليني، والتي تحتكره لنزهات طويلة، على حساب جيني.

وبعد ثلاثة أشهر، في 19 حزيران / يونيو 1843، يتزوج كارل جيني فون ويستفالن في معبد بادكروزناخ البروتستانتي. وها هنا أيضاً، بعد موت قريب - موت والد جيني هذه المرة - تتقرر الانعطافات الكبرى. إذ يضعهما العقد تحت نظام الملكية المشتركة مشترطاً أن «يظل كل من الزوجين المسؤول الوحيد عن الديون التي ربما استدانها أو قد يكون ورثها قبل الزواج».

وسينتقد كتّاب السير كثيراً هذا الزواج، ويعيبون على ماركس انجذابه إلى الأرستقراطية (أي، كما كتب له أبوه، عن الذين لا يتكلمون عن المال) ورغبته في التحرر من العمل، ونزع الاغتراب عنه. لكن كل شيء قيل بهذا الشأن في رسالة هنريش الأخيرة لابنه، منذ خمس سنوات.

بعد ذلك بكثير، ستكتب إحدى بنات الزوجين، لورا ماركس: «بما أنهما لعبا طفلين معاً، وجرت خطبتهما صغيرين، ظلا معاً في معركة الحياة. وأية معركة! سنوات يعانيان الحاجة، ومن الاشتباه بهما على الدوام ومن الافتراءات، ضحية للامبالاة باردة. وعبر كل هذا، في السراء والضراء، لم يضعفا قط مخلصين أحدهما للآخر حتى الموت الذي لم يفرق بينهما. فماركس كان عاشقاً لزوجته».

وبعد ذلك بكثير أيضاً، سيتحدث شارل لونغيه، زوج ابنته جيني في صحيفة (لاجوستيس) [العدالة] عن معارضة أخ جيني الأكبر غير الشقيق فرديناند لهذا الزواج، مضيفاً إليها معارضة عم يدعى جورغ.

وعند قراءته لهذا قبل وفاته بسنة، سيحتج كارل لدى جيني الجد مريضة عندئذ، بقسوته وسوء نيته المعهودتين: «كل هذه القصة مجرد اختراع. فلم تكن هناك أفكار مسبقة يجب التغلب عليها. وأنا لا أخطئ إذ أُرجع هذه المبالغة الأدبية إلى عبقرية السيد شارل لونغيه الإبداعية.

وسيسدي السيد لونغيه إليَّ معروفاً عظيماً بعدم ذكر اسمي أبداً في كتاباته».

ما إن تزوجا، حتى يمضي كارل وجيني في شهر عسل إلى شلالات الراين. فينفقان دون حساب من نزل إلى نزل، ويُمضيان صيف 1843 في منزل باد كروزناخ. هو في الخامسة والعشرين؛ وهي في التاسعة والعشرين. وقد حمل كارل خمسة وأربعين مجلداً، فيقرأ روسو ومونتيسكيو وماكيافيللي وديدرو الذي يرفعه إلى الذروة، وفويرباخ الذي نشر لتوه (الأطروحات المدخلية لإصلاح الفلسفة). ولم يتخل عن أي من مطامح مراهقته، ويضع لنفسه برنامجاً للسنوات القادمة: أن يكون أعظم الفلاسفة، ويربط بين المعارف، بخلاف المفكرين الآخرين الذين سبقوه، ويعمل نقداً للنظام القائم متكلماً لغة عصره المفهومة من قبل العمال المطلعين. وهكذا قُرر كل شيء إبان هذين الشهرين من أول سعادة زوجية.

لكنهما لا يبقيان وحيدين طويلاً: إذ يأتي أرنولد روج لمناقشة مشروعهما المشترك. فأين يُنقل مقر الصحيفة؟ إلى سويسرا التي تنصاع أكثر فأكثر إلى أوامر برلين؟ أم إلى بروكسل، حيث الجالية الألمانية قليلة العدد؟ ويختاران باريس، حيث لجأ القسم الأكبر من الألمان. وترحب جيني: باريس!.. ويتهيئون للسفر. وسيسكنون معاً عند جورغ هيرويغ، الشاعر الشهير، صديق أرنولد، الثري من زواجه، الذي استقر في باريس لتوه.

يقترح ماركس عنواناً لمجلتهم الشهرية المزمعة: (الحوليات الفرنسية - الألمانية)، لعقد الصلة بين الفلسفة الألمانية والممارسة الثورية الفرنسية. ويقبل الناشر فروبل في درسدن الذي يموله روج أن يوزع مجلتهم في ألمانيا.

غير أن الصديقين ليسا متفقين بعد على الآفاق: فروج يأمل في حركة للبورجوازية الألمانية. أما ماركس الأكثر جذرية، فلا يؤمن بثورة بورجوازية، ويراهن على تدخل شعبي، منددأ بـ«نظام الصناعة والتجارة،

وبالملكية وباستغلال الإنسان» الذي يفضي إلى «قطيعة ضمن المجتمع الحاضر».

في ذلك الصيف، يعمل كارل في باد كروزناخ بمؤلفين: (نقد فلسفة هيجل في الحقوق) و(المسألة اليهودية)، يقدم فيهما كليهما البروليتاريا كقوة تاريخية قادرة على قلب العلاقات الاجتماعية وتحقيق هذا «التحرر الإنساني» الذي تكلم عنه من قبل.

ويكتشف حينما يكتب أنه يستطيع مناقشة جيني في أفكاره وقراءاته ومخطوطاته. فتصبح هكذا أول قارئاته وستظل الوحيدة القادرة على قراءة خطه تماماً؛ حتى إنه يجعلها تنسخ نصوصه قبل إرسالها إلى المطبعة.

وفي (إسهام في نقد فلسفة هيجل في الحقوق) يقترح على غرار فويرباخ «قلب الجدل الهيجلي لوضعه على قدميه»، أي الانطلاق ليس من مبدأ نظري، بل من ظروف الحياة الواقعية لبني الإنسان. وهو يزعم أن البشر هم الذين خلقوا الله على صورتهم، وأن الصلاة تبعدهم عن المطالبة الاجتماعية. ويصوغ لأول مرة فكرة أن الوظيفة التاريخية للبروليتاريا هي قلب الرأسمالية. ويكرر، على خلاف هيجل، أنه ليست الدولة هي التي تُسيِّر التاريخ، بل التاريخ هو الذي يشكل الدولة؛ وأن بني الإنسان لا يتمكنون من التحرر إلا بفعلهم وليس بنزوة من مُحسن أو بإرادة ديكتاتور متنور. إذ لا يمكن للثورة أن تأتي إلا من «طبقة محرِّرة بامتياز»، في مقابل «طبقة الاضطهاد بامتياز». ويأخذ على فويرباخ عدم فهمه أن بني الإنسان، لحاجتهم إلى الأخوَّة، يتقبلون الدين الذي يمنحهم الشعور بالانتماء إلى جماعة، مؤكداً، على عكس رفاقه السابقين في الدكتور كلوب، أن الدين ليس إلا النتاج والانعكاس المشوه للظروف الاجتماعية التي يعيشها بنو الإنسان. «إن الدين تأوه المخلوق المضطّهد، ومشاعر عالَم دون روح. إنه أفيون الشعب». الدين «أفيون الشعب»: قول سمعه من موزيس هس. فالإنسان هو غاية العمل الإنساني. إذ يؤكد «أن الإنسان بالنسبة للإنسان،

هو الكائن الأسمى».. ولاهتمامه بالتذكير بوضعه كعالم، يضيف: «نحن نحمل للعالم المبادئ التي طورها العالَم في صميمه». ويطلق ضد الهيجليين اليساريين هذا التحريض المنذر الشهير: «لا يمكن لسلاح النقد أن يعوِّض نقد الأسلحة. وينبغي القضاء على القوة البدنية بالقوة البدنية؛ لكن يمكن للنظرية أيضاً أن تصير قوة بدنية ما إن تستحوذ على الجماهير». أخيراً، وفي تعارض مع روج الذي يؤمن بثورة بورجوازية وشيكة في ألمانيا، يستنتج ماركس: «إذا لم تستطع ألمانيا التصدي لتحرر إنساني جذري، فذلك لأن السبيل إلى ثورة بروجوازية ممنوع عليها نتيجة لتخلفها السياسي ذاته (..). ذلك أن ألمانيا التي تحب التعمق في الأشياء، لا تستطيع القيام بثورة دون أن تقلب كل شيء رأساً على عقب. وتحرر ألمانيا هو تحرر الإنسان (..). فعندما تتحقق الشروط الداخلية، سيُعلن يوم البعث الألماني من قبل الصياح المدوي للديك الغولي [الفرنسي]».

ومن هنا انبهاره بالوضع السياسي الفرنسي، طليعة الإصلاح في أوروبا، الذي يبتهج بالذهاب للإطلاع عليه من كثب. فستكون فرنسا التي طالما أحبها أبوه، مرجعاً له طوال حياته. ويتكلم لأول مرة عن «الثورة البروليتارية» ويماهي قضية الطبقة الكادحة الأوروبية بهذه الإرادة في الجمع بين المثال العقلاني الأعلى والحياة الواقعية. ويكتب لروج معبراً عن ابتهاجه للذهاب: «إلى باريس، المدرسة القديمة للفلسفة، والعاصمة الجديدة للعالم الجديد».

وفي الوقت ذاته، يهذب في نص آخر حول «المسألة اليهودية»، رده على برونو بوير حول التوافق بين التحرر السياسي والهوية الدينية، وحول تصوره لـ«التحرر الإنساني» كذلك. فالتحرر الإنساني يفترض بالنسبة له وضع حد للاغتراب الديني، ويقتضي تحريراً للعمل.

فالتحرر التام لليهود لا يقتضي إذاً اعتناقهم المسيحية، مثلما فُرض على أبيه وعليه هو نفسه، بل زوال كل الأديان التي لا تشكل اليهودية فيها إلا تعبيراً بين تعبيرات أخرى: «إن التحرر السياسي

لليهودي، والمسيحي، وللإنسان المتدين بكلمة مختصرة، هو تحرر الدولة إزاء اليهودية والمسيحية، والدين بصفة عامة..».

والتخلص من اليهودية، يعني أيضاً التخلص من المال. وهنا يصل إلى الجوهري – أي الصلة بين اليهودية والمال: «إن المال هو إله إسرائيل الحسود الذي لا يجب أن يبقى أمامه أي إله آخر». وقد تعلم من تاريخه الخاص أن يماهي اليهودي بشخصية التاجر. إذ يكتب ماركس: «ما هو المعنى الدنيوي لليهودية؟ إنه الحاجة العملية، والنفع الشخصي. ما هي العبادة الدنيوية لليهودي؟ إنها التجارة. ما هو إلهه الدنيوي؟ إنه المال. (..) والجنسية الوهمية لليهودي هي جنسية التاجر، جنسية رجل المال». فبالتخلص من اليهودية، يتم التخلص من المال الذي «يحط من آلهة الإنسان جميعاً ويحولها إلى سلع. ذلك أن المال هو القيمة العامة والمكوَّنة في ذاتها لكل شيء». وفي المجتمع البورجوازي، «الرابط الوحيد الذي يوحد هو الضرورة الطبيعية، الحاجة والمصلحة الخاصة، المحافظة على ملكيتهم الخاصة وعلى أشخاصهم الأنانيين».

إن التخلص من اليهودية سيسمح في آن بتقويض المسيحية والرأسمالية التي تشكل اليهودية أساسها. «بما أن الهوية اليهودية مؤسِّسة، فالتخلص منها يعني التخلص من المسيحية التي تنجم عنها، ومن الرأسمالية التي واصلت المسيرة. فلا تبلغ اليهودية ذروتها إلا مع كمال المجتمع البورجوازي، لكن المجتمع البورجوازي لا يبلغ كماله إلا في العالم المسيحي». ولتحرير المؤمنين، ولكن أيضاً الوطنيين، ينبغي التخلص من كل الأديان، ومن كل الأمم أيضاً، مع الرأسمالية التي تؤسسها، ومع حقوق الإنسان التي «لا تعني إلا الإنسان الأناني، الإنسان باعتباره عضواً في المجتمع البورجوازي، أي فرداً منفصلاً عن الجماعة، منشغلاً فقط بمصلحته الشخصية ومنصاعاً لحكمه الخاص» ولهذا «فعندما يكون الإنسان تعرَّف ونظم قواه الشخصية كقوى اجتماعية، فقط سيكون التحرر الإنساني مكتملاً».

وهكذا فاليهودية والدين والروح الفردية والمال، لا يمكن الفصل بينها بالنسبة لماركس. وللتحرر من المال، لا بد من التحرر من كل الأديان، واليهودية على وجه الخصوص لأنها تؤسسها. وبتحرير اليهودي من كل هوية دينية، ستُلغى أسس كل تدين، كما تلغى أسس الرأسمالية التي يشكل الدين رحمها. وستُفتح الطريق لتحرر كل البشر، ولتحويل الدول «اللاهوتية» إلى مجتمعات مدنية يكون الإنسان فيها «كائناً دنيوياً».

وهكذا، بعد زواجه في كنيسة بروتستانتية، وقطيعته مع أعدائه البرلينيين، يدير كارل ظهره لسني شبابه، وهو يتهيأ للذهاب إلى باريس، تاركاً وراءه أمه وأخواته الأربع، وقبر أبيه وقبر أخيه، وقبري اثنتين من أخواته، وقبور كل أسلافه. كما يظن على الأقل. لأنه سيكتب بعد ذلك بوقت طويل: «إن تقاليد كل الأجيال السابقة تُثقل كالكابوس على دماغ الأحياء».

الفصل الثاني

الثوري الأوروبي

تشرين الأول / أكتوبر 1843 – آب / أغسطس 1849

في 3 تشرين الأول / أكتوبر 1843، يطلب كارل قبيل مغادرة تريفز وبروسيا من فويرباخ أن يكتب مقالاً لمجلته الباريسية ضد شيللينغ، وهو فيلسوف مثالي هام يهيمن آنذاك على جامعة برلين.

ولا يعلم إلا لدى وصوله إلى باريس أن فويرباخ يرفض لكي لا يتورط مع مديريه في النقاش السياسي الذي لا يليق بمقامه. فمكان «الفيلسوف الملتزم» في السياسة شاغر إذاً: وكارل سيشغله. كفيلسوف في المقام الأول، ومن ثم كمفكر شامل، حتى يصير هو نفسه قائداً ثورياً. وفي باريس سيتم هذا الانزلاق خلال السنتين الصاخبتين اللتين سيقضيهما فيها.

والمدينة التي يصل إليها جيني وكارل في 11 تشرين الأول / أكتوبر 1843، لا تزال عاصمة العالم الفكرية. وفي الجانب الاقتصادي، تشرع الصناعة في التطور بفرنسا على النمط الإنجليزي حول صناعتي الحديد والصلب والنسيج؛ وصراع شديد ينشب بين الملاك العقاريين، أسياد الزراعة والجيش، والبورجوازية الجديدة المتحكمة بالمال وبالمصانع. ولا شك في أن الرأسمالية الصناعية الفرنسية أقل تقدماً من نظيرتها البريطانية. لكن تطورها لا يقل تأثيراً على المجتمع الفرنسي بأسره. فتندلع اضطرابات عديدة جنوب البلاد، كرد فعل على الشروط التي

تُفرض على العمال من قبل أرباب عملهم. والفساد المستشري في قمة الدولة وضمن الإدارة يغذي تحدياً عميقاً إزاء السلطة، ينذر بأزمة وشيكة الوقوع.

أما سياسياً، فالوضع مشلول نتيجة لجمود لويس - فيليب، ولدسائس غيزو، ولمطامح تيير. ويظل النظام المؤسساتي نظام ملكية تسلطية، لكنه أقل استبداداً من غيره بكثير في كل مكان بأوروبا. ففي فرنسا آنذاك 750 صحيفة، 230 منها في باريس! ويتحدث الحالمون فيها علناً عن «ثورة» مستخدمين دون تمييز في خطاباتهم ومقالاتهم كلمات «ديمقراطيين» و«اشتراكيين» و«شيوعيين، للإشارة إلى المنادين بالاقتراع الشامل، وبالتعليم المجاني للجميع، وبتحسين ظروف حياة الأكثر فقراً. ويسمى أصحاب المنشآت أحياناً «رأسماليين». وبينما لوحق برودون في 1840 ثم بُرئ لأنه كتب: «ما هي الملكية؟ إنها سرقة»، يستطيع لامارتين الاستنكار دون مخاطرة إذ يكتب في 1843: «عوضاً عن العمل الحر والصناعة الحرة، بيعت فرنسا للرأسماليين!».

فباريس إذاً، مع جنيف وبروكسل ولندن، أحد ملاذات المهاجرين الذين يتدفقون في موجات من أنحاء أوروبا الوسطى، وبخاصة من ألمانيا، فراراً من الرقابة السياسية ومن اضطهاد الشرطة. البعض يصلون بعد المرور بسويسرا، كالخياط ويلهلم ويتلنغ، أو مباشرة من بروسيا كابني رجال المصارف لودفيغ بامبيرغر وجاكو فينيدي، والشاعر الألماني الشهير آنذاك جورغ هيرويغ.

وللألمان في باريس عدة صحف منها (باريزير هورن) [الساعات الباريسية] وبخاصة (فوروارتز) [إلى الأمام]، وهي أسبوعية أسسها هنريش برنشتاين، كأول نشرية يسارية باللغة الألمانية غير مراقبة في أوروبا. ويجتمعون في نوادٍ عديدة، يُقرأ على واجهاتها بعدة لغات على الأغلب: «كل بني الإنسان أخوة». وتعج بالجمعيات السرية، ومنها عصبة المنفيين التي أسسها في باريس 1836 ويتلينغ، وهي منظمة بأسلوب

هرمي، مع فروع محلية، وحلقات وسلطة مركزية. وكل هذه الحركات تشكل موضوع مراقبة لصيقة من قبل شرطة لويس - فيليب.

عندما يصل كارل، وهو في الخامسة والعشرين، إلى باريس، يتذكر والده المواطن الفرنسي لبعض الوقت، الذي درس بالفرنسية القانون الفرنسي، المحب للثورة الفرنسية التي سمحت له بممارسة مهنته باعتباره يهودياً، ثم فُصل عن فرنسا في 1815. هذا الأب الذي كان ينظر إلى فرنسا على أنها الورشة الرئيسية للتقدم الاجتماعي، وإلى الطبقة العمالية الفرنسية كطليعة للثورة العالمية. هذا الأب، بثقافاته الممتزجة الثلاث - اليهودية، الألمانية، الفرنسية - الذي عرف جيداً كيف ينقل إلى ابنه تذوق الحرية والنزعة العالمية. يتذكر كل أحاديثه معه، التي يود كثيراً لو يستأنفها هنا، في باريس. إنه لا يزال يحمل في جيب سترته الصورة التي أعطاه إياها في لقائهما الأخير، صيف 1837، وغالباً ما ينظر إليها.

مع أن هنريش ماركس لم يمت إلا منذ خمسة أعوام، إلا أن كثيراً من الأشياء حدثت بعد ذلك! فكل ما كان يحيط بالشاب آنذاك اختفى. إذ فقد أباه الثاني، البارون ويستفالن. وفقد أخاه واثنتين من شقيقاته. وتخلى عن كل أمل في أن يصير أستاذاً، كما كان ينتظر والده. ونأى بنفسه عن أمه وعن شقيقاته الأربع.

ولا يتوفر إلا على القليل من المال، دفعته له والدته ووالدة جيني - التي بكت كثيراً لدى مغادرتهما -، تضاف إليه الـ 1000 تالر، وهي مبلغ التعويض الذي دفعه أصحاب مجلة كولونيا، داغبرت أوبنهايم، وموزس هس، وجورغ يونغ. وقد وعده أرنولد روج الذي يمسك بمالية مجلتهما المشتركة بـ 550 تالر، راتباً شهرياً، يُضاف إليها 250 تالر كعائد عن كل عدد. وهو ما يمثل في باريس دخلاً أكثر من جيد. لكن هناك جيني بالخصوص، امرأة حياته التي لم يكن يجرؤ على الحلم بأنها ستتزوجه، وهي هنا معه، حاملاً، ولا شيء مزعج يمكن أن يحصل له.

وهو يأمل، على غرار كل الألمان الذين يصلون الوقت ذاته إلى

باريس، في أن تكون مدة المنفى قصيرة، حتى وإن وجد فيها مواطنين منذ أكثر من عشرين سنة. ويسكن الزوجان ماركس، كما هو مقرر، مع أسرتي روج وهيرويغ اللذين وصلا قبلهما بقليل، في منزل مريح. وإذا ما كان جورغ هيرويغ شاعراً مشعث الشعر، فإن زوجته وهي ابنة مصرفي ثري من برلين معتادة على الرفاهية، حتى إنها تريد فتح صالونها الأدبي الخاص. وليست شديدة الحماس إزاء اجتياح القادمين الجدد: فبحسبها «لا يمكن أبداً لهذه الساكسونية الصغيرة (السيدة روج) وللسيدة ماركس الشديدة الذكاء والطموح أن تعيشا معاً» وهي ليست على خطأ: إذ في ظرف عدة أشهر، ينتقل الزوجان ماركس ليسكنا في 30، شارع فانو، شقة مناسبة. ويتخذان خادمة، تدفع جيني لها ما يعادل 4 تالر يومياً، وهو أجر عالٍ.

يبدأ ماركس في الاختلاط بتجمعات اللاجئين الألمان. ويتحدث من جديد مع ويلهلم ويتلنغ، الذي صادفه في برلين، وهو أول عامل يدوي يلتقيه؛ كما يحضر اجتماعات عصبة المنفيين، وهي مجموعة المهاجرين التي أسسها الخياط منذ سبعة أعوام. ويعقد صداقة مع الشاعر هنريش هاينه الذي يكبره بعشرين عاماً، وتربطه قرابة بعيدة مع عائلته من جهة أمه - وهو ما كان يجهله الإثنان آنذاك. وينبهر الشاعر بذكاء هذا الفيلسوف الشاب الذي وقع عليه من السماء، ويأتي كل يوم تقريباً إلى شارع فانو للنقاش في السياسة والأدب. إذ يتشاطران الإعجاب ذاته بالطوبائيين الفرنسيين. فيحدث هاينه كارل عن سانت - سيمون، ويحثه كارل على وضع عبقريته الشعرية في خدمة الحرية: «اترك إذاً، يقول كارل، هذه الأناشيد الغزلية، وأظهر للشعراء كيف يجب استعمال السوط». ويلتمس هاينه ملاحظات الشاب على هجائية كبيرة سياسية واجتماعية، يعمل عليها (ألمانيا: حكاية الشتاء)، مع أنه يمقت الانتقادات في العادة؛ إذ غالباً ما يشكو لكارل من هجومات الصحافيين على أعماله. وتتذكر إليانور، إحدى بنات كارل، بعد زمن طويل، أنها سمعت

أبويهما يرويان أن «جيني هي التي كانت تعيد الشاعر اليائس إلى صوابه بفضل لطافتها وخفة روحها. لقد سحرته جيني؛ فلديها الكثير من الظرف والمرح والأناقة، ولديها عقل ثاقب ودقيق..». ويؤكد بول لافارغ الذي سيصبح زوجاً للورا، أخت إليانور، الواقعة دون أن يكون الشاهد على العلاقات الباريسية بين الرجلين: «كان هاينه، الهجاء الصارم، يخشى تهكم ماركس، لكنه كان شديد الإعجاب بذكاء جيني الدقيق والثاقب».

ويكتشف كارل آنذاك أفكار العالَم العمالي الفرنسي؛ ليس بزيارته المشاغل - التي لا تزار - بل بمخالطة الشيوعي إتيين كابيه الذي نشر لتوه كتابه (رحلة إلى إيكاري)، والاشتراكي لويس بلان، الذي يشيد بفكرته في استخدام دولة قوية لكي تهيء لنشوء مجتمع دون طبقات ولا جهاز قمعي. وهو يقدر لهما ذكاءهما السياسي وثقافتهما النظرية، لكنه يغتاظ من رجوعهما الدائم إلى الدين. ويسعى عندئذ للقاء برودون: إذ يعجبه فيه، منذ قرأه في برلين، الطفل الموهوب الذي ولد لأب عامل في صناعة الجعة وأم طباخة، وعمل بقاراً في السادسة من عمره قبل أن يدخل بمنحة وهو في العاشرة إلى المدرسة الملكية في بيزانسون حيث انقطع عن دراسته اللامعة لعدم وجود المال. لكن مؤلف (ما هي الملكية؟) يعيش في ليون، ويتأخر اللقاء.

ويزور كارل باريس بحماس. فينبهر بالمعرض الصناعي الذي يفتتح لتوه، وبإضاءة ساحة الكونكورد بوساطة القوس الكهربائي. والكهرباء التي تظهر بالكاد تفتنه: إذ يرى فيها نشوء مجتمع جديد يكون كل شيء فيه متوافراً وميسوراً ومختلفاً. ويتردد على صالون الكونتيسة داغول، فيصادف فيه إنغر، ليست، شوبان، جورج صاند وسانت - بوف. وما من دليل على أنه ارتبط بصفة خاصة مع أحد منهم. ويلتهم روايات بلزاك وهوغو وصاند. لكن بلزاك يظل المفضل لديه. كما يقرأ أيضاً (فرانكشتاين) لماري شيللي الذي نشر قبل ذلك بكثير، فيؤثر فيه تأثيراً

قوياً، سيستمد منه استعارة «مصاص الدماء» عن وحشية رأس المال. ويقرأ بشغف (اليهودي التائه) لأوجين سو، مسجلاً ملاحظات على كل مجلد يقع بين يديه، ومفكراً في الكتابة بدوره، لكنه لا يتوصل إلى اختيار موضوع. إذ يكتب روج الذي يراه يومياً بعد بضعة شهور: «يريد ماركس نقد الحق الطبيعي لدى هيجل من وجهة نظر شيوعية، ثم كتابة تاريخ عهد المؤتمر الوطني، وأخيراً كتابة نقد لكل الاشتراكيين. فقد كان يتطلع دائماً إلى الكتابة عما قرأ آخر مرة، لكنه يواصل قراءاته دون توقف، ويستخرج منها مقتطفات جديدة». وستكون هذه الملاحظة التي أُبديت بشأن أعماله الأولى إحدى ثوابته، أي: عدم ترك نص أبداً. وسنرى أنه سيجعل منها حتى، بصفة لا شعورية، أحد محاور تحليله للعمل وللاغتراب.

وقد ازدادت شخصيته رسوخاً لكن دون أن تتغير. فقد كان واعياً بقيمته، دؤوباً على العمل، قوي الإرادة، عنيفاً، مشاغباً، يدخن كثيراً، ويحدث له غالباً، كما يشهد بعض زوار شارع فانو، أن يشرب أكثر من اللازم النبيذ الذي كان يحبه من النوع الجيد.

ويعمل مع روج بنشاط محموم في مجلتهما، لكنهما سرعان ما يتنبهان إلى أنهما انطلقا من سوء تفاهم: فأرنولد يريد أن يجعل منها نقطة التقاء الليبراليين في ألمانيا وفي فرنسا، بينما ينوي كارل، على العكس، أن يجعلها أداة ثورية لنشر «نقد قاسٍ لكل ما هو موجود» والترويج «للوعي الطبقي مقابل الوعي السياسي». ويؤمن أرنولد بوجود «وعي سياسي وأخلاقي عالمي» مستقل عن الظروف المادية التي يتكون فيها، بينما يعتقد كارل بأنه لا وجود لأخلاق مطلقة، وبأن مصالح الفئات الاجتماعية متعارضة بالضرورة. وتصبح النقاشات بين الرجلين أكثر حدة يوماً بعد يوم.

وينضاف هم آخر إلى هذه الخلافات: فكل الكتّاب الفرنسيين الذين طُلب منهم الكتابة للمجلة يتهربون. ذلك أن كابيه، ولورو،

وكونسيديران، وأتباع فورييه، لا يريدون إشراك أسمائهم باسمي هذين الألمانيين اللذين يجاهران بإلحادهما علناً؛ علاوة على أنهم يخشون أن تنادي هذه الدورية الجديدة بالكفاح المسلح. ويقبل لويس بلان، ولامينيه، ولامارتين، لكنهم يتراجعون للأسباب ذاتها، ويقدم ماركس روج إلى هاينه، الذي يود أن يكتب في مجلتهما، حتى وإن كان لا يحب شريك كارل، ويستنكر محافظته على التقاليد، مستخدماً هذه الصيغة المعبرة عن أسلوبه: «مهما كان حماسه للعري الإغريقي، فلا يمكنه أن يقرر الاستغناء عن البنطال البربري الحديث، ولا حتى عن سروال الأخلاق الجرماني - المسيحي[1]».

يتلقى كارل عندئذ من موزس هس تجارب كتاب ينوي هذا نشره قريباً، وأثر فيه كثيراً: (عن جوهر المال). يطبق هس فيه المفهومين الهيجليين في الاغتراب والانعكاس على العلاقة بين التنمية الاجتماعية والتنمية الاقتصادية. فيكتب: «إن المال هو الثروة المغتربة لبني الإنسان» ويتنبأ بنهاية التأمل الفلسفي والديني، ونهاية المضاربة التجارية، وحتى بنهاية سيادة المال الذي سيعوَّض بـ«مبادلات فورية وإنسانية بين أفراد».

في نهاية كانون الأول / ديسمبر 1843، إنه الإخفاق: إذ لم يحصل أرنولد وكارل على مساهمات في مجلتهما إلا من ألمان باريس، وكذلك من إنجلز الذي يرسل من بارمن «مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي»، وهو نص قصير، سيقول كارل عنه فيما بعد أنه تأثر به كثيراً. يفضح إنجلز فيه نفاق ولا أخلاقية نظام اقتصادي يتولد من المصلحة الخاصة والتجارة الحرة. ويطرح أن «القيمة هي العلاقة بين تكاليف الإنتاج والمنفعة كما تتبدى في المنافسة»، منددا بعلماء الاقتصاد الذين لا يتكلمون عن قيمة الأشياء «خوفاً من أن تصبح لا أخلاقية التجارة واضحة أكثر من اللازم»، ويقيمون الاقتصاد إذاً على رأسه، وليس على قدميه. فبفضل هذين النصين لهس وإنجلز، يبدأ ماركس بإدراك أن جسراً أقيم ربما بين الفلسفة والاقتصاد.

ولعدم توافر المقالات الفرنسية، يفسد مشروع المجلة. وعنوانها ذاته «الحوليات الفرنسية - الألمانية» يفقد كل معناه. فيشعر روج بالخيبة. ويتأخر في دفع راتب ماركس.

ومع ذلك، يظهر في شباط / فبراير 1844، العدد الأول. ويكتب كارل فيه الافتتاحية: «سيصبح عيش الإنسانية المتألمة التي تفكر، والإنسانية المفكرة المضطهَدة، بالضرورة لا يطاق ولا يهضم من قبل العالم الحيواني لضيقي التفكير الذين يتمتعون خاملين، غير قادرين على التفكير. وبقدر ما ستسمح الأحداث للإنسانية المتألمة بالتجمع، ستولد الثمرة التي يحملها الحاضر في أحشائه أكثر كمالاً.». وتحرر الإنسان غير ممكن في نظره إلا إذا تحولت جذرياً أسس المجتمع المدني بثورة لا يمكن أن تكون وسيلتها سوى الطبقة الكادحة (البروليتاريا).

وينشر فيه هاينه قصيدة هجائية ضد لويس الثاني في بافاريا. وفي العدد ذاته ينشر النصان اللذان كتبهما كارل في الصيف الفائت (حول المسألة اليهودية) و(إسهام في نقد فلسفة الحقوق لدى هيجل). وقد تردد كارل في تقديم هذين النصين: إذ لم يكن يشعر بأنهما كاملين؛ فكما في طفولته ومراهقته، وكما جرى عليه طوال حياته، من الصعب عليه اعتبار نص ما تاماً وتركه. ويضيف أيضاً فقرة على المقال حول اليهود: يميز فيه مجرد التحرر السياسي عما يسميه «التحرر الإنساني» ويشير إلى الدور الإيجابي الذي قام به اليهود في التاريخ الحديث. وحيثما كان بوير يماهي اليهود بـ«الجمهور» في مقابله هو، المفترض فيه أن يجسد الفكر، يدعي ماركس انتسابه ليهود «الجمهور» ويفرق بين «اشتراكية مطلقة»، مثالية وتوهمية، و«اشتراكية وشيوعية الجماهير، وهي دنيوية».

ولأن (الحوليات الفرنسية - الألمانية) مكتوبة كلها تقريباً باللغة الألمانية، فإنها لا تلقى صدىً كبيراً في باريس، فليس لديها الكثير من القراء الفرنسيين، وتُستقبل استقبالاً سيئاً في البلدان الناطقة بالألمانية.

إذ ينذر مترنيخ في فيينا أصحاب المكتبات الذين يحاولون بيع هذه «الوثيقة المنفرة والمقززة» بعقوبات صارمة. وفي برلين، تصادر الحكومة البروسية النسخ التي مرت إلى ما وراء الراين، وتأمر حتى بالقبض على مؤسسي المجلة إذا ما وطأوا الأرض الألمانية.

وهكذا لم يعد بمقدور كارل الذي غادر بروسيا بملء إرادته، أن يعود إليها. لكن الصديقين لا يتوقفان، ويعملان في العدد الثاني.

بل إن الوقت مناسبة للفرح، لأن جيني تضع في ١ أيار / مايو، بشارع فانو، أنثى يسميها كارل باسم أمها، وسيلقبانها على الفور بـ«جينيشن». وبعد أيام تصاب الرضيعة باختلاجات شديدة، فيفجع كارل وزوجته، لا سيما أن ثلاثة أطفال من أربعة يموتون يومذاك خلال سنتهم الأولى. وتشاء الأسطورة العائلية أن يكون هاينه موجوداً، وأن يصيح لدى رؤيته جينيشن ترتجف: «يجب إعطاؤها حماماً، هذه الصغيرة!»، ثم يهيء الحمام بنفسه ليغطس فيه الطفلة، منقذاً حياتها.

وينأى أرنولد بنفسه عن المجلة، وينشر في شهر أيار / مايو ذاته، في صحيفة ألمان باريس (فور توارتز) مقالاً شديد القسوة ضد بروسيا التي أغلقت أبوابها لتوها أمامه، بعنوان «ملك بروسيا والإصلاح الاجتماعي»، ويعمل كارل في نص آخر، لم يقرر بعد ما إذا كان سينشره؛ إذ ينوي استخلاص نتائج أفكاره عن الفلسفة الألمانية، وبخاصة عن التصور المركزي في فكر هيجل، أي (الاغتراب) وربطه على طريقته بالاقتصاد. وإذا ما كان لا يزال يرى في فويرباخ «المفكر الذي حقق ثورة نظرية حقيقية»، فإنه إلى هيجل يعود. فيعيد قراءة بعض الفقرات المنسية لمعلم شبابه، ويعمِّق مصطلحين أساسيين في فلسفته، بقيا مهملين حتى ذلك الوقت: «الاغتراب» و«الانعكاس». ويأخذ لحسابه فكرة أن «الاغتراب» هو عملية ينفصل فيها العقل عن نفسه لمحاولة العثور على نفسه والعودة إلى نفسه، مؤثراً ضد ذاته للوعي بذاته. ويرى من جهة أخرى، على غرار هيجل، أن الفلسفة تتحدد بأنها «انعكاس» للحس

المشترك، وتقيم إذاً التقارب بين العقل وضده، أي الجنون. فالوحدة الحقيقية إذاً لا تنفصل عن عملية تفكيك: والجنون هو شرط حقيقة الكائن، وهو ما يعيشه كارل في هذه الآونة. وكما فعل هيجل حينما كان يعمل في (فينومينولوجيا الفكر)، ينهمك كارل في قراءة (لونوفو دو رامو) [ابن شقيق رامو] لديدرو، بترجمة غوته؛ إذ يجد نفسه في هذا الكائن الفريد، الخارج عن المألوف، على الهوامش الاجتماعية والفكرية لعصر الأنوار الفرنسي، وهو يقلب الأخلاق المعتادة وقيم الحس المشترك. وسيرسل ماركس بعد ذلك بكثير إلى إنجلز نسخة من [ابن شقيق رامو] مشيراً إلى العديد من الفقرات.

وضمن رسالة لفويرباخ في 15 أيار / مايو 1844، يبدي أرنولد قلقه من جديد على سلوك كارل: «إنه يقرأ كثيراً، ويعمل بطريقة خارقة للعادة. ولديه موهبة نقدية قد تنحط أحياناً إلى مجرد لعبة جدلية، لكنه لا يُتم شيئاً، قاطعاً كل بحث ليغوص في محيط جديد من الكتب. وهو أكثر عصبية وعنفاً من أي وقت مضى، وبخاصة عندما يقع مريضاً من فرط العمل، ولا ينام لثلاث أو أربع ليال». ويضيف: «من خلال استعداداته العلمية، ينتمي كلياً إلى العالم الجرماني؛ لكنه بطريقته الثورية في التفكير، أقصى نفسه عنه».

يهتم كارل بكل شيء، وأكثر فأكثر على وجه الخصوص بالتقدم التقني. فإضافة إلى حماسه لاستخدام الكهرباء (لإضاءة بعض الشوارع)، هو منبهر أيضاً إذ يعلم في 24 أيار / مايو 1844، أن صموئيل موري جرب خطاً تلغرافياً بين واشنطن وبلتيمور، لأنه يرى في ذلك إيذاناً بتحول الرأسمالية التي ستسرع الاتصالات، وتزيد من إنتاجية العمل.

وقد صدُم مثل العديد من معاصريه، في 6 حزيران / يونيو من السنة 1844 ذاتها، بمذبحة النساجين السيليزيين الذين تمردوا على مستخدميهم. إذ يُفهمه الحدث مثلما يُفهم الكثيرين في أوروبا أن العمال يستطيعون الثورة بأنفسهم دون أي حاجة لملهم أو مرشد. ويتكلم بلزاك

عن «هؤلاء البرابرة المصريين الذين سيقودهم سبارتاكوس جديد، نصفه مارا ونصفه الآخر كالفين، إلى الانقضاض على البورجوازية الحقيرة التي آلت إليها السلطة». وفي الوقت ذاته يجهر إنجلز بإعجابه بالعمال الإيرلنديين، مضيفاً: «ببضع مئات من الرجال في شجاعتهم، يمكن تثوير أوروبا!» ويكرر كارل لروج الذي ينكر أهمية الحدث: «دون ثورة، لا يمكن للاشتراكية أن تصبح واقعاً».

في مطلع صيف 1844، يرسل كارل زوجته إلى تريفز لتقديم ابنتهما إلى أمها. وهناك تجد أخاها العزيز إدغار، الذي يستلم لتوه في المدينة وظيفة متواضعة بعدما حصل على شهادة في الحقوق من بون. أما كارل الذي بقي في باريس، فيقرأ ويكتب ويسجل ملاحظات، دون أن يقرر بعد اختيار موضوع كتاب. إذ ينوي، بعد أحداث سيليزيا، ربط النضالات الاجتماعية والسياسية المحلية بالرهانات الاقتصادية العالمية. فينأى بنفسه إذاً شيئاً فشيئاً عن المادية «النقدية» لفويرباخ، ويجتهد في فهم الظروف العمالية بشكل أفضل. لكنه من أجل هذا، يدرك أن ثقافته الفلسفية لا تكفي، وأن التصورات الهيجلية لا تنفعه في شيء، وأن ما قرأه في الاقتصاد لكتابة مقاله حول قيمة الخشب في غابات بروسيا جد مختصر. فينطلق عندئذ في دراسة منهجية لكبار المنظرين في الاقتصاد الكلاسيكي الذين لم يقرأ لهم بعد.

يقرأ لويليام غولدوين، الذي يعتبر مجتمعاتنا مريضة بالملكية الخاصة: «إن العيوب التي لا تنفصل عن نظام الملكية الحالي ستختفي في مجتمع يتقاسم فيه الجميع بالتساوي هبات الطبيعة»، ويقرأ لتوماس سبنسر ولوليام أوغيلفي الذي يرى أن الملكية العقارية «أساءت إلى سعادة الإنسانية وشكلت عقبة أمامها، أكثر بكثير من طغيان الملوك وخداع القساوسة وحيَل رجال القانون مجتمعة» ويكتشف فرانسوا كيناي الذي يطور في مؤلفه (لوحة اقتصادية) نظرية تقسيم المجتمع إلى طبقات تبعاً لمصادر الدخول ولدورها في زيادة «الناتج الصافي»: «تُختزل الأمة إلى

ثلاث طبقات من المواطنين: الطبقة المنتجة، طبقة الملاك، والطبقة العقيمة». ويقرأ لأوراي، الذي يرى في الربح الصناعي جزءاً من القيمة المسروقة من العمال: «إن العمل هو الأساس الوحيد للملكية، والواقع إن الملكية ليست أكثر من عمل متراكم». ويقرأ لجون ستيورات مل الذي يرى هو أيضاً أن توزيع الثروات غير عادل، حتى وإن كان «تفسير هذا الظلم يكمن في حادث طارئ تاريخي وليس في طبيعة الرأسمالية نفسها» في نظره. ويقرأ على وجه الخصوص لدافيد ريكاردو الذي يبرهن على أن العمل المأجور في الصناعة هو المصدر الحقيقي للثروة، وأن الملاك العقاريين وأصحاب الأموال يُثرون دون عمل على حساب الرأسماليين والمأجورين. ويهتم على وجه الخصوص بفكرته - المقتبسة من سميث - عن (قيمة العمل)، التي تعرِّف الأجر بأنه (الثمن الطبيعي للعمل) أي المبلغ المتنوع في الزمان والمكان للسلع والثروات «الذي يسمح للعمال بإدامة نوعهم». ويقرأ لسانت - سيمون الذي يرى أنه إذا كان تاريخ المجتمعات تاريخ صراع بين الطبقات، فبأنوار العقل وحده وبالتقدم التقني الذي سمح العقل به، ينبغي أن تبلغ الإنسانية خلاصها؛ وستكفي تقنوقراطية فاضلة لتحريرها. فيظهر سانت سيمون، الأرستقراطي وملاّك الأراضي الذي أفلس نتيجة الثورة، والذي يفهم ويقول بضرورة إلغاء طبقته، هكذا نبياً للبورجوازية التقدمية.

ويدرس كارل ثانية عالم الاقتصاد السويسري سيسموندي، وهو الأول الذي أدرك الخصوصية الحاسمة للرأسمالية، بالمقارنة مع أساليب الإنتاج السابقة. فالتطور المدهش للوسائل الميكانيكية في الإنتاج، تضع الرأسماليين أمام ضرورة إيجاد أسواق لتصريف إنتاج يتنامى باضطراد. ولذا يخوضون صراعاً حتى الموت للاستيلاء على الأسواق، وتخفيض تكلفة الإنتاج بإنقاص الأجور وزيادة وقت العمل حتى يدركوا منافسين أقدر على المنافسة منهم أو لزيادة سبقهم لمنافسين أقل منهم قدرة. فيتزايد الفقر إذاً بقدر ما يزيد الإنتاج، وهو ما يفضي إلى أزمات حادة

وإلى فوضى اجتماعية. ولتجنب هذه الفوضى وحماية الطبقات الكادحة من البؤس، يتكل سيسموندي على دولة ضابطة تكون مكلفة بمراقبة تراكم رأس المال.

أخيراً، يقرأ ماركس من جديد كتابات برودون - الذي لم يلتق معه بعد-، الذي يعتقد بأن الإنسان يحقق ذاته بفضل العمل الاجتماعي والعدالة الاجتماعية والتعددية الاجتماعية، ويحلم بـ«علم للمجتمع يُكتشف منهجياً ويطبَّق بصرامة»، ويتبنى برودون في آن معاداة الرأسمالية («رفض استغلال الإنسان للإنسان»)، ومعاداة الدولة («رفض حكم الإنسان للإنسان») ومعاداة التأليه («رفض عبادة الإنسان للإنسان»). فبالنسبة لبرودون الفوضوي، هناك قوتان تعارضان العدالة: تراكم رأس المال الذي يزيد الفوارق على الدوام، والدولة التي، تحت غطاء مؤسسات ديمقراطية، تقنن وتضفي الشرعية على استحواذ الرأسماليين وحدهم على الثروات؛ وما يأخذه على الدولة هو تنظيمها نزع الحق الطبيعي في الملكية عن الأفراد الأكثر ضعفاً. وهو إذاً ضد رأس المال وضد الدولة. فيرى كارل عندئذ أنه «المفكر الأكثر جرأة للاشتراكية الفرنسية».

ويقرأ أيضاً مؤلف لورنز فون ستين، (الاشتراكية والشيوعية في فرنسا اليوم)، الذي نشر في بروسيا، العام 1842، وبث في ألمانيا أفكار كبار الطوبائيين الفرنسيين. ويدرس المحاولات الأولى - التي أخفقت - لإنشاء المجتمعات الشيوعية في الولايات المتحدة، على شكل مؤسسات زراعية متواضعة، تنظم فيها الأعمال الحقلية بصورة جماعية دون تداول للمال داخل الجماعة. ويكتشف في كتب توماس هاميلتون أيضاً وجود مجموعة من الراديكاليين في نيويورك الـ(ووركيز) Workies، يعتقدون بأن مصير الديمقراطية البرلمانية إلى الفوضى، ويطالبون بإعادة توزيع دورية للثروات وللأراضي: «إن الديمقراطية تفضي بالضرورة إلى الفوضى والمصادرة؛ وطول الطريق الذي يوصل إلى مجتمع آخر ليست له أدنى أهمية».

يبدأ كارل عندئذ العمل في مشروعه الخاص: وهو نظرية شاملة في المجتمع. وطموحه منذئذ لا حد له. إذ يتذهن نفسه كمحلل شامل، وفكر للعالم. ويضع الخطوط الأولى لتوزيع للأفراد إلى طبقتين تبعاً لطبيعة ممتلكاتهم: عمل أو رأس مال. وعلاقات الملكية بين الطبقات تكون البنية التحتية للمجتمع، كما يلاحظ، «التي تقوم عليها بنية عليا تشريعية وسياسية، وتتناسب معها أشكال محددة من الوعي الاجتماعي». وبعبارة أخرى، إن الفرد لا يوجد ولا يظل على قيد الحياة إلا من خلال الطبقة التي ينتمي إليها، وهذه الطبقة هي التي تتصرف. فكارل على عكس هوبز وهيجل، ولكن على غرار كارنو الأب والابن اللذين اكتشف لتوه أعمالهما حول الطاقة، يتحدث بلغة تقدم التاريخ وتطوره عبر الزمان. إذ يصف من جهة أخرى صراع الطبقات كـ«محرك» للتاريخ.

ويواصل العمل مع أرنولد في العدد الثاني من مجلتهما المتعثرة عندما تمارس الحكومة البروسية في تموز / يوليو 1844، ضغطاً على باريس حتى تمنع السلطات الفرنسية هذه الدورية الفاضحة. لكن غيزو يتردد: فأمامه صعوبات أخرى عليه مواجهتها، ويفضل لهذه الدورية التي ولدت لتوها، ولا تتدخل في السياسة الفرنسية، أن تنطفئ من نفسها لانعدام القراء والمعونات. والحق أن المشروع في حالة سيئة، وأن الصحيفة لم تلق رواجاً، وأن روج يفكر بإيقافها.

في 31 تموز / يوليو 1844، لا يزال كارل وحيداً في باريس عندما تلقى من برلين نسخة من العدد الأول لمجلة برونو بوير الشهرية، (لاغازيت جنرال ليتيرير) [المجلة العامة الأدبية]، التي أصبحت لسان حال الهيجليين الشباب في برلين. وعندما قرأ فيها أن بوير ينكر أهمية تمرد النساجين في سيليزيا، يترك كارل لاستهجانه العنان في رسالة إلى أصدقائه بكولونيا. فيقترح عليه أحدهم، وهو جورغ يونغ أن يفصِّل وينشر مآخذه: «سيكون من المناسب أن تحول ملاحظاتك عن برونو بوير إلى نقد في صحيفة، يجعل برونو بوير يخرج عن تحفظه الغامض. فحتى

الآن، لم يبد أي رأي صريح وواضح حول موضوع مهما كان؛ وبوير مولع بعادة نقد كل شيء إلى الحد الذي كتب لي معه مؤخراً بأنه ليس علينا فقط نقد المجتمع والامتيازات والملاّك، ولكن أيضاً – وهو شيء لم يعن لأحد حتى ذلك الوقت – نقد الكادحين (البروليتير)؛ وكأنما لا ينجم نقد الأثرياء والملكية والمجتمع من نقد الظروف غير الإنسانية والمخزية للطبقة الكادحة».

لكن هذا المقترح لم يفضِ إلى مقال موجه ضد بوير، أستاذ كارل السابق، بل سيشكل المسار لكل عمله القادم، وسيحاول الرد عليه بالخصوص في (رأس المال) بعد ثلاثة وعشرين عاماً.

وهو يشرع فيه على الفور. وطوال هذا الصيف الذي وُجد فيه وحيداً بباريس، يجمع، من أجل توضيح تصوراته، في مخطوطة لا يخصصها للنشر (والتي لن تنشر إلا في 1932، في الاتحاد السوفييتي الستاليني، تحت عنوان «مخطوطات 1844»)، أفكاره الأولى حول الفلسفة والاقتصاد. وهي بحث للاستعمال الشخصي، لا ينوي المؤلف التخلي عنه. سيود البعض لاحقاً أن يروا فيه «ماركس الحقيقي»، وسيستخدمونه دليلاً على أن لا علاقة له بالفظائع التي ارتكبت فيما بعد باسمه. بينما سينتقد آخرون هذا النص الذي تجاوزته أعمال ماركس اللاحقة وناقضته، في نظرهم، آخذين على الذين يرون فيه فكر ماركس الأصيل انهم يبحثون فيه عن «جمجمة فولتير طفلاً». إن هذا النص الهام يشكل بالفعل مرحلة جوهرية في تكوين فكر سيتطور باستمرار دون أن يناقض نفسه أبداً، وسيتخذ دائماً كأساس المبدأ المزدوج المطروح هنا: ينبغي أن يكون الإنسان مركزاً لكل تفكير ولكل فعل سياسي؛ وما من ثورة تساوي حياة إنسان، لأن غايتها هي تحريره.

يرغب ماركس في هذا العمل تحديد موضعه بالنسبة لفلسفة هيجل، والتفكير بالخصوص في الاغتراب. إذ ينوي هكذا، كما يقول: «تجاوز الذاتية والموضوعية، الروحية والمادية، المثالية والمادية». ولا أقل

من ذلك! والاغتراب بالنسبة له ليس تصوراً مجرداً، كما هو عليه لدى هيجل، بل إنتاج للمجتمع: فالإنسان مغترب بالعمل، وليس بأي شيء آخر.

في الوقت ذاته، ودون إرادة منه، يتكلم عن نفسه في هذا النص: فهو الذي يرفض منذئذ أي وظيفة مأجورة، يركز كل تحليله على الاغتراب بالعمل؛ وهو الذي عانى ظرف الأجير رئيساً لتحرير المجلتين الخاضعتين لنزوات أصحابهما، سيجعل من علاقته الشخصية بالمال أساساً لنظرية كلية؛ وهو الذي يشق عليه أيما مشقة التخلي عن مخطوط لناشر، يرى بالذات أن أساس الاغتراب يكمن في انفصال الإنسان عن عمله؛ وهو الذي ليس لديه مهنة سوى الكتابة، يعتقد أن المجتمع المثالي هو المجتمع الذي يستطيع أيٌّ من أفراده المواظبة مجاناً على كل المهن التي يشعر بأنه قادر على ممارستها.

يبدأ ماركس بتوجيه لوم أساسي إلى علماء الاقتصاد الذين قرأ لهم لتوه: فكلهم، كما يعتقد، يعدون الملكية الخاصة معطىً للشرط الإنساني، ولا يفسر أي واحد منهم ظهورها تاريخياً. والحال، بالنسبة له، أن كل شيء عمل وكل شيء نتاج للعمل، بدءاً بالإنسان نفسه: «إن العمل هو فعل ولادة الإنسان بوساطته هو نفسه». و«بالعمل يحقق الإنسان ذاته». وما من شيء إلا وهو عمل (أو كذلك تقريباً): «إن قيمة الأشياء تأتيها بكليتها تقريباً من العمل». وما رأس المال إلا «عمل متبلور»، و«عمل متراكم»، و«عمل ميت، مشابه للخفاش الذي لا تدب فيه الحياة إلا بامتصاص عمل الأحياء» يكتب، مستنداً ضمناً إلى مصاص الدماء في (فرانكشتاين) لماري شيللي الذي قرأه لتوه. وحتى التاريخ ذاته، مثل أشكال المجتمعات والأديان المختلفة، وأنظمة الملكية، ليست إلا نتاجاً للعمل.

ويثني ماركس من ثم على فويرباخ الذي «يبدأ معه خطاب نقدي إيجابي، إنساني وطبيعي». والنظرية الاقتصادية، في رأيه، لا فائدة منها لفهم التنمية الإنسانية من زاوية فلسفية. ولسد هذا النقص يطور عندئذ

تحليلاً لـ«العمل المغتَرَب»: «كلما ازداد إنتاج العامل للثروة، وكلما ازداد إنتاجه قدرة وحجماً، يزداد العامل فقراً». لكنها ليست الملكية الخاصة، في رأيه، هي المصدر للعمل المغتَرَب: بل على العكس هي النتيجة له. فالاغتراب في نظره مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالعمل ذاته. وبخلاف هيجل الذي يعرف الاغتراب بأنه خارجية الإنسان عن نفسه، وفويرباخ الذي يماهيه بالدين، يضع ماركس الاغتراب في علاقة الإنسان مع الواقع بالعمل الذي تنتج عنه التنظيمات الاجتماعية والأديان.

ويميز منذئذ بين ثلاثة مستويات من الاغتراب، يربطها جميعاً بالعمل:

❖«التوضيع» (**L'objectivation**): أي واقع أن الإنسان ينتج بعمله واقعاً خارجياً عنه على شكل أشياء، لديها من بعدُ وجودها الخاص. «إن عمله يصير كائناً منفصلاً، خارجياً، يوجد خارجه، مستقلاً عنه، غريباً عنه، ويصبح قوة مستقلة عنه: والحياة التي أعارها للشيء تعارضه وهي معادية وغريبة». إن العمل عناء وعذاب «يتلف روحه ويضني جسمه»، «يظهر نشاطه له كألم مبرح (..)، وحياته هي التضحية بحياته». وهكذا يتقدم ماركس بفكرة أن كل عمل عذاب، لأن كل عمل يخلق شيئاً مآله الانفصال عن فاعله. وينبغي أن نرى هنا ولا شك تدويناً مؤثراً لسيرة ذاتية، وتفسيراً للصعوبة التي سيعاني منها طوال حياته في الافتراق عن أقل نص، واعتباره جاهزاً. وحتى يوضح أن وضع كلمة «النهاية» بالنسبة إليه يشكل انتزاعاً، فإنه يصف هذا الانتزاع، وهو في بداية عمله الخاص، يتأمل حول طبيعة كل عمل نفسها، وحول العلاقة الحميمة بين الفرد وأي عمل.

❖«التخلي»: وهو واقع أن الأجير في المجتمع الرأسمالي، يُسلب من قبل الرأسمالي من ثمرة عمله. «يكرس العامل حياته لإنتاج أشياء لا يملكها ولا يسيطر عليها»، «فهو لا ينتمي لنفسه، بل ينتمي لشخص آخر». وهنا أيضاً، يتعلق الأمر بذكر ما عاشه هو نفسه من خلال علاقته

بالناشرين الذين كان أجيراً لديهم - رئيساً لتحرير مجلة في كولونيا - جعلوه ينتج شيئاً - صحيفة - «لم يملكها ولم يسيطر عليها».

❖«التسخير»: وهو واقع أن الأجير لا يستطيع الإفلات من السلسلة التي تقوده من أجل البقاء على قيد الحياة إلى شراء سلع صنعها أجراء آخرون، لينتهي إلى عدم إعطاء الأشياء أية قيمة سوى المال الذي تتكلفه أو تدره. إذ إن اقتصاد السوق يدفع إلى الروح الفردية لدى المستهلك، كما يقال اليوم، «ذلك أن دافع من يمارس المقايضة ليس الإنسانية، إنما الأنانية»، يكتب ماركس. «وعوضاً عن كل الحواس الجسمية والعقلية (..) ظهر مجرد اغتراب لكل هذه الحواس، إنه حس التملك». وهنا أيضاً، ثمة ما يشبه التلميح إلى علاقته الخاصة بالمال الذي يحب إنفاقه، ويحلل جيداً كيف يغدو المرء تابعاً له: «لقد جعلتنا الملكية الخاصة من الحمق وضيق العقل بحيث لا يكون الشيء لنا إلا عندما نمتلكه، ويوجد بالنسبة لنا إذاً كرأسمال، أو نحوزه على الفور، نأكله، نشربه، نلبسه، نسكنه، ونستخدمه». وحتى الرأسمالي يجد نفسه مدفوعاً بالمنافسة وبعقلنة العمل للتطلع إلى مثال أعلى عبثي قوامه الحرمان: «إن مثاله الحقيقي الأعلى هو البخيل الزاهد لكنه مراب، والعبد الزاهد لكنه منتج (..). فكلما أكلت وشربت واشتريت كتباً أقل، وكلما ذهبت إلى المسرح وإلى الحفلات الراقصة وإلى النوادي الليلية أقل، وكلما فكرت وأحببت ونظَّرت وفكرت أقل وكلما غنيت وتكلمت وتبارزت أقل.. إلخ تدخر أكثر وتزيد من ثروتك». أفلا يجب علينا أن نرى هنا أيضاً صدى لميله الخاص إلى الإنفاق، وتعبيراً في الوقت ذاته عن نفوره من أولئك الذين ينادون بالتوفير والتقشف؟ كما يجب علينا ولا شك أن نقرأ هذه الجملة كتذكر لما طالما سمعه إبان طفولته من أبويه اللذين كانا يأخذان عليه كلامه الكثير وحبه الكثير وشربه الكثير وإسهابه الكثير وشراءه الكثير للكتب وميله الكثير إلى العراك.

وهكذا يصبح الأجير عندئذ بضاعة كبقية البضائع، منتَج هو أيضاً

للعمل، ويدخل إذاً في اللعبة الشاملة للتسخير، وهكذا تُحتَّم وضعية الأجير وحياته بالقانون نفسه الذي يسري على أسعار الأشياء: «إن الطلب على البشر ينظم بالضرورة إنتاج البشر مثل أية بضاعة أخرى، وإذا ما كان العرض أكثر من الطلب، يضطر جزء من العمال إلى التسول أو الموت جوعاً. فينحط وجود العامل إذاً إلى شرط وجود أي بضاعة أخرى». وغذاء العامل يعدل صيانة الآلة، لأن «للأجر (..) المعنى ذاته تماماً (..) للزيت الذي يوضع على التروس للإبقاء على حركتها». والرأسمالي مطلق القدرة، لأنه يستطيع اختيار تعليق استثمار رأس ماله، بينما يجب على العامل حتماً بيع قوة عمله للبقاء على قيد الحياة: «يستطيع الرأسمالي العيش دون العامل أطول مما يعيش العامل دون الرأسمالي».

إن ماركس، في هذا الوصف الجديد تماماً لعلاقة الإنسان بالعمل وبالسوق، الناجم عن اعتراف / تأمل شخصي عن علاقته الخاصة بالمال، ينتقل من المفهوم الفلسفي للاغتراب إلى المفهوم الاقتصادي للاستغلال. وهكذا يكون تم جزء هام من الثورة التي ستحدثها نظريته الاقتصادية فيما بعد. ويبقى العمل على القوانين التي ستسمح بقياس هذا الاستغلال ومتابعة تطوره. وهو ما يقتضي ضبط مفهوم «فضل القيمة»، الذي سيرى النور بعد أحد عشر عاماً.

وماركس بنظريته في الاغتراب، يعتقد بأنه برهن على تفوق الفلسفة على نظرية الاقتصاديين، ويجعل في الوقت ذاته من الفلسفة علماً اجتماعياً متأثراً ببيئة الفيلسوف: «إن النشاط والفكر، هما اجتماعيان، كل منهما بحسب مضمونه ونمط وجوده الخاص، أي: النشاط الاجتماعي والفكر الاجتماعي».

ويواصل ماركس التفكير في المجتمع الذي سيستطيع التخلص من هذا الاغتراب، ويعرف «الشيوعية»، كنظام اجتماعي يسمح بإزالة الاغتراب، واستعادة تملك الأشياء، وتحرير الانتفاع بالعمل من خلال

شراكة حرة للمنتجين. «إن الشيوعية هي الاستحواذ الحقيقي على الجوهر الإنساني من قبل الإنسان»؛ وتتلخص في «إلغاء الملكية الخاصة، والتحرير التام لكل الحواس (..)؛ وهي هذا التحرر بالذات لأن هذه الحواس أضحَت إنسانية (..). وقد فقدت الحاجة أو الانتفاع بذلك طبيعتهما الأنانية، كما فقدت الطبيعة نفعها البسيط والمجرد، لأن النفع أصبح النفع الإنساني»، فيجد العامل المغترب عندئذ، بحسب ماركس، متعته في العمل وهو ينتج ما هو نافع للآخرين، ويصبح كل واحد إنساناً تماماً، إذ «فقط بفضل ثراء الجوهر الإنساني المنتشر موضوعياً (..) تصير الأذن موسيقية، وتدرك العين جمال الشكل (..). ذلك أن العين الإنسانية تستمتع خلافاً للعين الجلفة غير الإنسانية، والأذن الإنسانية تستمع خلافاً للأذن الجلفة، إلخ.. (..) فحواس الإنسان الاجتماعي على خلاف حواس الإنسان غير الاجتماعي». وهكذا تستطيع الروح الفردية والروح الجماعية منذئذ الامتزاج في طبيعة إنسانية سامية: «إذ يُبلغ الجوهر الوجودي للعاطفة الإنسانية في تمامها وإنسانيتها». وهي أيضاً نهاية العزلة، وحتى الانتصار على الموت: «ذلك أن الموت يظهر كنصر قاس للنوع على الفرد المجبور»، بينما «الشيوعية هي الحل الحقيقي للخصومة بين الإنسان والطبيعة».

وستحقَّق هذه الشيوعية المخلِّصة بمجريات التاريخ وليس فقط بمجريات السياسة. ولا يمكن لها أن تقام إلا لدى نهاية التاريخ، وليس في مكانه. «فالشيوعية هي اللغز المحلول للتاريخ (..). والحركة الكلية للتاريخ هي (..) عملية ولادة هذه الشيوعية».

وبينما يجمع ماركس ذلك الصيف هذه الملاحظات التي ستكوِّن المادة الأساس لكل أعماله، يقوم بعدة لقاءات حاسمة.

ففي بداية تموز / يوليو، يلتقي الثوري الروسي الشاب باكونين الملاحق من قبل الحكومة القيصرية، والذي يصل لتوه إلى باريس للقاء أرنولد روج الذي كان نشر، كما رأينا، أحد مقالاته باسم مستعار في

صحيفته الألمانية. فيطلب روج منه مقالاً لـ(الحوليات الفرانكو - ألمانية) ويقدمه لماركس. ويكون اللقاء جيداً: على عكس ما سيقال عنه لاحقاً، إذ لا يشعر ماركس بنفور يومذاك ممن سيصير بعد خمسة وعشرين عاماً ألد أعدائه.

ويلتقي في باريس أخيراً، نهاية تموز / يوليو، مع برودون الذي يسعى كارل للتعرف عليه منذ مجيئه إلى فرنسا وقراءته لـ(ما الملكية؟) فيحاول كارل - دون جدوى طبقاً لاعتراف برودون نفسه - أن يشرح له هيجل؛ ويفزع أكثر الاشتراكيين الفرنسيين شهرة، إذ يبين له أنه يجب الاستيلاء على سلطة الدولة بالعنف حيث لا توجد الديمقراطية، وجعلها الأداة لتحول اقتصادي واجتماعي. فيرد برودون عليه بأن من الممكن تحقيق إعادة توزيع منصفة للثروات من طريق الإصلاح. ولا يريد «سانت - بارتيليمي [مذبحة] للملاك»، تجعل منهم شهداء. ويكرر الرجلان اللقاء غالباً، ذلك الصيف، لمناقشات تمتد أحياناً إلى الليل بطوله. إلا أن تأثرهما المتبادل سيكون محدوداً، ما عدا الإدعاء - العصي على التصديق - بأن مفهوم «فضل القيمة» كما سيتصوره ماركس بعد إحدى عشرة سنة، يرجع في أصله إلى مفهوم «الخطأ في الحسابات» الغامض الذي يلوم برودون من خلاله الرأسماليين على عدم دفعهم أجر «القوة الهائلة التي تنتج من اتحاد وانسجام العمال، ومن تضافر جهودهم وتزامنها».

بعد هذا اللقاء، كتب ماركس لفويرباخ، معبراً من جديد عن إعجابه بالعمال الفرنسيين، وهو إعجاب ورثه عن أبيه ولن يفارقه أبداً. ويبدأ من جهة أخرى الاهتمام بالمادية من حيث هي كذلك. وباقتباسه من فويرباخ ومن هيجل، يجعل من الطبقة الكادحة المستَذَلة والساخطة المُحفز على التحرر المستقبلي وعلى الثورة.

كما يكتب كارل دون توقف لجيني التي لا تزال في تريفز عند أمها. وتجيبه حوالي 15 آب / أغسطس، لتنقل له بعضاً من جو مدينتهما

الأصلية المحظورة عليه بعدما أمر الملك بمنع الناشرين من الإقامة في بروسيا:

«عزيزي، تلقيت رسالتك في اللحظة التي كانت الأجراس تقرع، والمدافع تدوي، وعندما كانت جموع الأتقياء تسارع إلى الكنائس لشكر إله السماء لأنه أنقذ إلههم الأرضي. ولك أن تتخيل شعوري الخاص وأنا أقرأ قصائد هاينه طوال هذا الاحتفال الذي ترتفع فيه صيحات الشكر والثناء».

ويرد عندئذ خبر سيء: فالناشر جوليوس فروبل، وروج أحد مموليه، يعلق إسهامه في (الحوليات الفرانكو - ألمانية). فينسحب روج آنذاك رافضاً أن يدفع لماركس الرواتب الموعودة، وتاركاً له النسخ غير المباعة. ويطلب ماركس مساعدة من صديق في كولونيا هو جورغ يونغ الذي يرسل له أيضاً 250 تالر، دليلاً على المساعدة، لكنها النهاية لـ(الحوليات): إذ ليس لدى كارل ما يكفي من المال لإصدار أعداد أخرى، فليس لديه مساندة مالية، ولا مساهمون فرنسيون، ولا عدد كافٍ من القراء بالخصوص.

ولم يعد من موجب لإقامته في باريس. لكنه لا يستطيع أيضاً العودة إلى وطنه، فبسبب هذه الصحيفة، تحظر عليه الإقامة في بروسيا.

وبما أن (الحوليات) تتوقف، فإنه يكتب في صحيفة ألمان باريس (فور فارتس). وفي 10 آب / أغسطس 1844، يقدم مقالاً عن ويتلينغ اللاجئ مثله في باريس، يصف فيه نصاً متكلَّفاً لهذا الخياط (بعنوان «ضمانات الانسجام والحرية») بأنه «بدايات أدبية عظيمة ولامعة للعمال الألمان».

في 28 آب / أغسطس، يجري حدث هام: إذ يقدم فريدريك إنجلز، بعد لقاء كولونيا بسنتين، إلى شارع فانو، من بارمن بالقرب من ووبرتال، حيث يعمل في مصنع أبيه؛ وهو يأتي بمقال جديد لـ(الحوليات)

ظاناً أن المجلة لا تزال حية. يرسم فيه تطور الرأسمالية، منذ النزعة التجارية [المركنتيلية] حتى النظام الصناعي الإنجليزي. فينبهر كارل بمعرفة العصامي الشاب لعالم العمال، هذا الشاب الذي سيتباهى فيما بعد بمعرفته لأربع وعشرين لغة، قراءة وكتابة (وأحد الأعمال الفذة التي سيتفاخر بها، سيكون تعلمه الفارسية في ظرف ثلاثة أسابيع). ومن 28 آب / أغسطس حتى 6 أيلول / سبتمبر 1844، لا يغادر الشابان أحدهما الآخر، ويقضيان، طبقاً لأسطورة سيروجانها، عشرة أيام في الشراب والمناقشات التي لا تنتهي.

فيشرح كارل لفريدريك كيف ينوي الانسلاخ عن الفلسفة الألمانية التي خصص لها العديد من سنوات الدراسة، لأنها تهمل علاقات القوة الاجتماعية في تحليل المفهومات؛ ويبين له كيف ينوي تفسير تاريخ بني الإنسان، وتاريخ الدول من خلال علاقاتها مع الاقتصاد ومع الملكية. ويعرض فريدريك لكارل اتصالاته مع الميثاقيين الإنجليز، ويعلمه بمشروعه لكتابة تاريخ عن ظروف الطبقة العاملة - وهو موضوع المقال الذي جاء به - مازجاً ملاحظاته الخاصة في المصنع العائلي بالمعلومات التي استمدها من اللجان البرلمانية ومن تقارير موظفي الصحة التي يُعلِم كارل بوجودها. «إنني أجد سعادتي في شهادة خصوميَّ» يشرح لرفيقه المنبهر. ها هو أخيراً، يقول كارل في نفسه، شخص يعرف عالم العمل، ووضع قدميه في مصنع، ويستطيع بكلمات إنسان عصامي علم نفسه بنفسه، التحدث جيداً سواء في الفلسفة أم عن الحياة المحسوسة للناس.

ذلك أن ماركس لن يعيش أبداً حياة الطبقة العاملة - وحتى عندما سيشاطرها عوزها الأشد - ولن يضع قدميه أبداً في مصنع؛ ولهذا سيستخدم مواد فريدريك نفسها لفهم هذه الحياة، أي: التقارير، الصحافة، شهادة الآخرين.

بعد ذلك بكثير، سيصف فريدريك لقاءهما على هذا النحو: «عندما زرت ماركس في باريس، إبان صيف 1844، ظهر أننا على اتفاق

تام في كل الميادين النظرية، ويبدأ من تلك اللحظة تعاوننا. فماركس لم يكن وصل فقط إلى رأيي ذاته، بل كان عمَّمه في (الحوليات الفرانكو - ألمانية) وفحواه: ليست الدولة، في المحصلة، هي التي تحدد وتسيِّر المجتمع البورجوازي، إنما المجتمع البورجوازي هو الذي يحدد الدولة ويسيِّرها؛ فمن الواجب إذاً تفسير السياسة وتاريخها انطلاقاً من الظروف الاقتصادية وتطورها، وليس العكس».

وبالفعل، إن الشابين متشابهان ويكمل أحدهما الآخر. فكلاهما بحاجة للكتابة إلى هدف، إلى خصم يسمح لهما: في ثنايا جملة ما، بإحراز مراكز نظرية متقدمة. وكلاهما بحاجة إلى الاعتماد على وقائع: فهما صحفيان بكل جوارحهما. لكنهما مختلفان بشكل ملحوظ. إذ إن الأول فقير يميل إلى النظري، قطع علاقاته مع أمه بعد موت أب مبجل؛ والآخر غني، ذو فكر عملي، شديد الارتباط بأمه في كرهه للأب. الأول دكتور في الفلسفة؛ والثاني أوقف دراسته، مجبراً ومكرهاً، قبل الدخول إلى الجامعة. الأول متزوج؛ والآخر لا يحرص على إرباك نفسه بتكوين أسرة (سيعيش فيما بعد مع عاملة، لكنه سيعرف أيضاً علاقات عابرة عديدة، بما فيها شقيقة رفيقته). ويعثر كارل في فريدريك على الشقيق الذي رحل مبكراً وكان في السن ذاتها.

ولن يفترق الاثنان منذئذ لا في الحياة ولا في التفكير ولا في العمل. وسيكتب شاهد متميز على علاقاتهما، هو بول لافارغ: «لقد حقق ماركس وإنجلز مثال الصداقة الأعلى الذي وصفه شعراء العصور القديمة».

فيكتشفان بالخصوص أن لديهما أعداء مشتركين كثر. إذ إن جوهر أحاديثهما خلال لقائهما في باريس لعشرة أيام، كان ذم الفلاسفة الألمان الذين يكرهانهم أو الذين خيبوا أملهما: هيجل وبوير وآخرون غير معروفين اليوم. ذلك أن كارل انتهى لتوه من قراءة (الفَريد وملكيته) للمدعو ماكس ستيرنر، الاسم المستعار ليوهان كاسبار شميدث، وهو

فيلسوف شاب يعلم في برلين، ويدعي أنه «هيجيلي فوضوي» وهي صفة تشير بوضوح إلى جرأة تفكيره! فلا حدود لادعاء ستيرنر؛ إذ يكتب فيما يكتب: «أنا فَريد»، «لا شيء فوقي»، «لقد أسست قضيتي على لا شيء». وهو يزعم أن كل مؤسسة هي تجريد، والوحيد الواقعي هو الشعور الفردي الذي يحدد بحرية حاجاته. فيستشعر ماركس أن وراء هذر ستيرنرستيرز حركة سياسية هامة هي: الفوضوية. ويجب محاربتها بأي ثمن، لأنها ليست قائمة، كما يعتقد، على أي واقع اجتماعي. دون ذكر أن كارل غاضب لأنه قُدم في الكتاب، في ثنايا جملة، كـ«تلميذ» لفويرباخ. هو، تلميذ لأحد أياً كان؟ أبداً!

في وقت هذا اللقاء ذاته، 29 آب / أغسطس 1844، يكتب أرنولد روج، الذي قطع علاقاته مع كارل لتوه، بأسلوب تنبؤي: «أظن أنه لا يزال ممكناً أن يكتب كارل ماركس كتاباً ضخماً جداً ليس كثير التجريد، وسيحشوه بكل ما راكمه».

وبعد عشرة أيام، على إنجلز العودة إلى ألمانيا، من أجل المصنع العائلي في ووبرتال. فيقرر الرجلان البقاء على اتصال والعمل معاً عن بعد في مقالات مشتركة، وبداية مشروع مشترك ضد الفلاسفة الألمان المعاصرين لهما.

وفي تشرين الأول / أكتوبر 1844، يكتب فريدريك في بارمن عشرين صفحة بالألمانية يبعث بها إلى كارل – الذي يتلقى منه بعد بضعة أسابيع، لدهشته الشديدة، ثلاثمائة صفحة بالألمانية أيضاً تبحث من جديد وتوضح مسودات الصيف الفائت حول الاغتراب. ويجهز الكتاب سريعاً؛ فيفكران في عنونته (نقد النقد)، لكنه سيسمى (العائلة المقدسة). وإذ يقرأه ماركس ثانية بعد ثلاثة عشر عاماً سيكتب إلى إنجلز: «كانت مفاجأة سارة لي رؤية أن ليس علينا أن نخجل من هذا العمل، مع أن التقديس الموجود فيه لفويرباخ يبدو غريباً جداً الآن».

وهو نص حاد وهزلي أحياناً، يثني المؤلفان فيه على ديدرو،

وهيلفيسيوس، وفوربيه (لتحرير النساء) وعلى برودون (اللذان ينسبان إليه «تقدماً علمياً يحدث ثورة في الاقتصاد السياسي») ويزعمان أن قسماً كبيراً من الطبقة الكادحة الإنجليزية والفرنسية واعٍ بالمهمة التاريخية التي تقع على عاتقه. ويشيران إلى حدود موقف برودون الذي، كما يقولان، ينقد الاقتصاد السياسي «من وجهة نظر الاقتصاد السياسي» والذي لا يستطيع، باعتباره عاملاً، إبداء رأيه إلا من داخل ظروف الاغتراب نفسها، دون التوصل إلى مجاوزتها. وبتطرقهما إلى مادية فورييه، وأوين وكابيه، يخلصان إلى أن «المادية الفرنسية تقود مباشرة إلى الاشتراكية وإلى الشيوعية». ونجد فقرات كاملة من مسودات كارل خلال الصيف أدرجت في الكتاب كلمة بكلمة تقريباً: «إن الطبقة المالكة والطبقة الكادحة تمثلان الاغتراب الإنساني عن ذاتيهما نفسه (حتى وإن) شعرت الأولى بالرضى من هذا الاغتراب عن الذات الذي تنظر إليه على أنه شهادة على قدرتها الخاصة ويعطيها مظهر وجود إنساني».

في تشرين الثاني / نوفمبر، يقترح كارل الكتاب على «الكومبتوار ليتيرير» [الوكالة الأدبية]، وهي دار النشر التي يديرها فروبل، ناشر مجلته المأسوف عليها: لكن روج المساهم مع آخرين في هذه الدار يعارض المشروع: «طالما كانت لي علاقة بالكومبتوار ليتيرير، ستمتنعون عن نشر أي كتاب لماركس». فيطلب كارل عندئذ من بورنشتاين، مدير (الفور فارتس)، عرض المخطوط على ناشر هذه الصحيفة: ولكن دون جدوى. ويتوجه ماركس بعد ذلك إلى الدكتور لوينتال، المدير المشارك لدار النشر الأدبية في فرانكفورت الذي يقبل نشره، ويقترح عليه في رسالة مؤرخة في 27 كانون الأول / ديسمبر 1844، عنواناً آخر: «أرجوك أن تسمح لي بإعطاء كتابك عنوان أقصر وأكثر تأثيراً، هو (العائلة المقدسة) «عوضاً عن (نقد النقد). فهو أقدر على جلب الانتباه، وآمل أن يبرر المضمون الهزلي غالباً هذا العنوان».

واستبقي العنوان، لكن الكتاب لا ينال أي رواج: ذلك أن لا أحد في ألمانيا يهتم بهذه المساجلات الفلسفية التي تدور بين مجهولين.

والرأسمالية في بدايات 1845 منتصرة في كل مكان والتمردات قمعت. ففي باريس، يؤسس أنفانتان ولافيت وروتشليد مجتمعين شركة لبناء سكة حديدية بين باريس وليون. وفي منطقة الكوريز يعارض فلاحون تقطيع الأراضي البلدية وبيعها. وفي بروسيا، تسحق التمردات العمالية.

وعندما ترحب (الفور فارتس) بمحاولة اغتيال فريدريك - غليوم الرابع، يطفح الكيل. إذ يرسل ملك بروسيا الكسندر فون هومبولت في 7 كانون الثاني / يناير 1845، بمهمة خاصة إلى لويس فيليب، وهو يحمل هدية ورسالة طويلة فيما يتعلق بالمقالات «المحرضة على قتل الإمبراطور» في صحيفة المهاجرين الألمان بباريس. فتعلق الـ(فور فارتس) في 25 كانون الثاني / يناير. وغيزو يعد حتى بالنظر في طرد المسؤولين عنها.

ولا يشعر ماركس بأنه مهدد: حتى وإن كان يكتب فيها، فلا علاقة له بإدارة (الفور فارتس). وهو يسعى الآن لجمع مسودات السنة الفائتة، لتأليف تاريخ نقدي للاقتصاد السياسي، انطلاقاً منها، ويتنقل لهذه الغاية، قبل الكتابة، بين الناشرين الألمان. ويمضي في 1 شباط / فبراير، مع كارل ليسك من دارمستادت، عقداً لنشر (نقد السياسة والاقتصاد السياسي) يلتزم فيه بتسليمه الكتاب قبل نهاية الصيف. وستكون الدفعة الأولى المقررة لدى تقديم المخطوط 1500 فرنك (أي 420 تالر) وهو ما يعادل راتب عامل لثلاثة أشهر؛ وسيتلقى المبلغ ذاته في نهاية الطبع. لكن ماركس يستلم في الواقع العربون لدى إمضاء العقد، لكن الأحداث ستمنعه من تسليم المخطوط في الوقت المحدد؛ وهو لن يسلمه أبداً ولن يرد العربون إلى الناشر. مع أنه سينشر بعض الفصول من هذا الكتاب. ولكن بعد زمن طويل. حتى إن أحدها سيرى النور بعد اثنين وعشرين عاماً، وسيكون (رأس المال).

ولم تكد تمضي ثمان وأربعون ساعة حتى يأمر غيزو بطرد كل محرري (فور فارتس) والمتعاونين معها: بورنشتاين، بيرناي، بورجر، روج، باكونين، هاينه و.. ماركس. وفي اللحظة ذاتها يصل من روسيا أمر ينذر باكونين بالعودة إلى بلاده. وهكذا يُضيَّق الخناق على اللاجئين.

عندما يبلغ ماركس بأن عليه مغادرة فرنسا على الفور، يصاب بالذهول. لكن تعبئة تنظم. وأمام الاحتجاجات الصادرة عن الليبراليين الفرنسيين وعن الأوساط الصحافية، يُستثنى من مرسوم الطرد المتعاونون مع الصحيفة، فيما عدا ماركس، لأنه الأكثر عنفاً والأكثر سجالاً وأفضل الجميع، ولأنه كان هدفاً للغضب البروسي في شهر تموز الفائت.

إلى أين الذهاب؟ إن كارل يتردد. فهو لا يستطيع العودة إلى بروسيا حيث صدرت بحقه مذكرة توقيف منذ قرار حظر مجلته. وهو يستطيع الذهاب إلى مناطق أخرى في ألمانيا، لكن ضغط الشرطة بالقوة ذاتها. إلى لندن؟ إنه غير متمكن جيداً من الإنجليزية. تبقى بلجيكا وسويسرا: وسويسرا عدائية؛ لكن بلجيكا التي تتنازعها هولندا وفرنسا اللتان تطمعان كلاهما في أراضيها، تثير اهتمامه. فبما أنها محكومة من قبل أمير ألماني الأصل، هو ليوبولد الأول، فهي ترحب باللاجئين شريطة التزامهم بالامتناع عن أي نشاط نضالي. والحال أن كارل لا يريد سوى الكتابة، لا النضال. ويتحدث في الأمر مع جيني التي تبدي استعدادها للحاق به حيثما يشاء مع ابنتهما ذات العامين الآن. وستكون بروكسل هي الملاذ إذاً.

ولتغطية نفقات السفر والاستقرار، يرسل إنجلز إلى ماركس، من بارمن، 50 تالر، سرعان ما تضاف إليها 750 أخرى، جمعها من الأصدقاء والمتعاطفين في كولونيا. وهذه أول مساهمة معروفة من فريدريك في حياة ماركس المادية.

وقبل مغادرته شارع فانو يكتب ماركس لهاينه: «من بين الذين أتركهم هنا، أنت هو الذي أتركه بأشد الأسف. إنني أود لو أحملك في أمتعتي». ولن يرى أحدهما الآخر بعد ذلك أبداً.

في 3 شباط / فبراير 1845، يصل كارل إلى بروكسل، ترافقه جيني الحامل منذ شهرين، والصغيرة جينيشن، المريضة. ولا يحصل على الترخيص النهائي بالإقامة في بلجيكا إلا بعدما وقع في 22 آذار / مارس على الالتزام الذي يطلب من كل المهاجرين بعدم الاشتغال بالسياسة بتاتاً. وبما أنه لم يكن يتخيل نفسه باحثاً عن وظيفة - وهو وضع يمقته -، فإنه ينتوي العيش من قلمه. وفي انتظار هذا، يمول مال التبرعات منزلاً فسيحاً ومريحاً.

والمفاجأة للجميع، أن إدغار، شقيق جيني الأصغر، وهو الآن ديمقراطي صريح أيضاً، يلتحق بأسرة ماركس في ملاذها ببروكسل. وهو شاب متقلب ومتردد. فبعد دراسته في بون، وسنوات من الطيش، حصل على إجازة في الحقوق ثم على وظيفة متدرب في محكمة الجنايات بتريفز. ولدى قدومه برفقة خطيبته المدعوة لينا شولر إلى العاصمة البلجيكية، يحصل على وظيفة بسيطة في وكالة للصحافة يديرها مهاجر، هو سيباستيان سيلر. فتُسكنه جيني لديها كما تُسكن ضابط مدفعية بروسي شاب، هو جوزيف ويد ماير الذي صادفه كارل في كولونيا زمن المجلة الأولى، وترك الجيش لتوه انسجاماً مع قناعاته الشيوعية.

وترسل والدة جيني إليهم في آذار / مارس، خادمة هي هيلين ديموث، البالغة الخامسة والعشرين من عمرها آنذاك، على أن تدفع هي لها أجرها. وهيلين (أو لينشن، أو نيم) أصغر بسنتين من كارل وبست سنوات من جيني، وتنتمي إلى منطقة السار وتتكلم الفرنسية. وبما أنها في خدمة آل ويستفالن منذ 1837، فإن جيني تعرفها معرفة جيدة. إذ يكتب بول لافارغ الذي عرفها فيما بعد: «كانت السيدة ماركس تعد هيلين صديقة حميمة، وكان مارس يبدي لها صداقة متميزة: إذ كان يلاعبها الشطرنج، وكثيراً ما كان يخسر اللعبة. وحب هيلين لأسرة ماركس كان أعمى: فكل ما كانت تفعله الأسرة كان جيداً، ولا يمكن إلا أن يكون كذلك، ويتورط معها أي شخص كان ينتقد ماركس. وكانت تشمل بحمايتها

الأمومية كل من تقبله الأسرة بينها. (..) كانت تحسن كل شيء: إذ تطهو، وتهتم بشؤون المنزل، وتُلبس الأطفال، وتفصل الملابس التي كانت تخيطها بمعونة السيدة ماركس. فقد كانت المسؤولة المالية والقيمة على المنزل في آن (..). وبفضل حرصها على النظام والاقتصاد، وحسن تدبيرها لم تفتقر الأسرة قط إلى الضروريات».

ويلتقي ماركس من جديد في بروكسل لاجئين آخرين، هربوا لتوهم من ألمانيا كموزس هس، صديقه في كولونيا، وآخرين غادروا باريس في الوقت نفسه لأسباب وضغوط أخرى كالخياط ويلهلم ويتلينغ.

في 15 آذار / مارس 1845، ينشر إنجلز في بارمن مؤلفه الأول، الذي حدث ماركس عنه قبل ستة أشهر: (وضع الطبقة العاملة في إنجلترا). وهو ريبورتاج ضخم يعتمد على تقارير (ينهبها، كما سيقول البعض) لجنة التحقيق في المعامل للعام 1833، والتحقيق في الظروف الصحية للعمال للعام 1842، ولجنة استخدام الأطفال في 1842 - 1843، ولجنة التحقيق في حالة المدن الكبيرة للعام 1844. وقد زار إنجلز نفسه منطقة لانكشاير الصناعية، ومنطقة مانشستر والمدن الصناعية الرئيسة في يوركشاير: ليدز، برادفورد، شيفيلد.

ويقوم فريدريك بلفتة جديدة: إذ يتخلى عن حقوقه كمؤلف في كتابه لكارل، حالماً بالمجيء إليه والعمل معه. وبعد ثلاثة أشهر من إقامة ماركس في بروكسل، يفيض الكيل بإنجلز من الجو السائد في بارمن، ومن المهنة التي يجبر على ممارستها - التي يصفها بأنها «فظة» (وهي إحدى الشتائم المفضلة لدى فريدريك، التي سرعان ما سيتبناها كارل) - فيجرؤ على تحدي عائلته. ويغادر المصنع، مؤمناً دخلاً بسيطاً، إلى بروكسل في نيسان / أبريل 1845، ككاتب وصحافي بدوام كامل. وسيصف إنجلز هذا اللقاء الثالث على هذا النحو: «عندما التقينا في بروكسل، ربيع 1845، كان ماركس قد استخلص من أسسه نظرية مادية في التاريخ، أُتِمت في خطوطها الكبرى، وانهمكنا في العمل بالتفصيل

وفي مختلف الاتجاهات على طريقتنا الجديدة في الرؤية التي اكتسبناها حديثاً».

ينتقل ماركس عندئذ إلى 5، شارع الأليانس، في ضاحية سانت - جوس تن نود، وهو منزل مجاور لمنزل إنجلز، بأموال إنجلز. وتتعرف جيني - التي كانت في تريفز عندما التقى كارل فريدريك للمرة الأولى في كولونيا، ثم في باريس - أخيراً على الذي طالما سمعت عنه. فتغدو صديقة له، حتى وإن كانت ستبقي على بعض التحفظ تجاهه، بدافع من الغيرة نوعاً ما، ولأنها تصدم لرؤيته يعيش دون زواج مع نساء يتتابعن دون توقف.

ويتحدث الصديقان في الحال عن الكتاب الذي نشره لتوه معبودهما السابق، فويرباخ في برلين، (بحث في الدين)، يتخلى فيه عن الإنسانوية، ليتوجه نحو نزعة طبيعية أُفقرت أكثر فأكثر، لم يعد الله فيها إلا انعكاساً للطبيعة. وبما أن كارل لا يتمكن من مقاومة نداء المساجلة، يقرر منذ أيار / مايو 1845، تأخير كتابة كتاب الاقتصاد الذي وعد به ناشره، ليكتب مع فريدريك، دون نية للنشر، نصاً يرمي إلى «تصفية الحساب مع الوجدانات الفلسفية للماضي»، وهذه المرة مع فويرباخ فقط.

فيسحق كارل وفريدريك عندئذ نقد فويرباخ للدين، ويرفضانه بما هو قائم فقط على تصور فرداني للإنسان: «إن جوهر الإنسان ليس تجريداً ملازماً للفرد المنعزل. فهو في حقيقته مجموع العلاقات الاجتماعية (..). وكل حياة اجتماعية هي عملية بالجوهر. وكل الأسرار التي تؤدي بالنظرية إلى الصوفية، تجد حلها العقلاني في الممارسة الإنسانية، وفي فهم هذه الممارسة». وينتقدان «المادية القديمة» لفويرباخ، باعتبارها «مادية حدسية»: «إذ إن أعلى نقطة تصل إليها المادية الحدسية، أي المادية التي لا تتصور المحسوس كنشاط عملي، هي حدس الأفراد المعزولين، وحدس المجتمع البورجوازي (..). ذلك أن الشيء، والواقع، والعالم المحسوس، لا يجب إدراكها كشيء أو كحدس، (بل)

باعتبارها نشاطاً إنسانياً محسوساً، بطريقة موضوعية». ويوجزان كل ذلك في مجموعة من إحدى عشرة أطروحة بأسلوب مختزل، أكثرها شهرة وأهمية الأخيرة منها: «حتى الآن، لم يقم الفلاسفة إلا بتفسير العالم بطرق مختلفة؛ لكن ما يهم هو تغييره» - وهو ما يحدد جدول أعمال نشاطهما المستقبلي.

وما إن يتم هذا النص، حتى يضعه الصديقان جانباً: إذ لم يكن بالنسبة إليهما إلا أسلوباً في توضيح أفكارهما. وكارل سعيد، لأنه عثر أخيراً على شخص مثله، لا يحب مطلقاً الافتراق عن عمله. ويعيش مثله اغتراب العمل بأشكاله الثلاثة، كعذاب لا يُطاق.

في تموز / يوليو 1845، يرافق ماركس صديقه إلى إنجلترا، حيث يمضيان ستة أسابيع. وجيني التي عليها أن تلد في أيلول / سبتمبر، كانت تفضل دون شك أن يبقى زوجها قريباً منها. لكن هذه الرحلة تثير الانبهار لدى كارل: إذ يكتشف الحرية التي تسود المملكة البريطانية، وأيضاً قوة الرأسمالية الإنجليزية. وفي لندن، يلتقي عدداً من اللاجئين الألمان، ومنهم فرديناند فريليغرات، الشاعر المعروف الذي انقلب ضد فريدريك غليوم الرابع، ويعمل الآن في مصرف بحي الأعمال [السيتي]، وسيصبح من أقرب رفقائهما. ويقدم إنجلز ماركس إلى مختلف القادة العماليين، ومنهم جورج جوليان هارني، زعيم عصبة للمنصفين تدعي أنها «ثورية ودولية»؛ وهذه المنظمة التي شتتت في باريس من قبل، تكوّنت من جديد في لندن، العام 1840، مع بعض الناجين: كالساعاتي موال، والخياط إيكاريوس، وشابر وهنريش بوير. وهي مؤلفة من بعض الحرفيين اللندنيين، ومن مجموعة من الاشتراكيين الألمان اللاجئين إلى لندن؛ ولها فروع سرية في نحو عشر مدن ألمانية، باسم جمعية تربوية محترمة للعمال الألمان، تكرس نفسها للتربية الشعبية. فيقترح هارني على الصديقين الكتابة في صحيفة أنصار الميثاق (نورثرن ستار) [النجم الشمالي]، وهو ما يقبلانه، ولكن في المستقبل. ويذهبان أيضاً إلى

مانشستر حيث تمتلك عائلة إنجلز مصنعاً، ويشرح إنجلز لماركس كيفية الاستفادة من مصادر مكتبة المدينة التي لا تخطر على البال. ولدى عودتهما إلى لندن يشاركان في المناقشات التحضيرية لإنشاء جمعية الديمقراطيين الأخويين التي ستؤسس بُعيد مغادرتهما في 22 أيلول / سبتمبر 1845، بين أعضاء من عصبة المنصفين ومهاجرين من جميع الجنسيات.

يرى ماركس وإنجلز أن فكرة منظمة دولية تجمع كل الثوريين الأوروبيين مثيرة للاهتمام بحد ذاتها، لكن تجسيدها في عصبة المنصفين والجمعية التربوية للعمال الألمان أو جمعية الديمقراطيين الأخويين، يظل تافهاً. وخلال سهراتهما المسقية جيداً، يحلمان بأن يجمعا حولهما مجموع الثوريين، عمالاً ومفكرين، من فرنسا وألمانيا وإنجلترا وروسيا وإيطاليا، ويتخيلان جمعية للديمقراطيين من كل الأمم، تنظم تبادلاً للمعلومات بين ناشطي الحركات الديمقراطية والثورية في كل البلدان، وتعمل على توسعة الحقوق السياسية والاجتماعية للعمال.

ويصلان إلى بروكسل عشية ولادة ابنة كارل الثانية لورا، في 26 أيلول / سبتمبر 1845، في الوقت الذي يُنشر نقد لـ(الفريد) لستيرنر، من قبل فويرباخ، ورد لستيرنر.

وتسوء حالة ماركس المالية مع طفلتين. إذ ليس لدى ماركس أي مورد للدخل، ومدخراته الهزيلة تنفذ. وأمه لا تزال غير قادرة على إعطائه نصيبه من ميراث أبيه الذي أكدت أنها مدينة له به. أما إنجلز الذي يساعد على قدر استطاعته، فلا منفذ له إلى ثروة عائلته، ويحاسب صديقه كلما طلب هذا منه اقتراض مبلغ ما.

وعلى غرار الكثير من الألمان يومذاك، يفكر كارل بالهجرة إلى الولايات المتحدة، حيث الاقتصاد في ازدهار، والاستيطان في تقدم لا سيما مع ضم تكساس الذي يتسبب في حرب مع المكسيك.

ففي 17 تشرين الأول / أكتوبر، يوجه كارل إلى رئيس بلدية تريفز

طلباً للحصول على جواز سفر بروسي بغية الهجرة إلى ما وراء الأطلسي. لكن طلبه يرفض، بما أنه لا يزال خاضعاً لمذكرة توقيف بحقه. وإذا به يتخلى برسالة في 10 تشرين الثاني / نوفمبر 1845، عن جنسيته. وها هو منذئذ دون جنسية، فيقرر عدم مغادرة بروكسل.

وهكذا ستكون حياته مرتبطة بأوروبا. ويستأنف العمل في (نقد السياسة ونقد الاقتصاد السياسي) وهو الكتاب الذي أوصى عليه كارل ليسك، ناشر دار مستاد، قبيل مغادرته باريس منذ أربعة أشهر.

ولكنه، لعجزه مرة أخرى، عن ترك عمل أُتِم يفارقه، لم يجتهد فيه حقاً، ويقرر الانتهاء أولاً من الفلسفة الألمانية - ومن ماضيه الخاص. ولوقت طويل أيضاً، سيلتمس معاذير أخرى كي لا يتم هذا العمل الذي لن ينشر إلا على عدة حلقات، أولاها بعد اثني عشر عاماً، وسيتركه غير مكتمل حتى موته. فيأخذ القريبون منه عليه ذلك: «لم يكن ماركس راضياً قط عن عمله، وكان يجري عليه دائماً تعديلات، وكان يرى دائماً أن التعبير دون مستوى التصور..».

وكثيراً ما يغفل كتاب سيرته الإشارة إلى أن ماركس ينشر مطلع 1846، بحثاً حول الانتحار في مجلة يديرها موزس هس هي (لوميروار دولاسوسييتيه) [مرآة المجتمع]. فعندما ستنشر أعمال ماركس الكاملة في ألمانيا الشرقية بعد الحرب العالمية الثانية، سيُنسى هذا النص. ربما لأنه يقتبس من ترجمة كتاب للفرنسي جاك بوشيه، موظف محفوظات الشرطة، المتوفى في 1830؟ والواقع أن ماركس يحول هذا النص بترجمته والاقتباس منه. ذلك أن بوشيه يذكر حالات انتحار ناجمة عن إفلاسات تسببت بها نزاعات شخصية أو أهواء أفلتت من السيطرة، بأسلوب يذكر بالكاتب الفرنسي الأثير لدى ماركس: هونوريه دو بلزاك. وقد قرأ ماركس بوشيه على الأرجح في 1844 عندما كان ينتوي الكتابة عن الثورة الفرنسية. ويشطب من نص بوشيه التطورات الدينية ويعوضها بعناصر من تحليله الاجتماعي الخاص. كما يسبغ على الأصل صبغة أكثر ثورية.

وفي المقابل، لا يهون من الأهمية التي يوليها بوشيه إلى التجربة العائلية في نوعية حياة الفرد. وينتهز الفرصة لإضافة ملاحظة حول «السلطة الأبوية المطلقة»، التي يقارنها بالطاعة والتبعية السائدتين في المجتمع المدني. ومع ذلك، لا شيء من كل هذا يسمح باستنتاج أن ماركس فكر هو نفسه بالانتحار، حتى وإن كان سيتعرض عدة مرات للانهيار العصبي. وفي مقدمة هذا البحث، يقدمه ماركس «مثالاً على الأسلوب الذي يعمد إليه النقد الاجتماعي الحديث في فرنسا للكشف عن التناقضات والفظائع المتفشية في كل أوجه الحياة الحديثة».

من أيلول / سيتمبر 1845 حتى آب / أغسطس 1846، يؤلف كارل وفريدريك نصاً جديداً ضد فويرباخ وستيرنر. أكثر قسوة من (العائلة المقدسة)، وأكثر دقة، هو (الإيديولوجية الألمانية)، أحد أعمالهما الأكثر أهمية، لكنه لن يجد ناشراً. ويفسر كارل بعد ذلك بقليل، بكثير من الفطنة، دوافع هذا العمل: «قررنا العمل معاً على إبراز التعارض الموجود بين أسلوبنا في الرؤية والتصور الإيديولوجي للفلسفة الألمانية: أي تصفية حساباتنا، في الواقع، مع وعينا الفلسفي الماضي (..). فقد كان إنجلز وصل من غير طريقي (انظر: وضع الطبقة العاملة في إنجلترا) إلى النتيجة التي وصلت إليها ذاتها، وعندما جاء للاستقرار ببروكسل في ربيع 1845، قررنا عرض الاختلاف الأساس الذي كان يفصل تصوراتنا عن تصورات الفلسفة الألمانية، أعني قطع العلاقات مع ماضينا الفلسفي الخاص في الواقع. وحدث لهذا المشروع أن تجسد بشكل نقد للفلسفة ما بعد الهيجيلية».

إلا أنه فيما يتعلق بنقد الإيديولوجية الألمانية، يحمل كتابهما ثانية وبصفة رئيسة على ستيرنر (الذي خُصص له 499 صفحة من 596 في الطبعة الأصلية!). إذ يلومه ماركس وإنجلز لأنه اكتفى بالتنديد بالمؤسسات دون دراسة نشوئها في أوضاع اجتماعية محددة. ويأخذان على الاشتراكيين الألمان – أصدقائهما السابقين في برلين المتجمعين حول

بوير واللذين يشيران إليهم باسم «الاشتراكيين الحقيقيين» - جهلهم «كل شيء عن الظروف الحقيقية للإنتاج وللاستهلاك»، وتذهنهم الشيوعية كنظام مجرد، مستقل عن حاجات زمن بعينه. ذلك أن الشيوعيين، كما يقولان في اختزال مؤثر، «يفكرون ويعملون للزمن، أما الألمان فللأبدية». وكما أن التاريخ يستجيب لمنطق يشكل «قوته المحركة»، فإن الشيوعية لن تكون ممكنة، إلا عندما سيسمح وعي العمال، في ظروف تاريخية معينة، لهم بأن يصبحوا ثوريين. «إن الكادحين (..) يجدون أنفسهم (..) في تضاد مباشر مع الشكل الذي اختاره أفراد المجتمع حتى الآن تعبيراً عن المجموع، أي في تضاد مع الدولة؛ وعليهم قلب الدولة لتحقيق شخصيتهم».

يمثل (الإيديولوجية الألمانية) انقلاباً هاماً في الفكر السياسي الأوروبي لأسباب خمسة:

أولاً، لأننا نجد فيه للمرة الأولى صياغة لمفهوم الإيديولوجية، وعرضاً للشروط الاجتماعية والفكرية الضرورية للثورة: فالعوامل الاقتصادية هي عوامل تفسيرية «في التحليل الأخير»، وينبغي تفسير كل فكرة بالسياق التاريخي الذي صيغت فيه. «عبر كل الإيديولوجية، يظهر لنا الناس وعلاقاتهم، موضوعين ورؤوسهم إلى الأسفل، كما في آلة التصوير». ويستخدم ماركس وإنجلز من جديد مفهوم الاغتراب - حتى «يظل عرضنا معقولاً للفلاسفة» كما يقولان - جاعلين منه أساس تحليلهما للإيديولوجيات: إن «البنية العليا» للمجتمع (الدين، الفن، الأفكار) تستهدف تبرير «بنيته التحتية» (الاقتصاد، الواقع). فالبنية العليا، بعبارة أخرى، تنظم الاغتراب الذي تحدده البنية التحتية. ويضيف كارل وفريدريك إلى هذه النقطة أربعة استخلاصات جوهرية كثيراً ما سترد في أعمال ماركس: لكن غالبية أتباعه أهملوها قليلاً أو كثيراً.

أولاً، حتى وإن كانت الإيديولوجية المهيمنة هي إيديولوجية الطبقة الحاكمة، سادة الاقتصاد، فإن النشاط والفكر الإنسانيين ليسا سجينين

مع ذلك للعوامل الاقتصادية أو الاجتماعية؛ لأن المضطهدين يستطيعون التمرد بانفتاحهم على «وعي طبقي» وكما يمكن كذلك أن يكون ثمة أعمال فنية حرة، دون صلة بعلاقة القوى الاقتصادية، حتى لو لم «يكن هناك تاريخ للسياسة وللقانون وللعلم، إلخ. وللفن وللدين، إلخ». يكون مستقلاً عن تاريخ الإنتاج.

ثم، إن الرأسمالية شرط ضروري للشيوعية: «إن الرأسمالية شرط مسبق (للشيوعية) لا بد منه، فمن دونها يصبح النقص في المواد شاملاً، ومع الحاجة يعود الصراع من أجل الضروريات ثانية، ونسقط لا محالة في الوحل القديم من جديد».

ومن ثم، فإن الشيوعية ليست مجتمعاً مثالياً ذا معالم جامدة بصفة نهائية، بل «حركة» تتجه إلى حرية فردية ينبغي افتكاكها وابتداعها دون هوادة: «ليست الشيوعية بالنسبة لنا حالة ينبغي خلقها، ولا مثال أعلى ينبغي على الواقع أن يسايره. فنحن نسمي شيوعيةً الحركة الواقعية التي تلغي الحالة الراهنة. (..) وفي المجتمع الشيوعي حيث لا يكون لكل فرد مجال نشاط حصري، بل يستطيع أن يكتسب المهارة في الفرع الذي يعجبه، ينظم المجتمع الإنتاج العام، وهو ما يعطيني الإمكان لعمل الشيء الفلاني اليوم، وغداً الشيء الآخر، كالقنص صباحاً، وصيد السمك بعد الظهر، وتربية الحيوانات مساءً، والنقد بعد العشاء، بحسب رغبتي، دون أن أصير صياداً أو ناقداً». ولهذا السبب، على سبيل المثال، «لن يكون في المجتمع الشيوعي رسامون، بل على الأكثر أناس يقومون بالرسم من بين أشياء أخرى. (..) فبالثورة الشيوعية (..) وبإلغاء الملكية الخاصة الذي يشكل جزءاً لا يتجزأ منها (..) سيُمكَّن كل فرد من اكتساب القدرة على الانتفاع بإنتاج العالم بأسره في كل الميادين». (نجد هنا من جديد نصيحة من هنريش ماركس لابنه بأن لا يقتصر على تنمية ملكاته الفكرية فقط، بل أيضاً قدراته البدنية والأخلاقية والفنية والسياسية).

أخيراً، لا يمكن للشيوعية إلا أن تكون عالمية: «ليست الشيوعية

قابلة للتحقيق، من الوجهة العملية، إلا عبر العمل الفوري والمتزامن لغالبية الناس، وهو ما يفترض التنمية الشاملة لقوى الإنتاج وللعلاقات الدولية المرتبطة بها (..). ولا يمكن للطبقة الكادحة أن توجد هكذا إلا ضمن التاريخ العالمي؛ وهي كالشيوعية، ليس لنشاطاتها إلا وجود «تاريخي – عالمي»؟»".

والخلاصة هي أن الرأسمالية العالمية، بالنسبة لماركس وإنجلز، شرط ضروري للشيوعية التي لا يمكن لها أن تقوم إلا كنظام كوكبي؛ وستشكل تغييراً مستمراً نحو مزيد من الحرية الفردية، ولا يمكن أن تنتج إلا من تمرد على الإيديولوجية المهيمنة في مرحلة اكتمال الرأسمالية وقد صارت عالمية.

نستشف في كتابة هذا النص، الابتهاج بالاكتشاف. والفرح للعثور على أسلوب لمواجهة العملاق هيجل، والتخلص نهائياً من كل تلاميذه، من فويرباخ إلى ستيرنر.

ومع ذلك، فإن هذا الكتاب الأساس الذي يشكل منعطفاً لا سابق له في تفكير الإنسان حول نفسه، لم ينشر، لعدم وجود ناشر.

والصديقان لا يتأسفان على هذا. إذ سيكتب ماركس بهدوء فيما بعد: «كان المخطوط المؤلف من مجلدين كبيرين من قطع الثُّمن بين يدي الناشر في ويستفاليا منذ وقت طويل، عندما علمنا أن ظروفاً جدت لم تعد تسمح بطبعه. فتخلينا بطيبة خاطر عن المخطوط لنقد الفئران القارض، لا سيما أننا بلغنا غايتنا الرئيسة: وهي أن نرى ما بأنفسنا بوضوح».

فهو رفضٌ للانتزاع مرة أخرى. لكن فريدريك وهو ليس من الصلابة ذاتها، يبدو أكثر شعوراً بالخيبة من كارل لرؤية عملهما المشترك دون منفذ إلى القراء.

ويأتي العمل ليصرفهما عن هذا الإخفاق. فقد حان الوقت كما حلما منذ زيارتهما للندن، للانتقال إلى العمل السياسي، وأخذ مكانهما

في قلب الشبكة الثورية الأوروبية، وحتى - لِمَ لا - السيطرة عليها. إذ لم يعد مجال، بعدما رأياه في لندن، للاكتفاء بالتنظير، ولا حتى بنظرية للعمل. فيجب التحرك، وعدم خشية منافسة الجماعات اللندنية الصغيرة.

في نهاية آذار / مارس 1846، يشهد ماركس مؤتمراً للصحافيين الشيوعيين في بروكسل. ويدافع فيه عن الفكرة القائلة بأنه قبل اندلاع الثورة الشيوعية، ينبغي على المجتمع أن يمر بمرحلة تمسك البورجوازية خلالها بالسلطة. وهو ينوي «تطهير» الشيوعية من «الحرفيين» و«الفلاسفة». ففي رأي ويلهلم ويتلنغ الذي يمثل أحد هذين التيارين، بدا ماركس هائجاً وعنيفاً. وينتهي المؤتمر في فوضى عارمة، بينما يصرخ ماركس وآخرون مشيرين بأيديهم في القاعة.

في بداية ربيع هذه السنة ذاتها، وفي الوقت الذي يضعان اللمسة الأخيرة على مؤلّفهما، يؤسس الصديقان في بروكسل مؤسسة منسوخة عن عصبة المنصفين في لندن، وعصبة المنفيين التي أسسها ويتلنغ وحُلت في باريس، يسميانها «لجنة المراسلات الشيوعية». وإذا ما كان الهدف الرسمي لهذه المجموعة الصغيرة (التي تضم أربعة عشر عضواً!) ليس إلا «الإبقاء على تبادل متواصل بين عصبة المنصفين وكل المنظمات الاشتراكية الأوروبية»، فإن طموحهما في الحقيقة هو أن تحل محل العصبة اللندنية، وتأخذ مكانها في مركز النشاط الثوري الأوروبي. فيقترح كارل وفريدريك عندئذ على اللاجئين البارزين في بروكسل أن يكونوا من الأعضاء المؤسسين لمجموعتهم. إذ إن فيها من كل الأصناف: خياط ألماني هو ويلهلم ويتلنغ؛ وبورجوازي يهودي هو موزس هس؛ وضابط مدفعية بروسي سابق هو هرمان كريج؛ وكاتب روسي هو بافل أنينكوف؛ ونبيل بروسي، شقيق جيني، هو إدغار فون ويستفالن. تلك هي نواة ما سيصبح المنظمة الشيوعية الدولية. يضاف إليها صحافي ألماني مقيم في نيويورك، هو كارل غرون. وبما أنه سرعان ما يكتسب الخبرة

في فن تنظيم أجهزة السلطة، فماركس يضع للجنة المراسلات الشيوعية قواعد تسمح له بطرد كل من يخرج على الخط الذي يكون هو نفسه رسمه، وستتالى إجراءات الطرد في القريب العاجل.

وأول المغادرين ويتلنغ الذي يغيظ ماركس بزهوه. فماركس منذ الاجتماع الأول يطالب أعضاء لجنته بدحض «الاشتراكية الحقيقية»، أي فكرة خير مشترك لجميع بني الإنسان. لكن ويتلنغ وغرون لا يوافقانه الرأي: إذ إنهما يعتقدان، على غرار برودون، بوجود شيء ما كـ«خير للإنسانية»، وبأن انتصار البورجوازية والديمقراطية البرلمانية يشكل في حد ذاته تقدماً هائلاً سينتفع العمال منه. ويضيف ويتلنغ أن على العمال قراءة الكراسة التي نشرها لتوه في سويسرا، ويشبه فيه نفسه بيسوع المسيح! وطبقاً لما يقوله أنينكوف، المكلف بكتابة المحضر المفصل للسهرة، فإن ماركس يهب عندئذ صائحاً: «قل لنا، يا ويتلنغ، أنت الذي أثرت كل هذا الضجيج في ألمانيا بمواعظك الشيوعية، ما هي الأسس النظرية لنشاطاتك الاجتماعية - الثورية؟ وعلى أية نظرية تأمل تأسيسها في المستقبل؟ فدون مذهب واضح، لا يستطيع الشعب فعل شيء إلا الضجيج والتمردات التي تؤول إلى الإخفاق، وتسيء إلى قضيتنا!» وعندما يشرح ويتلنغ أن ما على العمال سوى قراءة كتاباته، ينفجر ماركس، ضارباً على الطاولة بقبضته، وصارخاً: «ما ساعد الجهل شخصاً قط!» فيصفق ويتلنغ عندئذ الباب، يتبعه غرون تضامناً معه.

بعد شهر، يعطي ويتلنغ في رسالة إلى هس الذي حضر الاجتماع روايته الخاصة لقطيعته مع ماركس: «وصلت إلى نتيجة مفادها أن لا مجال في الوقت الحالي لتحقيق الشيوعية في ألمانيا؛ إذ على البورجوازية أولاً أن تستولي على السلطة».

بعد ويتلنغ وغرون، إنه هس الذي يغادر اللجنة، مذعوراً من المجرى الذي اتخذته القضية، ومنجذباً إلى مغامرات أخرى: إذ بعدما أوحى لماركس في نصه الأول حول هيجل بالصيغة المنددة بالدين، على أنه

«أفيون الشعب»، سيصبح قريباً أول أنصار القومية اليهودية والمخترع للصهيونية.

ويسعى ماركس عندئذ إلى إعطاء لجنته بعداً دولياً. فيكتب في 2 أيار / مايو إلى برودون، الذي نشر لتوه (فلسفة البؤس)، مقترحاً عليه أن يكون مراسلاً له في باريس. إذ يكتب برودون في كتابه الجديد أن التاريخ «عملية تسوية» تمر بأربعة عصور: عصر اللغة، والعصر النفسي، والعصر الثوري - «حيث يبحث النوع البشري عن نظرية قوانينه الأخلاقية والاقتصادية، ويبذل جهده لتحقيقها بوساطة السياسة والدين» -، وأخيراً العصر الاجتماعي الذي يعتمد المبدأ الاقتصادي فيه «على المبدأين العظيمين السابقين في الدين والحكم». ويميز بين «الملكية» و«الحيازة» لضمان الحرية الفردية من القسر الاجتماعي: «ألغوا الملكية بالمحافظة على الحيازة، وبهذا التعديل الوحيد في المبدأ ستغيرون كل شيء في القوانين والحكم والاقتصاد والمؤسسات».

ولا يستطيع كارل في رسالته لأكثر الاشتراكيين الفرنسيين شهرة منع نفسه، في هامش الرسالة، من تحذيره من غرون الذي تضامن مع ويتلينغ. والحال أن غرون صديق لبرودون.

المطرود الرابع، في 11 أيار / مايو 1846، هو الضابط كريج الذي يطرده ماركس في الوقت نفسه الذي يقبل استقالة غرون بذريعة خلاف حول تمويل اللجنة.

وقصة هذا الطرد تستحق أن تروى، فبعدما استقر هرمان كريج في نيويورك، وأسس فيها صحيفة (فولك - تريبيون)، عينه ماركس بأبهة «مراسلاً» للعصبة الشيوعية المحتضرة؛ فاقترح كريج فكرة تقسيم الأراضي الأمريكية إلى قطع متساوية، تُملَك لفلاحين. ويا له من انتهاك للحرمات! إذ يستدعي اجتماعاً لسلطة العصبة للتنديد بكريج لأنه ينادي بالملكية الخاصة؛ ويكتب (تعميماً ضد كريج) يقرر فيه الحاضرون طرد الصحافي ويبلغون العالم أجمع بذلك. وفي 17 أيار / مايو يرفض برودون

الانضمام إلى اللجنة - إلا، كما يشرح فيما بعد، إذا وافق ماركس بـ«مساجلة مخلصة ونزيهة، على إعطاء العالم المثل على تسامح علمي وبعيد النظر». مضيفاً: «بعدما حطمنا كل اليقينيات المسبقة، بالله عليكم، لا تفكروا بدوركم أن تلقنوا الشعب العقائد!» وهكذا تبدو مواقف الرجلين غير قابلة للتوفيق بينهما.

وهكذا يعثر كارل على هدف جديد لتهكماته. فبعد (الإيديولوجية الألمانية)، وعوضاً عن مواصلته لكتاب الاقتصاد الذي وعد به ناشره لشهر تموز / يوليو من السنة الفائتة، ينطلق في كتابة رد على (فلسفة البؤس) لبرودون. إذ في نص يعنونه متهكماً بـ(بؤس الفلسفة)، يبدأ بتحليل الديمقراطية المستقبلية دون طبقات: «هل يعني هذا أنه بعد سقوط المجتمع القديم، ستحل هيمنة طبقية جديدة تتلخص بسلطة سياسية جديدة؟ كلا! (..) فستعوِّض الطبقة الكادحة، في خلال تطورها، المجتمع القديم بشراكة ستستبعد الطبقات وصراعاتها، ولن تعود هناك سلطة سياسية بمعنى الكلمة، باعتبار أن السلطة السياسية هي بالذات الخلاصة الرسمية للصراعات في المجتمع المدني (..). لا تقولوا إن الحركة الاجتماعية تستبعد الحركة السياسية. فليس هناك أبداً حركة سياسية إلا وهي اجتماعية في الوقت نفسه. وليس إلا في نظام للأشياء لن يعود فيه طبقات وصراعات للطبقات، ستتوقف التطورات الاجتماعية عن أن تكون ثورات سياسية..» ثم يحطم ماركس ذلك الذي كان يعجب به منذ أيام، مبدياً قسوة شديدة وسوء نية لا حدود لها: «في فرنسا، إن لديه (برودون) الحق بأن يكون اقتصادياً رديئاً، لأنه يعد فيلسوفاً ألمانياً جيداً. وفي ألمانيا، لديه الحق أن يكون فيلسوفاً رديئاً، لأنه يعد من الاقتصاديين الأكثر قوة. ونحن بصفتنا ألمان واقتصاديين، أردنا الاحتجاج على هذا الخطأ المزدوج». وبعد ذلك بقليل، سيصرح ماركس حتى، وبشراسة أشد: «إنه يريد أن يحلق كرجل علم فوق البورجوازيين والكادحين؛ وهو ليس إلا بورجوازي صغير يتقاذفه رأس المال والعمل، والاقتصاد والسياسة والشيوعية».

ولن يتنكر ماركس أبداً لهذا النص، مصرحاً في 1880، بأن «قراءة (بؤس الفلسفة) و(بيان الحزب الشيوعي) يمكن أن تستخدم مقدمة لقراءة (رأس المال). (..) لأن (بؤس الفلسفة) يتضمن بذور النظرية التي طوِّرت بعد عشرين عاماً من العمل في (رأس المال)».

في حزيران / يونيو من العام 1846 ذاته، وفي الوقت الذي كان البرلمان الإنجليزي يلغي (قوانين الحبوب) التي كانت تفرض الرسوم على القمح المستورد من الخارج، مؤذناً هكذا ببدايات التبادل الحر، يجتهد كارل في تعويض المطرودين من اللجنة. فيلتقي ويلهلم وولف، وهو ذو شخصية مؤثرة، سيغدو أكثر المساندين له إخلاصاً. إذ باعتباره ابن عامل سيليزي، نشأ في البؤس والخوف، وهو عرضة لسخرية أبناء أصحاب القصر؛ نجح بمعونة رجل دين في الدخول إلى الثانوية، ثم إلى الجامعة حيث قام بدراسات في فقه اللغة، وصار منشطاً لجمعية الطلبة في بريسلو. وبعد أربعة أعوام من السجن بتهمة الدعاية للشيوعية، استطاع اللجوء إلى بروكسل. «رجل نادر تحت مظهر تافه»، يصفه إنجلز منذ لقائهما الأول. ويدخل وولف، الذي يلقبه كارل بـ«لوبوس» - وهو الترجمة اللاتينية لاسمه بالألمانية - دون تردد إلى لجنة المراسلة الشيوعية في بروكسل. وفيما بعد سيهدي ماركس (رأس المال) إلى هذا الرفيق المخلص.

إن ماركس، وهو في الثامنة والعشرين، يريد نفسه منذئذ رجل عمل مثلما هو كاتب. فيقول عنه أحد الزوار يومذاك، إنه «نموذج الرجل المكوَّن من طاقة ومن عقيدة لا تلين (..). كان يتكلم دائماً بلهجة جازمة ولا يطيق أي مناقضة. ولهجته الجافة، القاطعة، النهائية، كانت تعبر عن تيقن بأن مهمته هي الهيمنة على كل العقول وتزويدها بقوانين. لقد كنت أرى أمامي تجسيداً لـ«ديكتاتور ديمقراطي»».

في تشرين الأول / أكتوبر 1846، يفقد ماركس العضو قبل الأخير من مؤسسي مجموعته، إذ يقرر إدغار، شقيق جيني، الذهاب إلى أمريكا.

فبعدما جمع بعض المال، كان اقترض جزءاً منه من أخيه غير الشقيق فرديناند (الذي نجح أيما نجاح في برلين ضمن الأوساط الرجعية)، وغادر إلى تكساس، تاركاً خطيبته في بروكسل. وبينما تشعر جيني بالحزن لمغادرة أخيها، يقابل كارل بارتياح ذهاب ذلك الذي لم يدعوه منذئذ إلا بـ«هذا الكسول إدغار».

في نهاية تشرين الثاني / نوفمبر، يتمرد عمال من خاركوف على أرباب العمل ويتسببون في اضطرابات تفضي إلى تدخل النمسا التي تضم المدينة إليها، فتثير هياجاً شديداً في أوروبا. إذ يؤلف فريدريك شوبان المريض، في باريس عندئذ أجمل مقطوعاته الموسيقية على شرف مواطنيه. ويكتب ماركس عدة مقالات يساند فيها قضية العمال البولونيين الممزقين بين المحتلين الروس والنمساويين وأرباب العمل البولونيين. ويتعرض عدد من القادة الاشتراكيين عندئذ إلى ضرورة خلق تضامن عمالي دولي حقيقي لمواجهة مثل هذه الأوضاع. فيفكر ماركس بأن على لجنته أكثر من أي وقت مضى القيام بهذا الدور. ومن أجل هذا ينبغي عليه تكوين شبكة دولية، والاستيلاء على السلطة ضمن عصبة لندن.

ويرسل إنجلز نهاية السنة إلى باريس ليشكل من المناضلين الفرنسيين واللاجئين الألمان لجنة باريسية مرتبطة بلجنته. وبحجة تخليصهم من تأثير «الشيوعية الحرفية والفلسفية» لغرون وبرودون، يشكل إنجلز في باريس مجموعة صغيرة، يعين نفسه رئيساً لها، ويعود إلى بروكسل.

في كانون الثاني / يناير 1847، تبدأ السلطة المركزية لعصبة المنصفين في لندن الاهتمام بلجنة بروكسل الجد نشيطة؛ وترسل أحد أعضائها إلى بلجيكا ليقترح على اللجنة الارتباط بها. فيقبل ماركس وإنجلز وهما على قناعة بأنهما سيتمكنان من الاستيلاء على السلطة في العصبة ما إن يتم قبولهما فيها. وفي آذار / مارس تنضم لجنة بروكسل إذاً رسمياً إلى السلطة المركزية لعصبة المنصفين، وتغير اسمها إلى

«رابطة بروكسل». وفي الوقت ذاته، يشرع كارل في الكتابة لصحيفة ألمانية تنشر في بروكسل هي (دوتش - بروسيلر زيتونغ). وإذا بالسلطات الشرطية تبدأ بمراقبته، هو الذي التزم، للإقامة في بلجيكا، بالامتناع عن الاشتغال بالسياسة.

وفي تلك السنة يتردى الوضع الاقتصادي. ذلك أن انخفاض المحصول الناتج جزئياً من مرض أصاب البطاطا، ومن الأحوال الجوية السيئة، يفضي إلى ارتفاع أسعار المنتجات الزراعية؛ وتتسبب المجاعات في أوروبا بما يزيد عن نصف مليون من الوفيات. ولا تشابه هذه الأزمة الجديدة تماماً أزمات الماضي الزراعية، إذ يضاف إليها فائض في المنتجات الصناعية، وإفلاسات للمعامل، وتفاقم للبطالة العمالية. ففي إنجلترا تعاني صناعة القطن وشركات السكك الحديدية من الأزمة. وتندلع اضطرابات ذات طابع اجتماعي في كل مكان بالقارة: هجومات ضد ناقلي الحبوب في فرنسا، اضطرابات الجوع في وورتمبيرغ، تمردات الخبز في جنوا، نهب المخابز في فيينا..

أما في فرنسا، ففي الوقت الذي يحقق أبل نييبس دو سانت - فيكتور، ابن أخ نيسيفور، أول صورة فوتوغرافية على صفيحة زجاجية، يتظاهر اليساريون، وينشر ماركس في الـ(فور فارتس)، التي سمح لها بالصدور ثانية، مقالاً بمناسبة الذكرى الثالثة لتمرد النساجين السيليزيين، بجوار قصيدة لهاينه حول الموضوع ذاته:

في عيونهم الداكنة، ما من دمعة

جالسين أمام النول، يصرون بأسنانهم.

ألمانيا، نحن ننسج كفنك.

نمزج اللُحمة باللعنة المثلثة

نحن ننسج، نحن ننسج

في 1 حزيران / يونيو 1847، يصادق مؤتمر عصبة المنصفين في لندن على انضمام اللجنة البلجيكية، ويضم جمعية الديمقراطيين

الأخويين. ويشارك إنجلز في هذا المؤتمر بصفته مندوباً عن الفرع الباريسي لرابطة بروكسل؛ ويمثل وولف فيه هذه الأخيرة. بينما بقي ماركس في بلجيكا لنقص في المال، لكن تأثيره أصبح كبيراً، لأن رجاله في مركز قوة ضمن العصبة، وقد ساعد جوزيف مول على التحضير للاجتماع. فالمقصود هو «استبدال الخليط من الشيوعية الفرنسية - الإنجليزية والفلسفة الألمانية الذي كان يشكل العقيدة السرية للعصبة» برؤية علمية يمكن أن تخدم معركة الطليعة العمالية. وينبغي على عصبة المنصفين التخلي عن شكلها كجمعية سرية من المتآمرين. إذ تغير اسمها بمبادرة من ماركس، لتصبح (عصبة الشيوعيين) وتتميز عن الاشتراكيين «الحقيقيين» أو «الزائفين». كما تغير شعارها: فعوضاً عن «كل بني الإنسان أخوة» للشاعر روبرت بورنز، سيكون منذئذ: «يا عمال العالم، اتحدوا!»، وهو الشعار الذي انبثق من الانتفاضات العمالية الباريسية. ويكلف إنجلز بكتابة بيان بعقيدة المنظمة الجديدة.

وللتدليل على نفوذ ماركس، يخبر أحد معاونيه اللاحقين، ولم يكن يعرفه بعد، بما سمع من رفاقه القدماء: «كان أعضاء عصبة الشيوعيين يدعونه «الأب ماركس»، مع أنه لما يبلغ الثلاثين (..). وقد كان ماركس قوي البنية بالفعل: طول فوق المتوسط، كتفان عريضان، صدر بارز، وجسم متناسق مع أن الجذع أطول قليلاً من اللازم بالنسبة للساقين، وهو ما كان مألوفاً لدى اليهود. ولو كان مارس الرياضة في شبابه لأضحى شديد القوة. والتمرين البدني الوحيد الذي كان يمارسه بانتظام هو المشي؛ إذ كان يستطيع المشي أو صعود التلال لساعات، وهو يتحدث أو يدخن، دون أن يشعر بأي تعب (..). ويمكن التأكيد بأنه في حجرته، كان يعمل ماشياً، لا يجلس إلا للحظات قصيرة كي يكتب ما فكر فيه دماغه بينما كان يذهب ويجيء في الغرفة. وحتى وهو يتحدث، كان يحب المشي، متوقفاً من وقت لآخر عندما تحتدم المناقشة، أو تكتسي المحادثة أهمية».

ولتضخيم صفوف أنصاره واكتساب موقع قوة داخل عصبة

الشيوعيين الجديدة، يؤسس ماركس في بروكسل، بشهر آب / أغسطس 1847، جمعية للعمال الألمان على نمط الجمعية التي رآها تعمل في لندن، والتي كان يفكر فيها منذ عامين. وهي منظمة جماهيرية تقدم للعمال الألمان غير المسيسين المقيمين في بلجيكا مناشط من التربية العامة والمدنية حتى الألعاب والغناء وأشكال من التعريف بالفنون المسرحية. يرأسها موزس هس الذي لا يزال يحتفظ بهذه الصلة مع ماركس، ويقوم ويلهلم وولف بأمانة الصندوق، بينما تنظم الأربعاء من كل أسبوع مناقشة حول المسائل العمالية، وكل أحد مناقشة سياسية (تستطيع النساء حضورها). وتقيم جمعية العمال الألمان علاقات مع جمعيات عمالية فلامانيه ووالونية، وتنتدب أعضاءها الأكثر نشاطاً والأكثر حماساً من الناحية السياسية إلى رابطة بروكسل التابعة للعصبة.

في بداية أيلول / سبتمبر 1847، عندما يُنشر في بروكسل (بؤس الفلسفة)، كتاب ماركس ضد برودون الذي كُتب مباشرة بالفرنسية، تكرست قطيعته النهائية مع آباء الاشتراكية الفرنسيين. وقد لفت المؤلَّف الانتباه، لكنه لم يُدرِ شيئاً على مؤلفه. فيقترض كارل عندئذ من هنا وهناك، ليقيم أوده، ويكتب - شاكياً من وضعه لبافل أنينكوف، الذي يقوم له عندئذ بدور السكرتير - «إن دخل زوجتي لا يكفي»، وهو ما يعني أنها لا تزال تتلقى معونات من تريفز.

في باريس، يبدو أن التطلعات الجمهورية تستعيد بعض قواها بعد سبعة عشر عاماً من النوم. إذ تجمع «حملة الموائد» في 9 تموز / يوليو 1847، بباريس، كل المعارضة الجمهورية في فرنسا، حول مطلب وحيد: هو الإصلاح الانتخابي. والمائدة هي وسيلة للتحايل على حظر الشرطة القيام بالدعاية.

في أيلول / سبتمبر 1847، في اللحظة نفسها التي تصدر العصبة في لندن العدد الأول من مجلتها، بشعار «يا عمال العالم، اتحدوا!» يشارك كارل في مأدبة احتفالاً بالتآخي العالمي للعمال، مع مائة وعشرين

مدعواً: من البلجيكيين والألمان والسويسريين والفرنسيين والبولونيين، وإيطالي واحد، وروسي واحد. وتقرر بهذه المناسبة إنشاء جمعية ديمقراطية من أجل اتحاد كل البلدان. من بين الألمان: كارل ماركس، موزس هس، جورغ ويرث، وولف، ستيفان بورن، بورنستادت. وأول تظاهرة هامة لهذه الجمعية هي الاحتفال بذكرى الانتفاضة البولونية في 29 تشرين الثاني / نوفمبر. ويضم ماركس الجمعية كبنية بلجيكية إلى العصبة، وينتوي أن يصنع منها حزباً سياسياً بلجيكياً يتجمع فيه «الثوريون الكادحون».

فيبلغه عندئذ أجمل خبر كان يرجوه: إذ يولد له ابن، تقرر جيني تسميته إدغار، تكريماً لأخيها الذي غادر إلى أمريكا، فقد كان كارل يأمل منذ زمن بعيد في ابن يقيم معه العلاقات ذاتها التي كانت له مع أبيه.

في تشرين الأول / أكتوبر، يعرض ماركس في مقال جد هام، نشرته الصحيفة الألمانية في بروكسل (دوتش - بروسيلر زيتونغ) تحت عنوان «النقد الواعظ»، فكرة كان طورها دون أن ينشرها أيضاً، فحواها: أن الثورة الاشتراكية لن تقع إلا بعد الثورة البورجوازية بكثير. فلو «قلبت الطبقة الكادحة الهيمنة السياسية للبورجوازية، سيشكل انتصارها مرحلة فقط في مسار الثورة البورجوازية نفسها، وسيخدم قضية هذه البورجوازية». ولن تستطيع الطبقة الكادحة الحصول على نصر حقيقي على البورجوازية إلا عندما «تكون مسيرة التاريخ قد هيأت العوامل المادية التي ستخلق الضرورة لوضع حد للطرق البورجوازية في الإنتاج، وبالتالي، للهيمنة السياسية للبورجوازية». وباتخاذه موقفاً ضد (الرعب)[*]، يكتب ماركس بعظمة: «إن حكم (الرعب) في فرنسا، أفاد فقط بمحوه كل أطلال الإقطاعية من فرنسا، كأنما بمعجزة، تحت

(*) أعطي اسم (الرعب) لفترتين من الثورة الفرنسية (10 آب - 20 أيلول 1792) و(5 أيلول 1783 - 28 تموز 1794) تميزتا بالاعتقالات والمحاكمات الثورية والإعدامات بالمقصلة، وعرف ذروته مع روبسبيير. (المترجم).

ضربات مطرقته المخيفة. والبورجوازية مع حذرها الوَجِل، ما كان لها أن تنهي هذا العمل في عدة عقود. وبالتالي، استُخدمت أعمال الشعب الدامية فقط لتمهيد الطريق أمام البرجوازية». وفي إطار الديمقراطية البرلمانية سيولَد النقاش السياسي الضروري لانبثاق وعي الطبقة الكادحة السياسي: «ومثلما يشكل العمال في إنجلترا حزباً سياسياً باسم (الميثاقيين)، فهم يشكلون في أمريكا الشمالية حزباً سياسياً باسم (الإصلاحيين الوطنيين)؛ وشعار نضالهم ليس «ملكية أو جمهورية»، إنما «هيمنة الطبقة العمالية أو هيمنة الطبقة البورجوازية». إذ في المجتمع البورجوازي الحديث بالذات، مع أشكاله السياسية المتناسبة - دولة تمثيلية، دستورية أو جمهورية - أضحت «مسألة الملكية» «المسألة الاجتماعية» الأكثر أهمية.

فكم نحن بعيدون في هذا النص عن الأسلوب الذي سيستخدم فيه فكره: إذ إن ماركس ضد (الرعب) الذي لم يخدم سوى البورجوازية؛ وهو مناوئ لكل ثورة في البلدان التي لم تزل الرأسمالية والديمقراطية فيها غير متطورتين بصفة كافية؛ ويعتقد أنه فقط ضمن الإطار الديمقراطي البرلماني يمكن أن يولد الوعي الثوري لدى الطبقة العاملة. فبقراءة هذا النص نفهم لماذا لم يعتقد قط بنجاح ثورة شيوعية في روسيا وحدها.

في أكتوبر 1847، يفاوض كارل، بواسطة صهره شمالهاوزن من ماستريشت، أمه على استرداد نصيبه من تركة أبيه. دون جدوى.

في 15 تشرين الثاني / نوفمبر، يقبل تعيينه نائباً لرئيس الجمعية الديمقراطية التي كان رئيسها البلجيكي لوسيان جوتران، وأصبح هدفها المعلن منذئذ، هو «خلق حزب ديمقراطي قوي ومنظم، تدريجاً، في بلجيكا». فماركس عندئذ في حالة عدم التزام كامل، مع ما تعهد به لدى وصوله إلى بروكسل من عدم التدخل في السياسة - والسلطات البلجيكية لا تأخذ عليه ذلك بعد، لكن المراقبة عليه تضيق.

في 29 تشرين الثاني / نوفمبر بباريس، وأثناء مأدبة تذكارية

للاحتفال بالذكرى الأولى لسحق تمرد خاركوف، وبذكرى ثورة بولونيا في 1830، يحث باكونين الذي لا يزال في العاصمة الفرنسية البولونيين والروس على «التوحد ضد نير الأجنبي». فيطرد من فرنسا، بطلب من السفير الروسي كيسليف، ويلجأ إلى سويسرا.

وفي اليوم ذاته يُفتتح في لندن المؤتمر الثاني لعصبة الشيوعيين. وينظم تجمع للاحتفال بذكرى الثورة البولونية في 1830. وماركس وإنجلز حاضران فيه كلاهما، هذا باسم رابطة باريس، وذلك باسم الجمعية الديمقراطية ببروكسل (ولكن ليس باسم رابطة بروكسل)، حيث يصرح كارل: «إن إنجلترا بالمقارنة مع بلدان أخرى، هي البلد الذي بلغ فيه الصراع أعلى مستويات التطور. ولهذا فإن لانتصار الكادحين الإنجليز على البورجوازية الإنجليزية أهمية حاسمة من أجل انتصار كل المضطهدين على كل المضطهِدين. ولهذا يجب تحرير بولونيا في إنجلترا وليس في بولونيا!» ونتيجة لنقاش طويل، تقرر باقتراح من إنجلز استبدال «بيان العقيدة» الذي قُرر في المؤتمر السابق بـ«بيان شيوعي» كُلِّف كارل بكتابته على أساس مسودة بيان العقيدة التي خطها إنجلز الذي لم يكن توصل إلى أبعد من قائمة باثنتي عشرة نقطة.

في كانون الأول / ديسمبر، لا يزال إنجلز موجوداً في لندن، حيث يحضر اجتماع اللجنة المركزية للعصبة الذي يُنص فيه على أن هدف المنظمة هو «قلب البورجوازية، وإقامة هيمنة الطبقة الكادحة، وإزالة المجتمع البورجوازي القديم القائم على صراع الطبقات، وإقامة مجتمع جديد، دون طبقات ودون ملِكية خاصة».

ويأتي إنجلز إلى باريس في كانون الثاني / يناير 1848، ولا يتبين لدى الرفاق في العصبة إلا تثبيطاً في الهمة ومزاحمات داخلية وتفاهات. كما تحقق من استمرار نفوذ برودون وويتلنغ على الأوساط العمالية الفرنسية. فيعود إلى بروكسل في 31 كانون الثاني / يناير، خائر العزيمة.

في هذه الأثناء، لم يشرع ماركس بعدما عاد إلى بروكسل في كتابة

البيان الذي تطالبه به العصبة بنفاذ صبر. وذلك لأنه مشغول بتهيئة خطابين هامين سيلقيهما بداية كانون الثاني / يناير 1848، وسيشكلان كلاهما منعطفاً في تفكيره.

يتطرق أولهما للتبادل الحر، ففي الوقت الذي لا يزال النقاش مستمراً حول إلغاء (قوانين الحبوب) التي تحمي الزراعة الإنجليزية، يرمي كارل أن يشرح للعمال السبب الذي يجعل التبادل الحر وعولمة الأسواق أمرين مستحبين: إذ إن العولمة بتسريعها لنمو الرأسمالية ستفتح الطريق للاشتراكية. وفي 9 كانون الثاني / يناير 1848، ببروكسل، يلقي أمام الجمعية الديمقراطية هذا الخطاب الهام حول التبادل الحر، البعيد جداً، مرة أخرى، عما يُقوِّله البعض، حتى في هذه الأيام: «إن الوضع الأكثر ملاءمة للعامل هو وضع تنامي رأس المال، وينبغي الإقرار بهذا (..) فنظام الحماية بصفة عامة محافظ، بينما التبادل الحر مدمر. إذ إن التبادل الحر، بكلمة مختصرة، يُسرِّع الثورة، وأنا في اتجاه ثوري، أيها السادة، أختار التبادل الحر» وهكذا يرى فكر العالم في الاشتراكية نتيجة لعولمة السوق.

أما الخطاب الثاني فموضوعه الاستغلال: في هذا النص الذي ألقي في الفترة ذاتها، ببروكسل هذه المرة، ولكن أمام جمعية العمال الألمان، وسيعرف فيما بعد تحت عنوان (العمل المأجور ورأس المال)، يرسم كارل للمرة الأولى الخطوط الكبرى لنظريته في فضل القيمة. إذ نجد في هذا الدرس الافتتاحي في الاقتصاد الذي يعطى لعمال، الخطوط الأولى لأفكاره حول الطريقة التي يستحوذ بها الرأسماليون على القيمة التي يخلقها العمال، بعدم إعطائهم إلا ما يتكلفون لإعادة الإنتاج، وليس لما ينتجونه: «فليست الأجرة إذاً نصيب العامل من السلعة التي ينتجها. بل الأجرة هي الجزء الموجود قبلاً من السلعة والذي يشتري به الرأسمالي كمية معينة من قوة العمل المنتجة. ذلك أن قوة العمل هي سلعة يبيعها مالكها الأجير لرأس المال. ولِمَ يبيعها؟ يبيعها لكي يعيش».

في هذه الأثناء، تبدأ الحكومات الاستبدادية، في كل مكان بأوروبا تقريباً، في التصدع. إذ تجبر اضطرابات باليرمو ونابولي، في 12 كانون الثاني / يناير 1848، فيرديناند الثاني على الموافقة على دستور. ويشكل الحدث بداية لثورات 1848.

في 26 كانون الثاني / يناير، تبدي اللجنة المركزية لعصبة الشيوعيين انزعاجها: إذ تُبلغ لجنة بروكسل الإقليمية بقرار 24 كانون الثاني / يناير، الذي يلزم ماركس بتسليم مخطوط (البيان) للطبع قبل 1 شباط / فبراير، أو إعادة الوثائق التي وضعت بتصرفه لكتابته، فيعزم كارل، ويكتب في أسبوع، هو الأخير من شهر كانون الثاني / يناير 1848، (بيان الحزب الشيوعي).

إن الأمر بالنسبة إليه يتعلق بنص مناسبة، وليس بعمل شخصي، ولهذا يكتب دون توقف، حتى دون إعادة قراءة ما كتب، ويتركه بسهولة، خلافاً لما كان فعله مع أي نص ممضي باسمه.

خارق للعادة شهر كانون الثاني / يناير 1848 هذا، حيث أنتج هكذا ثلاثة من نصوصه الأهم! ثلاثة نصوص يقبل الإفصاح عنها، الأولان لأنهما خطابان، والأخير لأنه لا يمضيه.

فيستعيد ماركس إذاً الاثنتي عشرة نقطة التي عددها إنجلز السنة الماضية، ويركزها في عشر، ويكتب أول عرض كامل للمادية التاريخية، وأول نص أيضاً تظهر فيه الطبقة الكادحة كطبقة محكوم عليها بـ«الافتقار»، «طبقة مجردة جذرياً من الأوهام»: إنه (بيان الحزب الشيوعي). هذا النص الصادر من فيلسوف ألماني شاب مجهول، لم يبلغ الثلاثين من عمره، لاجئ في بروكسل، سيصبح النص غير الديني الأكثر انتشاراً حتى أيامنا هذه.

يشكل (البيان) بالنسبة للعديد من كتاب سيرة ماركس قطيعة مع كتاباته السابقة، من حيث إنه يتخلى فيه عن فردانية (كتابات 1844) و(الإيديولوجية الألمانية). حتى إن بعضهم يتكلمون بشأنه عن نزعة

«مضادة للإنسانية نظرية». ولا شيء من هذا: ففي استمرارية للنصوص السابقة، يتقدم (البيان) نحو تصور أكثر كمالاً للمادية، يكون فيه صراع الطبقات المحرك الرئيس للتاريخ، وتكون الطبقة العاملة القوة الخلاقة الزاحفة لمجتمع جديد. إنها بداية الاشتراكية العلمية، وهو الانتقال إلى حيز العمل السياسي، للاستيلاء على السلطة.

يُستهل (البيان) بنداء، مئات الملايين من الناس عبر العالم وطوال قرن، قرأوه وحتى بالنسبة للكثيرين منهم، حفظوه عن ظهر قلب:

«إن شبحاً يرين على أوروبا: هو شبح الشيوعية. وكل القوى في أوروبا القديمة اتحدت في تحالف مقدس لمطاردة هذا الشبح: البابا والقيصر الروسي، مترنيخ وغيزو، الراديكاليون في فرنسا وشرطة ألمانيا. فما هي المعارضة التي لم تُتهم بالشيوعية من قبل خصومها في السلطة؟ وما هي المعارضة التي لم تُعِد بدورها إلى خصومها من اليمين واليسار النعت بالشيوعية المشين؟ وفي هذا دلالة على أمرين. أولهما إن الشيوعية معترف بها كقوة من قبل كل القوى الأوروبية. وقد حان الوقت لكي يعرض الشيوعيون، في مواجهة العالم بأسره، تصوراتهم وغاياتهم واتجاهاتهم؛ ويتصدوا لحكاية الشبح الشيوعي ببيان الحزب نفسه. ولهذه الغاية اجتمع شيوعيون من شتى الجنسيات في لندن، وكتبوا البيان التالي، الذي سينشر بالإنجليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية والفلامانيه والدانمركية».

ويواصل على هذا النحو:

«إن تاريخ كل مجتمع، حتى أيامنا هذه، لم يكن سوى تاريخ صراع الطبقات. فالحر والعبد، النبلاء والعوام، الإقطاعيون والأقنان، معلمو الحرف وأجراؤهم، باختصار مضطهِد ومضطهَد، في تعارض دائم، خاضوا حرباً مستمرة، صريحة أحياناً وخفية أحياناً أخرى، حرباً كانت تنتهي دائماً إما بتحول ثوري للمجتمع بأسره، وإما بتحطيم الطبقتين المتصارعتين (..). ولم يلغ المجتمع البورجوازي الحديث، الذي نشأ على

أنقاض المجتمع الإقطاعي صراع الطبقات. ولم يفعل سوى استبدال طبقات جديدة، وظروف اضطهاد جديدة وأشكال صراع جديدة، بتلك القديمة. إلا أن الطابع المميز لعصرنا، عصر البورجوازية، هو تبسيطه لصراع الطبقات. إذ ينقسم المجتمع أكثر فأكثر إلى معسكرين عدوين كبيرين، إلى طبقتين كبيرتين متضادتين تماماً: البورجوازية والطبقة الكادحة».

صراع بين مهيمنين ومهيمن عليهم، مستغِلين ومستغَلين. فقد كان المجتمع البدائي، كما يقول ماركس، يسمح لكل فرد بأن يظل حراً بتنفيذ العمل الضروري للمحافظة على بقائه. لكن تقسيم العمل أفضى إلى إثراء البشرية وظهور الطبقات الاجتماعية. وتبسط الرأسمالية اليوم الصراع بين هذه الطبقات: إذ عوضاً عن شرائح متعددة من الطوائف والطبقات التي ميزت المجتمعات السابقة، تتميز الرأسمالية بوضع ليس ثمة أبسط منه: «طبقتان عدوتان، البورجوازية والطبقة الكادحة». ويفسر كل شيء، بما فيه طبيعة الدولة، منذئذ بمفهوم صراع الطبقات: «إن السلطة السياسية بمعنى الكلمة هي السلطة المنظمة لطبقة من أجل اضطهاد طبقة أخرى».

وضمن الرأسمالية، تقوم البورجوازية نفسها بدور ثوري بقلبها القدرة الإنتاجية للبشرية، وبفكها للإنعزال الوطني، وبخلقها للحواضر الكبرى ومحوها للإقطاعية، وهذا دور إيجابي بنظر ماركس. إذ يكتب هكذا أجمل ما نشر قاطبة من صفحات في تمجيد البورجوازية، من المناسب اليوم قراءتها وإعادة القراءة:

«لا يمكن للبورجوازية أن توجد دون تثوير أدوات الإنتاج باستمرار؛ وهو ما يعني أيضاً ظروف الإنتاج، أي كل العلاقات الاجتماعية (..). وتميز هذه الزعزعة الدائمة لكل النظام الاجتماعي، وهذا الاهتزاز، وانعدام الشعور بالأمن المستمر، الحقبة البورجوازية عن كل الحقب السابقة. وكل العلاقات الاجتماعية، التقليدية الجامدة، مع ما يواكبها من

تصورات قديمة ومبجلة، تنحل؛ وتلك التي تحل محلها تهرم قبل أن تتصلب. وكل ما كان راسخاً ودائماً يذهب هباء (..). وتحطم المنافسة الحرة كل الحدود. فرخص أسعار منتجاتها هي المدفعية الثقيلة التي تفتت كل أسوار الصين، وتهزم كل البرابرة الأكثر عداء للأجانب (..). وستفضي إلى الهجرة الريفية نحو المدن، وهو ما يشكل تقدماً هائلاً، لأنها بذلك حمت قسماً كبيراً من السكان من غباوة حياة الحقول..».

ويواصل ماركس بأجمل مديح تنبؤي للعولمة القادمة:

«إن البورجوازية باستغلالها للسوق العالمية، أسبغت طابعاً دولياً على الإنتاج والاستهلاك في جميع البلدان. ففي مكان الحاجات القديمة التي تُسد بالمنتجات الوطنية، تتولد حاجات جديدة تتطلب لسدها منتجات البلدان والمناخات النائية. وما يصدق على المنتجات المادية، يصدق على المنتجات الفكرية (..). فلم تفض أفكار حرية المعتقد، والحرية الدينية إلا إلى المناداة بحرية التنافس في ميدان المعرفة (..). والبورجوازية من خلال سرعة عمل أدوات الإنتاج، وتحسين وسائل المواصلات دون حدود، تجتذب إلى تيار الحضارة حتى الأمم الأكثر همجية».

وما من عودة ممكنة إلى الوراء، لأنه «من غير الممكن عكس دوران عجلة التاريخ!»

ولكن (البيان) في الوقت ذاته، يشكل فضحاً شرساً لاستغلال الطبقة العاملة:

«إن العامل لا يعيش إلا من أجل زيادة رأس المال، ولا يعيش إلا بقدر ما تتطلبه مصلحة الطبقة المهيمنة (..). ولأن الصناعة الحديثة حولت المشغل الصغير للحرفي الأبوي إلى مصنع كبير للرأسمالي الصناعي؛ تتكدس جماهير العمال في المصانع التي ينظمون فيها كالجنود، ويوضعون تحت مراقبة تراتبية كاملة من صف الضباط والضباط. وهم ليسوا عبيداً للطبقة البورجوازية والدولة البورجوازية فقط؛ فيوماً بعد يوم، وساعة

فساعة، يعانون من نير الآلة، ورئيس العمال، وقبل كل شيء من أصحاب المصانع البورجوازيين أنفسهم. وهو استبداد يزيد من خسته وبشاعته وإزعاجه أن هدفه المعلن على رؤوس الأشهاد، هو الربح.. «من كل الطبقات التي تتصدى، في هذه الآونة، للبورجوازية، إن الطبقة الكادحة هي الطبقة الوحيدة الثورية حقاً. فالطبقات الأخرى تتضاءل قيمتها وتتلاشى مع الصناعة الكبرى؛ أما الكادحون فهم على العكس نتاجها الأكثر أصالة. إذ إن الطبقات الوسطى، من صناع صغار، وباعة بالمفرق وحرفيين وفلاحين، يحاربون البورجوازية جميعاً، لأنها خطر على وجودهم كطبقات وسطى. فهم ليسوا ثوريين إذاً، بل محافظون، لا بل رجعيون: لأنهم يسعون إلى عكس دوران عجلة التاريخ. وإذا ما كانوا ثوريين، فاعتباراً لانتقالهم الوشيك إلى الطبقة الكادحة: إذ يدافعون عندئذ عن مصالحهم المستقبلية، وليس عن مصالحهم الحالية؛ ويتخلون عن وجهة نظرهم الخاصة ليتخذوا وجهة نظر الطبقة الكادحة».

ولا يكمن الرد على الاستغلال في «الاشتراكية الحقيقية» لبرودون، التي ليست إلا «تأملاً لا جدوى منه حول تحقيق الطبيعة البشرية»، والتي بكلامها عن «اغتراب الطبيعة البشرية» لانتقاد النظام الرأسمالي تتلفظ بـ«حماقة فلسفية». كلا، بل من اللائق دعوة الطبقة الكادحة الدولية إلى عدم النظر إلا إلى مصالحها الخاصة، وإلى قلب النظم التسلطية كالنظم «البورجوازية» أي البرلمانية. ولكن ليس «لأخذ» السلطة: إذ بينما كل طبقة مضطهَدة استولت على السلطة، حتى ذلك الوقت، فرضت أشكالها الخاصة في الملكية والاستغلال على المجتمع كله. فليس للطبقة العاملة من جهتها ملكية: لأن مهمتها التاريخية إذاً هي إلغاء الطبقات والملكية الفردية والاستغلال دفعة واحدة. «على الطبقة الكادحة بدايةً أن تستولي على السلطة السياسية، وتنصب نفسها طبقة وطنية، وأن تتشكل هي نفسها باعتبارها أمة. وهي بهذا العمل لا تزال ولا شك وطنية، ولكن ليس بمعنى البورجوازية مطلقاً».

في الشيوعية، ستنتج السلع الضرورية لسد الحاجات الأساسية، وستوزع مجاناً. ويتحول رأس المال إلى ملكية جماعية، فإنه لن يخلق بعد ذلك صراعاً جديداً للطبقات، بل مجتمعاً دون طبقات يكون بنو الإنسان فيه متساوين حقاً.

ويجلو ماركس عندئذ مسألة ممارسة السلطة في المجتمع الشيوعي، ومسألة دور الدولة في فترة الانتقال من الرأسمالية والشيوعية:

«حينما تكون الصراعات الطبقية اختفت، من خلال التطور، ويصير كل الإنتاج مركزاً بين أيدي أفراد متشاركين، ستفقد السلطة العامة طابعها السياسي. لأن السلطة السياسية بمعنى الكلمة هي السلطة المنظمة لطبقة من أجل اضطهاد أخرى. وإذا ما أُجبرت الطبقة الكادحة، في صراعها ضد البورجوازية، على التوحد في طبقة؛ وإذا ما تشكلت، بثورة، كطبقة مهيمنة، ومن حيث هي كذلك، تلغي بعنف علاقات الإنتاج السابقة - فإنها عندئذ تلغي الطبقات بصفة عامة، وبالتالي، تلغي هيمنتها الخاصة باعتبارها طبقة».

في اللحظة نفسها، بباريس، في 28 كانون الثاني / يناير 1848، ومن على منبر قصر البوربون، يعلن نائب ليبرالي هو ألكسيس دو توكفيل، خشيته من ثورة وشيكة الوقوع. ستنجم في رأيه عن وهن النظام، وعن محافظة المسكين بالأمن، وعن غضب أنصار الاقتراع الشامل، وعن البؤس الشعبي، وعن عودة فكرة الثورة إلى المجتمعات العمالية.

وبعد عدة أيام تندلع بالفعل هذه الثورة، في الوقت الذي كان (البيان) قيد التجليد في لندن، وجاهزاً للنشر بالألمانية في مطبعة بورغارد، بوساطة أحرف قوطية ابتيعت من ما وراء الراين. وتُنشر الكراسة دون ذكر للمؤلف؛ وقد نُسبت إلى عصبة الشيوعيين.

وفي الوقت نفسه، توقع في أمريكا معاهدة غوادالوب هيدالغو، في 2 شباط / فبراير، التي تتخلى المكسيك طبقاً لها للولايات المتحدة عن تكساس - حيث يوجد إدغار، شقيق جيني -، وكاليفورنيا وأراضٍ أخرى.

في 10 شباط / فبراير 1848، يتلقى ماركس في بروكسل من أمه أخيراً جزءاً من تركة أبيه، أي مبلغ 6000 فرنك ذهبي (1700 تالر). وهو مبلغ كبير إلى الحد الذي يثير ريبة الشرطة البلجيكية التي تطلب من السلطات في تريفز استجواب السيدة العجوز؛ فتؤكد هذه أن الأمر يتصل بدفعة كان ابنها طالب بها منذ زمن بعيد ليعيل أسرته.

وفي 12 شباط، بباريس، يرفض غيزو وغالبية النواب تعديلاً برلمانياً متواضعاً، يدعو الحكومة إلى المبادرة بإصلاحات «حكيمة ومعتدلة». ويحظر غيزو في اليوم الرابع عشر إقامة الموائد الجمهورية، ثم يستنفر الجيش، ويأمر الحرس الوطني الباريسي بقمع الاضطرابات، لكن هذا الأخير يرفض الاستجابة: ويداً واحدة، طلاب وعمال - «الأشد انخفاضاً» الذي يتحدث عنه هوغو: «والدهماء السفلة» الذين يتكلم عنهم تيير - يتمردون. وفي مساء 23 شباط / فبراير ينحاز الحرس الوطني إلى معسكر المتمردين الذين يستولون على دار البلدية وعلى قصر التويلري. ويسقط ستة عشر منهم برصاص الجيش. إذ يجب على لويس - فيليب ألا يتنازل عن العرش. وقد ألفت حكومة جمهورية مؤقتة؛ من أعضائها فرديناند فلوكون، رئيس تحرير صحيفة (لاريفورم) [الإصلاح] الليبرالية، واثنين من الديمقراطيين الاشتراكيين، هما لويس بلان و«العامل» ألبير الذي تقدمه الشائعات على أنه رئيس لجمعية سرية. وتعلن هذه الحكومة الجمهورية الثانية، والحق بالعمل، وتلغي عقوبة الإعدام في الشأن السياسي.

في 26 شباط / فبراير، يجري الحدث الذي ينتظره ماركس منذ عامين: إذ إن قادة عصبة الشيوعيين في لندن، باقتراح من إنجلز، ومراهنين على امتداد الانتفاضة إلى بلجيكا، يقررون تحويل السلطة المركزية من لندن إلى بروكسل، وهو ما يعني تسليم مفاتيح المنظمة لماركس. فيتم انتخابه على الفور رئيساً للجنة مديرة جديدة، مؤلفة بصفة رئيسة من أصدقائه: فريدريك إنجلز، ويلهلم وولف، هنريش بوير، جوزف

مول وكارل والو؛ وسكرتيرها كارل شابير. وإذا بحكومة برلين القلقة لرؤية هذه الحركة البروسية بامتياز، تقرب مقرها من حدودها، تضغط على السلطات البلجيكية لتطرد هؤلاء الهائجين.

وفي 2 آذار / مارس، بباريس، تحدد الحكومة يوم العمل بعشر ساعات؛ وتؤكد مبدأ الاقتراع الشامل، ومطلق الحرية للصحافة، وحق التجمع. ولتجسيد الحق في العمل الذي أعلن لتوه، أنشئت مشاغل وطنية مفروض فيها تشغيل كل الذين يتطلعون إلى العمل.

في 3 آذار / مارس، يقرر ملك البلجيكيين القلِق إزاء اضطرابات كهذه، والمذعن للضغوط البروسية، طرد كل اللاجئين الألمان الذين أخلوا بالتزامهم الحياد من مملكته. وطرد ماركس بصفة خاصة من بلجيكا، وكذلك إنجلز الذي يروي الحادثة بأسلوبه المعتاد: «أنحت السلطات البلجيكية باللائمة على العناصر الأكثر ثورية في الجمعية، كما كان منتظراً، إذ إن الديمقراطيين من البورجوازيين البلجيكيين الصغار لم يعرفوا كيف يقودون الجماهير البلجيكية. وانطفأ في هذه الظروف نشاط الجمعية الديمقراطية تماماً منذ 1849».

وفي اليوم ذاته، يرد الصحافي فرديناند فلوكون، عضو الحكومة المؤقتة للجمهورية الثانية، منع الإقامة الذي صدر بحق ماركس في 1845، ويدعو زميله للمجيء والإقامة في باريس من جديد. فتعطي اللجنة المركزية للعصبة كامل السلطات لماركس لكي يعيد إنشاءها في باريس. ولم يمض عليها في بروكسل سوى شهر..

يصل كارل إلى باريس في 5 آذار / مارس، مع جيني وهيلين والأطفال الثلاثة، بعد رحلة شاقة لأن قضبان السكة الحديدية كانت انتزعت في عدة مواضع. يرافقهم إنجلز وفريليغرات وآخرون. ويعود باكونين هو أيضاً من جنيف حيث كان التجأ. وكانت علامات الثورة بادية في كل مكان: متاريس منصوبة، حوانيت منهوبة، القصر الملكي والتويلري منهوبان. والأفكار تجيش وتسري: فمائتا صحيفة تنشر يومياً في

العاصمة! ويقترح لامينيه في صحيفة (لو بوبل لكونستيتيان) [الشعب المؤسِّس] إنشاء تعاضديات: «حتى يكون العمل في المستقبل مكفولاً حقاً، ينبغي إذاً أن يصير مؤكداً، ويصير كذلك بالمشاركة». ويقترح لويس بلان «تحطيم الوحش البشع المسمى منافسة» وتعميم «المشاغل الخاصة التي ستفيد أرباحها في العناية بالمسنين والمرضى والمعوقين، وفي التخفيف من الأزمات». وينادي برودون بفتح مصرف الشعب، دون رأس مال ولا أرباح، يطرح للتداول سندات تبادل مضمونة بثمرة عمل كل عضو، يقرض المال دون فائدة للملاك الصغار وللعمال. كما يقترح أيضاً إنشاء مصرف عقاري، كـ«أداة للثورة بشأن الديون والمرابين، للسماح للفلاحين بالتحرر من الاستغلال». ويغدو التأميم أحد الموضوعات الأكثر تداولاً. إذ يقترح كابيه أن «تكون وسائل الإنتاج والمواد الأولية ممركزة، وأن تخصَّص المهن عن طريق المسابقات، وتكون الأجور بحسب الحاجات». أما لابونريه ولوتيير وبيو وديزامي، ورثة بابوف، فينادون بـ«الاشتراك في الملكية وفي العمل وفي التربية».

وتعم باريس الفوضى، بينما يتحرك باكونين كثيراً. فهو، بحسب أحد الشهود «لم يعد يغادر مواقع الجبليين: حيث يقضي لياليه، يأكل معهم ولا يفتأ يبشر فيهم بالشيوعية وبالتساوي في الأجور، وبالتسوية بين الناس باسم المساواة، وبتحرير كل السلافيين، وبإلغاء كل الدول المماثلة للنمسا، وبالثورة الدائمة والنضال الشديد حتى القضاء على آخر عدو».

ما إن يصل ماركس إلى باريس في بداية شباط / فبراير 1848، حتى يتصل به صحافي أمريكي هو شارلز دانا، مراسل صحيفة (نيويورك تريبيون)، وهي يومذاك أكبر صحيفة يومية في العالم، وتتوفر على أفضل فريق تحريري، وتستطيع الفخر بمستوى سياسي وأدبي مرموق. إذ يسعى دانا لمعرفة ما يهيئ. ويميل أحدهما إلى الآخر، ويتواعدان على اللقاء ثانية. وهي بداية تعاون طويل فيما بينهما.

ويهتم كارل من جهته بما يجري في ألمانيا، ويحاول تنظيم العمال الألمان الموجودين في باريس لضمهم إلى العصبة التي يجعل مقر أجهزتها القيادية في بيته.

ذلك أن كل شيء يتحرك بسرعة كبيرة في سائر أوروبا. إذ يضرب العمال في كل مكان لتحسين الأجور، ويطالب الفلاحون بمزيد من الأرض وبتخفيض للرسوم. وتندلع انتفاضة في فيينا في 13 آذار / مارس. وتتكاثر المظاهرات ببروسيا يوم 17، وبخاصة في برلين، للحيلولة دون إجراء انتخابات جد محدودة قررت للشهر التالي. فيتراجع فريدريك - غليوم الثاني أمام الجماهير، ويسحب الجيش من برلين، ويقبل تجنيد جيش من المواطنين. ويحذو عدد من الأمراء الألمان حذوه، ويعينون وزراء ليبراليين، ويعدون بحرية الصحافة وبالحق في الاجتماع، مبدين موافقتهم على برلمان وطني ألماني. وفي فرانكفورت بالخصوص، يتكون «برلمان» منبثق عن الحركات الثورية، تمنعه غالبية ليبرالية من التحول إلى «لجنة تنفيذية ثورية دائمة».

أما المهاجرون الألمان في باريس، فيتململون من نفاد صبرهم؛ إذ يتطلع الكثيرون منهم إلى العودة لبلادهم للقتال أو للعمل في السياسة. فيشكل الشاعر جورغ هيرويغ الذي كان استقبل ماركس في باريس نهاية 1843 «لفيفاً ديمقراطياً» كنوع من لواء دولي بما يقرب من خمسة عشر ألف رجل، يتحرك في 18 آذار / مارس باتجاه ألمانيا. لكن كارل شديد المعارضة له: إذ إنه يعتقد بأن الحركات الاجتماعية في ألمانيا لا تستطيع أن تفضي إلى أكثر من جمهورية برلمانية، لأن الرأي العالم ليس مهيئاً لثورة شيوعية. والرسل الذين يرسلهم لتقويم القبول الذي تلقاه الأطروحات الشيوعية لدى العمال الألمان تؤكد له ذلك: إذ تقابل الشيوعية في كل مكان بعدم الاكتراث أو النفور. فالوقت أكثر ملاءمة إذاً للدعاية السياسية منه للعمل العسكري. «إن الثورة، كما يعتقد ماركس، قضية أكثر جدية من أن تترك لمبادرات بطولية - رومنطيقية تضعفها

وتخدم العدو». ولذا يبذل قصاراه لإقناع هيرويغ بعدم إرسال لفيفه، ومنع إنجلز الذي يعشق الحرب من الانضمام إليه. وينال مشروع هيرويغ دعم الحكومة الفرنسية التي تقبل تمويله بنصيب متساوٍ مع الاشتراكات. فبما أن أكثرية الحرفيين الألمان اللاجئين إلى باريس عانوا بشدة من الأزمة، وسُرحوا من أعمالهم دون شفقة، فإن تمويل مغادرة المهاجرين حتى يعيدوا الاستيلاء على بلادهم الأصلية يشكل دعماً أقل تكلفة من مساعدتهم في الحصول على عمل. وفي تجمع للعمال اللاجئين، يأخذ ماركس الكلمة. «إن هذه الحملة ستسمح، كما يقول، للجيوش البروسية بسحق الثورة، وللبورجوازيين الليبراليين الفرنسيين التخلص بنفقة قليلة من جزء كبير من الثوريين الحقيقيين. فهي حماقة إذاً». ويمتنع إنجلز، مثل جميع الشيوعيين، لكن اللفيف يتحرك. ويصف أعضاؤه ماركس بـ«الجبان»، قبل أن يُصدوا ويذبَّحوا، في 10 نيسان / أبريل، ما إن اجتازوا حدود دوقية باد. لكن هيرويغ، ينجو بنفسه.

ويذهب ماركس هو أيضاً في الوقت ذاته إلى كولونيا برفقة إنجلز وفريليغرات، ولكن ليس للقتال، بل لتهيئة الانتخابات التي قررت لتوها لنهاية نيسان / أبريل في كل ألمانيا. ويقيم الجميع فيها منذ 11 نيسان / أبريل، وكانت تدار شؤونها من قبل لجنة للخلاص العام، تمنحهم ترخيصاً بالإقامة. فيلتقي كارل قادة اليسار المحلي الذي يحركه زعيم جد شعبي هو أندرياس غوتشالك. ويشرعون في التباحث فيما يجب عمله للانتخابات. ويميل ماركس إلى تحالف مع البورجوازية، حتى وإن توقع أن لا تقود إلا إلى إقامة ديمقراطية برلمانية. أما غوتشالك فيعارض ذلك: إذ ليست الديمقراطية غايته. وتصل النسخ الأولى من (البيان) إلى ألمانيا؛ وتنشر بعض الصحف مقتطفات منه. فيستنفر الطرفان لإقناع الناخبين: إذ يذهب باكونين إلى فرانكفورت، ثم كولونيا، وبرلين وليبزيغ؛ ويطوف ماركس أيضاً على مدن منطقة الراين لتعبئة أنصاره.

ويلتقي في دوسلدورف شاباً في الثالثة والعشرين متحدر من عائلة

عريقة في فروكلاو، هو فرديناند لاسال، يعرض عليه مساعدته في ألمانيا. وعدة صفات مشتركة تجمع بينهما: فلاسال يهودي، ولد في عائلة بورجوازية؛ ويطمح أن يكون اشتراكياً، علاوة على أنه فيلسوف، يعمل على .. هرقليطس! ويشرح له ماركس أن الألمان، خلافاً للفرنسيين، ليسوا ثوريين إلا بالفكر، في عالم الفكر المجرد. ولم يعرفوا بالتالي، كيف يقلبوا النظام الأرستقراطي واستبداله بمؤسسات ديمقراطية. وعلى الرغم مما يظن غوتشالك، فإن ثورة بروليتارية محضة في بروسيا، كما يشرح ماركس، ليس لها أي مغزى تاريخي، ولا أي فرصة للنجاح. ذلك أن ضرورة أن تصير الثورة تاريخية، لا يسمح بحرق مراحلها بخفة. فمن الأفضل إذاً مساندة المطالب البورجوازية من أجل محاولة إثبات الوجود على المدى كطليعة للحركة. ويوافق لاسال.

وفي بضعة أيام، يكتب ماركس مع إنجلز أول برنامج سياسي عملي له، توطئة لتحديد ما يمكن أن يشكل أرضية مشتركة مع البورجوازية، وهو: (طلبات الحزب الشيوعي في ألمانيا). إذ يعلن البند الأول: «ألمانيا بكاملها تُعلن جمهورية غير قابلة للتقسيم»، وهو ما تقبل البورجوازية أن تأخذه على عاتقها، على غرار المنحة المدفوعة للنواب. لكنها مثلما توقع ماركس، لا تريد سماع شيء عن مقترحاته الأخرى: كالضريبة التصاعدية على الدخول، ومجانية التعليم، وتأميم وسائل المواصلات وخلق بنك مركزي. إذ هنا أيضاً، بعكس ما سيقال فيما بعد، ليس ماركس موافقاً على تأميم كامل لوسائل الإنتاج، وبالخصوص في بلاد لم تتطور الرأسمالية فيها تماماً.

في نهاية نيسان / أبريل، يكسب الوسط الليبرالي الانتخابات، كما توقع ماركس. وفي 18 أيار / مايو 1848، يفتتح البرلمان أشغاله رسمياً في كنيسة سانت - بول في فرانكفورت. ومهمته المزدوجة هي: كتابة دستور وتأليف حكومة.

وفي الآونة ذاتها، يؤسس ماركس في كولونيا، مدينة بداياته

كصحافي، كما كان فعل مرتين، صحيفة – يومية هذه المرة هي: (لانوفيل غازيت رينان) [صحيفة الراين الجديدة]. وهذه الصحيفة، كما يكتب ماركس «لم يكن ممكناً إعطاؤها سوى راية واحدة، هي راية الديمقراطية، لكنها راية ديمقراطية تُظهر في كل سنة طابعها البروليتاري الخاص الذي لم تكن قادرة بعد على إعلانه». وانسجاماً مع فكرته عن تحالف بين ديمقراطيين ليبراليين واشتراكيين ضد الدكتاتوريات، يبحث عن ممولين بين الليبراليين – ويفلح في ذلك جيداً: إذ يصبح لودولف كامفوزن، الصناعي الثري، ودافيد جوستوس هانسمان، رئيس غرفة تجارة المدينة، مموليه.

في 31 أيار / مايو، يخرج العدد الأول من (لانوفيل غازيت رينان). ويهتم كارل فيها بكل شيء. من التحرير إلى طلبيات الورق. يختار العناوين ويؤمن الإغلاق في المساء. وسيصف إنجلز التحرير كـ«ديكتاتورية خالصة لماركس». وتركز الصحيفة هجوماتها في البداية على المَلَكية. لكن، سرعان ما يتوجب عليها تحمل عبء مصالح متناقضة، لأن ممولِيها يدخلان إلى الحكومة.

ففي بداية حزيران / يونيو تؤلف أول حكومة إمبراطورية تحت وصاية الأرشيدوق النمساوي يوهان؛ ويصبح فيها كامفوزن وهانسمان، ممولا (لانوفيل غازيت) وزيراً أولاً ووزيراً للمالية على التوالي بينما تسلم وزارة الخارجية إلى بروسي. ويقترح كامفوزن على ماركس أن ينضم إلى ديوانه. لكن كارل يعتذر عن قبول العرض، ويركز جهوده على صحيفته التي لن تلبث أن تنتقد الحكومة التي «تترك المجال مفتوحاً لهجوم معاكس من الأرستقراطيين والبورجوازيين». والواقع هو أن البورجوازية الألمانية تختار التحالف مع كبار الملاك العقاريين ومع الدولة البروسية، ضد الليبرالية السياسية. كما أن الحكومة مشلولة نتيجة لرفض النمسا التخلي عن سيادتها، التي دعمت مؤخراً، على أراضٍ غير ناطقة بالألمانية.

في هذه الأثناء، ينعقد في لندن من 2 إلى 9 حزيران / يونيو 1848، المؤتمر الثالث لعصبة الشيوعيين. لكن ماركس، الذي لا يزال رئيسها، ولنقص في المال، بقي في كولونيا للاهتمام بصحيفته. ويمثل ويلهلم («لوبوس») وولف رابطة بروكسل. ويمثل إنجلز رابطة باريس. ومن أجل الحفاظ على وحدة المنظمة في فترة الاضطراب هذه، أضيف تعديلان إلى نظام العصبة الأساسي، يستبقان «التسللية» إلى المنظمات الثورية اللاحقة: «نعتبر من الخطأ السياسي منع أعضاء العصبة الانتساب إلى جمعية سياسية أو وطنية، لأننا نحرم أنفسنا من كل إمكان في التأثير على هذه الجمعيات». كما شطب البند 21 من النظام الأساسي الذي ينص بصفة ديمقراطية على أن «كل قرارات المؤتمر الملزمة، تقدم إلى الروابط لإقرارها أو رفضها»، بذريعة أن «هذا التقييد، في فترة ثورية، ينزع كل نشاط عن المؤتمر. فلنتذكر أن الأرستقراطيين في 1794، طالبوا بالشيء ذاته حتى يشلوا كل فعل..»

في باريس، يرتسم في اللحظة نفسها تطور مماثل لما يحدث ما وراء الراين: إذ يعلن مجلس تأسيسي انتخب في نيسان / أبريل، يضم غالبية قوية من أعيان الأقاليم، الجمهورية الثانية، ويستبدل بالحكومة المؤقتة لجنة تنفيذية. وفي 21 حزيران / يونيو، بذريعة أن المشاغل الوطنية لا تقدم ما يكفي من العمل أو أنها تقدم أشغال تعبيد للطرق فقط، لا علاقة لها بتكوين العمال، تقوم اللجنة بإغلاق المشاغل الوطنية، آملة بذلك إخماد الاضطرابات العمالية. وكان رد الفعل عنيفاً: فمن 120.000 عامل سرحوا من المشاغل الوطنية، ينزل 20.000 إلى الشارع في 23 حزيران / يونيو، ليصيحوا: «العمل أو الخبز! الخبز أو الرصاص!».

فتغتنم الحكومة الفرصة، وتوقف المحرضين، وتعهد بكامل السلطات للجنرال كافينياك الذي يقوم من 23 إلى 26 حزيران / يونيو 1848، بقمع الانتفاضة. وتخلف أعمال القمع 5000 قتيل؛ ويوقف 11.000

عامل، بينما ينفى 4000 إلى الجزائر. وفي 3 تموز / يوليو تغلق المشاغل الوطنية نهائياً. ويذهب برودون إلى المنفى الطوعي. «لم أعد أومن بجمهورية تبدأ بذبح كادحيها»، ستكتب جورج صاند.

أما في كولونيا، فيلتمس ماركس استعادة جنسيته البروسية التي فقدها في 1845 على إثر طلبه للهجرة إلى أمريكا. لكن الحكومة البروسية ترفض طلبه في 3 آب / أغسطس، ويتقدم كارل بطلب استئناف لهذا القرار، دون جدوى.

في باريس، يكتب لويس بلان مشروعاً تمهيدياً للدستور، ينادي صراحة بالحق في العمل: «إن واجب الجمهورية حماية المواطن في شخصه وأسرته ومسكنه وملكيته، وتقديم المساعدة أو العمل للذين لا يستطيعون الحصول على وسائل العيش، ونشر التعليم المجاني بطريقة تعطي لكل فرد المعارف الضرورية لكل بني الإنسان، ولتنمية الذكاء».

لكن ألكسيس دوتوكفيل يندد بما يسميه «حرباً اجتماعية، كحرب أهلية نوعاً ما» ويعارض في 12 أيلول / سبتمبر، إدراج هذا الحق في العمل ضمن الدستور الجديد. و«خطابه حول الحق في العمل» هو النص الأهم الأول ضد الاشتراكية: «أول سمة تميز كل الأنظمة التي تحمل اسم الاشتراكية، هي دعوة قوية ومستمرة وغير معتدلة لأهواء الإنسان المادية، (..). والرخاء المادي خطر كبير، لأنه يقود إلى مجافاة الديمقراطية؛ ذلك أن الولع بالرفاه المادي يصير هاجساً يمنع الإنسان من التفرغ لواجباته كمواطن». والسعي إلى مساواة شاملة، في نظر توكفيل، يفضي إلى نفي الحرية، والاشتراكية هي «شكل جديد من العبودية». فالمساواة، بحسبه، يجب أن تتوافق مع الحرية: «لا تقوم الديمقراطية والاشتراكية إلا على كلمة، المساواة، لكن لاحظوا الاختلاف: إن الديمقراطية تريد المساواة مع الحرية، بينما تريد الاشتراكية المساواة في الفقر والعبودية». كما يرفض فكرة دولة حامية، لأنه يكفي، كما يقول، «زيادة الأعمال الخيرية العامة وضبطها».

فـي اليـوم ذاتـه، بكولونيـا، يتحقـق مـاركس مـن أن التحـالف مـع الديمقراطيين الليبراليين مستحيل. وعليه إذاً تغيير استراتيجيته. والواقع أن إخفـاق تعاونيـات أويـن ومشـروعات فورييـه أو مشـاغل لويـس بـلان الوطنيـة، وشـبه اختفـاء تعاونيـات الإنتـاج التـي تكونـت فـي بدايـة القـرن، وانحراف الثورات الوطنية، كل ذلك يترك الميدان مفتوحاً أمام مشروعه الجديد، وهو: الحرب المطلقة على رأس المال.

فيضع عندئذ، للمرة الأولى، الخطوط الأولى لمفهوم «الديكتاتورية المؤقتة»، الـذي سـرعان مـا يصبـح مفـهوم «ديكتاتوريـة البروليتاريـا». إذ يكتب في 16 أيلول / سبتمبر ضمن (لانوفيل غازيت رينـان): «يتطلب كل وضع مؤقت للدولة بعد ثورة ما ديكتاتورية، بل وديكتاتورية قوية. ومنذ البداية، أخذنا على كامفوزن عدم استخدامه لوسائل ديكتاتورية، وعدم تحطيمه وقمعه لبقايا المؤسسات السابقة على الفور. إذ بينما كان السيد كامفوزن يستسلم لأحلام اليقظة الدستورية، كان الحزب المهزوم يدعم مواقعه في الإدارة والجيش».

إزاء هجومات كهذه، ينسحب المولان الليبراليان لصحيفة (لانوفيل غـازيت رينـان). والحكومـة والمجلس كلاهمـا، بـدون سـلطة فـي مواجهـة المَلَكيـة. وللدفـاع عـن الأمل الديمقراطي، تندلـع فـي 19 أيلول / سـبتمبر اضطرابات في كل أرجاء البلاد، وبالخصوص في فرانكفورت، ويغتنم إنجلز المولع بالاستراتيجية العسكرية الفرصة لوصفها:

«اندلعت الانتفاضة الأشد دموية في فرانكفورت، وسيضحي عمال فرانكفـورت وأوفنبـاخ وهـانو وفلاحـو المنطقـة بحياتهم دفاعـاً عـن شـرف ألمانيا الذي باعه المجلس الوطني لوزير بروسي مطرود في العار والخسة. ولا يزال النضال غير واضح. إذ يبدو أن الجنود لم يتقدموا كثيراً منذ مساء الأمس، إذ ليس على الشعب الأعزل غالباً أن يناضل فقط ضد السـلطة التـي اسـتعادتها البورجوازيـة، والدولـة المنظمـة للعسـكريين والموظفين، بل عليه أيضـاً أن يناضل ضد البورجوازية المسلحة نفسها،

ففي مواجهة الشعب غير المنظم وغير المسلح جيداً، كل طبقات المجتمع الأخرى، جيدة التنظيم والتسليح. ولهذا رضخ الشعب حتى الآن وسيرضخ إلى أن يضعف خصومه، سواء لأن قواتهم ستكون مشغولة بالحرب أم لأنهم سيتفككون، أو إلى أن يدفع حدث خطير ما الشعب إلى معركة يائسة، ويثبط عزيمة خصومه».

أما في الغد، فيفعل إنجلز شيئاً آخر أكثر من الكتابة: إنه يهيء نفسه للانتقال إلى العمل السري. ويتصلب ماركس في معارضته بقدر ما تتراجع البورجوازية أمام الرجعيين. وفي 24 أيلول / سبتمبر تعلن حالة الطوارئ في كولونيا، فعُلق نشر (لانوفيل غازيت رينان). وفي 27 منه، يتمكن برلمان فرانكفورت المعزول أكثر فأكثر في مواجهة السلطة الملكية، من المصادقة على «الحقوق الأساسية للشعب الألماني (..) التي تعبر عن إرادة إلغاء الامتيازات وإقامة المساواة في الحقوق لكل المواطنين، على غرار الثورتين الفرنسية والأمريكية».

في 12 تشرين الأول / أكتوبر، تظهر (لانوفيل غازيت) في الوقت الذي تتعرقل الثورة، وينقسم الثوريون بعضهم على بعض. إذ تتهم صحيفة ماركس باكونين بالعمالة لقيصر روسيا، مرتكزة في ذلك، كما تقول، على شهادة جورج صاند. لكن الكاتبة الفرنسية تنكر أنها شككت في إخلاص الثوري الروسي، وينشر ماركس تكذيبها. وتصف رسالة من جورج يونغ إلى أرنولد روج في 18 تشرين الأول / أكتوبر، الانطباع الذي يتركه ماركس: «ثوري يائس تماماً».

وسرعان ما تحل الهزيمة. فالشاب فرديناند لاسال الذي انخرط قلباً وقالباً في الثورة، أوقف في 22 تشرين الثاني / نوفمبر، مع آخرين في دوسلدورف لأنه نادى بالمقاومة المسلحة ضد الدولة. وإنجلز الذي انخرط هو الآخر في الكفاح المسلح، ملاحق من قبل الشرطة، فيهرب إلى فرنسا ثم سويسرا، بينما يقدم رفاقه للمحاكمة.

وتطور الأحداث، في باريس، مماثل تماماً: إذ تقيم السلطة

الخارجة من صناديق الاقتراع، كما في برلين، أدوات للعودة إلى الديكتاتورية. فيُنتخب في 10 كانون الأول / ديسمبر لويس - نابليون بونابرت أول رئيس للجمهورية الفرنسية في مواجهة الجنرال كافينياك الذي أساءت مذابح حزيران / يونيو إلى مكانته، وبعدما أقنع أدولف تيير، الزعيم الملكي، زملاءه بمساندة نابليون الثالث المستقبلي - «إنه أبله سيقاد» -، لا سيما أن دستور الجمهورية الثانية يحظر على الرئيس الموجود في السلطة التقدم لفترة رئاسية جديدة، وأن الانتخابات الجديدة ستتم بعد عامين. ويحلف لويس - نابليون بونابرت اليمين، مقسماً، «أمام الله والشعب الفرنسي الممثل بالجمعية الوطنية، بأن يبقى مخلصاً للجمهورية الديموقراطية، واحدة وغير قابلة للتجزئة، وأن يقوم بكل الواجبات التي يمليها (عليه) الدستور».

في 15 كانون الأول / ديسمبر، يتميز ماركس غيظاً من البورجوازية «التي لم ترفع إصبعها الأصغر، وسمحت للشعب فقط بأن يقاتل من أجلها». وقد توقع ذلك دون أن يرغب مع ذلك في حدوثه - فقد حدث بأسرع مما تصور -، لكن الواجب الآن استخلاص الدروس: إذ على الطبقة الكادحة أن تنظم نفسها بنفسها ولنفسها!

في خضم هذه الأحداث، يتم اكتشاف سيقدر ماركس للوهلة الأولى كل أهميته: إذ يبرهن الألماني غوستاف كيرشوف على أن الظواهر المقترنة بالتيار الكهربائي هي من نفس طبيعة الظواهر الكهربية الساكنة، ويفتح بهذا، الطريق لتكون دارات كهربائية. فيرى كارل في ذلك إيذاناً بثورة أكثر أهمية من ثورة الآلة البخارية، بل وأكثر حسماً من الثورة السياسية التي يغوص في وحلها.

أما إنجلز فلا يزال في كانون الثاني / يناير لاجئاً بسويسرا، بينما يواصل ماركس إدارة صحيفته ونشرها على الرغم من كل المعوقات. فيكتب ضد الملك، وضد الحكومة، وضد الجيش، وضد القضاة، وضد موظفي الضرائب، ويؤمن بنفسه الدفاع عن نفسه، في 7 و8 شباط /

فبراير، زاعماً أن الحكومة انتهكت القوانين التي تنوي المحكمة الاستناد إليها. وينطق المحلفون ببراءته، ويهنئه رئيس المحكمة على جودة دفاعه.

في 10 شباط / فبراير، ينشر أول مقال من سلسلة مقالات يفضح فيها المخالفات المرتكبة بحق صديقه الجديد فرديناند لاسال، السجين دائماً: «منذ أحد عشر أسبوعاً ولاسال يتعفن في سجن دوسلدورف، والآن فقط يغلق التحقيق حول وقائع بسيطة، لم ينكرها أحد قط». وفي 3 آذار / مارس يلتقي ماركس وإنجلز مدعي عام المدينة، نيكولوفيوس، للاحتجاج على تأجيل القضية إلى تاريخ لاحق.

في 28 آذار / مارس 1849، يرفع أعضاء مجلس فرانكفورت الـ 568، فيما عدا أقلية صغيرة، ملك بروسيا فريدريك غليوم الرابع إلى الجلالة الإمبراطورية، طبقاً لدستور وافقت عليه ثمان وعشرون من الولايات الألمانية الثلاثين. وعندما يحتج إمبراطور النمسا على إعادة النظر هذه في سيادته التقليدية، يعمد ملك بروسيا، لأنه لا يريد «تاجاً التقط في الشارع»، إلى رفض اللقب والدستور معاً. وينتقل البرلمان، الذي يغادره الليبراليون، عندئذ إلى شتوتغارت حيث سرعان ما يُطرد من قبل الجيش من وورتمبرغ.

وتُستأنف الاضطرابات لفرض الدستور. فتقمع بالدماء. وفي نهاية نيسان / أبريل، أثناء القلاقل، يلتقي موسيقي شاب هو ريشارد واغنر في درسدن، باكونين الذي يقيم فيها سراً منذ منتصف الشهر. وعندما يأتي إليها الجيش البروسي في 6 أيار / مايو، لإعادة النظام، يرشد واغنر مفارز من الحرس البلدي عبر شوارع المدينة، ويبلغ الحكومة المؤقتة عن تقدم القوات البروسية. وما إن نجح الجيش في دخول المدينة حتى قُبض على باكونين، وفر واغنر. ويقال إن الأول أوحى للثاني بشخصية سيغفريد.

وينضم إنجلز إلى قوات المتمردين في باد وبالاتينا، تحت قيادة ويلليش. أما ماركس القلق لرؤية أصدقائه يذهبون وأيديهم فارغة،

فيخصص كامل حصته تقريباً من ميراث والده (5000 من 6000 فرنك ذهبي) لشراء أسلحة لهم. والمعارك بالغة الشدة، يقتل فيها مول أحد مؤسسي العصبة في لندن، وأحد أصدقاء ماركس المخلصين. ويختفي كل أثر لإنجلز؛ ولا يعرف أحد إن كان حياً أو ميتاً. ويخيم غطاء من الرصاص الملكي على مملكة بروسيا.

في فرنسا، تسفر الانتخابات التشريعية في 13 أيار / مايو، عن فوز حزب النظام بـ 490 مقعداً، مقابل 180 مقعداً للجبليين و80 مقعداً للجمهوريين المعتدلين. ويخيم غطاء من الرصاص البونابارتي على الجمهورية الفرنسية.

في يوم 16، يتلقى ماركس بكولونيا، الأمر بمغادرة الأراضي البروسية «لأنه انتهك دون خجل قانون الضيافة»، كما ينص قرار الإبعاد. وفي 18 منه، ينشر العدد الأخير من (لانوفيل غازيت رينان) مطبوعاً بأحرف حمراء اللون، وفي صفحته الأولى قصيدة وداع من فيرديناند فريليغرات الذي يفر إلى لندن:

وداعاً إذاً، وداعاً يا رعد المعارك
وداعاً إذاً، يا رفاق المعارك
وأنت، أيتها الحقول المتسخة بالبارود
وداعاً، للسيوف وللرماح
وداعا إذاً، لكن ليس إلى الأبد
فهم لن يقتلوا أفكارنا، يا إخوتي
سيحين الوقت وأولد من جديد
ودائماً أنا حية:
على الدانوب والراين، بالكلمات، بالسيف
في كل مكان سأكون للشعب المتمرد
الرفيقة الوفية في ميدان المعركة
ثائرة، مطاردة، حية.

وقد كلفت كارل ما مجموعه 7000 تالر، إذ رهن بقية ميراثه وكل الممتلكات العائلية، بما فيها مجموع الكتب التي احتفظ بها في ألمانيا. أما جيني التي وجدت ملجأً لها في تريفز لدى والدتها السيدة فون ويستفالن، فتقدم أطفالها لوالدة كارل وأخواته اللواتي يصبن بالذهول عندما يعلمن أن الابن والشقيق صار قائداً ثورياً.

وينطلق كارل إلى فرانكفورت ثم إلى مانهايم ولودفيغشافن وكارلسروه وسبير وكيزيرلوترن، حيث يشن حملة. وهو لا يشعر بأنه مطرود. إذ يصرح لصحافي من جريدة (لابرس): «بعدما حُظرت الإقامة علي في بروسيا، انصرفت أولاً إلى دوقية هس، حيث لم أكن ممنوعاً من الإقامة، كما لم أكن ممنوعاً في سائر ألمانيا». لكنه أوقف من جديد في هامبورغ ثم أفرج عنه. حيث يمنح جواز سفر صالح لباريس حصراً. فعليه مغادرة ألمانيا، نهائياً هذه المرة، وإلى جهة مفروضة.

يصل ماركس إلى العاصمة الفرنسية في 3 حزيران / يونيو 1849. ويبدو واثقاً من مستقبله. إذ يكتب في 7 حزيران / يونيو، أنه يأمل الآن أن يكون مجموع الصحافة الثورية الفرنسية تحت تصرفه. ذلك أنه لا يرى أنها في سبيلها لأن تخنق بوساطة الرقابة.

وباريس يومذاك فريسة لوباء الكوليرا إذ يكتب الثوري الروسي ألكسندر هيرزن: «كان الهواء مقبضاً. وحرارة دون شمس تثقل على الناس. والوباء يخلف عدداً لا حصر له من الضحايا». كما أصبح الجو السياسي هو أيضاً خانقاً. فبما أن الرئيس لويس - نابليون بونابرت كان أرسل حملة عسكرية إلى إيطاليا لمساعدة البابا في قتاله للجمهوريين، يطلب زعيم لامونتانيه [الجبل] ليدرو - رولين من البرلمان توجيه الاتهام له لانتهاكه الدستور، باعتبار أن الدستور ينص على أن «الجمهورية الفرنسية لا تستخدم قواتها أبداً ضد حرية أي شعب». وخطاب ليدرو - رولين، كما سيكتب ماركس، «صريح، دون مواربه، مرتكز على وقائع، مُركز وقوي»؛ لكن البرلمان يؤجل المناقشة حول مقترحه.

وفي 13 حزيران / يونيو، تخفق مظاهرة احتجاج نظمها الجبليون. وفي 19 منه، تعلق حرية تكوين الجمعيات لمدة سنة، وتلغى حرية الصحافة. وكل الصحف التي كان ماركس يعتمد عليها أغلقت. وليدرو - روللين يفر إلى إنجلترا، على غرار لويس بلان. ويجري توقيف آخرين. واليوم ذاته، تسلم ألمانيا باكونين إلى النمسا التي تسلمه بدورها لروسيا حيث سيقضي ثمانية أعوام في السجن قبل أن ينفى إلى سيبيريا، ويختفي في ظلام الزنازين الروسية.

في 19 تموز / يوليو، يحدد الأمير - الرئيس إقامة ماركس في محافظة موربيان. لكن كارل يتردد في الذهاب إليها، وخلال شهر آب المخيف 1849، يغادر كابيه، الطريد هو أيضاً، فرنسا إلى تكساس حيث ينضم إلى جماعة من الإيكاريين، قبل أن توافيه المنية العام التالي في سانت لويس.

ويشعر الجميع بانقضاء الحلم في ديموقراطية أوروبية موحدة. مع أن هذا الحلم لا يزال يروى بأبهة من قبل فيكتور هوغو، نائب باريس في الجمعية الوطنية، في 21 آب / أغسطس، ضمن خطابه الافتتاحي في باريس لمؤتمر دولي للسلام: «سيأتي عليكم اليوم، أنت يا فرنسا، وأنت يا روسيا، وأنت يا إيطاليا، وأنت يا إنجلترا، وأنت يا ألمانيا، أنتم جميعاً، يا أمم القارة، ودون فقد خصالكم المتمايزة وفرديتكم المجيدة، الذي تذوبون فيه ضمن وحدة سامية، وتشكلون الأخوة الأوروبية!».

ماركس يتردد: إلى أين يتوجه؟ إلى سويسرا؟ إلى أمريكا؟ وإذ يتذكر رحلته في 1845، يقرر: إلى لندن. ففي 27 آب / أغسطس، يغادر فرنسا إلى إنجلترا، البلد الذي لا يحسن التكلم بلغته، ولا ينتظره فيه أحد. وهو في الحادية والثلاثين من عمره. لم يعد يملك شروى نقير، وما من حليف ولا سند ولا مهنة. ولا أخبار لديه عن زوجته وأطفاله الثلاثة؛ وأخلص أصدقائه ربما يكون قضى في الانتفاضات الأخيرة للثورة الخائبة. فيهوي العدم بثقله عليه.

الفصل الثالث

الاقتصاد الإنجليزي

آب / أغسطس 1849 – آذار / مارس 1856

بريطانيا العظمى التي ينزل فيها كارل ماركس في 26 آب / أغسطس 1849، ترقب باستخفاف انتفاضات القارة. وخلال الأزمة التي تضرب أوروبا آنذاك، تظل هي البلاد الأغنى، والأكثر تقدماً، والأكثر وعداً بالتفاؤل. والثورة الصناعية التي بدأت فيها نهاية القرن الثامن عشر بوضعها الفحم في خدمة الآلة، تواصل تعديل الاقتصاد بعمق. فالصناعة التي كانت نسيجية في البداية، تجد الآن ازدهاراً جديداً مع السكك الحديدية، إذ تصبح هذه المستهلك الرئيس للفحم والحديد، والفولاذ إذاً الذي سيفضي اختراع طريقة تحويله من قبل بسمر، ثم اختراع الفرن الآلي، سريعاً إلى قلب إنتاجه رأساً على عقب. فبستة آلاف ميل من السكك الحديدية، تكون أقيمت شبكة البلاد الأساسية؛ ويمكن للتجار وللسلع أن تنتقل من مدينة إلى أخرى. وأرباب عمل من طراز جديد يظهرون، أكثرهم ينحدرون من الطبقة المتوسطة. وإذا ما أنتج اللورد إلشو الفحم والحديد، فإن توماس براسي هو الذي يبني الطرقات والسكك الحديدية، والأخوة باس هم الذين ينتجون الجعة، والمدعو صامويل مورلي هو الذي يغدو ملك صناعة الملابس. وتفتتح بورصات في مانشستر وليفربول وغلاسغو، تكمل بورصة حي الأعمال [السيتي] بلندن، وتشجع بروز صنف جديد من المساهمين، وأصحاب الريوع والتجار، في

أرجاء البلاد كلها؛ وكانت مدخراتهم من الضخامة، بحيث كانت تصدر إلى الخارج، وبخاصة إلى أمريكا الشمالية وأوروبا لتمويل بناء السكك الحديدية بمواد وتجهيزات بريطانية. إذ ينشئ توماس براسي، على سبيل المثال، خلال ربع قرن 7000 كلم من الخطوط الحديدية والطرق عبر أربع قارات، نصفها خطوط فرنسية. وسيشغل حتى 10.000 عامل، وسيجمع ثروة شخصية تزيد على 3 ملايين جنيه، وهو الرأسمالي الكبير الأول.

ولا تتدخل بريطانيا العظمى آنذاك إلا قليلاً في شؤون العالم السياسية، مفضلة ترك حكومات القارة لمهمة حفظ النظام فيها، دون أن تتدخل تقريباً أبداً في الحروب يشنها البعض على البعض الآخر، ومحتفظة بجنودها للاحتلالات الاستعمارية، وحماية طرقها التجارية. ففي الهند بالخصوص، وبفضل قوتها العسكرية وفساد الأمراء المحليين، تضم الإمبراطورية البريطانية البنجاب.

وإذا ما ظلت المكانة الاجتماعية للأرستقراطية البريطانية دون نقصان، إلا أن هذه البورجوازية البريطانية تأتي بإيديولوجية جديدة، تميز حكم فيكتوريا الذي بدأ قبل عشر سنوات، وتقوم على: قمع الحياة الجنسية، والحس بالواجب، وتعظيم الأسرة، وتمجيد الإدخار والعمل.

وعندما يصل ماركس إلى لندن، كانت تعد 2.4 مليون من السكان. وهي في الوقت ذاته أكثر مدن العالم فخامة، وجحيم بالنسبة للفقراء الذين يعيشون في ظروف سكنية وصحية مخيفة. فلم يكن في الأحياء العمالية سوى دورة مياه واحدة لكل 125 ساكناً؛ وأقل من طفل من كل طفلين يبقى على قيد الحياة أكثر من خمس سنوات.

وعلى عكس دول القارة التي كانت في طريقها الواحدة بعد الأخرى للعودة إلى الديكتاتورية، تظل إنجلترا بلداً أقل تسلطاً نسبياً. ويتكون حزبان كبيران ضمن البورجوازية، الأول ليبرالي والآخر محافظ، كوريثين لـ(الويغز) و(التوري). وينتخب الرجال الأثرياء، الناخبون الوحيدون، برلمانيين ذوي سلطات واسعة على الرغم من ميول فيكتوريا

وزوجها ألبرت الألماني الأصل التسلطية. ويوسع حق الانتخاب تدريجاً إلى بعض العمال، بينما النساء والفقراء مستبعدون منه دائماً. أما في العالم العمالي، فالحركة الميثاقية - التي كان ماركس قد بنى عليها كثيراً من الآمال، لدى زيارته الأولى للندن في 1845 - تضعف، إذ تنافسها الحركة النقابية، التي تناصر التبادل الحر والحوار مع أرباب العمل والنزعة الإصلاحية.

وتحصل هذه النقابات الأولى من بعض الصناعيين على إرضاء اثنين من مطالبها الرئيسة: أولهما (الأسبوع الإنجليزي) - أي توقف عمل العمال في الساعة 14 من كل سبت - وإقامة رقابة (نظرية على الأقل) على ظروف العمل في المصنع من قبل مفتشين تعينهم الدولة. إلا أن ظروف معيشة العمال تظل مع ذلك مخيفة: إذ تظل ساعات العمل الأسبوعي ستين ساعة، مقابل أجرة لا تكاد تكفي للقيام بأود العامل وأسرته.

والصحافة البريطانية هي أكثر حرية حقاً من مثيلاتها في القارة. ففي بريطانيا العظمى - وهي حتى البلد الوحيد في هذه الحالة مع الولايات المتحدة -، تباع الصحف جهاراً نهاراً، بالمناداة عليها وبالعدد. وأكبر صحيفة في لندن، (التايمز) وهي مستقلة تقريباً عن الأحزاب؛ كما توجد في الأقاليم صحف مفتوحة على الأفكار الاشتراكية، كصحيفة (مانشستر أدفيرتسير). وفي كل مكان، تنشر صحف أكثر راديكالية، لا تلاحق إلا في حالة القدح بحق الملك أو الوزراء، الإنجليز. وكدليل على إخفاق الاشتراكيين: انخفض توزيع صحيفة الميثاقيين الـ(نورثرن ستار) التي أسست في 1837، من 42.000 نسخة في 1839، إلى 6000 نسخة في 1849.

عندما يُغلق تلك السنة في القارة قوسا الفترة الليبرالية التي فتحت قليلاً قبل اثني عشر شهراً، يلتجئ الكثير من المناضلين الديمقراطيين الفرنسيين والألمان والبولونيين والنمساويين والإيطاليين

المطرودين من قبل الشرطة والأمراء، بموجات متتالية إلى إنجلترا. ويُستقبل هؤلاء المنبوذون دون عراقيل، بشرط أن لا يشكلوا خطراً على التاج. لكن شروط المعيشة المفروضة عليهم باهظة التكاليف: إذ يدفعون أكثر من الإنجليز أجرة مساكنهم، ويمكن أن يطردوا منها دون إنذار. وعلى الذين جاؤوا دون مال كافٍ، العمل بأجور تافهة والعيش في أكواخ، وغرف مفروشة، غالباً ما تكون بعيدة عن مركز لندن.

ويأتي أشهر الزعماء الليبراليين من القارة في أشد حالات العوز. ومنهم الإيطالي مازيني، والفرنسي لويس بلان، والألماني كينكل - الذي فر بشكل مدهش، كما سنرى، من سجن سباندو البروسي - والهنغاري كوسوت، عدو النمساويين اللدود. ويتدفق معهم آلاف آخرون غير معروفين، جاؤوا للالتحاق بأولئك المقيمين أحياناً منذ 1830، وأسسوا، كما رأينا، عصبة المنصفين، من بين الكثير من المنظمات الأخرى. وفي كل المقاهي تجتمع لجان ثورية، وتتألف حكومات في المنفى؛ وتدبر الانقلابات الأكثر تعقيداً وتجري من بناية إلى أخرى. كما يجري فيها النقاش حول الديمقراطية والاشراكية والشيوعية - وهي كلمة لا تستخدم فقط منذ (بيان الحزب الشيوعي) في السنة الفائتة، للإشارة إلى مجموعات طوبائية صغيرة، بل تتضمن أيضاً الاستيلاء على سلطة الدولة من قبل الطبقة العمالية.

عندما يصل كارل إلى لندن في 26 آب / أغسطس 1849، كان هوى إلى أسفل درجات الانحطاط المادي. إذ لم يعد معه شروى نقير تقريباً؛ فآخر ممتلكاته، وحتى كتبه، كانت رهنت لتمويل صحيفته في كولونيا. وزوجته والأطفال الثلاثة - جيني، لورا، إدغار - الذين نجح في إبلاغهم بتريفز، سيلتحقون به عن قريب مع هيلين ديموت دون أن يكون لديه ما يكتري لهم به مسكناً لائقاً. وإنجلز الذي كان بالغ السخاء بمعوناته، لا يزال عالقاً - إلا إذا كان ميتاً؟ - في معارك سواب الأخيرة.

لكن كارل، لا يفكر ولو للحظة في التخلي عن الكتابة والنشاط؛

وما من لحظة أيضاً، يفكر في البحث عن عمل مأجور. وعلاوة على ذلك، فإنه إذا كان يتحدث الإنجليزية جيداً، لكنه لا يكتبها إلا بالكاد. ولا يمكنه التفكير بالعمل بهذه اللغة إلا كعامل، ليس إلا. وهو الدكتور في الفلسفة، لا يتخيل هذا، وحتى لو تخيله ما كان له أن يعثر على عمل.

فسيواصل إذاً، من لندن، نشر صحيفته (لانوفيل غازيت رينان) باللغة الألمانية، قاصداً القراء الألمان. وسيستأنف أيضاً نشاطات السياسة مع عصبة الشيوعيين، إذا استطاع على الأقل إعادة تكوين بعض الشيء منها، بعدما نقلها إلى باريس ونسيها هناك، منذ عام.

ولا يزال يعتقد بثورة وشيكة الوقوع بسبب الأزمة الاقتصادية، وتدخل روسي يتوقعه في الشؤون الألمانية. لكنه لا يرجوها، لأن جماهير العمال ليس لديها بعد، كما يعتقد، وعي ثوري، كما اختبر لتوه بنفسه ذلك. ولا يعلق أي أمل بالخصوص على الطبقة العمالية الإنجليزية: فانخفاض مبيعات صحيفة الميثاقيين، والقليل من الناس الذين يحضرون اجتماعاتهم، تقنعه بأن العمال البريطانيين، على الرغم من البطالة، هم حلفاء الرأسمالية والبورجوازية؛ ويستشعر أن الصراع بين قوى أنصار الحماية، وأنصار التبادل الحر، وبين الفلاحين والتجار، سيفضي قريباً إلى عودة اليمين الإنجليزي إلى السلطة، وهو الآن في المعارضة لحكومة ليبرالية. فيكتب عندئذ: «سيخلق كل هذا نزاعاً شديداً، وسيعود الـ(توري) إلى السلطة، في موضع الـ(ويغز).» ولا يؤمن إلا بفرنسا، ويظن حتى أنه سيعود للإقامة من جديد في شارع فانو. ويعرف أن رئيس الجمهورية لويس - نابليون بونابارت الذي انتخب لتوه، عليه أن يترك منصبه قريباً، لأن فترته الرئاسية غير القابلة للتجديد هي سنتان. وعندما يكون هذا «البلون - بلون» (هكذا كان يسميه) غادر السلطة، سيتمكن المنبوذون من العودة. ويظل كارل مقتنعاً بأنه من العاصمة الفرنسية ستنطلق الثورة الأوروبية التي ستعيد الديمقراطية أولاً ثم تقيم الشيوعية. فسيكتب إنجلز فيما بعد: «لم يكن ماركس يدرس التاريخ

الفرنسي بعناية خاصة فقط، بل كان يتابع كل تفصيلات التاريخ الجاري، ويجمع المواد اللازمة لاستعمالها فيما بعد، ولم يكن بالتالي متفاجئاً قط من الأحداث (..)، ففرنسا هي البلد الذي أفضت فيه الصراعات الطبقية في كل مرة، أكثر من أي مكان آخر، إلى الحسم التام، وحيث تأخذ الأشكال السياسية المتغيرة التي تتحرك في داخلها وفيها تلخص نتائجها معالمها الأكثر جلاءً».

كارل في الثانية والثلاثين من عمره، ولا يشعر بالتلاؤم مع هذا المنفى، ولا مع هذا البؤس البروليتاري. وكما أن الاشتراكية لا بد لها أن تنجح، فلا يمكن له أن يخفق. ودون توقف، وفي السراء والضراء، يربط وضعه الخاص بوضع البيئة المحيطة به.

في 17 أيلول / سبتمبر، تلتحق جيني بمساعدة هيلين ديموت به، منهكة ومريضة، مرفوقة بأطفالهما الثلاثة وحامل بالرابع. ففي تريفز تمكنت من الحصول على بعض المال من أمها، وعلى جزء من تركة أبيها، إضافة إلى مجموعة أدوات الطعام الفضية، الموروثة عن عائلتها الاسكتلندية، التي لا مجال لبيعها، ولكن يمكن رهنها عند اللزوم. ويسمح لهم هذا بالسكن ستتهم في غرفة واحدة بمنزل في حي شلسي، عنوانه 4، شارع أندرسون بالقرب من كينغز رود. الحي راق، لكن المسكن ضيق. وبما أن أجرته باهظة، فإن كارل يعرف بأنه لن يستطيع دفعها طويلاً. لكنه لا يقلق أكثر اللازم: فلا يمكن لكل هذا أن يستمر، وإذاً لن يستمر.

منذ وصوله، وحتى تكون له قاعدة عمل ولو مؤقتة، يأتي من بروكسل إلى مكان واحد في 20، غريت ويندميلل، بمقر صحيفته، ومقر عصبة الشيوعيين ومقر الجمعية التربوية للعمال الألمان اللذين كانا نقلا من لندن إلى بروكسل منذ عامين. وتحرير الصحيفة يقتصر عليه؛ أما المنظمتان فأصبحتا مجرد شبحين. ولهذا يسعى كارل للتقرب من الذين يودونه حقاً: كالشاعر المصرفي فريليغرات والعامل وولف «لوبوس»،

اللذين تبعاه سابقاً إلى بروكسل أو إلى كولونيا، وعادا معه إلى لندن، يقاسمانه الإهانات ذاتها. ويلتقون جميعاً بعض اللاجئين الفرنسيين، أكثرهم من أنصار لويس بلان، وأعضاء لجنة لإعانة اللاجئين الألمان، يقربهم ماركس من لجنته؛ إذ يعطي فيها دروساً مجانية في الفلسفة، وفي اللغة الألمانية والاقتصاد السياسي، وهو ما يساعده في عقد بعض العلاقات الشخصية.

وتصبح حياته المادية، كما كان يخشى، عسيرة، وعلى جيني أن تفعل المعجزات لتهدئة الموردين. إلا أنه في تشرين الأول / أكتوبر، وفي الوقت الذي لم يعد لدى كارل الوسائل لا لدفع أجرة المسكن ولا لثمن طعام أطفاله، ولا لأجرة الطبيب لامرأته التي توشك على الولادة، يعود فريديريك إنجلز للظهور.

إذ استطاع الشاب – له من العمر تسعة وعشرون عاماً – مغادرة ألمانيا، تاركاً فيها كثيراً من رفاقه قتلى في المعارك، ومنهم أحد أعضاء اللجنة المديرة الأوائل للعصبة، الذي التقي في لندن لدى الرحلة الأولى في 1845: الساعاتي البروسي جوزيف مول. ويرافق فريدريك عدة رفاق في الكفاح، منهم ويلهلم روتيكير، كونراد شرام وأوغست فون ويلليش – وهو ضابط يقدمه على أنه قائده في حملة باد، لكنه مجرد ضابط ضيق العقل، يظن نفسه استراتيجياً عظيماً في الحرب وفي السياسة.

يقيم فريدريك في لندن كي يعمل مع كارل على إعادة إصدار (لانوفيل غازيت رينان)، على الرغم من عائلته التي كانت تريده في مانشستر، في مصنع أبيه النسيجي، بما أنه ممنوع من الإقامة في بروسيا. ومع ذلك، وعلى الرغم من رفضه القفص المذهب في مانشستر، فإن والديه يدفعان له بانتظام مبالغ صغيرة، تسمح له التقليل نوعاً ما من ديون كارل. ويلتقي الاثنان يومياً، سواء في مكتب الصحيفة أم في مسكن كارل أو في مسكن فريدريك، الذي يعيش بطريقة مريحة، وغالباً ما يدعو أسرة ماركس إلى العشاء. بعد ذلك بزمن طويل، سيكتب بول لافارغ

– الذي سيصبح صهراً لكارل – أن «ابنتي ماركس كانتا تدعوانه بأبيهما الثاني. فقد كان (الأنا الأعلى) لماركس».

في 5 تشرين الثاني 1849، تضع جيني غلاماً ثانياً يسمى هنري (المعادل الإنجلزي لهنريش، اسم والد كارل)، إدوارد، غي. فيبحث له عن لقب. وهي اللعبة المفضلة لدى الأسرة. إذ يخصص لقب لكل من أفرادها: جينيشن هي (كوي – كوي) إمبراطور الصين، لولعها بالشرق؛ ولورا «هوتنتوت» أو «كاكادو». أما كارل «فلم يكن ينادى بـ«الأب» بل بـ«المغربي» وهو لقب أعطي له بسبب بشرته السمراء الداكنة، وشعر لحيته ورأسه الفاحم». وبحسب شاهد آخر سيصل قريباً هو، ويلهلم ليبنكنيخت، تنادي جيني كارل أحياناً بـ«طفلي الكبير». وهكذا يلقب الرضيع سريعاً، انطلاقاً من اسمه الثالث، «غيدو» أو «فوكس» [ثعلب] نتيجة للعب على الكلمات حول غي فاوكس، المتمرد الذي أعدم في 1605 لأنه أراد تفجير البرلمان الإنجليزي لدى زيارة الملك جاك الأول له. فأسرة ماركس المؤلفة منذئذ من سبعة أفراد تعيش في غرفة واحدة.

يتوصل كارل إلى تمويل صحيفته (لانوفيل غازيت رينان) من قبل فريدريك، ولكن بوتيرة صدور شهرية فقط، وتتعهد توزيعها في فرانكفورت (نيودوتش زيتونغ)، وهي مجلة صديقه جوزيف ويدماير الذي تمكن من البقاء في بروسيا، معانياً باستمرار من تحرش الشرطة، في ظروف حرجة أكثر فأكثر.

والأزمة الاقتصادية لا تزال سائدة. فيخشى ماركس من اندلاع ثورة قبل الأوان. إذ يكتب في رسالة إلى ويدماير، هذا الضابط السابق الذي التجأ إليه في بروكسل وأصبح ناشراً في كولونيا، بشهر كانون الأول / ديسمبر 1849: «إن أزمة صناعية وتجارية وزراعية تبدأ. وإذا ما أخرت القارة ثورتها حتى هذه الأزمة، يمكن لإنجلترا أن تصبح حليفاً للقارة الثورية. وإذا ما اندلعت الثورة قبل ذلك – إلا إذا كانت بسبب تدخل روسي – ستكون الكارثة، لأن التجارة في كامل توسعها وجماهير العمال

في فرنسا وألمانيا، إلخ ليسوا ثوريين إلا بالكلام». ومع ذلك، فهو مقتنع في قرارة نفسه بأن عليه العودة قريباً إلى العمل السياسي: «أظن أنه ما إن يصدر العدد الشهري الثالث (من مجلتي) حتى يدوي انفجار عالمي، ولن يكون لدي الوقت للعمل على الاقتصاد السياسي..» إذ إنه لا يطيق هذا الصمت وهذا البؤس وهذا الجمود. فهو في الحادية والثلاثين ويرفض أن يحبس في المنفى.

إلا أن التاريخ، في هذه الآونة، يختار شيئاً آخر له: فالأزمة الاقتصادية التي بدأت قبل عامين تنتهي. وبعدما وصلت الأسعار إلى أدنى مستوياتها في 1849، أخذت في الارتفاع نتيجة لاكتشاف مناجم الذهب في كاليفورنيا وأستراليا، ولتطوير شبكات السكك الحديدية. ويزداد مع الأسعار الإنتاج وفرص العمل. وتهدأ النزاعات الاجتماعية. والديكتاتوريات تترسخ مع السوق. فالثورة إذاً ليست قريبة.

يتأكد كارل حينئذ أن الديمقراطية سيطول انتظارها في فرنسا، كما في أي مكان آخر. ويفهم أنه سيكون لديه الوقت الكافي ليعمل على الاقتصاد السياسي في لندن، إذا ما أراد حقاً التوفر عليه، وإذا ما سمحت له ظروفه المادية بذلك. ولكن أين وكيف يقوم ببحوثه، بينما يعيش دون مال، مسؤولاً عن ستة أشخاص، في غرفة واحدة؟

في نص تفوح منه رائحة القداسة، سيشكل علامة على تأسيس «الماركسية – اللينينية»، سيكتب لينين بعد ذلك بوقت طويل – في 1914 – ملخِّصاً هذه الفترة من حياة ماركس: «عندما اختُتمت فترة الثورات 1848 – 1849، وقف ماركس ضد أية محاولة للعب بالثورة، مطالباً بالعمل جيداً في الحقبة التي كانت تهيء، تحت «سلام» ظاهري، ثورات جديدة». والواقع، أنه لا يعطي أوامر وتعليمات إلا لنفسه.

ويستعيد ماركس بهمة دوره رئيساً لتحرير دورية، يجهل إذا ما كان أحد سيقرأها، فيطلب من ويدماير التفضل «بوصف الأحوال في ألمانيا الجنوبية، لمجلتنا، بإيجاز، في خطوطها الكبرى». ويقرر هو أيضاً كتابة

بعض المقالات – وفي البداية، تاريخ الجمهورية الثانية وسقوط لويس – فيليب حتى وصول لويس – نابليون بونابارت إلى الرئاسة. إذ ينوي تطبيق – للمرة الأولى – نظريته في صراع الطبقات على حدث تاريخي قريب وملموس.

لكن الغريب أنه لا يكتب عن السنة الاستثنائية التي أمضاها لتوه في ألمانيا، بل عما لم يعشه إلا لماماً في باريس. لأنه يصر على الاعتقاد بأن مصير أوروبا سيتحدد في فرنسا وليس في بروسيا. ولأنه يعتقد بأنه لا يزال في الإمكان استعادة حريات الجمهورية الثانية، بينما لا ينتظر شيئاً من الوضع فيما وراء الراين.

بين كانون الثاني / يناير وتشرين الأول / أكتوبر 1850، وبينما يقيم أوده في أقصى درجات البؤس بفضل سخاء إنجلز، يفلح ماركس في تحرير ونشر أربعة أعداد من (لانوفيل غازيت رينان). وتحتوي هذه الأعداد بصفة رئيسة أربع مقالات من كارل مخصصة لثورة 1848 في فرنسا: «هزيمة حزيران / يونيو 1848» و«يوم 13 حزيران / يونيو 1849» و«نتائج 13 حزيران / يونيو» و«نابليون وفولد». وتواصل جيني المناقشة والتعليق وإعادة كتابة مخطوطاته غير المقروءة، ثم إرسالها إلى الناشر في فرانكفورت، في مقابل بعض المال. ولن تنشر هذه المقالات في كتاب إلا بعد وفاة ماركس، تحت عنوان (الصراعات الطبقية في فرنسا، 1845 – 1850).

تمثل هذه المقالات فتحاً جديداً: فللمرة الأولى تطبق نظرية صراع الطبقات المعروضة في (البيان) على وقائع تاريخية. ولأول مرة تحلل هكذا محاولة للاستيلاء على السلطة. وهو ما يسمح لماركس بإعطاء تفسيرات اقتصادية واجتماعية لثورة 1848، ولانتخاب لويس – نابليون بونابارت، واقتراع الأرياف لصالحه على نطاق واسع بصفة خاصة. ويستنتج ماركس من هذا أن السلطة الاستبدادية ستتعزز في كل أرجاء أوروبا، وأن لويس – نابليون بونابارت بالخصوص سيسعى للبقاء في

السلطة بعد نهاية فترته الرئاسية، في ظرف ثمانية عشر شهراً. فيجب، لتجنب هذا، عقد تحالفات بين الطبقة العاملة التي لا تزال قليلة العدد، والفلاحين الكثيري العدد، أي بين المدن والأرياف، وليس - كما تمنى ماركس في 1848 بكولونيا - بين البورجوازية والعمال، لتناقض مصالحهما كثيراً.

غير أن هذا التقارب يبدو له بعيد الاحتمال، لأن الفلاحين البونابارتيين لا يعون بأنهم هم أيضاً ضحايا للاستغلال الرأسمالي، وبأن «استغلالهم لا يتميز إلا بالشكل عن استغلال البروليتاريا الصناعية. والمستغِل هو نفسه: رأس المال. فالرأسماليون مأخوذون على حدة يستغلون الفلاحين مأخوذين على حدة بالرهونات والربا. كما تستغل الطبقة الرأسمالية طبقة الفلاحين بوساطة ضريبة الدولة».

ومنذئذ، سيظل ماركس طيلة حياته مهووساً بهذه المسألة الفلاحية التي كانت عندئذ على جانب كبير من الأهمية بسبب عدد سكان الأرياف، وصعوبة إدخالهم ضمن نموذجه للرأسمالية، بسبب إيديولوجيته وطبيعة العمل نفسه القائم فيها. لكنه يرى مع ذلك، أن لويس - نابليون بونابارت سيسعى، دون تحالف طبقي كهذا، إلى تمديد فترة بقائه في الإليزية، حيث نُصب لتوه، ويحكم منه بأسلوب تسلطي أكثر فأكثر.

في المقالين الثاني والثالث، يعطي كارل اسماً جديداً لهذا التحالف الذي يتمناه من كل قلبه بين جميع ضحايا رأس المال. هذا الاسم الذي يستخدمه لأول مرة: هو «ديكتاتورية البروليتاريا». إذ لم يذكر حتى الآن، كما رأينا، في رسالة من السنة الماضية إلا «الديكتاتورية المؤقتة» كمرحلة انتقالية ضرورية نحو الديمقراطية. وهذه الديكتاتورية من نوع خاص بما أنها، كما يعتقد، تتوافق تماماً مع إبقاء مؤسسات الديمقراطية البرلمانية، باعتبار تحالف الطبقات الذي يتمنى رؤيته يستلم السلطة يمثل الغالبية فيها. وكلمة «الديكتاتورية» التي يستخدمها وستفضي، كما سنرى، إلى العديد من التفسيرات الخاطئة، تعني ببساطة أن هذه الغالبية الواسعة لا

يجب أن تتردد في الحكم بحسب مصالحها، دون تنازلات. وهو سيوضح ذلك فيما بعد في ظروف مأساوية.

ولا تحدث الأعداد الأربعة من (لانوفيل غازيت رينان) أي صدى، إذ لا تباع المجلة جيداً. ولا يتم توزيعها في ألمانيا إلا في بعض المكتبات النادرة (المراقبة من قبل الشرطة بالطبع) وعن طريق الاشتراك بثمن مرتفع. أما في لندن، فالقليل من الناس يشترونها، لأن كارل بهجومه كعادته على منفيين آخرين يثني الكثير منهم عن قراءتها. وليس بهذا الأسلوب سيجد ما يسد به حاجات أسرته، ويعرف جيداً بأفكاره.

ويعيد التطرق أيضاً لموضوعات هذه المقالات في بعض الخطابات التي ألقاها أمام آخر الباقين من عصبة الشيوعيين، ثم في آذار / مارس 1850، ضمن نص معنون بفخامة (خطاب إلى السلطة المركزية لعصبة الشيوعيين). يتطرق فيه للمرة الأولى إلى فكرة «تطور - ثورة» و«ثورة دائمة» التي تكون عالمية، تقودها «أحزاب» تمثل العمال، يصفها بأنها متميزة عن الأحزاب البورجوازية. ويلح للمرة الأولى على ضرورة تكوين حزب مستقل، خاص بالطبقة العاملة، لكسب الانتخابات: «ينبغي على حزب البروليتاريا أن يتميز عن الديمقراطيين من البورجوازيين الصغار الذين يريدون إنهاء الثورة بأسرع ما يمكن (..)، وعليه أن يجعل الثورة دائمة حتى تطرد كل الطبقات المالكة قليلاً أو كثيراً من السلطة (..) في كل البلدان الرئيسة في العالم (..). وعوضاً عن أن يحط العمال من أنفسهم مرة أخرى باستخدامهم سنداً للديمقراطيين البورجوازيين، ينبغي عليهم وعلى العصبة بالخصوص العمل على تكوين منظمة متميزة، سرية وعلنية هي الحزب العمالي، وجعل كل «رابطة» مركزاً ونواة للتجمعات العمالية، حيث تناقَش مواقف البروليتاريا ومصالحها بمعزل عن التأثيرات البورجوازية».

وسيتكلم ماركس منذئذ دون كلل عن هذا «الحزب» ككيان، حتى وإن لم يوجد بعد. حزب عالمي حاضر في كل مكان، يجمع كل المكافحين

من أجل الحرية، أي: الحزب - العالَم لفكر العالَم. وسيقول ماركس لاحقاً لماذا هو بحاجة إلى التلويح بهذا التصور لبلورة تطلعات الجميع وعملهم، وللعمل حتى يصير واقعاً بعد خمسة وعشرين عاماً. وكأنه أراد خلق واقع باستخدام الكلمات، أي بقوة الفكر. وسيراه آخرون مهووساً بالمبالغة، يخترع لنفسه سلَطة وتلاميذ ومنظمات في خدمته. وسيتحول كل ذلك في أكثره فعلاً، إلى وقائع شديدة البعد عن تلك التي تخيلها ووصفها.

فاستراتيجيته - حلمه، بالحرى؟ - هي هكذا في مكانها، وتقوم بالعمل على انبثاق أحزاب تمثل العمال في كل مكان، لكن أحزاب علنية وليست سرية، والانخراط حيثما يكون ذلك ممكناً في اللعبة الديمقراطية. فتفكيره عالمي بجلاء، ولا يهم إن كان هو نفسه مجبراً على الإقامة في لندن: «أنا مواطن عالمي، وأعمل حيثما أوجد»، سيقول.

يبقى تهيئة قوام العقيدة الذي يسمح بإقناع العمال، حيثما يكونون، بصحة هذه الاستراتيجية، ومنعهم من التحالف مع الطبقة الوسطى، على غرار الإنجليز. وهذا ما سينشغل ماركس به بقية حياته.

والمصادفة العجيبة، هي أنه في اللحظة نفسها بالضبط، في آذار / مارس 1850، وفي الوقت الذي يعيش في لندن كثوري من بين أكثر الثوريين ملاحقة في أوروبا، وكمنبوذ بائس، يصبح أخ جيني غير الشقيق فرديناند فون ويستفالن في برلين، وزيراً للداخلية في حكومة شديدة الرجعية، عقب محاولة اغتيال فريدريك غليوم الرابع «الرومانطيقي الجالس على العرش» الذي منحه صداقته، وكان كارل توقع هذا التعيين عندما كان في الماضي يغيظ زوجته بقوله «إن أخاها من الحمق بما يكفي ليصير وزيراً».

وبالفعل، لم يتوقف فرديناند قط عن كراهية زوج أخته، مع أنه لا يكاد يعرفه، لكنه بذل قصاراه لإبعاده عن جيني قبل زواجهما. ومن أول قراراته إرسال أفضل عملائه لمراقبة الرعايا الألمان في الخارج، والمنفيين في لندن بالخصوص. حتى إنه يكتب إلى نظيره البريطاني السير جورج

غراي، وزير داخلية صاحبة الجلالة، لتحذيره بالاسم من صهره، «إنه رجل خطير ويشكل تهديداً على حياة الملكة». فيرد عليه الوزير البريطاني برسالة ملأى بالتهكم: «إن مجرد نقاش حول قتل ملك، طالما لم يتعلق بملكة إنجلترا، وطالما لم يكن ثمة مشروع محدد، لا يشكل في ظل قوانيننا سبباً كافياً لتوقيف متآمرين».

ولدى ملاحظته لتشدد الوضع في بروسيا كما في فرنسا، يدرك ماركس أنه باقٍ لوقت طويل في لندن ولا شك. وعلى الرغم من أنه لا يستخدم في بيته وفي العصبة إلا اللغة الألمانية، فهو يسعى لتحسين لغته الإنجليزية لكي يستطيع كتابتها، بل واستخدامها يوماً ما في صحف إنجليزية: فمهنة الصحافي تظل الوحيدة التي يتخيل ممارستها ما إن تسمح له لغته الإنجليزية بذلك. «لقد بحث عن كل التعبيرات الخاصة بشكسبير وصنفها؛ وعمل الشيء ذاته بالنسبة لجزء من الأعمال السجالية لويليام كوبيت الذي كان يكن له الكثير من الاحترام». (كوبيت عندئذ صحافي ملتزم يطوف ممتطياً حصانه على الأرياف الإنجليزية لفضح بؤسها في كتابات تنشر غالباً على نفقة المؤلف). ويصبح الاسكتلندي روبرت بورنز أحد شعرائه المفضلين. كما يقرأ أيضاً (توم جونز) لهنري فيلدينغ و(أولد مورتاليتي) لوالتر سكوت. وبما أن جيني مزدوجة اللغة عن طريق أمها الاسكتلندية (التي بقيت في تريفز)، فقد تقرر التحدث منذئذ بالإنجليزية في المنزل مع الأطفال الذين يشجعون على حفظ بعض مسرحيات شكسبير عن ظهر قلب منذ سن الرابعة أو الخامسة.

ومع تعليقه أهمية أقل فأقل على اجتماعات المنفيين المتباعدة حيث تزدهر السجالات والأوهام، فإنه لا يزال يحضرها. وهكذا يسهم في نيسان / أبريل 1850 بتأسيس «الجمعية العالمية للشيوعيين الثوريين»، التي تتلاشى منذ أول أيلول / سبتمبر دون أن يتم التحقق من وجودها الفعلي.

وكان يود أيضاً لو يستطيع الاهتمام جدياً بمجلته والانهماك أخيراً في كتاب الاقتصاد الضخم الذي يجتره منذ ثمانية أعوام والذي وقع لأجله عقداً وتسلم عربوناً، قبل ثلاثة أعوام. ويلزمه لهذا، فصفصة حركية الاستثمار والعمل والابتكار، وبالخصوص وقع هذا الاكتشاف الغريب الذي هو متأكد من أنه سيحدث ثورة في العالم، ويسميه «الشرارة الكهربائية». لكنه للعمل في كل ذلك، يحتاج إلى حد أدنى من الراحة. والحال أنه لا يتوفر على أي شيء منها في الغرفة الضيقة التي يتكدس فيها سبعة أشخاص. ولا يتمكن حتى من مواجهة النفقات الجارية لعائلة بهذا العدد؛ وعدم قدرته على تأمين حياة لائقة لأطفاله يعذبه. فيقترض لشراء الغذاء والملابس واللعب والمهد والأدوية والورق والكتب والتبغ. والديون تتراكم مقترنة بفوائد باهظة. ويتردد الدائنون أكثر فأكثر في قرع باب الغرفة الحقيرة في شلسي؛ وعلى ماركس عندئذ اختلاق الأعذار والذرائع، وإزجاء الوعود، ودفع عربون، والسعي للاقتراض من إنجلز، من ناشره، من أمه - التي يكتب لها عدة مرات بهذا الشأن - أو من أصدقائه. دون جدوى في غالب الأحيان.

وكما هو منتظر، في 15 أيار / مايو، بعد عشرة أشهر فقط من السكن، يعجز ماركس عن سداد الكراء، فتطرد الأسرة من الغرفة الضيقة التي تشغلها في شلسي، وتوضع الأسِرَّة والأغطية والملابس واللعب وحتى مهد الصغير غيدو الذي ليس إلا في الشهر السادس من عمره، وصحته سيئة، تحت الحراسة ثم تباع «على عجل للدفع للصيدلي والخباز والجزار والحلاب، الذين لفت انتباههم ضجيج المحضرين، فحاصرونا فجأة بفواتيرهم». تكتب جيني لجوزيف ويدماير في 20 أيار / مايو، طالبة منه بهدوء كبير ووقار إرسال حصيلة بيع المجلة بأسرع وقت، إذا ما كنت هناك من حصيلة.

فيغطي إنجلز الديون الأكثر إلحاحاً، لتنتقل الأسرة إلى كوخ حقير في أسوأ الأحياء صيتاً بالمدينة، هو سوهو، في شارع دين، الذي سيلقبه

كاتب سيرة جيني بـ«شارع الموت». وسيكتب كارل نفسه فيما بعد أنه في هذا الشارع «تحطمت حياته». وسنفهم قريباً لماذا.

بعد أيام من هذا الانتقال، تكتب جيني من جديد لويدماير مطالبة على الفور بإيراد المجلة. فترجوه دون المرور بأي وسيط، إرسال «كل شيء، هنا، مهما كان المبلغ صغيراً (..). فالأحوال هنا ليست كألمانيا؛ إذ نعيش ستة (لا تعد هيلين مع أنها معهم) في غرفة صغيرة وملحق ضيق ندفع فيهما أكثر مما يدفع في منزل كبير بألمانيا، ويتوجب الدفع كل أسبوع. وإذاً، لك أن تتخيل وضعنا إذا ما وصل تالر فقط متأخر يوماً واحداً. فهي بالنسبة لنا جميعاً مسألة خبزنا اليومي». كما ترجوه أيضاً أن يتكلم عن مجلة زوجها ومقالاته في مجلته الخاصة، «حتى لنقدها»، لأن هذا سيسمح بالتعريف بها وببيع بعض الأعداد.

وكارل يخشوشن، فهو يعلم منذئذ أنه سيعاني وعائلته من ظروف الطبقة العمالية، في الوقت نفسه الذي لا ينتمي إليها. وكأنما لتهيئة نفسه لعواقب البؤس، يسعى لإبعاد كل اعتبارات عاطفية عن حياته وعمله؛ ولكن أيضاً إلى عدم الشكوى أبداً، والدراسة بموضوعية. والبقاء بقدر الإمكان غير مكترث بفقره أو بفقر الآخرين. إذ يلاحظ أحد المقربين منه: «العمل من أجل الإنسانية» كان أحد تعبيراته المفضلة. فهو لم يأت للشيوعية لاعتبارات عاطفية، مع أنه كان شديد الحساسية لعذابات الطبقة العاملة، إنما لدراسة التاريخ والاقتصاد السياسي. وكان يؤكد أن أي فكر محايد لا تؤثر فيه مصالح شخصية أو لا تعميه أحكام طبقية مسبقة لا بد له أن يصل إلى الاستخلاصات التي وصل إليها نفسها».

ولا يخرج كارل عندئذ من بيته إلا قليلاً، للذهاب إلى مكتب الصحيفة الصغير أو لحضور أحد اجتماعات جمعية التربية العمالية الألمانية. وهناك، في منتصف 1850، وبمناسبة عيد الصيف لمن بقي من هذه الجمعية، يتعرف على لاجئ جديد ألماني في الخامسة والعشرين،

وصل لتوه، هو يلهلم ليبكنيخت، الخارج من سجن سويسري. ومثلما يفعل مع كل قادم جديد، يخضعه كارل لفحص قبول، متأملاً إياه من رأسه إلى قدمه بنظرة صارمة، خشية أن يكون جاسوساً كالجواسيس الذين تعج بهم المدينة. «لقد أطلت النظر في عيني هذا الرجل برأس الأسد، والنظرة السوداء كالفحم». سيتذكر ليبكينخت. إن الشاب يثير اهتمام كارل – وهو ليس أكبر منه بكثير – لكنه يتساءل عما إذا كان بإمكانه الثقة فيه. وكما يحدث غالباً، يلتمس عندئذ رأي فريدريك. فيستدعي في اليوم التالي لهذا اللقاء المهاجر الجديد إلى مكتبهما. ليجد ليبكنيخت فيه إنجلز، الذي صادفه في جنيف السنة الماضية عندما التجأ هذا إليها قبل أن يحمل السلاح. وكان على ليبكنيخت عندئذ أن يدفع عن نفسه تهمتي الجوسسة و«الديمقراطية البورجوازية الصغيرة»، ثم تهمة «عاطفية جنوب ألمانيا». وما إن انتهى الامتحان حتى تحول الحديث إلى التقدم التقني. ويتملك ماركس الحماس، وندرك من قراءة ما سيقوله ليبكنيخت عنه فيما بعد، كيف كان يسحر بالكلام كل من كان يقترب منه: «لقد سخر من رد الفعل المنتصر في أوروبا، الذي يتخيل أنه انتهى من الثورة، ولا يدرك أن العلوم تهيء لثورة أخرى. فسيادة صاحب الجلالة البخار انتهت وسيستبدل بها ثوري أكثر قدرة هو الشرارة الكهربائية! وعندما كان ماركس يتحدث عن هذا التقدم في العلوم وفي الميكانيك، كانت رؤيته للعالم (وبخاصة ما سمي فيما بعد التصور المادي للتاريخ) تُظهر بوضوح جعل بعض الشكوك الباقية في نفسي تذوب كما يذوب الثلج تحت شمس الربيع».

وفي الآونة نفسها ببرلين، يصوغ كلوزيوس المبدأ الثاني للحركية الحرارية [التيرموديناميك] الذي يؤسس كل نظرية الآلات المستعملة للطاقة، ويقدم قاعدة نظرية لفكرة أن كل واقعة منظمة مصيرها إلى الانحطاط. وماركس الذي لم يأخذ علماً بها بعد، يعمل على ما سيصبح النظرية الموازية في زوال الرأسمالية المحتوم، ففكرة

الانحطاط المحتم للمجتمعات تظهر هكذا في الوقت ذاته لنظرية الانحطاط المحتم للمادة.

وقد كان نجاح ويلهلم ليبكنخت باهراً في «الامتحان» إلى الحد الذي دعي فيه - وهي خطوة نادرة - إلى التعرف على زوجة كارل وابنتيه وابنيه في كوخهما الحقير بسوهو. «منذئذ أصبحت، كما يقال، من الأسرة»، سيكتب فيما بعد، حتى إنه سيُستعمل عند اللزوم لحراسة الأطفال الذين كان شديد الحب لهم: «لقد كان للسيدة ماركس تأثير علي في مثل قوة تأثير ماركس نفسه ربما. فقد ماتت أمي وأنا في الثالثة من عمري (..). وهأنذا ألتقي سيدة جميلة، حساسة وشديدة الذكاء، كانت لي أماً وأختاً في آن».

في منتصف آب / أغسطس 1850، تذهب جيني مع الأطفال الأربعة إلى أمها في تريفز، حتى تروح عنهم قليلاً، ولكن أيضاً لتأتي ببعض المال الذي تركته هناك، ولم تستطع الحصول عليه على الرغم مما بذلته من جهد. ويحصل أخوها غير الشقيق، وزير الداخلية لها على تأشيرة ويحميها. إذ سيبقي فريديناند عيناً من الحماية دائماً على أخته غير الشقيقة. ولا يمكن استبعاد توقفها في الطريق لدى إحدى أخواتها التي تعيش بالقرب من ماستريشت مع زوجها المصرفي الهولندي ليون فيليبس. ولكونها ملحدة مثل كارل، واشتراكية مثله، ومستعدة لكل شيء لمساعدته في مواصلة معركته، فإن جيني شديدة التصميم عندئذ على مواصلة العيش في لندن.

فيبقى كارل في لندن عندئذ مع هيلين ديموت. ولن تعود جيني إلا في أيلول / سبتمبر، ومعها بعض المال. وتحكي أنها رأت في تريفز أم كارل وأخواته، وأن الجميع في بروسيا يتخوفون من حرب ستنشب بين النمسا وبروسيا. والواقع أن فريدريك - غليوم الرابع وإمبراطور النمسا الجديد فرانسوا - جوزيف الأول، يريدان في غضون ذلك توحيد ألمانيا كلٌ لمصلحته، وأذعنا لإعادة الاتحاد الجرماني الوهمي، الذي ترأسه

النمسا بصفة رمزية، وأضحى واضحاً أنه لن يكون ثمة توحيد حقيقي للإمارات الألمانية إلا عندما تصفى المنافسة بين برلين وفيينا بالحرب.

وفي الوقت الذي يحرر كارل مقالاته حول ثورة 1848 في فرنسا، ويكافح من أجل نشر مجلته وتوزيعها، يمضي بعضاً من وقته نافد الصبر ومغتاظاً، في الاجتماعات الأسبوعية للسلطة المركزية للعصبة، في الكوخ المضاء ببعض الشموع. إذ يلتقي فيها شرام، وولف، فريليغرات، إنجلز وآخرين. ويرافق هذا الأخير دائماً أوغست فون ويلليش، قائده العسكري السابق خلال حملة باد. وكارل ساخط بالخصوص لأن عليه تحمل هذا المتمرد الزائف، والمتبجح الحقيقي الذي يحرض المهاجرين الألمان على العودة تهريباً إلى بروسيا، ويحيك مؤامرات خيالية، وهو ما يسمح للشرطة البروسية التي سَرَّبت جواسيس إلى العصبة، بتوقيف أصدقاء لكارل في كولونيا، قدمهم ويلليش باعتبارهم «اتصالات» له. فيهاجمه ماركس في مقال بصحيفته (لانوفيل غازيت رينان) وخلال أحد هذه الاجتماعات، في 1 أيلول / سبتمبر، ينعت الضابط بأنه «ابله أمي، وزوج مخدوع أربع مرات». فينتفض ويلليش ويتحداه للمبارزة، فيتدخل إنجلز. لكن كارل يرفض القتال. فيحل كونراد شرام محله، ويجرح من قبل ويلليش جرحاً بليغاً في رأسه.

ويكرر في عدد تشرين الأول / أكتوبر من (نوفيل غازيت رينان) - الذي يتضمن مقاله الرابع حول ثورة 1848 -، وكأنما يرد على ويلليش، أن من الحماقة الإسراع في الهجوم على أوروبا، لأن الثورة لا يمكن أن تقوم إلا عندما تعود الأزمة إليها. والحال أنها ستعود: إذ إن «(الثورة) غير ممكنة إلا في الفترات التي تدخل فيها قوى الإنتاج الحديثة وأشكال الإنتاج البورجوازية في تصارع(..). ولن تكون ثورة جديدة ممكنة إلا عقب أزمة جديدة. والأولى مؤكدة تأكد الثانية».

في هذه الأثناء، نهاية صيف 1850، يفر الشاعر كينكل الذي كان قاتل تحت قيادة ويلليش، وقبض عليه، وحكم عليه بالسجن المؤبد من قبل

محكمة عسكرية، من السجن، ويفلح في مغادرة الأراضي البروسية إلى إنجلترا (حيث يصبح مناصراً متحمساً لويلليش ضد ماركس). فترد السلطة البروسية بتشديد الضغط ضد الأوساط الليبرالية والتقدمية. إذ يطالب فريدريك - غليوم الرابع في رسالة بتاريخ 11 تشرين الثاني / نوفمبر 1850 المستشار بأن تعاقب محاكمة علنية مدوية وتكون عبرة لمن يعتبر المتآمرين. وهكذا أُمر رجال شرطة وقضاة المملكة باكتشاف المؤامرة، وإذا لم يكشفوا عنها، باختراع واحدة.

ولدى تفتيش منزل شخص يدعى نو تيونغ، عثر على نسخة من (بيان الحزب الشيوعي) (الذي لم يكن الاحتفاظ به يشكل مخالفة، ويمكن الحصول عليه بصفة قانونية من المكتبات) وقائمة بأشخاص وُضعوا في الحال قيد التوقيف والملاحقة بتهمة التآمر. وعلى الرغم من تحقيق واسع النطاق، لم يعثر على أي وثيقة مُورطة، لا سيما أن الهدف الذي سعت إليه عصبة الشيوعيين، هو تشكيل حركة سياسية شرعية وعلنية.

وسنرى أن كارل سيحاول، بعد سنتين، التدخل في القضية التي لفقت لأصدقائه في كولونيا الذين قبض عليهم هكذا.

في تشرين الثاني / نوفمبر 1850، الخير السعيد الوحيد هو نشر (بيان الحزب الشيوعي) مترجماً إلى الإنجليزية لأول مرة في نيويورك، إذ يملأ عدة صفحات من صحيفة اشتراكية نيويوركية متواضعة هي (رد ريبو بليكان) [الجمهوري الأحمر]، ويحمل اسم المؤلفين: كارل ماركس وفريدريك إنجلز. وهي الترجمة الأجنبية الأولى لأحد أعمال ماركس. فلن تظهر أي ترجمة أخرى قبل عشرين سنة. ولن يقبض المؤلفان عنها أي حقوق.

وكما خطر له قبل سنوات، يفكر ماركس عندئذ من جديد في الهجرة إلى أمريكا ونقل مجلته إلى هناك. فيمضي أحد أصدقاء إنجلز، وهو روتيكير - أحد الذين أسهموا معه في التمرد بباد، وعادوا إلى لندن معه - إلى نيويورك لتهيئة الأرضية.

لكن البؤس، كما كان يخشى كارل وجيني، يفعل فعله: ففي 19 تشرين الثاني / نوفمبر، وعلى الرغم من جهودهما، يتوفى ابنهما الثاني هنري، الملقب بـ«غيدو» إثر التهاب رئوي، وعمره أقل من عام، في كوخهما غير الصحي البارد في سوهو، وهو أول طفل يفقدانه، وسيفقدان غيره في هذا الشارع ذاته. وبحملها من جديد، تتحدث جيني عن «مصيبة كانت تنتظرني، في مواجهتها تلاشى كل شيء في العدم». فيحول كارل كل حنانه عندئذ إلى إدغار الذي يبلغ ما يناهز السنتين. إذ يتخيل أنه سيستعيد معه قريباً العلاقة الحميمة التي كانت له مع أبيه. كما يدرك أنه يسير مع فريدريك إلى إعادة تكوين العلاقة التي كان من الممكن أن تكون له مع هيرمان، أخيه الصغر المتوفى، الذي كان من الممكن له أن يكون في سن فريدريك.

بعد أيام من وفاة غيدو، يتلقى كارل وهو لا يزال في شدة الحزن رد روتيكير: إن حالة اللاجئين المادية أسوأ بكثير في نيويورك منها في لندن. ولا مجال لتأسيس صحيفة ألمانية فيها إلا في حالة المجيء مع الكثير من المال. فيجب عليهم إذاً البقاء في لندن، والانتظار هناك، حدوث شيء ما في فرنسا أو في ألمانيا.

أما إنجلز، فلشدة اضطرابه من بؤس صديقه، ومن وفاة غيدو بالخصوص، يرضى بتضحية كبيرة: إذ يتخلى عن العيش في لندن، ويذهب إلى مانشستر للعمل في مصنع أبيه، وفريدريك يعتقد ولا شك أن الحياة في لندن شديدة الصعوبة والثورة جد بعيدة. لكنه يدرك دون شك أيضاً أنه لن يكون الند الفكري لكارل أبداً، ويقرر بوضوح وضع نفسه في خدمته: وهكذا سيكسب بعض المال، ويفيد كارل بجزء من راتبه ومن تحويلاته. وسيحدث هذا القرار تأثيراً قوياً على حياة هذا وذاك. حتى وإن كان أتباعه، سيسعون فيما بعد لوضعهما على قدم المساواة، فإن فريدريك يقدر بأنه لا يحظى بقدرات صديقه الفكرية الهائلة. وبمغادرته لندن ليشغل وظيفة رب العمل التي يمقتها، يتخلى إنجلز عن كونه مؤلفاً

بين مؤلفين آخرين، لتمويل واحد يعرف أنه فريد، وإذ أصبح «حصان طروادة في القلعة الرأسمالية»، فإنه سيزود ماركس علاوة على ذلك بمعلومات هامة لعمله النظري، وسيعود أغلب الأحيان إلى لندن للنقاش معه. وسيكتب الرجلان منذئذ أحدهما للآخر يومياً تقريباً، لعشرين سنة. وليس ثمة مثال آخر، في تاريخ الأفكار، على تضحية كهذه. ولن يُعيد فريدريك النظر فيها أبداً، حتى وإن كلفته الكثير.

ومنذ كانون الأول / ديسمبر، يؤمن فريدريك لكارل، من مانشستر حيث يعيش أفضل بكثير منه في لندن، 15 جنيهاً في المتوسط شهرياً، أي ما يزيد عن أجرة متوسطة لعامل يدوي، وهو ما يسمح لأفراد أسرة ماركس ولهيلين ديموث القيام بأودهم، وهو تغيير ملحوظ في الظروف بما يضمن للأسرة بعض الاستقرار. وبالفعل، فإن الشاعر فريليغرات الذي غادر كولونيا وقت مغادرة كارل لها في وضع أسري مشابه لوضعه، ويكسب كموظف في مصرف أقل من 200 جنيه في العام، يؤكد أنه «لم يفتقر إلى الحد الأدنى الضروري». لكن كارل لا ينوي أن يكتفي أطفاله بـ«الحد الأدنى الضروري». ففي كانون الثاني / يناير 1951، وبفضل ما يرسله إليه فريدريك بانتظام الآن - على شكل أوراق نقدية مقسومة إلى نصفين، توضع في مغلفين مختلفين - وما أتت جيني به من تريفز، تنتقل الأسرة إلى شقة أكثر راحة من غرفتين في 64 من شارع دين ذاته. لكن كارل يصر على وصف هذا الوضع بأنه «لا يزال جد فظيع».

لا سيما أن هيلين ديموت حامل هي الأخرى، بالإضافة إلى جيني! وليس بمقدور أي شخص أن يجعلها تعترف باسم الأب! وكارل، من جهته، يواصل العمل والكتابة دون التفكير في أي شيء آخر. إذ يكتب أحد زواره في كانون الثاني / يناير 1851 لإنجلز: «عندما يقوم أحد بزيارته، لا يستقبل بالتحيات، بل بمقولات اقتصادية!».

وحتى يعمل بصورة أفضل في كتاب الاقتصاد الذي تعاقد عليه منذ ستة أعوام، يكتشف، طبقاً لنصيحة إنجلز، مكتبة المتحف البريطاني.

حيث يتمتع بالهدوء والدفء اللذين يفتقدهما مسكنه الصغير الذي يشهد بين المرأتين الحاملين بعض الاحتكاكات. ويلتقي فيه منفيين آخرين، يلتمسون مصادر تسمح بكتابة ما يعتقد كل منهم بأنه «الكتاب الذي سيغير مصير العالم».

يدرس كارل فيه النقد والأجر ورأس المال والاستثمار وأحوال العمال المعيشية: «كان يذهب إليه صباحاً باكراً، حيث يبقى حتى الساعة 19، ويعود إلى بيته، يتعشى، ويعمل في مكتبه وهو يدخن». ولن تشكو جيني أبداً من عدم حصوله على وظيفة مأجورة في مكان ما. وهو مولع أكثر فأكثر بالاقتصاد، وأقل فأقل بالعمل السياسي. إذ عندما يستقبل في مقر العصبة الخاوي غالباً، زيارة جونز، زعيم الميثاقيين الذي جاء يكلمه عن الديمقراطيين الأخويين الذين يرغب في تحويلهم إلى جمعية دولية اجتماعية - ديمقراطية، لا يعيره كبير انتباه. فهو مأخوذ أكثر بكثير بقراءة وصف رحلة السفينة التجارية (بلازر)، التي تضع أول كبل تلغرافي في قاع البحر، بين دوفر وكاليه، في صحيفة (التايمز)، إذ ها هنا الثورة الحقيقية! كما يعتقد. آه! لو كان يستطيع التحدث بالتلغراف مع إنجلز، كم من الوقت سيوفر!

في 28 آذار / 1851، تولد في المسكن الضيق فرانزيسكا، خامسة أطفال الزوجين، وطبقاً لإحصاء 30 آذار، يعيش فيه عندئذ أربعة بالغين (كارل، جيني، هيلين وأختها ماريان التي جاءت لمساعدتهم، وتدفع والدة جيني أجرها أيضاً) وأربعة أطفال (البنات الثلاث والابن الباقي لماركس)؛ ويدفعون 22 جنيهاً سنوياً كمستأجرين من الباطن. وهيلين لما تكشف عن اسم والد الطفل الذي تنتظره.

في الغد، أي بعد ثلاثة أيام من ولادة ابنته، يكتب كارل بمثابة إبلاغ لفريدريك بأنه انتهى من قراءة كل ما كان متوافراً للقراءة فيما يتصل بالاقتصاد، وأنه سئم من العمل فيه: «أنا في النقطة التي سأنتهي فيها بعد خمسة أسابيع من قذارة الاقتصاد هذه. وبعد هذا سأهيىء كتابي

عن الاقتصاد في المنزل، وسأتفرغ في المتحف لدراسة علم آخر. إذ بدأ الاقتصاد يضايقني. فهذا العلم لم يتقدم في حقيقة الأمر منذ آدم سميث ودافيد ريكاردو، على الرغم مما أنجز في دراسات معزولة، شديدة الدقة غالباً». ويأتي في هذه الرسالة على ذكر «لغز» يقوم إنجلز فيه، كما يقول، بدور. لكنه لا يعود إليه في رسالته التالية، بل يقول لفريدريك بأنه سيحدثه عنه مشافهة لدى زيارته المنتظرة في نيسان / أبريل. وسنرى قريباً بأي لغز يتعلق الأمر.

ويرد عليه إنجلز بتهكم، ولكن أيضاً بكثير من الحنو والفطنة: «ما دمت منهمكاً في قراءة كتاب يعد هاماً، فلن تستطيع التفرغ للكتابة». ذلك أنه يعرفه جيداً! وبالفعل، يواصل كارل القراءة، ولا يعكف على الكتابة بعد.

في 1 أيار / مايو من هذه السنة 1851، يلمح كارل مرفوقاً بجيني وابنتيهما الكبريين، وسط جمهور لا يحصى، عن بُعد، الملكة فيكتوريا والأمير ألبيرت اللذين جاءا لافتتاح المعرض العالمي الأول، تحت القبة الزجاجية المهيبة لقصر البلور، الذي بني خصيصاً للمعرض في هايد بارك. ويكتشف كارل فيه المكابس الهيدروليكية الضخمة، والمطابع القادرة على طبع 5000 نسخة في الساعة من صحيفة (إيلّو ستراند لندن) والقاطرات التي تستطيع بلوغ 100 كلم في الساعة، وآلة داغير الفوتوغرافية. واستقبل المعرض ذلك الصيف ستة ملايين زائر. حتى إن مجموعة من النيويوركيين قدموا إليه في رحلة منظمة من قبل أول «وكالة للسياحة» أنشئت تلك السنة في ليسيستر من قبل مجهول هو، توماس كوك.

ومغتنماً فرصة تدفق الجمهور على المعرض، يرسل أخ جيني غير الشقيق إلى لندن أفضل عملائه، وهو ويلهلم ستيبر، رئيس مصالح بسمارك السرية المستقبلي، وهو من رجال الشرطة الصارمين، وسيطارد كما سنرى، ماركس بكراهيته طوال الربع قرن التالي. والرجل هنا

لاختراق اجتماعات عصبة الشيوعيين؛ فيصل إلى 20، غريت ويندميل، ويقدم نفسه كأحد المتعاطفين. ويحبط بمهارة كل إجراءات المراقبة، حتى إنه يدعى إلى بيت ماركس في الشقة البائسة بسوهو، حيث لا يُستقبل إلا المخلصون.

وكارل يعلم مع ذلك أنه يراقَب، إذ إنه يندد في رسالة وجهها آنذاك إلى مدير صحيفة (سبيكتاتور)، بمراقبة «جواسيس بروسيين في لندن». لكنه ينخدع بستيبر ويستقبله في بيته كمناضل. فيرسل الجاسوس في تقاريره السرية في برلين وصفاً مفصلاً لحياة أسرة ماركس تلك الفترة. وهو وصف جد انتقادي يرمي إلى إرضاء رؤسائه ربما: «إنه [ماركس] فوضوي جداً في حياته الخاصة، وصفيق، ومُضيف منفر. يعيش حياة بوهيمية، ونادراً ما يغتسل ويبدل ملابسه التحتية. يسكر بسهولة. يتسكع غالباً طوال النهار؛ لكن، إذا ما كان لديه عمل، ينكب عليه ليلاً نهاراً. ليست لديه أوقات محددة للنوم وللاستيقاظ. وغالباً ما يظل ساهراً طوال الليل حتى الصباح، ثم ينام نحو الظهر على كنبة، بملابسه الكاملة، حتى المساء، دون الالتفات إلى الغدو والرواح من حوله. وما من قطعة أثاث في شقته. كل شيء مكسر، مغطى بالغبار، في فوضى عارمة. في وسط الصالون طاولة كبيرة مغطاة بنوع من السماط. عليها مخطوطات وكتب وصحف وقصاصات قماش ممزقة متبقية من خياطة زوجته، وفناجين شاي مخدوشة وملاعق قذرة وسكاكين وشُوَك وشموع ومحابر وكؤوس وغلايين ورماد التبغ؛ كل ذلك متفرق على الطاولة ذاتها». ويضيف: «ما إن يدخل المرء بيت ماركس حتى تهاجَم عيناه بدخان الفحم والتبغ كما في قبو، إلى أن تعتادا على الظلمة، وتبدأا في تمييز الأشياء عبر الدخان (..). ويدعى الزائر للجلوس، لكن كرسي الأطفال لم يكن قد نُظف، فيجازف بتوسيخ سرواله به. وكل هذا لا يسبب أي حرج لماركس ولا لزوجته». ويختم الجاسوس بأن الرجل يظل خطيراً، وأنه محاط برفاق مستعدين لأي

شيء لخدمته؛ ذاكراً منهم فريدريك إنجلز الذي يعيش في مانشستر ويأتي كثيراً لرؤية ماركس، ولوبوس وولف.

لكن صورة أخرى لضيافة أسرة ماركس ستعطى فيما بعد من قبل الذي سيصبح أحد أصهارها: «لقد تمتع عدد كبير من عمال كل البلدان بضيافتها الودية، وأنا مقتنع بأنه ما من أحد منهم خطر على باله قط أن تلك التي كانت تستقبلهم بهذه الحفاوة والبساطة، تنحدر عن طريق أمها من عائلة الدوق دارجيل، وأن أخاها كان وزيراً لملك بروسيا..»».

في هذه الآونة، يتفاقم وضع آخر الديمقراطيين البروسيين: فالكثير منهم اعتقلوا، وهم يقبعون غالباً في السجن لسنوات دون محاكمة. وجوزيف ويدماير، صديق بروكسل، وناشره في فرانكفورت، المهدد بالمصير ذاته، يتخلى عن مجلته، ويغادر ألمانيا إلى نيويورك كي يؤسس فيها دورية جديدة، يريد تسميتها (الثورة). وهذا ما يضع حداً لتوزيع النسخ الباقية من (نوفيل غازيت رينان). وهو الموت لهذه المجلة التي ولدت في فرانكفورت في خضم المعركة، قبل ثلاثة أعوام. وهكذا لم يعد لكارل صحيفة يعبر عن نفسه فيها.

في 23 حزيران / يونيو 1851، تضع هيلين ديموت مولوداً ذكراً، والمفاجأة هي أن إنجلز يعترف بأبوته للطفل الذي سمي فريدريك لويس، ووضع لدى حاضنة على نفقته. بعد سنوات طويلة، ستزعم لويز فريبرجر – كوتسكي (آخر مدبرات منزل إنجلز، التي ستقوم، كما سنرى، بدور هام في النزاع على حيازة مخطوطات ماركس بعد وفاته) أن إنجلز يكون اعترف لها وهو على فراش بأن والد الطفل لم يكن سوى كارل ماركس. بينما ستلتزم هيلين الصمت بهذا الشأن طوال حياتها. ولن يفعل ماركس أي شيء للطفل الذي سيرفض إنجلز رؤيته، وينتهي أبناء ماركس بعد وفاة أبيهم، إلى عده أخاهم غير الشقيق، حتى وإن كان هو نفسه وقد غدا عاملاً ومناضلاً اشتراكياً، لن يعرف شيئاً أبداً عن أصله. أما جيني فتكتفي في ملاحظاتها الموجزة حول سيرتها الذاتية، بالقول: «في مطلع

صيف 1851، وقع حدث لن أسهب فيه». وبالفعل، لن تقول جيني أي شيء أبداً. وإذا كانت بداية الحمل في نهاية أيلول / سبتمبر، فهذا يرجح أبوة ماركس، لأن جيني في تريفز عندئذ. ولا يمكن لإنجلز أن يكون الأب إلا إذا كان الطفل خديجاً بدأ الحمل به في نهاية تشرين الأول / أكتوبر، لأن إنجلز كان في لندن آنذاك. وتستأنف هيلين خدمتها ما إن يفطم الطفل.

وانتشرت الشائعات حول ولادة غير شرعية بسرعة في أوساط المنفيين. «سفالة لا توصف!» يكتب ماركس، بعد شهر بالكاد، إلى ويدماير المقيم في نيويورك، والذي نما الحدث إلى علمه. ويندد كارل في الوقت نفسه بكل الافتراءات التي يتناقلها «أعدائي ضمن اليسار الديمقراطي. التي لا يجب حتى أن تذكر!» لأن هذه الشائعة ليست إلا واحدة من الأقاويل التي تثقل كاهله يومذاك: فهو متهم باحتقار البروليتاريا، والإعجاب بالأرستقراطية، وحياكة كل أنواع المؤامرات الوهمية، واختلاس أموال ليعيش حياة بورجوازية. وتكتسي بعض هذه الاتهامات صبغة معادية للسامية، حتى إن بعضها يستخدم اللقب الذي أعطي له من قبل أصدقائه وأبنائه «المغربي» كأسلوب في الإشارة إليه كيهودي. وحتى إنه اتهم بالتعاون مع (نوفيل غازيت بروسيين) [الصحيفة البروسية الجديدة]، وهي صحيفة محافظة في برلين، فيرديناند فون ويستفالن الذي لا يزال وزيراً للداخلية، عضو في لجنة تحريرها. ويقول عنه آخرون إنه عميل بروسي متسلل إلى الأوساط الثورية! وتنشر هذه الافتراءات في صحف لندن الألمانية التي تسهب أيضاً في أوهام العلاقات الممتازة التي يزعم أن ماركس يقيمها مع أخ زوجته. وما إن يسمعها كارل حتى يرد بعنف، ويتحدى للمبارزة تلك السنة، دون أن يكون لديه أقل تدريب على استعمال السلاح، ثلاثة من المشنعين عليه، ومنهم محرر صحيفة انتقدته. لكن الثلاثة يعترفون بذنبهم ولا تحصل المبارزات.

وفي كل مكان بأوروبا، تؤكد أحداث نهاية 1851 نبوءة كارل في مقالاته حول 1848: فالثورة انهزمت ولوقت طويل.

ففي بروسيا، يُلغى الدستور الليبرالي؛ وتحدد إقامة المعارضين؛ كما تلغى حريتا الصحافة وتكوين الجمعيات؛ وتلغى الحقوق الأساسية التي منحت في 1848. وما من أمل في عفو يسمح لماركس بالعودة إلى الوطن.

كما يتلاشى آخر أمل في العودة إلى القارة، عندما يحل لويس - نابليون بونابارت في ليلة 1 إلى 2 كانون الأول / ديسمبر الجمعية الوطنية، «بؤرة المؤامرات»، لأنها ترفض مراجعة الدستور ليسمح له بإعادة الترشح لرئاسة الجمهورية. وفي 3 كانون الأول / ديسمبر تنصب المتاريس في العاصمة الفرنسية؛ ويقتل نائب لمنطقة الإين في ضاحية سانت - أنطون، وهو يصيح: «سترون كيف نموت من أجل 25 فرنكاً!»، وهو مبلغ المنحة اليومية للبرلمانيين. ويطلق الجنود النار على المتظاهرين، فيقتل 200 منهم في الجادات الكبرى. كما تنشب اضطرابات أيضاً في مناطق نييفر، هيرو، فار، وباس - ألب، لكنها تظل هامشية، لأن الفلاحين يبقون متعلقين بالذكرى النابليونية.

ويتابع كارل هذه الأحداث بانفعال شديد. إذ يرى فيها تأييداً لما كتبه: فدون تحالف وثيق بين العمال والفلاحين، لن تؤول أية ثورة إلا إلى الإخفاق. وهذه الثورة تفشل كسابقتها.

وأكثرية النواب الجمهوريين، ومنهم فيكتور هوغو يعتقلون ويُبعدون من بين 27.000 معتقل، ينفى منهم 4000 ويغادر هوغو فرنسا. وفي 20 كانون الأول / ديسمبر 1851، يؤيد سكان الأرياف في غالبيتهم الساحقة الانقلاب، ويُفوَّض لويس نابليون بصلاحية وضع دستور جديد، يعهد له بالسلطة لعشر سنوات.

ويرى كارل في هذا التأكيد التام لما كان توقعه في سلسلة مقالاته حول ثورة 1848: ففي فرنسا كما في بروسيا، بما أن العمال لم يعرفوا كيف يتحالفون مع الفلاحين، وضعت سلطة استبدادية حداً لتباشير الليبرالية. لكن ابتهاجه الفكري لا يمنعه من إدراك أنه محصور الآن لمدة

غير محدودة في بلاد لا يحسن التكلم بلغتها بعد، ويموت فيها جوعاً بمعنى الكلمة.

ويتلقى من جوزيف ويدماير، المقيم في نيويورك، رسالة في كانون الثاني / يناير 1852، يقترح عليه فيها أن يكتب للصحيفة الأسبوعية التي ينوي إصدارها قريباً باسم «الثورة» حكاية انقلاب 1851، مثلما فعل من قبل بالنسبة لثورة 1848 في الصحيفة التي كان يوزعها ويدماير. ويُحدَّد لها أجر زهيد. فيقبل كارل، ويرسل إلى نيويورك كل أسبوع حتى بداية آذار / مارس 1852 مقالاً؛ لكن المقالات السبعة سيجمعها ويدماير للنشر في مقال واحد بعنوان (18 برومير[*] للويس - نابليون بونابارت). وتهتم جيني، كما جرت العادة، بإرسالها - على نفقة الناشر - بعد أن تنسخها وتناقشها. ومع أنها بشكل مقالات صحافية إلا أنها تشكل مرة أخرى نصاً نظرياً عظيم الأهمية.

فمثلما فعل في سلسلة مقالاته السابقة، ينوي كارل تفسير الإنقلاب بصراع الطبقات. إذ يبدأ بهذه الجملة الشهيرة: «يكتب هيجل في فقرة من أعماله أن كل الأحداث الكبرى وشخصيات التاريخ العظيمة تتكرر مرتين. لكنه نسي أن يضيف: في المرة الأولى كمأساة، وفي الثانية كمهزلة». ثم يبين أنه كما أضعفت الأزمة العالمية في 1847 البورجوازية، فإن الازدهار المستعاد عززها؛ وأن الطريقة التي أخفقت بها الثورة تثبت ثانية، بأن الدولة ليست، كما كان يظن هيجل و«الاشتراكيون الحقيقيون» الألمان - رفاقه الأوائل - هي الحافظة للمصلحة العامة والضامنة لها، بل الأداة للطبقة المهيمنة؛ وأن الفلاحين الذي أمن انشقاقهم هزيمة الجمهورية، سيصابون يوماً ما بخيبة الأمل من هذا نفسه الذي حملوه إلى سدة الحكم؛ وأنهم سيدركون أن لهم مصالح العمال ذاتها، وبأنهم خصوم الأعيان الريفيين المتحالفين مع رأس المال: «إن مصالح الفلاحين

---

[*] برومير، الشهر الثاني من التقويم الجمهوري (تشرين الأول / أكتوبر - تشرين الثاني / نوفمبر). المترجم.

لم تعد تتفق مع مصالح البورجوازية ومصالح رأس المال، كما كانت الحال في عهد نابليون الأول؛ بل على العكس، فهي تتعارض معها (..). ولهذا يجد الفلاحون حليفاً طبيعياً ومرشداً في بروليتاريا المدن، التي قدرها أن تقلب النظام البورجوازي».

«حليفاً ومرشداً»: وهكذا يُعلَن دور الدليل المنوط بالطبقة العاملة، طبقة الأقلية، في الطليعة من التقدم الصناعي، لكنها مستغلة في المقام الأول. فعلى هذه الأقلية يعتقد ماركس دوماً أن عبء قيادة الثورة يقع، حتى وإن لن يقوله ثانية. وحتى إنه لن يفكر قط بأن الطبقة العاملة أو الحزب الذي يمثلها ينبغي عليهما احتكار السلطة. لكن إنجلز ثم لينين فيما بعد سيأخذان بهذا الاختيار.

وإذا ما تنبأ بأن الإمبراطورية ستسقط يوماً ما، فإنه يخشى أن يصادَر انتصار البروليتاريا نتيجة لعجزها عن التحالف مع الفلاحين. وبصفة أكثر دقة، يبين أنه عندما تسقط الإمبراطورية، تقوم أولاً جمهورية برلمانية ستستحوذ على الدولة وتضعها في خدمة البورجوازية؛ وأنه لا يمكن لثورة عمالية أن تنتصر فيما بعد إلا إذا تحالف عمال المدن مع ملاك الأرياف الصغار؛ ومع الفلاحين ومع التجار «لحشد ضد الدولة، كل قوى التدمير هذه» و«وتحطيم جهاز الدولة الذي لم تفض كل هذه الثورات السياسية إلا إلى تحسينه»، فمهمة القادة البروليتاريين تقوم إذاً على خلق الوعي لدى العمال بمصيرهم، بإنشاء أحزاب جماهيرية توطئة لتكوين تحالف واسع، وغالبية في الحكومة تضم كل الشرائح المستغَلة من السكان.

وهكذا يقوم ماركس بتحليل مضيء وتحذيري، لما سيحدث في فرنسا بالفعل بعد عشرين عاماً، أي سقوط الإمبراطورية وقيام جمهورية بورجوازية، وتمرد العمال الباريسيين، وإخفاق ثورتهم لعدم تمكنهم في الوقت المناسب من ضم الفلاحين ونخب الأقاليم. وتلك هي الكومون (La Commune).

كما يكتب بأسلوب تنبؤي: «في اليوم الذي يسقط المعطف الإمبراطوري أخيراً من على كتفي لويس بونابارت، سينهار، تمثال نابليون البرونزي من أعلى عمود الفاندوم». وبعد عشرين عاماً ستتحقق بالضبط هذه النبوءة، وستنشأ، كما كان توقع، الأحزاب الجماهيرية الأولى، وهو شيء لم يكن معقولاً في 1852.

ثم إن هناك هذه الجملة الجميلة والغامضة، بل العظيمة بما تعلن عنه: «ليس في الماضي، بل فقط في المستقبل ستتمكن الثورة الاجتماعية في القرن التاسع عشر من العثور على منبع شاعريتها».

وكارل واعٍ بقيمة ما يكتبه هنا. وفي آخر مقالاته في 5 آذار / مارس 1852، يصف الجديد الذي باستطاعته تقديمه للتحليل الاجتماعي: «إن الفضل لا يعود إلي في اكتشاف وجود الطبقات في المجتمع الحديث ولا الصراع فيما بينها. فقبلي بكثير، كان مؤرخون بورجوازيون وصفوا التطور التاريخي لصراع الطبقات هذا، ووضح اقتصاديون بورجوازيون آلياته الاقتصادية. لكن الجديد الذي جئت به، كان، 1- التدليل على أن وجود الطبقات ليس مرتبطاً إلا بمراحل تطور تاريخي محدد للإنتاج، 2- وأن صراع الطبقات يقود حتماً إلى ديكتاتورية الطبقة الكادحة؛ 3- وأن هذه الديكتاتورية نفسها لا تشكل إلا فترة انتقالية إلى إلغاء كل الطبقات، وإلى مجتمع دون طبقات.

وينشر (18 برومير) بكامله في 20 أيار 1852 باللغة الألمانية في نيويورك، على صفحات العدد الأول من (الثورة) التي نجح ويدماير في إصدارها، بفضل نصير ظل مجهولاً. وما من صحيفة واحدة في العالم تشير عندئذ إلى نشره.

بعد سبعة عشر عاماً - أي قبل الكومون(*) بعام، سيروي ماركس

(*) الكومون: محاولة ثورية (18 آذار / مارس - 27 أيار / مايو 1871)، قامت بها الأوساط العمالية، لتسيير الشؤون العامة، في إطار بلدي، دون اللجوء إلى الدولة، في باريس. وقد قضي عليها عقب محاصرة العاصمة من قبل الجيش، وكان القمع وحشياً. (المترجم).

في مقدمة طبعة ثانية لهذا النص، قصة إخفاق هذه المقالات؛ ويغتنم الفرصة لانتقاد هوغو وبرودون اللذين كتبا، بنجاح أكبر منه بكثير، حول الموضوع نفسه: «أرسلت بضع مئات النسخ منه إلى ألمانيا آنذاك، لكن دون القدرة على عرضها في المكتبات، إذ أجابني صاحب مكتبة يعد نفسه راديكالياً تقدمياً، عندما اقترحت عليه توزيعها، مبدياً فزعه العنيف من مقترح كهذا «في غير أوانه» (..). ومن بين المؤلفات الصادرة في الفترة ذاتها تقريباً التي تتعرض للموضوع نفسه، يستحق اثنان فقط التنويه: (نابليون الصغير) لفيكتور هوغو، و(الانقلاب)، لبرودون، فيكتفي فيكتور هوغو بشتائم مريرة وذكية ضد الفاعل المسؤول عن الانقلاب؛ ويبدو له الحدث نفسه كبرق في سماء صافية؛ إذ لا يرى فيه إلا مكيدة من فرد. وهو لا يدرك أنه بهذا يعظم من قدره عوضاً عن الحط منه (..). أما برودون فيحول البناء التاريخي للانقلاب إلى تبرير لبطل الانقلاب (..). بينما أبين من جهتي كيف خلق صراع الطبقات في فرنسا ظروفاً ووضعاً سمح لشخص تافه وسخيف بأن يبدو بطلاً».

بُعيد موت ماركس، سيكتب إنجلز عن هذا النص بتباهٍ مبرر تماماً هذه المرة: «كان عملاً عبقرياً، فبعد الحدث الذي فاجأ كل العالم السياسي كوميض برق في السماء الصافية (جملة ماركس في كلامه عن هوغو)، وذُم من قبل البعض مع صيحات الاستهجان العفيفة، واستقبل من قبل الآخرين كفعل يأتي بالخلاص خارج الثورة، وكعقاب على الاضطراب الذي تسببت به، وكان مثاراً للدهشة والحيرة لدى الجميع، يقدم ماركس عنه عرضاً قصيراً، تهكمياً (..). ومن أجل هذا، كان لا بد من المعرفة العميقة بتاريخ فرنسا التي كانت لدى ماركس». وسيضيف لافارغ: «لم يكن يكتب إلا (..) مع الإرادة الثابتة لإعطاء أساس علمي للحركة الاشتراكية التي كانت، حتى ذلك الوقت، تهيم في ضبابيات الطوبائية».

وكارل يعرف أن منفاه سيستمر منذئذ وقتاً طويلاً. فيتكلم في ذلك مطولاً مع جيني: إذ يجب أن يتهيئا للبقاء في لندن وسط البؤس، في هذا

البلد الذي كل شيء فيه غريب عنهما، مع أربعة أطفال لم يستحقوا هذه المعيشة الضنكة، معرضين لخطر أن يلقى أحدهم مصير غيدو. ترى هل هي مستعدة؟ ألا تفضل العودة لدى أمها، في تريفز، مع الأطفال؟ حيث سيستفيدون من رفاهية بيئة عائلية آمنة، مع أخ وزير، فترفض غاضبة، لأنه فكر حتى في هذا الحل. وليس عليه إلا أن يكتب أكثر، وينشر أكثر، ويواصل المعركة. إذ هي منذئذ معركتها أيضاً. وهي مستعدة لها. ولا يجب عليه أن يستسلم. وهي هنا بقربه. أهو بحاجة إليها؟ إنها لا تطلب أكثر من هذا.

بعد عدة أيام، والبرد شديد، وهم من الفقر بحيث يكتب ماركس إلى إنجلز بأنه لم يعد يستطيع الخروج من بيته لأن معطفه مرهون، ولم يعد يستطيع شراء اللحم للأطفال، لأن الجزار لم يعد يبيعه بالدين. حتى إنه لم يعد يتمكن من إرسال ابنتيه الكبيرتين إلى المدرسة، أو تلقي أي معونة للاحتفاظ بالصغيرين، ولا شراء كتب، ولا حتى مهد وملابس وأدوية لفرانزيسكا، الطفلة الأخيرة المريضة على غرار إدغار، الذي بلغ الآن الخامسة من عمره تقريباً، والذي بدأ كارل في تعليمه أبياتاً شعرية باليونانية والألمانية والإنجليزية. ولا يفتأ يخترع حيلاً لإبعاد الدائنين، مستخدماً حتى أطفاله لخداعهم، ويحاول دون كلل الحصول على معونة من والدته أو من أصدقائه. وإنجلز فقط إلى جانبه. منتظم لكنه غير سخي بالقياس إلى ثروته.

في هذه الأوقات العصيبة، لا مجال للكتابة ولا للقراءة ولا للتفكير. ولم تعد العصبة تثير اهتمامه. فالمهم فقط هو الحفاظ على بقائه وبقاء أطفاله.

في تلك السنة - 1852 - وكما تنبأ ماركس، كان لويس - نابليون بونابارت الذي أصبح نابليون الثالث محظوظاً؛ فالاقتصاد ينمو؛ ويعطي أرباب العمل عملاً للعمال؛ والتجار يُثرون؛ والفلاحون يهدأون. والسلطة تمسك بالصحافة؛ وأتباع سانت - سيمون يتحالفون مع النظام ويؤسسون

مصرف القرض العقاري الفرنسي؛ ويؤسس بوسيكو مخازن البون مارشيه الكبرى. ووضع الجمهوريين سيء إلى الحد الذي يمنع فيه نابليون الثالث اللحية غير المشذبة، باعتبارها علامة على تجمع الثوريين.

في 14 نيسان / أبريل تبلغ شدة البؤس وقساوة البرد حداً يودي بحياة فرانزيسكا وهي في الشهر الثالث عشر من عمرها: فكانت طفل ماركس الثاني الذي يتوفى في هذا الشارع، بعد ثمانية عشر شهراً من غيدو. وليس لدى كارل حتى ما يقدم لها به نعشاً. فيضطر بعد وقت وجهد طويلين إلى اللجوء إلى كرم جار له فرنسي ظل اسمه مجهولاً. وجيني، في ذكرياتها الرصينة والبسيطة، تكتب: «لم تحصل (فرانزيسكا) عندما أتت إلى هذا العالم على مهد، وحتى مثواها الأخير أنكر عليها لوقت طويل».

وفي رسالة التعزية، يعبر إنجلز عن ألمه لفاقة أسرة ماركس، وللظروف الصحية المؤسفة التي أفضت إلى موت الطفلة، متأسفاً لعدم قدرته في فعل المزيد لهم.

ولم يعد كارل يحتمل، فيقع فريسة المرض، بصفة جدية، لأول مرة. «إن الأزمات الدُّملية والكبدية، وآلام الأسنان، والالتهابات العينية ثم الرئوية تتزايد». لكنه يستعيد قدرته على المقاومة، معززاً قواه، ومهتماً بالأطفال الباقين لديه، وبإدغار بالخصوص الذي يستعيد معه العلاقة التي أقامها قديماً مع أبيه: «إنه يهتم بابنتيه وابنه ذي الخمسة أعوام. فهو شديد الحب له ويلقبه بـ«الكولونيل موش» (ذبابة باللغة الألمانية) تنويهاً بقصر قامته، وبتكتيكاته العظيمة في خداع الدائنين». وتظل جيني مطمئنة؛ فحينما تسوء حالة كارل، تتكفل هي بأمور البيت، ولا تعود إلى اكتئابها وتقيئها ووساوسها إلا عندما يكون كارل على ما يرام.

وبينما هو في الدرك الأسفل من الفقر، يتلقى ماركس مقترحاً مدهشاً، مؤداه أن يصير مراسلاً في لندن لصحيفة الولايات المتحدة الأولى، (نيويورك دايلي تريبيون) وهي أيضاً الصحيفة الأكثر مبيعاً في

العالم، إذ تبيع 200.000 نسخة. فشارلز دانا - الذي التقاه في باريس منذ ثلاثة أعوام، عندما كان مراسلاً في فرنسا للصحيفة ذاتها - عين لتوه رئيساً لتحريرها في نيويورك؛ ويقرر الاهتمام بالقراء الألمان الذين سيهاجرون، كما يعتقد، بكثرة إلى الولايات المتحدة، بسبب القمع السياسي والركود الاقتصادي في بروسيا. لهذا، ونظراً لذكرى الانطباع الجد قوي الذي تركه لديه ماركس في باريس، يقترح عليه أن يكون مراسلاً له في لندن: إذ سيتمكن كارل من الكتابة عما يشاء، حينما يشاء، على أن يُدفع له أجر مقال كل أسبوع على الأقل؛ والمزيد إذا ما نشرت مقالاته. ويشرح له دانا أن الأجر الذي ستدفعه له (نيويورك دايلي تريبيون) لا يتناسب مع التقدير الذي تكنه الصحيفة «لأعظم المتعاونين معها قيمة»، لكنه سيتلقى جنيهاً واحداً على كلٍ من مقالاته الأولى، ثم جنيهين، وربما حتى ثلاث جنيهات فيما بعد.

ويستهوي الاقتراح ماركس بالطبع: فها هو أخيراً دخل منتظم - يضاعف ما يدفعه له إنجلز - لعمل صحافي حقيقي، بالإنجليزية. وما كان له قط أن يصدق أن هذا ممكن، حتى وإن كانت جيني تطلب منه دائماً السعي لعمله. لا سيما أن (نيويورك دايلي تريبيون) هي الصحيفة الأكثر ليبرالية في أمريكا، وليس معيباً بالنسبة له الكتابة فيها. إذ أسس الصحيفة منذ عشرة أعوام، عامل مطبعة سابق أصبح صحافياً، هو هوراس غريلي، من أتباع فورييه وهوثورن وإيمرسون، وساند التجربة القصيرة لمنشأة بروك فارم الاشتراكية بالقرب من بوسطن. ويعمل في هذه الصحيفة اليومية أفضل فريق من الصحافيين في الولايات المتحدة، ذوي المستوى السياسي والأدبي العالي، مع مراسلين ممتازين في أوروبا. ويتردد كارل قليلاً: فهو لا يحسن بعد الإنجليزية بشكل كافٍ للكتابة مباشرة بها. فيقترح عليه إنجلز - هو ثانية - مراجعة مقالاته وتصحيح صياغتها مجاناً. وبلغ من حماسه أنه يرجو كارل حتى، بأن يسمح له بالكتابة، باسم ماركس، مقالات في الاستراتيجية العسكرية - فكرته

المتسلطة - دون أجر. ويقبل ماركس، وينهمك بالعمل، حتى وإن تذمر من الطابع السطحي لما يطلب منه، آملاً سراً - إضافة إلى المال الذي سيكسبه - في إثارة اهتمام جزء من ألمان أمريكا بقضيته.

وبالفعل، يعبر نصف مليون من الألمان (من صيف 1851 إلى ربيع 1852) كما توقع شارلز دانا الأطلسي، مدفوعين بالبؤس وبالقمع السياسي.

وقد زادت المصائب التي نزلت على كارل (وبخاصة فقده اثنين من أطفاله خلال بضعة أشهر) من صلابة طبعه. إذ لم يعد ذلك الشاب المرح، الطموح والمتفائل الذي كانه في برلين، وباريس، بل وفي بروكسل. ولا رئيس التحرير المناضل المتجهم لأول صحيفة يسارية في ألمانيا. فيخشن، ويفقد صبره، ويرى جواسيس في كل مكان - بحق غالباً - ويشعر - وهو على حق أيضاً - بأنه يضيع وقته مع أغبياء. وهكذا يمضي أشهراً مع إنجلز وهو يقذف بأحمال من الشتائم المنفيين الألمان في لندن، وواحداً منهم بصفة خاصة هو كينكل، الفار الشهير من سباندو. وينتج كل هذا (رجال المنفى العظماء) الذي يُرسل مخطوطه إلى ناشر ألماني، فيقع بين أيدي الشرطة البروسية، ولا ينشر. وهكذا تضيع أشهر من العمل دون جدوى!

في آب / أغسطس 1842، تنشر (نيويورك دايلي تريبيون) المقال الأول لماركس الذي يستلم أول جنيه دخلاً له. وكان ذلك عيداً في البيت. وبما أن أجره على المقال، فإنه لن يتوقف عن الكتابة في كل الموضوعات: كالحياة السياسية الإنجليزية، والاتجاه الميثاقي والإضراب، وإسبانيا، وروسيا، والمسألة الشرقية، والهند، والصين، والجزائر، وستكون، كما سنرى، نصوصاً شديدة الأهمية، أسهل بكثير على القراءة من كتبه. وبما أنه لا يكن، إزاء مقالاته، التحفظات التي يكنها إزاء نصوصه الفلسفية أو الاقتصادية، فإنه يفترق عنها دون صعوبة، ودون أن يعيد فيها النظر إلى ما لا نهاية.

في تشرين الثاني / نوفمبر 1852، يضيق كارل ذرعاً بإضاعة وقته في السياسة. فيقرر عندئذ عمل ما كان يفكر فيه منذ وقت طويل، أي: حل بقايا عصبة الشيوعيين والتفرغ فقط لأعماله النظرية. وعصبة الشيوعيين كانت تلاشت إلى الحد الذي لم ينتبه فيه أحد إلى حلها.

ويستأنف عندئذ مشروع الكتاب الموعود به ذلك الناشر في دار مستات منذ ثمانية أعوام. لكن في رأسه الآن عملاً عظيماً يتضمن نقداً للاقتصاد السياسي وتحليلاً علمياً لنمط الإنتاج الرأسمالي. وينتوي هكذا، جمع كل البحوث التي قام بها منذ وصوله إلى باريس في 1843، حول الاغتراب والاستغلال وطبيعة الرأسمالية، وأزماتها، والطريقة التي يمكن بها تفسير حركات التاريخ بوساطة علاقات الملكية، لينشرها أخيراً. ويستخدم لهذا الملاحظات التي راكمها منذ سنوات حول «الملكية البورجوازية» التي يعرفها الآن بأنها «القدرة على تسخير عمل الغير بالاستحواذ عليه».

ويريد بالخصوص تفسير السبب الذي يجعل الرأسمالية محكوماً عليها في رأيه بالانهيار، ما إن تصير عالمية؛ ولماذا لا يمكن للثورة أن تصمد إذا ما بقيت محصورة في بلد واحد. وما قرأه لدى الاقتصاديين - قرأ كل شيء، كما يظن - لا يفيده تقريباً في شيء، لأنه لا يجد فيه أي تفسير للطبيعة العميقة لإنتاج الثروة، ولا للصلة بين الاقتصاد والسياسة.

ويفكر فيما سيكون عليه المجتمع «الشيوعي» ما إن تختفي الرأسمالية، فيعرفه بـ«إلغاء الملكية الفردية» لتكوين مجتمع من «كائنات حرة ومتساوية»، و«بشر جدد»، «أحرار»، «أغنياء بالحاجات». وسيكون العمل فيه «ليس وسيلة للعيش فقط، إنما الحاجة الحيوية الأولى (..)، حيث يصير خلاقاً بتخفيض مدته وباختياره الحر». ويستعيد ماركس هنا فكرة، عرضها من قبل في مؤلفه (الإيديولوجية الألمانية) في 1844: «سيكون الشيوعي حراً في فعل شيء اليوم، وفعل شيء آخر غداً، إذ

يمارس القنص صباحاً، وصيد السمك بعد الظهر، ويربي الحيوانات مساء، دون أن يصير قناصاً أو صياداً للسمك أو راعياً».

ولا تبدو له ظروف الانتقال من الرأسمالية إلى الشيوعية موضوع دراسة عاجل؛ ذلك أنها بالنسبة له سترتبط بالظروف الاقتصادية والسياسية، وإذن بالزمان والمكان. فلا يمكن لها أن تشكل موضوعاً لنظرية عامة. إذ يكتفي كارل بالقول إن الوصول إلى هذا المجتمع المثالي يتم بـ«قفزة» من «حكم الضرورة» إلى «حكم الحرية» الذي يسميه الآن «الديكتاتورية الثورية للبروليتاريا»، دون أن يوضح مضمونه، فيما عدا تأكيده، كما فعل في سلسلة مقالاته حول ثورة 1848، بأن الواجب، حيثما يكون ذلك ممكناً، استخدام مؤسسات الديمقراطية لإقامة سلطة الأكثرية، بوساطة لعبة الأحزاب. ولن يغير رأيه أبداً حول هذه النقطة والكثير غيرها، على الرغم من المآسي السياسية والشخصية التي سيكون عليه اجتيازها: فلأنه صحافي قبل كل شيء، تبدو له حرية الفكر الأقدس بين جميع الحقوق؛ ويجب، بالنسبة له، حماية الديمقراطية البرلمانية مهما حدث، حتى وإن لم تحصل الغالبية الاجتماعية على الأغلبية السياسية.

حتى أنه يجعل من نفسه علناً، في الآونة ذاتها، المحامي عن بعدين جوهريين للديمقراطية الليبرالية هما: حرية الصحافة واستقلال القضاء. إذ يحتج، في 12 تشرين الثاني / نوفمبر من هذه السنة 1852، عندما يحاكم عدد من أصدقائه الشيوعيين الألمان، رفاق مغامرة 1848 الذين اعتقلوا نهاية السنة التالية - بعضهم نتيجة للوشاية اللاإرادية لويلليش - قبل أن يتمكنوا من الهرب، في كولونيا باعتبارهم «شيوعيين» لأنهم كانوا من أصدقائه في 1849، ثم تراسلوا معه. فقد استطاع أحد الملاحَقين وهو فرديناند فريليغرات تجنب الاعتقال في آخر لحظة بالهرب إلى لندن، ويحاكم غيابياً؛ بينما فاتت الآخرين هذه الفرصة، ويتعرضون لخطر كبير. وهكذا يرسل كارل في 20 تشرين الثاني /

نوفمبر إلى عدة صحف بريطانية وأمريكية بالألمانية والإنجليزية مقالاً طويلاً، ينشر في 29 تشرين الثاني / نوفمبر في صحيفة (مورنينغ أدفيرتيسير) ثم بنسخته النهائية في 10 كانون الأول / ديسمبر في صحيفة (نيويوركر كريمينال - زيتونغ) للاحتجاج على انتهاكات حقوق الدفاع التي تشوب هذه المحاكمة: «ثمانية عشر شهراً ضاعت في السعي للحصول على أدلة في هذه المحاكمة. وفي هذه الأثناء، احتجز أصدقاؤنا، دون كتب ولا عناية صحية ولا ظروف للاستفادة منها. ولم يكن لهم الحق في رؤية محاميهم، خلافاً للقانون. (..) وألفت هيئة محلفين مكونة من ستة نبلاء رجعيين، وأربعة من كبار المتمولين واثنين من الإدارة. قدمت لهم الأدلة، وبالخصوص دليل أتى من لندن، هو محضر اجتماعات لجمعية سرية يرأسها الدكتور ماركس الذي كان المتهمون في تراسل معه (..)؛ وظهر أن هذا المحضر مزور. وكذلك خط ماركس. ومع ذلك اعتبروا مذنبين بتهمة الخيانة العظمى، تطبيقاً بأثر رجعي لقانون عقوبات جديد!».

ويصدر الحكم، ثقيلاً: إذ سيمضي أصدقاء ماركس سنوات طويلة في السجن. فيثور ماركس ويقرر عندئذ طبع كراسة عن القضية بعنوان (خفايا قضية الشيوعيين) لتوزيعها في ألمانيا. وحتى لا يعد هذا النص دعوة للثورة الفورية، يحذر إنجلز في المقدمة أصدقاءهما من خطورة التسرع في العمل، ومن أن يكونوا «مضطرين للقيام بتجارب شيوعية، وبقفزات إلى الأمام، نعلم أكثر من أي أحد آخر إلى أي حد تأتي في غير أوانها. ففي هذه القضايا، يفقد الناس رؤوسهم (عقولهم) - لنأمل أن لا يصدق هذا الأمر بالمعنى المادي - و(..) لا يعدون فقط كحيوانات شرسة (..)، بل زيادة على ذلك كحمقى، وهو أسوأ».

ومرة أخرى، ستصادر الكراسة التي طبعت في بال (سويسرا) بكاملها، لدى وصولها إلى ألمانيا من قبل الشرطة، ولن يعلم عنها أحد شيئاً.

في 10 كانون الثاني / ينـاير، وبينمـا يفتتـح فـي لنـدن أول خـط للميترو، كان كارل مريضاً من جديد، وكالعادة مفلساً. إذ لا يقدر على دفع تكلفة إرسال رسائله. وحتى يقدم الحد الأدنى لأسرته، يضطر للكتابة في الصحف. مقالات مناسبات، فـي (نيويـورك دايلـي تريبيـون) تـدر عليـه منذئذ 150 جنيهاً في العام، وهي مقالات تناقشها جيني تدريجاً معه قبل أن تنسخها وترسلها.

ويكتب كارل أيضاً في صحافة اليسار، مجاناً أكثر الأحيان ودون ذكر اسمه. فعلى سبيل المثـال، يـرد علـى روج، صديقـه وشـريكه فـي بـاريس، المسموح له بالعودة إلى برلين، الذي يلومه لأنه لا يساند ذكرى باكونين الذي لا يعرف أحد ما آل إليه بعدما اعتقل قبل ثلاثة أعوام في بروسيا، ونقل إلى النمسا، ثم إلى روسيا. كما يكتب أيضاً في صحف شتى: كـ(بيبلز بابر) صحيفـة الميثـاقيين، وصحـف باللغـة الألمانيـة (فولـك، نيـو أودر زيتونـغ، ألجيمينـين أوغسـبورغ زيتونـغ، لاريفـورم)؛ ويشـارك فـي موسـوعة (نيـو أميريكان أنسيكلوبيديا التي يديرها دانا)؛ وحتى في صحيفة من إفريقيا الجنوبية (زويد أفريكان). يصدرها صحافي هولندي، هو يان كارل يوتا، الذي تزوج لتوه شقيقته لويز، وجاء لرؤيته برفقتها إلى لندن، في طريقه لمدينة الكاب. ويروي أحد الحاضرين في عشاء مع لويز وكارل، «أنها لم تكن تطيق كون أخيها زعيماً للاشتراكيين، وكانت تؤكد بحضوري على واقع انتمائه لعائلة محام محترم، يقدره الجميع في تريفز».

وماركس بكتابته هكذا في كل هذه الصحف المختلفة، يدرك أنه كان بإمكانه ربح الكثير من المال بإنشاء وكالة صحافة لو كان فكر فيها من قبل؛ لكن الأماكن أخذت، كما يعتقد، وهو يتأسف على هذا ويكتبه لإنجلز: «لو كنا عملناها في الوقت الملائم، لما كنت محصوراً في مانشستر، تتعذب في مكتبك، وأنا هنا تعذبني ديوني!» وسنرى أنه على خطأ، وأن يهودياً ألمانياً آخر هو جوليوس رويتر، سينطلق قريباً في هذه المغامرة في لندن، بنجاح.

في هذه الأثناء، يتزوج نابليون الثالث في 20 كانون الثاني / يناير 1853، أوجيني دو مونتيجو التي تدفعه باعتبارها كاثوليكية تقية إلى إرسال جيش لتأمين حماية الأراضي المقدسة التي كانت تحت الحماية العثمانية. لكن قيصر روسيا نيقولا الأول، الذي ينوي هو الآخر التعهد بهذا، يقترح تحالفاً على إنجلترا لاقتسام الإمبراطورية العثمانية، «رجل أوروبا المريض»، طبقاً لقول الدبلوماسي الروسي، ألكسندر غورتشاكوف. والحكومة البريطانية التي يرأسها عندئذ المحافظ أبيردين ثم بالميرستون، تتردد. أما كارل فهو معادٍ من جهته لهذا التحالف الإنجليزي - الروسي، مثلما كان دائماً لكل ما يمكن أن يعزز السلطة القيصرية التي يعدها السند الأول للديكتاتورية الألمانية. ولا يؤمن بتحالف إنجليزي - فرنسي ضد روسيا، لأنه لا «نابليون المزيف» ولا وزير الخارجية الجديد بالميرستون، لديهما حقاً النية لضرب قلب العملاق الروسي. ويتوصل نتيجة لفحص متأن لوثائق وزارة الخارجية، ولمحاضر البرلمان الإنجليزي الصادرة منذ القرن الثامن عشر، وللتقارير الدبلوماسية التي اطلع عليها في المتحف البريطاني، إلى الاقتناع بأن الإنجليز والروس، منذ عهد بطرس الأكبر، لم يتوقفوا عن التفاهم فيما بينهم سراً.

في نيسان / أبريل من هذه السنة، يوقع ماركس حول هذا الموضوع على مقال لصحيفة (نيويورك دايلي تريبيون) كتبه جزئياً مع إنجلز أيضاً: «إذا ما استحوذت روسيا على تركيا، ستزداد قوتها النصف، وستتغلب على كل أوروبا متحالفة. وسيشكل حدث كهذا مصيبة لا توصف للقضية الثورية». وسيكون هذا، أحد المقالات الأخيرة التي يشترك الصديقان في كتابتها. لأن كارل، انطلاقاً من حزيران / يونيو 1853، يتقن الإنجليزية بشكل يسمح له بالكتابة مباشرة بها، ويقتصر عمل فريدريك على مراجعتها. إذ سيكتب لافارغ أن «لغة أجنبية (بالنسبة لكارل) هي سلاح للكفاح من أجل الحياة». فيقرأ عندئذ الوصف المخيف لحياة الطبقة العاملة الإنجليزية الذي أورده شارلز ديكنز لتوه في (الأوقات الصعبة)،

وبخاصة لكوكتاون، نموذجاً للمدن العمالية، حيث يجد ظروفه البائسة ذاتها.

وبينما يتفاقم التوتر بين روسيا وتركيا، يجمع ماركس الوثائق - من المتحف البريطاني دائماً - حول استعمار الهند، من أجل مقالات مخصصة لـ(نيويورك دايلي تريبيون). وهي أيضاً طريقة له لفهم عقلية الفلاحين التي تحيره، ولمقاربة المجتمعات القديمة من أجل فهم حركية ولادة الرأسمالية. وهكذا يكتب في 25 حزيران / يونيو، مقالاً أول حول الاستعمار، عنوانه «الهيمنة البريطانية على الهند»، وهو نص جد هام حول المجتمعات السابقة على الرأسمالية: «لم يكن في آسيا، منذ أزمان سحيقة، سوى ثلاثة أقسام إدارية: قسم المالية، أو نهب الداخل؛ وقسم الحرب، أو نهب الخارج؛ وقسم الأشغال العامة أخيراً (..). ففي مصر وفي الهند كما في بلاد ما بين النهرين وفي بلاد فارس، تفيد الفيضانات في تخصيب التربة؛ فيستفاد من منسوب المياه العالي لتغذية أقنية الري. وهذه الضرورة الملحة لاستخدام المياه باقتصاد وبشكل جماعي (الذي أفضى في الغرب إلى توحد المتعهدين الخواص في جمعيات تطوعية، كما في فلاندر وإيطاليا) اقتضى في الشرق التدخل المركزي للحكومة، لأن مستوى الحضارة كان جد منخفض والأراضي جد واسعة بشكل لا يسمح بظهور جمعيات من هذا النوع. وتنجم عن هذا وظيفة اقتصادية تقع على عاتق كل الحكومات الآسيوية، هي وظيفة تأمين الأشغال العامة».

نجد هنا، وصفاً لما سيصبح فيما بعد، بقلم ماركس «نمط الإنتاج الآسيوي»، حيث يتم سلب العمال من قوة عملهم بوساطة الدولة. ويتواصل المقال بانتقاد حسب الأصول - فريدٍ يومذاك - للاستعمار البريطاني: «لقد حطمت إنجلترا أسس النظام الاجتماعي في الهند دون أن تبدي حتى الآن أقل نية في بناء شيء مهما كان». وبهذه الفقرة الجد شهيرة: «كان النول ذو الذراع والدولاب، اللذان ينتجان ما لا يحصى من النساجين والغزالين، محور بنية هذا المجتمع. فمنذ أزمان سحيقة، كانت

أوروبا تتلقى المنسوجات الرائعة المصنوعة في الهند، مقابل معادنها النفيسة، مقدمة هكذا المادة الأولية للصيّاغ، هؤلاء الأعضاء الضروريون في المجتمع الهندي (..). لكن الغزاة الإنجليز حطموا أنوال الهنود وكسّروا دواليبهم. وشرعت إنجلترا بإقصاء المنسوجات الهندية عن السوق الأوروبية، ثم أخذت بتصدير الغزل إلى هندستان، وأخيراً أغرقت بالمنسوجات وطن المنسوجات. إذ زادت صادرات بريطانيا العظمى من الغزل إلى الهند، بين 1818 و1836، بنسبة 1 إلى 5200».

ثم يستشرف ماركس المستقبل، ويفسر بعد شهر، في مقال آخر مؤرخ في 22 تموز / يوليو 1853، بأن الرأسمالية في الهند ستكون يوماً ما، نظاماً اجتماعياً أفضل من المجتمع الحالي المتخلف. ويبين هذا النص الهام الذي كتب في غمرة البؤس الشديد، والصادر عن مواطن للعالم، مرة أخرى، أن الشيوعية لا يمكن أن تأتي بالنسبة إليه إلا (بعد) الرأسمالية، وليس في مكانها، لأن الرأسمالية تحرر بني الإنسان من الخرافات ومن العبودية:

«مهما كان محزناً من وجهة النظر العاطفية الإنسانية، رؤية كل هذه التنظيمات الاجتماعية الأبوية، غير المؤذية والمجدة، تنحل وتتفكك إلى عناصرها المكونة، ويفقد أعضاؤها في الوقت ذاته شكل حضارتهم القديمة ووسائل عيشهم، فلا يجب أن ننسى أن هذه الجماعات القروية اللطيفة، على الرغم من مظهرها غير المؤذي، شكلت دائماً أساساً متيناً للاستبداد الشرقي، وأنها كانت تحبس العقل الإنساني في نطاق جد ضيق بجعله أداة طيعة للخرافات وعبداً للقواعد المقررة، وبتجريده من كل عظمة ومن كل قوة تاريخية. ولا يجب أن ننسى مثال البرابرة الذين وهم يتعلقون بقطعتهم الأرضية البائسة، كانوا ينظرون بهدوء إلى خراب الإمبراطوريات، وصنوف الفظائع، ومذابح سكان

المدن الكبرى، غير ملتفتين إلا إلى الظواهر الطبيعية، بينما هم أنفسهم ضحايا لأي معتدٍ يتنازل بالالتفات إليهم (..).
ولا يجب أن ننسى أن هذه الجماعات الصغيرة كانت تحمل وصمة الطبقية والاستعباد، وأنها كانت تُخضع الإنسان للظروف الخارجية عوضاً عن أن تجعل منه ملكاً للظروف، وأنها كانت تجعل من حالة اجتماعية تتطور ذاتياً قَدَراً كلي القدرة، وأصلاً لعبادة فظة للطبيعة كان يُترجم طابعها المذل بواقع أن الإنسان، سيد الطبيعة، كان يركع ويعبد هانومان القرد، وسبّالا البقرة..».

وبعد ذلك، هذه الجملة التنبؤية: «إن الأمر متصل بمعرفة ما إذا كانت البشرية تستطيع أن تحقق مصيرها دون ثورة عميقة في الحالة الاجتماعية بآسيا؛ وإلا، فمهما كانت جرائم إنجلترا، فقد كانت الأداة غير الواعية للتاريخ بالتسبب في هذه الثورة». وهذه الجملة الأخرى أيضاً: «ليس بعيداً اليوم الذي تختصر المسافة فيه بين إنجلترا والهند، بالجمع بين السكة الحديدية والمراكب البخارية، إلى ثمانية أيام، ويصير هذا البلد الأسطوري سابقاً، ملحقاً بالعالم الغربي». وهكذا يتذهن فكر العالم، مرة أخرى، العولمة وجاذبية دخول آسيا ضمنها، جاعلاً من الرأسمالية تحريراً للشعوب.

في تشرين الثاني / نوفمبر 1853، تغزو روسيا الإمبراطورية العثمانية، للاستيلاء على أقاليم الدانوب، معولة على التحالف مع بريطانيا العظمى وعلى حياد القوى الأوروبية الأخرى. ولخشيته من مساندة لندن لحكومة القيصر، يعود كارل في (نيويورك دايلي تريبيون) إلى وجود «صلات سرية» يكون اكتشفها بين البورجوازيتين الإنجليزية والروسية، ويفضح بالميرستون، وزير الخارجية عندئذ، كـ«عميل» لبطرسبورغ. وينتقد أحد أصدقائه المنسيين وهو فرديناند لاسال، أستاذ الفلسفة الذي التقاه بدوسلدورف في 1849، وساعده على الخروج من

السجن، لنشره مقالاً طويلاً يثني فيه على خصال بالميرستون. فسيرسل كارل ثمانية مقالات ضد هذا الأخير إلى (نيويورك دايلي تريبيون) التي لا تنشر منها إلا أربعة. وسينشر الثمانية في (بيبولز بابر) من 22 تشرين الأول / أكتوبر حتى 24 كانون الأول / ديسمبر 1853، ويجمعها فيما بعد في كراسة بعنوان (حياة اللورد بالميرستون)، تلقى رواجاً كبيراً، لكنه لن يحصل منها على أي فائدة مالية، لأنه لم يحسن التفاوض بشأن عقده. ولا شيء سيؤكد أبداً جدية شكوكه تاريخياً، كما لم تؤيدها الأرشيفات التي اطلع عليها.

وبينما تتردد إنجلترا في اختيار معسكرها، يجري كارل لقاءً غريباً مع دافيد أوركوهارت، وهو أرستقراطي اسكتلندي، برلماني محافظ، أصبح نصيراً للأتراك وعدواً للروس بعدما قاتل إلى جانب اليونانيين ضد الأتراك. هذا الأوركوهارت هو مؤلف (تركيا ومواردها)، كدفاع عن الإمبراطورية العثمانية، يهاجم فيه بعنف بالميرستون والقيصر معاً، طالباً من بريطانيا العظمى الوقوف إلى جانب الأتراك. فيلفت كارل انتباه إنجلز إلى مؤلَّف «هذا الاسكتلندي الذي يعد بالميرستون عميلاً للروس». بل ويكتب إلى فريدريك في 2 تشرين الثاني / نوفمبر 1853: «مهما بدا لك ذلك غريباً، فقد توصلت بتعقب مسيرة الفيكومت النبيل (بالميرستون، الثالث بهذا الاسم) خلال العشرين سنة الأخيرة، إلى استخلاصات هذا الأوركوهارت المهووس ذاتها: إن بالميرستون عميل لروسيا منذ عشرات السنين».

وماركس السعيد باعتماده ولو لمرة واحدة على مساندة برلماني، يجاهر بالوقوف معه. حتى اللحظة التي اعتقد فيها أوركوهارت بأنه يدخل السرور إلى نفس كارل، مؤكداً له في كانون الثاني / يناير 1854 بأن مقالاته في (نيويورك دايلي تريبيون) «جيدة تقريباً وكأنما كتبت من قبل أتراك»! ويضيف بأنه سيكون، هو، أوركوهارت، الوزير الأول البريطاني، وسينجح في طرد الروس من الأراضي العثمانية لأن لديه

«سيولة فائقة خاصة في الدماغ». فيفهم ماركس أن الرجل مجنون، ويفزع من رؤية اسميهما مقترنين، ويكتب إلى فيرديناند لاسال الذي لامه لتوه لانحيازه إلى بالميرستون، في 6 شباط / فبراير: «لا أريد أن أعد من أنصار هذا المجنون! إذ ليس لدي ما أشترك به معه سوى وجهة نظري حول بالميرستون». ولإقناع لاسال بصحة وجهة نظره يضيف في هذه الرسالة «أدلة» جديدة على خيانة بالميرستون، اكتشفها في المتحف البريطاني، وتثبت حسه الاستثنائي البوليسي بالجزئيات: «إن بالميرستون عميل روسي. فقد سددت الأميرة ليفن ديونه في 1827، وأدخله الأمير ليفن إلى وزارة الخارجية في 1830، وحذر منه كانينغ وهو على فراش الموت. وقد وصلت إلى هذه النتيجة بعدما تفحصت بإمعان وبكثير من العناية مساره المهني، وهذا في (الكتب الزرقاء)، وفي المناقشات البرلمانية وفي تصريحات أعوانه الدبلوماسيين. (..) ولم يكن عمله الفذ لخدمة روسيا بقدر ما كان لإثبات شخصيته في دوره كـ«وزير إنجليزي حق» وهو يقوم بخدمتها. وخلافه الوحيد مع أبيردين (الوزير الأول يومذاك) هو أن أبيردين يخدم روسيا لأنه لا يفهمها، وبالميرستون يخدمها مع أنه يفهمها. ولذا فالأول نصير معلن، والثاني عميل سري لروسيا؛ الأول يخدمها مجاناً، والثاني مقابل مكافأة».

في 27 آذار / مارس، وبينما تثير لوحة كوربيه (المستحمات) فضيحة في صالون باريس، ويعين البارون هوسمان محافظاً للسين، وينشر فيكتور هوغو في المنفى (العقاب)، ويفتتح نادار أول محترف فوتوغرافي له، يحصل إمبراطور الفرنسيين على مساندة إنجلترا وبيمونت في ذهابه للدفاع عن الإمبراطورية العثمانية والأماكن المقدسة ضد روسيا. إذ يتحرك الأسطول الفرنسي، الذي سيقوده ماكماهون قريباً، صوب الدردنيل مع الأرمادا الإنجليزية بقيادة الأميرال راغلان. وعلى عكس ما كان توقع ماركس، تتدخل لندن عسكرياً ضد روسيا. ويلفت الانتباه، في مقال بصحيفة (نيويورك دايلي تريبيون) يوم 15 نيسان

/ أبريل 1854، إلى الأحوال البائسة لـ8000 يهودي يعيشون في القدس المحتلة عندئذ من قبل الأتراك.

في حزيران، يماطل الطبيب في المجيء للعناية بجيني، الحامل من جديد، لأن ماركس مدين له بـ 26 جنيهاً، أي ما يعادل ثمن الكراء لمدة سنة. ومرة أخرى يتقدم فريدريك للمساعدة. وفي تموز، تعود جيني إلى تريفز لتمضية الصيف مع أطفالها الباقين الثلاثة: جينيشن، لورا، إدغار الذي يتفاقم مرضه بالسل. وقبل سفرها تنفق 8 جنيهات - أي ثلث ثمن كراء الشقة السنوي في شارع دين - لشراء «تجهيزات جديدة، لأنها لم تكن قادرة بالطبع على الذهاب إلى تريفز بأسمال بالية»، يكتب ماركس إلى إنجلز في 23 تموز / يوليو لتبرير النفقات للمحسن إليه. ومن جديد يأمر وزير الداخلية في برلين، أخوها غير الشقيق، بمنحها جواز سفر، ما كان لزوجة زعيم شيوعي مطرود من بروسيا، ومراقب من كل شرطة أن تستطيع السفر دونه.

في 26 أيلول / سبتمبر - في الوقت الذي يؤسس لويس فويتون: الواصل حديثاً من مسقط رأسه في الجورا، مؤسسته الخاصة -، كان 185.000 جندي من الفرنسيين والإنجليز يضربون حصاراً أمام سيباستيبول، حول القلعة التي يحتلها الجنود الروس بقيادة الكولونيل فرانز تودليبين.

في نهاية 1854، يكتب ماركس إلى إنجلز بأنه سيلجأ إلى «وسائل غير عادية» لدفع المصروفات المرتبطة بولادة جيني وبالعناية التي تتطلبها حالة إدغار التي تسوء أكثر فأكثر. لكنه لا يوضح ماهية هذه الوسائل.

وفي 16 كانون الثاني / يناير 1855، تولد إليانور، بنت ماركس الرابعة، وسادسة أطفاله - لكنها رابعة الأحياء عندئذ. وإليانور التي ستبدي اهتمام أختها جيني بالصين، ستصبح «كووكوو»، خليفة إمبراطور الصين؛ كما ستلقب أيضاً بـ«عفريت ألبيريتش» وهو اسم أحد أبطالها الخرافيين، ثم بـ«توسي». لكن فرحة الأسرة لم تتم، إذ تصيب ماركس أسوأ مصيبة في حياته.

ففي نيسان / أبريل 1855، وبعد أقل من ثلاثة أشهر من ولادة إليانور، يموت إدغار، ابنه المحبوب، ذلك الذي يلقبه بـ«الكولونيل موش» بالسل في الثامنة من عمره. وكارل الذي لا يظهر أبداً عواطفه إلى حد الظهور للكثيرين بأنه غير حساس، يسير على غير هدى. فلطالما أمل خيراً من علاقته مع هذا الطفل، معيداً بناء العلاقة التي كان أقامها مع أبيه؛ ومنح الكثير من الحب لهذا الطفل الواهن والمرح الذي علمه لتوه مقاطع طويلة من (هاملت) ليلهيه عن مرضه! إذ يكتب عندئذ إلى إنجلز: «لقد مررت بشتى النوائب من قبل، لكنني في هذه الساعة فقط أعلم ما تعني المصيبة الحقيقية. أشعر بأنني محطم تماماً». ويكتب أيضاً إلى فيرديناند لاسال، جواباً على تعازيه: «قال بيكون إن للرجال المهمين حقاً كثيراً من العلاقات مع الطبيعة والعالم تجعلهم يشفون بسهولة من أي فقد، وأنا لست من هؤلاء الرجال المهمين حقاً. فموت طفلي أصاب قلبي ودماغي بقسوة جعلت فقده يعذبني كما في اليوم الأول. وزوجتي المسكينة منهارة تماماً». وبعد عشرة أعوام ستكتب جيني أنه كان بإمكانهما ربما إنقاذ ابنهما بمغادرة لندن للعيش على شاطئ البحر. فالشعور بالذنب لن يغادرهما أبداً.

لم يكن كارل عندئذ إلا في السابعة والثلاثين، لكنه يظهر فجأة أكبر من ذلك بكثير. فلحيته تبيض، وزيادة على نوبات البواسير لديه، تتتابه الآن آلام حادة بالكبد، ويصاب بداء الدمامل وآلام الأسنان والالتهابات التنفسية والروماتيزم والصداع واحتقان الجفون. وهو دون مورد، وقد فقد ابنه الثاني والأخير. ولا أحد يقرأ ما يكتب. ولم تعد لديه منظمة سياسية، ويفلت منه كل شيء. ولم تعد لديه الطاقة للكتابة ولا للتحرك.

وهو، إضافة إلى ذلك، يلحظ بمرارة تراجع الحركة الاشتراكية، حيث يجب أن تكون الأكثر قوة: أي في بريطانيا العظمى. ففي حزيران / يونيو 1855، بعد شهرين من موت إدغار، يعقد القادة النقابيون اتفاقات

مع الأحزاب الليبرالية، ويفقد ماركس الأمل في البروليتاريا البريطانية التي تتطلع، كما يعتقد، في النهاية إلى التشبه بالبورجوازيين أكثر من التطلع إلى قلب سلطتهم. زد على ذلك، تحققه من أن الحصار الفرنسي البريطاني لسيباستيبول الصعب والدامي، يعزز تحالف الأنظمة الملكية الأوروبية: فبينما يشكل معرض عالمي في الشانزيلزيه نصراً للإمبراطورية باستقباله 5 ملايين زائر – منهم الملكة فيكتوريا –، يستولي الجنرال ماكماهون والأميرال راغلان، في 8 أيلول / سبتمبر 1855، على برج مالاكوف الذي يشرف على قلعة سيباستيبول، وبهزيمة روسيا يتم إنقاذ الإمبراطورية العثمانية. وقد دام الحصار عاماً، وخلف مئات آلاف القتلى. وتتذوق أوروبا المغامرات البحرية: وهكذا يمكن للغزو العسكري أن ينطلق من عقاله في إفريقية.

ويفضي بؤس ماركس الشديد به إلى الكتابة من أجل البقاء في كل الصحف التي تقبل مقالاته، بما فيها (شيفيلد فري بريس) التي يديرها أوركوهارت الذي لا يزال يشاطره الخشية من تحالف إنجليزي – روسي. فيكشف كارل في هذه الصحيفة، وكأنما لتبرير مخاوفه السابقة بصفة بعدية، عن أنه اطلع في المتحف البريطاني – حيث يمضي وقته أكثر فأكثر – على وثائق من القرن الثامن عشر تدلل على تعاون سري بين لندن وبيترسبورغ بغية «التوسع العالمي». «وهي السياسة الروسية حتى الآن»، يكتب ماركس الذي لا يستطيع أن يؤكد أنها سياسة بريطانيا أيضاً، لأن الجنود البريطانيين كانوا يموتون لتوهم بالآلاف في مواجهة جنود القيصر!

ماركس عندئذ غارق في حزنه وهمومه المالية. وعندما يؤسس، في الفترة ذاتها، بعض اللاجئين السياسيين الفرنسيين والألمان والبولونيين مع بعض المناضلين الإنجليز في لندن جمعية دولية عمالية لتأخذ مكان عصبة الشيوعيين التي حلها ماركس منذ ثلاثة أعوام، كان هو مختبئاً عند إنجلز، في مانشستر، فراراً من السجن بسبب الديون التي لم

يتخلص منها إلا بإرث سقط عليه من السماء، هو إرث من خال اسكتلندي لجيني.

وقبل أن يعود إلى لندن، يكتب كارل، بحسب ابنته الصغرى، من مانشستر إلى زوجته رسالة مفعمة بالعاطفة وكأن الوفيات المتتالية كانت تعزز تكاتف الأحياء، فيمضي عندئذ وقتاً أطول مع البنات الثلاث اللواتي بقين له، يلعب معهن لساعات، وصانعاً لهن كما سيقول أحد الشهود «أساطيل كاملة من السفن الورقية التي يحرقها فيما بعد لإدخال البهجة على قلوبهن في حوض للغسيل (..). لقد كان أباً لطيفاً وعطوفاً ومتسامحاً. وكان معتاداً على القول «على الأبناء القيام بتربية أبويهم». ولم يُشعِر قط بناته اللاتي كن يحببنه بجنون، بثقل السلطة الأبوية». ويصف شاهد آخر أيضاً نزهة الأحد التقليدية: إذ كانت الأسرة بكاملها تتحرك نحو الساعة الحادية عشرة، لتكون في هامبستيد، على مسيرة ساعة ونصف، وقت الغداء. ويتكون الطعام عندما يكون الحال ميسوراً من لحم عجل مشوي وشاي وسكر، وأحياناً فاكهة. وبعد الأكل، يتحدثون ويقرأون الصحف ويتراكضون، وإذا كان لديهم بعض المال يقومون بجولات على ظهور الحمير.

في هذه الأوقات تخف الآلام وتبتعد الأحزان قليلاً، حتى وإن ظلت الحياة المادية بائسة، فيعود كارل لكي لا يفكر فيها إلى المتحف البريطاني، ليسجل ملاحظاته ويعمل على ما يريد أن يكون كتابه العظيم في الاقتصاد.

وفي غمرة يأسه يقوم تلك السنة - 1855 - باكتشافه الأكبر. ذلك الذي سيصل بين تحليله للاغتراب بالعمل، الذي يعود إلى 1848، وتحليله للتاريخ بصراع الطبقات في 1850. والذي سيؤمن له كل منزلته في تاريخ الأفكار. والذي سيسمح لعشرات الملايين من الأجراء بإلقاء الضوء على كفاحهم، ويتلخص بكل بساطة بأن: الأجير ينتج من القيمة أكثر مما يكسب منها.

وهكذا يبني كارل من أعمق أعماق الحزن الذي تسبب به موت إدغار نظريته في (فضل القيمة) التي توتر وتقود حركية السلطات والصراعات. وهو يميز بين «شكل مطلق» و«شكل نسبي» لفضل القيمة هذا: بين «رأس مال ثابت» و«رأس مال متغير». وهي تصورات تشكل إلى اليوم، تحت أسماء أخرى، هيكل الفكر الاقتصادي الحديث، حتى لدى أنصاره الأشد ليبرالية.

ويدرك كارل أنه ممسك بتصور بالغ الأهمية يصل بين النظرية الاقتصادية، الساكنة حتى ذلك الوقت، وحركة التاريخ، لكنه لا يجهل أن هذا التصور ليس إلا حدساً: فثمة كثير من الأشياء ينبغي توضيحها.

ويطرق الحزن بابه من جديد، في 17 شباط / فبراير 1856، إذ يعلم بموت هنريش هاينه الذي رجع إلى الإيمان. ومع أن الرجلين لم يلتقيا منذ أن طرد ماركس من باريس، قبل أحد عشر عاماً، إلا أنهما غالباً ما تكاتبا منذئذ. حتى إن هاينه أحد القلائل مع إنجلز الذين لم يختصم كارل معهم قط. كما لو أن هذا الأخير رأى فيه عمه الحاخام الذي فقده قبل الأوان، وكما لو أنه كان يرى في إنجلز أخاه الأصغر الذي فقده مبكراً.

كما إن الوضع السياسي لا يبعثه على التفاؤل. فبعد معاهدة باريس في 30 مارس 1856 التي تقر الهزيمة الروسية، يجلس على العرش قيصر جديد هو ألكسندر الثاني، الذي يباشر إصلاحات واسعة: إذ يحرر 50 مليوناً من الأقنان، ويجعل القضاء إنسانياً، ويفتح الجامعات للبورجوازية الصغيرة. لكن هذا لا يهدئ روح التمرد. فيردد الشعراء والروائيون صدى صرخاتها أو يعبرون عن تطلعاتها، كليون تولستوي، فيدور دوستويفسكي أو إيفان تورغنييف. وللدلالة على الحركة الثورية التي تنشأ شعبوية ووطنية وانتحارية في آن، يخترع تورغنييف تعبير «العدمية».

أما إنجلترا فتنسحب إلى «عزلة فخمة» لإدارة ازدهارها

الاقتصادي الهائل، وتدعيم احتلالاتها الاستعمارية الواسعة. فالصناعة النسيجية تنمو بفضل القطن القادم من جنوب الولايات المتحدة بأسعار جد منخفضة، وبفضل الأسواق الجديدة أيضاً التي فتحت في المستعمرات بتدمير الصناعات النسيجية المحلية، وبفضل الابتكارات التقنية على وجه الخصوص.

وهي الفترة أيضاً التي لوحق فيها غوستاف فلوبير في باريس بتهمة انتهاك الأخلاق في روايته (مدام بوفاري).

لكن ماركس يصاب بالانهيار من جديد، ويتساءل «ما الفائدة؟» فالثورة مستحيلة؛ وهو في مسكنه الحقير، بعيداً عن وطنه، يفقد ثلاثة من أطفاله في ثلاثة أعوام، ويعد نفسه مسؤولاً عن ذلك. ولم يعد له من أمل، ولا سبب للكتابة ولا للعمل في السياسة. فيحث جيني مرة أخرى على تركه والعودة مع الأطفال إلى ألمانيا، لكنها ترفض. ولم يبق له إذاً إلا انتظار موت أطفاله الباقين، وموت جيني وموته.

وهو لم يعلم بعد أن كل شيء سيتغير قريباً بالنسبة إليه.

الفصل الرابع

زعيم الدولية

(نيسان / أبريل 1856 – كانون الأول / ديسمبر 1864)

في غضون بضعة أشهر، بين 1856 و1857، وبينما ماركس معزول عن كل شيء، يفتقر إلى المال والطاقة، غارق في الحزن والفاقة، يتحول مصيره: فالمال يَرِد، وظروف معيشته تتبدل، وتعود الثورة ممكنة، ويجد نفسه في مركز النشاط العالمي، وتصوراته تزدهر، ونظريته تتطور. وستستعيد الحياة بالنسبة إليه، وهو في الثامنة والثلاثين، المعنى.

في ربيع 1856، تهرع جيني، وقد علمت أن أمها تشرف على الموت، إلى تريفز؛ ويأمر أخوها غير الشقيق الذي لا يزال وزيراً للداخلية، بأن يُصدَر لها من جديد إذن بالإقامة. وبفخر واضح، يكتب ماركس إلى إنجلز في 10 نيسان / أبريل: «تلقت زوجتي جواز سفر من برلين بأمر خاص وسامٍ من جلالته. وستذهب إلى تريفز في شهر أيار مع كل الأسرة، لتبقى فيها ثلاثة أشهر أو أربعة».

وكارل لا يقول أن إرثاً سيخرجهم من البؤس – لكنه يفكر فيه ولا ريب، وهو يشعر بالتحسن. وكأنما كانت تأتي وفاة، أو إعلانها، مرة أخرى، لمساعدته في التحرر من عائق.

في 14 نيسان / أبريل، وبعد أربعة أيام فقط من كتابته لإنجلز كي يبلغه بسفر جيني، يظهر من جديد للمرة الأولى منذ أربعة أعوام في الحياة الرسمية لليسار وللهجرة، بإلقائه خطاباً في المأدبة السنوية

لصحيفة الميثاقيين، (بيبلز بابر). ونص هذه المداخلة مصطبغ بغنائية، وبطاقة لم يبديهما منذ زمن طويل؛ وكأنما كان يرى من جديد في الأفق إمكان الفعل بالنسبة له كما بالنسبة للطبقة العاملة بأسرها. وكأنما كان يتوقع النهاية سواء لانعزاله أم لجمود البروليتاريا. فيستعيد لهجة سنوات الشباب، وتبتعد المرارة. لا ريب في أنه يفكر، وهو يتكلم هذا المساء، بغيدو، بفرانزسيكا، بإدغار: إذ لن يشهدوا الانقلابات القادمة التي لا علاقة لها، كما يقول، بالسياسة: «هذه الثورة ليست اكتشافاً لعام 1848. فالبخار والكهرباء وشتى الاختراعات لها طابع ثوري أكثر خطورة من البورجوازيين باربيس، راسباي وبلانكي!» ويواصل مثنياً على الطبقة العاملة الإنجليزية التي هو ضيفها هذا المساء: «إن العمال الإنجليز هم الأبناء البكر للصناعة الحديثة. ولن يكونوا بالتأكيد آخر من يتطلع إلى الثورة الاجتماعية التي هي أيضاً ابنة هذه الصناعة؛ إذ ستكون هذه الثورة تحريراً لكل طبقتهم، في العالم أجمع؛ وستكون أيضاً دولية مثلما هي هيمنة رأس المال وعبودية الأجراء». ويستطرد في نوع من النبوءة السياسية ذات القوة الشعرية القوية: «في العصر الوسيط، كان في ألمانيا محكمة سرية، هي «سانت فيهم»، كانت تنتقم لكل المظالم المرتكبة من قبل الأقوياء. فعندما كان يُرى صليب أحمر على أحد المنازل، كان الناس يعلمون بأن مالكه سيتعرض لملاحقة سانت فيهم. أما اليوم فإن الصليب الأحمر الغامض يصم كل منزل أوروبا. والتاريخ نفسه هو الذي سيصدر الحكم، والبروليتاريا ستنفذ هذا الحكم».

نص رائع، يلقيه بصوت رتيب، بلكنة رينانية قوية، ويقابل بتصفيق حاد.

وهكذا يعود زعيم عصبة الشيوعيين الراحلة. فحتى موته، وبعد موته بكثير، لن يعمل أي شيء دونه، ضمن أوساط اليسار العالمي.

في الوقت الذي تصل جيني مع بناتها الثلاث إلى تريفز، وأمها على فراش الموت، يعرض أمير شاب مجهول هو أوتوفون بسمارك في

برلين أفكاراً لن يتخلى عنها أبداً، مؤداها أن ما من مكان في ألمانيا لقوتين عظيمتين؛ فإن بروسيا، إن عاجلاً أو آجلاً، ستواجه النمسا؛ ولذا عليها أن تتهيأ بالتسلح والسعي إلى تحالفات، والتحالف مع فرنسا أولاً. «في السياسة الخارجية، يكتب في 21 أيار / مايو 1856، أنا متحرر من أي حكم مسبق (..). ولا أهتم بفرنسا إلا بقدر تأثيرها على الوضع في وطني».

سيقوم هذا الرجل بالأدوار الأولى في تاريخ أوروبا؛ وسيمارس بالخصوص تأثيراً حاسماً على مصير ماركس، وعلى ما سيحدث بعد ماركس، وضد ماركس، «الماركسية». إذ سيلجأ وهو يبني الدولة البروسية إلى الذين ينادون باشتراكية وطنية يعارضون بها اشتراكية ماركس الدولية. وبه سيمر المفترق الذي سيقود إلى الإنحرافين الكبيرين في القرن التالي.

تصل جيني في الوقت المناسب بالضبط إلى تريفز: ففي نهاية أيار / مايو 1856، تسلم السيدة فون ويستفالن الروح. وخوفاً من أن يؤدي زواجها من ثوري إلى حرمانها من حقوقها في التركة، تكتب جيني إلى أخيها غير الشقيق في برلين الذي يجيبها بحنو من الوزارة التي يشرف منها على البلاد: «ما من شك في أنك وإدغار الوريثين؛ وفي حالة حصول مشكلات مالية وقتية، اكتبي لي بسرعة، وسأرسل لك اللازم».

وتثبت هذه الرسالة أن الصلات بينهما لم تكن قطعت قط، وتؤيد واقع أن جيني كان بإمكانها تلقي مساعدة كانت بأمس الحاجة إليها في أسوأ اللحظات التي مرت بها خلال الخمس سنوات الأخيرة، لو طلبتها من عائلتها.

في حزيران / يونيو، تعود جيني من تريفز مع ميراث 120 جنيهاً، وجزء من تركة أبيها التي كانت بقيت مجمدة هناك منذ مغادرتها قبل ثلاثة عشر عاماً. ولا أحد يعرف مكان إدغار، الموجود دائماً في أمريكا، لتسليمه نصيبه من التركة. وتظن جيني أن أخاها مات.

عندما أبلغ كارل بهذا الميراث برسالة من جيني، رجاها أن تسترد بعض عشرات الجنيهات التي تركها مرهونة بكولونيا في تموز / يوليو 1849، عندما كان يحتاج إلى المال لتمويل صحيفته.

وهكذا سيتوفر للأسرة منذئذ ما تعيش به: فبجمع ما يرده من عمله الصحافي، وما يمكن أن يحصل عليه من هذه التركة بالإضافة إلى ما يدفعه له إنجلز، يتوقع كارل أن يكسب سنوياً ما بين 150 جنيهاً (أي دخل الطبقة الوسطى الدنيا) و500 جنيه (أي دخل الطبقة الوسطى العليا)؛ والواقع أن المبلغ سيكون غالباً أكثر قرباً إلى الثاني منه إلى الأول. إذ يكتب كارل نفسه في هذه الآونة أن من الممكن العيش بكرامة مع 300 جنيه سنوياً في لندن. لكن هذا لا يمنعه، للحصول على هذا المبلغ، من الإلحاح بالطلب من فريدريك - زيادة عما يحصل عليه منه بانتظام -، شارحاً في كل مرة احتياجاته بتفصيلات وفيرة.

لم يعد كارل قادراً على تحمل شارع دين. فالموت يرين عليه دائماً. وبخاصة أنه لم يعد قابلاً لفكرة عيش أطفاله الباقين تحت هذا السقف. فيقرر إذاً الانتقال بأسرع ما يمكن. ودون انتظار عودة جيني بمال التركة، يقترض من إنجلز في 22 أيلول / سبتمبر 1856، ما يكتري به منزلاً موثثاً من أربعة طوابق، بأجرة 36 جنيهاً سنوياً - أي أكثر من المسكن السابق بالنصف - في 9، غرافتون تيراس، على ميتلاند بارك، هافيرستوك هيل، بالقرب من هامبستيد رود، الحي الذي تشرع الطبقة الوسطى في لندن بالإقامة فيه، في الموضع نفسه الذي يتوجه إليه في نزهة الأحد. ويبدو له المنزل بأثاثه القديم المستعمل قصراً بعد الأكواخ الحقيرة التي سكنها.

وبما أنه يستطيع هو نفسه التخلص من البؤس، فإن الثورة، كما يظن، ستستطيع هي أيضاً الخروج من سباتها الشتوي. إذ لا يجد نفسه قادراً على التفكير في شيء آخر غير معيشة أسرته، بل يجب على اليسار بأسره أن يستيقظ معه. ويعقد كارل من جديد الصلة بين وضعه

الشخصي ووضع العالم بعمومه؛ فيكتب بهذا المعنى إلى إنجلز، في 26 أيلول / سبتمبر: «إن مجرد كوني قادراً أخيراً على تغيير مسكني واستقدام كتبي يدلل بالنسبة لي على أن استنهاض أشخاصنا هو في متناول اليد». ويستأنف قائلاً: «لا أظن أن الأزمة المالية الكبرى تحدث بعد 1857». وأفكارهما قريبة إلى حد يكتب فريدريك به في رسالة مؤرخة في 27 أيلول / سبتمبر، مراهناً هو أيضاً على عودة اليسار إلى المسرح السياسي الأوروبي: «عندما علمت أنك رتبت أمورك، صرحت بأن القضية مفروغ منها، واقترحت الرهان على هذا الموضوع». وبعبارة أخرى: لا يمكن للثورة أن تبدأ دون ماركس؛ وتكفي عودة ماركس إلى المسرح كي تبدأ. فهو، كما يعتقد، فكر العالم..

في نهاية أيلول / سبتمبر 1856، تعود جيني مع البنات الثلاث من تريفز. وكن مررن بباريس، حيث أعجبن بالجادات الكبرى التي أضيئت لتوها بالغاز. وهي توافق على الانتقال مع اسقها لأن كارل لم ينتظرها لاختيار مكان إقامتهما الجديد. ويمثل المال الذي أتت به خمسة أعوام من أجرة المنزل الجديد، حتى وإن استخدم بالخصوص لسداد الديون. وحياة الأسرة ستتغير بسببه.

ففي 29 أيلول / سبتمبر، تغادر الأسرة إذاً شارع دين، «شارع الموت»، الذي رأى خلال ستة أعوام ولادة اثنين من أطفالها، وموت ثلاثة آخرين، تتبعها هيلين ديموت التي لا غنى عنها؛ وقد نُسي لغز ابنها.

بعد شهرين، ومع أنه ما من حدث في إنجلترا أو في أوروبا، يعطي إشارة على الثورة، وما من أزمة مالية أو اقتصادية تبدو وشيكة الوقوع – ما عدا بعض الصعوبات في السكك الحديدية–، إلا إن فريدريك يكتب ثانية إلى كارل، معبراً عن إيمانه بالثورة: «لن يكون من السهل على الثورة أن تجد ثانية أرضية ممهدة (كما في 1848) (..). لكن لحسن الحظ (..) ليس إلا بالجرأة وبالتصميم الأكثر قوة، يمكن فعل شيء ما، لأنه لن يكون علينا أن نخشى تراجعاً سريعاً كما في 1848».

أما كارل، فيخشى رؤية الثورة تندلع قبل أن يكون أتم كتابه العظيم. فينهمك عندئذ بجد أكثر في العمل.

وهو لا يقوم بنفسه بأية زيارة ميدانية، ولا بأي تحقيق مباشر حول بؤس الطبقة العمالية. فهو يعرف البؤس أفضل من كل الذين كتبوا عنه قبله، لأنه لما يكد يخرج منه إلا منذ قليل، وليست لديه أية حاجة للذهاب والتأكد في المكان من ظروف معيشة عمال المصانع في مانشستر. بل يعمل انطلاقاً من ذكرياته الشخصية وملاحظات الآخرين. إذ يكتشف لدى كتبي في لونغ أكر حيث يذهب من وقت لآخر للتنقيب بين الكتب والأوراق المتناثرة، على مكتبة كاملة من تقارير لجان التحقيق، ومفتشي المعامل في إنجلترا واسكتلندا. «لم يكن كثير من أعضاء مجلس العموم ومجلس اللوردات يستعملون (هذه التقارير) إلا كدريئات يطلَق الرصاص عليها لقياس قدرة اختراق السلاح، طبقاً لعدد الصفحات التي اخترقتها الرصاصة. وكان آخرون يبيعونها بالوزن» (..) وقد قرأها كارل من البداية إلى النهاية، كما تبين إشارات بقلم الرصاص عليها. وكان يضعها في عداد الوثائق الأكثر أهمية والأكثر جدارة بالاعتبار في دراسة نظام الإنتاج الرأسمالي، وكان يقدر عالياً أولئك الذين كتبوها، ويشك في إمكان وجود رجال بمثل هذه الكفاءة والحياد والنزاهة في البلدان الأوروبية الأخرى».

وفيما عدا هذه الاكتشافات، يمضي وقتاً أكثر فأكثر في مكتبة المتحف البريطاني بمتعة أكبر، لا سيما أن قاعة جديدة افتتحت لتوها. وهي مضاءة بنوافذ زجاجية واسعة، تعلوها قبة أضخم من قبة كاتدرائية سانت - بول - الأكبر في العالم -، وتكلف بناؤها 150.000 جنيه. ومع ذلك، نسي المعماريون تجهيزها بالرفوف التي توجب إقامتها على عجل قبل استقبال الجمهور فيها.

يتصادف إنشاء هذا الفضاء الرائع، مع انتقال ماركس إلى منزله الجديد، فيرى فيه علامة إضافية، كما لو أن تحسن ظروفه السكنية،

يجب أن يترافق بالضرورة مع ظروف عمل أكثر ملاءمة. وكأنما يجب على كل الأمور أن تتحسن في الوقت ذاته.

ويذهب كارل إلى المكتبة كل يوم تقريباً، ويجلس في المكان ذاته عملياً. فيصادف فيها لويس بلان الذي يعمل في مؤلفه الضخم (تاريخ الثورة الفرنسية). ويدرس فيها بالخصوص التقارير حول ظروف معيشة العمال، ولكن ليس في بريطانيا العظمى وحسب. إذ يعثر بالخصوص عندئذ على تقارير بلجيكية يستمد منها ملاحظات شديدة التفصيل سنجدها كما هي في (رأس المال) وبعد اثني عشر عاماً - وهي صفحات تكشف لديه عن خليط غريب من توق عاطفي، وصرامة علمية، وروح نضالية سياسية:

«من المتعارف عليه، بين الرأسماليين الإنجليز، تصوير بلجيكا على أنها «فردوس العمال» لأن «حرية العمل» أو وهو ما يعني الشيء نفسه «حرية رأس المال» استثنائية فيها؛ فليس هناك لا «استبداد مشين» للنقابات، ولا «وصاية تعسفية» لمفتشي المصانع. وإذا ما كان هناك شخص جيد الإطلاع على أسرار سعادة العامل البلجيكي «الحر»، فهو دون شك المرحوم السيد دوكبيسيو، المفتش العام للسجون والمؤسسات الخيرية البلجيكية، وفي الوقت ذاته العضو الدائم للجنة الإحصاء البلجيكية المركزية. فلنفتح مؤلفه (الموازنات الاقتصادية للطبقات العمالية البلجيكية)، بروكسل، 1855. وسنجد فيه، بين أشياء أخرى، أسرة عاملة بلجيكية، مستخدمة عادية، يحسب المؤلف أولاً نفقاتها السنوية وكذا الدخل طبقاً لمعطيات دقيقة، ثم يوازن نظامها الغذائي بالنظام الغذائي للجندي، وللبحار لدى الدولة، وللسجين (..). فنرى أن القليل من الأسر العمالية تستطيع بلوغ، لانقول مقرر البحار أو الجندي، بل وحتى المقرر الغذائي للسجين».

وفي المقالات التي يحررها آنذاك للصحف التي لا يزال يتعاون معها، يتطرق ماركس لموضوعات شديدة التنوع، بما فيها تلك البعيدة عنه

تماماً. وهكذا يتحدث تلك السنة عن أفغانستان، «اسم شاعري محض للإشارة إلى قبائل ودول مختلفة، كأن الأمر يتعلق ببلاد حقيقية. فالدولة الأفغانية غير موجودة». مَن، حتى اليوم، سيقول أفضل من هذا عن هذا البلد بمثل هذه الكلمات القليلة؟

في تلك السنة أيضاً، ينشر معلمه السابق، ومعبوده الأول وخصمه الأول، فويرباخ آخر مؤلفاته الكبرى (أصل الآلهة طبقاً لمصادر العصور القديمة الكلاسيكية العبرية والمسيحية) الذي يقترح فيه التوفيق بين إنسانية مؤلّفه (جوهر المسيحية) وطبيعية مؤلَّفه (جوهر الدين). «إن ما لا يكونه الإنسان في الواقع، ولكن ما يرغب في أن يكونه، يجعل منه إلهه، أو إن هذا هو إلهه». ولا ينال الكتاب أي نجاح. مسكين فويرباخ! لقد انقضت ساعته دون أن تكون قد دقت قط.

ويواصل كارل تسجيل ملاحظات بأسرع ما يستطيع، لأن الوقت يستعجله: إذ إن الأزمة، كما يعلم، ويكتب، وشيكة الوقوع..

وبالفعل، في ربيع 1857، هذه الأزمة التي ينتظرها، ويرجو وقوعها، والتي يبشر بها لتوه، وستطلق من جديد الآلة الثورية، وقعت أخيراً: إذ يفضي تفجر فقاعة المضاربة على أسهم شركات السكك الحديدية، وعدم كفاية الإنتاج العالمي من الذهب إلى انهيار كل القيم في بورصة نيويورك ثم لندن فباريس وفيينا، وبالتالي إلى صعوبات خطيرة في السيولة النقدية لدى العديد من الشركات في الولايات المتحدة، كما في أوروبا. ففي باريس يواجه مصرف القرض العقاري، وهو من مآثر السان سيمونيين المتحالفين مع الإمبراطورية، خطراً محدقاً. وفي إنجلترا يسوء وضع الكثير من المنشآت في الصناعة النسيجية، وبخاصة منشأة عائلة إنجلز. علاوة على أن ثورة السباهي في الهند، وهم جنود هنود يخدمون في الجيش البريطاني، تهدد بحرمان الإمبراطورية من أسواق جوهرية.

ويبتهج كارل: إذ يجري كل شيء كما توقعه بالضبط.

ثم، خبر طيب آخر، وكأنما ينبغي على كل الأشياء أن تحصل معاً، في الضراء أو في السراء: فجيني من جديد حامل.

في 11 تموز / يوليو 1857، وفي رسالة حماسية أولى إلى إنجلز، يكتب ماركس: «إن الثورة تقترب كما يتبين من مسيرة القرض العقاري ومن مالية بونابرت عموماً. (..) وستجد الرأسمالية من العناء لإعادة الوضع إلى نصابه أكثر مما وجدته قبل عشرة أعوام، لأن كثيراً من الأوهام في المعسكر الاشتراكي زالت، وهو ما يسمح بعمل أكثر قوة وأكثر وضوحاً». وهو باق دائماً على إصراره على عدم ارتكاب خطأ 1848، وهاجسه في عدم التحالف إلا مع الفلاحين، وليس مع البورجوازيين، حتى لو كانوا ديمقراطيين.

ولاعتقاد إنجلز بأن الساعة الأخيرة للرأسمالية قد حانت، يجدد العهد مع هوسه القتالي، وينطلق من مانشستر في تحضيرات عسكرية للانتقام لقتلى 1849. لكن كارل يهدئ من حماسه: لأن الوقت للدعاية، وليس للسلاح!

والواقع أن الأحوال تنقلب من جديد، وستتراكم الأخبار السيئة لبعض الوقت. فنتيجة للأزمة، يقرر شارلز دانا، رئيس تحرير (نيويورك دايلي تريبيون)، عدم الدفع إلا للمقالات المنشورة، دون أن يضمن له مقالاً كل أسبوع. ويفضي هذا القرار إلى انخفاض ملحوظ في دخله – إذ يفقد 60 جنيهاً سنوياً على الأقل، وها هي جيني في تموز / يوليو 1857 تجهض. وهكذا لا تقع المصائب، كما قد يفكر ماركس، فرادى، بل مزدوجة، تجمع تقلبات الحياة الخاصة مع خيبات الأمل العامة.

لكن ماركس ليس قانطاً مع ذلك؛ إذ لا يزال مؤمناً بالانهيار الوشيك للنظام الرأسمالي. وفي 23 آب / أغسطس ينكب من جديد على كتابه في الاقتصاد. فبينه والتاريخ، كما يرى، سباق ضد الساعة. إذ يكتب في تشرين الأول / أكتوبر إلى إنجلز: «أعمل كالمجنون لإنهاء كتابي حول الاقتصاد السياسي، وإلا سينهار النظام قبل أن أنهي كتابي!».

ويفكر منذئذ في عنونته (مقدمة في نقد الاقتصاد السياسي). أما العقد الذي وقع مع الناشر الألماني في دار مستات منذ ثلاثة عشر عاماً، فقد طواه النسيان. ترى هل لا يزال هذا الناشر موجوداً؟ إن كارل يجهل ذلك. وفي اللحظة المناسبة سيختار عنواناً آخر، إذ يحدد منهجه الخاص، ويكتب موجزاً تقديمياً، ويشطبه: «ألغي المقدمة العامة التي وضعت خطوطها الأولى، لأنه ظهر لي، بعد تفكير، أن استباق النتائج التي لا بد في البداية من البرهنة عليها، لا يمكن أن يكون إلا مزعجاً؛ وأن القارئ الذي يريد متابعتي عليه الاجتهاد في أن يرتفع من الخاص إلى العام».

وبعبارة أخرى، ما من خلاصة لنتائجه في بداية الكتاب: وعلى القارئ أن يبذل جهده. وهو مطلب غريب من شخص يمضي وقته في كتابة مقالات تركيبية حول كل الموضوعات. وواقع الحال، أنه يواصل تأليف كتبه بشكل مغاير لمقالاته؛ فالكتب تلزمه، وينبغي أن تنطوي على كل التلاوين الممكنة، حتى وإن صعبت على القراءة أحياناً.

وبعمله ليلاً أكثر الأحيان في مسكنه الجديد الملائم أخيراً، يملأ من تشرين الأول / أكتوبر 1857 إلى آذار / مارس 1858 سبع كراسات، طبقاً لمخطط من قسمين كبيرين: النقد ورأس المال.وتقوم جيني كل يوم بإعادة كتابة أوراقه التي لا يمكن لأحد غيرها قراءتها.وإذ يظن بأنه أوضح منذ سنتين المشكلة المركزية، مشكلة فضل القيمة، أي الصلة بين رأس المال والعمل، بين الاقتصاد والتاريخ، بين السياسي والاجتماعي، بين الاغتراب الفلسفي - الذي شغله طوال عشرة أعوام - والاستغلال الاقتصادي - الذي يشغله أيضاً منذ عشرة أعوام -، يحاول كارل الآن ترتيب وشرح مجموع ما يشكل - وهو يتبينه منذئذ بكل وضوح - نظرية في الرأسمالية: في الرأسمالية العالمية.

فينطلق من تحليل للنقد باعتباره سلعة خاصة، كقياس للقيمة ووسيلة للتبادل في آن، ثم ينظم ملاحظاته حول ملكية الأرض، والتجارة الخارجية، والسوق العالمية. ويشكل كل هذا مخطوطاً من 800 صفحة.

لكن الأزمة لا يبدو أنها تتعمق بالسرعة المنتظرة. حتى إنها سريعاً ما تنتهي دون أن تنال من الرأسمالية التي تقفز إلى الأعلى ثانية. ولم تعد الثورة قاب قوسين أو أدنى. فيمكن لكتاب ماركس أن ينتظر إذاً. ولا شيء يدعو للعجلة.

أضف إلى ذلك أنه مثل كل مرة تقارب إحدى مخطوطاته فيها على الانتهاء، يلتمس كل الأعذار حتى لا يضع عليها كلمة «النهاية». وتجبره أزمة خطيرة لداء الدمامل على التوقف من جديد لثلاثة أشهر. وكأنما لا بد من ظهور عقبة ما، كلما كان على وشك ترك نص، وكأن الخوف من النشر كان يصيبه بالمرض. ويمكن لطبيب نفسي اليوم القول إن الوعي بالاغتراب يتسبب لديه باضطراب نفسي - بدني. فقد كان قال كل شيء بهذا الشأن في (الإيديولوجية الألمانية)، في هذا المقطع الذي أوردناه آنفاً حول المأساة التي يتسبب بها انتزاع كل إنتاج من منتجه، دون أن يدرك آنذاك، أنه كان يتكلم عن نفسه قبل أي أحد آخر.

ومع ذلك، فإن هذا المخطوط - الذي لن ينشر إلا بعد موت ماركس بوقت طويل، تحت عنوان (أسس) - كان يستحق أن ينشر على الملأ منذ كتابته في 1857. إذ نجد فيه جوهر نظريته في السوق وفي القيمة، وتقسيماً للمجتمعات البدائية إلى ثلاثة أنماط (آسيوي، قديم، جيرماني) كما وضع خطوطه الأولى في مقالاته بصحيفة (نيويورك دايلي تريبيون)، حول الهند، وتفسيراً لزوال الإقطاعية مستوحى أيضاً من تحليله للمجتمعات المستعمَرة ومبرراً بالدور الذي قامت به «الصناعة الحديثة، والتجارة والزراعة الحديثتان، وببعض الاختراعات كالبارود والمطبعة». كما نجد فيه أيضاً تحليلاً أولياً لسقوط الرأسمالية المحتم: فمثلما انتهت الأرستقراطية إلى السقوط تحت ضربات الرأسمالية، ستمثل هذه الأخيرة قريباً عقبة أمام التطور الاقتصادي ولن تستطيع البقاء إلا بثمن من الأزمات والحروب والإفقار لغالبية سكان العالم العظمى، وهذا ما يولد لدى العمال وعياً سياسياً سيحثهم على الثورة التي ستفضي، بعد

فترة انتقالية، إلى مجتمع شيوعي تكون الفردانية فيه «كونية في إنتاجها».

وسيعود ماركس إلى كل هذا بإسهاب وبوضوح أكبر في الكتابين اللذين سينتهي به الأمر إلى نشرهما.

في بداية 1858، وبينما يغادر أخ زوجته الحكومة البروسية، تسوء من جديد حالة كارل جسمياً ونفسياً، فالثورة لم تعد في متناول اليد. وأوساط الهجرة الاشتراكية، التي ابتعد عنها، لا زالت تعج بالأقاويل والدسائس؛ وقد فقد جزءاً كبيراً من أجره في (نيويورك دايلي تريبيون). أما إنجلز الجد مشغول في مانشستر بعمله وبحياته كرب عمل، فلا يأتي لرؤيته إلا نادراً، وما يدفعه له ليس كافياً لتأمين معيشة لائقة؛ فيستولي عليه الخوف من عدم القدرة على دفع أجرة منزله، ومن الاضطرار للعودة إلى سوهو.

وتفننه في التقول على الجميع، وعقدة التفوق لديه، يتحولان عندئذ إلى هذيان خيلائي. فينعت صديقه فرديناند فريليغرات بـ«الخسيس» وهو الشاعر الذي يرافقه منذ لقائهما الأول في لندن 1845؛ ويشتم ويلهلم ليبكنخت الجد قريب من أطفاله، واصفاً إياه بـ«الأبله المشهور» و«عديم الكفاءة». ويقطع علاقته نهائياً بأوركهارت. وكما في كل مرة، تتغذى الشراسة لديه بالفكاهة السوداء؛ إذ يكتب هكذا لإنجلز في موضوع «هذا المجنون (أوركهارت)» الشديد الحب لتركيا، الذي «غطس رضيعه ذا الثلاثة عشر شهراً في حمام «تركي». وهو ما أسهم في احتقانه وفي موته»..

لكن سبب هذه الأزمة النفسية يكمن في جهة أخرى، أكثر عمقاً: إذ إن بحوثه تتعثر. ولا يفلح في ربط نظريته في قيمة العمل بمعطيات الاقتصاد. ذلك أن المتغير الرئيس في الاقتصاد، بالنسبة له، هو العمل - وليس الأسعار، كما يعتقد الاقتصاديون في زمنه. ولكن بما أنها ليست كميات من العمل هي التي يجري تبادلها في الأسواق، بل سلع مسعرة

بالنقد، فعليه أن يربط كميات العمل اللازمة لصنع المنتجات بقيمتها النقدية، بسعرها، أي الكمية الوحيدة التي تقاس. وهو يحاول، ولا يجد شيئاً، ويدرك أن عليه القيام بحسابات طويلة لا يعرف كيف يجريها. فينكب عندئذ على دراسة الجبر الذي يجهله تماماً. وسيؤكد إنجلز فيما بعد أنه ضبط النص (على الصعيد الأدبي) مستعيناً بكراس في الرياضيات، تركه ماركس، وكان شرع فيه منذ 1858 ولا شك.

في 22 كانون الثاني / يناير من تلك السنة، يلتمس فرديناند لاسال – ذلك الشاب الذي التقاه كارل بالكاد في دوسلدورف، إحدى أيام الحملة الانتخابية منذ عشرة أعوام في 1849، وسانده عندما كان في السجن، ثم تساجل معه لتوه بشأن بالميرستون – رأيه حول كتاب خصصه لهرقليطس. فالمحامي الشاب، لدى خروجه من السجن لبضعة أشهر، ينتمي الآن لأرقى الأوساط بفضل رفيقته الجديدة الكونتيسة هاتزفيلد، وهي امرأة متزوجة، أكبر منه بكثير، ساعدها في الطلاق وتعيش وحيدة، وغنية، وسط استهجان المجتمع البرليني الراقي.

وكارل، الذي يعد لاسال كأحد «المراسلين» له في ألمانيا، وعضواً في هذا «الحزب» المجرد الذي يجمع في مخيلته ثوريي العالم أجمع حيثما كانوا، يقرأ كتابه ويرى أنه منفر، لكنه يتمالك نفسه عن قول رأيه لمؤلفه، بل يهنئه برسالة في 2 شباط / فبراير، طالباً منه مساعدته على العثور على ناشر ببروسيا لكتابه المعنون: (إسهام في نقد الاقتصاد السياسي). وهو تحد صعب: فكيف العثور في بروسيا الاستبدادية على ناشر لديه ما يكفي من الشجاعة لنشر كتاب في النظرية الاقتصادية مؤلفه هو كاتب (بيان الحزب الشيوعي) المنفي من هذه البلاد، حتى وإن غاب عن الأذهان منذ 1850؟ ولكن بما أن عليه وصف هذا الكتاب الذي يبحث له عن ناشر، فإن كارل يعرض، وللمرة الأولى، في هذه الرسالة الأولى للاسال، مخطط مؤلفه المستقبلي، وكأنما قد كتب بالفعل: «المؤلف مقسوم إلى ستة كتب: 1- في رأس المال (مع بعض الفصول التمهيدية)؛ 2- في الملكية العقارية؛ 3- في

الأجور؛ 4- في الدولة؛ 5- التجارة الخارجية؛ 6- السوق العالمية. (..) أما نقد الاقتصاد السياسي وتاريخه وتاريخ الاشتراكية فستكون موضوعاً لعمل آخر. وأخيراً، من المفروض أن يشكل عرض تاريخي وجيز لتطور المقولات والعلاقات الاقتصادية موضوعاً لعمل ثالث».

وجملة «مع بعض الفصول التمهيدية»، تخفي واقع أن ما قرر ماركس نشره، دون أن يقوله، ليس إلا جزءاً صغيراً من الكتاب المعني، أي: الفصل المخصص للنقود فقط. فلم تُبدأ كتابة الفصول الأخرى حتى. ولأن النقود، أي الأسعار تغطي أيضاً كل الموضوعات الباقية، ويشعر بأنه جاهز من هذه الجهة. أما فيما يتعلق بالعلاقات بين الأسعار والعمل، وبكل ما أدرجه في مخططه، فهو بعيد عن الجاهزية. إذ سيكون ذلك لكتاب آخر: «رأس المال». والتتمة التي تناسب هاجسه في رواية تاريخ العلوم، لم توضع خطوطها الأولى بعد.

وبكلمة موجزة، ما من كتاب من الكتب المقترحة كتب بعد. ولكن بما أن على كارل تقديم تاريخ تقريبي لإنجاز المخطوط الذي يرغب بنشره، فهو يضطر للتعرض إلى ما يلاقيه من صعوبات. إذ يُستشف تعثر بحوثه في هذه الرسالة ذاتها التي أرسلها إلى لاسال في 2 شباط / فبراير، حتى وإن لم يصرح بذلك بعبارات واضحة، فيتكلم هكذا عن الكتاب المفترض أنه قيد الإنجاز: «إن الأمور لا تتقدم إلا ببطء شديد؛ فما إن أريد الانتهاء من موضوعات كانت خلال سنوات الموضوع الرئيس لبحوثي، حتى تستمر في الظهور بأوجه جديدة، وتشعرني بالحرج (..). وليست لدي أقل فكرة عن عدد أوراق المطبعة التي سيقتضيها المؤلَّف. وإذا ما كان لدي الوقت والهمة والوسائل لضبط كل شيء قبل تقديمه للجمهور، فسأكثفه كثيراً..».

ودائماً هذا الرفض لترك نص، وهذه الرغبة المتناقضة في تكثيف فكرة، والاستفاضة في التفصيلات. ودائماً، كما كان يكتبه في 1844، الخوف ذاته من ترك عمل يفلت منه، ليوجد بمعزل عنه.

أما لاسال فيرد عليه شاكراً له ثناءه، وبأنه سيكون مسروراً بمساعدته في العثور على ناشر، وبأنه يفكر على كل حال بناشره البرليني، فرانز دونكر، الذي قام بنشر مؤلفه (هرقليطس). فما رأي ماركس؟

في 11 آذار / مارس يبلغ هذا الأخير لاسال بحماس أن بإمكانه تجهيز أول ملزمة في نهاية أيار / مايو، ويكلفه بالتفاوض عنه في عقده مع دونكر.

في 26 آذار / مارس، أي بعد أقل من شهرين من طلب ماركس، يعلمه لاسال بأنه حصل له على عقد جديد: إذ سيدفع دونكر 3 فريدرش ذهبية (أي 17 تالر) عن كل ورقة مطبوعة، وهو مبلغ هام، كما يشرح، لأن أساتذة الجامعة لا يتلقون إلا اثنين.

فيجن ماركس فرحاً؛ ويكتب في 2 نيسان / أبريل إلى إنجلز لإبلاغه الخبر والكلام ليس عن هذا الكتاب الذي سينشره قريباً، كما يقول، بل.. عن التالي! هذا المؤلف – الذي سيكون رأس المال – سيُقسم هو نفسه، كما يتوقع، إلى أربعة فصول: «أ. رأس المال في العموم: ب. المنافسة؛ ج. القرض؛ د. رأس المال بالأسهم. وسينقسم الفصل الأول ذاته إلى: 1– القيمة؛ 2– النقود؛ أ) النقود كمقياس، ب) النقود كوسيلة للتبادل أو التداول البسيط، ج) النقود كعملة؛ 3. رأس المال».

وهذا في الواقع مخطط ما سيكتبه طوال العشرين عاماً الباقية من حياته، والذي سيتركه في جوهره مخطوطاً.

بعد عدة أيام، تؤدي ليالي الأرق، والمنغصات المالية، وعمله مراسلاً لـ(نيويورك دايلي تريبيون)، والقلق من الكتابة ومن النشر على وجه الخصوص، إلى أزمة كبدية خطيرة من جديد.

في 9 نيسان / أبريل، تضطر سوء حالته الصحية جيني للكتابة إلى لاسال في برلين – وهي لا تعرفه – لإبلاغه بأن عدم قدرة زوجها على الكتابة بنفسه ناجم عن أنه «يتألم من كبده كما في كل ربيع»، وأنه

شديد الاضطراب، وعليه تخصيص وقت لكسب خبزهم اليومي (أي كتابة مقالات)، لكنه يأمل في إنجاز المخطوط الموعود في وقته. وتشكره على مساعدته في إمضاء العقد مع دونكر، كما تهنئه على كونه «وكيلاً على مثل هذه البراعة». والواقع أن جيني شديدة القلق: فكارل لا يقدر على الكتابة، والدخل المأمول من المقالات ومن هذا الكتاب يبتعد. وهي تعرف هذا أكثر من أي شخص آخر: لأنها تنسخ كل صفحة يكتبها.

ثم كإشارة أخرى على أن الرأسمالية تنتصر في كل مكان، تُسحق حركة التمرد في الهند تلك السنة، وسط أعمال انتقامية فظيعة.

من 6 إلى 20 أيار / مايو، يتعافى ماركس إلى الحد الذي يسمح له بالذهاب في نقاهة عند إنجلز في مانشستر. وتتحسن صحته سريعاً، حتى إنه يأكل ويشرب كثيراً، ويمتطي الجياد، للمرة الأولى كما يبدو. لكنه لا يكتب بالطبع، بل يغتنم الفرصة لطلب المال من صديقه الذي يقبل بإقراضه. فيسلمه أمراً بالدفع لما بعد ستة أشهر. وفي 31 أيار / مايو، يكتب كارل بعد عودته إلى لندن إلى إنجلز بأنه في «كامل صحته»، وأنه سيستأنف العمل. ويضيف: «ستسامحني على المديح الذي اضطررت لتوجيهه إلى هرقليطس المغمور» – أي إلى لاسال.

وفي اليوم ذاته، يكتب ماركس إلى لاسال كي يبلغ ناشره بأنه لم يستطع بعد، لأزمة كبدية، إنجاز الكراس الأول من الكتاب الموعود.

ثم يعود مرض الكبد من جديد مع ارتفاع درجات الحرارة، كما يظل وضعه المالي حرجاً. وليس لديه من مورد إلا بعض المقالات لـ(نيويورك دايلي تريبيون) وموسوعة دانا، مع بعض الكتابات هنا وهناك، وما يدفعه له إنجلز. ويخصص كارل في هذا الصيف وقتاً طويلاً للبحث عن مصرف يقبل بحسم قرض إنجلز. ولا يزال متوقفاً عن الكتابة. ولم يتمكن من الكتابة إلا في أيلول / سبتمبر، إذ ينكب على العمل في المخطوط الذي وعد به دونكر. فيفكر عندئذ في إنجازه «خلال أسبوعين». ويؤكد هذا لإنجلز في 21 أيلول / سبتمبر 1858: «لن يذهب

مخطوطي إلا الآن (خلال أسبوعين)، ولكن ملزمتين دفعة واحدة. ومع أنني لم يكن لدي ما أفعله إلا حسن صياغة ما كان كُتب، إلا أنه يحدث لي البقاء ساعات قبل أن أصوغ جيداً بضعة جمل».

وواقع الحال أن خمسة عشر يوماً تمضي ولا يحدث شيء. فيقلق لاسال الذي التزم مع الناشر، ويكتب مستفهماً. ولكن بلا جدوى.

بعد شهرين، في 12 تشرين الثاني / نوفمبر يكتب كارل له رسالة اعتذار مؤثرة جديرة أن تذكر مطولاً:

«كانت لدي المادة أمامي، ولم يكن باقياً إلا الشكل. والحال إنني في كل ما كنت أكتبه، كنت أشعر عبر الأسلوب بمرض الكبد. ولدي سببان لعدم السماح بإفساد هذا العمل بعلل راجعة للطب: 1. إنه نتيجة خمسة عشر عاماً من الدراسة، أي أفضل سنوات حياتي؛ 2. إنه يمثل للمرة الأولى بطريقة علمية كيفية هامة في رؤية العلاقات الاجتماعية. فمن واجبي إذاً نحو الحزب أن لا يكون الشيء مشوهاً بهذه الطريقة المضجرة والمتشنجة في الكتابة التي تميز كبداً مريضاً. وأنا لا أتطلع إلى أناقة العرض، بل فقط إلى الكتابة بطريقتي المألوفة، وهو ما كان خلال هذه الشهور من الألم، مستحيلاً علي (..) في هذا الموضوع على الأقل. وأنا أظن أنه فيما لو عُرضت هذه الحالة على السيد دونكر، حتى من قبل شخص أقل براعة منك، فإنه لن يستطيع إلا تأييد تصرفاتي التي تعني، فيما يتعلق به كناشر، ببساطة أنني أسعى إلى إعطائه في مقابل ماله أفضل سلعة ممكنة. (..) من الممكن أن يأخذ القسم الأول (رأس المال في العموم) ملزمتين على الفور؛ فلدى التبييض، أجد هنا، حيث يتعلق الأمر بالقسم الأكثر تجريداً من الاقتصاد السياسي، بأن إيجازاً أكثر من اللازم قد يجعل قراءته عسيرة. لكن القسم الثاني، من

جهة أخرى، ينبغي أن يظهر في الوقت ذاته. فالتسلسل الداخلي يتطلب ذلك، والتأثير كله متعلق به».

إن الأعذار التي يختلقها ماركس لتبرير تأخره ذات تأثير لا يقاوم: فهو لا يريد أن «يكون الشيء مشوهاً بهذه الطريقة المضجرة والمتشنجة في الكتابة التي تميز كبداً مريضاً»؛ وهو لا يريد أن يلام من قبل «حزب» غير موجود!.. وكأنما كان يعيش، وهو الملاحظ الفطن للآخرين، في عالم آخر: إذ إن «الحزب» و«فضل القيمة» كتصوريـن مجرديـن، لا يصيران واقعين إلا ضمن طريقته في قراءة العالم، مثلما أن كتابه لا يوجد إلا بالأسلوب الذي يتكلم به عنه للآخرين..

وثمة إشارة جديدة إلى العولمة السائرة إلى الأمام: ففي تلك الآونة بالضبط، يقوم يهودي ألماني آخر، اعتنق المسيحية والتجأ إلى لندن منذ 1848، هو بول - جوليوس رويتر، بما تأسف ماركس على عدم فعله: إذ يؤسس وكالة للصحافة خاصة به، بعد خمسة عشر عاماً من تلك التي أسسها في باريس يهودي آخر هو شارل هافا. وما يثير الاستغراب أن ماركس ورويتر، وهما صحافيان يهوديان، يعيشان في لندن، لن يلتقيا أبداً.

ومرة أخرى، يتم استيعاب الأزمة الاقتصادية. ومرة أخرى، لم تكن هي إذاً «الأزمة النهائية»، حتى وإن كانت الأولى من نوعها، إذ ضربت الصناعة في المدن، كما ضربت الزراعة.

بعد بضعة أسابيع فقط، وفي رسالة جديدة لإنجلز، يبين ماركس أنه لم يعد يؤمن بأفول سريع للرأسمالية، بل يشعر بقدوم مرحلة طويلة من العولمة، حبلى بالثورة ولا شك، لكن بثورة أضعف من أن تستطيع الصمود في مواجهة سائر العالم، إذا ما بقيت محصورة في بلد واحد. فلنتأمل في هذه الرسالة، هذه الجمل الرائعة: «إن البورجوازية تعرف نهضة جديدة. والسوق العالمية موجودة حقاً الآن. ومع فتح كاليفورنيا واليابان للسوق العالمية، حصلت لدينا العولمة. وإذاً، فالثورة وشيكة الوقوع؛

وسيكون لها الطابع الاشتراكي. والمشكلة الوحيدة التي أطلب رأيك فيها، هي كيف للثورة أن تتمكن من المقاومة في بقعة صغيرة من العالم كأوروبا؟».

هذا التساؤل الأخير - «كيف للثورة أن تتمكن من المقاومة في بقعة صغيرة من العالم كأوروبا -، الجد بعيد، مثل كثير غيره، عن الاستعمال الذي سيجري لاحقاً لعمله، يؤكد تشكك ماركس في مستقبل ثورة تظل محصورة في بلد واحد، ولا يفتأ يكرره في كل مناسبة.

وينكب كارل من جديد على العمل بسرعة وبتركيز، وينتهي الكتاب حقاً. وكل ما يستطيع كسبه من المال، مثل كل أيام الآحاد، يواصل تخصيصه لأطفاله. ويحول إلى إليانور، وهي في الثالثة من عمرها الآن، كل الولع الذي كان يكرسه لإدغار. إذ يعلمها، كما فعل مع هذا الأخير، مقتطفات من شكسبير، لكنه يهمل مع ذلك البنتين الكبيرتين، فلا شيء كثير عليهما: وهما تترددان على المدرسة الخاصة - وهذا يستلزم نفقات للملابس - وتأخذان دروساً في الموسيقى وفي المسرح. حتى إن ماركس يشتري في بداية كانون الثاني / يناير بيانو مستعملاً، صَعُب إدخاله إلى الشقة.

في 15 كانون الثاني / يناير، يُعلم كارل فريدريك بأن مؤلفه حول النقود قد أنجز أخيراً، وسينشر قبل كتابه حول العمل ورأس المال. إذ يشعر بأن نظريته في قيمة العمل ليست مضبوطة بعد، ولذا يقرر مفارقة نظريته حول النقود، باعتبارها أكثر تقليدية. ولا يزال الخلط مع الكتاب التالي تاماً: «إن المخطوط يعادل 12 ورقة مطبوعة (ثلاث ملازم) ومهما كان عنوانها (رأس المال في العموم)، فإن هذه الملازم لا تتضمن شيئاً حول رأس المال، بل فقط الفصلين: 1- السلعة، 2- النقود أو التداول البسيط. فأنت ترى إذاً أن القسم المهيأ بالتفصيل (في أيار / مايو، حينما جئت لرؤيتك) لا يُنشر بعد. لكن هذا حسن من وجهين. وإذا ما سارت الأمور، سيمكن للفصل الثالث «في رأس المال» أن يتبع بسرعة».

«إذا ما سارت الأمور» أي إذا ما كتب ماركس، وإذا ما لقي الكتاب الأول قبولاً حسناً. وبنظرة جد صفيقة لنقاد الصحافة، يتابع: «نظراً لطبيعة الأشياء، لن يستطيع هؤلاء القرود قصر انتقاداتهم للجزء المنشور أولاً، على مجرد شتائم متحيزة؛ وبما أن كل شيء يبدو علمياً وشديد الجدية، فسيجبر هذا هؤلاء الأوغاد على النظر من ثم بجدية إلى تصوراتي لرأس المال»..

ويستعيد، كما هو متوقع، ما يوجد في المسودات السابقة (الأسس)، ويبحث فيها موضوع النقود، وبالكاد موضوع السلعة، ويعلن فيها عَرَضاً، كأنه يضرب موعداً، اكتشافه الأكبر الذي ستترتب عليه قريباً نظريته في فضل القيمة، وفي الأزمة وفي أسلوب عمل الرأسمالية: فالعامل لا يبيع (وقت) عمله، بل (قوة) عمله. وما يحرك التاريخ هو تطور القوى المنتجة، وإذاً العلم. ويوضح ماركس عَرَضاً التمييز الذي يقوم به بين أنماط الإنتاج الأربعة التي تعرض لها في المسودات السابقة، وفي مقاليْ 1853، المخصصين لـ(نيويورك دايلي تريبيون): النمط الآسيوي المعرف بتبعية كل الشغيلة للدولة (كما في الصين)؛ النمط القديم المعرف بتبعية العبد للسيد (كما في الإمبراطورية الرومانية)؛ النمط الإقطاعي المتميز بتبعية الفلاح للنبيل عن طريق السخرة (كما في العصر الوسيط بأوروبا)؛ أخيراً النمط البورجوازي الذي يتميز بتبعية الأجير لمالك رأس المال. ويكتب كارل بهذا الأسلوب المعقد، الممزوج بالتلاوين والاحتياطات الذي يميز كتبه، بخلاف مقالاته: «إن علاقات الإنتاج البورجوازي هي الشكل العدائي الأخير لعملية الإنتاج الاجتماعي، ليس بمعنى عدائية فردية، بل عدائية تتولد من ظروف الحياة الاجتماعية للأفراد (..). ومع هذا التشكل الاجتماعي ينتهي إذاً ما قبل تاريخ المجتمع البشري».

وكما كان فعله قبل خمسة عشر عاماً في (الإيديولوجية الألمانية)، يكرر ماركس التأكيد بأن هذه الحتمية التاريخية لا تعني الإبداع الفني الذي يظل مستقلاً عن التطور الاقتصادي والسياسي: «إن عصور

الازدهار الفني المحددة، لا علاقة لها مطلقاً مع التطور العام للمجتمع، ولا مع تطور قاعدته المادية التي تشكل هيكله». فعلى عكس الأفكار التي ستنسب إليه فيما بعد، لم يفكر قط بأن حالة الفن تعبر عن علاقات القوة في الزمن الذي عاشه الفنان.

ويقوده التفكير حول الفن أيضاً إلى التطرق إلى الموسيقى. وهي الفرصة بالنسبة إليه للتلميح إلى قلقه الرئيس في موضوع نظريته في القيمة: إذ قد لا تختزل قيمة الأشياء ربما إلى الوقت اللازم لإنتاجها. لأنه هنا يصطدم بتناقض هام: فطبقاً لتحليله (الذي لم ينشره هنا بالتفصيل بعد)، لا يكون العامل «منتجاً» (أي ينتج قيمة تبادلية) إلا إذا كان مأجوراً ويصنع شيئاً مادياً، أو يقدم خدمة يبيعها رأسماليون بربح. وهكذا، ليس العازف الموسيقي «منتجاً» إلا إذا كان مأجوراً لدى متعهد رأسمالي، وليس المؤلف منتجاً إلا إذا كان مأجوراً لدى ناشر مدونات موسيقية. إذ يكتب ماركس: «لا يمكن تقديم عمل عازف البيانو كعمل منتج بصفة غير مباشرة سواء لأنه يشجع الإنتاج المادي للبيانو، على سبيل المثال، أم لأنه يبعث مزيداً من الطاقة والنشاط في العامل الذي يستمع إلى نغماته. ذلك لأن العمل المبدع للرأسمال وحده هو المنتج، وكل عمل آخر بالتالي، مهما كان مفيداً أو ضاراً، ليس منتجاً يضيف إلى رأس المال». ويلاحظ بكل نزاهة «إن عازف الموسيقى غير منتج إذاً. لكن منتج التبغ منتج، مع أن استهلاك التبغ غير منتج» شيء محير!.. ويضيف: «إن مغنية تغني كالعصفور هي عاملة غير منتجة. وحينما تبيع غناءها، فهي مأجورة أو بائعة. إما إذا كانت مغنية متعاقدة لتقديم حفلات وجلب المال، فهي منتجة، لأنها تنتج مباشرة رأس مال». والمؤلف، من جهة، ليس منتجاً إلا إذا كان مأجوراً لدى ناشر.

وهذا يعني، إذا ما تتبعنا نظرية ماركس، أنه بينما يخلق العازفون وصانعو الآلات وناشرو المدونات الموسيقية ومتعهدو الحفلات ثروة، فليس المؤلف، كعامل مستقل، يكافأ على سبيل المثال بحقوق المؤلف التي يتلقاها

على أعماله المطبوعة والمقدمة، «منتجاً» لثروة، لا يمكن لها أن توجد مع ذلك بدونه. وهذا غير معقول بالطبع! وكل هذا يصدم العقل السليم ولا يمكن قبوله إذاً إلا إذا قُرر أن اقتصاد الموسيقى يخرج عن الاقتصاد. «(فالموسيقيون) لا يدخلون إذاً في صنف العمال المنتجين، ولا في صنف العمال غير المنتجين، مع أنهم ينتجون سلعاً. لكن إنتاجهم لا يدخل تحت نمط الإنتاج الرأسمالي». وماركس الذي يدرك لا معقولية ما يكتبه هنا، يطمئن نفسه باعتبار الموسيقى والفن والإعلام على وجه العموم منتجات هامشية، لا تأثير لها على الحركية الكلية للرأسمالية.

أخيراً، يتحدث مطولاً في هذا الكتاب عن التقانة وعن تسريعها للعولمة، وينهي بمديح جديد للرأسمالية: «إن الإنتاج الرأسمالي يخلق الصناعة العالمية، من جهة، أي العمل الفائق، العمل الذي يخلق القيمة؛ ومن جهة أخرى، يخلق منظومة استغلال كلي للموارد الطبيعية والبشرية، منظومة نفع عام أساسها العلم وكذا كل المزايا المادية والروحية (..)؛ وهنا يكمن تأثير الرأسمال الكبير المحضِّر: إذ يرفع المجتمع إلى مستوى تبدو كل المراحل السابقة إلى جانبه تطورات محلية للإنسانية، ولعبادة الطبيعة».

ويقدم ماركس للمؤلَّف بتوطئة رائعة:

«فكما أنه لا يُحكم على فرد من الفكرة التي يكونها عن نفسه، لا يمكن الحكم على عصر انقلابات كهذا من وعيه بنفسه؛ بل يجب على العكس تفسير هذا الوعي بتناقضات الحياة المادية، وبالصراع الواقع بين القوى المنتجة الاجتماعية وعلاقات الإنتاج. فلا تزول بنية اجتماعية أبداً قبل أن تتطور كل القوى المنتجة التي تتسع لها هذه البنية؛ وما من علاقات إنتاج جديدة ومتفوقة تعوضها قبل أن تنشأ ظروف الوجود المادي لهذه العلاقات في قلب المجتمع القديم. ولهذا السبب لا تضطلع الإنسانية أبداً إلا بمهمات تستطيع تحقيقها».

وهكذا يكون كتاب (إسهام في نقد الاقتصاد السياسي) قد تم. ولم يعد لدى ماركس الآن أية ذريعة لإبقائه لديه.

غير أن ماركس، بإنفاقه كل ما يكسب على بناته وكتبه، يجد نفسه في حالة من العوز لا تسمح له حتى بدفع تكلفة إرسال المخطوط إلى برلين، أو التأمين عليه في حال الضياع! إذ لا يغطي التأمين بالطبع إلا ضياع حقوق المؤلف. فيكتب إذاً من جديد، بعد ستة أيام، إلى إنجلز طالباً منه مرة أخرى بعض المال، ومرة أخرى مبلغاً صغيراً، وهو يرى من واجبه مرة أخرى تبرير طلبه بالتفصيل: «لقد تم المخطوط السيء الحظ، لكن لا يمكن له أن يُرسل، فليس لدي قرش لإرساله والتأمين عليه. وهذا ضروري لأنني لا أمتلك نسخة ثانية من الكتاب. ولذا أجد نفسي مضطراً لأن أرجوك إرسال بعض المال، حتى الاثنين». وهنا يضيف بفكاهة باردة هذه الجملة التي ستغدو مشهورة: «لا أظن أن امرءاً كتب عن المال وهو يفتقر إليه إلى هذا الحد! فأكثرية المؤلفين الذين بحثوه كانوا يعيشون في توافق تام مع موضوع بحوثهم».

وكالعادة، يقدم إنجلز الأموال اللازمة، ويذهب المخطوط في 25 كانون الثاني / يناير. لكن الناشر يتمهل في الإبلاغ بوصول الطرد. فيرتعب ماركس -- إذ إن الكثير من الطرود تفقد سواء بالبحر أم بالسكك الحديدية أو على الطرقات --، ثم يرسل المقدمة المؤرخة في 1859. ونسخت جيني هذه المرة كل شيء ليكون النص مقروءاً، ويتأخر (إسهام في نقد الاقتصاد السياسي) في الظهور، لأن الناشر منشغل بترويج مؤلف جديد للاسال، هو مأساة تاريخية بعنوان (فرانز فون سيكينجين)، يحتفي الشاب الاشتراكي المتأنق فيه بالوحدة الألمانية، ويستشيط كارل غضباً.

وللتصبر، يكتب كارل من جديد في صحيفة الميثاقيين، (بيبلز بابير)، ويقوم حتى بإدارة (فولك) وهي نشرة غير دورية للجمعية الثقافية للعمال الألمان في لندن التي كان هجرها منذ ثمانية أعوام. وفي الوقت

ذاته، يكتب إلى لاسال متسائلاً عن الإبطاء في نشر كتابه، وعن مواقف مراسله حول التقارب الذي يلوح بين فرنسا وروسيا القيصرية، عدوته اللدود.

إذ لم تعد تتحدث أوروبا كلها بالفعل إلا عن الحركات التي تتجه الآن إلى الترويج للوحدتين الألمانية والإيطالية: وروسيا مستعدة لمساعدة الأولى والثانية؛ بينما تعرقلهما النمسا. ولاسال إلى جانب الوحدة الألمانية تحت الراية الروسية، وإلى جانب الوحدة الإيطالية ضد الغازي النمساوي؛ ويعتقد حتى بأن تحالفاً بين بروسيا وروسيا ضد النمسا سيسوي المشكلتين. أما بالنسبة لكارل، فإن التحالف بين بروسيا وروسيا لن يؤدي إلا إلى تقوية القيصر الروسي، وسيشكل إذاً كارثة على الطبقة العمالية العالمية. وينبغي أن يوضع هذا الاعتبار في الحسبان، في رأيه، قبل مسألة المصلحة الوطنية. فالأول، لاسال، يتخذ وجهة نظر بروسيا، بينما يتخذ الآخر، ماركس وجهة نظر الثورة العالمية. وكلاهما يراهنان على موقف باريس في حالة وقوع حرب بإيطاليا: فلاسال يتمنى أن تنضم فرنسا إلى البيمونتيين لتسريع الاستقلال الإيطالي؛ ويخشى ماركس من هذا الاحتمال، لأن هزيمة نمساوية لا يمكن أن تؤدي إلا إلى تقوية روسيا. ولم يكن لا هذا ولا ذاك يعلم بأن الوزير الأول البيمونتي كافور، أقنع لتوه نابليون الثالث خلال لقاء سري في بلومبيير، بإرسال قوات لنجدته في حالة وقوع عدوان نمساوي.

وفي 4 شباط / فبراير 1859، يكتب ماركس من جديد إلى لاسال مستفهماً حول نشر كتابه: «إن روسيا وراء انتهازي التويلري (نابليون الثالث) وتدفعه (إلى الحرب في إيطاليا). (..) وإذا ما تعثرت النمسا في حرب بإيطاليا، فستكون روسيا متأكدة تقريباً من تحطيم المقاومة التي تواصل النمسا مواجهتها بها».

ويلخص ماركس بمساعدة إنجلز وجهة نظره إلى لاسال، في 25 شباط / فبراير، متعرضاً لأدق التفصيلات التكتيكية، ورابطاً إياها

بنزاعهما الأكبر: «من مصلحة النمسا الملحة أن تحتفظ بخط مينسيو [نهر يعبر بحيرة غارد]، أما ألمانيا كقوة موحدة ليس لها أي خط».

في نيسان / أبريل، لم يكن مخطوط ماركس وهو لدى الناشر منذ أربعة أشهر قد نشر بعد، كما لم يستلم كارل العربون المتفق عليه بالعقد لدى وصوله، فيعبر عن غيظه في رسالة إلى إنجلز: «هذا السافل دونكر مسرور لعثوره على ذريعة جديدة (نشر مسرحية لاسال «فرانزفون سيكينجين») كي يؤخر دفع مكافأتي. ويمكن لليهودي الصغير أن يتأكد من أنني لن أنسى هذا المقلب!» ومنذ هذه اللحظة، لن يدعو لاسال في رسائله لإنجلز إلا بـ«إيتزيغ»، «إفرايم غيشيدت»، «يهودي حقيقي»، «الزنجي»، بل «الزنجي الجرماني - اليهودي». وليس هذا لديه إلا إحدى ملامح التفكه الثقيل لديه. إذ سيدعو صهره المستقبلي فيما بعد بول لافارغ، بحنو، «زنجينا الصغير».

وهو أيضاً إظهار لكراهية الذات التي تتملكه أحياناً، كصورة مقلوبة لعقدته في التفوق؛ ذلك أنه هو نفسه يخضع آنذاك لهجومات معادية للسامية لا تحصى، لاعتباره يهودياً وأسمر من قبل كل أولئك - بمن فيهم بناته - الذين يشيرون إليه بـ«المغربي» سواء بلطافة أم دونها.

وفي هذه الأثناء، يتذرع الوطنيون الإيطاليون لـ«الجمعية الوطنية من أجل الاستقلال» باعتداء نمساوي وهمي، ويستولون على توسكانيا وعلى رومانية البابوية وعلى مودين وبارم. فتدخل فرنسا، تبعاً لاتفاقية بلومبيير السرية في 10 أيار / مايو 1859، الحرب إلى جانب البيمونت. ولعبة التحالفات الآلية التي ستطلق شرارة الحرب العالمية الأولى، تجرب هنا.

فينحاز إنجلز عندئذ ضد هذه الحرب في مقالات استراتيجية عسكرية بالغة التقنية (البو والراين؛ السافوا، نيس والراين؛ مسألة الوحدة الإيطالية)، نشرها غفل من الاسم. أما لاسال، فينشر - لدى دونكر دائماً - رسالة ينصح فيها بسمارك باغتنام فرصة التعثر النمساوي

في إيطاليا لوضع اليد على شليزويك - هولشتاين، وتحقيق الوحدة الألمانية. وبما أن الناشر يقوم بالترويج لهذه الرسالة، فهو يؤخر صدور كتاب ماركس الذي ليست له أي علاقة مع الأحداث الراهنة.

في 18 أيار / مايو 1859، يشتعل ماركس غضباً في رسالة إلى إنجلز ضد رسالة لاسال الذي لا يزال يقدمه على أنه مراسل «الحزب»: «إن رسالة لاسال غلطة كبيرة. (..) فإذا ما كان لاسال يسمح لنفسه التحدث باسم الحزب فعليه إما انتظار أن نتبرأ منه بصراحة لأن الوضع أكثر أهمية من أن نتساهل فيه، وإما البدء بالإطلاع على آراء الآخرين، عوضاً عن إتباع إلهاماته بنصفها الناري ونصفها المنطقي. وعلينا الآن السهر على انضباط في الحزب، وإلا سيتحطم كل شيء». لكن غضبه راجع في الواقع إلى الأسلوب الذي يعامله به لاسال: فبعدما وعد بالاهتمام بنشر كتاب ماركس، إذا به ينساه للاهتمام بكتابه.

ويصدر في نهاية أيار / مايو 1859، أخيراً (إسهام في نقد الاقتصاد السياسي) في برلين مطبوعاً في ألف نسخة.

في هذه الآونة، يتخذ المدعو كارل فوغت، وهو عالم أحياء ألماني، انخرط في معسكر الديمقراطيين في 1848، ويعيش منذئذ في سويسرا، حيث استقبل باكونين قبل عشرة أعوام، موقفاً ضد ماركس. ويصدق كارل الأقاويل التي تتهم فوغت بالعمالة لنابليون الثالث. ويدلي بشكوكه إلى إيلارد بيسكامب، رئيس تحرير (فولك) الذي ينشرها. فيرد فوغت في صحيفة سويسرية. وعندما يتلقى ويلهلم ليبكنيخت رسالة مغفلة الاسم تؤيد هذه الاتهامات، يرسلها إلى صحيفة ألمانية أكثر أهمية، محافظة ومناصرة للنمساويين، هي (أوغسبرغ ألجيمين زيتونغ)، وهو ما يؤمن لهذه الاتهامات دوياً أكبر. وسيقوم فوغت قريباً بدور هام في تطور ماركس.

بعد ذلك بقليل، في 4 حزيران / يونيو، ينتصر الحليفان الفرنسي والبيمونتي في ماجينتا، حيث كاد نابليون الثالث يقع في الأسر. وتخلف المعركة 9000 قتيل في الميدان. ويدخل الجيش الفرنسي منتصراً، بعد

ثلاثة أيام ميلانو؛ ويُرقى ماكماهون إلى رتبة مارشال، ويسمى دوق ماجينتا. فتتخلى النمسا عن لومبارديا إلى البيمونت، التي تنضم إليها كل من بارم، مودين، توسكانيا، وورومانية. بينما تضم فرنسا نيس وسافوا.

وفي الوقت الذي تدور هذه الحرب، يرسم جان - فرانسوا ميلليه (الإنجيلوس)، وتكتشف أول مكامن البترول في بنسيلفانيا.

أما الـ(إسهام في نقد الاقتصاد السياسي) الذي أعلنه ماركس نفسه كإضافة أساسية، فيخيب آمال تلاميذه الأكثر إخلاصاً. إذ يكتب ويلهلم ليبكنيخت في لندن إلى أحد أصدقائه أنه «ما من كتاب خيب أمله مثله». ولا يظهر أي نقد في الصحافة الألمانية، ولا يفعل لاسال شيئاً بهذا الشأن. وفي لندن نفسها لا يظهر إلا عرضين للكتاب، كلاهما في صحيفة اللاجئين الألمان (فولك) وكلاهما موقعان من.. إنجلز!

وكارل فوغت الذي تعرف في حاشية ماركس على مصدر الشائعة التي روجها ضده، يكتب عندئذ كتاباً يتهم فيه ماركس بتزييف العملة وبالطغيان يمارسه على تلاميذه وبالافتراءات على خصومه السياسيين، وبابتزاز الأموال من الشيوعيين السابقين تحت طائلة التهديد بالكشف عن ماضيهم. كما يدعي أنه على رأس منظمة سرية، يسميها (شويفلباند) أو أيضاً (بورستنهيمير) (على اسم التحقير المعطى لنادٍ للعمال السويسريين). ويشكل مؤلف فوغت موضوعاً للعديد من العروض؛ وتظهر مقتطفات منه في صحيفة (ناسيونال زيتونغ) ببرلين، وحتى في الـ(دايلي تليغراف) بلندن، التي تزعم أن ماركس زعيم منظمة سرية تسمى «عصابة النار والكبريت»! فيرد ماركس في البداية بهز كتفيه.

في تلك السنة، يكتب برودون: «إن ماركس دودة الاشتراكية الوحيدة». بينما يكتب ماركس عنه لويدماير «ينبغي على الشيوعية أن تتخلص قبل كل شيء من هذا الأخ الزائف».

وفي سنة 1859 ذاتها، يصدر (أصل الأنواع ووسائل الانتخاب الطبيعي) لشارلز داروين، الذي يقرأه إنجلز على الفور، مأخوذاً بما

يكتشفه فيه من معنى للتطور. ويتكلم عنه بحماس مع ماركس: فداروين منهم، كما يقول له، لأنه يؤمن مثلهم بنوع من التاريخ العلماني للبشرية، ولأنه يصف معركة من أجل الحياة (صراع البقاء) تشابه تماماً المنافسة التي تفرضها السوق. فلا بد من لقائه، كما يقترح فريدريك: إذ يعيشان على مسافة قصيرة أحدهما عن الآخر. وسيحاول ماركس فيما بعد، كما سنرى، الاقتراب من داروين الذي لن يستجيب أبداً لإشارات مؤلف (رأس المال).

في ذلك الصيف، جيني وكارل يقرران إرسال البنات «لتنفس الهواء النقي» خلال بضعة أسابيع على شاطئ البحر، مراعاة لما بدأ يصير (موضة) آنذاك. وتظن جيني أن الصغير إدغار كان بقي على قيد الحياة لو كان بإمكانهم اصطحابه إلى البحر؛ وبعد وفاة ثلاثة من أطفالهما، لا شيء كثير على الثلاثة الباقين. إلا أن النفقات الباهظة والمقننة مسبقاً جعلت الأسرة تواجه في خريف 1859 خطر قطع الماء والغاز، ولا يرى كارل إلا بمعجزة كيف سيتمكن من دفع الفواتير المتأخرة. فيجب الاقتراض من جديد، وهو ما سيزيد في التكاليف، لأنه لا بد من دفع فوائد باهظة.

في نهاية 1859، يبلغ بكارل المرض والعوز وخيبة الأمل من استقبال كتابه حداً يجعله يقطع من جديد بحوثه، ليتفرغ للمقالات التي تقيم أود أسرته. فينشر تلك السنة سبعة وثلاثين، فقط في (نيويورك دايلي تريبيون) مقابل 3 جنيهات تقريباً لكل مقال، أي 100 جنيه في المجموع، وهو ما يمثل ثلث دخله السنوي، ويرد الباقي من دفعات إنجلز.

وتزداد منذ 1860 المساعدة المالية من هذا الأخير بعض الشيء: ذلك أن والد إنجلز، وقد اقتنع بمواهب ابنه الإدارية، يمنحه وضعية الشريك. وفريدريك - الذي يحتفظ بعلاقة ريبة وعداء مع أبيه، بينما يقدس أمه (على العكس من ماركس) - يرسل أكثر فأكثر إلى صديقه مبالغ من جنيهين إلى خمسة، دائماً على شكل أوراق نقدية مقسومة إلى

قسمين، توضع في ظرفين منفصلين. حتى إنه يرسل إليه تلك السنة مائة جنيه دفعة واحدة لتخليصه من ورطة تسببت بها أدوات المائدة الفضية التي ورثتها جيني من أجدادها الإسكتلنديين، والتي رهنتها مرة أخرى لتوها في سجن ماركس، لأن المقرض بالرهن، يشك بأنه سرقها عندما رآه يطلب قرضاً متواضعاً في مقابلها!

وفي تلك السنة أيضاً - 1860 - يُفتتح مركَّب كروزو للحديد والصلب الذي بتشغيله 10.000 عامل، يصبح أكبر موقع صناعي في العالم. كما ينشر بودلير في هذه السنة أيضاً (الفراديس الإصطناعية). وفي إيطاليا، يستولي غاريبالدي، وهو جمهوري يسانده كافور سراً، على مملكة الصقليتين، على رأس ألف من المتطوعين؛ لكن الجيش البيمونتي، بحجة منعه من احتلال روما وإعلان الجمهورية فيها، يحتل لي مارش والأمبري اللتين أخذتا من البابا، ويُتم بذلك الوحدة الإيطالية حول ملك ميلانو.

وكارل يحب قراءة الروايات. إذ يكتشف في 1860، رواية (التحفة المجهولة) لبلزاك، وهي قصة فنان رسام، لا يتوصل لفرط ما يضيف للوحته، إلى إنهائها، ولا إلى توضيح رؤيته الداخلية الخاصة للآخرين. فيقرر للإفلات من مأزقه السفر بحثاً عن نماذج حتى يواجه عمله بالطبيعة في شتى أشكالها. ويؤثر هذا الكتاب تأثيراً عميقاً في كارل. فهذه الصورة تذكره بديموقريطس الذي خصص له جزءاً من أطروحته، والذي يقذف بنفسه هو أيضاً في عالم التجربة والتعلم لكل فروع المعرفة العلمية، ويترحل حتى يحل التعارض بين الإشراق في نفسه والانعكاس الشاحب الذي يقدمه العالم لعينيه. وإذا ما كان كارل لا يترحل عبر العالم بأسره؛ فإنه يتعلم عدة لغات، ويقرأ المئات من المؤلفات. وإذا ما كان غير محروم من النظر، كديموقريطس، فهو يعاني من العديد من الأمراض نتيجة لمسيرة جلية من التحطيم الذاتي.

في 1860، يقنعه لاسال بأن تهم فوغت الخطيرة قد تلقى صدى

لدى الذين لا يعرفونه، وينصحه بالرد عليه. فيكتب ماركس عندئذ إلى إنجلز بأنه مصمم على ملاحقة صحيفة (ناسيونال زيتونغ) التي نشرت افتراءات فوغت. إذ لديه الآن الانطباع بوجود مؤامرة دبرت ضده؛ إن فوغت، كما يقول، «يزيف كل ماضيّ». وينطلق في شباط / فبراير إلى المعركة، فيرسل الرسائل، ويلتمس شهادات المساندة ويكتب كتاباً من 200 صفحة ضد فوغت: (هر فوغت). لكن نسخه تصادر من قبل الشرطة، وعلى ماركس أن يدفع تكلفة الطبع. ويرسل في 3 آذار / مارس 1860، إلى ويبر، المحامي الذي يدافع عنه ضد فوغت، رسالة من اثنتي عشرة صفحة، يشرح فيها التضحيات المالية التي بذلها لنشر (الغازيت رينان) في كولونيا. «بما أنني أنا نفسي ابن رجل قانون (المرحوم هنريش ماركس من تريفز، الذي كان لوقت طويل نقيباً للمحامين في محكمتها، وتميز بنزاهته وبكفاءته القانونية)، فأنا أعرف الأهمية التي تكتسيها بالنسبة لرجل قانون واعٍ، معرفته التامة بشخصية زبونه». وهي ذكرى أبيه العظيمة، الحاضرة دائماً، المبجلة دائماً، وتكشف في ماركس عن إنسان شديد التعلق بالقيم التقليدية في احترام حقوق الدفاع ودور المحامين. ويمده إنجلز بدعمه، مصرحاً أن (هر فوغت) أفضل أعماله السجالية، حتى وإن كان يود ألا يتخذ النزاع هذا الشكل الحاد.

لكن إنجلز، يرى في الواقع أن كارل يضيع وقته في هذه السجالات التي لا تليق به.

وبعد عشرة أعوام، كما سنرى، ستكشف أرشيفات الشرطة التي صادرها رجال الكومون أن فوغت هذا، كان بالفعل عميلاً لنابليون الثالث.

وفي الفترة ذاتها، تبدأ الحركة العمالية الأوروبية بالتململ من جديد. ففي 18 أيار / مايو 1860، يفضي إضراب عمال البناء في لندن إلى إنشاء اتحاد نقابي. ويرفض ماركس المشاركة فيه، لكنه يكتب إلى صديقه القديم فريليغرات، الاشتراكي - المصرفي - الشاعر، ليكلمه من جديد - كما يكلم لاسال كذلك - عن «الحزب» ككيان مجرد مثالي. وهي

رسالة هامة يشرح فيها أن عمله النظري يمثل أفضل إسهام يمكن أن يقدمه إلى قضية الثورة: «ألفت انتباهك إلى أنني منذ 1852، حينما حلت العصبة باقتراح مني، لم أنتسب قط ولا أنتسب حالياً لأي جمعية سرية أو علنية، وبالتالي توقف الحزب عن الوجود بالنسبة لي، منذ ثمانية أعوام (..). فأنا على اقتناع عميق بأن عملي النظري أكثر نفعاً بكثير للطبقة العمالية من الاشتراك في منظمات عفا عليها الزمان في القارة (..). وإذا ما كنتَ شاعراً فأنا ناقد، وتكفيني التجربة من 1850إلى 1852، والحق يقال، فالعصبة (..) لم تكن إلا حلقة في تاريخ الحزب الذي يولد بصفة تلقائية، في كل مكان، من تربة المجتمع الحديث (..)، الحزب ذو المغزى التاريخي الحديث العظيم».

وبالفعل، وكما يكتب ماركس في هذه الصيغة الرائعة «الحزب الذي يولد بصفة تلقائية، في كل مكان، من تربة المجتمع الحديث»: يطلق عمال من أنصار برودون في فرنسا، يقودهم المدعو تولان (بيان الستين) للمطالبة بالاعتراف بالحقوق النقابية؛ وهي الحال أيضاً في ألمانيا، وفي النمسا، وفي إنجلترا وإسبانيا وإيطاليا.

في صيف 1860، يوجه فريدريك رسالة حانقة إلى جيني: «إنه يكتب أجمل الأشياء في العالم، لكنه يعمل على ألا تخرج في الوقت الملائم، ويذهب كل شيء أدراج الرياح».

وفي السنة ذاتها 1860 دائماً، تتزوج إحدى شقيقات كارل، صوفي، وهي في الرابعة والأربعين، محامياً هولندياً يدعى شمالهاوزن، وتنتقل للإقامة في ماستريشت، حيث تنضم إلى إحدى خالاتها التي أصبحت السيدة ليون فيليبس، من عائلة أمها التي لا تزال تعيش في تريفز مع ابنتها الأخيرة المتزوجة من مهندس محلي. أما ابنتها الرابعة فقد ذهبت إلى جنوب إفريقية كما رأينا.

وفي 1860 أيضاً، تصاب أسرة ماركس بمحنة جديدة: إذ يصيب جيني شكل حاد من الجدري كاد يودي بحياتها، ويتركها مشوهة إلى

الأبد. وهي صدمة شديدة لها. فيرسل كارل عندئذ بناته الثلاث عند ليبكنيخت الذي يقوم له بدور السكرتير، ويقطع عمله للعناية بزوجته. وبعد شفائها، يفرض على نفسه عزلة لعشرة أيام، لوقاية بناته من العدوى.

ثم يستأنف قضاء أوقات الفراغ مع أطفاله، وبخاصة نزهة يوم الأحد.

في كانون الأول / ديسمبر، وبينما تتعافى جيني ببطء لتغرق في الكآبة بسبب آثار الجدري على وجهها، يستعيد كارل إقباله على العمل. فيقرأ (أصل الأنواع) بعد سنة من ظهوره، حيث يجد لدى داروين أسلوبه الخاص في العمل، وتذهن العالم كتاريخ. وهو مندهش من التشابه بين قوانين المنافسة التي يدرسها، وقوانين الانتخاب الطبيعي التي كشف عنها داروين. وبعد عام من الانقطاع يفكر في استئناف كتابه العظيم.

وفي هذا الوقت يرد خبر طيب: ففي 12 كانون الثاني / يناير 1861، يصدر غليوم الأول، ملك بروسيا، بمناسبة جلوسه على العرش، عفواً يسمح لمنفيي 1849 بالعودة إلى البلاد ببعض الشروط. فيكتب لاسال إلى ماركس لإقناعه بالتماس العفو والانضمام إليه في ألمانيا حتى يدعما معاً الحركة العمالية؛ وسيبذل جهده للحصول على عفو الملك الجديد الذي يعرفه وحتى يلتقيه، كما يقول. «فمعاً، كما يكتب، سنصدر صحيفة، وننشئ حزباً، ونعمل أشياء عظيمة!» وكارل حذر لكن الفكرة تستهويه؛ وجيني أقل منه ميلاً، إذ لا تتخيل أنها ستتساهل بشأن أفكارها، وتندهش لرؤية زوجها يفكر في هذا. إذ إن التحول العميق الذي طرأ على وجهها ينزع منها كل رغبة للتألق في العالم. ومع ذلك يتقدم كارل بالتماس العفو.

وفي تلك اللحظة ينشر لاسال كتابه (نظرية منتظمة للحقوق المكتسبة) الذي يوحي بتعزيز الدولة، القادرة وحدها، كما يقول، على الوقوف في وجه البورجوازية. فيغتاظ ماركس لاستشعاره بأن لاسال وهو

يكتب هذا، يقترح في الواقع تحالفاً مع المَلَكية البروسية ضد التحديث الرأسمالي الذي يتمناه من جهته من كل قلبه. فلاسال هذا لم يفهم حقاً أي شيء!

في 2 شباط / فبراير 1861، تعلن إحدى عشرة ولاية جنوبية من ولايات أمريكا الأربع والثلاثين الانفصال، وتؤسس الولايات الكونفيديرالية الأمريكية، وتنتخب جيفرسون دافيز رئيساً، بينما يحتل إبراهام لنكولن البيت الأبيض: وتنشب حرب الانفصال. ويخشى كارل أن يدخل الإنجليز الحرب إلى جانب الجنوبيين لحماية حصولهم على القطن، المادة الأولية الاستراتيجية. فيدعم بعدة مقالات، المظاهرات السلمية الكبرى للنقابات البريطانية.

وفي الوقت ذاته، ترفض الحكومة البروسية العفو عنه: إذ لا تزال ذكرى 1849 جد ساخنة، كما أن الشرطة تدعي الإمساك «بكثير من الوثائق التي تؤكد عداءه للمَلَكية». ويتعلق الأمر دون شك بتقارير ستيبر المذكورة آنفاً.. علاوة على أن ماركس عاش أكثر من عشرة أعوام في الخارج، وبات هكذا «أجنبياً» من الوجهة القانونية. إلا أنه يحصل على تأشيرة مؤقتة – وسيزعم البعض أن الأمر متعلق بجواز سفر مزور – ويذهب إلى ألمانيا في آذار / مارس 1861. ويتوقف في الطريق بهولندا حتى يلتقي في ماستريشت شقيقته التي تزوجت لتوها للمرة الثانية، وفي زالت – بوميل خالته المتزوجة بالمصرفي ليون فيليبس الذي يدير ثروة أمه؛ وربما كان يأمل أن يجد هنا بعض المال.

لم يكن كارل وليون يعرف أحدهما الآخر إلا بالرسائل، وعن طريق جيني التي مرت من هنا قبل عامين. ويعجب المصرفي فكرياً بكارل ويدفع له – بشكل قرض مرفوق باعتراف بالدين لأمه – 160 جنيهاً مضمونة بنصيبه من تركة أبيه التي لا تزال مجمدة من قبل أمه التي لم تبع بعد المنزل العائلي. وتسمح هذه الدفعة لكارل بمحو القسم الأكبر من ديونه آنذاك.

ويهتم كارل بابن المصرفي، وهو شاب مكتئب، ويقع بالخصوص تحت سحر ابنة البيت، أنطوانيت فيليبس (الملقبة بـ«نانيت»)، ابنة خالته الشابة والجميلة وهي في الرابعة والعشرين، بينما هو الآن في الثالثة والأربعين. فيقضي أربعة أسابيع في زالت - بوميل، أكثرها برفقة نانيت التي يقيم معها ولا شك علاقة أفلاطونية. وبعد مغادرته إلى ألمانيا، تبدأ مراسلة بين «عزيزي الباشا» (اللقب الذي أعطته نانيت لكارل) و«ساحرتي القاسية» (هكذا يدعوها من جهته). وجيني التي تتخبط بلندن في الصعوبات المالية المألوفة، تضطر لسؤال إنجلز عما إذا كانت لديه أخبار عن زوجها. إذ تكتب: «إن الرسائل التي يرسلها سيدي ومعلمي العزيز تعاني هذه المرة من أسلوب مقتضب..».

في نيسان / أبريل 1861، وفي الوقت الذي يتوج ملك بيمونت، فيكتور عمانوئيل، ملكاً على إيطاليا، يصل كارل إلى برلين، مرتع شبابه التي غادرها منذ ما يقرب من عشرين عاماً. فيستقبله فيها فريديناند لاسال الاشتراكي الصريح بقدر ولعه بالحياة الاجتماعية، الذي يعيش لدى الكونتيسة صوفي فون هاتزفيلد، عشيقته الغنية التي انتزعها قبل عشرة أعوام من زوجها؛ فتقدمه إلى أرستقراطيين وإلى «عقول مهنية نيّرة». وفي رسالة إلى جيني، يصف كارل هذه الكونتيسة «البالغة الذكاء، والمهتمة بعمق بالحركة الثورية». فتتكدر جيني من الغيرة (لا سيما بعد المرض الذي شوهها) وترفض الالتحاق به في برلين، حيث يمكنها المجيء دون مشكلة، حتى وإن لم يعد أخوها وزيراً منذ ثلاثة أعوام. «إن زوجتي تعارض السفر إلى برلين، لأنها لا تريد أن يدخل بناتنا دائرة هاتزفيلد»، سيكتب فيما بعد إلى إنجلز. ويلتقي أعضاء «حزب تقدمي» صغير، يمثل لاسال أحد قادته. كما يصادف أيضاً موفداً عن مجموعة عمال من دوسلدورف - يقدم نفسه باسم ليفي - يتهم لاسال باستخدام منظمة العمال للدفاع عن مصالحه الخاصة، ومصالح عشيقته. ويضطر كارل من ثم لمغادرة برلين لأن الشرطة كادت تعتقله عندئذ، كما يقول البعض؛ أو

لأن صلاحية تأشيرته انتهت، وعليه القيام بزيارة آخرى، كما يقول آخرون.

وفي طريق العودة، يتوقف بالفعل بضعة أيام في تريفز، لزيارة أمه التي لم يرها منذ أربعة عشر عاماً، ويحصل منها على إلغاء الاعتراف بالدين الذي وقعه أمام المصرفي فيليبس، ثم يزور قبر والده، ويمضي بضعة أيام في هولندا حيث تمرضه ابنة خالته الجميلة نانيت من مرض الجمرة الذي ألم به.

بعد عودته إلى لندن، يكتب إلى ليون فيليبس لشكره على استقباله، والتطرق لاكتئاب ابن خالته الشاب، «وهو مرض يمكن تفسيره بسهولة بأنه، بخلاف غالبية الرجال العظمى، منتقد لنفسه، ولم يبن بعد وجهة نظر سياسية متينة ترضيه». أي نقيض ما كان يود أن يكون هو نفسه. وما هو عليه في الواقع.

خلال هذه السنة 1861، يهتم ماركس كثيراً ببناته، وكأنما للتكفير عن غيابه. إذ ستروي إليانور الصغرى فيما بعد أن أباها، بينما لما تبلغ إلا ستة أعوام، يخصص الكثير من الوقت لتربيتها الأدبية، مثلما فعل قبلاً مع أختيها وأخيها الراحل. وكأنما كان يريد أن يرى فيهما تقمص روح إدغار، إذ يقول كارل للجميع بأن إليانور تشابه الأولاد وأن زوجته أخطأت عند ولادتها! وستجعله إليانور يدفع يوماً ما ثمن عدم حبه لها حقاً لنفسها. وهنا أيضاً، توضح هذه الرواية العائلية الكثير في شخصية كارل:

> **«كان أبي يقرأ هوميروس (نيبيلونجين)، (غودروان)، (الدون كيشوت)، (حكايات ألف ليلة وليلة). وبما أن شكسبير كان كتاب بيتنا المقدس، فقد كان دائماً بين أيدينا وعلى ألسنتنا. فمنذ سن السادسة، كنت أحفظ العديد من مشاهد شكسبير عن ظهر قلب. وفي عيد ميلادي السادس، أهداني «المغربي» (لقب يحبه أطفاله) أول رواية، هي (بيتر سيمبل)، وهي رواية مغامرات للكاتب الإنجليزي فريدريك**

ماريات، إذ أعطاني أبي درساً عن ماريات وكوبر، ثم قرأ لي كل الحكايا، وناقشها معي. وعندما شرحت له أنني كنت أود أن أصير «بوست كابتن» (دون أن تفسر معنى هذا التعبير) وسألته عما إذا كان بإمكاني ارتداء ملابس الأولاد، والتطوع في الجيش، أكد لي أن هذا ممكن جداً، ولكن يجب إبقاء هذا سراً إلى أن تصبح خططنا جاهزة».

ومن ربيع 1861 حتى 1863، يكتب ماركس 1500 صفحة مكثفة، محيياً بذلك مشروعه الأول لكتابة كل عمل قبل نشره: فيخصص 750 صفحة لتاريخ النظريات الاقتصادية السابقة ونقدها؛ و500 صفحة لرأس المال في العموم (من النقطة التي بقي فيها منذ 1859)؛ والصفحات الباقية للموضوعات التي ستكون فيما بعد المجلد الثالث. وهكذا تبدو مسائل المجلد الثاني أقل أهمية لماركس.

في 21 تموز / يوليو تبدأ حرب الانفصال. وكان على الكونفيديراليين الذين يستفيدون من انضمام ضباط ممتازين إليهم، مواجهة تفوق الاتحاد العددي الذي يعتمد على 22 مليوناً من السكان، بينما لم يكن الجنوب يعد إلا 9 ملايين (منهم 3.7 ملايين من العبيد). وإنجلترا بالمرستون لا تعرف أي موقف تتخذ: فهي لا تريد فقدان أسواق الشمال ولا مواد الجنوب الأولية. كما لا تعرف إن كان عليها شن الحرب، وفي أي جانب، ومسألة العبودية غير ذات أهمية بالنسبة لها. ومع ذلك يبدو أنها تُورِّط في النزاع، عندما تعترض السفينة الحربية الشمالية (جاسينتو) سفينة البريد البريطانية (ترينت) التي تصل هافانا بإنجلترا، وتكتشف فيها دبلوماسيين كونفيدراليين مع سكرتيرهما، وهما في مهمة دبلوماسية. فتقوم الحكومة الفيدرالية باعتقالهما وحبسهما في بوسطن، وتحتج لندن، مطالبة بالإفراج عنهما، ثم ترسل 14000 جندي إلى كندا التي تخشى أن تتحول إلى ميدان للمعركة بين لندن وواشنطن، وتجتاحها الجيوش الفيدرالية كإجراء وقائي. وهكذا تحتج النقابات بعنف على هذا

التصعيد العسكري، وتجري العديد من التظاهرات في لندن، يدعمها ويذكيها ماركس.

وفي 7 كانون الأول / ديسمبر يتخذ في مقاله الأسبوعي لصحيفة (نيويورك دايلي تريبيون) الشمالية، موقفاً ضد تحالف إنجلترا مع الكونفيديراليين، محللاً بدقة موقف البريطانيين، علينا اقتباس جزء كبير منه لما يكشفه من معرفة مفصلة لوقائع عصره السياسية.

«إن الأمنية السائدة لدى أنصار الرق وأدواتهم في أمريكا الشمالية، هي جر شمال الولايات المتحدة إلى حرب مع إنجلترا، لأنه في حالة نشوب هذه الحرب، سيكون أول مسعى لإنجلترا الاعتراف بكونفيديرالية الجنوب، والثاني وضع حد للحصار الذي يطبق على الجنوب. (..) وفي ظروف أخرى، كان لأوساط رجال الأعمال في بريطانيا العظمى أن تنظر بفزع إلى حرب كهذه. ولكن فئة نافذة من عالم الأعمال، تدفع الحكومة منذ أشهر لكسر الحصار (المفروض من قبل الشمال على الجنوب) بالقوة، لتموين الفرع الرئيس للصناعة الإنكليزية بالمواد اللازمة (القطن). والخوف من خفض الصادرات الإنجليزية إلى الولايات المتحدة (في حالة وقوع حرب مع الشمال) فقد من قوته لأن هذه التجارة محدودة في الواقع. وهكذا تؤكد صحيفة (الإيكونوميست) أن ولايات الشمال «زبائن سيئون، ولا أهمية لهم». والاعتمادات الهائلة التي كانت ترصدها التجارة الإنجليزية عادة للولايات المتحدة، وبخاصة بقبولها السندات المسحوبة على الصين والهند انخفضت إلى الخمس مما كانت عليه في 1857. زد على ذلك، أن فرنسا البونابارتية المفلسة، المشلولة في الداخل، والمتخبطة بالمشكلات الخارجية، ستسارع إلى حرب إنجليزية - أمريكية كنعمة من السماء. أفليست على أهبة الاستعداد، من أجل

شراء المساندة الإنجليزية في القارة، إلى تعبئة كل قواها لمساعدة «ألبيون الخسيس» فيما وراء الأطلسي؟ ويبحث بالمرستون عن ذريعة شرعية لينطلق في حرب ضد الولايات المتحدة، لكنه يصطدم، داخل حكومته، بالمعارضة الأكثر حزماً من غلادستون. وإذا ما قدر لحكومة واشنطون أن تقدم الذريعة المرجوة، فستسقط الحكومة الإنجليزية الحالية، وستعوض بحكومة من المحافظين. وقد حدثت الاتصالات الأولى توطئة لمثل هذا التغيير بين بالميرستون ودزرائيلي. وهو ما يفسر الدعوات العنيفة للحرب في صحيفتي (المورنينغ هيرالد) و(الستاندارد) هذه الذئاب الجائعة التي تعوي في انتظار بعض الفتات الساقطة من صندوق الدولة العطوف».

فهذا نص موجز وبسيط وواضح؛ بيِّن الاختلاف، مثل كل مقالاته عن كتابته المبهمة في الغالب لنصوصه النظرية.

في 26 كانون الأول : ديسمبر 1860، تطلق واشنطن سراح الدبلوماسيين الجنوبيين المعتقلين، ويخف التوتر مع لندن. ويرى ماركس في هذا نجاحاً للتظاهرات التي أسهم فيها. وهي في الواقع المرة الأولى التي يمارس عمل نقابي فيها تأثيراً ملموساً على مجرى السياسة الخارجية لبلد أوروبي كبير.

وفي اليوم التالي، ثمة مفاجأة كبرى! إذ يصل إلى لندن منشق اختفى منذ اثني عشر عاماً، وذكراه لا تزال في كل الأذهان، هو الفوضوي الروسي باكونين، زعيم التمرد في دوسلدورف، وسيغفريد واغنر، القريب من فوغت، الذي اعتقل في ألمانيا في 1849، وأرسل إلى النمسا، ليسلم ويسجن في روسيا ثم ينفى إلى سيبيريا، في نهاية سفر مذهل: فبعد ثمانية أعوام في السجن، ثم خمسة أعوام في المنفى بسيبيريا، نجح في الفرار والوصول إلى يوكوهاما ثم سان فرانسيسكو وأخيراً إلى ضفاف

التاميز! إذ يأتي لرؤية ماركس والتعبير له عن إعجابه وإبلاغه أن أولويته بعد كل هذه المحن، ستكون ترجمة (بيان الحزب الشيوعي) إلى الروسية.

في السنة التالي (1762) يظهر في بروكسل صديق قديم آخر لماركس، هو موزس هس الذي كان من الممكن أن يكوِّن ثلاثياً مع كارل وفريدريك، والذي ينشر «نداء لتجمع اليهود في فلسطين» عنوانه (روما والقدس). وشهادة ميلاد الصهيونية هذه ترى النور في اللحظة التي يجتهد الإيطاليون والألمان هم أيضاً في إتمام وحدة هويتهم الوطنية الخاصة. وفلسطين عندئذ ليس إلا اسم جزء من «سورية الكبرى» العثمانية، ولا بد من الكثير من الخيال للاعتقاد بأن أمة يهودية ستستطيع أن تعيش فيها يوماً ما.

في تلك السنة، ينشر فيكتور هوغو الموجود في غيرنيزي عندئذ، بعدما غادر واترلو، (البؤساء) في باريس، وينشر فلوبير (سالامبو). ويقال إن مصححي لاكروا، ناشر (البؤساء) كانوا يبكون وهم يكتشفون تجارب الأجزاء الخمسة للكتاب.

وفي 12 نيسان / أبريل 1862، ببرلين، يحث لاسال الذين يظن أن كل شيء مسموح له به أعضاء «حزبه التقدمي» على الاحتجاج ضد فقدان الحرية الذي ميز الانتخابات في لاندتاغ. فيأمر الملك باعتقاله لأنه «عكر صفو السلام الاجتماعي».

وقد كان لاستمرار حرب الانفصال نتائج كارثية على كارل: فهي إذا ما كانت رفعت أسعار القطن، موقعة الصناعة النسيجية البريطانية في أزمة خطيرة، فقد وضعت حداً نهائياً لتعاونه مع (نيويورك دايلي تريبيون) نظراً لصعوباتها المالية، وحرمته من مصدر دخله المهني الوحيد، ليقع من جديد في قلة ذات اليد. إذ لم يعد يعيش إلا من معونات فريدريك المالية، في الوقت الذي كانت التكاليف التي عليه تحملها تزداد مع سن بناته: كالدروس الخاصة، والمناشط الفنية (فهن يعشقن المسرح). وفي الشهر التالي يتأسف لأن بناته ليست لديهن الملابس اللائقة بمتابعة

دروسهن، ولا بزيارة المعرض العالمي للصناعة الذي حصل من أجله على بطاقة صحافية دائمة، وهو يائس إلى حد الشعور بالذعر: فهل عليه الانتقال مرة أخرى؟ إن الانهيار يترصده من جديد.

ويكتب في 18 حزيران / يونيو إلى إنجلز، ليتسول مرة أخرى بعض الجنيهات، معدداً احتياجاته، رسالة مؤثرة: «إن فكرة تحميلك بؤسي تؤلمني، ولكن ما العمل؟ فكل يوم تقول لي زوجتي إنها تتمنى أن تكون في القبر مع أطفالنا، ولا أستطيع لومها نظراً لمهانة وضع كهذا. وكما تعلم، فقد ذهبت الخمسين جنيهاً لسداد ديون، وبقي أكثر من النصف ينتظر السداد، مع جنيهين للغاز. (..) ولن أقول شيئاً عن وضع من يعيش في لندن دون بنس لسبعة أسابيع، وهو ما يحصل لنا غالباً. (..) وأنا متأسف بالخصوص من أجل أطفالنا ذوي الحظ العاثر، لأنها فترة الأعياد». ويشرح كارل لفريدريك أنه إذا لم يجد مالاً، فسيضطر إلى إعلان عجزه عن الدفع، وترك مالك منزلهم يبيع أثاثه، وترك هيلين ديموت تعثر على رب عمل آخر، والانتقال مع جيني وإليانور إلى غرفة مفروشة بـ3 شلنات للأسبوع، وتوظيف لورا وجيني وهما في الثامنة عشرة والتاسعة عشرة، كمدبرتي منزل. ثم ينتقل في الرسالة ذاتها إلى شيء مختلف تماماً، ويعود إلى مناقشة الأفكار؛ وبما أنه قرأ داروين لتوه، يلاحظ: «أنا مندهش من رؤية داروين يكتشف ثانية لدى البهائم والنباتات مميزات المجتمع الإنجليزي، بتقسيمه للعمل وتنافسه، وفتح الأسواق، والابتكار و«الصراع من أجل الحياة»».

فيطمئنه إنجلز ويغطي تكاليفه. ومرة أخرى، يفلح كارل في عدم تجاوز حدود الغرف المفروشة، أي (بيت السكن النموذجي) Model lodging house، رمز الانحطاط إلى درك البروليتاريا.

في الوقت نفسه، يقرر لاسال الذي عفا الملك عنه، القدوم إلى لندن في «جولة دبلوماسية» داعياً نفسه إلى بيت ماركس. وبما أن من المستحيل الرفض، يكتب ماركس عندئذ إلى إنجلز: «للمحافظة على بعض

المظاهر، اضطرت زوجتي لرهن كل ما يمكن رهنه». وبالفعل، يفرض لاسال نفسه ويشرش في منزل ماركس ما يقرب من شهر. ويجب إخراجه للنزهة وإطعامه؛ فيكلفهم تكاليف باهظة. وهو إنجلز أيضاً الذي يغطي النفقات، مطالباً دائماً بالتفصيلات، وتخرج جيني عن طورها. إذ تريد أن ينصرف، وتخرجه في نهاية تموز / يوليو.

في 15 آب / أغسطس 1862، يضع لويس بلان في المتحف البريطاني - الذي لم يعد كارل إليه عملياً منذ أن سلم مخطوط آخر كتبه، قبل ثلاثة أعوام - نقطة النهاية للجزء الثاني عشر من مؤلفه الضخم (تاريخ الثورة الفرنسية)؛ ويُفتتح في الوقت نفسه في لندن معرض عالمي جديد، يزوره كارل بصفته صحافياً معتمداً.

ولحضور المعرض، يقدم إلى لندن وفد من العمال الفرنسيين، موّله الأمير نابليون، ابن عم الإمبراطور؛ وهو هنا بالخصوص ليقوم بترويج «الكرم» البونابارتي. فاستقبل الوفد في البداية من قبل لجنة استقبال مؤلفة من برلمانيين ليبراليين، دون أي ممثل عن المنظمات العمالية. ثم ينجح بعض هؤلاء العمال الفرنسيين، خارج الاجتماعات الرسمية، بلقاء النقابيين الإنجليز. ومن هذا الاجتماع، الذي لم يعلم به كارل، ستولد بعد عامين الدولية الاشتراكية الأولى. وسيكون هو على رأسها.

وفي هذه الأثناء، تتواصل حرب الانفصال. ويعلن لنكولن في 22 أيلول / سبتمبر تحرير عبيد الجنوب، على أن يدخل حيز التطبيق في 1 كانون الثاني / يناير الآتي؛ وهو ما يبعد خطر اعتراف القوى الكبرى بالكونفيديرالية، دون أن يضع مع ذلك حداً للحرب. وفي إنجلترا ثلاثة أخماس المنشآت النسيجية أعلنت الإفلاس، وثلاثة أرباع عمال هذا القطاع في بطالة. أما مؤسسة إنجلز فتعاني من صعوبات كبيرة، ويجد فريدريك صعوبة في الإبقاء على مساعدته لكارل.

في برلين، وفي اليوم نفسه بالضبط، يعين الملك وهو في نزاع مع البرلمان حول الاعتمادات العسكرية، بسمارك السفير في باريس عندئذ،

والذي يعرف صرامته، وزيراً للدولة دون حقيبة ووزيراً – رئيساً بالوكالة. وفي 30، يهاجم بسمارك البرلمان وجهاً لوجه: «إن ألمانيا لا تهتم بليبيرالية بروسيا بل بقوتها (..). وليس بالخطابات وباقتراع الأكثرية (في البرلمان) ستحل المسائل الكبرى لعصرنا، كما كان يظن في 1848، إنما بالحديد والدماء!» وكانت فضيحة ضخمة. فيتردد الملك: هل سيحتفظ ببسمارك؟ وفي 8 تشرين الأول / أكتوبر يفصل في الأمر، ويعينه وزيراً – رئيساً بصفة دائمة مع حقيبة الشؤون الخارجية. وساعة المواجهة مع النمسا التي هزمت في الحرب ضد إيطاليا، تقترب. وبعدها. كما يعتقد ماركس، ستحين ساعة الوحدة الألمانية حول بروسيا.

في خريف 1862، يحضر كارل في لندن برفقة ليبكنيخت سلسلة من ست محاضرات لتوماس هوكسلي، داعية نظرية الانتخاب الطبيعي، الملقب بـ«بولدوغ داروين»، وهو مأخوذ بما يسمع. فيفكر من جديد في التقرب من داروين، الذي لا يسكن إلا على بعد عشرين ميلاً من بيته. وبعد عدة أيام يعود ليبكنخت إلى ألمانيا بعدما حصل على العفو، ليمثل فيها مع لاسال ماركس الذي لم يعد يثق بمن يلقبه الآن بـ«لوري». وكان ليبكنيخت أمضى عشرة أعوام في لندن. فأفضى ذلك إلى حزن جيني والبنات لرحيل الذي كان شديد القرب منهم منذ السنوات السود. وسيلتقينه ثانية بعد خمسة عشر عاماً تقريباً عندما سيصير رئيس أول حزب اشتراكي ممثل في برلمان أوروبي؟

خلال شتاء 1862 – 1863 الشديد البرودة بصفة خاصة، يظل الوضع المادي لماركس، الذي لم يبق له من مورد إلا ما يدفعه له إنجلز بحساب، حرجاً للغاية. فيعود كارل للحديث عن «السكن في الفندق المؤثث الذي سكن فيه وولف الأحمر زمناً مع أسرته (وهو ليس لوبوس وولف، بل شخصية استثنائية، كان حارساً لغاريبالدي)» حتى إن جيني ترسل نداء استغاثة، خفية عن كارل، إلى الصديق القديم لوبوس، وولف الآخر، الذي يتعيش في مانشستر بإعطاء دروس. ويرسل إليها لوبوس

جنيهين. وسيُعلم فيما بعد أن ثروة الرجل العجوز كانت تسمح له بهبة أكبر بكثير.

ووصل الأمر بكارل إلى التفكير في البحث عن عمل مأجور. ويتقدم لوظيفة في مكتب السكك الحديدية، لكن خطه غير المقروء (ربما، يومذاك، عمداً) أفشل المشروع. فيشعر بالراحة لذلك. وستكون هذه محاولته الوحيدة بهذا الشأن.

في زمن اليأس هذا، يتلقى كارل رسالة من مجهول، الدكتور لودفيغ كوجلمان، وهو طبيب يهودي شهير للأمراض النسائية في هانوفر، يقول عن نفسه إنه «معتنق للأفكار الشيوعية منذ سنوات دراسته، وأحد القراء القلائل لـ(إسهام في نقد الاقتصاد السياسي) الذين اهتموا به بعمق». وستقول ابنته فرانزسكا كوجلمان التي كانت في التاسعة عندئذ، فيما بعد: «كان أبي لا يزال طالباً شاباً متحمساً لكارل ماركس، عندما كتب له رسالته الأولى. إذ كان عرف عنوانه في لندن من يوهان ميكيل، وهو رجل سياسي ألماني، عضو في عصبة الشيوعيين، كان ينتمي مثله إلى رابطة طلبة نورمانيا. وكم كان سرور أبي كبيراً عندما رد عليه ماركس، وتتالت الرسائل بينهما شيئاً فشيئاً».

يكتب ماركس في أول رد مؤرخ في 28 كانون الأول / ديسمبر 1862 على هذا المعجب المتحمس، بينما هو غارق في الفاقة والخوف من الغد، بشأن إخفاق كتابه السابق منذ عامين، الذي قرأه كوجلمان بشغف: «في الملزمة الأولى، كانت طريقة العرض بالتأكيد غير شعبية. وهذا يرجع (..) إلى الطبيعة المجردة للموضوع (..). إذ لا يمكن لمحاولات علمية لتثوير علم ما أن تكون أبداً شعبية حقاً (..). إلا أنني لم أكن أنتظر أن يتجاهل المتخصصون الألمان، حتى ولو على سبيل اللياقة، عملي تماماً». ويعبر مع ذلك عن يقينه بأن الأقل شعبية من أعماله ستأخذ طريقها يوماً إلى عامة الناس.

ويعمل إنجلز ما يستطيع لمساعدته. إلا أن لديه منذئذ هموماً

أخرى: فبالإضافة إلى صعوبات منشأته، المرتبطة بحرب الانفصال، تتوفى ماري بورنز إحدى رفيقتيه، في 6 كانون الثاني / يناير 1863 بمانشستر، وتتركه وحيداً مع ليزي، شقيقتها - لأنه كان يعيش علانية مع الاثنتين نكاية بالمجتمع الراقي. فيرسل ماركس إليه رسالة تبدأ بالتعازي المعتادة، ثم يستطرد إلى.. الديون التي تكبله، ووضعه المالي الميئوس منه! ويبدي إنجلز في رده تأثره، وأنه كان ينتظر مزيداً من المواساة من صديق بهذا القرب، لكنه يسدي مع ذلك نصائح مالية ويسرع في إرسال المال. وبعد عشرة أيام، يرسل كارل إلى فريدريك رسالة اعتذار طويلة يعبر فيها عن حزنه لوفاة ماري؛ ويعرض كل ما سيقوم به لتلافي صعوباته المادية الخاصة، مكرراً ما يفكر فيه منذ عدة أشهر، وكان كتبه: أي توظيف ابنتيه الكبيرتين كمدبرتي منزل، والاستغناء عن هيلين ديموت، والعيش مع جيني وإليانور في غرفة مفروشة. فيقبل إنجلز اعتذار ماركس، ويحاول سحب ما يكفي من المال لتغطية ديونه، وبما أنه لا يتوصل إلى ذلك، يطلب منه قبض مبلغ فاتورة من أحد الزبائن مكانه: وهو الأسلوب الوحيد الذي يجده لتحويل المال من منشأته بينما تعاني عندئذ من الصعوبات.

ومع أن الضائقة المالية انفرجت مؤقتاً، إلا أن الكبيرتين تفكران جدياً بالبحث عن عمل. إذ تأمل جينيشن في أن تصير ممثلة، وتسعى للقاء الممثلين المشهورين دون علم أبويها - بلا جدوى. أما لورا فتريد العمل بالسياسة، وتغدو مساعدة - دون أجر - لأبيها الذي قرر، بعد انقطاع لما يقرب من عامين، العودة للعمل في المتحف البريطاني.

إلا أنه في هذه الآونة بالذات - 22 كانون الثاني / يناير 1863 -، وفي الوقت الذي يبدو كارل مصمماً أخيراً على التفرغ لكتابة كتابه حول رأس المال، ستثير حادثة هامشية سلسلة نتائج ستؤخر أيضاً كتابة عمله العظيم، وتعيده إلى السياسة للأبد: فلاحتجاج شباب بولونيين على تجنيدهم الإجباري في الجيش القيصري، يعاقبون بقسوة، مع إعدامات على الملأ وترحيل إلى سيبيريا. ويعم الاستنكار أوروبا. إذ يطلب عمال

فرنسيون وإنجليز تدخل حكوماتهم ويتشاورون في الأسلوب الأمثل لتنسيق نضالاتهم السياسية والنقابية، ومساندتهم للعمال المضطهدين في البلدان الأخرى.

وفي الوقت ذاته، يفكر السكرتير العام لمجلس النقابات بلندن، الحذّاء جورج أودجر، هو أيضاً في تنظيم تعاون دولي بين النقابات العمالية، ولكن لسبب مختلف تماماً: إذ يخشى العمال الإنجليز الذين ينافسهم عمال القارة (القليلو الأجور والتنظيم) على امتيازاتهم. فعوضاً عن المطالبة بإعادة إجراءات الحماية وتحديد أعداد اليد العاملة المهاجرة، يقترح أودجر مساعدة الأجراء الأجانب على تنظيم أنفسهم للحصول على زيادة أجورهم. فيوجه عندئذ في هذا الاتجاه (نداء شغيلة إنجلترا لشغيلة فرنسا)، يقترح فيه تعاوناً وثيقاً بين شغيلة البلدين.

أما في بروسيا، فحان الوقت للعمل السياسي العمالي. إذ يعلن لاسال - وهو في التاسعة والثلاثين - بليبزيغ في شباط / فبراير 1863، أمام لجنة من العمال، برنامجاً على النمط البرودوني، ويوصي بتأسيس جمعية عامة للعمال الألمان، كحزب سياسي جديد تكون غايته المزدوجة الحصول على الاقتراع السري الشامل والمباشر، وخلق تعاونيات بدعم من الدولة. ويرى نفسه بالطبع رئيساً لهذا الحزب الجديد، الأول في أوروبا الذي يجرؤ على إعلان لونه، دون أن يؤكد نفسه مع ذلك حزباً اشتراكياً.

وفي آذار / مارس، يحضر ماركس في سان جيمس هول تظاهرة تضامنية مع لنكولن في إلغائه للعبودية، وضد بالمرستون الذي لا يزال يميل إلى توريط بريطانيا العظمى إلى جانب الجنوبيين.

في 23 أيار / مايو 1863، يؤسس لاسال في ليبزيغ الحزب الذي أعلن إنشاءه قبل ثلاثة أشهر: (جمعية العمال الألمان)، مع 600 عضو جاؤوا من كل مناطق ألمانيا. ويُنتخب رئيساً له فتتخلى عن السرية. وينظم عندئذ جولات واسعة يخاطب خلالها العمال، وهو شديد الحرص على أن تتحدث الصحافة عن أقواله وأفعاله. ويطفح الكيل: إذ يتهمه بسمارك

بالخيانة العظمى لأنه حرض العمال على «العمل على تقويض الدستور البروسي». فيتملك لاسال الخوف، ويسعى إلى تسوية مع المستشار، وخلال لقاء سري، يقترح عليه تحالفاً يؤكده له كتابة في رسالة لم يسمع بمثلها، مؤرخة في 8 حزيران / يونيو 1863: يشرح فيها لسيد بروسيا الجديد أنه سيؤيد ديكتاتوريته بشرط أن تتخذ شكل نوعٍ من «ديكتاتورية اجتماعية» - مع أن حزبه أنشئ لتوه للمطالبة بالجمهورية وبالاقتراع الشامل! «إن الطبقة العاملة، كما يكتب، تشعر غريزياً بالميل إلى الديكتاتورية إذا ما اقتنعت بأن هذه الديكتاتورية ستمارس لمصالحها، وإذاً (..) ستميل، كما قلت لكم مؤخراً - على الرغم من كل عواطفها الجمهورية، أو ربما لهذا السبب نفسه -، إلى أن ترى في التاج السند الطبيعي للديكتاتورية، في مقابل أنانية المجتمع البورجوازي».

ولاسال بإخلاصه للأفكار التي عبر عنها، يقترح هكذا على بسمارك عقد تحالف بين البروليتاريا والطبقة الفلاحية والأرستقراطية والجيش، ضد البورجوازية. ولاهتمام المستشار بهذا المقترح طبعاً، يشرع من أجل هذه الغاية في مراسلات سرية مع لاسال، حتى إن الرجلين يلتقيان عدة مرات خلال الأسابيع التالية. إذ يجد بسمارك في ذلك متعة. ذلك أن فكرة «الديكتاتورية الاجتماعية» هذه، تلائمهما كليهما. فهي في الواقع شبه جوهرية للمجتمع البروسي منذ أن أثنى فيه هيجل على الدولة كمحل للحقيقة المطلقة. وسنراها تعود للظهور طوال التاريخ الألماني، وليس من المبالغة اعتبارها علامة على الطريق الذي سيفضي من هيجل إلى الوطنية - الاشتراكية، مروراً بهذه «الديكتاتورية الاجتماعية» التي تخيلها لاسال.

وفي الآونة نفسها، يبدأ في فرنسا أيضاً انضمام جزء من الطبقة العاملة إلى السلطة البونابارتية وإلى الإيديولوجية المهيمنة. فالاقتصاد على ما يرام، ويتطلع الكثيرون إلى الإفادة من مكاسبه: وإذا كان من غير الممكن إلغاء الملكية الفردية، فالأفضل السعي للإفادة منها! ويلاحظ

برودون المنهوك القوى كل ذلك بفطنة: «إن الشعب يريد، مهما يقول، أن يكون مالكاً؛ وإذا ما سُمح لي هنا بذكر شهادتي الخاصة، سأقول إنني، بعد عشرة أعوام من النقد الشديد، وجدت رأي الجماهير حول هذه النقطة أكثر تشدداً وأكثر مقاومة من رأيهم حول أية مسألة أخرى (..). وبقدر ما كان يحرز المبدأ الديمقراطي تقدماً، وجدت الطبقات العاملة في المدن وفي الأرياف تميل أكثر إلى تفسير هذا المبدأ بالمعنى الأكثر موافقة للملكية».

خلال صيف 1863 هذا، تسوء صحة كارل إلى أقصى حد. إذ يتحول دمل إلى إنتان يكاد يودي بحياته، تاركاً إياه مسمراً في السرير شهراً. وتتعاقب عليه أمراض الجمرة والشقيقة والالتهابات الرئوية والكبدية بوتيرة متسارعة. ومرة أخرى يتوقف عن العمل.

في 22 تموز / يوليو، وفي الوقت الذي يؤسس هنري دونان في جنيف ما سيصبح الصليب الأحمر، ويتركز الانتباه في باريس على فضيحة (غداء على العشب) لمانيه، تتجسد مبادرة أودجر في لندن: إذ يجتمع فيها مناضلون من العمال الفرنسيين والإنجليز لمحاولة تنسيق النضالات الاجتماعية في البلدين؛ ويوافقون على مبدأ خلق جمعية عمالية دولية، مكونين لجنة مكلفة بالتحضير لإشهارها.

وماركس المريض، الذي ليس على علاقة مع منظمي هذا الاجتماع، لا يسمع به حتى. مع أنه يواصل تلقي منشورات لاسال. إذ تكتب جيني إلى إنجلز في 24 تشرين الثاني / نوفمبر: «إنه لا يستطيع النوم. وهو يرسل إليك منشوراً لـ«جمعية الشغيلة» ورسالة من «الرئاسة».» والواقع أن ماركس على الرغم من قطعه كل علاقة شخصية مع لاسال منذ عام، فإن هذا يواصل إرسال منشورات حزبه الذي تسميه جيني تهكماً «جمعية الشغيلة» وتسمي لاسال «الرئيس». ولا يكاد ماركس يتصفحها حتى يبعث بها إلى إنجلز. إذ لا تستطيع جيني، منذ مروره بلندن إخفاء كراهيتها له، وبالخصوص للسيدة هاتزفيلد «راعيته» - الأكبر منه سناً بكثير، كما

تشير إليها في الرسالة ذاتها: «هذا الشيء الصغير (جمعية الشغيلة) ستحول الرجل (لاسال) الذي «تألم خلال خمسة عشر عاماً من أجل الطبقة العاملة». كما يقول عن نفسه (دون شك، وهو يحتسي الشمبانيا مع ذات الشعر الأحمر المولودة في 1805)، بنقله من وضع مقبول لدى الشرطة إلى وضع غير مقبول من قبل الشرطة». فلسان جيني ليس أقل قسوة من لسان ماركس وكذلك أسلوبها. وهو ائتلاف فكرين جمعهما كل شيء منذ ثلاثين عاماً ونيف، بينما لما يبلغ أي منهما الخامسة والأربعين.

ولكن ها هو وضع ماركس وأسرته يتحسن كثيراً. فهذا أولاً صديق قديم من العصبة في لندن، هو إرنست درونك، يدعي تقديمه إلى مُقرض ويدفع له 250 جنيهاً اقترضها من.. إنجلز، وهو ما يقبله هذا برسالة إلى كارل في نيسان / أبريل 1863: ولن يتكلف درونك إلا بالنفقات المصرفية..

ثم إنه الأول من ميراثين سيغيران، تلك السنة، حياة ماركس، ويخرجانه نهائياً هذه المرة من الفاقة التي غرق فيها منذ أربعة عشر عاماً.

ففي 30 تشرين الثاني / نوفمبر 1863، تتوفى في تريفز محاطة باثنتين من بناتها أتتا من هولندا، وبالثالثة المتزوجة في تريفز، في يوم ذكرى زواجها وساعته بالضبط، هنرييتا ماركس، أمه، وهي في الثالثة والسبعين. ولا شيء يدل لدى كارل إلا على حزن في حده الأدنى. وهكذا تتحرر تركتا والديه عندئذ في الوقت ذاته، ويحصل كارل على ما يزيد قليلاً عن 1100 تالر، أي نحو 1000 جنيه، وهو ما يعادل ثلاثة أعوام من دخله. فيقرر الذهاب لاستلامها بأسرع ما يمكن، بشكل سري ولا شك: إذ إنه بحاجة ملحة لهذا المال.

في 15 كانون الأول / ديسمبر، يصل إلى تريفز ويلتقي فيها شقيقاته وأصدقاءه القدامى. ويكتب إلى جيني أنه يقوم بزيارات يومية إلى منزل ويستفالن الذي «يهمني أكثر من كل الآثار الرومانية القديمة،

لأنه يذكرني بطفولتي السعيدة، وعاش فيه أعز من لدي». ثم يعرض بإسهاب مضمون وصية أمه وما تركت لكل واحد. ويتعرف الناس عندئذ على كارل في الشارع: «والناس في تريفز يستفهمونني يومياً عن «أجمل نساء تريفز» و«ملكة الحفلات الراقصة». ومن الرائع بالنسبة لرجل أن يكتشف أن زوجته تعيش في مخيلة مدينة بأسرها كأميرة أحلام». إلا أنه يفضل عدم البقاء طويلاً، ويعود في شباط / فبراير 1864، مروراً بهولندا.

ويقرر في آذار / مارس، مرة أخرى، إنفاق الأموال التي تلقاها دون أن يفكر في المستقبل: فبفضل تركة أمه تغادر الأسرة غرافتون تيراس إلى منزل جميل مجاور، يقع في 1، مودينا فيللا، على ميتلاند بارك، وهو حي راقٍ يسكنه أطباء ومحامون. ويهتم كارل أولاً بدراسة بناته، وبدروسهن في البيانو والمسرح. وسيكون لكل منهن منذئذ غرفتها الخاصة. وسيكون له مكتب، في غرفة فسيحة ذات خمس نوافذ، يسميها أول الأصدقاء الذين يدعوهم الـ«أوليمب»، لأن تماثيل نصفية لآلهة يونانية تنتصب حولها، مع تمثال لزيوس يشرف عليها، يشابه كارل، كما يقولون. ولافارغ الذي سيصفها فيما بعد، يضيف:

«أضحت حجرة العمل هذه في ميتلاند بارك تاريخية، ولا بد من معرفتها للدخول إلى صميم الحياة الفكرية لماركس. كانت واقعة في الطابق الأول، وكانت النافذة الواسعة التي يدخل فيها الضوء الغامر تشرف على الحديقة. وفي جانبي المدفأة ومقابل النافذة كانت رفوف مليئة بالكتب، في أعلاها رزم من الصحف والمخطوطات ترتفع حتى السقف. ومقابل المدفأة وأحد جانبي النافذة، هناك طاولتان تغطيهما الأوراق والكتب والصحف. ووسط الغرفة، في الموضع الأكثر إضاءة، كانت طاولة عمل صغيرة، شديدة البساطة، طولها ثلاثة أقدام وعرضها اثنان، مع مقعد خشبي. وكان هناك ديوان من الجلد موضوع بين المقعد ورفوف الكتب، مقابل النافذة، كان ماركس يتمدد عليه من وقت لآخر ليستريح.

وفوق المدفأة، كتب أيضاً تختلط بالسيجارات وأعواد الكبريت وعلب التبغ مع صور فوتوغرافية لبناته وزوجته، ولولهلم وولف وفريدريك إنجلز».

لماذا، في هذه الغرفة، صور ويلهلم وولف، الصديق القديم لوبوس؟ لأن الرفيق المخلص للعديد من المغامرات منذ باريس، سيموت من التهاب السحايا بمانشستر في هذا الشهر، أيار / مايو 1864، موصياً لكارل بـ 840 جنيهاً نقداً – وهي ثروة صغيرة – وبـ50 جنيهاً على شكل سندات. لوبوس اللطيف، أحد القلائل الذين لم يخاصمهم كارل قط، لم يكن إذاً فقيراً إلى الحد الذي كان يبدو عليه فيه. ولدى مراسم الدفن في مانشستر، سيلقي كارل (الذي يكره الجنازات ولا يحضرها أبداً) كلمة تأبين أمام بعض الأصدقاء القائل وجلهم من المنفيين مثله في لندن منذ خمسة عشر عاماً.

ويشكل مجموع التركتين، بالنسبة لأسرة ماركس، أكثر من نفقاتها المعتادة يومذاك لمدة خمسة أعوام. فهو الانفراج والرخاء إذاً.

في تلك السنة، يتسرب شيء من الحرية إلى الإمبراطورية الثانية (في فرنسا)؛ فيصدر قانون يسمح بائتلاف العمال، ويُشرعن حق الإضراب؛ وفي الحال، يتوقف ألف من العمال في ليموج عن العمل. ويضع الكرسي البابوي (البؤساء) لفيكتور هوغو على القائمة السوداء، مع (مدام بوفاري) لفلوبير، وأعمال بلزاك وستاندال. أما في بروسيا، فيبرأً لاسال، وينشر كراسة يعرض فيها تصوره للاشتراكية.

حقاً إن 1864 هي سنة الإرث: فبعد بضعة أشهر، كان دور إنجلز في الوراثة من أبيه – الذي كرهه طوال حياته – ليصبح مالكاً للمنشأة العائلية، ويصير منذئذ أحد أعيان مانشستر، يرأس ألبيرت كلوب، وشيللير – أنستالت، كما يشارك في طراد الثعالب الشهير شيشايرهنت. ويستطيع زيادة مساعدته المالية لماركس بصفة محسوسة، ضامناً له 200 جنيه كحد أدنى في العام، دون أن يؤثر ذلك في مستوى معيشته.

وهكذا تشكل الهموم المادية بالنسبة لكارل جزءاً من الماضي، وهو

في السادسة والأربعين. فمنذ عام فقط كان يحدث له أن لا يجد ما يطعم به أسرته. ويستطيع الآن تقديم شيء من الرفاهية لبناته: «الأحد، عندما يكون الجو جميلاً، كانت الأسرة كلها تذهب في نزهة عبر الحقول. وتتوقف في الطريق بأحد المطاعم لاحتساء جعة الزنجبيل وأكل الخبز بالجبن» سيروي لافارغ الي سيلتقيه عن قريب. حتى إن كارل يأخذ عطلة لأول مرة في حياته. ويستقبل أصدقاء جينيشن ولورا. وفي رسالة إلى زوج خالته ليون فيليبس في 25 حزيران / يونيو 1864، يلمح إلى أنه قام ببعض العمليات في البورصة، إلا أنه لم يبق لها أي أثر، فمن غير المرجح أنه فعل ذلك.

ويأتي لافارغ أكثر فأكثر لرؤيته. إذ يكتب لافارغ: «كان عيداً حقيقياً لأسرة ماركس عندما كان إنجلز يبلغهم من مانشستر بمجيئه. فكانوا كثيراً ما يتحدثون مسبقاً عن مجيئه، وكان مارس ينتظره بفارغ الصبر حتى إنه لا يتمكن من العمل. وكان الصديقان يمضيان الليل في التدخين والشراب وهما يرويان أحدهما للآخر الأحداث التي وقعت منذ لقائهما الأخير. إذ كان ماركس يهتم برأي إنجلز أكثر من أي رأي آخر، ويرى فيه رجلاً قادراً على أن يكون شريكاً له. وكان إنجلز بالنسبة إليه جمهوراً قائماً بذاته. وما من جهد كان يبدو له طويلاً من أجل إقناعه واكتسابه لأفكاره. وهكذا رأيته يتصفح من جديد كتباً كاملة حتى يعثر على الوقائع التي كان بحاجة إليها لتعديل رأي إنجلز حول نقطة ثانوية نسيتها بعد ذلك، عن معركة الألبيجيين السياسية والدينية (..). وقد كان شديد الإعجاب بالتنوع الاستثنائي لمعارف إنجلز العلمية، ويخشى عليه دوماً من الوقوع ضحية لحادث. «إنني أرتعد، كان يقول لي، خوفاً من أن يصيبه مكروه خلال حفلات الصيد التي يشارك فيها بشغف، مطلقاً العنان لحصانه عبر الحقول، ومجتازاً كل العقبات»».

في الآونة ذاتها – أي بداية صيف 1864 – يتوقف فجأة مجرى

حياة فرديناند لاسال الخاطف وهو في الأربعين. فلدى عودته من رحلة مظفرة إلى الناحية العمالية من منطقة الراين، تكلم فيها القائد الاشتراكي الذي غدا شهيراً، بصراحة ودون خوف السجن نظراً لاتفاقه السري مع بسمارك، يذهب إلى سويسرا للراحة. فيلتقي هناك - مصادفة ولا شك - ابنة دبلوماسي بافاري، هي هيلين دو دونينغ التي كان طلب يدها، قبل بضع سنوات، دون أن ينالها من أبيها. (كانت هي نفسها كتبت عندئذ: «التقيت البارحة رجلاً، سأتبعه إلى آخر الدنيا، إذا ما أرادني له».) لكنها الآن مخطوبة لأرستقراطي فالاشي، هو يانكو راكوفيتس، يلزمها كظلها. فيتشاحن الرجلان، وفي 28 آب ، أغسطس، يتحدى لاسال في جنيف هذا اليانكو للمبارزة بالمسدس بغابة بوا كاريّه، القريبة من فيرييه. وكان من المفروض على الحكم أن يعد حتى ثلاثة، لكن الخطيب يطلق الرصاص عند «واحد»؛ وبعدما جرح لاسال في بطنه، يقضي هذا نحبه بعد ثلاثة أيام في غمرة آلام رهيبة. ولدى علم إنجلز بالخبر، يصرح: «لقد كان دون شك أحد أهم رجال السياسة في ألمانيا». ويكتب بسمارك: «كان من أكثر الرجال الذين عرفتهم جاذبية وتسلية، ولا آسف على الفرص الثلاث أو الأربع التي التقيته فيها. إنه طموح بلباقة، وقد كان رجلاً من المفيد الحديث معه». ويعترف ماركس: «كان في النهاية منا، عدواً لأعدائنا. ومن الصعب التفكير بأن رجلاً بهذا الضجيج وهذا الإزعاج وبهذا الإلحاح، هو الآن ميت مثل فأر، وعليه أن يمسك لسانه. ويعلم الشيطان جيداً، أن مجموعتنا تقل وما من تباشير لدم جديد». وبما أنه لا يفوت فرصة لقول كلمة موجعة، يضيف: «هذه الذريعة للموت هي إحدى النقائص العديدة التي اتصف بها لاسال طوال حياته».

وينوي كارل هذه المرة التفرغ جدياً لكتابه العظيم عن رأس المال، الذي انقطع عنه منذ ما يقرب من أربعة أعوام، والذي يأمل به «أن يوجه للبورجوازية، على الصعيد النظري، ضربة لن تقوم بعدها أبداً». فقد

استعاد كل نشاطه، ولم يعد يحسب إلا بالشهور، بل بالأسابيع. إذ سيكتب بهذا الشأن: «كان علي استغلال كل لحظة أستطيع فيها العمل على إتمام عملي الذي من أجله ضحيت بالصحة وبالسعادة وبالعائلة (..). وأنا أضحك من الناس العمليين والحكماء المزعومين. فإذا أراد المرء التصرف كالبهيمة، سيتمكن بالطبع من إدارة ظهره إلى مآسي البشرية وعدم الاهتمام إلا بالنجاة بجلده. لكنني سأعتبر نفسي غير عملي إذا ما مت قبل أن أتم كتابي».

تعبير مثير للاستغراب: فـ«ليس عملياً» بالنسبة إليه ألا يتم كتابه. إنه غير منسجم مع نفسه والحق يقال، لكنه أيضاً «ليس عملياً»!

ومع ذلك، وفي الآونة ذاتها، تطرأ أحداث عديدة ستحوله عن هذه المهمة العسيرة. وسيتخذ القرار «غير العملي» بتأجيلها.

بداية، نائب لاسال، بيرنهارد بيكر، الذي عين مؤقتاً مكان المتوفى على رأس جمعية الشغيلة، يقترح رئاستها على ماركس الذي يرفض. فما الفائدة، إذا كان لا يستطيع الإقامة في ألمانيا؟ والحزب عندئذ فريسة لصراع على الخلافة، يخرج منه ج. ب. فون شفايتزر أخيراً منتصراً. وهو رجل يتمتع بجاذبية شخصية، يتصف بالتصميم والكفاءة، لكنه لا يشاطر لاسال تأييده للمنحى البسماركي، وإذا ما كان يؤمن بضرورة دولة قوية لإقامة الاشتراكية، فإنه لا يوافق على تحالف البروليتاريا مع الأرستقراطية البروسية. ويحول ماركس النفور الذي كان يشعر به إزاء لاسال إلى وريثه، فيقطع كل علاقة مع حزب شفايتزر. ويذكي ليبكنخت الذي وصل إلى ألمانيا لتوه، ويشعر هو نفسه بكراهية لشفايتزر، هذا النفور باستمرار. ومن ثم يرى ماركس باكونين من جديد، لكن هذا لا يوقظ لديه الاهتمام بالعمل السياسي. ويرسم باكونين في أوراقه صورة ماركس كمستبد، لا أصدقاء له (سوى إنجلز)، ولا يقيم علاقات إلا مع تابعين وجلين. ويستنتج شخصية وتصرفات ماركس من يهوديته: «عندما يأمر باضطهاد شخص، فلا حد لسفالته ولخسته. فهو يهودي، ولديه من

حوله في فرنسا وفي لندن، وبخاصة في ألمانيا، هذا النوع من اليهود الذين يمكن العثور عليهم في كل مكان، رجال الأدب المتخصصين في فن الجبن، والتلميحات البشعة الغادرة».

وإذا ما كان ماركس يتوقف من جديد عن عمله في الكتابة، فحجته في ذلك هذه المرة هي الأكثر جدية و«عملية»: إذ يدعوه شاب فرنسي مهاجر يعيش في لندن من سنسن، أستاذ يدعى لوبيز، في صيف 1864 للاشتراك، كممثل عن العمال الألمان، في اجتماع لعمال من مختلف البلدان، يتلو اجتماع السنة الفائتة الذي أنشئت فيه المنظمة الجديدة التي لم يبلغ ماركس حتى بها. لماذا هو؟ يتساءل ماركس مندهشاً، فيشرح لوبيز، أنه ليس من سياسة المنظمة قبول المفكرين، وهو ما يميزها عن أي نادٍ تقدمي آخر، لكن ماركس، كما يصر الفرنسي، يشكل بالنسبة إليهم مرجعاً أخيراً بكتبه ومقالاته. وبما أنه لا بد لهم من نظام داخلي ومن وجهة، فمن أقدر على ذلك من مؤلف (البيان)؟

ولا يزال كارل متردداً. إذ يظل (البيان) بالنسبة له النص الأهم، حتى وإن كتبه في أربعة أيام فقط، منذ ستة عشر عاماً. وهو سعيد بأنه لا يزال يُذكر حتى وإن لم يترجم بعد إلى الفرنسية. لكن عليه إتمام كتابته والتعريف بما اكتشفه في 1855، قبل عشرة أعوام تقريباً، السنة التي مات فيها إدغار، أي: فضل القيمة وطبيعة الرأسمالية التي سيزعزعها بالتأكيد أكثر مما ستفعل اجتماعاتهم.

ثم، بعدما يعدد لوبيز أسماء الذين سيحضرون هذا الاجتماع التأسيسي (أكبر الثوريين والنقابيين الإنجليز والألمان والإيطاليين والسويسريين والبلجيكيين والفرنسيين سيكونون حاضرين)، يقبل ولكن بصفة مراقب، ويترك لأحد الرفاق القدامى من عصبة الشيوعيين، هو يوهان جورج إيكاريوس، الذي كان إلى جانبه في بروكسل، مهمة تمثيل العمال الألمان. ويشرح ماركس موقفه لإنجلز الذي يُدهش من هذه العودة إلى السياسة: «كنت أعلم أن «قوى» حقيقية كانت حاضرة، سواء من

الجانب اللندني أم الجانب الباريسي، ولهذا قررت التخلي عن قاعدتي المألوفة».

وقع الاجتماع في 28 أيلول / سبتمبر 1864، في سانت مارتنز هول بكوفنت غاردن، الجد واسعة بالقياس إلى عدد الحاضرين القليل. ورئسه الإنجليزي إدوار سبنسر بيزلي، وهو أكاديمي ليبرالي، اختاره أودجر، الزعيم النقابي. وكان كارل على المنصة، لكنه ظل صامتاً. وتتتابع الخطابات، أولاً تكريماً لبولونيا، ثم تكريماً «لأمة مضطهدة أكثر عظمة أيضاً هي البروليتاريا». ويؤكد المشاركون مشروع السنة الفائتة في تأسيس جمعية دولية للشغيلة، سريعاً ما سميت «الدولية».

وانتخب على رأسها «مجلس مركزي» سريعاً ما سيصبح «المجلس العام» مع «أمين عام» و«مراسلين» يمثلون المنظمات العمالية الإنجليزية والألمانية والفرنسية والإيطالية والإسبانية والأمريكية والسويسرية والبلجيكية المشتركة في الاجتماع. وأول أمين عام هو إيكاريوس، وهو ما يدل على التأثير المباشر لماركس على التعيينات الرئيسة.

أما تكوين أول مجلس عام فكان غير متجانس: 82 عضواً، منهم 40 نقابياً إصلاحياً إنجليزياً، و12 اشتراكياً ألمانياً، و9 من أنصار مزيني الإيطاليين، و5 وطنيين بولونيين، وسويسريان، وهنغاري واحد، ودانمركي واحد. والفرنسيون تسعة من المهاجرين المقيمين في لندن (دينوال، لولوبيز، جوردان، ماريسو، لورو، بورداج، بوكيه، تالانديه، دوبون)، أضيف إليهم ثلاثة فرنسيين آخرين جاؤوا من باريس من أجل الاجتماع: النقاش تولان، وعامل البرونز بيراشون، وعامل التطريز ليموزان.

واختير ماركس للمجلس العام؛ وهو أحد الأعضاء القلائل الذين لم يكونوا من البروليتاريا، وعين كـ «سكرتير مراسل» لألمانيا. كما اختير أيضاً في لجنة فرعية مكلفة بتهيئة بيان المنظمة ونظامها الداخلي للأول من تشرين الثاني / نوفمبر القادم. وتكونت هذه اللجنة الفرعية من تسعة أعضاء هم: أودجر، ماركس، ويتلوك، ويستون،

لولوبيز (السكرتير المراسل لفرنسا)، هولثورب، بيدجوين، كريمر، وولف (الملقب بـ«الذئب الأحمر»، هذا البولوني المدهش، حارس غاريبالدي الشخصي الذي أضحى من أنصار مزيني، وفوضوي، ولا علاقة له بلوبوس، كما رأينا آنفاً).

ولا يحضر ماركس في الأيام الأولى هذه الاجتماعات، كما لا يدرك بعد أهميتها، وهي التي ستحوله عن عمله. ولكن عندما يوشك الفوضويون على السيطرة عليها، يقنعه إيكاريوس بالمشاركة فيها. وبعد شهر فقط من تأسيس الدولية التي لم يحضرها إلا كمراقب شارد الفكر، سيتسلم كارل السلطة فيها.

ففي 20 تشرين الأول / أكتوبر 1864، يذهب على مضض إلى اجتماع اللجنة الفرعية المكلفة بكتابة البيان والنظام الداخلي: إذ يريد البعض التحدث فيه عن الثورة؛ وآخرون عن الحق والأخلاق والعدالة. وهي الفوضى. ذلك أن النصوص التي يجب أن تقدم بعد عشرة أيام لم تكتب في خطوطها الأولى بعد! «أفكار عتيقة»، يصرخ ماركس الذي يستأثر برئاسة الاجتماع، ماضياً ذلك المساء في الاستيلاء على سلطة لن يتخلى عنها أبداً.

ويبدأ بجعل المناقشة تطول حتى الواحدة صباحاً؛ ثم، عندما لا يتطلع الجميع إلا للذهاب للنوم، يؤجل المناقشات إلى ما بعد ثمانية أيام، مقترحاً على عجل، خلال جلبة الانصراف، أن يكتب هو نفسه حتى ذلك الموعد، مشروع نداء للطبقات العاملة، ومشروع نظام داخلي. فيصفق الجميع لشجاعة المناضل المتفاني الذي يرفع الجلسة، فمسؤولية النصوص التي ستناقش في الجلسة العامة بين يديه إذاً.

ويكتب كارل النداء والنظام الداخلي في أربعة أيام. وقد هيأهما بمثل السهولة التي كتب بها في بضعة أيام، منذ ستة عشر عاماً، (بيان الحزب الشيوعي).

وهي، كما كانت منذ ستة عشر عاماً، تحفة جديدة. وليست ضربة

معلم من متلاعب «صفيق» - كما يكتب بعض كتّاب سيرته المستهجنين أو المعجبين على السواء -، بل مثال للمهارة الفكرية والسياسية.

وسيكتب ماركس نفسه عن قدرته في المؤالفة التي أبداها ذلك اليوم: «كنت مضطراً لقبول (..) فقرات حول الواجب والحق والحقيقة والأخلاق والعدالة. إذ لا بد من وقت حتى تسمح يقظة الحركة بالصراحة القديمة للغة..».

ولأن مشروع ندائه هو قبل كل شيء مثال للتوازن بين وجهات نظر اليسار يومذاك. فكارل يؤكد فيه ضرورة قلب الوضع الاجتماعي القائم، مراعياً الحساسيات الإصلاحية. ويبين أن تحرر الطبقة العاملة يجب أن يكون بعمل العمال أنفسهم، وأن على الدولية التي هي قيد الإنشاء أن تصير النقطة المركزية للتعاون بين الجمعيات العمالية، ولنشر الأفكار والنهوض بالوعي الطبقي؛ وأن يجد النضال الاقتصادي امتداده في النضال السياسي، بجعل البروليتاريا حزباً مستقلاً وبالعمل على تحقيق سياسة خارجية سليمة.

وللتصدي للفرنسيين والألمان الذين يريدون الاكتفاء ببرنامج ينادي بنظام التعاونيات، فإن ماركس يثني على هذه التعاونيات ساخراً منها في الوقت نفسه، بكلام قاسٍ: «أظهرت المعامل التعاونية بالوقائع أن الإنتاج على نطاق واسع كان يستطيع الاستغناء عن طبقة من أرباب العمل تستخدم طبقة من الأجراء. لكن تجربة تلك الفترة برهنت حتى البداهة أن العمل التعاوني مهما كان ممتازاً في المبدأ، ونافعاً في التطبيق، فإنه لن يتمكن أبداً من وقف تنمية الاحتكار ولا من تحرير الجماهير. وأضحى الاستيلاء على السلطة السياسية إذاً واجب الطبقة العاملة الأول». فالحركة التعاونية، بعبارة أخرى، حاجز تافه ضد الرأسمالية، ولا يمكن التحكم بالاقتصاد إلا عن طريق السياسة.

ويتابع نص النداء شارحاً أن كيفيات تسلم السلطة تختلف تبعاً للتقاليد الوطنية، ويجب بالتالي التخلي - كما فهمت النقابات الإنجليزية

جيداً - بالبراغماتية، وعدم الإسراع إلى مغامرات غير ذات جدوى. فلا حديث هنا عن «ديكتاتورية البروليتاريا»، ولا عن وصفات جاهزة.

ترى من يستطيع معارضته؟

أما فيما يتصل بالمشروع المؤقت للنظام الداخلي، فهو بالقدر نفسه من المهارة والإخلاص أيضاً. إذ يكتب فيه ماركس: «بالنظر إلى أن تحرر الطبقة العاملة ينبغي أن يكون بعمل الطبقة العاملة نفسها (..). وأن التحرر الاقتصادي للطبقة العاملة هو بالنتيجة الغاية العظمى، التي تخضع لها الحركة السياسية باعتبارها وسيلة. وأن تحرر العمل مشكلة ليست محلية ولا وطنية، بل اجتماعية، تشمل البلدان التي توجد فيها مجتمعات حديثة، وترتبط كلها بالنشاط التضامني، العملي والنظري للبلدان الأكثر تقدماً. وأن الصحوة الحالية للطبقات العاملة في الأمم الأكثر تصنيعاً في أوروبا، إذا ما كانت تبعث آمالاً جديدة، عليها أن تشكل إنذاراً رسمياً بعدم الوقوع ثانية في الأخطاء السابقة، وهي تتطلب التفاهم الفوري للحركات التي لا تزال معزولة. لأجل كل هذه الأسباب، أسست الجمعية الدولية للشغيلة».

يعرض كارل هذين النصين على اجتماع اللجنة الفرعية في 27 تشرين الأول / أكتوبر. وإذا بالأعضاء التسعة المندهشين يتناقشون ويتصالحون، ثم يقبلون بنقل هذه المقترحات دون أي تغيير تقريباً، إلى المجلس العام الذي يناقشها، كما هو مقرر، بعد ثلاثة أيام، في 1 تشرين الثاني / نوفمبر. وكانت المناقشة حامية: فالإنجليز يرون أن النداء ثوري أكثر من اللازم، ويرى الإيطاليون أن النظام الداخلي ليس ثورياً بما فيه الكفاية، ويقترحون أن تكون الدولية جمعية سرية؛ بينما يرفض الفوضويون سيطرة السياسة، ويريدون أن تعزز أهمية الحركة التعاونية؛ ويؤكد الماسونيون - فهناك منهم - أهمية فكرة العقل. لكن ماركس يدافع عن نصيه كلمة كلمة؛ فيتم تبنيهما أخيراً، مع بعض التعديلات البسيطة، حتى إن ماركس ينجح في تعيين ثلاثة من المخلصين له في المجلس العام.

وهكذا بعمل سياسي خارق، يتسلم وهو الذي كان تخلى منذ اثني عشر عاماً عن كل نشاط سياسي، في بضعة أيام السلطة في منظمة خلقها آخرون، معطياً بذلك دليلاً جديداً على تأثيره الهائل في كل الذين يقتربون منه.

ويبدو، وهو في السادسة والأربعين، أن كل الأبواب تفتح أخيراً أمامه: فتحت تصرفه أداة سياسية عالمية، ويعيش حياة لائقة، ولم تعد لديه مشكلات آخر الشهر، وهو بصحة جيدة، ويسكن منزلاً جميلاً. لكنه لم يعد يكتب..

فسيحضر، من الآن وصاعداً، كل أسبوع، لسنوات طويلة، اجتماع المجلس العام للدولية، وسيراقب عمل الأمين العام، وينشط الفريق الصغير الذي سيشكل من حوله لجنة تنفيذية حقيقية دائمة ستهيء كل الاجتماعات الهامة. ولن يكون فيها ظاهراً أبداً، إذ لن يظهر اسمه أبداً في محاضر المناقشات التي سيكتفي بتوجيهها عبر طريق تقرير المجلس العام، والتهيئة المفصلة لجدول أعمال المؤتمر السنوي الذي لن يحضره إلا مرة واحدة – في ظروف مأساوية، كما سنرى.

ويتلخص سلوكه في الشعار اللاتيني الذي يستخدمه في رسالة إلى إنجلز في 4 تشرين الثاني ، نوفمبر 1864، في اليوم نفسه الذي تلا هذا الاجتماع التأسيسي الأول: (لطيف في الشكل، لكن شجاع في المضمون). أي يد من حديد في قفاز مخملي.

وسيعمل كارل من الدولية جهازاً سياسياً عالمياً ضخماً، يهيء انطلاقاً من أوضاع محلية «تكتيكاً وحيداً من أجل نضال الطبقة العاملة البروليتاري في مختلف البلدان». ويصير سريعاً زعيمه، حتى إنه هو الذي يرسل بعد أقل من شهر، في 22 تشرين الثاني / نوفمبر 1864، باسم المجلس العام، التهنئة إلى إبراهام لينكولن لدى إعادة انتخابه لرئاسة الولايات المتحدة: «منذ بداية النضال الهائل الذي تقوم به أمريكا، يشعر عمال أوروبا غريزياً بأن مصير طبقتهم يعتمد على الراية ذات

النجوم (..). فالحرب ضد العبودية ستفتح عهداً جديداً للطبقة العاملة». ويرد لينكولن برسالة يسلمها السفير الأمريكي له شخصياً، مؤكداً أنها ليست مجرد رسالة مجاملة ككل الرسائل الأخرى التي يسلمها.

وها هو، بعد أربعة أعوام من الانقطاع، وكأنما جاء النشاط السياسي ليغذي نشاطه الفكري، يعكف من جديد على تحرير كتابه العظيم الذي يقرر نهائياً تسميته (رأس المال).

ولم يعد النشاط السياسي، هذه المرة، ذريعة للتوقف عن الكتابة. ففي 29 تشرين الثاني / نوفمبر، يبلغ لودفيغ كوجلمان في هانوفر: «أعتقد أن كتابي عن رأس المال (ستين ورقة مطبوعة) سيكون جاهزاً في نهاية السنة القادمة». لكنه لا ينجز بالطبع هذا الوعد، لأنه يواصل البحث عن الأسباب الوجيهة والتعلل بها للتأخر في تسليم عمله. ويضيف، كأنه يتمنى أن توقفه بعض العقبات: «أخشى أن تنشب في بحر الربيع القادم حرب بين إيطاليا والنمسا وفرنسا، لأنها ستشكل كارثة على الحركة في فرنسا وفي إنجلترا، وهي حركة تتوسع بصفة ملحوظة».

فهو مرة أخرى، الخوف من الانتهاء بعد فوات الأوان، ومن الكتابة دون فائدة، المقترن بالبحث المجنون عن ذريعة لعدم النشر..

وفي رسالة وجهها اليوم نفسه إلى صديقه الناشر جوزيف ويدماير بنيويورك الذي أبدى دهشته من عودته إلى السياسة، يبرر كارل ذلك بأهمية وجدية مبادرات هذه الجمعية الجديدة: «إن الأعضاء الإنجليز هم في غالبيتهم من زعماء النقابات العمالية المحلية، الملوك الحقيقيين للعمال في لندن، وهم أنفسهم الذين منعوا بالمرستون، بتظاهراتهم الهائلة في سانت جيمس هول، من إعلان الحرب على الولايات المتحدة، مع أنه كان على وشك فعل ذلك».

وتتنامى الدولية بسرعة. ففي ألمانيا، حيث يدخل العمال في صراع علني مع بسمارك، يمثلها ليبكنيخت المعارض للحركة الموروثة عن لاسال. كما يدخل العمال في فرنسا أيضاً في صراع مع نابليون الثالث باسم

الدولية التي يدير فرعها الفرنسي لولوبيز أولاً، ثم فارلان، بعد نزاع تدخل فيه ماسونيون. وفي كل مكان، ينسب أرباب العمل نجاح الإضرابات إلى الأموال «الضخمة» التي توضع، كما تزعم دعايتهم، بتصرف المضربين من قبل الدولية التي تقدَّم على أنها جمعية سرية جديدة.

وواقع الحال أن الدولية شفافة بقدر ما هي مفلسة. إذ ليس لديها ما تدفع به حتى نفقات طبع محاضر اجتماعاتها. ودفع مساهمة منتظمة من قبل كل عضو هو من الصعوبة بحيث يشكو كارل من «أن تنظيم أعمال شغب أسهل من جعل العمال يدفعون مساهمة انتساب». ولا تتدخل الدولية بالفعل، في حالة إضراب، إلا بمبالغ يسيرة تجمع للمناسبة.

وفي الآونة ذاتها، يطلب بسمارك من رئيس شرطته، ستيبر - هذا الذي جاء منذ خمسة عشر عاماً للتجسس على كارل في منزله بلندن - أن يحيك مؤامرة ماكيافيلليه ترمي إلى النيل من سمعة ماركس..

ولا تمنع الكتابة أو الاشتغال بالسياسة كارل من أن يقضي أيام الآحاد دائماً وبلا استثناء برفقة جيني وبناته، أو يروي لهن الحكايات، سواء في المنزل أو أثناء نزهاتهم.

وسينقل لافارغ عن البنات قولهن بأن «ماركس، كي يبدو الطريق لهن أقل طولاً، كان يروي لهن حكايات جنيات لا تنتهي، حكايات كان يخترعها وهو يمشي، ويبطئ أو يسرِّع نهايتها طبقاً لما يبقى من طول الطريق. وكانت الصغيرات، وهن ينصتن إليه، ينسين التعب». وسيضيف: «كان ماركس وعد بناته بأن يكتب لهن مسرحية درامية حول غراك. لكنه، للأسف، لم ينجز وعده؛ إذ كان من المثير للاهتمام رؤية كيفية معالجة من كان يسمى «فارس صراع الطبقات» لهذه الحلقة المأساوية العظيمة من صراع الطبقات في العالم القديم».

وبفضل إليانور التي كانت يومذاك في التاسعة، تتوافر لدينا بعض التفصيلات القيمة عن الحكايات التي كان كارل يتخيلها تلك السنة من

أجل بناته. إذ إن هذه القصص الطويلة، المروية أثناء المشي، تعبر عن شخصيته وعن استلهام عمله أكثر، في رأيي، من آلاف الصفحات من التعليقات المتخصصة: «تقاس هذه القصص بالأميال، وليست بالفصول (..). وأجملها تلك التي كان يرويها المغربي لدي هي (هانز روكل). وهي قصة كانت تستمر شهراً بعد شهر. ولم يكن هناك، للأسف، من يكتب هذه القصص الملأى بالشاعرية وخفة الروح والفكاهة. وهانز روكل هو ما يشبه الساحر، على شاكلة هوفمان، لديه حانوت للألعاب وكان صارماً دائماً. وكان حانوته مـلآن بالأشياء الرائعة: عرائس خشبية، عمالقة وأقزام، ملوك وملكات، عمال وأرباب عمل، وحيوانات بعدد حيوانات سفينة نوح. طاولات وكراسٍ، وعربات. ولكن على الرغم من أنه ساحر، فلم يكن هانز قادراً على سداد ديونه إلى الشيطان وإلى الجزار، وكان مضطراً لبيع لُعبه للشيطان. وهذا ما كان يفضي إلى مغامرات كانت تنتهي دائماً في حانوته. كان بعضها مخيفاً، وبعضها الآخر مضحكاً جداً».

وصانع اللعب السحرية، اللعب الرائعة والنادرة التي يهملها الزبائن الذين لا يفهمون فيها شيئاً، حتى يضطر من أجل العيش وسداد دين الجزار، لبيع لعبه للشيطان، هو كارل بالطبع، خالق أجمل التصورات الذي يضطر، من أجل العيش، للتخلي عن أفكاره لأي كان - كأعلى درجات الاغتراب بالنسبة إليه.

هذه الأفكار - كما يستشعره ربما - سيستأثر بها الشياطين ويحولونها.

الفصل الخامس

مفكر (رأس المال)

(كانون الثاني / يناير 1865 - تشرين الأول / أكتوبر 1871)

في الوقت الذي يموت برودون في كانون الثاني / يناير 1865، وهو على قناعة بأنه أخطأ، تتسارع العولمة أو «التعميم» (universalisation) وهو الاسم الذي سماها ماركس به في 1848 عندما استشعر ظهورها. فالسكة الحديدية والتلغراف والسفن البخارية، تختصر المسافات، وتدفع إلى تنامي الأسواق، وتسهل استعمار إفريقية والهند.

وكارل، في لندن، يعيش حياة مزدوجة. فهو في النهار «السكرتير المراسل لألمانيا» للدولة رسمياً، لكنه بالفعل، زعيم منظمة سياسية ستجمع عن قريب عشرات الآلاف من العمال والمستخدمين والمثقفين عبر أوروبا. وفي الليل يعكف من جديد على العمل في هذا الكتاب العظيم الذي شرع فيه منذ عشرين عاماً، ولم ينشر منه إلا فصلاً كبيراً بعنوان (إسهام في نقد الاقتصاد السياسي) والذي سيسهم، كما يعتقد، في تقويض الرأسمالية، وهو (رأس المال).

والشرطة البريطانية تراقب هذا العديم الجنسية بعلاقاته العالمية، لكنها لا تهتم به بصفة خاصة. فهي تعرف أن الإمبراطورية البريطانية، منذ وصوله قبل خمسة عشر عاماً، ليست شغله الشاغل، وليس التاج عدوه الرئيس. إذ إن المنظمة الدولية التي يديرها، وتشارك فيها النقابات البريطانية على نطاق واسع، لا تعد معادية للمَلَكية؛ أما كتبه القليلة فلا

تباع. وحتى مع نقده الشديد، في الصحافة الأمريكية، لبالمرستون وللسياسة البريطانية، فإنه لا يدعو مطلقاً إلى العنف؛ ولا يضع مؤسسات البلاد موضع اتهام.

وفي منزله الجديد، الأكثر حفاوة بكثير، يستقبل ضيوفاً أكثر وبشكل أفضل. فما من جمهوري، وما من اشتراكي يأتي من القارة أو من أمريكا دون المرور لرؤيته، سواء لتلقي تعليماته أم للاستماع إلى نبوءاته. ويتكلم معهم دون تمييز بالإنجليزية والفرنسية والألمانية والإسبانية، وحتى بالروسية التي يتعلمها الآن للتسرية عن نفسه، وبخاصة عندما يتوجع من دماملة. يتبسط مع الفرنسيين حول بلزاك، ومع الروس حول تورغينييف، ومع الإسبان حول سيرفانتس وحول كالديرون. إذ يروي عضو إسباني في اجتماع كانون الثاني / يناير 1865 للدولية، هو أنسيلمو لورينزو، أنه في أول موعد له في منزله، وكان الوقت جد متأخر من الليل، قدم كارل له الشاي وحدثه بالإسبانية عن مشكلة الدولية اللوجستية في إسبانيا قبل أن يستطرد إلى مقارنة بارعة بين سيرفانتس وكالديرون ولوب دوفينا وتيرسو دومولينا.

ويحدث أن تشترك جيني والبنات الثلاث في هذه الأحاديث؛ وهكذا يقترب بعض الشباب من بنات الدكتور ماركس الثلاث.

من هؤلاء الزوار، يصل من باريس في شباط 1865، شاب سيقوم قريباً بدور كبير في حياة أسرة ماركس هو: بول لافارغ. وكنا أتينا عدة مرات على ذكر روايته التي سينشرها فيما بعد عن حياة ماركس طبقاً لما رآه وسمعه. كان عندئذ في الرابعة والعشرين من عمره؛ وهو أحد موفدي فرع الدولية الفرنسي الذي أنشئ لتوه في 44، شارع دي غرافيلييه، لدى السيد فريبورغ. ولد لافورغ في سانتياغو بكوبا، متحدراً من أجداد من العبيد السود ومن المستوطنين الإسبان في آن، وهو مواطن إسباني جاء طفلاً للعيش في بوردو، حيث تقيم أسرته، وشرع في دراسة الطب في كلية الطب بباريس التي طرد منها، نظراً لالتزامه الجمهوري، وللدور

الذي قام به في مؤتمر الطلبة الدولي الذي اجتمع في ليبج؛ ثم تمكن فيما بعد من متابعة دراسته في باريس. وقد قدم إلى لندن لإطلاع ماركس على ما أحرزته الجمعية الفرنسية من تقدم، وتسليمه رسالة من هنري - لويس تولين، سكرتير الفرع الفرنسي للدولية. وسيروي لافارغ، بعد ذلك بسنين طويلة، هذا اللقاء الأول: «لن أنسى ما حييت الانطباع الذي أحدثه هذا اللقاء في نفسي. كان ماركس مريضاً ويعمل في المجلد الأول من (رأس المال) (..). وكان يخشى ألا يتمكن من إنجاز عمله إلى نهايته، ويستقبل الشباب بلطف دائماً، إذ، كما يقول «يجب علي أن أهيء الذين، من بعدي، سيواصلون الدعاية الشيوعية». لكن ليس المحرض الاشتراكي الذي لا يكل، المنقطع النظير، بل العالم الذي ظهر لي للوهلة الأولى في حجرة عمله بميتلاندبارك رود، حيث كان الرفاق يتقاطرون من كل أرجاء العالم المتحضر لسؤال زعيم الفكر الاشتراكي.

وبما أن كارل يستقبله في بيته، فإن لافارغ يلتقي جيني والفتيات، ويفتن بظرف الثانية، لورا. إذ يكتب: «كانت الصغيرة إليانور طفلة جذابة بطباع الأولاد. وكان ماركس يقول إن زوجته أخطأت الجنس عندما وضعت بنتاً. وكانت الأخريتان تشكلان التباين الأكثر جاذبية وتناسقاً. فقد كانت للكبرى، جيني، البشرة المُسمَرة، مثل أبيها، التي تدل على الصحة، والعينان الداكنتان والشعر الأسود الفاحم. أما الوسطى (لورا) فكانت شقراء وردية البشرة، وكان لشعرها الغزير المجعد بريق الذهب؛ حتى لكأن الشمس الغاربة كانت اختبأت فيه: وكانت تشابه أمها..» ووقع في الحب.

منذ أن غادر ويلهلم ليبكنخت إلى ألمانيا، لم يعد لدى ماركس سكرتير. ولهذا يجعل من هذا الشاب الذكي والمتفاني، العازم على متابعة دراسة الطب في إنجلترا، رفيقه في العمل وفي النزهة؛ وسنعلم عن طريق لافارغ، انطلاقاً من هذا التاريخ، الكثير من زاوية محابية دائماً، حول أسلوب عمل ماركس في الوقت الذي يتم كتابة (رأس المال).

«مع أنه كان يأوي إلى فراشه في ساعة متأخرة من الليل، إلا أنه كان يستيقظ دائماً بين الثامنة والتاسعة صباحاً؛ فيحتسي قهوته، ويتصفح الصحف وينتقل إلى حجرة عمله، حيث كان يعمل حتى الثانية أو الثالثة ليلاً. ولم يكن يتوقف إلا لتناول وجباته والقيام مساءً بنزهة في ناحية هاميستيد هيث، حينما كانت تسمح حالة الجو بذلك؛ وفي النهار، كان ينام ساعة أو اثنتين على الكنبة. ففي خلال هذه الجولات عبر الحقول قام بتربيتي الاقتصادية، إذ كان يشرح لي، دون شعور منه ربما، كل محتوى المجلد الأول من (رأس المال) أولاً بأول وهو يكتبه. وكنت في كل مرة، أسجل ما إن أعود، بقدر ما أستطيع ما سمعته لتوي. وكان علي في البداية بذل الكثير من الجهد لمتابعة استدلالات ماركس المعقدة والعميقة. (..) إذ كان دماغه كسفينة حربية لا تزال في المرفأ، لكنها تحت ضغط البخار، جاهزة دائماً للانطلاق في أي اتجاه وسط محيط الفكر. (..) وأصبح العمل لديه ولعاً يستغرقه إلى الحد الذي ينسيه أوقات الطعام. وكان يجب مناداته غالباً عدة مرات قبل أن ينزل إلى قاعة الطعام، وما إن يزدرد آخر لقمة حتى يسارع بالصعود إلى حجرة عمله».

ويظن كارل أنه يقرب من إتمام مخطوطه إلى الحد الذي يبحث فيه عن ناشر جديد. فلا مجال لإعادة التعامل مع دنكر في برلين، ناشر لاسال، الذي أساء التصرف بشأن كتابه السابق. وفي 30 كانون الثاني / يناير 1865، يكلمه ويلهلم ستروهن، وهو عضو سابق في عصبة الشيوعيين، يعيش منفياً في مانسشتر، عن ناشر في هامبورغ يدعى ميسنير، معروف لنشره الأدبيات ذات الاتجاه الديمقراطي. وقد نشر لتوه أعمال أرنولد روج، رفيق ماركس في باريس قبل عشرين عاماً، وقد عاد الآن إلى بروسيا. وكما في كل مرة عليه اتخاذ قرار عملي، يلتمس كارل رأي فريدريك الذي يرد عليه من مانشستر في 5 شباط / فبراير معدداً له تفصيلات الشروط التي ينبغي إدراجها في عقده للحفاظ على مصالحه، ويختم قائلاً: «ينبغي عليك بالطبع أن تذهب لرؤيته بنفسك،

ومعك مخطوطك». فيقترح ماركس على إنجلز عندئذ تدشين التعامل معه، واستخدامه لنشر الكتيب الذي كتبه السنة الفائتة، ويرغب في توزيعه بألمانيا، (المسالة العسكرية البروسية وحزب الشغيلة الألماني).

لكن كارل في الواقع ليس جاهزاً البتة. وإنجلز الذي انتابه شيء من الغيرة لرؤية صديقه يعود بدونه إلى النشاط السياسي، متشكك في هذه المنظمة الضئيلة التي تسمي نفسها الدولية بغرور، ويأخذ عليه تخصيصه الكثير من الوقت لاجتماعات ضبابية، وعدم إنهاء كتابه. لكن كارل يرد عليه في 13 آذار / مارس 1865، بأنها قضية جد هامة وبأنه يسيطر عليها: «إنني بالفعل على رأس هذه القضية».

ويبدي إنجلز أيضاً قلقه من إنفاق ماركس: فمع أن التركات سمحت بسداد الديون المتراكمة وبتأثيث المنزل (بتكلفة 500 جنيه)، إلا أن نمط معيشته الجديد يفوق بكثير المائتي جنيه التي يخصصها له فريدريك سنوياً. وتسوء حالته المالية في صيف 1865، حتى إنه يضطر، كما يقول، إلى العيش شهرين بفضل رهن أفضل ممتلكاته، وبخاصة فضيات جيني.

وتقاسم جيني فريدريك قلقه: فالمنزل «قصر حقيقي، أكبر من اللازم، وأغلى من اللازم». ويكتب كارل عندئذ لصديقه: «أنا أعيش، والحق يقال، في منزل يتجاوز قدراتي»، لكنه «أفضل وسيلة ليس فقط لتعويض البنات عن كل ما عانينه، بل أيضاً لإتاحة الفرصة لهن لتكوين علاقات ومعارف تؤمن مستقبلهن». فليس المقصود من المال الذي يبذره الفخفخة إذاً. ولا ينفق نتيجة ولع بورجوازي، بل بنوع من تأنيب الضمير، للتعويض عن الفاقة التي ترك أسرته تعيش فيها، وأفضت إلى موت ثلاثة من أطفاله.

وبحثاً عن موارد إضافية، يعود ماركس في 19 آذار / مارس 1865، إلى زيلت – بوتيل في هولندا، عند خالته وزوجها فيلييس. فيأتي بقرض جديد، ويطمئن بالمناسبة إلى أن ابنة خالته نانيت «لم تنسه تماماً». حتى

إنه يلعب معها في 1 نيسان / أبريل، اللعبة المسماة «الاعتراف»، وتقوم على مجموعة من الأسئلة، كانت دارجة يومذاك؛ يُخمَّن فيها حب امرئ من أسلوبه في الإجابة عليها: «الخصلة المفضلة؟ البساطة. ولدى الرجل؟ القوة. ولدى المرأة؟ الضعف. صفتك الشخصية الرئيسة؟ العناد. شغلك المفضل؟ النظر إلى نانيت. النقيصة التي تكرهها أشد الكره؟ العبودية. النقيصة التي تعذرها أكثر؟ السذاجة. فكرتك عن السعادة؟ الكفاح. فكرتك عن البؤس؟ الخضوع. شعراؤك المفضلون؟ إزكيل وشكسبير. كاتبك النثري المفضل؟ ديدرو. قولك المأثور؟ «ما من شيء إنساني غريب عني». شعارك؟ «الشك في كل شيء».؟ لونك المفضل؟ الأحمر. الأسماء المفضلة لديك؟ جيني ولورا». وفي اللحظة نفسها، يرد كارل على تعريف السعادة: «شاتو مارغو 1848 (نبيذ)»، وعلى تعريف المصيبة: «واجب الذهاب عند طبيب الأسنان».

ولدى عودته إلى لندن، نهاية نيسان / أبريل، يكتب كارل إلى الفتاة رسالة جد صريحة، يختتمها هكذا: «والآن يا ساحرتي الصغيرة، وداعاً ولا تنسي تماماً فارسك التائه».

وفي سنة 1865 ذاتها، ينشر لويس كارول (أليس في بلاد العجائب)؛ ويعرض كلودبرنارد مؤلفه (مقدمة في الطب التجريبي)؛ وينشر جول فيرن (من الأرض إلى القمر). ويبني صناعيا النسيج دولفوس وكويشلان في مولوز حياً من عدة مئات من المنازل لعمالهما. وفي بياريتز، يلتقي نابليون الثالث بسمارك، ويؤكد له حياد فرنسا في حالة صراع - قوي الاحتمال منذئذ - بين بروسيا والنمسا. بينما يؤسَّس في جنوب ألمانيا الحزب الشعبي الألماني الذي ينوي التصدي لهيمنة بروسيا على ألمانيا، بإقامة جمهورية فيديرالية لا مركزية.

يستقر ليبنكنخت تلك السنة في ليبزيغ، وينضم بتردد إلى الجمعية العامة للشغيلة الألمان، التي يقودها خلفاء لاسال، حيث يلتقي أوغست بيبيل، وهو عامل شاب سيشترك معه قريباً في تأسيس حزبه الخاص

الأكثر قرباً من أفكار ماركس. وبالفعل، يشرح ماركس، تلك السنة، في رسالة إلى ثلاثة عمال برلينيين أنه يلوم لاسال على «تطعيمه المبادئ الديمقراطية بالقيصرية».

ويمتد نفوذ الدولية الآن إلى إسبانيا، وإلى الإمبراطورية النمساوية وإلى هولندا؛ وفي فرنسا، يحصل فارلان، قائد الإضرابات في السنة الفائتة، على تدخل الدولية في بعض الحالات، لمنع جلب اليد العاملة الأجنبية من قبل منشآت مشلولة بالإضرابات، ولإقناع المظاهرات الهائلة من أجل الاستقلال الإيطالي أو الإيرلندي بالأسلوب السلمي. كما تؤسس الدولية صحفاً في شتى البلدان التي لها وجود فيها. ومن اجتماع إلى آخر، يرسم ماركس ملامح المنظمة التي تسلم السيطرة عليها، ويقوم بنفسه على التربية الاقتصادية والسياسية لأعضائها. وهكذا، عندما تنتهي حرب الانفصال باستسلام روبرت ي. لي، يوجه كارل باسم المجلس العام خطاباً لإبراهام لينكولن يذكّر فيه بأن «جمهورية ديمقراطية عظيمة» كانت انبثقت منذ قرن لأول مرة في أمريكا، وأعطت دفعاً قوياً للثورة الأوروبية.

في 2 و8 أيار، يلقي ماركس خطابين أمام المجلس العام للدولية (نشرا بعد وفاته تحت عنوان الأجور والأسعار والربح)، يشرح فيهما للمرة الأولى تصوره للصلات بين العمل والاستغلال والربح: «إن العمل بطبيعته في وضع ضعف بمواجهة رأس المال. لأن العمل من طبيعة قابلة للتلف أكثر من السلع الأخرى. وهو غير قابل للتراكم». والاستغلال يتميز بالنسبة له باستعماله الزمن: فعلى العكس من الرأسمالي الذي يمكن أن يسمح لنفسه بتخزين منتجات مصانعه، يفقد العامل الذي لم يبع قوة عمله قيمة هذه القوة نهائياً. ويستنتج ماركس من هذا أسبقية العمل السياسي على العمل النقابي، على خلاف أطروحات النقابيين الإنجليز: «فإذا ما ضعفت الطبقة العاملة في صراعها مع رأس المال (أي إذا ما تخلت عن العمل النقابي)، فإنها ستحرم نفسها بالتأكيد من إمكان القيام

بحركة أكثر اتساعاً»، لكن «لا يجب على العمال المبالغة في النتيجة النهائية لهذا الصراع اليومي الذي يكافح ضد الآثار وليس ضد الأسباب. بل عليهم إذاً أن يكتبوا على رايتهم الشعار الثوري: «إلغاء العمل المأجور» الذي هو هدفهم النهائي». وبعبارة أخرى، إن النشاط النقابي غير كافٍ، والعمل السياسي ضروري لتغيير المجتمع جذرياً وإخراجه من النظام التجاري. وبما أن النقابات الإنجليزية التي كانت الأساس للدولية، لم تعد تجد نفسها في المنظمة التي اختلسها كارل وأصدقاؤه منها، فإنها ستغادرها قريباً.

ويصبح كارل زعيمها المطلق، كما في كل مرة يمسك فيها بأقل قدر من السلطة. إذ يفرض نفسه على الجميع بتأثيره، كما فعل تلك الليلة حينما تسلم السيطرة على الدولية. فهو الذي يحدد جدول أعمال الاجتماعات، ويكتب النصوص، ويرسم الخط دون قبول معارضة، ولا يقاوم أبداً متعة توجيه كلمة مناسبة لمن يعارضه. وبما أنه يرغب في «الحصول على معرفة دقيقة ووضعية للظروف التي تعمل وتتحرك فيها الطبقة العاملة» فإنه يُطلق عدة تحقيقات حول الظروف العمالية، جاعلاً من الدولية هكذا أداة توثيق في خدمة عمله النظري.

وفي مواجهة سلطته الجارفة، تتعدد المؤامرات ضمن هذه المنظمة التي لا تزال جد متواضعة. فمنذ صيف 1865، يحاول الإيطالي مازيني، بمساندة مواطنيه الأعضاء في المجلس العام، جمع غالبية من الوفود للمؤتمر السنوي الأول للدولية الذي يجب أن ينعقد، طبقاً للنظام الداخلي، في أيلول / سبتمبر. ولشعوره بالخطر، ينال كارل الموافقة - انتهاكاً للنظام الداخلي الذي كتبه - على تعويض المؤتمر الأول بـ«مؤتمر تحضيري» يجتمع في لندن. ولا يقبل فيه إلا المنتخَبون من قبل المجلس العام، حيث يتمتع هو بالأكثرية.

بعد ذلك بقليل، كان دور باكونين العائد من سجن الأشغال الشاقة الروسي الذي سيصبح ألد خصومه، في الظهور ضده. والواقع أنهما

يتعارضان في كل شيء. فماركس شيوعي، يرغب في السيطرة على الدولة من قبل أحزاب شيوعية، بوساطة صناديق الاقتراع، حيثما كان ذلك ممكناً، وبفضل تضامن الشغيلة الدولي. وباكونين فوضوي، يتطلع إلى إلغاء الدولة وكل السلطات؛ وينكر حتى وجود الدولية؛ علاوة على أنه يريد فرض الإلحاد على الاشتراكيين، وهو ما يقصي من الدولية كل أعضائها البريطانيين الذين يساند الكثير منهم كارل. أخيراً، كارل يهودي - ملحد، لكنه يهودي - وباكونين معاد للسامية.

وثمة مفاجأة كبيرة، تلك السنة أيضاً: إذ تبلّغ برقية جيني بعودة أخيها التي لم تره من ستة عشر عاماً إلى أوروبا! ويعود إدغار فون ويستفالن من أمريكا «شديد التغير، شديد المرض، شديد البؤس، حتى إنني لم أكد أتعرف عليه»، كما تكتب إلى صديقتها إرنستين، زوجة ويلهلم ليبكنيخت، التي تعيش الآن في درسدن. ويحكي إدغار لأخته أنه شارك في الحرب بتكساس لثلاثة أعوام، وأنه عاني فيها الكثير، ثم عمل في خدمة ملاك أراض كبار أعمالاً تافهة، وأضاع كل شيء في حرب الانفصال. وقد أضاع بالخصوص أحلامه. ولم يعد يأمل إلا في العودة إلى بروسيا والحصول هناك، بواسطة أخيه غير الشقيق فرديناند على وظيفة في الدولة. ويقيم ستة أشهر لدى أسرة ماركس «ضيفاً باهظ النفقات» كما يُسر كارل لفريدريك: «يا لسخرية الأقدار أن يكون هذا الإدغار (الذي لم يستغل أحداً قط غير نفسه، والذي «عمل» دائماً بالمعنى الأكثر ضيقاً للكلمة) عاني من فظائع الحرب وهو يعمل لحساب المستغلِين المستعبِدين! ويالسخرية من رؤية الصهرين وقد أفلسا مؤقتاً بسبب الحرب الأمريكية!» وبالفعل، فكما أن إدغار أصيب بالإفلاس نتيجة للمعارك في الولايات الجنوبية، أفلس كارل هو الآخر نتيجة انقطاع عمله مع (نيويورك دايلي تريبيون). وإدغار، كما يضيف كارل «يعيش خاملاً، حتى إنه لم يعد يهتم بالنساء. وقد تحولت غريزته الجنسية إلى المعدة». أما بالنسبة لجيني، فبعد الفرح باللقاء، إنه الشعور بالفرح في

تشرين الثاني / نوفمبر وهي تراه يغادر إلى برلين حيث عثر له فردينانـد على وظيفة متواضعة.

في 1866، وبإلحاح من فريدريك، يقبل كارل تخصيص وقت أقل للإدارة اليومية لشؤون الدولية حتى ينهي «كتابه العظيم». ولكن كما في كل مرة يعزم على التفرغ بجدية، تأتي نوبة كبدية أو نوبة برد لتوقفه. لكنه في الواقع موسوس أكثر فأكثر بالكمال بشكل مرضي. إذ يسجل لافارغ الذي يرافقه منذئذ كل يوم: «ما كان له أن يستند قط إلى واقعة لم يكن متأكداً منها تمام التأكد.. وما كان له أن يسمح لنفسه بمعالجة موضوع دون دراسته بعمق. وما كان ينشر شيئاً قبل أن يعد له عدة مرات، إلى أن يعثر على الشكل الأنسب له. فلم يكن يطيق فكرة إعطاء الجمهور دراسة لم تمحص بصورة كافية. ومن أشق الأمور عليه إطلاع أحد على مخطوطاته قبل أن يكون قد وَضَع اللمسات الأخيرة عليها. وكان هذا الشعور قوياً لديه، حتى إنه كان يفضل - كما قال لي يوماً - حرق مخطوطاته على تركها غير مكتملة».

أما مع المفكرين الآخرين، فقد كان ماركس على قسوته المعتادة. إذ عندما يقرأ تلك السنة بصفة خاصة (دروس في الفلسفة الوضعية) لأوغست كونت، بعد ثلاثين عاماً من نشره، يقرر بأن الكتاب رديء، وأنه لا يقرأه إلا «لأن الإنجليز والفرنسيين يثيرون كثيراً من الضجيج حول هذه الشخصية»، لكنه لم يستفد شيئاً من هذه القراءة. غير أنه عندما يقدر مؤلفاً، يستشهد به، ويولي اهتماماً خاصاً لدقة استشهاداته. ويضيف لافارغ: «كان يعتقد بواجب تسمية الكاتب الذي كان الأول في التعبير عن فكرة ما، أو عثر لها على التعبير الأكثر دقة، حتى وإن كان كاتباً قليل الأهمية أو مغموراً. فقد كان ضميره الأدبي بمثل صرامة ضميره العلمي».

لكن كل هذا ليس إلا ذريعة له في الواقع لإعادة القراءة، والتحقق، والتصحيح، ووضع الهوامش أسفل الصفحة، ثم إعادة القراءة من جديد.

ثم تأتي اللحظة التي لا يمكن فيها فعل المزيد، ولا إنكار أن الكتاب قد انتهى. ولم تعد ثمة ذريعة لعدم ترك مخطوط (رأس المال). فيعيد كارل عندئذ قراءته من جديد للمرة الأخيرة.

يبدأ الكتاب بتحليل تصور «السلعة»، الذي استعيد من نهاية مؤلفه السابق. فالاقتصاد، بالنسبة لماركس، لا يفسر بالتبادل، بل بالإنتاج؛ وليس بالمرئي بل بما هو غير مرئي. إذ يجب، كما يقول، مغادرة «ضوضاء السوق، جنة عدن الحقيقية التي يتم فيها البيع والشراء»، للنزول إلى المعامل التي تصنع فيها السلع.

وبصفة أدق، حتى تكون هناك سلعة، لا بد من وجود سوق وتقسيم للعمل. فمنتجات العمل، بعبارة أخرى، لا تصبح «سلعاً» إلا عندما يعترف بها من حيث هي كذلك عبر التبادل. وهو (قانون القيمة) أو (القانون العام للتعادلات).

ولكل سلعة (قيمة استعمال) و(قيمة تبادلية) و(سعر).

وتقوم (قيمة الاستعمال) لشيء ما على نفعه لمن يملكه؛ ولا ترجع إلى ندرته ولا إلى المواد التي تكونه. وتؤمن (القيمة التبادلية) تعادل السلع فيما بينها؛ وهي تقاس لدى عملية الإنتاج بالزمن اللازم لعملها. ولا يفسر الواقع بالأسعار، إنما بالعلاقة بين القيم التبادلية. و(السعر) يحدد من قبل السوق؛ ويتنوع حول (القيمة التبادلية) ويحث المنشآت على الصنع أكثر أو أقل بحسب طلب (قيمة الاستعمال).

ويقتبس كارل ماركس عندئذ من آدم سميث ومن دافيد ريكاردو فكرة أن القيمة التبادلية لسلعة ما تقاس بـ(زمن العمل) اللازم لإنتاجها (أي «العمل الماضي»، الذي اقتضاه صنع الآلات التي يستخدمها العمال، بالإضافة إلى «العمل الحاضر» أي عمل العمال الذين يصنعون المنتج مباشرة)، وتلك هي القيمة – العمل.

وتنتهي هذه القيمة – العمل حتى إلى عدها القيمة الذاتية للمنتجات، وإلى أن تحل محل قيمها الاستعمالية عندما ينسى الناس أن

المنتجات قد صنعت من قبل أناس آخرين وأن لها نفعها الخاص. وهو ما يسميه ماركس الآن «وثنية السلعة» (fetichisme de la marchaudise)، وهو تصور قريب من أبعاد ما كان يسميه «الاغتراب» قبل عشرين عاماً. وهكذا يشكل فكره كلاً في تطور دائم، دون انقطاع في استمراريته.

ويعلن عندئذ اكتشافه الأكبر الذي قام به منذ اثني عشر عاماً، ولم ينشر بعد: إن العامل لا يبيع ناتج عمله (الأشياء التي يصنعها)، بل حق الاختيار لرب العمل في التصرف بقوة عمله لزمن معين (مدة عمل معينة). فالعامل طرف إذاً في عقد جائر، نوع من وهم قانوني، مع الرأسمالي، أي: قوة عمل نظير أجر. ويعبر ماركس عنه بأسلوب جد مدهش: «لقد دفع صاحب المال القيمة اليومية لقوة العمل؛ فاستعماله له ليوم، أي عمل يوم كامل، ملكه إذاً». فالزمن إذاً هو المعيار الحقيقي للتبادل.

ويعلن ماركس هنا ما يشكل مفتاح الرأسمالية بالنسبة له، أي كيفية خلق الثروة، وما يصل الاقتصاد بالسياسة: فالعامل سلعة كغيرها، لكن لديه خصوصية أن قيمتي التبادل والاستعمال لديه تقاسان كلاهما بكمية العمل. إذ إن (قيمة الاستعمال) للعامل تساوي ما هو قادر على إنتاجه بعمله؛ و(قيمته التبادلية) مساوية لما يتكلف لينتج، أي لعدد ساعات العمل اللازمة لصنع ما يحتاج إليه للعيش. فقيمته الاستعمالية هي قوة عمله. وقيمته التبادلية، هو ما يتلقاه لإعادة تكوينها. صحيح أن «العامل يتغذى لإرضاء حاجته الشخصية، وليس لإرضاء الرأسمالي»، ولكنه لا يفعل ذلك بحثاً عن المتعة: فالعامل يتغذى ليعيش قبل كل شيء، أو إنه يحصل من ذلك على متعة بسيطة: إذ إن «الدواب هي أيضاً تحب الأكل».

وهنا نصل إلى الجوهري الذي لم يعبر عنه أحد هكذا قبل ماركس: إن العامل يستطيع أن ينتج أكثر مما يتكلف لينتج. فقيمة استعماله عندئذ أعلى من قيمته التبادلية. والفرق - مقيساً بساعات

العمل – بين ما يتكلفه للرأسمالي عمل العامل وما يدره عليه، هو (فضل القيمة) الذي يستولي الرأسمالي عليه. وبه تقاس ضخامة الاستغلال. ويسميه ماركس أيضاً «العمل الزائد» أو «القيمة الزائدة»، وهي الترجمة الحرفية لكلمة Mehrwert الألمانية. كما وصفه أيضاً بحسب استعارة رياضية ملحة كـ«تفاضلية زيادة رأس المال النقدي». ويستولي الرأسمالي على فضل القيمة هذا على شكل ربح صناعي وهامش تجاري وفائدة أو ريع عقاري. ويعتمد توزيع هذه الأشكال المختلفة على علاقات القوة بين الفروع الصناعية والتجارية والزراعية والمالية. لكن فضل القيمة يتولد من خلق الثروة من قبل الأجير وليس من أي مكان آخر.

ويلخص ماركس كل هذا في صيغة صادمة: فالرأسمالي «يشتري سلعاً بقيمتها الصحيحة ثم يبيعها بما تستحق من قيمة، ومع ذلك يحصل في النهاية من القيمة على أكثر مما كان دفع». ويشابه كل شيء هنا رواية – بل رواية بوليسية. فالإنسان هكذا آلة، هي الوحيدة التي يفوق مردودها على أساس الوحدة. وإذا لم يكن أحد انتبه لهذا قبل ماركس، فلأن «كل أجزاء رأس المال دون تمييز تظهر (خطأ) على أنها مصدر لفائض القيمة (الربح)».

ويعلم ماركس أنه ما من باحث نظري قبله استطاع تفسير كيف تنتج الرأسمالية في مجموعها ربحاً؛ فنظريته إذاً، من حيث هي كذلك، «نقد للاقتصاد السياسي»: وهو سيشكل العنوان الثانوي لـ(رأس المال).

وهو يميز عندئذ بين أسلوبين لزيادة فضل القيمة. الأول تمديد مدة العمل، لكن له حداً هو إنهاك الطبقة العاملة. والثاني هو تخفيض كمية العمل اللازمة لإعادة إنتاج الأجراء، أي زيادة «إنتاجية عمل صنع هذه المنتجات»؛ وهو غير محدود تقريباً، ويتم بتعويض العمال بالآلات. الأول محدود بتعب العامل؛ والثاني بالتقدم التقني. الأول يتطلب عملاً أكثر؛ والثاني رأس مال أكبر.

فالأسلوب الثاني الذي يسمح، بوساطة تعويض الإنسان بالآلة،

زيادة فضل القيمة دون حدود إلا حدود الذكاء الإنساني هو الأكثر أهمية بالطبع: «إذ إن الآلة بجعلها القوة العضلية غير ضرورية تسمح باستخدام عمال دون قوة عضلية كبيرة، بل تكون أعضاؤهم أكثر مرونة بقدر ما تكون أقل نمواً (..). وهكذا بزيادة الآلة للمادة الإنسانية القابلة للاستغلال، ترفع في الوقت ذاته درجة الاستغلال». ويشكل هذا النمط من فضل القيمة، بالنسبة لماركس، مصدراً لمشكلات نظرية، لأن عمل الذي يصمم الآلات لم يعد عندئذ قابلاً للقياس بمدة العمل: فساعة عمل لمهندس تنتج ولا شك قيمة أكبر من القيمة التي ينتجها عامل، ولكن كيف يمكن قياس قيمة الاستعمال لمن يصمم الآلة بساعات عمل؟ ويطرح ماركس المشكلة دون أن يتوسع في تفصيلاتها.

ويسمي التملك الاقتصادي لفضل القيمة «استغلالاً» للعامل، لكنه يحرص على تمييزه عن (الاغتراب) الذي هو تصور فلسفي. فالاستغلال هو النتيجة الاقتصادية للاغتراب. وهو ليس طبيعياً ولا نهائياً، بل سياسي، يفسر تاريخياً: فإذا كان ثمة «عمالاً لا يملكون إلا قوة عملهم، فذلك لأنهم جُردوا من كل وسائل إنتاجهم (..). وتاريخ نزع ملكياتهم ليس موضوعاً ظرفياً بل هو مكتوب في حوليات البشرية بأحرف من دم ونار ولا تمحى».

وقد قامت الدولة المَلَكية، كما يشرح ماركس، بدور رئيس في نزع الملكية هذا؛ فهي متواطئة، بل مسؤولة عن ولادة الرأسمالية: «في غضون النشوء التاريخي للإنتاج الرأسمالي (..)، لم يكن للبورجوازية الوليدة أن تستغني عن التدخل المستمر للدولة؛ فتستخدمه لتحديد الأجور (..)، ولتمديد يوم العمل». ويصف ماركس عندئذ بإسهاب وبتعبيرات شديدة العنف كيف أكره ملوك إنجلترا الفلاحين على ترك أراضيهم والعمل كأجراء: «إن نهب ممتلكات الكنيسة، والتنازل عن أملاك الدولة بالغش، ونهب أراضي البلديات، وتحويل الملكية الإقطاعية بالاغتصاب إلى ملكية حديثة خاصة، والحرب على أكواخ الفلاحين، تلك هي الوسائل المثالية

لتحقيق التراكم البدئي (..)، وهذا ما تكلفته لفصل العامل عن ظروف العمل، ولتحويل هذه الظروف إلى رأس مال، وجماهير الشعب إلى أجراء (..) ويُنفَّذ نزع الملكية هذا عن المنتجين المباشرين بوحشية لا تعرف الرحمة، وبدافع من الأهواء الأكثر دناءة والأكثر خسة والأكثر حقداً. فالملكية الخاصة المكتسبة بالعمل الشخصي (للفلاح والحرفي)، المؤسسة على التحام العامل المعزول والمستقل ذاتياً مع ظروف عمله، أزيحت لتحل محلها الملكية الخاصة الرأسمالية التي ترتكز على استغلال عمل الآخر الذي ليس حراً إلا من حيث الشكل».

ويعقب ذلك وصف بديع لتعميم الرأسمالية: «بالارتباط مع هذه المركزية أو نزع الملكية عن أكثرية الرأسماليين من قبل حفنة منهم، يتنامى الشكل الصناعي على نطاق أوسع فأوسع للعمل، والتطبيق الواعي للعلم والتقنية، والاستغلال المنهجي للأرض، وتحويل أدوات العمل الفردية إلى أدوات عمل تستعمل فقط بصفة جماعية (..)، ودخول كل الشعوب في شبكة السوق العالمية».

لأن الرأسمالية في نظر ماركس تشكل حتى الآن أفضل الأنظمة، وتمثل تقدماً هائلاً بالقياس إلى أشكال الاستغلال السابقة. فلديها إذاً «حق تاريخي في الحياة» وهي «محترمة» حتى، لأنها تنمي الإنتاج، وتخلق سوقاً عالمية، وتبعث الحماس على العمل، وتخرج الأفراد من الخمول. ويستعيد ماركس هنا، كل ما قاله عنها، بعبارات أخرى، في (بيان الحزب الشيوعي) للعام 1848. ولكن الرأسمالية، كما أعلنه أيضاً في (البيان) ليست هي أيضاً إلا نظاماً انتقالياً. وستختفي معها يوماً ما مجموع الفئات الاقتصادية التجارية. ذلك أن الرأسمالية والسوق هما شيء واحد، هو ذاته.

هذه الشروح كتبت بأسلوب أقل أناقة بكثير من أسلوب المقالات الصحافية أو الخطابات السياسية لماركس. وكأنما كانت هذه النصوص تسوء بقدر الوقت الذي يمضيه في كتابتها. وكأنما كانت تناقض في حد

ذاتها نظريته الخاصة التي مفادها أن قيمة العمل لا تعادل إلا الوقت الذي يخصص لإنتاجه.

وهذا مثال على هذا الأسلوب العويص أحياناً: «إن قضية الإنتاج الرأسمالي، منظوراً إليها في استمراريتها، أو كإعادة إنتاج، لا تنتج إذاً سلعاً فقط ولا قيمة زائدة فقط؛ بل تنتج وتُديم العلاقة الاجتماعية بين الرأسمالي والأجير». أو الأسوأ أيضاً: «في التعاون البسيط، وحتى في التعاون الذي يتميز بتقسيم العمل، يظل تعويض العامل الفردي بالعامل الجماعي عرضياً نوعاً ما. فالآلية فيما عدا بعض الاستثناءات التي سنتطرق إليها فيما بعد، لا تعمل إلا بين أيدي عمل اجتماعي مباشر أو مشترك. ويصبح الطابع التعاوني لقضية العمل الآن إذاً ضرورة تقنية تفرضها الطبيعة ذاتها لوسيلة العمل».

والكتاب صعب على الفهم حتى إن النائب الاشتراكي البروسي جوليان بورشاردت عندما سيعمل منه بعد خمسين عاماً نسخة ملخصة ومخففة ومترجمة في أكثرها، سيكتب في المقدمة: «لم يكن من الممكن إبقاء عدد كبير من الفقرات كما كتبت من قبل ماركس. وإلا ظلت غير مفهومة، وتوجب «ترجمتها» إن صح القول إلى الألمانية». وبالفعل سيترجم بورشاردت الفقرة الآنفة الذكر كالتالي: «في التعاون البسيط، وحتى في التعاون الذي يتميز بتقسيم العمل، يظل تعويض العامل الفردي بالعامل الجماعي عرضياً نوعاً ما. فالآلية (فيما عدا بعض الاستثناءات التي سنتطرق إليها فيما بعد) تتطلب بالضرورة عملاً اجتماعياً (أي العمل الجماعي، المنظم بمنهجية، لعدة أشخاص). وطبيعة وسيلة العمل نفسها تحول منذئذ التعاون المنهجي إلى ضرورة تقنية». وهو ما ليس أسهل على الفهم في رأيي، ويمكن تلخيصه بصورة أبسط، دون الإخلال بالمعنى، كالتالي: «إن التجديدات التكنولوجية، وهي ثمرة المصادفة في أغلب الأحيان، تدفع إلى تركيز رأس المال». وهي فكرة عميقة تربط المصادفة بالضرورة، ودور الإنسان بدور البنى في التاريخ، كما كان

ماركس قد عرضها في أطروحته حول هرقليطس وديموقريطس؛ لكنها فكرة غارقة في تعقد لغوي لا فائدة منه، حتى وإن أظهر عمله، على الرغم من هذا الغموض، وحدته منذ أطروحته البرلينية قبل خمسة وعشرين عاماً.

وهو يعيد القراءة، ويقرأ من جديد، ولا يجرؤ على الانتهاء، ويفكر في إضافة مقدمة. يعيد الكتابة. ويعدل، ويكمل. وفي 15 كانون الثاني / يناير 1866، يرسل إلى ألمانيا رسالتين، الأولى إلى كوجلمان والثانية إلى ليبكنيخت، ليبلغهما بأنه يعمل اثنتي عشرة ساعة يومياً لتبييض مخطوطه، وبأنه ينوي تسليمه باليد لأوتو ميسنر، ناشر هامبورغ الذي تعامل معه.

وبينما يراجع المخطوط الذي تراكم فيه عمل أكثر من عشرين يوماً، يقل تردده على مقر الدولية الكائن في 18، بوفريك ستريت. فيحاول الإصلاحيون والبرودونيون عندئذ من جديد انتزاع السيطرة على المنظمة منه. ويغتنمون في 6 آذار / مارس فرصة غيابه عن اجتماع للمجلس العام، ويقرون، كما في السنة الفائتة، قراراً يؤمن لهم السيطرة على تحضير مؤتمر الدولية الثاني الذي من المفروض أن يلتئم في جنيف في شهر أيلول / سبتمبر. لكن ماركس، في 14 آذار / مارس، يؤخر سفراً إلى مارغات لحضور اجتماع المجلس العام حاشداً المقربين منه، لإلغاء القرار الذي اتخذ منذ أسبوع. وعلى عكس السنة الفائتة، لم يلغ المؤتمر: إذ سينعقد، وسيكون ميداناً للقتال!

ويقترح عليه أصدقاؤه، ومنهم أوكاريوس عندئذ إحداث «رئاسة للمجلس العام» لأجله، تستهدف تعزيز السيطرة التي يمارسها على المنظمة، لكنه يرفض بحجة إنه «عامل فكري وليس عاملاً يدوياً»، وأنه فرض في النظام الداخلي أن يتضمن كل فرع وطني للدولية ثلثين من العمال على الأقل.

في هذه الأثناء، يفهم بسمارك أن حياد نابليون الثالث، يطلق يديه

أخيراً لتحقيق الوحدة الألمانية. فيهيء نفسه عندئذ للحرب ضد النمسا التي أضعفتها الهزيمة الإيطالية. وتعمل مصانع السلاح البروسية بكامل طاقتها. لكن ماركس لا يزال يأمل في انتصار للنمسا قد يفضي إلى الثورة في ألمانيا، حتى وإن أدى إلى تعزيز نابليون الثالث. فيكتب في 2 نيسان / أبريل 1866 إلى إنجلز: «ما تقول في بسمارك؟ فكأنه يدفع الآن إلى الحرب، وسيقدم إلى لويس نابليون هكذا أجمل فرصة لضم قطعة من ضفة الراين اليسرى دون جهد، وبهذا يتيح له البقاء على العرش مدى الحياة (..) وأمنيتي الأولى هي أن يمنى البروسيون بضربة قاصمة».

بعد يومين، في 4 نيسان / أبريل، يطلق طالب هو ديميتري كاراكوسوف الرصاص على القيصر ألكسندر الثاني، ويخطئه. فتنتهي الإصلاحات الليبرالية: وتعود روسيا إلى النظام الأكثر إقطاعية وإلى الحياد إزاء نزاعات أوروبا الوسطى.

وفيما وراء الأطلسي، تواصل حرب الانفصال رفع سعر القطن، وبالتالي تبطئة الإنتاج النسيجي في أوروبا، والتسبب في إفلاسات بلندن ومانشستر. وأحد أهم بيوتات وكلاء الصرافة، وهو أوفيرند غورني، الذي سيتحدث عنه ماركس بإسهاب فيما بعد، ينهار في 11 أيار / مايو 1866، يوم الفزع الأكبر في حي السيتي، الذي سيظل في الذاكرة كأول (يوم جمعة أسود). (Black Friday).

وهذا ما يعزز اقتناع ماركس بأن الرأسمالية، بلعبة التنافس ومراكمة فضل القيمة، تنحل وتتحول وتتركز حتى التدمير الذاتي. ويجعله هذا يعيد كتابة بعض الفقرات التي كان يظن أنه أتمها، كي يحلل هذه الأزمة – وكل الأزمات. فيدرك أن الرأسمالية لا تقوى على البقاء، بفعل التنافس بين الرأسماليين، إلا بالنمو وبزيادة الإنتاجية، بوساطة تعويض الإنسان المستمر بالآلة؛ فيتلخص تاريخ الرأسمالية بمجمله بتاريخ تراكم رأس المال، «فيما أن رأس المال محرك الإنتاج وغايته (..)، يصبح احتكار رأس المال عقبة أمام نمط الإنتاج الذي نما وازدهر معه وتحت رعايته.

وتبلغ مركزة وسائل الإنتاج وجماعية العمل نقطة لا يستطيعان البقاء فيها ضمن غلافهما الرأسمالي. فيتفجر هذا الغلاف شظايا. وحانت ساعة زوال الملكية الفردية. وسيصبح نازعو الملكية بدورهم منزوعي الملكية».

وعندما يصبح العالم بأسره أو جله «بروليتارياً» هكذا، سيكون من السهل على الكادحين تقويض النظام الرأسمالي، والاستيلاء على ملكية وسائل الإنتاج، وتسليم السلطة لأطر مأجورين، وليسوا ملاكاً: «فقد وصل نمط الإنتاج الرأسمالي التي أصبح فيها العمل الإداري المنفصل تماماً عن ملكية رأس المال شائعاً في كل مكان (..). وسيصبح الرأسماليون زائدين عن الحاجة على صعيد الإنتاج مثل المرابين والملاك العقاريين». ثم تأتي هذه الجملة الوضاءة: «لا ينبغي لقائد الأوركسترا أبداً أن يكون مالكاً للآلات الموسيقية، وليس عليه أن يهتم بأجور موسيقييه»..

في 3 تموز / يوليو 1866، تندلع الحرب المنتظرة بين بروسيا والنمسا. ويظل كارل على أمله في انتصار نمساوي يضعف الدكتاتورية البروسية، لكنه لم يعد يعتقد حدوثه: فالقوى غير متعادلة. وبالفعل، يسحق البروسيون النمساويين في سادوفا القريبة من إلب. ويهتف مجلس الولايات الجديد الذي انتخب في اليوم ذاته لبسمارك. وفي 7 تموز / يوليو، يتخذ كارل باسم الدولية موقفاً من هذه الحرب، يدعو العمال إلى الحياد إزاءها: «ينظر المجلس العام للجمعية العامة للشغيلة، إلى الحرب الجارية في القارة على أنها حرب بين حكومات. ويوصي العمال بالبقاء على الحياد والتوحد فيما بينهم بهدف استخدام القوة الناجمة عن هذا الاتحاد للحصول على تحررهم السياسي والاجتماعي». وتنتهي الحرب بهزيمة نمساوية. والسلام الذي تهيئه - والذي يحاول نابليون الثالث التدخل فيه - سيحرم النمسا من أي دور في توحيد ألمانيا.

في هذه الأثناء، يدأب بول لافارغ المقيم في لندن لإكمال دراسته في الطب، على التودد إلى لورا بإلحاح يزعج الأب حتى وإن نزل عند رغبة ابنته، ورضي بخطوبتهما. إذ يكتب إلى الشاب: «إذا ما تعللت

بطبعك الكريول، فمن واجبي أن أوسط عقلي بين طبعك وابنتي. وإذا ما كنت لا تعرف بجانبها الحب بكيفية تتفق مع خط طول لندن، عليك الإذعان للحب عن بعد». ويضيف: «قبل تسوية علاقاتك مع لورا نهائياً، أنا بحاجة لتوضيحات جدية حول وضعك الاقتصادي (..). فقد أقنعتني الملاحظة بأنك لست عاملاً بطبيعتك. ويلزمك في هذه الظروف مساندة خارجية للعيش مع ابنتي. أما عائلتك فلا أعرف عنها شيئاً. وبافتراض أنها على شيء من اليسار، فلا شيء يدل على نيتها للقيام ببعض التضحيات من أجلك.».

وبالفعل، إن المسائل المالية هي في صميم التحفظات والمآخذ التي يبديها ماركس حيال لافارغ. إذ يكتب في 7 آب / أغسطس 1866، إلى إنجلز: «منذ أمس مساءً، لورا نصف مخطوبة إلى السيد لافارغ، كريولي الطبي (..). وهو وسيم، ذكي، نشيط، قوي الجسم كالرياضيين. لكن وضعه الاقتصادي متزعزع، وهو الابن الوحيد لعائلة من الغرّاس (..). وسيحصل على فترة تدريبية جيدة في مستشفيات لندن، فقد رتبت أمر قبوله فيها مع أحد الأصدقاء». ثم يضيف: «أقاطَع دائماً بهموم منزلية، فأضيع كثيراً من الوقت. وهكذا، توقف الجزار عن تزويدنا باللحم اليوم؛ والسبت سينفد مخزوني من الورق».

ولكن عندما يعد والدا بول من بوردو بـ 4000 جنيه مهراً – وهو مبلغ ضخم! –، يطمئن كارل وتتحمس جيني: «من النادر العثور على رجل يقاسمك طريقتك في التفكير، ويكون له في الوقت ذاته مكانة اجتماعية وثقافة».

في بداية آب / أغسطس، يطالب نابليون الثالث بسمارك ببلجيكا على سبيل الشكر على مجهوداته في مواجهة النمسا. لكن المستشار يرفض: فهو ليس بحاجة لباريس لفرض سلامه على فيينا. وفي 10 آب / أغسطس يستفهم فريدريك كارل، كما يفعل أغلب الأحيان: «هذه المذكرة من بونابرت تدل كما يبدو على حدوث شرخ بينه وبسمارك. فبدون هذا،

ما كان لهذه المطالبة أن تقدم بأسلوب على مثل هذه الخشونة والفجائية، وبالذات في الوقت الأكثر حرجاً لبسمارك. فالاستجابة للطلب سيان عنده بالتأكيد، ولكن كيف له أن يفعلها الآن؟ وماذا يقول الجيش المنتصر وهو لا يزال على أهبة الاستعداد للحرب؟ والبرلمان الألماني ومجالس الولايات، والألمان الجنوبيون؟ والحمار العجوز (غليوم الأول) الذي لا بد أن يبدو عليه الآن مظهر السعادة الحمقاء الذي يبدو على كلبي الأبيض والأسود، ديدو، عندما يشبع، وهو يقول: لا شبر من الأراضي الألمانية!».

فيرد عليه ماركس بأن حرباً بين فرنسا وبروسيا لا بد من وقوعها، لأن هذين البلدين هما منذئذ المتنافسان الوحيدان في القارة. وبالفعل، بينما تثري إنجلترا، ينهك منافساها قواهما بالتسلح.

في 13 آب 1866، وفي إحدى اللحظات النادرة التي يفصح فيها عما في نفسه، يكتب ماركس إلى لافارغ معترفاً له بأنه لو كان له أن يبدأ حياته من جديد، فلن يتزوج وسيكرس كل وقته للمعركة الثورية؛ وهو أسلوب لديه ولا شك في السعي لإبعاد الشاب الملحاح عن ابنته.

ولا سيما أن لافارغ سينتزع منه بصورة غير مباشرة بنتاً أخرى له: إذ يرافقه أحد الأيام لدى أسرة ماركس أحد أصدقائه الفرنسيين، المدعو شارل لانغيه، وهو عندئذ صحافي هارب في بلجيكا، يقوم بزيارة للندن، فيقع في حب.. جينيشن.

في 23 آب / أغسطس 1866، يكرس سلام براغ أخيراً هزيمة النمسا، ويضيف إلى بروسيا: هس – كاسيل، ناسو، فرانكفورت، شليزوبغ، هولشتاين، وهانوفر. ويصبح الدكتور كوجلمان، مراسل ماركس في هانوفر، منذئذ بروسياً. ويصر كارل على الاعتقاد بأن بروسيا، بعد النمسا، ستهاجم فرنسا. وهنا أيضاً، يفضل هزيمة بروسية، لأن انتصار بسمارك سيخمد في ألمانيا الفكرة الثورية.

وبالفعل، يندمج عندئذ حزب ساكس الشعبي الذي أسسه ليبكنيخت وبيبل على قاعدة عمالية مع الحزب الشعبي الألماني المكون من

مستخدمين، ليشكل جناحه اليساري، وينادي بتوحيد ألمانيا على أسس ديمقراطية وفيديرالية.

ويقترب أيلول / سبتمبر، ويقترب معه موعد مؤتمر الدولية الثاني، فيمضي كارل وقتاً طويلاً في تسوية تفصيلاته، دون أن يقبل مرة أخرى حضوره. إذ يكتب في 23 آب / أغسطس، إلى الدكتور كوجلمان – الذي أوعز بتعيينه واحداً من المندوبين الألمان في المؤتمر القادم: «مع أنني أخصص كثيراً من الوقت للأشغال التحضيرية لمؤتمر جنيف (للدولية)، لا أستطيع ولا أريد حضوره، لأن من المستحيل علي قطع عملي لوقت بمثل هذا الطول. فبهذا العمل، أعتقد أنني أعمل شيئاً أهم بكثير لأجل الطبقة العاملة من كل ما يمكن لي فعله شخصياً في أي مؤتمر كان».

وهو، بالفعل، منهمك بوضع اللمسات الأخيرة على مقدمة (رأس المال): «إن المؤلَّف الذي أقدم للجمهور المجلد الأول منه، يشكل تتمة لبحث نشر في 1859، بعنوان (نقد الاقتصاد السياسي). وما اضطرني إلى انتظار هذه المدة الطويلة بين البحثين هو مرضي لعدة سنوات. ولكي أعطي لهذا الكتاب التكملة اللازمة، أدخلت فيه البحث الذي سبقه موجزاً في الفصل الأول».

فالكتاب الأول من (رأس المال) انتهى إذاً. وماركس سينشره. وهي لحظة عظيمة. إذ إن ماركس يعتقد بأنه أول من يقدم الاشتراكية بطريقة علمية، وأول من يعرض تاريخ الأشكال المتعاقبة للقيمة، وأول من كشف عن المصدر الحقيقي للثروة وللسلطة. لكنه لا يدرك ولا شك أن (رأس المال) هو عمل أدبي أيضاً، ونوع من رواية فيكتورية، ومن رواية بوليسية، ومن كتاب تعليمي لسحر الأشياء، يعطي لها الحياة بتركها تحيا – كما في المجتمعات الأكثر قدماً – من جوهر الذين صنعوها الحيوي.

من 3 إلى 8 أيلول / سبتمبر، يجتمع في جنيف 60 مندوباً، يمثل 45 منهم خمسة وعشرين فرعاً للجمعية الدولية للشغيلة و14 ممثلاً لإحدى عشرة جمعية منتسبة. ويحدد قرار، كتبه ماركس قبل أسبوع في لندن،

دور النقابات مختلفاً عن دور الأحزاب، ومركزاً على النضال ضد التنافس بين الأجراء. ولا يزال أنصار برودون ينادون بإقامة نظام لقرض تعاضدي بدون فائدة – كمفتاح بالنسبة لهم لتحرر العمال؛ لكن كارل يوعز بالاقتراع ضده. ويوضح للمؤتمر بأن عمل الأطفال، وكان يحارَب بعنف من قبل النقابات، يمكن قبوله ولكن تحت شروط حمائية: «تقتضي الصناعة الحديثة عمل الأطفال الإنتاجي، المحدد بساعتين يوماً، بدءاً من تسعة أعوام، وبأربع ساعات بدءاً من ثلاثة عشر عاماً، وبست ساعات بدءاً من ستة عشر عاماً (..)، ونحن نعتبر اتجاه الصناعة الحديثة إلى إشراك الأطفال والمراهقين من الجنسين في حركة الإنتاج الاجتماعي الكبرى تقدماً واتجاهاً مشروعاً ومعقولاً، إلا أن سيطرة رأس المال جعلت منه شيئاً فظيعاً».

أخيراً، يفلح كارل في إدخال العديد من الأوفياء له، ومنهم بول لافارغ، خطيب ابنته، وشارل لانغيه الذي يتودد لجينيشن، في المجلس العام، أي في حكومة الدولية.

بعد شهرين، يوضح ماركس في رسالة وجهها 9 تشرين الثاني / نوفمبر 1866 إلى الدكتور كوجلمان الذي أصبح موضع سره مثل إنجلز، الدور الذي لعبه في كواليس هذا المؤتمر: «لقد كتبت برنامج مندوبي لندن. فقصرته عمداً على النقاط التي كانت تتيح اتفاقاً فورياً، وعملاً مشتركاً فورياً من قبل العمال، وتستجيب مباشرة لمقتضيات صراع الطبقات..».

ويكتب في تشرين الثاني / نوفمبر أيضاً بانفعال وصفاً رائعاً لأزمة شهر أيار / مايو المالية، كما عرضتها الصحافة الإنجليزية، كي ينشره فيما بعد: «كانت البداية في لندن، شهر أيار / مايو 1866، بإفلاس مصرف ضخم، تُبع بانهيار شامل لما لا يحصى من الشركات المالية المشكوك في نزاهتها. وأحد فروع الصناعة الكبرى الذي أصابته الكارثة بصفة خاصة في لندن، كان فرع بناء السفن المصفحة. فأرباب العمل

الكبار فيه، كانوا دفعوا الإنتاج إلى أقصى حد إبان فترة الازدهار الكبير، بل إنهم التزموا بتسليمات ضخمة أملاً في ألا يجف نبع القروض بهذه السرعة».

وأسلوب ماركس على عادته، شديد الغموض عندما يتكلم عن الاقتصاد، وشديد الوضوح عندما يتكلم في السياسة أو في الأحداث الراهنة، لكنه يصبح متألقاً عندما يعود إلى الفلسفة. وهكذا، يستعيد ملاحظات قديمة عن هيجل ويضمها إلى كتابه: «إن حركة الفكر بالنسبة لهيجل (..) هي خالقة الواقع (..). أما حركة الفكر عندي فهي على العكس، ليست إلا انعكاساً لحركة الواقع (..). إذ إن الجدل لدى هيجل يسير على رأسه؛ ويكفي إعادة وضعه على رجليه حتى يكون له هيئة معقولة تماماً».

في الآونة ذاتها، 15 كانون الأول / ديسمبر 1866، يشهد بسمارك تحقق أول أحلامه بولادة كونفيديرالية ألمانيا الشمالية التي تمتد أراضيها متصلة منذئذ من السار إلى نيمين.

فيدرك نابليون الثالث الذي حارب النمسا بالتحالف مع بروسيا، خطأه؛ ذلك أن الخطر الحقيقي في برلين، وليس في فيينا. وتضحي بروسيا التي كانت موضع تملق في باريس لمدة قرنين، العدو المتوارث لفرنسا. وأثار رفض برلين إعادة شراء باريس للوكسمبورخ الاستنكار. وتصبح الحرب محتومة بين المملكتين. ولم يبق إلا إيجاد الذريعة لها.

ومع ذلك، وبينما تتدجج الجيوش البروسية بالأسلحة، لا يفكر الفرنسيون من جهتهم إلا بحياتهم اليومية. إذ ينشر زولا (تيريز راكان)، ويموت بودلير وإنجر، وينظم نابليون الثالث، تعظيماً لمجده، المعرض العالمي الثالث، حيث يكتشف ستة ملايين من زواره المراكب العابرة لمجاري الأنهار في المدن، والمصعد الهيدروليكي، ومطبعة مارينوني الدوارة القادرة على طبع 20.000 صحيفة في الساعة.

ويدون كارل خلال الأسبوع الثالث من كانون الثاني / يناير 1876،

مقتطفات من مقالات الصحف لاستخدامها فيما بعد: «أما عن وضع الشغيلة، فيمكن الحكم عليه من الفقرة التالية المقتبسة من تقرير جد مفصل لمراسل صحيفة (مورنينغ ستار) الذي زار في مستهل كانون الثاني / يناير المناطق التي تعاني من الانتظار. ففي شرق لندن، في أحياء بوبلار، ميلوال، غرينويتش، ديبتفورد، ليمهاوس، وكانينغ تاون، يجد 15000 عامل على الأقل، بينهم زهاء 3000 عامل مهني، أنفسهم مع أسرهم في وضع ميئوس منه بمعنى الكلمة. فقد أفضت بطالة دامت من ستة أشهر إلى ثمانية أشهر إلى نفاد مدخراتهم».

وفي نهاية كانون الثاني / يناير، بعدما يغمر كارل بناته بالهدايا، يجد نفسه من جديد غارقاً في الديون، يطارده تجار حيه ومالك منزله. وتصبح تكاليف الديون التي عليه استدانتها لا تطاق. فيصاب بداء الدمامل بشكل خطير، ويُسر لإنجلز في جملة شهيرة بأنه يعد الرأسمالية مسؤولة عن أوجاعه: «آمل أن تتذكر البورجوازية دماملي بقية حياتها!».

بعد شهر، يضع حقاً نقطة النهاية لكتابه، ويهديه إلى هذا «الصديق الذي لا ينسى»، ويلهلم وولف، الذي توفي منذ عامين تاركاً ما يخلصه من البؤس. فمن سخرية التاريخ أن يكون (رأس المال) هكذا، علامة تقدير لميراث..

في 2 نيسان / أبريل 1867، يكتب كارل لفريدريك بأنه سيتبع نصيحته، وسيحمل بنفسه مخطوط كتابه إلى أوتوميسنر في هامبورغ، بما أنه سيذهب إلى هانوفر لزيارة هذا المراسل المجهول الذي طالما أبدى له الإعجاب، أي: الدكتور كوجلمان. فيهنئه إنجلز، ويرسل له 35 جنيهاً للسفر.

ويغادر ماركس في 10 نيسان / أبريل إلى هامبورغ مزوداً بجواز سفر مزور. ويسود الرحلة البحرية التي استغرقت يومين الاضطراب الذي يتسبب بمرض الركاب الشديد. ويمضي كارل لدى وصوله بعد ظهر يوم 12 مع ميسنر في مناقشة موضوع النشر. ويغادر هامبورغ في اليوم

التالي إلى هانوفر حيث يقيم شهراً عند لودفيغ كوجلمان. ويكتشف مندهشاً أن لدى الطبيب الشاب في مكتبته «أجمل مجموعة مما لدينا من أعمالنا نحن الاثنين مجتمعين» كما يكتب لإنجلز. والأمر يتعلق هنا بأحد الشهور الأكثر سعادة في حياته. فكل الأوجاع التي تتسلط عليه في العادة تختفي كأنها السحر. إذ يخضع لجاذبية سيدة البيت، ويلاعب الأطفال ومنهم الصغيرة فرانزيسكا، وهي في التاسعة عندئذ التي ستتذكر فيما بعد وصول هذه الشخصية التي طال انتظارها: «تلقت أمي التحية، ليس من الثوري العابس الذي كانت تتوقع رؤيته، بل من سيد أنيق بشوش، ذكرتها لكنته الرينانية المحببة بمسقط رأسها. فتحت شعر رمادي كثيف كانت تلتمع عينان سوداوان شبابيتان، كما كانت تنم حركاته وأقواله عن حيوية شبابية أيضاً». وتضيف أنه وأباها يتحدثان عن غوته وشكسبير، وعن الشعر اليوناني. «كان أبي يظن أن ماركس يشابه زيوس، والكثير من الناس كانوا من رأيه».

وهناك يتلقى أول المسودات المطبعية لـ(رأس المال): وسيقوم بتصحيحها حتى نهاية نيسان / أبريل 1867.

ويتحدث مع الطبيب عن دمامله التي يعزوها كوجلمان إلى سوء تغذيته في الماضي، لكنهما يتطرقان أيضاً إلى حدث هام: إذ انتخب ليبكنيخت وبيبل لتوهما للرايخستاغ! فهما أول البرلمانيين الشيوعيين في العالم، صحيح أنهما مقنعان في حزب إصلاحي بالكاد. وإذاً، لا لزوم للأسلوب الثوري، كما يظن ماركس؛ إذ يمكن لديكتاتورية البروليتاريا أن تحصل في ألمانيا بوساطة صناديق الاقتراع، ولكن بشرط أن لا يستخدم بسمارك حرباً ضد فرنسا لتعزيز سلطاته أكثر..

ويغادر كارل هانوفر بعدما صحح آخر مسودات كتابه المطبعية، ليمر بهامبورغ حيث يسلمها لميسنر. ويبدأ الطبع في 29 نيسان / أبريل 1867، في مطبعة أوتو ويغاند بليبزيغ.

وقبيل عودته إلى لندن، في 1 أيار / مايو، يكتب طبقاً لنصيحة

كوجلمان إلى أحد أصدقائه، وهو طبيب ألماني أيضاً، لا يعرفه لكن أحد أعماله ترجم إلى الفرنسية: «مع أنني مجهول لديك تماماً (..)، فأنا أعلم بأنك نشرت مؤلفك بالفرنسية؛ ترى هل بإمكانك أن تصلني بالشخص المناسب، لأنني أرغب بنشر مؤلفي في فرنسا (..)، بلد الثورات والمثقفين التقدميين».

ولدى عودته إلى لندن في منتصف آيار / مايو 1867، ينهمك كارل بتحضير قرارات مؤتمر الدولية القادم، الذي من المقرر التئامه هذه المرة في لوزان، وكان تحدث بشأنه مطولاً مع كوجلمان، الذي أوعز بتعيينه واحداً من المندوبين الألمان.

في 1 حزيران / يونيو، يقدم ألكسندر الثاني إلى باريس بمناسبة معرض عالمي جديد. والدعوة بالنسبة لنابليون الثالث ترمي بالخصوص إلى عقد تحالف مع القيصر الروسي ضد بروسيا. لكن لاجئاً بولونياً يطلق الرصاص في ميدان السباق على الإمبراطور الزائر، ويفشل التقارب بين باريس وبيترو غراد. وستحتاج فرنسا بإلحاح إلى هذا التحالف عندما ستحين ساعة الحرب مع برلين.

في 24 آب / أغسطس 1867، يرسل ماركس إلى إنجلز من لندن موجزاً مضيئاً في بضعة أسطر لكتابه: «إن أفضل ما في كتابي: 1- هو أنني برهنت منذ الفصل الأول على ميزة العمل المزدوجة بحسب ما يبدو عليه كقيمة استعمال أو كقيمة تبادلية (وكل فهم للوقائع يرتكز على هذه الأطروحة)؛ 2- كما حللت فضل القيمة بمعزل عن أشكاله الخاصة، أي الربح، الفائدة، الريع العقاري، إلخ». وهكذا قبل كل شيء.

وفي هذه الأثناء، يراجع كارل بدقة بالغة التحضيرات الأخيرة لمؤتمر الدولية الثاني الذي يفتتح في 2 أيلول / سبتمبر 1876 بلوزان، في غيابه ثانية، لكن تحت سيطرة رجاله. حيث يتصادم التعاضديون الفرنسيون والإصلاحيون الإنجليز والشيوعيون الألمان من جديد. وبين المندوبين الـ 71 يلاحظ في المجموعة الألمانية حضور الدكتور كوجلمان؛

وفي المجموعة الفرنسية، حضور لافارغ ولونغيه، ومن بين رجال ماركس الآخرين يظهر السكرتير العام إيكاريوس، والسويسري بيكير. وفي اقتراح نهائي، يدرج رجال كارل، ضد النقابيين الإنجليز وأنصار برودون الفرنسيين، فقرة تقول إن «تحرر الشغيلة الاجتماعي غير قابل للانفصال عن تحررهم السياسي». وعلى الرغم من طلب بعض الألمان وبعض الفرنسيين الذين يرغبون بنقل أمانة الدولية إلى القارة، إلا أنها تبقى في لندن، حيث ستتواصل أيضاً اجتماعات المجلس العام.

في اليوم التالي للمؤتمر، يشرح ماركس لإنجلز ضرورة وجود الأمانة والمجلس العام في لندن لسلطته. وإنجلز يوافق: «طالما بقي المجلس العام في لندن، فلن تكون كل قرارات المؤتمر هذه إلا طعاماً للقططط!» وهذا أول تبادل أفكار بين الرجلين، يبدو فريدريك فيه مقراً بأهمية الدولية، بعد ثلاثة أعوام من إنشائها. وأولئك الذين أرادوا لاحقاً أن يجعلوا إنجلز مساوياً لماركس، غضوا الطرف عن هذا الغياب لإنجلز لدى ولادة الحركة العمالية.

بعد أسبوع يظهر باكونين الذي لم يكن بعد عضواً في الدولية على المسرح السياسي. فقد أدرك بأنه ما من شيء يمكن عمله في اليسار خارج إطار الدولية، وينوي الاستيلاء عليها. إذ يجمع من حوله أنصار برودون (المنقسمين إلى جماعات متنافسة بعد رحيل معلمهم منذ ثلاثة أعوام) والطوبائيين. وتحتدم المعركة عندئذ بين الاشتراكيين الداعين للحرية المطلقة والاشتراكيين الداعين للتوجيهية، مثلما يحدث الآن.

ويدبر باكونين انتخابه عضواً في اللجنة المديرة لعصبة وهمية للسلام والحرية، وهي مجموعة فوضوية صغيرة في جنيف، يرأسها فوغت، عدو ماركس اللدود الذي آوى الروسي الشاب قبل عشرة أعوام، ثم يطلب تسجيلها كـ«جمعية منتسبة» للدولية. ولكن دون جدوى: فقد فهم ماركس أن باكونين جنرال دون جنود، ولا يريد فوضويين في منظمته، وفوغت على وجه الخصوص. إذ لديه ما يكفيه من أنصار برودون، بمن

فيهم تولان، المشاركين في كل المؤامرات الموجهة ضده. كما فهم منذ وقت طويل، لدى قراءته لستيرنر، أن ليس للفوضوية أي قاعدة تاريخية.

في 14 أيلول / سبتمبر 1867، يظهر (رأس المال) في ألف نسخة بهامبورغ. ولخشية كارل من أن يعاني من إخفاق كتابه السابق منذ سبعة أعوام، فإنه يستنفر شبكة الدولية لإثارة الكلام عنه. ويحصل من شويتزر، خليفة لاسال، على وعد بنشر سلسلة مقالات «لتعريف الجماهير العمالية بـ(رأس المال)». وفيما عدا ذلك، كان الاستقبال بارداً: فالكتاب صعب القراءة. إذ يكتب لافارغ بكل الاحترام والحذر اللذين يفسرهما وضعه كصهر مستقبلي: «صحيح أن (رأس المال) يكشف عن ذكاء شديد وعن معرفة استثنائية، لكن ما أراه ويراه كل من عرفوا ماركس من قرب هو أنه لا (رأس المال) ولا أياً من كتاباته الأخرى يكشف عن مدى عبقريته وعن سعة معرفته. فقد كان أعلى بكثير من أعماله..».

ولا يباع الكتاب جيداً، وفي ألمانيا لا يعمل حزب ليبكنيخت على توزيعه بنشاط، وهو ما يضايق ماركس كثيراً. حتى إنه لا يجني منه، كما يقول، «ما يدفع به ثمن التبغ الذي كان دخنه وهو يؤلفه». فيقع من ذلك مريضاً، مرة أخرى. وبما أن المال يعوزه في تشرين الأول / أكتوبر، يضطر إنجلز من جديد لضمان قرض بـ100 جنيه.

في شباط / فبراير 1868، يحصل كارل على استبدال هنري - لويس تولان، على رأس فرع الدولية الفرنسي، بأوجين فارلان، الأقرب إليه.

وبعد ثلاثة أعوام من الخطبة، تتزوج لورا ماركس في 2 نيسان / أبريل بلندن، بول لافارغ الذي أتم لتوه دراسته في الطب. وترى جينيشن، في حفلة الزواج، شارل لونغيه ثانية، وتشرح له أنها تريد أن تكون مثله صحافية - وإلا ممثلة. فيطلب شارل منها الزواج.

وتشل نوبة جديدة من داء الدمامل عندئذ كارل لثلاثة أشهر. ويكتب إلى لورا التي يشتاق إليها، بينما كانت في رحلة شهر العسل،

معتذراً لأنه شغل طفولتها بكل هذه الكتب، هذه الجملة الفظيعة: «أنا آلة لالتهام كتب حتى أتقيأها بشكل آخر على كومة زبالة التاريخ».

ويتوتر الوضع الاجتماعي في باريس حيث ذهب لافارغ للإقامة. فنابليون «الصغير» يهاجَم من كل جهة. «إن فرنسا تشمل، كما يقول (التقويم الإمبراطوري)، 36 مليوناً من الرعايا؛ دون عد موضوعات الاستياء»، يكتب فيكتور - هنري دوروشفور لوساي، المدعو هنري روشفور، في العدد الأول من صحيفة (لا لانترن) [القنديل] الصادر في 30 أيار / مايو، قبل أن يؤسس صحيفة أخرى (لامارسييز) التي سيكتب فيها كارل وابنته جينيشن على السواء. وتلتقي جينيشن شارل لونغيه أكثر فأكثر، وتثور في صفحات (لامارسييز) على أوضاع سجناء شين فين السياسيين الإيرلنديين، المعتقلين في ظروف غير إنسانية بالسجون الإنجليزية. وبعد أسابيع من مقالاتها، سيفرج عن إحدى قادتهم وهي روزا أودونوفان، ويطرد غالبيتهم إلى الولايات المتحدة.

وإذ يرى ماركس أن أصدقاءه الفرنسيين هم أضعف من أن يقلبوا «بلون - بلون» (نابليون) يثنيهم عن المبادرة بثورة. فهو لم ينس كارثة أيار / مايو 1849، ولا هزيمة الطبقات العاملة الألمانية والفرنسية عندئذ.

وفي تموز / يوليو، يحاول باكونين، مدعوماً بفوضوي روسي آخر هو سيرغيه نيتشاييف، مرة أخرى، اختراق الدولية. فيؤسس مجموعة صغيرة جديدة باسم التحالف الدولي للديمقراطية الاشتراكية، على قاعدة برنامج فوضوي صريح، بما فيه من: إلحاد وإلغاء الملكية الخاصة والوراثة، وتعليم مجاني لكل الأطفال من الجنسين، ورفض أي تحالف رجعي، وأي عمل سياسي «لا يكون هدفه الفوري والمباشر انتصار قضية العمال ضد رأس المال»، وحل الدولة «في الاتحاد العالمي للجمعيات الحرة سواء منها الزراعية أم الصناعية» والتضامن الدولي للعمال. ويقترح هذه المرة ليس الانتساب للدولية، بل بجرأة أكبر أيضاً، دمج مجموعته الصغيرة بها على قدم المساواة، مطالباً لنفسه بمنصب نائب رئيس

المنظمة الجديدة! وبالطبع، يرفض المجلس العام للدولية الاندماج مع التحالف الدولي للديمقراطية الاشتراكية، مثلما كان رفض سابقاً قبول العصبة من أجل السلام والحرية. فيحل باكونين عندئذ مجموعته الصغيرة الجديدة ليكوّن على الفور ثالثة سماها هذه المرة التحالف من أجل الديمقراطية الاشتراكية الذي يجعل كل أعضائه ينتسبون بصفة فردية إلى فرع جنيف للدولية مع الالتزام الصارم بنظامها الداخلي. ومن المستحيل تجنب هذا الاختراق، لكن كارل ليس شديد القلق منه: فتحت اسم «فرع التحالف»، يشكل هذا الفرع أحد أقوى الفروع وأفضلها حراسة؛ وقد قام لتوه بإضراب ضخم في قطاع البناء، بقيادة نقابي صلب، هو بيكير الذي غدا أحد أوفياء ماركس.

ومع ذلك، ما إن قُبل باكونين في هذا الفرع حتى أخذ يغرق أعضاء الدولية برسائل يدعي فيها أنه ضحية «لمؤامرة يهود ألمان وروس شديدي التعصب لنبيهم - الديكتاتور، ماركس». وسريعاً ما امتد تأثيره في فرعه، الذي زاد عدد أعضائه بشكل ملحوظ. حتى إنه يفلح في تعيين نفسه مندوباً إلى مؤتمر الدولية الثالث الي يفتتح ببروكسل في 6 أيلول / سبتمبر 1868.

وللمرة الأولى تجرب في المؤتمر مناقشة برنامج. ومن بين خمسين اقتراحاً يتقدم بها باكونين، يوافق ثلاثون صوتاً ضد أربعة على مبدأ تأميم الأرض وباطن الأرض والسكك الحديدية وطرق المواصلات. وترفض بقية الاقتراحات. ويبدو باكونين وقد تملكه الحماس لدى خروجه من المؤتمر مندمجاً تماماً في بيته الجديد، ويكتب إلى غوستاف فوغت، رئيس مجموعته الصغيرة الذي لم ينجح في جعله يُقبل: «لا نستطيع ولا ينبغي لنا إنكار الأهمية العظيمة لمؤتمر بروكسل. فإنه أعظم حدث في أيامنا، وإذا ما كنا نحن أنفسنا ديمقراطيين مخلصين، فليس علينا فقط التطلع إلى أن تنتهي العصبة الدولية للعمال إلى جمع كل الجمعيات العمالية في أوروبا وأمريكا، بل علينا أيضاً التعاون في هذا بكل جهودنا،

لأنها يمكن أن تشكل اليوم القوة الثورية الحقيقية التي من واجبها تغيير وجه العالم».

لكن باكونين في الواقع لم يلتحق بماركس مطلقاً. ففي المؤتمر الثاني لهذه العصبة من أجل السلام والحرية، في برن، نهاية أيلول / سبتمبر، لا يخفي كراهيته لما يمثله ماركس، وسط فرح فوغت الغامر: «أنا أبغض الشيوعية لأنها إنكار للحرية، ولا يمكن لي أن أتصور أي شيء إنساني دون حرية. وأنا لست شيوعياً البتة، لأن الشيوعية تركز على قدرات المجتمع وتستوعبها في الدولة، ولأنها تفضي لا محالة إلى مركزة الملكية في يدي الدولة. (..) ذلك بأنني أريد تنظيم المجتمع والملكية الجماعية أو الاجتماعية من الأسفل إلى الأعلى، بوساطة المشاركة الحرة، وليس من الأعلى إلى الأسفل، بوساطة أية سلطة مهما كانت. فبهذا المعنى أنا من أنصار الجماعية، ولست شيوعياً البتة!».

في تشرين الثاني / نوفمبر 1868، يبدي إنجلز قلقه من رؤية ماركس يرزح تحت عبء الديون. فيسأله إذا ما كانت الأسرة تستطيع العيش بـ 350 جنيهاً سنوياً، يتعهد بإرسالها له على دفعات منتظمة كل ثلاثة أشهر اعتباراً من شباط / فبراير 1869، بعد تسديد ديونه. ويقبل ماركس بالطبع؛ أما بالنسبة للباقي فلكل حادث حديث.

وفي 22 كانون الأول / ديسمبر، يتلقى ماركس من باكونين رسالة ولاء، بلغته المزدوجة المعتادة: «أنا لا أعرف مجتمعاً آخر، ولا وسطاً آخر إلا عالم الشغيلة. فوطني الآن هو الدولية التي تمثل أنت أحد مؤسسيها. وأنت ترى إذاً، أيها الصديق العزيز، أنني تلميذك وأنا فخور بذلك».

في السنة التالية، يتسارع التقدم التقني في أمريكا بينما تبدو نذر الحرب في أوروبا. إذ يخفض كابح جورج ويستنغهاوس الآلي بالهواء المضغوط مسافة الكبح في القاطرات؛ ويكتمل الخط الحديدي العابر للقارة، نيويورك – سان فرانسيسكو؛ ويصل كابل في أعماق البحر ما بين فرنسا والولايات المتحدة مباشرة. وفي الوقت الذي يقترح نابليون الثالث

على النمسا وإيطاليا تحالفاً غريباً بين أعداء الأمس ضد صديق الأمس، بروسيا – وهو مشروع يحبطه بسمارك –، تفتتح الإمبراطورة أوجيني قناة السويس.

وتشتد النزاعات الاجتماعية في فرنسا. إذ يتحول إضراب ألف وخمسمائة عامل منجم في لاريكاماري إلى أعمال شغب، ويطلق الجيش النار دون إنذار، مخلفاً ثلاثة عشر قتيلاً. ويُلاحق سبعة وثلاثون من فرع الدولية الباريسي، بينهم فارلان والهنغاري ليوفرانكل ويُعتقلون. وما إن يفرج عن فارلان حتى يحقق اتحاد كل المنظمات النقابية في العاصمة، ويؤسس «صندوق القرش»، الذي يبادر لمساعدة عمال الدباغة في باريس، وعمال البناء في جنيف، ويحظى مطعمه التعاوني «لامارميت» [القِدر]، في شارع مازارين بنجاح باهر.

ولشعور ماركس بأن الأوضاع في فرنسا تتوتر، فإنه يحضر لإعادة نشر مقالاته حول انقلاب 1851. وفي 15 شباط / فبراير 1869، يكتب من لندن إلى بول ولورا لافارغ، اللذين رزقا لتوهما بابن - سيلقبه بـ«فوشترا» –، رسالة تكشف عما يشعر به من متعة في ذم الجميع. إذ ثمة ستة ضحايا يندد بهم في خمسة عشر شطراً:

«عزيزتي بول وكاكادو (وهو أحد الألقاب التي يعطيها للورا)، أنتما تعرفان رأي فالستاف في المسنين: فهم جميعاً صفيقون. فلا تفاجأ إذاً من رؤيتي أضرب صفحاً عن صمتي المتواصل (..). أما عن إميل دو جيراردان، فهناك شيء مريب في محاولته الدائمة للادعاء، بطريقة بارعة، أنه خليط من فارس للصناعة ومن طوبائي ومن ناقد. إنه ليس رجلي المناسب. وأثناء كلام أحد الأصدقاء عن هذا «الفاسق العجوز» دانييل ستيرن، سألني إذا كان بلانكي من هؤلاء الناس «غير المحترمين» مثل برادلوف (أول نائب بريطاني يرفض أداء القسم على الكتاب المقدس). فسألته عما إذا كان بطله، كاتيلينا «محترماً».» وهو التلميح الوحيد المعروف عن المثلية الجنسية في نصوص ماركس.

ثم ينتقل إلى الشؤون السياسية ليذم أيضاً شخصين آخرين: «لقد بدأ أحد المعارف القدماء، الروسي باكونين، مؤامرة صغيرة لطيفة ضد الدولية. فبعدما أخفق مع العصبة من أجل السلام والحرية، دخل في الفرع السويسري لجمعيتنا في جنيف. وخدع العجوز بيكير المتشوق دائماً للعمل، لكنه ليس نافذ البصيرة».. ومن ثم يتطرق ماركس إلى الوسائل المادية: «إن دوليتنا تسير على ما يرام في ألمانيا. ومخططي الجديد الذي اقترحته في السماح بالانتسابات الفردية، وبيع بطاقات تقديم الطلب ببنس مع نسخة من مبادئنا المطبوعة بالألمانية والفرنسية والإنجليزية، يسير جيداً». وواقع الحال أن صندوق المجلس العام للدولية لا يحتوي إلا 50 جنيهاً، وعدد صغير فقط من بطاقات الانتساب التي أرسلها ماركس إلى ألمانيا أعيدت معبأة مع مبلغ الاشتراك.

ويبلغ ماركس أيضاً بول ولورا، في هذه الرسالة ذاتها بنيته في القدوم لزيارتهما في باريس، حيث يحظر عليه الإقامة، ويُلاحَق بالخصوص منذ أعلن عن إعادة نشر كتابه في 1852 عن انقلاب لويس نابليون بلندن. إذ يرغب في مناقشة الترجمة الفرنسية لـ(رأس المال) مع المترجمين اللذين استمزج رأيهما، شارل كيللير وإيلي ريكلو، والتعرف أيضاً على حفيده. ويوصي لافارغ بأن لا يتحدث أبداً عن مشروع السفر هذا في رسائله التي يمكن أن تراقب. والواقع أن رسالته هي التي ستراقب. وعلى الفور يتقدم مفتش شرطة إلى بيت لافارغ في شارع سانت – سوبليس، ليسأله عما إذا كان السيد ماركس قد وصل.

وفي 23 حزيران / يونيو 1869، تظهر الطبعة الثانية من (18 برومير لويس – نابليون بونابرت)، مع التوطئة التالية: «آمل أن يسهم هذا المؤلف في إبعاد مصطلح «القيصرية» الذي شاع استخدامه اليوم، وبخاصة في ألمانيا. ففي هذه المماثلة التاريخية السطحية، يُنسى ما هو رئيسي أي أن صراع الطبقات في روما القديمة لم يكن يجري إلا داخل أقلية محظية، بين المواطنين الأحرار الأثرياء، والمواطنين الأحرار الفقراء،

بينما لم تكن تستخدم الجماهير المنتجة من السكان إلا ميداناً سلبياً للمتقاتلين. (..) ونظراً للاختلاف التام بين الظروف المادية والاقتصادية لصراع الطبقات في العصور القديمة وفي الأزمنة الحديثة، فلا يمكن للأشكال السياسية التي تنجم عنها أن تتشابه أكثر من تشابه رئيس أساقفة كانتربري مع الكاهن الأكبر صموئيل..»

وفي شهر حزيران / يونيو هذا ذاته، يتقدم ماركس بطلب للحصول على الجنسية البريطانية. ويرفض طلبه.

وفي تموز / يوليو، يمضي المدعو آلان ويليامز ستة أيام عند لافارغ دون مضايقة من الشرطة ولا من الجمارك. وهو ليس إلا كارل ماركس، الذي يرى ثانية العاصمة التي لم يدسها منذ عشرين عاماً. لكن لا يكتب شيئاً عن الصدمة التي لا بد أنه شعر بها وهو يجتاز باريس التي حولها المهندس هوسمان. والحق أن لديه هموماً أخرى تشغله.

على الرغم من الشعور بالخيبة الذي سببه إخفاق الطبعة الألمانية للمجلد الأول من (رأس المال)، فإنه يبدأ بالتفكير في تتمة هذا الكتاب، حيث ينوي أن يفصل رؤيته لتدمير الرأسمالية الذاتي، ويعرض عندئذ على بعض خلصائه نظريته العامة في التاريخ وفي الأزمة. وكذلك على لافارغ الذي نقل محادثتهما على النحو التالي: «إن أكثر ما آسف عليه هو ضياع المذكرة التي كتبتها ذات مساء، حيث عرض لي ماركس، بهذا الثراء في الأدلة وبالأفكار الذي اتصف به، نظريته العبقرية في تطور المجتمع البشري. فلقد شعرت بأن غشاوة أميطت عن عيني. ولأول مرة، كنت أدرك بوضوح منطق التاريخ العالمي، وأستطيع أن أرجع إلى أسبابها المادية الظواهر الشديدة التناقض في الظاهر، لتطور المجتمع والفكر البشريان. كنت كالمنبهر وظل لدي هذا الانطباع لسنين. (..) لقد كان دماغ ماركس مسلحاً بالكثير من الوقائع المستمدة من التاريخ ومن العلوم الطبيعية ومن الملاحظات التي جمَّعها خلال عمل عقلي طويل، وكان يعرف استخدامها بطريقة تثير الإعجاب».

وما كان يعرضه، ذلك المساء، للورا وزوجها، هو نظريته في الأزمة. فستزول الرأسمالية بفعل ما يسميه «انخفاضاً دورياً لمعدل الربح»، أي انخفاض النسبة بين فضل القيمة ومجموع كل الأشغال المستعملة لإنتاجها، المماثل لمردود آلة حرارية. وبالفعل، فنتيجة للتنافس تستعمل المنشآت رأس مال أكبر فأكبر، دون أن تحقق بالتناسب مزيداً من الأرباح، وهو ما يعني أن النسبة بين كمية رأس المال وكمية العمل المستعمل في الإنتاج، أي «التكوين العضوي لرأس المال» تزداد، مفضية بصفة آلية إلى انخفاض «معدل الربح». فيغدو عندئذ من المستحيل اقتصادياً حصول ملاك رأس المال على فضل القيمة التي يستطيعون طلبها سياسياً. وهي الأزمة. إذ تتقلص الطبقة الرأسمالية عددياً، بينما تشهد الطبقة العمالية عددها يزداد بالرأسماليين المفلسين وبالفلاحين المطرودين من أراضيهم.

لكن هذا لا يفضي بالضرورة إلى قلب الرأسمالية التي تمتلك عدة وسائل لاستعادة معدل الربح: بتخفيض مستوى معيشة العمال، وبالتصدير، وبالغزوات الاستعمارية، وبالتقدم التقني، وبعمل الدولة. لكن الأزمات تتعاقب منذئذ، وسيأتي الصراع الطبقي الذي يتفاقم بفعل هذه الأزمات، للإسراع في نهاية الرأسمالية.

غير أن كارل لا يقول إنه يعاني من مشكلة شديدة الصعوبة، تبينَها منذ خمسة عشر عاماً، وتظل عصية على الحل: فالتحقق التجريبي من نظريته مستحيل، لأنه يقتضي القدرة على قياس القيمة – العمل، وفضل القيمة والتكوين العضوي لرأس المال. والحال أن هذه الكميات تقاس عنده بمدد العمل التي ليست متساوية ولا متناسبة مع أسعار هذه المقتنيات، نظراً للاحتكارات ولكل ما يشوه المنافسة. والربح إذاً ليس مطابقاً لفضل القيمة؛ كما أن التكوين العضوي لرأس المال ليس مساوياً لمردودية رأس المال، وليس الأجر مساوياً لقيمة قوة العمل التبادلية. ولا يمكن لأي شيء يكتبه ماركس أن يُؤيد بصفة تجريبية.

ولمحاولة قياس هذا الفارق بين سعر السوق والقيمة التبادلية،

يخط معادلات ويتخيل كميتين وسيطتين بين القيمة التبادلية لسلعة ما وسعرها في السوق، هما: «قيمتها الاجتماعية» و«سعر إنتاجها». فيدرك عندئذ أن «سعر الإنتاج» ليس متناسباً مع «القيمة الاجتماعية»، وأن السلع المنتَجة في الصناعات الأكثر استعمالاً لرأس المال لها سعر إنتاج أكثر ارتفاعاً من قيمتها الاجتماعية. ويتبين، علاوة على هذا، أن أسعار السوق تختلف عن أسعار الإنتاج لأن السوق لا تسوده منافسة تامة. فليس هناك، ولا يمكن أن يكون أبداً تناسب بين سعر السوق لسلعة ما وما فيها من القيمة – العمل. وتظل الأسعار، باعتبارها الكميات الوحيدة التي يمكن قياسها إذاً دون علاقة مباشرة مع القيم – العمل، وهي الكميات الوحيدة الخاضعة للقوانين الاقتصادية التي يوردها ماركس. فليس من الوارد إذاً القيام بأي تحقق تجريبي من هذه التصورات، أو من هذه القوانين، إلا ما ستأتي به الأيام. لكن، هل هي بالفعل نظرية علمية التي يبنيها هنا؟ أم إنها بالأحرى مجرد فكرة فلسفية؟

ويصاب بخيبة أمل أخرى: إذ يكتشف أن ريكلو من أتباع باكونين. ولا يقبل به إذاً مترجماً لـ(رأس المال).

ويواصل كارل لدى عودته إلى لندن في 27 تموز / يوليو، البحث؛ يعاني وينتابه الفزع ويصاب بالإنهاك. فيمرض بالتهاب رئوي وبقرحة في الرئة. ويمضي أكثر وقته باحثاً عن دواء للسعال، وفي تخيل حلول لمشكلته دون أن يذهب للاستشفاء في الشمس كما ينصحه الأطباء. (إذ كانت الموضة في إنجلترا عندئذ إرسال مرضى الرئتين إلى إيطاليا، بل وإلى الجزائر).

وما إن تتحسن صحته، حتى يعود هو وجيني، كما تقول ابنته الصغرى إليانور، التي لا تزال تعيش معهما في المنزل، كحمامتين صغيرتين..

في آب / أغسطس 1869، وعشية مؤتمر الدولية الرابع الذي من المقرر عقده في بال هذه المرة، ينأى الحزب الشعبي لساكس، برئاسة بيبل

وليبكنيخت، بنفسه عن الديموقراطيين البورجوازيين ويشارك في إيزيناخ بأشغال تأسيس حزب عمالي اجتماعي - ديمقراطي لألمانيا، عرف أيضاً باسم حزب إيزيناخ. ويلفت ماركس عندئذ انتباه بسمارك الذي يظن أنه الزعيم الحقيقي لحزب إيزيناخ، كما يرى فيه حليفاً ممكناً، كما كان لاسال؛ فيقترح عليه لقاءه. لكن ماركس لا يستجيب، على الرغم من شعوره بالفخر: إذ إن الدولة البروسية، ومنذ شبابه، ليست بالتأكيد مثله السياسي الأعلى.

ويندد ليبكنيخت عندئذ بباكونين كعميل روسي، كما يحمل عليه ماركس لدى إنجلز حملة شعواء: «من الواضح أن هذا الروسي يريد أن يصبح ديكتاتور الحركة العمالية الأوروبية. فلينتبه لنفسه، وإلا سيطرد!».

وكان مؤتمر بال من جديد مناسبة لمشاحنات بين ممثلي ماركس والآخرين. فضد باكونين - الذي يحضر المؤتمر هذه المرة ممثلاً بعيد الاحتمال لـ«عمال ليون الاشتراكيين ولعمال الميكانيك في نابولي»، ويؤكد بأنه «جماعي ثوري» و«مناصر لتدمير الدولة» - يوعز ماركس بفرض مبدأ أحزاب شيوعية منظمة للاستيلاء على الدولة، ويحصل، ضد النقابيين الإنجليز، على مساندة المؤتمر «لكفاح الشعوب المستغَلة من قبل البورجوازيات الوطنية» (بما فيها المسألة الإيرلندية). وضد أنصار برودون الذين يودون طرد كل من ليسوا عمالاً يدويين من الدولية، يوعز بضم العمال الفكريين الثوريين إلى الحركة العمالية. وباقتراح من يوهان - فيليبس بيكير الوفي له - والذي ذمه لتوه، كما رأينا، في إحدى رسائله -، يحصل من المؤتمر على قرار يلفت انتباه الاشتراكيين في كل البلدان إلى (رأس المال) الذي يسميه بيكير نفسه، في نص كتبه ماركس من طرف خفي، «كتاب الطبقة العاملة المقدس»!

وعلى الرغم من كل هذه الجهود، تمر نشاطات الدولية دون أن يلتفت إليها أحد. ففي 15 أيلول / سبتمبر، بعيد المؤتمر الرابع، تكتب جيني التي تتكلف بمراجعة الصحف لزوجها إلى لودفيغ كوجلمان العائد

من بال: «لقد فرضت الصحافة صمت القبور على المؤتمر، فيما عدا مقالاً غامضاً في صحيفة (بال مال). وقد قطعت صحيفة (التايمز) الصمت اليوم لأول مرة بمقال موضوعي وجيز جد مناسب، يثير اهتماماً كبيراً في فرنسا». ثم تلوم الذي كان لوقت طويل صديقاً لها في لندن، لكنه لم يقف دائماً إلى جانب مقترحات ماركس في المؤتمر: «كتب ليبكنيخت مقالين بين بين، من الأفضل عدم قراءتهما».

في 28 تشرين الأول / أكتوبر، يكتب باكونين - الذي وقع، كما يقول، عقداً لترجمة (رأس المال) إلى الروسية - إلى مواطن له لاجئ في لندن، هو الكسندر هيرزن، الذي كان شريكه في صحيفة (لا كلوش) [الجرس]، ليتكلم من جديد كلاماً طيباً عن عدوه اللدود: «لا يمكن لنا، من جهتي على الأقل، تجاهل الخدمات العظيمة التي أسداها ماركس لقضية الاشتراكية التي يخدمها بذكاء ونشاط وإخلاص منذ ما يقرب من خمسة وعشرين عاماً، وتفوق فيها علينا جميعاً دون شك. فقد كان أحد أوائل المؤسسين للدولية وأهمهم بالتأكيد، وهذا فضل عظيم سأعترف به دائماً، مهما كانت أفاعيله ضدنا (..). ربما يحدث، وحتى في القريب العاجل، أن أدخل في صراع معه من أجل مسألة مبدئية، تتعلق بشيوعية الدولة. وعندئذ سيكون صراعاً حتى الموت».

وهذا ما سيحصل بالضبط.

فيبدأ ماركس بإبداء قلقه من الظروف التي سيقوم فيها باكونين بترجمة (رأس المال) إلى الروسية. ويشرع في تحقيق، متعقباً خيوطاً، ولاعباً دور الشرطي، ليفضي كل ذلك، بعد عامين، إلى فضيحة مدوية.

تبدأ السنة 1870 في فرنسا بالعديد من الانتفاضات التي تشهد على هشاشة السلطة. إذ يقوم 7000 عامل في كروزو بالإضراب للحصول على يوم عمل بثماني ساعات، وعلى 5 فرنكات أجراً يومياً. وتشرع الصحافة البونابرتية بالقول إن هذه الاضطرابات مستوحاة من الخارج، من هذه «المنظمة السرية» المسماة «الدولية» التي تمول «مرتزقة للحض

على الإضرابات». وفي 10 كانون الثاني / يناير، يُقتل أحد صحافيي (لامارسييز)، فيكتور نوار، بطلقة مسدس من قبل الأمير بيير بونابرت، ابن عم الإمبراطور. فيحضر مائة ألف باريسي مراسم تشييعه. وتهز القضية النظام. إذ يكتب روشفور، مدير (لامارسييز): «كنتُ على خطأ إذ ظننت أنه يمكن لبونابرت أن يكون شيئاً آخر غير قاتل». والمدن الكبرى وقسم من الجيش، وهو الأخطر، في عداء سافر منذئذ لنابليون الثالث، الذي يظن استعادة شرعيته بالحصول على مساندة الفلاحين القوية بوساطة استفتاء شعبي.

في نهاية شباط / فبراير 1870، بباريس، شارع سانت - سوبليس، تفقد لورا لافارغ طفلة لدى ولادتها.

وفي الآونة ذاتها، يعارض كارل نقل مقر الجمعية الدولية للشغيلة إلى سويسرا، الذي يقترحه أنصار باكونين - المسمون منذئذ «الجوراسيين» نظراً لإقامة زعيمهم في جنيف. ويفسر ماركس معارضته قائلاً: «إن الوضع في القارة غير موات لتغيير ما»، وتظل إنجلترا «البلد الوحيد الذي غالبية سكانه من العمال الأجراء. فلا يجب معاملة إنجلترا كبلد بعد بلدان أخرى. بل يجب أن تعامل على أنها عاصمة رأس المال»، مع أن ماركس لا يتوقع ثورة في إنجلترا حيث العمال مروضون؛ وهو يعرف ذلك ويقوله؛ ولكن لا مجال لترك الدولية تبتعد عن لندن، أي عنه. ولا يتردد حينئذ في إبداء سوء النية إذا ما ساعد هذا قضيته على الفوز.

في 4 آذار / مارس، يرد ماركس تحت ستار قرار للمجلس العام على اتهامه بـ«التآمر» الذي يدأب على إشاعته ضده قسم من الصحافة القارية: «إذا ما كان هناك تآمر من قبل الطبقة العاملة التي تشكل جماهير الأمم الكبيرة، وتخلق كل الثروات، وباسمها تدعي كل سلطة، حتى لو كانت مغتصبة، الحكم، ففي العلن، كالشمس ضد الظلمات، مع القناعة التامة بأنه لا يوجد خارج ميدان نشاطها أي سلطة شرعية».

في نيسان / أبريل 1870، يصرح باكونين بأن «كل اشتراك للطبقة

العاملة في السياسة البورجوازية الحكومية، لن يؤدي إلى نتيجة أخرى إلا ترسيخ الوضع القائم». فيرد المجلس العام عليه بأن النظام الداخلي للدولية يعد العمل السياسي وسيلة للتحرر. فلا مجال للتخلي عن الحياة البرلمانية حيثما هي ممكنة.

ويقنع نيتشاييف باكونين عندئذ بترك الترجمة الروسية لـــ(رأس المال) التي تعهد بعملها، حتى يتفرغ للشؤون الثورية، على أن يتكلف نيتشاييف بتسوية الأمور مع الناشر.

وتتوارد الحسابات الأولى لمبيع (رأس المال): لكن الكتاب لم يدر شيئاً، فيشتكي كارل ثانية من «الأساتذة الألمان» الذين طالما تمنى أن يكون منهم، منذ ثلاثين عاماً. إذ يكتب في 27 حزيران / يونيو إلى لودفيغ كوجلمان: «توقعت في العام الماضي، طبعة ثانية لـ(رأس المال) بعد أن أتلقى حقوق الطبعة الأولى، لكن ذلك أبعد ما يكون عن التحقق. فقد اضطر السادة الأساتذة الألمان مؤخراً إلى الكلام عني من وقت لآخر، ولو بصفة حمقاء. أخيراً، والكلام بيننا، أود طبعة جديدة من المجلد الأول قبل أن أسلم المجلد الثاني، لأنني سأتضايق فيما لو أتت الأزمة أثناء الانتهاء من المجلد الثاني».

ومرة أخرى، يلتمس ماركس أية ذريعة كي لا يكتب، وهي الأقوال ذاتها التي يرددها منذ ما يقرب من ثلاثين عاماً: انتظار خاتمة الأزمة.. لكتابة كلمة «النهاية». والواقع أنه لا يستطيع خداع نفسه، ويسقط مريضاً في نهاية الشتاء. فينكب عندئذ على القراءة، ويهتم بمسألة ملكية الأرض بعدما عثر على مجموعة تقارير – من «الكتب الزرقاء» – نشرتها الحكومة البريطانية لتوها، حول الملكية العقارية عبر العالم. وهو على علم بأن هذه المسألة العقارية، والعلاقة بين القيمة والأسعار تشكلان الثغرتين الكبيرتين في المجلد الأول لـ(رأس المال). فسيمضي ما بقي من حياته في محاولة سدهما.

في نهاية ربيع 1870، وكأنما كان يستشعر بأن الأحداث ستتسارع،

يبيع إنجلز نصيبه في المنشأة العائلية، ويتخلى عن حياته كصناعي، ويأتي للإقامة في لندن، إلى جانب ماركس بالضبط، في 122، ريجنتز بارك رود. وهكذا يلتقي كارل وفريدريك منذئذ يومياً، وما من سبب لديهما للتراسل، ولن يتوفر لدينا بالتالي إلا القليل من الأثر على أحاديثهما.

ويلتقي آل ماركس أيضاً في شهر أيار / مايو 1870، شخصية فريدة هوغستاف فلورانس، أستاذ العلوم الطبيعية للأجسام المركبة في كولليج دوفرانس، حيث حل محل أبيه - وهو في العشرين! - عالم الفيزيولوجيا الفرنسي الشهير بيير فلورانس. ولأنه من أنصار موريس بلان فقد حظر عليه فيكتور دوروي التعليم، فترحل بين بلجيكا وإيطاليا وتركيا واليونان؛ وأسهم في كريت بالانتفاضة ضد الأتراك في 1866، حتى إنه كان ممثل الكريتيين في أثينا. ولدى عودته إلى فرنسا، يتعاون مع صحيفة (لاماسييز) على غرار جينيشن. فيقع كارل وجيني وإليانور وجينيشن تحت تأثير جاذبيته.

في بداية الصيف، يعود فلورانس إلى باريس، تاركاً لهم صورته، وواعداً إياهم برؤيتهم ثانية. وجينيشن التي تحب شارل لونغيه هي مأخوذة الآن بغوستاف فلورانس أيضاً؛ فتكلفه بحمل رسالة منها إلى أختها لورا لافارغ التي تعيش في باريس، وتتلقى منه رسالة لن تفارقها أبداً.

وفي نهاية حزيران / يونيو، يحول بسمارك، ببتره عمداً رسالة من ملك بروسيا إلى إمبراطور الفرنسيين («رسالة إمس» الشهيرة)، نزاعاً تافهاً يتعلق بالخلافة على عرش إسبانيا إلى إهانة كبرى موجهة إلى فرنسا. فالمستشار المطمئن إلى تفوقه العسكري (في مواجهة 500.000 جندي جمعتهم بروسيا وحلفاؤها، لدى فرنسا أقل 240.000 جندي) يريد الحرب، وبسرعة، للانتهاء من منافسه الوحيد في القارة، وضم الألزاس، باعتبارها منطقة ألمانية في نظره.

وعلى الرغم من مخاوف نواب المعارضة، ومنهم تيير، حول حالة الجيش الحقيقية، يعلن نابليون الثالث الحرب على بروسيا، في 19 تموز / يوليو، دون أن يتمكن من تفعيل تحالفه مع روسيا. وتعرض إيطاليا مساعدتها على فرنسا بشرط أن تجلو عن روما. لكن نابليون الثالث يرفض: إذ لا مجال للتوقف عن حماية البابا من هؤلاء الجمهوريين الممقوتين!

ويلح كارل على لورا وبول لافارغ، اللذين يعيشان في باريس، في العودة إلى لندن. لكنهما يرفضان. وتلغي الدولية مؤتمرها المقرر في أيلول بالعاصمة الفرنسية، وتعوضه بمجرد اجتماع للمجلس العام في لندن.

وماركس في حيرة من أمره، فهو قلق في المقام الأول على ابنته. وهو لا يعلم أنها تتهيأ لمغادرة باريس إلى بوردو، حيث تقيم عائلة زوجها. ومن الناحية السياسية، يتمنى بالأحرى انتصاراً لبروسيا، لنفوره الشخصي من لويس - نابليون بونابرت، ولأن هزيمة فرنسا ستفضي في هذا البلد إلى عودة الطبقة البورجوازية بقوة. لكنه يخشى من أن يؤدي نجاح بسمارك إلى تصليب النظام فيما وراء الراين، وإلى إعادة النظر في مساحة الحرية الضيقة التي افتكها الحزب الاجتماعي - الديمقراطي، برئاسة صديقيه ليبكنيخت وبيبل، عضوي البرلمان. ويتوقع للإمبراطورية الثانية الانهيار، كيفما كانت نهاية الحرب. ويعتقد بأن روسيا لن تتدخل في النزاع، لأنها ليست جاهزة لذلك عسكرياً.

فيكتب إذاً، يوم إعلان الحرب بالذات، (نداء من الدولية حول الحرب الفرنسية - البروسية) يدعو البروليتاريا في كل بلد مشارك في الحرب إلى أن لا يتحول النزاع إلى حرب عدوانية ضد الآخر، في «مجتمع جديد هو قيد الولادة». ويتلقى المجلس العام في 10 آب / أغسطس، على هذا النص التهاني غير المنتظرة من جون ستيورات مل الذي لا يزال يعيش في لندن (قبل الذهاب للإقامة في أفينيون). إذ

يصرح عالم الاجتماع والاقتصادي الشهير بأنه «جد مرتاح من (النداء). فكل كلمة به في مكانها، وما كان بالإمكان قوله بعدد أقل من الكلمات». لكن باكونين يتخذ بعد بضعة أيام موقفاً منحازاً إلى فرنسا في «رسائل إلى فرنسي حول الأزمة الحالية».

وفي رسالة مؤرخة بيوم 3 آب / أغسطس 1870، يكتب ماركس إلى إنجلز بأن البعض داخل الدولية، يبدأون بالنظر إليه كعميل بروسي: «غادر لوباتين برايتون، حيث كان يموت سأماً، للإقامة في لندن. وهو الروسي «المتين» الوحيد الذي عرفته، وبإمكاني سريعاً أن أنزع عنه أفكاره الوطنية المسبقة. فقد علمت منه أن باكونين يبث شائعة مفادها أنني «عميل عادي» لبسمارك: وهو شيء مذهل! ومن المضحك أن سيرابيه كان يخبرني في المساء ذاته (مساء الثلاثاء) أن شاتلين، عضو الفرع الفرنسي وصديق بيات الحميم، كان أبلغ الفرع الفرنسي الملتئم في جمعية عامة بالمبلغ الذي كان بسمارك دفعه لي، وهو لا يقل عن 250.000 فرنك! فإذا ما علمنا ضخامة مثل هذا المبلغ في فرنسا، من جهة، والشح البروسي، من جهة أخرى، يبدو هذا التقدير مرموقاً!» وسريعاً ما سيروج الاتهام. لأنها حملة حقيقية تلك التي هيأها بسمارك ببراعة بفضل رئيس شرطته ستيبر.

وتتصادم الجيوش. وتفضي هزيمة سيدان في 1 أيلول / سبتمبر، إلى مظاهرات مناوئة للإمبراطور في باريس، مرسيليا، كروزو، وفي ليون. ويجري في 4 منه، اجتياح قصر بوربون، فيعلن غامبيتا الجمهورية. وتشكل حكومة دفاع وطني مؤقتة برئاسة الجنرال تروشو، حاكم باريس العسكري. ومن أعضائها أدولف تيير، جول فافر، جول غريفي، جول سيمون، جول فيري، أدولف كريميو، ليون غامبيتا. ويعود فيكتور هوغو ولويس بلان من المنفى.

يطالب بسمارك عندئذ بالألزاس واللورين، وهو ما يندد به ليبكنيخت وبيبل في الرايخستاغ، بأسلوب تنبؤي: «إن طبقة العسكريين والأساتذة والبورجوازيين والتجار تدعي أن (الضم) سيشكل وسيلة

لحماية ألمانيا إلى الأبد من فرنسا (..). لكنه على العكس، الوسيلة المضمونة لتحويل السلام إلى مجرد وقف لإطلاق النار حتى تصبح فرنسا قوية إلى الحد الذي تطالب فيه بما فقدته. وهي الوسيلة المضمونة أيضاً لجلب الخراب إلى ألمانيا وفرنسا، بجعلهما تتقاتلان حتى العظم». فيعتقل النائبان في الحال بتهمة الخيانة.

وفي 9 أيلول / سبتمبر، يندد ماركس هو أيضاً في نداء ثان، بالنزعة التوسعية الألمانية، متوقعاً على غرار ليبكنيخت وبيبل قبل أيام، أن يولد هذا النزاع حرباً جديدة، يراها عالمية بصراحة، مع انضمام روسيا التي ظلت على الحياد حتى الآن: «إن ألمانيا المأخوذة بمغامرة السلاح وبغطرسة النصر وبالخدعة الملكية، ترتكب اغتصاباً إقليمياً في فرنسا. وتضع نفسها أمام أحد أمرين: فإما عليها أن تكون الأداة لسياسة الغزو الروسية علانية، وإما عليها أن تواجه حرباً جديدة هجومية، لن تشابه هذه الحروب «المحلية» المبتكرة حديثاً، بل ستكون حرباً ضد العرقين السلافي والروماني مجتمعين (..). ترى هل يتخيل الوطنيون التوتون في الحقيقة أنهم سيضمنون الحرية والسلام بإلقاء فرنسا بين ذراعي روسيا؟» وهكذا، حيث يتوقع ليبكنيخت وبيبل حرباً جديدة فرنسية - ألمانية، يرى تشكل حلف فرنسي - روسي، واندلاع مجابهة عالمية. وهو ما يفرق غالباً ماركس عن المحللين الآخرين في عصره: فحتى عندما يرون بعيداً، مثل ليبكنيخت، فهم يرون أقل بعداً منه.

وفي باريس، يشرع الشعب في التسلح لمقاومة حصار البروسيين. ويؤكد ماركس في 13 كانون الأول / ديسمبر لكوجلمان: «مهما تكن نتيجة الحرب، فإنها ستدرب البروليتاريا الفرنسية على استعمال السلاح، وهنا أفضل ضمان للمستقبل». أما إنجلز المولع دائماً بالمعارك، فيتحرق للذهاب والدفاع عن باريس ضد الغزاة «للمحافظة بقدر المستطاع على قوى البروليتاريا». لكن ماركس يقنعه بالتخلي عن ذلك، لأنه لدى أول تراجع للقوات الفرنسية سيعد من قبلهم خائناً.

وباكونين الذي يهرع إلى ليون من جنيف، يدعو في 26 أيلول / سبتمبر، العمال الليونيين الذين يمثلهم في الدولية، إلى حمل السلاح ضد الجمهورية، منادياً بـ«إسقاط الدولة، وإلغاء المحاكم، وتعليق دفع الضرائب والرهونات والديون الخاصة، وباجتماع مؤتمر وطني يكلف برد الغزو على أعقابه». ويستولي جمهور صغير معه على مقر البلدية، ويطرد منه السلطات لفترة وجيزة، قبل أن يضطر إلى التراجع أمام الجنود.. فيفر باكونين عندئذ إلى مرسيليا ثم جنوا وأخيراً إلى لوكارنو حيث يؤويه صديق ثري.

في 19 أيلول / سبتمبر، تطوق الجيوش البروسية باريس، وتقيم قيادتها العامة في فرساي. وتنسحب الحكومة إلى تور. وفي 7 تشرين الأول / أكتوبر، يتمكن غامبيتا من مغادرة باريس المحاصرة بمنطاد، لينضم إلى وفد الحكومة في تور. فينادي بالتعبئة العامة وبالحرب دون هوادة. ويجند جيش اللوار الذي يحرر أورليان، ثم يشن هجوماً لفك الحصار عن باريس قبل أن يهزم في مونتارجيس، ويتراجع حتى لافال. فينسحب وفد الحكومة عندئذ إلى بوردو، ويحرز جيش آخر: دعي بجيش الشمال، يقوده فيديرب، نصراً يتيماً في بابوم، بينما يقصف البروسيون العاصمة بالمدافع. وتزدهر السوق السوداء، إذ بعدما أكل أثرياء باريس الجياد، ثم حيوانات حديقة النباتات، يتحولون إلى القطط، ويتحول الفقراء، كما قيل، إلى الجرذان. وفي 20 كانون الثاني / يناير، يحاول الباريسيون الذين لا تزال الحكومة الجمهوريةفي بوردو تساندهم، اختراقاً أول للحصار، لكنه يخفق. ويبذل تيير جهده في تعبئة البلدان الأوروبية الأخرى لصالح حكومته، وبمبادرة من الدولية تجري في لندن تجمعات حاشدة، تحث الحكومة الإنجليزية على الاعتراف بالجمهورية ومعارضة تقطيع أوصال فرنسا.

في 18 كانون الثاني / يناير 1871، يجري إعلان الإمبراطورية الألمانية في قاعة المرايا. وفي 28 منه، تستلم الحكومة المؤقتة، ويوقع وزير

الخارجية، جول فافرا على وقف القتال. وتضع الحرب أوزارها. لكن بسمارك يطالب بتنظيم انتخابات على الفور حتى يتم عقد الصلح مع حكومة شرعية، فقد أُبلغ برفض الباريسيين الاستسلام.

وكارل لا يعلم بأن لورا لافارغ هي عندئذ في بوردو، وتضع طفلاً ثانياً.

في 8 شباط / فبراير، تجمع جمعية انتخبت في فرنسا المحتلة ببوردو غالبية من الملكيين (ثلث المنتخَبين من النبلاء) الذين يتطلعون إلى عودة السلام بأسرع ما يمكن. وأقوى من انتُخبوا مع ذلك هما فيكتور هوغو ولويس بلان. وتعين هذه الجمعية في 17 شباط / فبراير، تيير «رئيساً للسلطة التنفيذية للجمهورية الفرنسية». وتتخلى فرنسا عن الألزاس وقسم من اللورين لألمانيا «إلى الأبد، بكل السيادة والملكية». وتفلح في الاحتفاظ بأراضي بلفور، لكن عليها دفع 5 ملايير فرنك ذهبي تعويضاً. فيلاحظ ماركس عندئذ بأن الجمهورية الفرنسية «لم تقلب العرش، بل أخذت مكانه الذي ظل شاغراً»، وأنها تتابع السياسة ذاتها.

أما في باريس المحاصرة، فالكثيرون يرفضون وقف القتال هذا، وينوون الاستمرار في القتال. حتى إن البعض يفكرون في تأليف حكومة باريسية، و«فيدرالية». لكن ماركس يعارض هذا: «إن الطبقة العمالية الفرنسية تواجه الآن ظروفاً شديدة الصعوبة»، والتمرد «سيكون حماقة يائسة»، إذ يعتقد، كما منذ عشرين عاماً، أن الثورة لن تنجح دون تحالف العمال والفلاحين، وتحالف الباريسيين مع سكان الأقاليم. والحال أن هؤلاء إما بونابرتيون وإما وراء الحكومة وجمعية بوردو، مستعدين للتعاون مع المحتل ليحصلوا على السلام بأي ثمن.

وبينما يطلب جول فيري من الحكومة العودة إلى العاصمة، ينظم باريسيون أنفسهم في «فيدرالية» تنتخب لجنة مركزية، وتكون «جيشاً». فيأمر تيير جيوشه بالدخول إلى باريس وإنهاء التمرد، ومصادرة الأسلحة،

وبخاصة نزع المدافع من بلدية مونمارتر التي كان المدعو جورج كليمنصو، رئيساً لها.

ولمساعدة تيير، يزوده بسمارك بالأسلحة وبكل المعلومات اللازمة، ومنها تلك التي جمعها حول المتمردين، والتي حصل عليها عن ماركس بفضل ستيبر، الجاسوس الذي جاء عند ماركس قبل خمسة عشر عاماً وصار منذئذ رئيساً لشرطته. فأوعز للصحف المعادية للكومون، في الأقاليم وفي باريس، بفضح الدور المزعوم للدولية في الأحداث، زاعماً أو دافعاً البعض للزعم بأن ماركس عميل للبروسيين، والبعض الآخر بأنه يدبر لثورة شيوعية..

ففي 14 آذار / مارس، تشير صحيفة يومية لما تزل بونابرتية هي (باريس - جورنال)، تحت عنوان «زعيم الدولية الأكبر» إلى ماركس على أنه المسؤول عن مقاومة الباريسيين. وزاد من وقع هذا المقال المستوحى من الدعاية البسماركية، نقله بوساطة التلغراف ونشره من قبل (التايمز) في الحال. ونتيجة لتحالف تيير وبسمارك يصبح ماركس الذي يحاول عبثاً التكذيب، مشهوراً على نطاق العالم عندئذ: إذ ينظر إليه على أنه الملهم، بل المنظم لما سيصبح بعد عدة أيام الـ«كومون».

وفي 18 آذار / مارس، يندلع بالفعل التمرد الباريسي الذي يخشاه ماركس: إذ يتصدى السكان لنزع المدافع من مونمارتر ويتآخون مع الجنود. وتنصب المتاريس. وتنتشر الحركة إلى ليون، سانت - إتيين، مرسيليا، تولوز، ناربون. فيسحق جيش فرساي التمردات في الأقاليم ويحاصر باريس باحتلاله المراكز التي غادرها البروسيون لتوهم. فتعمد الكومون عندئذ إلى أخذ أعيان رهائن، حتى تكون لها الوسائل للمفاوضة، وتدعي أنها الحكومة الشرعية، وتنظم هي أيضاً انتخابات في باريس.

في لندن، يبلغ القلق بآل ماركس كل مبلغ: إذ لا تزال لورا في باريس ربما مع زوجها بول لافارغ، وما من أخبار عنهما. وجينيشن قلقة أيضاً على لونغيه وعلى فلورانس - أما إليانور، وهي في السابعة عشرة،

فلم تلتق بعد هذا الكوموني المهم الذي ستؤخذ به قريباً: ليسا غاراي. فعشاق بنات ماركس الأربعة عالقون في دوامة الأحداث الباريسية.

في 26 آذار / مارس، تنظم الكومون انتخابات: إذ يقترع من 450.000 ناخب مسجل في العاصمة 229.000 - وهي نسبة عالية، نظراً للظروف - ومن بين الـ 92 منتخَباً، 17 عضواً في الدولية الاشتراكية، منهم غوستاف فلورانس، شارل لونغيه، أوجين بوتييه (المؤلف المستقبلي للنشيد «الدولي»)، إدوارد فايان، أوجين فارلان، وبيير فيزينييه (المناوئ الصريح لماركس). وغالبية الباقين من أتباع برودون وبلان. فيستقيل هوغو من جمعية بوردو؛ متخذاً موقفاً مؤيداً للكومون، ويغادر إلى بروكسل.

وماركس قلق على ابنته وحفيده الصغير «فوشترا»: فقد علم لتوه أن لافارغ عين مندوباً لدى كومون بوردو. وكان كارل عندئذ ملازماً الفراش نتيجة لالتهاب القصبات ولنوبة كبدية. ومع أنه متعاطف مع الحركة إلا أنه لا يجد نفسه فيها: إذ إنه مغتاظ لرؤية المتمردين يضيعون وقتاً ثميناً في إجراءات انتخابية، عوضاً عن أن يمارسوا السلطة، ويستولوا على خزينة بنك فرنسا، ويفكوا حصار جيش تيير للانطلاق إلى فرساي. ويائس من رؤية أي شيء يأتي من الأقاليم المقموعة والخائفة. كما يعلم بالمساعدة التي يقدمها البروسيون لحكومة فرساي؛ وبأن اتفاقاً عقد بين بسمارك وجول فافر، وزير خارجية حكومة الدفاع الوطني، يقدم لحكومة فرساي «كل التسهيلات الممكنة» لاحتلال باريس. فهي العمالة إذاً ضد المقاومة..

ويستحيل الحصار جحيماً، وتصبح المجاعة مروعة. وفي 30 آذار / مارس، ينجح اثنان من قادة الكومون هما: الشيوعي الهنغاري ليو فرانكل، والبرودوني أوجين فارلان في تسريب رسالة سرية إلى ماركس، يلتمسان فيها نصائحه حول «الإصلاحات الاجتماعية التي ينبغي تطبيقها». وتكتشف الكومون أثناء التفتيش في أوراق ومراسلات العائلة الإمبراطورية، في حرف V: «فوغت: سُلِّم في آب / أغسطس 1859،

40.000 فرنك». وهو البرهان الذي كان ماركس يبحث عنه منذ عشرة أعوام! فقد افتري عليه بأمر من «بلون - بلون» (نابليون الثالث). ويفترى عليه الآن من قبل بسمارك.

وإذا بعدة صحف منها (لابروفانس) وصحيفة كهنوتية بلجيكية، تنشر عندئذ المقال نفسه الذي أملاه ستيبر: «باريس، 2 نيسان / أبريل. أحدث اكتشاف آتٍ من ألمانيا ضجة كبيرة هنا. إذ تبين بما لا يدع مجالاً للشك أن كارل ماركس، أحد قادة الدولية الأكثر نفوذاً، كان السكرتير الخاص للكونت بسمارك في 1857، وعلاقته ظلت مستمرة منذئذ مع رئيسه السابق».

في 3 نيسان / أبريل، يحاول بعض الباريسيين اختراقاً جديداً للحصار، ومن بينهم غوستاف فلورانس، صديق جينيشن، الذي يأسره جنود فرساي ويعدمونه. وصدمة أسرة ماركس مريعة، عندما تعلم فيما بعد بالحدث.

ولمكافحة الدعاية التي تجعل منه زعيماً للكومون، يكتب ماركس إلى ليبكنيخت في 10 نيسان / أبريل: «بينما تسعى حكومة بسمارك في ألمانيا إلى إلقاء الشبهة علي في فرنسا (وعلى الدولية في باريس، لأن ذلك هو هدف المناورة)، بأنني عميل للسيد بسمارك، فإن المحاولة هي من فعل عناصر من الشرطة البونابرتية السابقة، يواصلون - أكثر من أي وقت آخر، في ظل نظام تيير - إقامة علاقات دولية مع شرطة ستيبر. وهكذا، اضطررت للتكذيب في (التايمز) لعدة افتراءات من (باريس - جورنال) ومن (غولوا)، إلخ لأن هذه السخافات كانت تنقل بالتلغراف إلى الصحف الإنجليزية. وآخرها يأتي من (سوار) (وهي صحيفة أبوت، أحد أنصار بلون - بلون المعروفين جيداً)، التي حظرتها الكومون لتوها. ومن (سوار) انتقلت إلى كل الصحف الرجعية في الأقاليم. (..) فستيبر يغدو حقاً «رهيباً»!».

ويتخذ ماركس الآن موقفاً مؤيداً للكومون التي يرى فيها تحقيقاً

للتوصيات التي أوردها في الكتاب الذي ألفه قبل عشرين عاماً حول (18 برومير للويس – نابليون بونابرت)؛ وهو الذي أبدى، منذ بداية المعارك، تحفظاً، يعتقد منذئذ بأن من الممكن للكومون أن تكون تجسداً أول لما دعاه عندئذ «ديكتاتورية البروليتاريا».

فيكتب إلى كوجلمان في 12 نيسان / أبريل 1871: «إذا ما أعدت قراءة الفصل الأخير من (18 برومير)، سترى بأنني أؤكد بأنه لن يعود ممكناً في محاولة الثورة المقبلة في فرنسا، نقل الآلة البيروقراطية – العسكرية من يد إلى أخرى، إنما سيتوجب تحطيمها، كشرط مسبق لأية ثورة شعبية حقاً في القارة. وهو ما حاوله رفاقنا الأبطال في الحزب بباريس».

لكن واقع الحال هو أن الباريسيين يحافظون على نوع من الشكلية الديمقراطية، دون السيطرة على زمام الدولة. ففي 16 نيسان / أبريل، ونظراً لاستقالة معتدلين ولإعدام دوفال وفلورانس، ينظمون انتخابات تكميلية، تشهد انتخاب سيراييه، مندوب ماركس في باريس.

وفي اليوم ذاته، ومن سويسرا إلى حيث انسحب بعد هزيمته في ليون، يعبر باكونين عن ابتهاجه لصديقه أوغاريف: «لقد خرجنا أخيراً من مرحلة «القول» للدخول إلى مرحلة «الفعل». ومهما تكن النتيجة، فإنهم يخلقون الآن واقعة تاريخية هائلة. وفي حالة الإخفاق، لا أتمنى إلا شيئين: 1- أن لا يتوصل جنود فرساي إلى التغلب على باريس إلا بمعونة بروسيا الصريحة؛ 2- أن يفنى الباريسيون، ويفنوا معهم نصف باريس على الأقل. وآنذاك، وعلى الرغم من كل الانتصارات العسكرية، ستظل المسألة الاجتماعية مطروحة، كواقع صارخ لا شك فيه».

في اليوم التالي، يوجه ماركس إلى كوجلمان رسالة حماسية أخرى: إذ يعتقد أنه مهما تكن النتيجة، فستكون الأحداث في صالح الطبقة العاملة. ويحيي بغنائية المبادرة الثورية للجماهير «الصاعدة لاقتحام السماء» ذاكراً بأنه «من الأنسب بالطبع صناعة التاريخ، إذا لم ننخرط

في الكفاح إلا مع فرص مواتية تماماً (..). لكن تثبيط همة الطبقة العاملة سيكون مصيبة أكبر بكثير من فقد أي عدد من «الزعماء». وبفضل المعركة الناشبة في باريس، دخل صراع الطبقة العاملة ضد الطبقة الرأسمالية مرحلة جديدة، ومهما تكن نتيجتها، فقد اكتسبنا نقطة انطلاق جديدة ذات أهمية تاريخية عالمية».

وآل ماركس قلقون أكثر فأكثر على لورا وأسرتها التي لا يعرفون من أخبارها شيئاً. وجينيشن منقبضة النفس على لونغيه وعلى فلورانس الذي لم تعلم بعد بموته. ويعلم كارل عندئذ أن لورا وزوجها وطفليهما قد وصلا إلى بوردو. فتقرر جينيشن وإليانور الذهاب إلى هناك لمساعدة أختهما، وتصلان في الأول من أيار / مايو.

في 10 أيار / مايو، توقع معاهدة السلام التي يتم بموجبها التنازل عن الألزاس واللورين إلى بروسيا في فرانكفورت. وفي 13 منه، يرد ماركس على رسالة ليون فرانكل وأوجين فارلان، مبدياً حنقه لأنهما لم يتخذا الإجراءات التي كان لها أن تسمح بالاحتفاظ بالسلطة: كوضع اليد على ذهب بنك فرنسا والهجوم على فرساي. إذ لا ينبغي على الكومون، كما يشرح لهما، مضيعة الوقت في خصومات شخصية، بل عليها اتخاذ جانب الحذر: فثمة شائعات في لندن حول اتفاق سري عقد مع البروسيين، يعطي حكومة فرساي كل الوسائل لاحتلال باريس. وماركس متشائم لأن الشك بدأ يداخله في إمكان تحالف بين الباريسيين والأقاليم. فالكومون محكوم عليها بالإخفاق؛ ويجب وضع الأوراق المثيرة للشبهة في مكان آمن.. لكن رسالته تصل بعد فوات الأوان.

ذلك أن تيير، كما توقع كارل، يأمر بتشديد الحصار، ويرفض كل محاولة للتوسط. وأخذت بطاريات مدافع فرساي تقصف العاصمة بشدة أكثر فأكثر. فيكلف المجلس العام للدولية عندئذ ماركس بكتابة نداء ثالث، يحدد فيه موقف الدولية من الوضع. لكنه متردد. ولمرضه، يتعذر عليه الكتابة حول موضوع مأساوي كهذا، غير متمكن منه تماماً، بينما يتغير

الوضع في مسرح الأحداث بسرعة كبيرة دون أن يعلم به، لعدم وجود صحافيين أحرار يتوفرون في باريس على وسائل اتصال سريعة مع لندن.

في 21 أيار / مايو يتوغل 50.000 من جنود فرساي في العاصمة من باب سانت – كلود. ويتراجع الفيدراليون وهم يحرقون المباني العامة، وبخاصة التويلري ومقر البلدية. والمعارك ضارية. وفي 27 منه، تمت إعادة الاستيلاء على المدينة، مخلفة 877 قتيلاً و6500 جريح في جانب فرساي؛ وأكثر من 4000 قتيل في جانب الفيدراليين، يضاف إليهم 17.000 باريسي أعدموا دون محاكمة، منهم أوجين فارلان الذي اعتقل في ساحة كاديت؛ و43522 موقوفاً، حكم على 270 منهم بالإعدام، وعلى 410 بالأشغال الشاقة، وعلى 7496 بالنفي.

وفي الآونة نفسها، يواصل نجار الأثاث البلجيكي زينوب – تيوفيل غرام في ضاحية باريس بين الحديد والنار، دون اكتراث، أشغاله. فبعدما صنع أول مولد بالتيار المستمر، نقطة انطلاق الصناعة الكهربائية الحديثة، يودع براءة الاختراع المتصلة بنظريته في «آلة كهرو – مغناطيسية تنتج تيارات مستمرة»، ويؤسس شركة الآلات الكهرو – المغناطيسية غرام، ويقدم أول نماذجها، المصنوعة في ورشات مؤسسة بريغيه، إلى أكاديمية العلوم. وهكذا تصبح الكهرباء التي طالما بشر بها ماركس وانتظرها، مصدراً حقيقياً للطاقة.

هناك ثلاثة نصوص ستحمل آثار مأساة الكومونيين. إذ يكتب فيكتور هوغو في (السنة الرهيبة): «آه! الفخ خسيس، والشبكة بائسة؛ ولا شيء سيوقف المستقبل العظيم». ويستشيط آرثر رامبو غضباً في (أنشودة الحرب الباريسية): «أيا أيار / مايو! يا للمؤخرات العارية الجامحة! (..) إن تيير وبيكار إلهين للحب، / خاطفان للزهور (..) بين التجعدات الحمراء!» و(أوان الكرز) لجان باتيست كليمان الذي «صمد» في آخر المتاريس على زاوية شارع فولي – ميريكور، يغدو النشيد التذكاري للكومون. أخيراً، النص الرابع، هو الذي كتبه ماركس في هذه

الآونة، وهو نداء ثالث بعنوان (الحرب الأهلية في فرنسا) ويقدم الكومون، «نقيض أطروحة الإمبراطورية الثانية» كأول محاولة لـ«دولة جديدة». وقد كتبه دون معرفة ظروف نهاية التمرد بتفصيلاتها، وهو مشغول تماماً بالسعي للحصول على أخبار من ابنته.

وفي 30 أيار / مايو، يقرأ هذا النداء في المجلس العام. ورؤيته مفادها أن انعزال باريس وفترة الكومون الوجيزة هما اللذان منعا الفلاحين من الالتحاق بـ«الثورة البروليتارية»، مثلما كانت توصيته الرئيسة منذ 1848، فيستعيد نبوءاته التي قالها من عشرين عاماً:

«كان الفلاح بونابرتياً لأنه كان يخلط الثورة الكبرى وما قدمته من المزايا باسم نابليون، إلا أن هذا الخطأ كان في ظل الإمبراطورية الثانية اختفى تماماً تقريباً. وما كان لهذا الحكم المسبق من الزمان الماضي أن يقاوم نداء الكومون التي كانت تمس المصالح الحيوية والحاجات الآنية للفلاحين. وكان يفهم السادة الأعيان جيداً أنه لو كانت باريس تتصل بحرية مع الأقاليم فإن الفلاحين سيتمردون في ظرف ثلاثة أشهر (..). إذ كانت الكومون التمثيل الأصيل لكل العناصر الصحية في المجتمع الفرنسي؛ ولهذا السبب كانت حقاً حكومة وطنية (..). وتلك كانت الثورة الأولى التي اعتُرف فيها بأن الطبقة العاملة قادرة وحدها على مبادرة اجتماعية: لقد اعتُرف بها من حيث هي كذلك من قبل الآخرين - صغار الباعة، الحرفيين، التجار - من قبل الجميع، باستثناء أغنياء الرأسماليين. بعدما كان هؤلاء الآخرون أسهموا في 1848 بسحق الانتفاضة العمالية، ثم ألقى بهم المجلس التأسيسي، على الفور، ودون أي وازع، إلى دائنيهم (..). فكان لدى هذا الجمهور إذن الحدس بأن عليه الاختيار الآن بين الكومون والإمبراطورية (..). وبعدما فرت العصابة الضالة من الحاشية البونابارتية ومن الرأسماليين من باريس، اصطف «حزب النظام» الحقيقي من أولئك الآخرين الذي سمى نفسه «الاتحاد الجمهوري» تحت راية الكومون ودافع عنها ضد افتراءات تيير».

وحكومة الكومون، بالنسبة لماركس، كانت حقاً حكومة انتخبت بصفة ديمقراطية، وإذن شرعية: «كانت الكومون مشكلة من مستشارين بلديين انتخبوا في الدوائر الانتخابية الباريسية عن طريق الاقتراع العام (..). وبإلغاء الكومون أجهزة السلطة الحكومية السابقة التي كانت تُستخدم لقمع الشعب وحسب، جردت السلطة التي كانت تدعي أنها فوق المجتمع من وظائفها القانونية، ونقلتها إلى خدام مسؤولين من هذا المجتمع (..). وكان الشعب المنظم في بلديات يُدعى إلى استخدام الاقتراع العام بالضبط مثل أي رب عمل يستخدم حقه الفردي في اختيار العمال والمراقبين والمحاسبين من أجل منشأته».

فالكومون على وجه الإجمال تقدم، بالنسبة لماركس أفضل إيضاح لما سماه «ديكتاتورية البروليتاريا» التي تمارس كل السلطات الموكلة لها من قبل الاقتراع العام. بصرف النظر عن أنها «لم تكتف بأخذ جهاز الدولة كما هو وبتشغيله لحسابها الخاص»، بل شرعت في إصلاحه، بعدما انتخبت بصفة ديمقراطية من أجل هذا. ويعدد ماركس مواصفات هذه الإصلاحات المؤسساتية الضرورية للانتقال إلى الاشتراكية: «إلغاء الجيش الدائم واستبداله بالشعب المسلح»، وإلغاء سلك الموظفين والمؤسسات البرلمانية، وتعويضهما بـ«عمال أو بممثلين معروفين للطبقة العاملة (..) مسؤولين وقابلين للتسريح في أي وقت»، يؤدون وظائفهم «مقابل أجور عمال» ويكونون «سلكاً متصرفاً وتنفيذياً وتشريعياً في آن». كما تجرد الكومون القضاء من «استقلاله المزعوم» وتشرع في «تحطيم أداة الاضطهاد الروحية» بالتصدي للكنيسة. لكن تلك الحكومة أخفقت في الانتقال إلى المرحلة التالية، لأنها لم تحسن إدارة دكتاتورية البروليتاريا هذه جيداً.

ويعبر ماركس عندئذ لأول مرة بالتفصيل عن تصوره للانتقال من الرأسمالية إلى مجتمع دون طبقات، الذي يجب أن يجري، في رأيه، على أربعة مراحل: المرحلة «الثورية والعنيفة»، لنزع السلطة عن البورجوازية

دفعة واحدة (كما في استيلاء الباريسيين على السلطة)؛ «ديكتاتورية البروليتاريا» (أي الكومون)، المقصود بها اتقاء كل نشاط مضاد للثورة (أي حكومة فرساي) بإصلاحات جذرية كالتي ذكرها لتوه؛ «الاشتراكية»، لإعادة إطلاق الإنتاج طبقاً لمبدأ «لكل بحسب عمله»؛ أخيراً «الشيوعية» التي ستسمح بالتوزيع المتساوي للمنتجات، وبالتنظيم الحر للتجمعات - «لكل بحسب حاجاته».

والكومون أخفقت، كما يختم ماركس، في الانتقال من المرحلة الثانية إلى الثالثة، لكنها كانت الشكل الأكمل للثورة البروليتارية؛ وستفتح إذاً بؤراً أخرى للتمرد في أوروبا. وينهي ماركس كلامه بمناورة صغيرة تتعلّق بالدولية: فلضمان نجاح هذه الثورات المستقبلية، وللانتقال من ديكتاتورية البروليتاريا إلى الاشتراكية، لا بد من الاعتماد على تضامن دولي قوي، وتقوية المجلس العام للدولية، وإبعاد الفوضويين عنه.

وينال هذا النص موافقة غالبية المنظمة، بمن فيها أتباع برودون وبلان، وهو ما يسرِّع مغادرة النقابيين الإنجليز، ومنهم أودجر، مؤسس الدولية الذي لا يستطيع تحمل مسؤولية ما يرى فيه تبريراً للعنف الذي تندد به كل الصحافة البريطانية، حتى وإن لم يكن إلا دفاعاً مشروعاً.

وقد نفدت الثلاثة آلاف نسخة الإنجليزية من هذا النداء في خمسة عشر يوماً، وكذا الطبعتان الألمانية والفرنسية. وسيظل هذا أضخم نجاح نشري عرفه ماركس أثناء حياته! لكنه نجاح منذر بالمخاطر، لأن الدولية تبدو عندئذ لكل حكومات أوروبا كأنها المحرضة على إسقاط المؤسسات القائمة، وإذاً العدو الذي يجب هزمه بأي ثمن، وهزم أولئك الذين يساندهم. فتُحظر في فرنسا من قبل الجمهورية. وفي ألمانيا يسجن ليبكنيخت وبيبل من قبل بسمارك، مع كثيرين غيرهما. ولا يعرف القمع في روسيا الرحمة. أما في فيينا وبودابست وفي إيطاليا وبلجيكا، فتراقب فروع الدولية بشدة، ويضيق مجال نشاطها كثيراً.

ويعطي ماركس عندئذ مقابلات صحافية إلى عدة صحف

أمريكية. ومنها صحيفة (وود هول وكلافلينز ويكلي)، وهي صحيفة غريبة سميت باسم الشقيقين تينيسي كلافلين وفيكتوريا وودهول التي يمول عشيقها كورنيليوس فاندربيلت، إمبراطور السكك الحديدية، نشرها. إذ ستتقدم فيكتوريا في السنة التالية، إلى الانتخابات الرئاسية مع صحافي أسود هو فريدريك دوغلاس شريكاً لها، في وقت لم يكن للنساء حق الانتخاب، والتمييز العنصري على اشده! وهذه المقابلة الصحافية نص جد مثير للاهتمام، يُسمع كارل فيه صوته المشاكس، وتُرى فيه مجموعةً كل المصاعب التي يجب على الصحافة الحديثة مواجهتها إزاء الدعاية والشائعات. فعندما يسأله الصحافي عن طابع الدولية السري، يجيب كارل: «ليس ثمة أي سر ينبغي الإفصاح عنه، فيما عدا ربما سر الغباوة الإنسانية لأولئك الذين يصرون على عدم إدراك أن جمعيتنا علنية، وكذلك نشاطها، وأن مناقشاتها محفوظة بتفصيلاتها في محاضر، يستطيع أي كان قراءتها. فبإمكانك الحصول على نظامنا الداخلي مقابل بنس، وإذا ما اشتريت من كراساتنا بشلن، ستعرف قريباً عنا مقدار ما نعرف نحن». ويواصل متهكماً: «من الممكن للتمرد أن يكون أيضاً من فعل الماسونيين، لأن إسهامهم كأفراد لم يكن ضئيلاً. ولن أندهش إذا ما حملهم البابا مسؤولية التمرد كلها (..). والدولية لا تدعي أنها تملي إرادتها في هذا الأمر. (..) إذ يكفيها عناء توجيه النصائح. (..) وليس للطبقة العاملة ما تأمله من طبقة أخرى. ولذا من الضروري أن تدافع عن قضيتها بنفسها».

وعندما يسأله الصحافي عن رأيه في الصحافة، يجيب: «كتبت الصحيفة البلجيكية (لا سيتُياسيون): «كان الدكتور كارل ماركس اعتقل في بلجيكا بينما كان يحاول المرور إلى فرنسا. وكانت الشرطة اللندنية منذ زمن طويل تراقب الجمعية التي ينتمي إليها، وتتخذ في هذه الآونة إجراءات حاسمة لإلغائها». جملتان وكذبتان! فأنت تستطيع التحقق من صحة الأولى بعينيك: لاحظ أنني لست في سجن بلجيكي، بل في منزلي

بإنجلترا. ومن جهة أخرى، أنت تعلم أن سلطة الشرطة الإنجليزية للتدخل في شؤون الدولية لا تعدلها إلا سلطة جميعتنا للتدخل في شؤون الشرطة. ومع ذلك، من المؤكد أن هذا التقرير سيجول على صحافة القارة، دون تلقي أقل تكذيب، وسيستمر في طريقه حتى لو ارتأيت أن أرسل من هنا إلى كل صحف أوروبا رسالة تعميمية». فالأشياء، والحق يقال، لم تتغير كثيراً منذ ذلك العصر..

وفي 3 تموز / يوليو، يجيب ماركس على أسئلة صحيفة أمريكية أخرى، (نيويورك وورلد) مصرحاً: «لقد أبدت البورجوازية الإنكليزية دائماً قبولها حكم الغالبية، طالما ضمنت الانتخابات احتكارها. لكن، كن متأكداً بأن حرب انفصال ستنشب ما إن تصبح أقلية حول مسائل تكتسي أهمية حيوية بالنسبة لها». وعندما يسأله الصحافي عن الأشكال الديمقراطية أو العنيفة التي يجب أن يتخذها الاستيلاء على السلطة، يجيب بأن الثورة لا لزوم لها في وضع ديمقراطي؛ وتعتمد في الأماكن الأخرى على ما تقرره الطبقة العاملة، هي وحدها، في البلد المعني: «إذ إن الطريق المفضي إلى السلطة السياسية في إنجلترا، على سبيل المثال، مفتوح أمام الطبقة العاملة. وسيكون التمرد حماقة حيث يستطيع النشاط السلمي تحقيق كل شيء بسرعة وبأمان. أما فرنسا فتمتلك مائة قانون قمعي؛ وعداوة مميتة تفرق بين الطبقات، ولا تُرى كيفية للإفلات من هذا الحل العنيف المتمثل في الحرب الاجتماعية. واختيار هذا الحل يعني الطبقة العاملة لهذا البلد». لكن قليلاً من أتباع ماركس فيما بعد سيتذكرون أنه أوصى باستعمال الطريق الديمقراطي، حيثما يكون ذلك ممكناً، للاستيلاء على السلطة. صحيح أنه لم يقل قط ما إذا كان يجب رد هذه السلطة في حالة فقدانها بصناديق الاقتراع..

وعندما اتُهمت الدولية في فرنسا من قبل الصحافة بالتعامل مع العدو البروسي، يرد ماركس في 10 آب / أغسطس 1871، بدفاع طويل يرمي إلى إثبات حياد المنظمة أثناء الحرب:

«كان المجلس العام يصرح في ندائه الأول المؤرخ بـ 23 تموز / يوليو 1870، بأن الحرب لم تشن من قبل الشعب الفرنسي بل من قبل الإمبراطورية، وأن بسمارك كان مسؤولاً عنها بقدر مسؤولية بونابرت. وفي الوقت ذاته، كان المجلس العام يدعو العمال الألمان إلى عدم السماح للحكومة البروسية بتحويل الحرب الدفاعية إلى حرب استيلاء. والنداء الثاني في 9 أيلول / سبتمبر 1870، (بعد خمسة أيام من إعلان الجمهورية) يدين بقوة مطامع الحكومة البروسية في الاستيلاء. ويدعو هذا النداء العمال الألمان والإنجليز للوقوف إلى جانب الجمهورية الفرنسية. وبالفعل، عارض العمال المنتمون إلى الجمعية الدولية في ألمانيا سياسة بسمارك بقوة جعلته يأمر باعتقال الممثلين الرئيسيين الألمان في الدولية، بشكل غير قانوني، بتهمة «التآمر» مع العدو الكاذبة، وبإلقائهم في حصون بروسية. (..) فهل تجهل الحكومة الفرنسية اليوم أن الدولية قدمت مساندتها إلى فرنسا خلال الحرب؟ كلا، مطلقاً. إذ إن قنصل السيد جول فافر في فيينا، السيد لوفيفر، ارتكب خطأ عدم التحفظ – باسم الحكومة الفرنسية – بنشر رسالة شكر للسيدين ليبكنيخت وبيبل، الممثلين للدولية في الرايخستاغ الألماني. وهذه الرسالة من مستندات قضية الخيانة العظمى، التي رفعتها الحكومة الساكسونية، بضغط من بسمارك، ضد ليبكنيخت وبيبل، ولا تزال إلى الآن قيد النظر. (..) ففي الوقت الذي كانت الصحف الخسيسة تندد بي لدى تيير على أني عميل لبسمارك، كان بسمارك هذا يسجن أصدقائي بتهمة الخيانة العظمى لألمانيا، ويعطي الأمر باعتقالي ما إن أضع قدميَّ في ألمانيا، ويبرهن كل هذا على أن الحكومة الفرنسية نفسها كانت تعتبر الدولية حليفة للجمهورية الفرنسية ضد الغزاة البروسيين؛ وواقع الحال أنها كانت حليف فرنسا الوحيد أثناء الحرب. تحياتي الأخوية».

ويشرع كارل أيضاً بالاهتمام باللاجئين الفرنسيين الذين يتدفقون بكثافة على لندن. وقد قُبل الأكثر أهمية من الناجين، مثل ڤايات، رانديه

أو فيزينييه الذين أفلتوا بأعجوبة من رصاص قوات فرساي، في المجلس العام للدولية. وتقدم المساعدة للكثيرين منهم من قبل لجنة مساعدة اللاجئين. أما جيني وإليانور وأسرة لافارغ فهم في بوردو، مع عائلة بول وطفليه، حيث يموت أصغرهما المولود في كانون الثاني / يناير، في 26 تموز / يوليو 1871. وهو الطفل الثاني الذي تفقده لورا. ولم يبق لها إلا الصغير «فوشترا» أو «شنابس» وهو مريض أيضاً.

ما من أخبار عن لونغيه. ويبلغ لافارغ جينيشن وإليانور بموت فلورانس. بينما لا تزال الأولى تحمل معها رسالة منه.

ويهرب الأخوات الثلاثة مع «شنابش» وبول لافارغ للاختباء في لوشون، حيث الهواء أنسب لسل الطفل. وهناك يأتيهم شرطي ليبلغهم بأن لافارغ قد وُشي به، وبأنه سيعتقل قريباً. فتجتاز أسرة لافارغ الحدود إلى إسبانيا (يحمل بول جواز سفر إسباني) حيث توقَف في هويسكا، ثم يطلق سراحها في 21 آب / أغسطس، بينما تعود الشقيقتان الأخريان إلى لندن. وفي طريق العودة، توقَف جينيشن وإليانور، وتفتَشان، وتخضعان لاستجواب قاس لعدة أيام من قبل النائب العام في تولوز، وقاضي الصلح والمحافظ، المدعو الكونت دو كيراتري، بينما كانت جيني تحمل معها رسالة فلورانس التي لم تفارقها قط وكانت تكفي لإرسالها إلى منفى الأشغال الشاقة لو اكتشفت.

وتتفكك الدولية. فلم تعد تضم عندئذ إلا 385 عضواً، 254 منهم في إنجلترا. ولا يزال أمينها العام العجوز جورغ إيكاريوس، براتب 15 شلناً في الأسبوع، وبدون انتظام. ولهذا السبب، وللقيام بأوده، يتقاضى الآن مالاً من الصحف عما يزودها به من معلومات حول نشاطات المنظمة، وهو ما يثير استهجاناً عاماً. وبما أنه من غير الممكن مرة أخرى عقد مؤتمر، يستدعي كارل في 8 أيلول / سبتمبر «مؤتمراً تحضيرياً» في لندن. يتحالف فيه مع أتباع بلان، ويقترح، كما قال آنفاً للصحافيين الأمريكيين، الخروج من السرية العزيزة على الفوضويين

بـ«أحزاب شيوعية» ينبغي عليها السعي لحيازة السلطة بصفة قانونية، في كل البلدان التي يكون فيها ذلك ممكناً. ويُلزم بصفة خاصة «الجوراسيين» أي باكونين، بالعودة إلى الصف. ويلقى تأكيده للأسلوب الشرعي ورفضه للثورة العنيفة في الأنظمة الديمقراطية القبول من قادة الدولية.

وهكذا ولدت النزعة الاجتماعية – الديمقراطية. إذ سيظل اجتماع لندن هذا في التاريخ، اللحظة التي اختارت الحركة الاشتراكية، بمبادرة من ماركس ضد الاتجاه السائد، الطريق البرلماني، حتى وإن لم تقل بعد بالوضوح ذاته إن السلطة المكتسبة بصناديق الاقتراع يمكن أن تُفقد أيضاً بصناديق الاقتراع.

في 12 تشرين الثاني / نوفمبر 1871، يطالب باكونين من جديد باستدعاء مؤتمر «للحفاظ على مبدأ استقلال الفروع الذاتي والعودة بالمجلس العام إلى دوره العادي، أي إلى مجرد مكتب للمراسلات والإحصاءات».

وفي الآونة ذاتها يصبح تيير رئيساً للسلطة التنفيذية، دون أن يحكم هذا سلفاً على شكل الحكم المستقبلي، وينشر زولا (ثروة آل روغون).

ويلقي ماركس، بمناسبة الذكرى السابعة لتأسيس الجمعية الدولية للشغيلة في لندن، خطاباً يترجم تماماً عقليته؛ وهاكم فحواه كما سجله مراسل الصحيفة الأمريكية ذاتها: «في كلامه عن الدولية، يقول إن النجاح الذي كلل حتى الآن جهودها راجع إلى ظروف لم يكن أعضاؤها أنفسهم يملكون عليها أية سلطة. (..) فقد كانت مهمتها تنظيم طاقات الطبقة العاملة، وتوحيد الحركات العمالية والتنسيق بينها. والظروف التي كانت ساعدت كثيراً على تطور الجمعية هي الظروف التي كان يُضطهد فيها العمال أكثر فأكثر عبر العالم. وكان هذا سر النجاح..» فالقمع الذي عانت لتوها منه، سيساعد، بعبارة أخرى، في تطور الدولية.

لكن واقع الحال، أن ماركس لا يؤمن بأي شيء من هذا: فالدولية، في نظره، قد انقضى زمانها. وسيستخلص من ذلك قريباً النتائج.

ففي 21 تشرين الأول / أكتوبر، يكتب إنجلز الذي عاش أحداث لندن إلى جانب ماركس، ساخطاً لعدم قدرته على الذهاب للقتال والموت على المتاريس الباريسية، إلى أمه، موطن سره، في بارمن، رسالة رائعة تلخص جيداً جو تلك الآونة وتختم تلك الفترة المأساوية:

«والدتي العزيزة، إذا كنت لم أكتب لك شيئاً منذ وقت طويل، فذلك لأنني كنت أرغب في الإجابة عن ملاحظاتك حول نشاطي السياسي بأسلوب لا يضايقك مطلقاً. ثم إنني عندما كنت أقرأ هذا السيل من الأكاذيب المهينة في صحيفة (كولنر زيتونغ)، وبخاصة حقارات هذا الوغد ويشينهوزِن، وعندما كنت أرى هؤلاء الناس أنفسهم الذين لم يكونوا يرون، أثناء الحرب، في الصحافة الفرنسية إلا أكاذيب، يروجون لكل اختراع بوليسي، ولكل افتراء من صحف باريس المأجورة على الكومون، وكأنها حقائق إنجيلية، لم يكن كل هذا يجعلني في مزاج للكتابة. فقد أثير الكثير من الضجيج حول بعض الرهائن الذين أعدموا على الطريقة البروسية، وبعض القصور التي أحرقت على النمط البروسي، والباقي أكاذيب. لكن الـ 40.000 رجل وامرأة وطفل الذين ذبَّحهم جنود فرساي بالرشاشات بعد نزع السلاح، هؤلاء لا أحد يتحدث عنهم! غير أنك لا تستطيعين معرفة كل ذلك، إذ ليس لديك إلا صحيفتا (كولنر زيتونغ) و(إلبير فيلدر)، فالأكاذيب تجرَّع لك بمعنى الكلمة. مع أنك كثيراً ما سمعت وصف أناس بأكلة لحوم البشر، في حياتك: كأناس توجنيود في ظل نابليون القديم، وغوغاء 1817 و1831، وأناس 1848، ثم تبين أنهم ليسوا على مثل هذه الوحشية، وأن شهوة جامحة مغرضة بالاضطهاد، حملتهم منذ البداية مسؤولية كل هذه القصص الكاذبة التي انتهت دائماً إلى هباء. آمل، والدتي العزيزة، أن تتذكري وتطبقي هذا أيضاً على أناس 1871، عندما تقرئين هذه الدناءات الخيالية. وأنت تعرفين أنني لم أغير آرائي منذ ما

يقرب من ثلاثين عاماً. كما لن تكون مفاجأة لك أنه ما إن تضطرني الأحداث فأنا لا أكتفي بالدفاع عنها بل أقوم بواجبي أيضاً. ولو لم يكن ماركس هنا أو لم يوجد، فما كان هذا ليغير أي شيء البتة. فمن الظلم إذاً تحميله مسؤولية كل هذا. وأنا أذكر بالطبع عندما كانت أسرة ماركس قديماً تدعي بأنني من أفسده، لكن، حسبنا كلاماً في هذا الأمر؛ إذ ما من شيء يمكن تغييره فيه، وينبغي قبوله كما هو، فما إن يسود الهدوء لبعض الوقت، والصياح سيخمد على كل حال، حتى تنظري إلى المسألة بطمأنينة أكبر. من كل قلبي، ابنك فريدريك».

الفصل السادس

المعارك الأخيرة

(كانون الأول / ديسمبر 1871 – آذار / مارس 1883)

يبدو أن كارل نال بغيته، وهو في الرابعة والخمسين. فبينما لا تزال تتردد أصداء دوي الكومون في أوروبا، بات فجأة مشهوراً في كل أنحاء العالم. وإذ اعتبرته الصحف مطلق القدرة، لأنه على رأس المنظمة السياسية الوحيدة المتعددة الجنسيات؛ أخذت تؤسِّس أحزاب وجماعات سرية تستشهد به في ألمانيا وفي فرنسا وفي بريطانيا العظمى وفي إيطاليا وفي الولايات المتحدة وفي روسيا. و(نداؤه للدولية) الأخير، الذي كتب لدى نهاية الكومون، أعيد نشره من قبل كل الصحافة الغربية، ويسارع الصحافيون من العالم أجمع لطرح تساؤلاتهم عليه. و(بيان الحزب الشيوعي) الذي قرئ من قبل آلاف العمال والطلبة الألمان، هو قيد الترجمة إلى الفرنسية والروسية والإنجليزية، على غرار مؤلفه العمدة، (رأس المال) الذي بدأ يجذب أنظار الأكاديميين، ورجال السياسة، والثوريين. وهو يتوفر أخيراً على دخل كافٍ لحياة لائقة له ولزوجته وابنتيه، اللواتي يشكل معهن أسرة شديدة الارتباط، على عكس كل الأقاويل الرائجة.

ومع ذلك فهو ليس سعيداً ولا رائق المزاج: إذ إنه مريض، يعاني شدة الألم أحياناً، ولم يُشف قط من فقد ثلاثة من أطفاله، يخضع للمراقبة والتجسس عليه، ينهكه خصوم آتون سواء من اليمين أم من

معسكره نفسه، تخترقه سهام النقد والافتراءات الموجهة إليه من صحافة لا تتكلم عنه إلا كأنه الشيطان، ويشعر بنقائص عمله وبالصعوبة التي سيلاقيها في إنهائه، مدركاً أنه لا يثير الاهتمام إلا بسبب النفوذ السياسي الذي ينسب إليه، وتتكره الجامعات الألمانية التي طالما ود أن ينتمي إليها، ويستشعر بأن الرأسمالية بمشاركة دولة الرفاهية، يمكن لها أن تحسن مستوى معيشة العمال إلى الحد الذي يرفضون فيه الشيوعية، فتراوده فكرة قطع كل شيء، في نوع من الانتحار الفكري، السياسي والمادي. ذلك أنه متعب من كل شيء؛ بالضبط مثلما كان قبله بسنوات ملاحظ عظيم آخر لعصره، بآراء مخالفة هو: ألكسيس دو توكفيل، المتعب «من حسبان الأبخرة الخادعة المتتابعة هي الشاطئ الموعود، ومن التساؤل غالباً عما إذا كانت هذه اليابسة التي طالما بحثنا عنها موجودة بالفعل، أو إذا لم يكن مصيرنا إلا الضرب في البحر إلى الأبد».

وبالفعل، إن أول ضحية سياسية لأحداث 1870 و1871، هي الدولية: إذ نفي العديد من الناجين بعد المذابح الباريسية وإجراءات القمع الألمانية والنمساوية والروسية. أما الآخرون فيحاولون دخول اللعبة الديمقراطية، كما فعله قبلهم قادة النقابات الإنجليز. ونادرون هم الذين لا يزالون يريدون تغيير المجتمع جذرياً. وأكثر ندرة من بينهم الذين يتطلعون مثله إلى الثورة عن طريق الانتخابات، حيثما يكون ذلك ممكناً.

وأولوية ماركس في نهاية هذه السنة 1871، هي العثور على مأوى وعمل للكومونيين الذين يأتون إلى لندن، وهم عرضة لكراهية الجميع: فحتى أصدقاؤه من اليسار البريطاني يعدونهم كوحوش دموية. إذ توجز جينيشن التي عادت لتوها إلى لندن مع إليانور، بعدما تركتا لورا على الحدود الإسبانية، في 21 كانون الأول / ديسمبر، برسالة إلى كوجلمان، هكذا الصد الذي تلاقيه عندما تبحث عن مساندة للاجئين: «خلال هذه الأسابيع الثلاثة الأخيرة، ذرعت لندن من ضاحية إلى أخرى (وهي ليست مسألة سهلة اجتياز كل هذه المدينة الضخمة) ثم كتبت رسائل حتى

الواحدة صباحاً غالباً. والغاية من هذه التنقلات ومن هذه الرسائل هي العثور على مال من أجل اللاجئين. وجهودنا لم تكن مثمرة حتى الآن. فالافتراءات المثيرة للاشمئزاز لصحافة مأجورة ومخجلة نفثت في الإنجليز الكثير من الأحكام المسبقة ضد الكومونيين، حتى أنهم ينظرون إليهم على وجه العموم بنفور ظاهر. ولا يريد أصحاب الأعمال أية علاقة معهم. والرجال الذين نجحوا في الحصول على عمل باسم مستعار، يسرحون ما إن تكتشف هويتهم. إذ وجد المسكينان السيد والسيدة سيسراييه (ممثل ماركس في باريس، وانتخب في قيادة الكومون لدى إعدام فلورانس) على سبيل المثال، عملاً كأستاذين للفرنسية. لكنهما أبلغا، منذ بضعة أيام، بأنه لا حاجة لخدمات عضو سابق في الكومون وزوجته. وأستطيع الكلام عن هذا من خلال خبرتي الشخصية. فقد قطع آل مونرو (أصدقاء إنجليز لآل ماركس، أعضاء في حركة اليسار) كل علاقة معي بعدما اكتشفوا أنني ابنة «زعيم الحراقين» الذي يدافع عن حركة الكومون اللعينة هذه..».

والواقع أن ماركس بات المرجع الأكبر لآخر الناجين من المتمردين. وخرجت أعماله أخيراً من العزلة التي فرضتها عليها اللغة الألمانية. إذ تظهر في كانون الأول / ديسمبر 1871، بنيويورك الترجمة الإنجليزية الأولى لـ(البيان) في (وود هول أند كلافلينز) تلك الصحيفة الغريبة التي أجرى لتوه مقابلة معها. وبعد شهر تظهر، بنيويورك دائماً، في (السوسياليست) - وهي أسبوعية ينشرها مهاجرون فرنسيون، خلفت (نشرة) الاتحاد الجمهوري باللغة الفرنسية (وهي جمعية أسسها تلميذان سابقان لكابيه، التجأا معه قبل ثلاثين سنة إلى أمريكا، هما ميركادييه، ولوازو) - الترجمة الفرنسية الأولى لـ(البيان). ولم تترجم عن الأصل الألماني، بل عن الترجمة الإنجليزية التي ظهرت قبل شهر في المدينة نفسها.

ويُعترف بماركس عندئذ بالإجماع مرشداً فكرياً لليسار العالمي،

حتى إن باكونين نفسه يُضطر للإقرار في 23 كانون الثاني / يناير، أمام فرع الدولية السويسروماندي، بأن «ماركس هو العالم الاقتصادي والاشتراكي الأول في أيامنا. لقد التقيت كثيراً من العلماء في حياتي، لكنني لا أعرف أعلم ولا أكثر عمقاً منه (..). فهو الذي كتب حيثيات النظام الداخلي بجمالها وعمقها، وهو الذي صاغ التطلعات الغريزية والمجمع عليها لبروليتاريا كل البلدان الأوروبية تقريباً، بتصوره وباقتراحه فكرة إقامة الدولية».

في تلك السنة 1872، ينطلق الاقتصاد العالمي من جديد، لينتقل قلبه من لندن إلى شاطئ الولايات المتحدة الشرقي. وتتطور صناعة الآلات المكنية. ويبدأ المحرك الكهربائي بالبروز. وبعد إضراب عمالي لستة أسابيع، يصبح يوم العمل ذو الثماني ساعات هو القانون، غير المطبق، في الولايات المتحدة، وفي تلك السنة أيضاً، ينشر صديق آل ماركس، هو صامويل بتلر، طوبائيته (في الجانب الآخر من الجبال أو إيروون)، الذي يؤثر كثيراً في ماركس بوصفه لعالم يكون فيه علاج المرض وعلاج الجريمة متعاكسان. فمع أنه سعى طيلة حياته إلى استبدال الاشتراكية الطوباوية بعقيدة علمية، إلا أنه مدرك لأهمية وصف مجتمع مثالي، لم يرد مع ذلك قط أن يبنيه. وفي الآونة ذاتها يعمل سيزان وبيسارو في أوفير - سور - واز، ويحلق أول منطاد موجه ذو مروحة، وينشر جول فيرن (رحلة حول العالم في 80 يوماً): وهكذا تتابع العولمة مسيرتها.

وفي هذه الأثناء، يستأنف الناشر الفرنسي لأوجين سو، موريس لوشاتر، الذي حكم عليه غيابياً بعشرين سنة سجناً لمشاركته في الكومون، في إسبانيا ثم في بلجيكا، مشروع ترجمة (رأس المال) إلى الفرنسية. إذ إن الأول الذي فكر في ترجمته، إيلي ريكلو، والتقاه ماركس، كما رأينا في باريس في 1869، تخلّى عن المشروع للذهاب إلى سويسرا والعمل فيها مع أخيه إليزيه، الجغرافي المستقبلي الشهير ضمن الفيدرالية الجوراسية.

ولنقص في المال، يقترح الناشر الجديد على ماركس نشر كتابه على عدة ملازم، مقابل حقوق مؤلف ضئيلة. وفي 18 آذار / مارس يعطيه هذا موافقته: «سيكون الكتاب، بهذا الشكل، أيسر منالاً على الطبقة العاملة، وهو المهم عندي أكثر من أي شيء آخر». ويخصص كارل عندئذ جل وقته لإعادة كتابة الكتاب الأول، مضيفاً، وحاذفاً، ومعيداً الكتابة بحجة العمل على النسخة الفرنسية، متذمراً من كل المترجمين المقتَرحين، «غير أكفاء، يضيعون وقته؛ (وسَيَسير) أسرع منهم بترجمته بنفسه» والحق يقال، إنه ترجمه بنفسه، بلغته الفرنسية التقريبية.

ولم يعد يرى من أين يمكن أن تنطلق الشرارة التي ستشعل الثورة العالمية. إذ لم يعتقد قط بأنها قد تأتي من إنجلترا، حتى وإن كانت لا تزال مركزاً للرأسمالية وملجأً لرموز الحركة الدولية الكبيرة. فيتقاطر عليها حينئذ الروسيان كروبتكين وستيبنياك، والإيطالي مالاتيستا، والنمساوي ماكس نيتلاو، والألماني رودولف روكير، والناجين الفرنسيين من الكومون، مثل فايان، سيراتيه وفرانكل؛ حتى إن حي سوهو، الأكثر فقراً في المدينة، حيث عاش ماركس ستة أعوام، يلقب الآن بـ«فرنسا الصغيرة».

أما فرنسا، فهي ولوقت طويل خارج اللعبة السياسية، بعد مذابح أيار / مايو 1871؛ ففي 3 أيار / مايو، تُرحل مجموعة أولى من الكومونيين المحكوم عليهم إلى كاليدونيا الجديدة؛ ويُرحل آخرون إلى الجزائر للانضمام إلى عدد كبير من سكان الألزاس واللورين الراغبين في البقاء فرنسيين. ولمنحهم أراضٍ، يصادر الجيش ممتلكات الجزائريين بذريعة اشتراكهم في انتفاضات.

كما لا يمكن أن تكون روسيا هي أيضاً، برأي ماركس، البلاد التي ستندلع فيها الثورة، لأنها تظل بلداً إقطاعياً، يحكمه الكسندر الثاني بيد من حديد، منذ تكاثر الهجومات؛ فقد اعتقد ماركس وكتب أن الاشتراكية ستأتي بعد الرأسمالية وليس في مكانها؛ والحال أن تقدم الرأسمالية

ضئيل في روسيا. علاوة على أن القوى الثورية مكوّنة فيها أساساً من فوضويين وشعبويين لا يفهمون شيئاً في عمله، ويرون أن الرأسمالية كالإشتراكية هما انحرافان غربيان؛ والنارودنيكي (الشعبويون)، بصفة خاصة، يُخطِّئون أطروحاته على أنها صادرة من بلدان «وثنية». مع أنه بالروسية ظهرت في نيسان / أبريل 1872، أول ترجمة أجنبية لـ(رأس المال)، بجهد كبير من قبل روسيين لاجئين إلى لندن، هما لوباتين ودانييلسون (اللذان يقدرهما ماركس بصفة خاصة، مع أن هذا الأخير كان («شعبوياً» في بداياته). ويؤذن للكتاب الذي طبع في ثلاثة آلاف نسخة أن ينشر في روسيا: إذ يكتب الرقيب القيصري، سكوراتوف، الذي يعطي الإذن بالطبع: «مع أن قناعات المؤلف السياسية اشتراكية حصراً، وأن الكتاب بمجموعه من طبيعة اشتراكية، إلا أن أسلوبه لا يجعل منه كتاباً في متناول الجميع؛ علاوة على أن مضمونه رياضي وعلمي صارم؛ ولذا تصرح اللجنة بأن الكتاب مستثنى من كل ملاحقة». مضيفاً: «القليل من الأشخاص سيقرأونه في روسيا. وأقل منهم سيفهمونه». وماركس الذي لا يزال يقرأ الروسية بصعوبة، يهنئ في 28 أيار / مايو 1872، دانييلسون: «لقد عملت الترجمة بيد ماهرة» وبيعت تسعمائة نسخة منذ الشهر الأول، وهو عدد لا يُستهان به إلا أنه لا يشكل نجاحاً جماهيرياً.

وتبقى ألمانيا، حيث لا يزال كارل يضع أملاً في حزب ليبكنيخت وبيبل، المسمى «حزب أزناخ»، بشرط أن يرفضا التعاون مع ورثة لاسال المفتونين، كما كان المحامي الشاب اللامع، بسلطة الدولة.

وأضحى الصراع على السلطة ضمن الدولية التي أصبحت هزيلة، أكثر شدة بقدر ما غدت الرهانات أقل أهمية. وكارل مقتنع بأن باكونين الذي لا يزال يدعي أنه فوضوي، يريد في الحقيقة استخدام ما بقي من الحركة حتى ينظم في كل مكان «إعادة تكوين كل عناصر الدولة التسلطية تحت اسم «الكومونات الثورية» كما يكتب عندئذ إلى إنجلز. حتى إنه بصيغة مؤثرة، يبدي قلقه من رؤية الفوضوي الروسي يبذل

جهده للعمل من «الجهاز التنفيذي قيادة ثورية عامة مكوّنة من أقلية (..) لا تعني وحدة الفكر والعمل لديها شيئاً آخر إلا الخط الواحد والانصياع الأعمى. فنحن وسط اليسوعيين إذاً!». وليس أفضل من هذا قراراً بالاتهام ضد «الحزب الواحد» الذي سيقام - في روسيا بالذات - باسمه، والذي لن يكون في عداد أنصاره أبداً. وحتى إنه لن يساند أبداً تصور حزب الطليعة، لنخبة أقلية، الذي سيتسبب في الكثير من الأضرار بعده. ذلك أن ماركس يرى أن العمل المجدي يتم بوساطة حزب جماهيري، في سياق برلماني حيثما يكون ذلك ممكناً.

فمن المستحيل بالنسبة إليه إذاً، ترك الدولية بين أيدٍ كهذه، إذ يتهم، في حزيران / يونيو 1872، ضمن نداء جديد من المجلس العام (الانشقاقات المزعومة في الدولية) باكونين مرة أخرى بأنه يريد تقسيم الحركة العمالية.

لكن لديه أيضاً هواجس أخرى، لأن صيف 1872 تميز بتضافر ثلاثة أحداث عائلية هامة، مرتبطة جميعاً من قريب بالكومون: فبناته الثلاث مفتونات بثلاثة فرنسيين، وهم ثلاثة صحافيين، وثلاثة كومونيين، ناجين بأعجوبة من مذابح مقبرة البيرلاشيز.

فلورا لا تزال في إسبانيا، صيف 1872؛ وهي تنشّط مع زوجها بول لافارغ هناك معركة الثوريين الملاحقين من قبل سلطة مذعورة بما تقوله السلطات الفرنسية عن الكومون؛ وستفضي هذه المعركة قريباً، برفقة بابلو إغليزياس، إلى تأسيس الحزب العمالي الإسباني.

وجينيشن تلتقي من جديد، بين لاجئي الكومون الذين تهتم بهم، شارل لونغيه، هذا الصحافي الذي قدمه بول لافارغ لها قبل خمس سنوات. فشارل لونغيه الذي كان مدير صحيفة (لاريف غوش) [الضفة اليسرى] التي صارت نوعاً من جريدة رسمية للكومون، وبعدما نجا من الرصاص الذي قتل فلورانس - حب جينيشن الآخر - يأتي لاجئاً إلى لندن ويواصل تودده لها. ويعلنان خطوبتهما.

وإليانور، أخيراً، تقع هي أيضاً في حب كوموني، هو الرابع في الأسرة: الكونت بروسبير أوليفيه ليساغاراي. وهو مناضل جمهوري شديد النشاط في ظل الإمبراطورية، ومفوض الحرب في تولوز، وقائد سرية خيالة في جيش شانزي، وصحافي ومقاتل في ظل الكومون. وقد تخلى عن لقبه ناشراً تحت قصف المدافع ستة أعداد من صحيفة (لاكسيون) [العمل] ثم من (لاتريبيون دو بوبل) [منبر الشعب]. وبعدما أفلت هو الآخر أيضاً من رصاص قوات فرساي، ثم التجأ إلى لندن، يأتي في صيف 1872 هذا، لزيارة ماركس شارحاً له بأن عمل حياته، سيكون رواية قصة أيام الكومون الاثنين والسبعين، والشهادة أمام التاريخ على هذه المذبحة الرهيبة التي شوهتها، كما يقول، الصحافة والروايات الرسمية؛ وسيقوم بتحقيقات، كما يضيف، لدى كل الناجين، في لندن وفي سويسرا، وحيثما يستطيع العثور على منفيين، وسيطلع على كل الوثائق التي يستطيع الكشف عنها. إذ إنه يريد أن يترك أثراً، باعتباره صحافياً ومؤرخاً وطرفاً في الأحداث: إظهار الرواية الحقيقية لمجزرة المقاومين الرهيبة من قبل حكومة رجعية وانهزامية. لأن أيام أيار / مايو، كما يقول «لم تُروَ حتى الآن إلا من قبل المنتصرين». ويُطلِع ماركس على يومياته التي كتبها خلال الأحداث: (أيام أيار / مايو الثمانية خلف المتاريس)؛ وينوي أن يختم كتابه، قائلاً: «إن آخر متراس في أيام أيار / مايو، هو الواقع في شارع رامبونو. ولربع ساعة، يدافع عنه فيدرالي واحد. ويكسر ثلاث مرات سارية علم جنود فرساي. ونظراً لشجاعته، ينجح آخر جنود الكومون في الإفلات». وهذا المقاتل المجهول هو ليساغاراي نفسه الذي أفلت نتيجة لمصادفات غريبة، من المذابح الأخيرة، على غرار لونغيه ولافارغ.

وكارل مأخوذ. فالرجل هادئ، قوي ودقيق. وهو يفهم بالتأكيد أن «ليسا» أكثر استقلالاً، وأكثر قرباً من الفوضويين من أن يصبح أحد أتباعه؛ لكنه يعرف أن «الكونت الأحمر» قادر على كتابة إحدى هذه

الشهادات التي لا قيمة لأية نظرية اجتماعية بدونها؛ وكارل متأكد من أنه سيجد فيها تأكيداً لنظريته حول الكومون، كما عرضها في نصه الأخير المتمثل بالنداء الثالث. كما يرى فيها أيضاً - وعلى وجه الخصوص ربما - فرصة لإظهار الحقيقة ضد دعاية تستهدفه هو في المقام الأول، مشيرة إليه كعميل بروسي تارة أو كزعيم الكومون السري تارة أخرى. ويريد هذه الحقيقة منشورة بأسرع ما يمكن، ليس بالفرنسية فقط بل أيضاً بالألمانية والإنجليزية. ولذا يقترح على ليساغاراي المذهول، أن يشرف بنفسه على ترجمة كتابه المستقبلي إلى الألمانية، ويعهد إلى ابنته الصغرى إليانور المزدوجة اللغة بترجمته إلى الإنجليزية. وستجري الترجمتان، كما يقول، في الوقت ذاته الذي ستتقدم كتابة النص. ولم تكن إليانور عندئذ إلا في السابعة عشرة؛ وهي بهيئتها الغلامية أقل جمالاً من لورا، لكنها أجمل من جينيشن. ولا تزال تلميذة في ثانوية حيهم، ساوث هامبستيد، حيث تولع بالمسرح وبالسياسة. وباعتبارها متمردة في كل شيء، فهي أيضاً الوحيدة في الأسرة المهتمة باليهودية التي بدأت تدعيها لنفسها «لاستعادة جذورها» رغماً عن أمها التي ظلت ملحدة بإصرار. أما أبوها - الملحد أيضاً - فيرق قلبه لكل ما تصنعه ابنته الصغرى التي طالما ذكرته بابنه إدغار.

فينهمك ليساغاراي إذاً في العمل، مسروراً بالعرض، مع الأب والابنة في بيت كارل. لكن إليانور سرعان ما تقع في حب «ليسا» الذي لا يثبط من همتها. وكارل معارض لهذه العلاقة: فسن ليساغاراي ضعف سن إليانور. إذ يكتب إلى إنجلز «من أجل خير البنت، علي التصرف بكثير من الحذر واليقظة». بصرف النظر عن أن «الباسكي المتقد» كما يسميه ماركس: مشهور بالإغواء.

ثم يستغرق العمل السياسي ماركس من جديد: فباقتراب بداية شهر أيلول / سبتمبر، الذي يجتمع فيه مؤتمر الدولية كل عام، يتوتر الوضع في لندن بينه وباكونين.

ومكان انعقاد المؤتمر هو أول موضوع للاحتكاك: فالفديراليات القريبة من الزعيم الفوضوي – الجوراسيون – يودون أن يلتئم المؤتمر في سويسرا حيث يشعرون بأنهم في أرض مستولى عليها، وهو ما يرفضه الآخرون، خشية من «تأثيرات محلية ضارة». ويقام المؤتمر أخيراً في لاهاي، أحد الأماكن النادرة التي لا تزال مفتوحة لليسار. فيكلف «الجوراسيون» فيه اثنين منهم لتقديم مقترحهم، مع تعليمات بالانسحاب إذا لم يحصل على الأكثرية.

ويشعر كارل بأهمية المؤتمر الكبرى: فعلى الرغم من كل إشعاعه، وبسبب هذا الإشعاع ولا شك، تأخذ الدولية في الاحتضار. إذ إن الكثير من قادتها سقطوا برصاص جنود فرساي؛ وغالبية الباقين في السجن، في شتى البلدان الأوروبية – بمن فيهم أفضل أصدقائه، ليبكنيخت وبيبل، في ألمانيا، لأنهما نددا بالنزعة التوسعية البروسية. وبالفعل، لم يبلغ إلا ستة وخمسون مندوباً بحضورهم. فيكتب كارل، قبل بضعة أيام من الافتتاح، إلى كوجلمان، الذي سيحضر المؤتمر مندوباً عن الألمان: «ستقرر هناك حياة الدولية أو موتها» ويقرر ماركس لأول مرة منذ إنشاء المنظمة حضوره. حيث يلتقي ثانية بول لافارغ، مندوب إسبانيا والبرتغال الذي في طريقه إلى لندن للإقامة فيها، يصل إلى لاهاي مع زوجته وابنيهما، في 1 أيلول / سبتمبر، وهو ما تؤكده سجلات الشرطة والفندق التي تتحدث عن وجود «كارل ماركس وزوجته وابنته لورا وزوجها بول لافارغ». وربما كانت تلك فرصة لكارل: يذهب فيها ليس بعيداً عن لاهاي، لرؤية اثنتين من أخواته، وخالته السيدة فيليبس، وابنة خالته العزيزة نانيت التي أضحت مناضلة في الدولية؟ وربما لهذا السبب حرصت جيني على مرافقته؟

ما إن يبدأ المؤتمر – الذي يتابعه بعض الصحافيين –، حتى يطلب باكونين إلغاء قرارات اجتماع لندن في السنة السابقة التي توصي أعضاء الدولية باتباع السبل الديمقراطية. فباكونين يرى أن الثورة وحدها هي

التي لها معنى حيثما تندلع. ويقترح الفوضوي أيضاً من جديد سحب الجوهري من صلاحيات المجلس العام ومنحها للفدراليات الوطنية. لكن ماركس في المقابل يتهم باكونين بـ«اختراق» الدولية من أجل قلب «الممثلين الشرعيين للشغيلة في المجلس العام». وبعد ثلاثة أيام من مناقشات مريرة، يجري الاقتراع. وبمساندة آخر قادة الكومونيين الآتين من لندن، فرانكل وفايان، يحصل كارل في البداية على تأكيد المذهب الذي تُقرر في لندن، أي: إن الاستيلاء على السلطة سيتم بالسبل البرلمانية حيثما يكون ذلك ممكناً؛ ويجب بالتالي التجمع في حزب والذهاب إلى الانتخابات تحت رايته، دون تحالف مع الأحزاب البورجوازية أو الليبرالية. وجرى تعديل المادة 7 من نظام الدولية الداخلي على الشكل التالي: «إن البروليتاريا في صراعها ضد السلطة الجماعية للطبقات المالكة، لا تتمكن من التصرف كطبقة إلا بأن تتجمع هي نفسها في حزب سياسي متمايز، معارض لكل الأحزاب السابقة التي شكلتها الطبقات المالكة». كما أبقي على صلاحيات المجلس العام. لكن الفوضويين لا ينسحبون مع ذلك ويعيقون المناقشات في جدالات إجرائية لا نهاية لها.

ومرة أخرى، لا يتذوق ماركس متعة انتصاره. فلسأمه من الانشقاقات، ولشعوره بالعياء من الجهود التي تتطلبها اجتماعات السلطة المركزية الأسبوعية على الأقل، منذ سبعة أعوام، ولرغبته في إنهاء المجلدين الباقيين من (رأس المال)، هذا العمل العظيم الذي يشعر بأنه يفلت منه، كل ذلك يجعله يدرك أن الدولية قد انقضى زمنها. إلا أنه لا يتخيل لحظة واحدة ترك ما بقي منها بين يدي شخص آخر، وبخاصة بين يدي فوضوي. ولذا يقرر تجميدها وضرب منزلة باكونين في آن حتى لا يستطيع الاستيلاء عليها. وينفذ قراره، كما في كل مرة، بفعل مباغت.

فقبل اختتام المؤتمر بقليل، وفي غمرة اندهاش الجميع، يرمي بسهمين قاتلين: أحدهما ضد الدولية نفسها، والآخر ضد باكونين.

بداية، وبينما كان المجتمعون يتهيئون للاقتراع على إبقاء مقر الدولية في لندن للسنة الثامنة على التوالي، يقترح إنجلز، في خطاب يبعث على الذهول، كتب جله ماركس - الذي كان في القاعة -، نقله.. إلى نيويورك! فحتى لو كان قلب العالم الرأسمالي ينتقل هذه الآونة إلى الجانب الآخر من الأطلسي، إلا أن الأمر لم يكن كذلك فيما يتصل بالحركة الشيوعية التي ليس لها تقريباً أي وجود بين الطبقة العاملة في الولايات المتحدة. ويدرك كل من كان في القاعة أن انتقال كهذا يعني في الواقع الحكم بإعدام الدولية التي «كان من الممكن تحويلها إلى القمر أيضاً»، كما يهمس أحد المشاركين. وحتى أصدقاء كارل يترددون إزاء هذا المقترح: فلماذا يحرص على تحطيم الدولية في الوقت الذي حصل على التصويت لصالح إبقاء دوره المركزي؟ ويرفض الكثيرون تأييده، فيضطر مع فريدريك إلى إقناعهم واحداً واحداً. ولا يتم تبني مقترحه في النهاية إلا في ساعة متأخرة من الليل بستة وعشرين صوتاً مقابل ثلاثة وعشرين، وامتناع ستة عن التصويت. فيعمل كارل عندئذ على تعيين أحد خلصائه رئيساً للأمانة العامة، هو فريدريك ألبيرت سورج، الذي كان التقاه في كولونيا 1849: ويعمل أستاذاً.. للموسيقى!

لكنه لا يعتزم أن يعود ابتعاد الأمانة العامة بالفائدة على باكونين. ففي اليوم التالي لهذا الاقتراع، وهو اليوم الأخير للمؤتمر، يكشف بأسلوب مسرحي في الجلسة أن باكونين كان وقع في 1869، عقداً لترجمة (رأس المال) إلى اللغة الروسية مقابل 300 روبل، وأنه احتفظ بالعربون الذي دفعه الناشر دون القيام بالترجمة. وهي ليست إلا خطيئة عرضية، يرتكبها دائماً العديد من المؤلفين، لو لم يفاقمها باكونين بتهديد الناشر المذكور بالموت! ويبرز كارل بالفعل أمام المؤتمر رسالة موقعة من نيتشاييف: مساعد باكونين، موجهة إلى ليو بافين، الوسيط بين باكونين والناشر، يهدد فيها هذا الأخير صراحة بالموت، باسم «لجنة ثورية» إذا لم يتخل إلى باكونين، دون مقابل عن الـ 300 روبل المدفوعة! ويحتج

باكونين ببراءته، مدعياً عدم معرفته بهذه الرسالة، لكنه لا يقنع أحداً تقريباً؛ ويُطرد هكذا من الدولية بسبعة وعشرين صوتاً مقابل سبعة وامتناع واحد وعشرين عن التصويت.

وكان ماركس في الواقع سمع عن هذه القصة منذ تموز / يوليو 1870، من لوباتين؛ أحد مترجمي (رأس المال) إلى الروسية الذي بذل جهده، لدى زيارة له إلى جنيف، لإقناع باكونين بأن نيتشاييف كان نصاباً، وعندما أخفق في هذا، ذهب لرؤية ليوبافين الذي كان كلمه عن رسالة تهديد أرسلها نيتشاييف؛ أرسلها له ليوبافين فيما بعد مرفوقة بهذه الكلمة التي تنم عن الحذر: «كان يبدو لي آنذاك مؤكداً أن باكونين مسؤول عن هذه الرسالة، لكنني وأنا أنظر اليوم إلى الأمر بهدوء، أدرك أنه لا شيء يبرهن على ذلك، وأن من الممكن أن تكون الرسالة أرسلت من قبل نيتشاييف دون علم باكونين». لكن اكتشاف رسالة فيما بعد من باكونين إلى نيتشاييف سيؤكد أن إنذار نيتشاييف الناشر بالموت تم بموافقته فعلاً.

بُعيد المؤتمر، يغادر سرج إلى أمريكا دون أية وسيلة، وحتى دون أي أرشيف. ولا يأخذ معه إلا مساعد واحد هو تيودور كونو، وهو مهندس ألماني مندوب هو أيضاً إلى مؤتمر لاهاي، سيكتب في مذكراته التي ستنشر بعد ستين عاماً: «أجهل ما صارت إليه وثائق مؤتمر لاهاي وكل وثائق المؤتمرات التي سبقته. لكنني متأكد من أنها لم تكن في حقيبة سرج الصغيرة عندما ركبنا (الأتلانتيك) في ليفربول. كما أنني لم أرها ثانية عندما نُقل المجلس العام إلى نيويورك فيما بعد».

والمصادفة الغريبة، هي أنه في هذا الخريف للعام 1872 ذاته، وبينما ينتقل مقر الدولية إلى نيويورك، كان هوراس غريلي، مؤسس صحيفة (نيويورك دايلي تريبيون) – وهي الصحيفة التي كان كارل مراسلها في لندن – المرشح الديمقراطي لرئاسة الولايات المتحدة! وبعد شهرين سيُهزم هزيمة نكراء من قبل أوليس غرانت المنتصر الهمام في

حرب الانفصال الذي انتخب لفترة رئاسية ثانية بسهولة، على الرغم من الفضائح المالية التي أحاطت به.

بعد أسبوع من مؤتمر لاهاي، وبينما يستعيد الجميع هذه المفاجآت التي نقلتها الصحافة العالمية على نطاق واسع، تجتمع الفيدرالية الجوراسية - الموالية دائماً لباكونين على الرغم من طرده - في سانت إيميه بسويسرا، مع فيدراليتي إسبانيا وإيطاليا، وعدة فروع فرنسية وفرعين من أمريكا، لإنشاء منظمة دولية جديدة فوضوية بصراحة، تستهدف «تحطيم كل سلطة سياسية بالإضراب الثوري»، ولكن دون عنف. ويرفض القرار النهائي لهذا الاجتماع «خديعة أوراق الاقتراع» مضيفاً: «لا يمكن أن يكون موضوع تطلعات البروليتاريا إلا إقامة تنظيم وفيدرالية اقتصادية مطلقتي الحرية، يؤسسان على عمل ومساواة الجميع، ومستقلين تماماً عن كل حكم سياسي (..). ذلك أن تقويض كل سلطة سياسية هو أول واجبات البروليتاريا». وكأننا هنا إزاء خطاب لبرودون أو لستيرنر أيضاً، رائد الفوضوية هذا الذي كان ماركس هاجمه، قبل ثلاثين عاماً، في (الإيديولوجية الألمانية): فالتعارض بين اليسار الذي يحلم بحيازة السلطة، واليسار الذي يحلم بالقضاء عليها الذي كان حاضراً في نقاشات الثورة الفرنسية، يعود بقوة.

بعيد هذا الاجتماع، يموت في 15 أيلول / سبتمبر 1872، بنورمبرغ، أحد معلمي ماركس، وكان هوجم أيضاً في (الإيديولوجية الألمانية)، هو: لودفيغ فويرباخ. ويشيعه إلى مقبرة سانت - جان، بعض الأعيان، والقليل من الطلبة، وآلاف العمال، جلهم مناضلون من حزب الشغيلة، أي حزب ورثة لاسال الذي انضم فويرباخ لتوه إليه.

وفي اليوم ذاته، ينشر ماركس في (لاليبرتيه دو بروكسل) مثالاً يلخص النتائج التي يستخلصها من مؤتمر لاهاي. فهذا المؤتمر، كما يقول «نادى بضرورة أن تحارب الطبقة العاملة في الميدان السياسي والميدان الاجتماعي على السواء، المجتمع القديم الذي يتداعى». يتلو هذا سهم

أخير صوب إلى باكونين: «لقد تشكلت مجموعة في وسطنا، تطالب بامتناع العمال عما له صلة بالسياسة، فحَرِصْنا على أن نقول كم نعتبر هذه المبادئ خطيرة ومؤذية لقضيتنا».

وفي 5 تشرين الأول / أكتوبر، يرسل باكونين رداً إلى الصحيفة نفسها، من ملجئه بزيورخ، يحمل فيه بعنف على ماركس، مستشعراً مثل ماركس قبله بقليل، البروز المحتمل، بحجة «ديكتاتورية البروليتاريا» لديكتاتورية حزب واحد حقيقية: «إن الإدعاء بأن مجموعة من الأفراد، حتى لو كانوا الأكثر ذكاءً والأسلم نية، سيكوّنون الفكر والروح والإرادة الموجهة والموحدة للحركة الثورية وللتنظيم الاقتصادي للبروليتاريا في جميع البلدان، هو هرطقة مضادة للعقل السليم وللتجربة التاريخية، حتى إن المرء ليتساءل باندهاش كيف استطاع رجل بذكاء ماركس أن يتصورها». وهكذا يعي ماركس وباكونين الخطر الذي تتضمنه معركتهما، لكن كلاً منهما يتهم الآخر بأنه المسؤول الوحيد عنها.

بعيد عودة لافارغ وزوجته مع ماركس إلى لندن، يفقدان طفلهما الثاني، الذكر الأخير، الملقب «شنابس» أو «فوشترا»، الذي كان ماركس وجيني شديدي الحب له، فتصاب العائلة بالانهيار.

وبعد بضعة أسابيع تتزوج جينيشن، في 10 تشرين الأول / أكتوبر بلندن، شارل لونغيه. وسيقيم الزوجان الشابان في أكسفورد، بينما يقيم لافارغ وأسرته في العاصمة البريطانية، في 27، ساوث هل بارك؛ ضارباً صفحاً عن ملجئهما الإسباني. أما إليانور، المسماة «توسي» أيضاً، الوحيدة الآن مع والديها في المنزل الواسع، فلا تزال تلح عليهما حتى يوافقا على خطبتها إلى ليساغاري؛ لكن جيني وكارل يرفضان. فتثور الفتاة وتغضب ويصيبها الانقباض. ولا شيء ينفع معها. وعندئذ يوجهها كارل إلى المسرح حتى يسري عنها، كما سرّى عن جينيشن لبعض الوقت. وهكذا تنطلق إليانور فيه بشغف، مركزة اهتمامها على إبسن. لكنها تواصل اللقاء مع «ليسا» الذي لا تنظر بقية العائلة إليه بعين الرضا. إذ

تشكو إليانور في رسالة إلى أختها جينيشن بشهر تشرين الثاني / نوفمبر، من موقف بول لافارغ المزعج إزاء الرجل الذي تحب.

ويطلع بول لافارغ حماه على آلة لسحب المخطوطات، اخترعت من قبل أحد أصدقائه - وهي إحدى أول آلات تصوير المستندات. وتدل بعض المصادر على أن كارل اهتم بها - فكم من وقت سيوفر لو عملت! حتى إنه استثمر فيها، كما يقال، لكن المنشأة تزول بسرعة نتيجة خلافات حول ملكية براءة الاختراع. وسنرى أن آلة كهذه، ستؤدي بعد عشرين سنة الدور الأكبر في التحقق من مخطوطات ماركس..

وينوي كارل لدى عودته من لاهاي العودة إلى مخطوطاته. وهو واعٍ أكثر من أي وقت مضى بنقائص الكتاب الأول من (رأس المال). إذ يعلم بأن القيمة - العمل لسلعة ما، لا يعكسها ثمنها في السوق، وبأنه حتى «تحديد سعر السلع يبتعد بانتظام عن قيمتها، وليس على شكل تذبذب»، وهو ما يجعل التحقق التجريبي من نظريته في فضل - القيمة مستحيلاً. فيعيد الكتابة ويشطب ويمزق. ويقرأ كثيراً، باحثاً، مثل ديمقريطس أطروحته، عن حقيقة نظريته في الملاحظة التجريبية. ويملأ أكثر من خمسين كراسة - أي ما يقرب من ثلاثة آلاف صفحة ملزوزة - بملاحظات حول شتى الموضوعات. ومن ثم يعود إلى الكتاب الأول فيعد له ثانية لطبعة ألمانية جديدة وللترجمة الفرنسية التي سينجزها المدعو جول روا الذي يحتمل نزوات كارل العابرة.

ومرة أخرى، في 1873، تقنعه أزمة مالية، اندلعت هذه المرة في الولايات المتحدة لدى إفلاس مصرف جاي كوك، بقرب انهيار ممكن للرأسمالية، سيعفيه من ضرورة إنهاء المجلدات الثلاثة من مؤلفه. ولذا يركز اهتمامه فقط على الطبعة الألمانية الجديدة للكتاب الأول، التي تبدو له ملحة، ويكتب لها كلمة استدراك ختامية، يُستشف منها الرغبة في نبذ كل نظرية عندما تسنح الفرصة للفعل، والانزعاج من عدم العثور على حل لمشكلة الانتقال من القيمة إلى السعر، التي تتملكه منذ وقت طويل: «لا

يمكن أن يظل الاقتصاد السياسي علماً إلا بشرط أن يظل صراع الطبقات كامناً أو لا يبدو إلا من خلال ظواهر منعزلة». وعندما تبرز أزمة سياسية «لا يعود الأمر متصلاً بمعرفة ما إذا كانت هذه النظرية أو تلك صحيحة، بل ما إذا كان صداها سيئاً أو حسناً لدى الشرطة، وما إذا كانت نافعة أو ضارة لـ(رأس المال)» بعبارة أخرى، إن التحقق من نظرية ما، لا يتم بالقياس إلى معطيات الماضي، ولا بحسب تماسكها المنطقي، إنما بحسب فاعليتها السياسية. فليست النظرية صحيحة إلا إذا كانت فعالة: وهو ما يسمح له بالانتهاء عرضاً من المأزق الذي يجد نفسه فيه، فمع أن نظريته غير قابلة للتحقق منها، إلا أنها صحيحة إذا ما تبين أنها مفيدة للطبقات التي من المفروض عليها أن تخدمها. والفعل، في هذه الحال، هو الوحيد الذي سيسمح بالتحقق منها.

عندما تنشر هذه الطبعة الثانية من الكتاب الأول، لدى الناشر ذاته في هامبورغ، يرسل منها نسخة إلى شارلز داروين الذي يكبره بتسعة أعوام، ونشر لتوه (التعبير عن الانفعالات لدى الإنسان والحيوان). يكتب كارل له إهداء يقدم فيه نفسه كـ«أحد معجبيه المخلصين». فيبلغه داروين باستلام الكتاب بأدب معتذراً بانعدام الكفاءات اللازمة لقراءته لديه. وسيعثر على نسخته وقد قطعت منها 104 ورقة (من 802). وهكذا لم يلاحظ داروين التنويهات الثلاثة بأعماله في الصفحات 352، 385، 386.

ولدى كارل عندئذ هواجس أخرى، لأن معركته ضد الفوضويين لم تنته بعد. فعلى الرغم من نزع الثقة عن باكونين، تسحب عدة فيدراليات واحدة بعد الأخرى من الأمانة العامة الجديدة الموجودة في نيويورك كل حق في الإشراف عليها؛ حتى أن بعضها يصوت لإلغاء هذه الدائرة. فيكتب ماركس في 12 شباط / فبراير 1873: «إن هؤلاء الناس (أصدقاء باكونين) في مركز مؤامرة تستشري»؛ ويحاول الحد من الخسائر بتعيين أحد المخلصين له -- ضد أكثرية الأعضاء أحياناً - على رأس كل منظمة وطنية. وفي 27 نيسان / أبريل، يجمع الجوراسيون - وهم دون باكونين

الآن – هذه المرة سبع فيدراليات أوروبية للدولية (فيدراليات إنجلترا وبلجيكا وهولندا وسويسرا وإسبانيا وفرنسا). ومن بين المندوبين، صحافي فرنسي شاب، هو جول باسيل، الملقب «جول غيد»، المهاجر واللاجئ في سويسرا، ولم يكن عاش في باريس أثناء الكومون. فينادون من جديد بإلغاء مجلس الدولية العام، وباستقلال الفيدراليات الذاتي. وفي هذه الأثناء، يكتب باكونين المقهور بعد طرده في لاهاي رسالة هجائية بعنوان (الدولة والفوضوية) مستلهمة من برودون أكثر من أي وقت مضى، يهاجم فيها هؤلاء الذين يبدأ في تسميتهم باحتقار «الماركسيين»: «من يقول دولة، يقول هيمنة بالضرورة، وبالتالي عبودية (..). ومهما كانت الزاوية التي ننظر منها، فإننا نصل إلى النتيجة المنفرة ذاتها، ومفادها: حكم الغالبية العظمى للجماهير الشعبية من قبل أقلية محظية. لكن هذه الأقلية ستتكون، كما يقول الماركسيون، من عمال، وإذاً بالتأكيد من عمال سابقين، لكنهم ما إن يصبحوا حكاماً حتى يتوقفوا عن كونهم عمالاً، ويأخذون في النظر إلى عالم البروليتاريا من علو الدولة، ولن يعودوا يمثلون الشعب، إنما أنفسهم، ويطالبون بحكمه».

وفي الآونة ذاتها، يعيد ماركس بحنق قراءة مخطوط ترجمة (رأس المال) الفرنسية التي أنجزها لتوه آخر المترجمين، جول روا. وهو ليس راضياً عنها، فيفصح عن ذلك إلى جينيشن التي تكتب في 3 آيار / مايو، للدكتور كوجلمان، قائلة إن والدها يجد الترجمة أدبية أكثر من اللازم «متكلفة وساذجة».

لكن على كارل أن يواجه عندئذ أزمة جديدة: ففي أيار / مايو، وبينما تضع جينيشن في لندن طفلها الأول، المسمى شارلز «كارل»، تُخطب إليانور، دون موافقة والديها، للكونت بروسبير أوليفيه ليساغاراي الذي لا يزال يأبى حمل لقبه، تضامناً مع الثوريين. فتطلب جيني من زوجها عمل كل ما بوسعه للحيلولة دون هذا الارتباط. حقاً، يقول كارل في نفسه بغضب وفخر في آن، إن الصغرى التي احتضنها أكثر من ابنتيه

الأخريين عقب موت إدغار، لأنها كانت تبدو له نسخة عنه، تفلت منه. وفي حزيران / يونيو، وحتى يبعدها عن «ليسا»، يرغمها على مرافقته في العطلة إلى برايتون، ويوظفها معلمة للفرنسية لدى العائلات الإنجليزية الكبيرة التي تمضي الصيف هناك، حيث تتعرف على الشقيقات بلاك الثلاث (كليمانتينا، كونستانس، غراس) وعلى الشاعرة آمي ليفي، لكنها لا تتخلى عن ليساغاراي.

وفي تموز / يوليو، يبلغ النزاع مع ابنته حداً يسبب له المرض، حتى إن الشائعات تسري بأنه يحتضر. بل إن صحفاً مختلفة أعلنت موته. ويفحصه الدكتور إدوارد غومبر، طبيب إنجلز، ويشخص مرضاً في الكبد، فيخضعه لحمية صارمة طالباً من الاقتصار على أربع ساعات يومياً للنشاط الفكري الذي يخصصه ماركس لمراجعة الترجمة الفرنسية للكتاب الأول من (رأس المال)، ولتنسيق ما يأمل بأن يكون قريباً الكتاب الثاني.

وفي أيلول / سبتمبر، يشكل المؤتمر السنوي للدولية، المنعقد هذه المرة في جنيف، صورة مشوهة حقيقية: فمن 41 مندوباً، 39 سويسريون! والفيدرالية الإنجليزية لم تفلح حتى في جمع ما يكفي من المال لدفع تكلفة سفر مندوب واحد؛ وكارل لا يذهب لحضوره؛ كما لا يحضره أي فرنسي أو برتغالي أو ألماني أو إسباني أو إيطالي. وقدم ألبيرت سورج، الأمين العام الجديد، من نيويورك. ورئيس المؤتمر هو زعيم نقابة عمال البناء في جنيف، العتيد جان – بيير بيكير الذي يقرأ تقريراً موجزاً، كتبه إنجلز غير الحاضر أيضاً، حول وضع الدولية. لكن المؤتمر الوهمي وغير المكترث يناقش الأنظمة الداخلية، ويؤكد سلطات المجلس العام، مبقياً على المقر في نيويورك. ويحدد موعد انعقاده القادم بعد عامين. وفي 12 أيلول / سبتمبر، وبينما كان يعود المندوبون إلى بلادهم، يكتب إنجلز إلى سورج: «إن الدولية القديمة انتهت تماماً ولم يعد لها وجود»؛ وهو ما يؤكده ماركس بعد أسبوعين حينما يكتب إلى سورج نفسه: «كان هذا

المؤتمر فشلاً ذريعاً (..). وستفضي الأحداث وتطور الأشياء، من نفسها إلى انبعاث الدولية بشكل أكثر كمالاً. وحسبنا، في غضون ذلك، ألا نترك الصلات مع أفضل العناصر في شتى البلدان تنزلق من أيدينا تماماً، وألا نكترث بقرارات جنيف المحلية، وباختصار تجاهلها ببساطة. وأفضل قرار اتخذ فيه، هو تأجيل المؤتمر إلى ما بعد عامين، لأنه يسهل أسلوب العمل هذا. علاوة على أنه يسمح بقطع الطريق على حكومات القارة، لأن هذه الحكومات لن تتمكن من استخدام شبح الدولية في حملتها الصليبية الرجعية الوشيكة. فمن الأفضل بالفعل، أن يعد البورجوازيون في كل مكان هذا الشبح ميتاً».

وينظر كارل في هذه الرسالة بعيداً: فبعد وفاته بوقت طويل، وحتى اليوم، ستنبعث الدولية الاشتراكية بالفعل بعدة أشكال وعدة أسماء؛ والكثير من الأحزاب الشيوعية أو الاشتراكية ستنتمي إليها وستكون - بل ولا تزال - في السلطة.

أما باكونين الذي أضناه طرده، ثم إبعاده من قبل أصدقائه الذين أخذ يسبب لهم الحرج منذئذ، فيستقيل بعد شهر من الفيدرالية الجوراسية تاركاً رسالة غريبة تشكل، بحجة الحفاظ على ماء وجهه، أول نداء لما سيصبح «الثورة الثقافية البروليتارية»: «إنني من خلال نشأتي ووضعي الشخصي، وليس من خلال ميولي واتجاهاتي ولا شك، مجرد بورجوازي، ولا أستطيع من حيث كوني كذلك إلا القيام بالدعاية النظرية بينكم، والحال أن لدي القناعة بأن زمن الخطابات النظرية الكبرى، المنطوقة أو المطبوعة، قد انقضى. فخلال التسع سنوات الأخيرة، طورنا ضمن الدولية من الأفكار أكثر مما يلزم من أجل إنقاذ العالم، إذا ما كانت الأفكار وحدها قادرة على إنقاذه، وأتحدى أياً كان أن يخترع أفكاراً جديدة. ذلك أن الزمن لم يعد للأفكار، بل للوقائع والأفعال (..). ولو كنت شاباً لانتقلت إلى وسط عمالي، وبمقاسمة إخوتي حياتهم الشاقة، كنت أسهمت معهم في هذا التنظيم الضروري» وسيلهم هذا النص، كأسلوب

لبق في تسويغ طرده، بعد الاتهام المشين الموجه له، الكثير من التوجهات اللاحقة لـ«العودة» إلى البروليتاريا بين المثقفين الأوربيين الذين يودون «الاستقرار» عمالاً، وبين مناضلي الثورة الصينية.

في مستهل 1874، وبينما قلب مونيه منذ عامين الأوضاع في الرسم مع لوحته (انطباع، شروق الشمس)، يمضي ماركس وقتاً طويلاً برفقة إليانور: إذ يسعى إلى إقناعها بقطع علاقتها مع «ليسا»، مسبباً الغضب والحزن والانهيارات المتكررة لدى «توسي» التي يتنازعها حبها الكبير لأبيها، وحبها الجارف الذي تكنه لهذا الفرنسي الشديد الشبه به.

وفي 10 شباط / فبراير، يرحب كارل بأول اختراق سياسي هام لحزب شيوعي على النمط الذي صودق عليه في لندن منذ ثلاث سنوات: فالحزب العمالي الاجتماعي - الديمقراطي الذي أسس في 1876 بإيزيناخ في ألمانيا، ويقوده الآن ويلهلم ليبكنيخت الخارج لتوه من السجن، يصبح منظمة كبرى، المعادلة حتى في انتخابات الرايشستاغ للجمعية العامة للشغيلة التي أسسها لاسال قبلها بخمس سنوات. وهكذا يجد المستشار بسمارك نفسه في مواجهة حزبين عماليين قويين يتطلعان كلاهما إلى السيطرة على الدولة لوضعها في خدمة إصلاحات أكثر أو أقل جذرية. ويأخذ ماركس عندئذ على قادة حزب لاسال تميزهم بـ«نزعة إنسانية بورجوازية (..) لا تتلاءم مع الأهداف الثورية الحقيقية» واكتفاءهم بالمطالبة بتوزيع أفضل للثروات، دون إعادة النظر في بنية الإنتاج. فبالنسبة إليه، كما يقول، «ليس توزيع الدخول إلا مظهراً لنمط الإنتاج»؛ ومن المستحيل إذاً إعادة توزيع عادل للثروات ضمن نمط إنتاج رأسمالي.

في 23 آذار / مارس، ترجو إليانور، التي يلزمها انهيار عصبي الفراش منذ ثلاثة أسابيع، أباها من جديد، الموافقة على خطبتها لليساغاراي. وفي هذا الشهر ذاته، يموت في لندن آخر أطفال لورا، وهو أنثى، فيصاب كارل وجيني بالقنوط. ويضع مؤلف (رأس المال) القلم.

ومن منتصف نيسان / أبريل إلى 5 أيار / مايو، يذهب، لمعاناته من

الأرق ومن نوبة لداء الدمامل، إلى رامسغات، للإقامة في منزل يملكه إنجلز، مع جينيشن وابنها شارلز – فيلسيان، آخر من بقي على قيد الحياة من أحفاد ماركس. وعلى الرغم من «الهواء الرائع» والحمامات والنزهات والحمية، إلا أن كارل يبدي قلقه على صحة الطفل شاكياً من أن «حالته أسوأ مما كانت في لندن» وفي حزيران / يونيو، ينصحه الدكتور غومبر الذي أرسله إنجلز، بالذهاب للاستشفاء بعيداً، في كارلسباد، ببوهيميا النمساوية. فيقرر الذهاب إليها مغتنماً الفرصة لاصطحاب إليانور حتى يبعدها عن «ليسا». وستبقى جيني من جهتها في لندن.

في 20 تموز / يوليو، يقضي ابن جينيشن، شارلز – فيليسيان لونغيه، نحبه في شهره الحادي عشر. ولم يعد لكارل أحفاد. وتتضاعف آلامه.

ولخشيته كعديم للجنسية من أن ترجعه السلطات النمساوية، يلتمس من جديد – كما فعل من قبل في 1869 – الحصول على الجنسية البريطانية. ويجمع لهذا «شهوداً على حسن سلوكه» و«ضامنين» أمام ضابط وزاري، ينقل طلبه للتجنس إلى وزارة الداخلية في 1 آب 1874. لكنه لا ينتظر الجواب، إذ تبلغه النمسا بأنه يستطيع الدخول إلى أراضيها كعديم للجنسية؛ ولهذا، عندما رُفض طلب التجنس من قبل وزارة الداخلية في 26 آب / أغسطس، كان ماركس وإليانور غادرا إلى كارلسباد، حيث التحق بهما كوجلمان وأسرته. وطبقاً لروايات الشهود، كان الأب والابنة يتبعان بدقة وصفات الاستشفاء. وإذ علم الأرستقراطيون والبورجوازيون الكبار، بوجود زعيم الدولية المخيف، ورئيس الكومون الذي أرعب أوروبا بأسرها، أخذوا يسارعون لرؤيته وهو يأكل ويشرب مثل كل الناس.. ويأتي من كل صوب صحافيون ورجال سياسة لاستشارته؛ ومنهم بيبل، العامل المؤسس مع ويلهلم ليبكنيخت لحزب أزيناخ، الذي يأتي إليه طالباً رأيه حول الدولية التي تتلاشى أكثر فأكثر. ففي هذه الآونة، يقدم سورج استقالته من منصب الأمين العام،

ويبلغ إنجلز الذي يرد عليه في 12 أيلول / سبتمبر 1874. «إن الدولية القديمة، باستقالتك، لم يعد لها وجود تماماً. وهو أمر طيب. فقد كانت تنتمي إلى فترة الإمبراطورية الثانية..» وكأنما كان الوضع في فرنسا لا يزال يملي البرنامج الثوري! وكأنما كان إنجلز أيضاً يشعر بالارتياح وهو يرى الإنجاز السياسي الوحيد الذي حققه ماركس دونه منذ ثلاثين عاماً يختفي.. مضيفاً كبلاغ بالوفاة مرفوق بأمر يومي للمعركة: «أعتقد أن الدولية المقبلة – عندما تكون كتابات ماركس خلال بضع سنين قد أحدثت أثرها – ستكون شيوعية بوضوح، ولا بد أن ترفع لواء مبادئنا». لكن ما لا يقوله إنجلز هو إنه سيعمل على ذلك بهمة، بعد موت كارل، وكأنما ليأخذ بثأره لغيابه لدى انطلاق الدولية السابقة..

في 21 أيلول / سبتمبر، يغادر كارل وإليانور كارلسباد وهما بصحة أفضل، لكنهما متضايقان من آل كوجلمان اللذين وجداهم مزعجين. وتعد إليانور أباها بطاعته والامتناع عن لقاء «ليسا» ثانية. ويمران في طريق العودة بليبزيغ، حيث يلتقي ماركس ويلهلم ليبكنيخت بشوق بالغ: إذ لم يلتقيا لما يقرب من عشر سنوات! والشاب الذي كان يستخدم قبل عشرين سنة للعناية بإليانور عندما كانت رضيعة في الغرفة البائسة بسوهو، بات الزعيم بلا منازع لليسار الألماني، فيقدم وليهلم لهما ابنه، وهو في الثالثة من عمره عندئذ، المسمى كارل (الذي سيصبح بعد خمسة وأربعين عاماً في برلين، مع روزا لوكسمبورغ، قائد الثورة السبارتاكية المأساوية في كانون الثاني / يناير 1919). كما يحدث ليبكنيخت ماركس عن برنامج حزبه، القائم على تأميم الاحتكارات وإقامة الاشتراكية بفضل قوة الدولة البروسية. ويعبر له ماركس عن كل النفور الذي يشعر به من حزب لاسال الذي يتلخص برنامجه في إقامة الاقتراع الشامل، وإنشاء التعاونيات العمالية، والتحالف مع بسمارك؛ ويعده كارل متواطئاً مع الافتراءات التي ينشرها المستشار ضده. ولهذا لا يجرؤ ليبكنيخت على مفاتحته بشأن مشروعه الأكثر أهمية: الاندماج بالذات مع حزب لاسال..

بعد ثلاثة أشهر، وبينما يغادر لونغيه وزوجته أكسفورد ليقيما في لندن، 28، فليت رود، ويقيم الاقتراع على تعديل والون في باريس الجمهورية، كانت المفاجأة شديدة على كارل حين يعلم بأنه اجتمع في 14 و15 شباط / فبراير 1875، 73 مندوباً عن حزب لاسال (الاتحاد الفيدرالي للشغيلة الألمان) و56 مندوباً عن (الحزب الاجتماعي - الديمقراطي العمالي الألماني) في غوتا المدينة الصغيرة بتورينج، لعمل برنامج مشترك، والتحضير لاندماج منظمتيهما في (الحزب الاشتراكي العمالي الألماني).

ويتملك ماركس الغضب: التحالف مع أناس كهؤلاء! وعمل ذلك معه! وضعه في موقف، يجد فيه ثانية بعد ثلاثين عاماً، عدوه القديم الذي لاحقه طوال حياته، وهو يريد دائماً تقويضه: الدولة البروسية. ويهون الأمر لو كان مقتصراً فقط على تحالف انتخابي، ولكن لا، إذ إنه اندماج حول نص قريب من أفكار لاسال، وبرنامج لا يستهدف إلا الاستيلاء على الدولة البروسية دون تغيير علاقات الإنتاج، وحتى دون التهيؤ لإزالة الدولة. ولكن، بما أن الجميع يظنونه الزعيم لهذا الحزب اليساري الجديد، فإنه يثور على فكرة تحميله مسؤولية برنامج بهذا البعد عن أفكاره. ولهذا يرسل سراً إلى رئيس الحزب الاجتماعي - الديمقراطي، ويلهلم براك، نقداً حسب الأصول: وهو ما يسميه تهكماً «تعليقات خبيثة هامشية على برنامج غوتا». وبعد ذلك بوقت طويل سينشر نص الرسالة وملحقها بعنوان (نقد برنامج غوتا).

وتكشف هذه الرسالة عن خيبة أمل المعلم: فأصدقاؤه في «حزب أزيناخ» وبالخصوص هذا المغرور بنفسه ليبكنيخت، تصرفوا بأسلوب انتهازي، متسولين تفاهماً لا جدوى منه مع حزب ليبرالي. فمنذ عشرين عاماً وهو يشرح لهم أن تحالفاً مع الأحزاب البورجوازية لا يمكن أن يفضي إلى التوصل إلى وجود مستقل كشيوعيين، يندمجون مع ورثة عدوه! إنه سوء تصرف يبعث على الغم، كما يظن. فيبين لهم من جديد

تصوره لدور السياسة في التاريخ ويجعل من هذا النص المعبر عن الغيظ وصيته السياسية الحقيقية: «تلطفوا بإطلاع ليبكنيخت وبيبل، على هذه التعليقات الهامشية التالية، كانتقادات لبرنامج التوحيد بعد قراءتكم لها. فأنا مثقل بالعمل، وأعمل على كل حال أكثر بكثير مما يسمح لي به الأطباء. وأنا لا أكتب بالتالي هذه الرسالة الطويلة من أجل متعتي الخاصة. لكن هذا لا يقلل من ضرورتها، حتى لا تفسر المساعي التي قد أقوم بها فيما بعد من قبل أصدقاء الحزب الذين أوجه لهم هذه الرسالة تفسيراً سيئاً (..). وهي ضرورية لأن أعداء الحزب يشيعون في الخارج رأياً خاطئاً تماماً، مؤداه أننا ندير هنا، سراً، حركة حزب إيزيناخ (..). فمن واجبي إذاً عدم الاعتراف، ولو بسكوت دبلوماسي، ببرنامج أنا مقتنع بأنه يستحق الإدانة، ويثبط عزيمة الحزب (..). فقادة اللاساليين كانوا يأتون إلينا، مدفوعين بالظروف. ولو كنا صرحنا لهم منذ البداية بأننا لن ندخل في مساومات حول المبدأ، لوجب عليهم الاكتفاء ببرنامج عمل أو بخطة تنظيمية في سبيل عمل مشترك (..) علاوة على أن البرنامج لا يساوي شيئاً، حتى وإن صرفنا النظر عن تقديس العقائد الإيمانية اللاسالية».

إذ لا بد لأي برنامج مشترك جيد لديه من أن يعزز حماية التجار والحرفيين والفلاحين والعمال ضد الصناعيين وكبار ملاك الأراضي. ويجب عليه أيضاً تسريع تصنيع البلد، للسماح بتوسيع قاعدة الأجراء، ومصاحبته بتحسين للحماية الاجتماعية. وحتى لو كان «حظر شامل لعمل الأطفال غير متلائم مع وجود الصناعة الكبيرة، وبالتالي أمنية خيرية وفارغة»، فلا بد من إعطاء كل أطفال الشعب تربية مجانية لأن «الجمع منذ الصغر بين العمل الإنتاجي والتعليم هو إحدى أقوى الوسائل لتحويل المجتمع الحالي».

علاوة على أنه لا يمكن للشيوعيين، كما يضيف، أن يقبلوا برنامجاً لا يفضي إلى إزالة الدولة. وإذا ما كان حارب هو نفسه الفوضويين،

فليس لأنهم يدَّعون الانتهاء من الدولة، بل لأنهم لا يعطون أنفسهم الوسائل لذلك، ولأنهم لا يتكلمون عن هذه الوسائل في برنامجهم إلا من أجل الاستيلاء على السلطة.

أخيراً، ينبغي على برنامج كهذا أن يندرج، من وجهة نظره، ضمن عمل من ثلاث مراحل - يستعيدها من ندائه الثالث الذي كُتب بُعيد الكومون. لكنه يلغي المرحلة التمهيدية المذكورة في هذا النداء، أي مرحلة الاستيلاء على السلطة بثورة، ذلك لأن اليسار في ألمانيا، يمكن له أن يأمل منذئذ الوصول بصفة ديمقراطية إلى المسؤوليات.

في المرحلة الأولى من برنامجه، ما إن يصل الحزب الاشتراكي بصفة ديمقراطية إلى السلطة عن طريق صناديق الاقتراع، حتى يتوجب عليه احترام «المساواة في الحقوق للجميع» المرتكزة على التساوي بين الأفراد («لكل بحسب عمله»). وحتى لا تقود هذه المرحلة إلى تغلب البورجوازية - مثلما سيفضي إليه، كما يعتقد، تطبيق البرنامج المشترك الذي وُضع في غوتا -، يجب أن تتلوها سريعاً مرحلة ثانية تستهدف إعطاء البروليتاريا الوسائل التي تتيح لها عدم خسارة الانتخابات القادمة.

ينبغي على هذه المرحلة الثانية، «ديكتاتورية البروليتاريا»، توسيع التحالف المتمتع بالأغلبية. وعليها لهذه الغاية - مع بقائها في إطار الديمقراطية البرلمانية - تنظيم التحويل التام لعلاقات الإنتاج نفسها، وبخاصة إنهاء «تبعية الأفراد التسخيرية لتقسيم العمل، ومعها، التعارض بين عمل فكري وعمل يدوي». وللوصول إلى هذا، على الدولة أن تتصرف بحزم، دون إعادة النظر في الحرية الفردية أو حرية الصحافة، أو الفصل بين السلطات، أو تعيين الحكم بانتخابات حرة ومتعددة الأحزاب. وأثناء هذه الفترة، تكون للأغلبية البرلمانية السلطة الشرعية لإعادة النظر في التشريعات الموجودة للانتقال «من لكل بحسب قدراته إلى لكل بحسب حاجاته»، إذ يكتب: «بين الانتقال من نظام رأسمالي إلى نظام شيوعي

تمضي فترة انتقالية سياسية لا تستطيع الدولة خلالها فعل شيء آخر سوى السيادة كديكتاتور ثوري على البروليتاريا». وعلى هذه الديكتاتورية أن تقيم دولة لا مركزية، شفافة، تعمل جهاراً نهاراً، دون رقابة على الصحافة ولا بيروقراطية، دون حزب وحيد، ولا تعيينات تراتبية، ولا جيش دائم، مع قضاة منتخبين، دون «أجهزة لمجرد القمع». فستكون هذه الدولة إذاً في طريقها للزوال، لكنها ستظل قادرة على الدفاع عن نفسها ضد أعدائها. إلا أن ثمة نقطة هامة: فلا ينبغي على ديكتاتورية البروليتاريا، بالنسبة لماركس، إعادة النظر في الحريات الفردية، بل يجب عليها تنظيم زوال «الأجهزة القمعية للدولة». إذ نحن شديدو البعد عن المعنى الذي سيعطيه لينين لهذا التصور!

وماركس يرى أن كومون باريس وحدها هي التي حاولت تجربة كهذه، لكنها لم تستطع تنظيم الدفاع عن نفسها، ولا وضع أدوات الإنتاج في خدمة الشغيلة.

في المرحلة الثالثة من البرنامج، بعد زوال الدولة القمعية، يقوم المجتمع الشيوعي دون طبقات، ودون تقسيم للعمل؛ حيث يكون المواطنون أحراراً في العمل كما يحلو لهم؛ وتتاح لهم السلع الاستهلاكية بقدر حاجتهم، دون أن يكونوا خاضعين لإيديولوجية أو لأخلاق دينية. وتكون المنشآت الاقتصادية مملوكة بصفة جماعية، لكن ليس من قبل الدولة بالضرورة.

غير أن ماركس لا يوضح شروط الانتقال من مرحلة إلى أخرى من برنامجه، ولا ما يجري إذا ما رفضت غالبية الناخبين هذا الانتقال، وطالبت بالعودة إلى النظام السابق؛ كما لا يوضح أيضاً طبيعة الدولة في ظل ديكتاتورية البروليتاريا، ولا ما يتبقى منها في المجتمع الشيوعي، ولا الأسلوب الذي يجب إتباعه في إدارة الملكية الجماعية للمنشآت الاقتصادية في المجتمع المثالي. إذ يكتب: «أي تحول ستخضع له الدولة في مجتمع شيوعي؟ بعبارة أخرى، ما هي الوظائف الاجتماعية التي

ستظل مشابهة للوظائف الحالية للدولة؟ إن العلم وحده يستطيع الإجابة عن هذا السؤال». مضيفاً بأنه «ليس على الشيوعيين، في هذه الآونة، الانشغال بالدولة المستقبلية في المجتمع الشيوعي». فهي غاية أبعد كثيراً من أن تهم الجيل الحالي.

ويختتم رسالته بقول لاتيني مأثور، كما يحب أن يفعل في أكثر الأحيان، مكون من خمس كلمات ستكتب بشأنها آلاف الصفحات: dixi et salrovt animam meam («لقد قلت، وبرأت ذمتي»).

وسيؤكد إنجلز، بعد خمسة عشر عاماً، في رسالة إلى بيبل، أحد الذين وجه لهم هذا النقد، أن ماركس كان يريد القول بهذا أنه كتب هذا النص «لتخليص ضميره، ودون أمل في الإقناع». وكأنما كان يتخلى نهائياً عن مجيء الثورة من ألمانيا التي كانت محط أمله. وكأنما كان يضرب صفحاً نهائياً عن أحلام شبابه. وكأنما فكرة «تخليص نفسه» تعيده إلى دين أمه، وإلى إله أبيه وابنته المجرد.

ولم تلبث الوقائع أن أعطته الحق: فإذا ما كانت المناقشات بين الماركسيين والإصلاحيين تتواصل بشدة، داخل الحزب الجديد، فإن اندماج الحركتين الاشتراكيتين الألمانيتين لم يؤد إلا إلى الإسراع في تعزيز الدولة البروسية. إذ يقيم بسمارك، لقطع الطريق على التقدميين المجتمعين هكذا، حماية اجتماعية للعمال، ويعزز سيطرته على المجتمع ممارساً رقابة صارمة على الاشتراكيين الذين لا يكاد يطيق وجودهم.

وتنصرف كل الجهود منذئذ في ألمانيا إلى الاستيلاء على الدولة. وستحسن الوطنية - الاشتراكية تذكر ذلك، مثل لينين الذي سيجعل من بروسيا البسماركية قريباً، النموذج الذي سيتمنى تقليده في روسيا نفسها.

وفي مواجهة خيبة الأمل الجديدة هذه، يهتم كارل بالفعل أكثر فأكثر بروسيا، بلد النظام الممقوت، وبخاصة عالمها الفلاحي. فمن هناك، ومن أماكن أخرى من العالم، لا تزال تصل بعض العلامات الثورية. وحتى

يحسن فهمها، يعكف عندئذ جدياً على اللغة الروسية التي كان درسها بعض الشيء. ولافارغ الشاهد على جهوده، يكتب: «كان يعرف منها بعد ستة أشهر ما يكفي ليجد متعة في قراءة شعراء وكتّاب كان يحبهم: كبوشكين وغوغول وشتشيدرين. وقرأ الوثائق التي أصدرتها لجان التحقيق الرسمية والتي كانت الحكومة القيصرية تمنع نشرها نظراً لكشوفها الرهيبة. إذ كان أصدقاء مخلصون يرسلونها إليه، وكان بالتأكيد الاقتصادي الأوروبي الغربي الوحيد الذي يطلع عليها».

في حزيران / يونيو هذه السنة 1875، يتفرغ كارل أكثر فأكثر لإليانور التي منذ أن وعدته بالتوقف عن لقاء ليساغاراي، تعاني من هبوط شديد وقلة الشهية للطعام، ومن آلام أبيها ذاتها التي تتهرب منها بالتبغ. وإنجلز موجود دائماً لدفع الفواتير. وينتقل كارل مع جيني وإليانور وهيلين إلى الرقم 41، من الشارع ذاته، ميتلاند بارك رود، إلى منزل أصغر قليلاً؛ وهو سعيد أخيراً لرؤية (رأس المال) ينشر في باريس من قبل مكتبة لو بروغريه، الكائنة في 11، شارع بيرتان - بواريه. وقد نفدت الطبعة المؤلفة من عشرة آلاف نسخة سريعاً.

في آب / أغسطس 1875، يعود كارل مع إليانور إلى كارلسباد. ويلقيان هناك هنريش غرايتز، مؤرخ اليهودية البروسي العظيم، وأول من لديه عن الشعب اليهودي رؤية تاريخية. وسيظل الرجلان اللذان يتناقشان طويلاً حول اليهودية على اتصال بالرسائل. وتشارك إليانور التي تولع أكثر فأكثر بدين أجدادها في مناقشاتهما. ولسعادته برؤية ابنته تهتم بشيء ما، يحدثها كارل طويلاً عن أمه وأبيه وعن أسلافه الحاخامات جميعهم. فبحثها عن الهوية ونزعتها التأليهية يؤثران في نفسه، إذ يجد فيها ثانية تأليهية أبيه وهو يعبد إله العلماء. حقاً إن في إليانور كل السمات التي كان يأمل رؤيتها في إدغار. وهي فعلاً كالابن الذي كان يود أن يكون له.

بعد عودتهما إلى لندن بقليل، يعاني كارل من جديد من الرئتين.

ويتنفس بصعوبة. أما جيني التي لم تغادر لندن نتيجة لتعب لا يعرف أحد بعد تحليل أسبابه، فتجد صعوبة في إعادة قراءة ما يكتب. فيكتب أقل من السابق.

في 1876، تتكاثر العلامات على ثورة صناعية جديدة: فغراهام بل يخترع الهاتف؛ ويودع كروس وإديسون كل منهما على حدة براءة لاختراع الفونوغراف؛ ويودع نيكولوس أوتو براءة اختراع المحرك الانفجاري ذي الأربعة أشواط. ويقام معرض عالمي فخم بباريس، في قصر التروكاديرو وعلى طول نهر السين. وبينما تتطور المصارف الأمريكية، تتقدم الرأسمالية المالية شيئاً فشيئاً على الرأسمالية الصناعية. وتشرع شركات للتأمين في حماية البورجوازية الحضرية من وبائي القرن: السل وحوادث السكة الحديدية؛ وتنظم بعض المنشآت البروسية تغطية هذه المخاطر لأجرائها؛ حتى أن بعض شركات المناجم الألمانية والإنجليزية ستوظف أطباء للعناية بمستخدميها.

وتترك إليانور والديها لتقيم وحيدة في لندن، واعدة إياهما بأن لا تعمل إلا بالمسرح، وبعدم رؤية ليساغاراي. فتبدأ بنجاح في مسرحية بعنوان (جسر التنهدات) لمؤلف يدعى توماس هود، تروي قصة فتاة تنتحر.. حتى تكتشف أمها أنها تلتقي الباسكي الذي ينشر بالفرنسية أخيراً، في بروكسل، مؤلفه الرائع (تاريخ كومون باريس). ويمنع الكتاب على الفور في باريس. فترسل جيني ابنتها عندئذ إلى برايتون، حيث تلتقي ثانية الشقيقات بلاك الثلاث والشاعرة آمي ليفي التي كانت تعرفت عليها لدى زيارتها الأولى. وتتحول إليانور عندئذ بصراحة أكثر فأكثر نحو اليهودية، دون أن ترتد مع ذلك عن المسيحية أو توقف علاقاتها مع «ليسا» الذي يأتي لرؤيتها في برايتون.

ويا لها من علاقة غريبة: ففي الوقت ذاته، ينهي ماركس الترجمة الألمانية لكتاب ليساغاراي، بعدما رفض المترجمين الذين فوتحوا بالمهمة واحداً بعد الآخر. ويبدأ حتى في الاستسلام لفكرة إمكان زواج ابنته ممن

تحب، ويبدو أنه يحبها بإخلاص. وهو أحد موضوعات الخلاف النادرة مع جيني التي ترفض البتة تغيير رأيها في الفرنسي.

في أيار / مايو، يطلب بيبل من إنجلز القدوم إلى برلين لإعداد عقيدة شاملة للحزب الاشتراكي العمالي الألماني، ضد تلك التي وضعها أحد أتباع لاسال، وهو أستاذ للعلوم في جامعة برلين، يدعى أوجين دوهرينغ. وكان إنجلز المولع دائماً بالعلوم الفيزيائية، يعمل عندئذ على وضع فكر ماركس في سياق العلوم الطبيعية. فيكتب كارل نفسه الصفحات الأولى من فصل في هذا الكتاب يلخص فيها أفكاره الاقتصادية والفلسفية. وسيسمى الكتاب (المضاد لدوهرينغ) وسيغدو بعد موت ماركس كتاب العقيدة «الماركسية».

فبعد عرض طويل عن علوم الطبيعة يومذاك، يقترح إنجلز نسخة موجزة لنظرية (رأس المال) الاقتصادية؛ فيوضح باسم ماركس، طبيعة المجتمع في مرحلة الانتقال إلى الاشتراكية التي تقوم على: «تنظيم مخطَّط» «يترك حكم البشر فيه مكانه لإدارة الأشياء». ويضيف: «تستولي البروليتاريا على سلطة الدولة، وتحول وسائل الإنتاج إلى ملكية للدولة. وهكذا تلغي نفسها بنفسها من حيث هي بروليتاريا، وتنفي كل الفوارق والصراعات بين الطبقات، وتلغي هكذا الدولة من حيث هي كذلك». والأجوبة التي لم يجازف ماركس نفسه بإعطائها، هي هنا ساذجة: إذ تستلم الدولة السيطرة على الاقتصاد. فمن الصعب إذاً بعد إعطاء الدولة كل السلطات، تخيل بعد ذلك تنظيم إزالتها!

وبكتاب إنجلز هذا (المضاد لدوهرنغ)، يبدأ الميل عن فلسفة الحرية التي وضعها ماركس في كتاباته. فهل هو موافق؟ وهل هو متعب إلى حد لا يستطيع معه مناقضة صديقه القديم؟ وهل يظن أن ملكية الدولة لا تمنع إزالتها؟ لا شك في أنه أكثر انشغالاً بكتبه الخاصة التي لا تتقدم، منه بهذا النص الذي لن يتكلم عنه أبداً، ويبدو له عديم الأهمية. ولا شك في أنه، وبعد برنامج غوثا بالخصوص،، تخلى عن الاهتمام بما يجري في

هذا الحزب الذي خانه بالاندماج مع اللاساليين. إذ لا شيء طيب يمكن أن يأتي بعد من ألمانيا في رأيه.

في 1 تموز / يوليو 1876، يموت باكونين في برن فقيراً، بعدما بدد تركة كارلو كافييرو، الصديق الإيطالي الذي آواه في لوكارنو. وفي 15 تموز / يوليو، في الوقت الذي كان يُكتب كتاب الماركسية المقدس، يقرر المجلس العام للدولية المجتمع في غرفة ضيقة بفيلادلفيا، حل المنظمة المفلسة مالياً والمنسية، سواء من ماركس أم من الفرنسيين والألمان، قوى اليسار الوحيدة آنذاك. وسيكتب لينين بعد ثمانية وثلاثين عاماً: «كانت الدولية الأولى قد أنجزت مهمتها التاريخية، تاركة المجال لعصر نمت فيه الحركة العمالية في كل البلدان نمواً كبيراً، وتميز بتطوره الممتد، وبتشكيل الأحزاب الاشتراكية العمالية الجماهيرية ضمن إطار الدول الوطنية المختلفة».

ويجتمع الجوراسيون في 26 تشرين الأول / أكتوبر، ببرن آملين أن يضموا إلى صفوفهم ممثلين عن المنظمات «الشيوعية التسلطية». فينادي المدعو بيير كروبتكين، القادم لتوه من روسيا، للانضمام إلى الحركة الفوضوية بـ«الثورة الدائمة، بالكلام والكتابة وبالخنجر والبندقية والديناميت..» ويقترح الإيطاليون المفتونون بهجومات العدميين الروس ضد القيصر، هم أيضاً، الانتقال إلى أعمال العنف، على عكس الفيدراليات البلجيكية والهولندية والإنجليزية التي تريد من جهتها العودة إلى الانتخابات.

في 1877، لا يزال كارل يعمل في الكتابين الثاني والثالث من (رأس المال)، على مسائل منها مسألة الانتقال من القيمة - العمل إلى الأسعار، التي لم تحل منذ أن واجهها في سنة وفاة إدغار، قبل إحدى وعشرين سنة. ولهذا يعود إلى تعلم الجبر، أملاً منه العثور على حل لمشكلته، ولكن أيضاً لأن الرياضيات، كما يظن على غرار بليز باسكال، قد تبعده عن الآلام الجسدية. إذ يكتب لافارغ، الشاهد على ذلك: «حتى إن الجبر

كان يجلب له راحة معنوية؛ وسانده في اللحظات الأكثر إيلاماً في حياته المضطربة (..). إذ كان ماركس يجد في الرياضيات العليا الحركة الجدلية في صورتها الأكثر منطقية والأكثر بساطة. وكان يقول: لا يعد علم ما متطوراً حقاً إلا حين يستطيع استعمال الرياضيات». ويولع كارل بهذا الميدان الجديد حتى إنه يفكر، كما يقال، بكتابة تاريخ لحساب التفاضل، ويقرأ لهذا بحوث ديكارت ونيوتن وليبنتز ولاغرانج وماكلوران وأولر. ويسجل ملاحظات لمشروع آخر.

وهو أيضاً وقت اللقاء مع شاب لم ينقطع عن رؤيته تماماً، هو: فريدريك، ابن هيلين ديموت، الذي صرح إنجلز بأنه ابنه. إذ انضم الشاب الذي يشتغل عاملاً لتوه إلى الدولية، وعقد صداقة مع إليانور. ويا لها من صداقة غريبة بين اثنين لا يدركان بأنهما أخ وأخت. ففي 1877، يطلب كارل الذي يبدي قلقه مما يحيكه الفوضويون من الشابين التسلل إلى اجتماعات أتباع الراحل باكونين في لندن. ويعلم الاثنان أن الفوضويين يهيئون لتشكيل دولية جديدة تحل محل تلك التي حلت لتوها.

من 1 كانون الثاني / يناير، حتى 13 أيار / مايو 1877، تظهر الفصول الأولى من (المضاد لدوهرينغ) مسلسلة في صحيفة (الفور وارتز) في ليبزيغ، التي أضحت الصحيفة الرسمية للحزب الاجتماعي - الديمقراطي الجديد. لكن، وبما أن العديد من المناضلين يعدون الأستاذ دوهرينغ نداً لماركس، فالكثيرون يحتجون لدى انعقاد مؤتمر الحزب نهاية أيار / مايو، في غوتا هذه المرة أيضاً، على هذا النشر. ويصرح نائب يدعى جوليوس فالتيش بأن: «ماركس وإنجلز على السواء خدما القضية كثيراً، وسيواصلان كما نأمل هذا العمل في المستقبل أيضاً؛ لكن الشيء ذاته صحيح أيضاً بالنسبة لدوهرينغ. فعلى هؤلاء الناس أن يُستخدموا من قبل الحزب، لكن منازعات الأساتذة لا مكان لها في (الفور وارتز)، وينبغي أن تجري في منشورات على حدة». وهكذا يقرر أوغست بيبل نشر نهاية (المضاد لدوهرينغ) في ملحق علمي لـ(الفور وارتز)، ولكن

عندما يظهر في هذا الملحق الفصل من (المضاد لدوهرينغ) حول «الفلسفة» والفصل حول «الاقتصاد السياسي»، يطرد الشرطة البروسية دوهرينغ من الجامعة، وهو ما يمنحه انتصاراً ضمن الحزب، وتذهب (الفور وارتز) حتى إلى نشر أشعار تكريماً له. وأحد المساندين لدوهرينغ كان إدوارد بيرنشتاين، وهو شاب اشتراكي برليني، ستأتي الفرصة للحديث كثيراً عنه، وسيكتب فيما بعد: «عوضاً عن صرخة المعركة: «ماركس هنا، لاسال هناك»، بدأت تظهر صرخة معركة جديدة في 1875 - 1876: «دوهرينغ هنا، ماركس ولاسال هناك». ولم يكن إسهام شخصي المتواضع قليلاً في هذا التطور». إذ لا يزال برنشتاين من أنصار دوهرينغ. لكنه سيغير قريباً معسكره، وسيصير سكرتيراً لإنجلز وحتى منفذ وصيته.

وكارل مهتم كالعادة بما يجري في العالم أكثر منه بمناقشات الحزب الاشتراكي الألماني الداخلية: فهو غير مؤمن بأن الحزب المتأتي من غوتا يمكن أن يصير ثورياً. وهو مأخوذ على وجه الخصوص بابتكارين هامين يسمحان بتصنيع نشاطين اقتصاديين عريقين في القدم، وبالتالي بدخولهما الرأسمالية: تربية الماشية التي بفضل نقل اللحم بالغرفة المبردة، الذي افتتحته الباخرة الناقلة (الفريغو ريفيك) بين بوينوس آيرس وروان (35 طناً من اللحم)، يمكن لها أن تشهد ازدهاراً؛ والموسيقى مع فونوغراف أديسون. كما يهتم أيضاً بالتجارب الأولى التي يقوم بها أستاذ فرنسي في معهد الفنون والصنائع، هو: مارسيل ديبريز، الذي يبرهن على أنه سيكون من الممكن قريباً نقل الكهرباء إلى مسافات بعيدة، واستخدامها إذاً بعيداً عن المكان الذي تنتج فيه؛ فهي بالنسبة له ثورة كبرى، ولا يتكلم خلال أسابيع إلا عن ذلك؛ ولأنه مريض، فهو يشعر بالغيظ لأنه لن يكون موجوداً عندما سيتحقق هذا الوعد الرائع. ويتحمس أيضاً للإضراب العام في 1 أيار / مايو بشيكاغو الذي تقوم به نقابات فيدرالية العمل الأمريكية التي تطالب بالتطبيق الفعلي ليوم العمل ذي

الثماني ساعات؛ ويُقتل فيه أربعة من المتظاهرين، وينفذ حكم الإعدام بخمسة من الفوضويين – النقابيين. فبهذه الرغبة التي لا تكل في الإطلاع، والشمولية، والحماس، وباستعداده الدائم لتقبل الجديد، استحق ماركس أن يكون فكر العالم.

وفي تلك السنة، يُسمح أخيراً لجول غيد، مع منفيين آخرين، بالعودة إلى فرنسا. فيقيم في باريس، حيث يكتشف، وهو الفوضوي، أفكار ماركس بفضل حلقة من الشباب يجتمعون في مقهى سوفلو، وصحافي ألماني هو كارل هيرش. وكان ذلك شيئاً مثيراً للدهشة بالنسبة له. إذ يؤسس أول صحيفة شيوعية فرنسية (ليغاليتيه) [المساواة]، ويطلب مقالات من ماركس ومن بعض أصدقائه الفوضويين القدامى مثل روكلو.

يعيش آل لونغيه وآل لافارغ وإليانور الآن في لندن بالقرب من جيني وكارل. وليس لدى ابنتي كارل عندئذ أي طفل. وللمرة الثالثة، يقرر هذا اصطحاب ابنته الصغرى للاستشفاء بالمياه المعدنية مع جيني التي تبدو قادرة على احتمال السفر. وهم في طريقهم إلى كارلسباد، في 8 آب / أغسطس 1877، عندما تبلغ الحكومة النمساوية ماركس بأنها ستعيده من الحدود. فيتحول عندئذ نحو نوينار، وهي منتجع للمياه المعدنية قريب من كولونيا.

في الخريف، وكما علم قبل بضعة أشهر من إليانور وفريدريك، يجتمع فوضويو أحد عشر بلداً في فيرفييه بقيادة أحد مواطني نيوشاتل واسمه جيمس غيّوم وكان ولد في لندن، وخلف باكونين. ويصرحون بأنهم عازمون على الانتهاء من النمط الحزبي نفسه: «إن الأحزاب جميعاً تشكل كتلة رجعية (..)، والمقصود محاربتها جميعها.» وبعد ذلك بقليل، يشكل خمسة وثلاثون مندوباً – فوضويين، «ماركسيين» و«اشتراكيين تسلطيين» – في غاند «مؤتمراً اشتراكياً عالمياً» يطعن فيه بعضهم بعضاً. وماركس حريص على الإطلاع على هذه المعارك الصغيرة في الحجرات المغلقة. «كان لمؤتمر غاند نتيجة طيبة على الأقل، فقد تُرك غيوم ورفاقه تماماً

من قبل حلفائهم السابقين»، كما كتب في 27 أيلول / سبتمبر، إلى سورج الذي أصبح أستاذاً للموسيقى في نيويورك. كما ينتقد في 19 تشرين الأول / أكتوبر برسالة أخرى إلى سورج «أولئك الذين يريدون إعطاء الاشتراكية مظهراً مثالياً أكثر سمواً، أي استبدال القاعدة المادية (..) بالخرافات الحديثة، مع آلهتها: عدالة، حرية، مساواة وأخوة» وهذا بالضبط ما كان يقوله في 1843.

وفي 1878، أي بعد سبعة عشر عاماً من لاسال في ألمانيا، يؤسس جول غيد أول حزب اشتراكي فرنسي، فيدرالية الشغيلة الاشتراكيين في فرنسا الذي عرف على الفور بـ«الحزب العمالي».

وفي الوقت الذي كان أوغست رونوار يرسم (لومولان دولا غاليت) [طاحون لاغاليت]، يجد غيد نفسه ثانية أمام المحاكم لأنه اقترح التملك الجماعي للأرض ولأدوات الإنتاج؛ ويحكم عليه بستة أشهر سجناً نافذة، يقضيها في سانت - بيلاجي.

وفي تلك السنة التي تجتاح فيها الولايات المتحدة أزمة اقتصادية شديدة، يخترع دافيد هوغز الميكروفون؛ وتُسوق أولى الدراجات الهوائية في بوسطن؛ وتُركب الإضاءة الكهربائية المنزلية الأولى في لندن. أما في ألمانيا، فبسمارك الذي يلتمس تحالفاً مع المحافظين لمواجهة الأزمة الاقتصادية الوافدة من أمريكا، يتصدى لليسار ويحل الحزب الاشتراكي العمالي الألماني؛ وتلك صدمة لليسار الألماني، الذي يتظاهر بعنف لنيل عودته إلى المسرح السياسي الشرعي.

لكن هذا الحدث الذي كان يمكن، في زمن آخر، أن يتسبب على الأقل في كتابة ماركس مقالاً انتقامياً، يتركه غير مكترث تقريباً: إذ لم تعد ألمانيا ضمن محيط اهتماماته.

ذلك أنه يكتب وكأن الزمن يفلت منه، منكباً على تأليف الكتابين الثاني والثالث من (رأس المال). وبالطبع، وكما في كل مرة يشرف على إنهاء عمل، يجعله الخوف من أنه لم يقرأ كتاباً ما أو لم يطلع على وثيقة

هامة، يغوص من جديد في بحوث لا نهاية لها. فلدراسة الريع العقاري، يهتم بالجيولوجيا، وبالعلوم الزراعية، وبفيزيولوجيا النباتات، وبنظرية الأسمدة. وحتى يحسن فهم المجتمعات القديمة أكثر، يدرس كتباً للويس هنري مورجان، ولجون لوبّك، ولهنري مين. كما يدرس المجتمع الريفي الذي أدى إلى نجاح انقلاب نابليون الثالث، وإلى إخفاق الكومون. فيحلل إيديولوجيته، وتأثيره على صراع الطبقات الذي يعتقد أكثر فأكثر أنه لا يرتبط حصراً بعلاقات القوة الاقتصادية. ويجمع ملاحظات عن الهند، وإحصاءات عن روسيا التي تحيره بنيتها الريفية القاعدية (المير) mir وتستهويه أكثر فأكثر: ذلك أنها ليست رأسمالية ولا إقطاعية، بل جماعية. فهي إذاً قاعدة ممكنة لمشاركة أصيلة في وسائل الإنتاج. ويلتقي في لندن، مكسيم كوفاليفسكي الذي يحدثه عن عمله حول شتى أنماط الملكية الجماعية للأرض، وحول أشكال الحياة الجماعية وبخاصة المتوسطية فيها. فسيتشف في ذلك سبيلاً إلى وسيلة للتوصل إلى الشيوعية من طريق الزراعة، لم يخطر بباله حتى ذلك الوقت.

وواقع الحال، أنه بعد خيبة الأمل الألمانية، تصبح روسيا بالنسبة إليه نوعاً من الوسواس، ومحطاً لأمل جديد. إذ يتناقش أكثر فأكثر مع شعبويين روس، مثل: نيكولاي فرانتسيفيتش، دانييلسون، غيرمان ألكسندر وفيتش لوباتين، مترجميه، وبيوتر لافروف. ويستشيره الثوريون الأكثر تطرفاً، مثل: نيكولاي كونستانتينوفيتش ميخايلوفسكي، وفيرا زاسوليتش، اللذين بُرِّءا لتوهما في روسيا، بعدما اغتالا رئيس الشرطة، الجنرال تريبوف. كما يبدي اهتمامه أيضاً بمنظمة ثورية، تدعى (زاميلا إي فوليا) (الأرض والحرية)، التي أسست قبل أربعة أعوام، في 1874، بهدف قتل القيصر العجوز ألكسندر الثاني، وتشن الآن حرباً لا هوادة فيها للسيطرة على تخوم الإمبراطورية وسحق السلطان العثماني. ويواصل كارل عندئذ إطلاق العنان لكراهيته للسلطة القيصرية الروسية. ففي رسالة في 4 شباط / فبراير 1878، إلى ليبكنيخت الذي يحاول إعادة تشكيل حزبه

المحظور من قبل بسمارك، وعوضاً عن أن يهتم كارل بمصير أصدقائه الألمان، يدافع.. عن الأتراك الذين يعدهم بصراحة أوروبيين. ويتكلم لأول مرة عن ثورة شيوعية محتملة في روسيا، لا يتخيلها إلا كفتيل لثورة أكثر اتساعاً في أوروبا: «نحن نقف بتصميم إلى جانب الأتراك لسببين: 1) لأننا درسنا الفلاح التركي - وإذاً جماهير الشعب التركي - ورأينا فيه المثل الأكثر نشاطاً وأخلاقية دون شك للفلاحين الأوروبيين؛ 2) لأن هزيمة الروس ستسرِّع كثيراً الثورة الاجتماعية في روسيا، وبالتالي، الثورة في أوروبا بأسرها..».

ويواصل رؤية عملاء روس حتى ضمن الحكومة البريطانية. وبما أن بالميرستون، ترك منصبه لديزرائيلي الذي لا شك في معارضته لقيصر روسيا، فإنه يوجه سهامه إلى المركيز دوسالسبوري، «الصديق الحميم لإينياتييف» وللكونت دو ديربي، والكونت كارنافون «الذي أقيل من منصبه الآن». لكنه يخطئ مرة أخرى، لأن بريطانيا العظمى إذ هددت روسيا بالتدخل، تجبر ألكسندر الثاني على التخلي عن غالبية التنازلات التي قام السلطان بها في مفاوضات السلام التمهيدية في سان ستيفانو، على أبواب أسطنبول. والقيصر مهدد أكثر فأكثر عندئذ من قبل العدميين: حتى إن منظمة سرية جديدة هي (نارودنايا فوليا) [إرادة الشعب] تجعل من اغتياله هدفها الوحيد؛ وينجو في هذه السنة 1879 ذاتها، من عدة طلقات نارية في محيط قصره؛ ويدمر اعتداء قطاره؛ ويخرب انفجار قاعة طعامه.

في الآونة ذاتها ببروسيا، وبينما تنشئ الجمعية المهنية لعمال الطباعة التي تشكلت بمباركة من السلطة، أول ضمان ضد البطالة، يلاحق بسمارك الاشتراكيين، ويمنع كل ذكر لماركس في الصحافة والكتب، ويحظر نشر الطبعة الألمانية الجديدة لـ(رأس المال).

وتلك كانت ذريعة جديدة: إذ يكتب كارل إلى صديقه الروسي دانييلسون، مبدياً رغبته في تأخير نشر الكتاب الثاني من (رأس المال)

حتى بلوغ الأزمة الصناعية الإنجليزية الجديدة ذروتها؛ وفي انتظار ذلك، سيدرج في كتابه وقائع جديدة واردة من روسيا ومن الولايات المتحدة. وهو يكرر في الواقع الكلام نفسه منذ كان يهيئ، قبل عشرين سنة، نشر (إسهام في نقد الاقتصاد السياسي)، ويهيئ، قبل ثلاثة عشر عاماً، نشر الكتاب الأول من (رأس المال)، فيما عدا أنه لم يعد ينتظر أي شيء من فرنسا ومن ألمانيا.

ويشعر كارل بالإرهاق أكثر فأكثر. فقد ثقل، وغزت وجهه التجاعيد، ويمشي بصعوبة. إذ يقدر أحد الصحافيين الأمريكيين، كان أتى لإجراء مقابلة معه، عمره بسبعين عاماً بينما لا يكاد يبلغ الستين. فمن 21 آب / أغسطس إلى 16 أيلول / سبتمبر، يذهب إلى جيرسي للراحة مع جيني التي تزداد حالتها خطورة. وقد بلغت شهرة كارل عندئذ حداً يجعل بلاط إنجلترا يبدي اهتماماً به: إذ ترسل الأميرة فيكتوريا، ابنة الملكة والزوجة المستقبلية لغليوم الثاني البروسي، نائباً لتناول الغداء معه ويخبرها بفحوى اللقاء ومجرياته.

ولدى عودته من جيرسي، يُعلم كارل دانييلسون أنه سينهي الكتاب الثاني قريباً جداً.

وفي تلك السنة، تستقر فرنسا في الجمهورية. فيستقيل ماكماهون، ويُنتخب جول غريفي رئيساً، ويصبح (لامارسييز) النشيد الوطني، و14 تموز / يوليو، العيد الوطني. وفي تشرين الأول / أكتوبر 1879، يصبح الحزب العمالي الفرنسي تعاونياً علناً دون أن يُعد غير مشروع: «يجب أن يتابَع التملك الجماعي لكل أدوات العمل وقوى الإنتاج بكل الوسائل الممكنة». إلا أن عدداً من النقابيين ومن أتباع بلان لا ينضمون إليه، ويظلون مستقلين.

أما في ألمانيا، فتظل السلطة ديكتاتورية، ويلاحق بسمارك الاشتراكيين. وكذا هي الحال في روسيا أيضاً: فبمرسوم في 12 شباط / فبراير 1880، يسلم ألكسندر الثاني، قبيل نجاته من اعتداء جديد، كامل

السلطات إلى الكونت لوريس - ميليكوف الذي حرم من نصره على الأتراك، مع تكليفه بمهمة استئصال العدميين وإتمام إصلاح المؤسسات. وبعد بضعة أسابيع، عندما ينال فيكتور هوغو ببلاغته، رفض فرنسا تسليم مرتكب اعتداء آخر ضد القطار الإمبراطوري، تقطع العلاقات بين البلدين. وتدريجاً، تتبنى الطبقة المثقفة الروسية الماركسية كإشارة إلى الانتماء للغرب؛ وحتى الـ(نارودينيكي) الذين كانوا ينبذونها على أنها آتية من البلدان الغربية «الوثنية»، يقبلون منذئذ التحدث فيها. وكأنما كانت الماركسية تظهر الآن في روسيا كبديل عن الرأسمالية المستحيلة..

في مطلع أيار / مايو 1880، يذهب جول غيد إلى لندن، حيث يلتقي ماركس ولونغيه ولافارغ. ويسائل عندئذ ماركس حول الطابع «الماركسي» للبرنامج الذي يعمل عليه من أجل الانتخابات التشريعية القادمة. لكن ماركس يحتج قائلاً إنه أقام علماً وليس طائفة! «إن المؤكد هو أنني لست ماركسياً!». ويساعده في وضع النظام الداخلي للحزب الذي يدعوه «الحزب العمالي الأصيل». حتى إنه يكتب مقدمة لبرنامج الفرنسيين الانتخابي. ومن المناسب، اقتباس مقتطفات طويلة منه، لأنه النص السياسي الأخير لماركس، ويبدو أنه يرجِّع صدى (البيان)، الذي كُتب قبل اثنين وثلاثين عاماً.

«نظراً لأن تحرر الطبقة المنتجة هو تحرر لكل بني الإنسان، دون تمييز في الجنس ولا في العرق؛ وأنه ليس في إمكان المنتجين أن يكونوا أحراراً إلا بقدر ما يمتلكون وسائل الإنتاج؛ وأنه ليس ثمة إلا شكلان يمكن لهم في ظلهما امتلاك وسائل الإنتاج: 1) الشكل الفردي الذي لم يوجد كواقع فعلي عام قط، والذي يزول أكثر فأكثر نتيجة للتقدم الصناعي؛ 2) الشكل الجماعي الذي تُشكَّل عناصره المادية والفكرية من قبل تطور المجتمع الرأسمالي نفسه؛ ونظراً لأن هذا التملك الجماعي لا يمكن أن ينتج إلا من العمل الثوري للطبقة المنتجة - أو البروليتاريا - المنظمة كحزب سياسي؛ وأن تنظيماً كهذا يجب أن يُعمل عليه بكل الوسائل المتاحة

للبروليتاريا، بما فيها الاقتراع العام، الذي يُحوَّل هكذا من أداة للخداع، كما كان حتى الآن، إلى أداة للتحرر؛ فإن الشغيلة الاشتراكيين الفرنسيين، بجعلهم هدف جهودهم في النظام الاقتصادي، العودة إلى الملكية الجماعية لكل وسائل الإنتاج، قرروا كوسيلة للتنظيم والكفاح، الدخول في الانتخابات بالبرنامج التالي حداً أدنى..» فالاشتراكية لا يمكن أن تأتي نهائياً إلا من صناديق الاقتراع.

وفي 23 أيار / مايو، تُنظم مظاهرة هائلة في باريس أمام جدار الفيدراليين، وتُرغم الحكومة على منح العفو لآخر الكومونيين. فيقرر لافارغ البقاء في لندن؛ ولونغيه العودة إلى باريس.

في الوقت ذاته، في برلين، يغدو ابن رسام ديكور في المسرح الإمبراطوري بفيينا، هو كارل كوتسكي، صديقاً لشاب من قادة الحزب الاشتراكي اللاسالي المنحل، كان التقاه بشأن الدفاع عن دوهرينغ، هو إدوارد برنشتاين، الذي كان سكرتيراً للصناعي الاشتراكي هوشبيرغ. وبنصيحة من برنشتاين الذي غيّر رأيه عن ماركس، يقرأ كوتسكي (المضاد لدوهرينغ)، فينبهر به. وسيصبح قريباً التابع الرئيس لماركس، والقيم على إرثه، ومنظم حصول الاشتراكيين على إرثه بالتحايل، ومحتكر مخطوطاته التي سيتنازعها بشراسة مع.. برنشتاين.

ويفكر كارل عندئذ في عدة مشروعات لكتب. إذ سيُكتب عنه في هذه الآونة أنه «كان ينوي، من بين أشياء أخرى، كتابة مؤلف في المنطق وتاريخاً للفلسفة (..). وكان شديد الإعجاب ببلزاك حتى أنه كان يعتزم كتابة مؤلف نقدي حول (الكوميديا الإنسانية)، ما إن يتم أعماله الاقتصادية». ويستخدم عندئذ أشغال مورغان حول صلات القرابة في المجتمعات البدائية، وأشغال كوفاليفسكي حول ملكية الأرض، لتبيين الفرق بين «الجماعات الزراعية القديمة» وما ستكون عليه الشيوعية، كنظام جديد، وشكل سامٍ من الحياة المشتركة، بفضل التقنيات الحديثة، يمكن أن يعتمد على (المير) وهو الشكل الأصيل للملكية الجماعية

للأرض. فروسيا، والحق يقال، هي البلد الوحيد الذي يحظى باهتمامه..

وهذه اللحظة هي التي يختارها لافارغ ليكشف عن أنه يعمل في كتاب معاكس جذرياً لكل تاريخه السياسي الماضي، هو (الحق في الكسل). ويتناقش حوله مع حميه الذي يفتح له مكتبته. والحق أن كارل كره دائماً العمل الذي جعل منه، منذ بداية أعماله، السبب الرئيس للاغتراب، أكثر بكثير من أطر الرأسمالية. ولم يتبن قط الحق في العمل، ولا العمالة الكاملة، اللذين يبدوان له وسائل لدى العمال للمطالبة باغترابهم. ففكرة إمكان التفكير في أفضل طريقة للتخلص من العمل ليست سيان لديه إذاً. ويكتشف لافارغ عندئذ أن كارل قرأ كل شيء حول الموضوع، وكثيراً غيره. كما يكتشف بذهول ملاحظات حميه على نسخة من (في الحق بالبطالة، وفي تنظيم العمل العبودي في الجمهوريات الإغريقية والرومانية) لمورو - كريستوف، المنشور بباريس في 1849. ويجد في مكتبته أيضاً كراسة لموريس كريستال نشرت في 1861، بعنوان (الاستراحة من العمل). ويكتب لافارغ بخلاف القيم التقليدية للحركة العمالية. إذ ينتقد أولئك الذين يطالبون، منذ موريس بلان، بـ«الحق في العمل»، ويجرأ على أن يكتب: «العار للبروليتاريا الفرنسية!.. فبوجود هذا الجنون المزدوج لدى العمال، قتل أنفسهم بالإفراط في العمل والعيش في التقشف، لم تعد المشكلة الكبرى للإنتاج الرأسمالي هي العثور على منتجين ومضاعفة قواهم، بل اكتشاف مستهلكين، وإثارة شهيتهم، وخلق لديهم حاجات مصطنعة». وكتابه دعوة لـ«التمتع»، وتنديد بـ«دين رأس المال» وبكل الأنظمة الاجتماعية التي تمجد العمل كقيمة اجتماعية وفردية. وهو يأمل في تحرير الأجراء من («أسوأ أشكال العبودية») بالآلة، وفي حصول الجميع على «أوقات الفراغ». لكن الكتاب الذي سيحرز نجاحاً باهراً، لن يحوِّل لافارغ مع ذلك عن التزامه الاشتراكي.

لكن، ها هو انهيار إليانور يتفاقم، حتى إنه يشكل خطورة على

حياتها؛ إذ تتكلم أكثر فأكثر عن الانتحار.. فيفزع كارل ويحصل من جيني على الموافقة على زواجها من بروسبير أوليفييه ليساغاراي الذي ينتظرها منذ ثمانية أعوام. غير أن إليانور، بتناقضاتها المعهودة، تماطل. وفي 4 تموز / يوليو 1880، يختار ليساغاراي الإفادة من العفو، ويرجع إلى باريس، وانتهت هكذا علاقته مع إليانور.

في الآونة ذاتها، وبينما تكتمل أخيراً ترجمة الكتاب الأول من (رأس المال) إلى الإنجليزية، يكتب ماركس، طبقاً لبعض المصادر، إلى داروين مقترحاً إهداءه له. إلا أن داروين سيعتذر عن قبول هذا الشرف، في رسالة مهذبة ورصينة، مثلما كان تلقى بفتور إرسال الطبعة الألمانية قبل بضع سنوات. حتى إنه سيصف في رده الدعاية الإلحادية أو المضادة للمسيحية بأنها «ضارة بتحرير العقل». لكن واقع الحال أن هذه القصة التي كررها كل كتاب سيرة ماركس ليست دقيقة. فداروين يرد في هذه الرسالة على كتاب آخر، ولا يعتقد ماركس بأن من الممكن تطبيق أفكار داروين في التحليل الاجتماعي.

ومع ذلك، كم من نقاط مشتركة بين نظرية الانتخاب الطبيعي (التي تفضي إلى تحول الأنواع الحية)، ونظرية صراع الطبقات (التي تفضي إلى تحول الأنواع الاجتماعية، والنظرية الكبرى الأخرى في القرن التاسع عشر، نظرية الحركية الحرارية (التيرمو ديناميك) (التي تفضي إلى تحول حالات المادة)! فالنظريات الثلاث جميعها تتكلم عن تغيرات متناهية الصغر وعن طفرات كبرى؛ وتتكلم جميعها أيضاً عن زمن يجري دون قابلية للانعكاس: نحو الفوضى، كما يقول كارنو؛ نحو الحرية، كما يقول ماركس؛ نحو الأفضل تكيفاً، يقول داروين. فالتكيف مع فوضى الحرية: ذلك هو ما يجمع بين كارنو وماركس وداروين، العمالقة الثلاثة في هذا القرن.

ويظهر (المضاد لدوهرينغ) عندئذ بالفرنسية مسلسلاً في صحيفة غيد، من 16 حزيران / يونيو إلى 4 آب / أغسطس 1880، حيث يحرز

نجاحاً كبيراً، في الوقت نفسه الذي يتبلور المذهب الذي يُشرع بتسميته «الماركسية» في العشرات من الصحف والكتب التي تعلق عليه، ويبدأ شخص ماركس نفسه يشكل محل تقديس: إذ أوعز صديقه فريدريك هذه السنة بطبع ألف ومائتي نسخة من صورة لماركس، يجعله يوقع عليها مع عبارة «تحية الأخوة. كارل ماركس، 27 حزيران / يونيو 1880». «يظهر ماركس فيها، كما يكتب إنجلز، بكل هدوئه المهيب مع ابتهاجه بالحياة وثقته بالنصر المعتادين». وسيقتني لينين نسخة منها. وتترسخ الدعاية بالصور المقدسة. وترسم الخطوط الأولى لدين جديد، ويرتضي ماركس هذا.

في خريف 1880، يعود لونغيه للإقامة في باريس، دون جينيشن وأطفالهما في البداية. (لديهما ثلاثة). ويحضر في تشرين الثاني / نوفمبر، مؤتمر الحزب العمالي الفرنسي برئاسة جول غيد، في الهافر.

وفي نهاية هذه السنة ذاتها، يقترح الفوضويون المجتمعون بسويسرا، في لاشو - دو - فون، ثانية «الخروج من الأرضية الشرعية والعمل في الميدان للاشرعي». إذ يهتف نيتشاييف، وهو يثبت نفسه، مثل غيوم، خليفة لباكونين، بأن على الثوري أن يكون «لا أخلاقياً، وسارقاً، وقاتلاً، وانتهازياً ومفسداً».

أما في بروسيا، فما كان يجب أن يحدث حدث: إذ ينجح أربعة من قاذفي القنابل، بإمرة صوفيا بيروفيسكايا، رئيسة (نارودنايا فوليا)، باغتيال ألكسندر الثاني، يوم الأحد 13 آذار / مارس 1881، لدى تغيير الحرس. فما كان من ابنه، ألكسندر الثالث، وهو في السادسة والثلاثين إلا إلغاء آخر الإصلاحات الليبرالية، ومفاقمة العداء للسامية، وفرض الروسية بالقوة على أقاليم الإمبراطورية المحيطية.

وفي رسالة هامة كُتبت للثائرة الروسية فيرا زاسوليتش بعد تفكير وإمعان، وحُفظ منها ثلاث مسودات متتالية، يدون ماركس في الورق ما كان يفكر فيه منذ بعض الوقت: فليس المرور بالرأسمالية في

روسيا، وفي روسيا فقط، ضرورياً ربما، بينما قال دائماً بالعكس: «إن روسيا هي البلد الأوروبي الوحيد الذي بقيت فيه الملكية الجماعية على نطاق واسع ووطني. لكن روسيا موجودة في الوقت ذاته ضمن وسط تاريخي حديث؛ وهي معاصرة لثقافة راقية؛ وتجد نفسها مرتبطة بسوق دولية يهيمن عليها الإنتاج الرأسمالي (..). (ولا يمكن بالتالي) تحويل نظرتي التاريخية عن نشوء الرأسمالية في أوروبا الغربية إلى نظرية تاريخية - فلسفية في المسيرة العامة، تُفرض بصفة حتمية على كل الشعوب، مهما كان موضعها، للوصول في النهاية إلى هذا الشكل الاقتصادي الذي يؤمن مع ازدهار القوى المنتجة للعمل الاجتماعي، تطور الإنسان المتكامل». إذ بهذه الرسالة - وفقط بهذه الرسالة - سيتعلق كل الذين يودون إقامة الشيوعية «في بلد واحد» مكان الرأسمالية، وليس بعدها. لكن ماركس، بعد عامين، كما سنرى، سيأتي بتوضيح يقوض هذا التفسير: فلا يمكن للثورة أن تنجح في روسيا، كما سيقول، إلا إذا أصبحت على الفور عالمية.

وفي الآونة نفسها بألمانيا، يرخَّص من جديد للحزب الاشتراكي الذي عُلق منذ ثلاثة أعوام. فيولد من جديد، ليس بقيادة ليبكنيخت وحده، بل أوغست بيبل الذي يصبح الشاب كوتسكي أحد المقربين منه. بينما يقوم برنشتاين في زيورخ برئاسة تحرير (سوسيال ديموكرات) الصحيفة الأسبوعية الجديدة للحزب الاجتماعي الديمقراطي، مبشراً بصراع الطبقات للتخلص سريعاً من المجتمع البورجوازي: هو الذي كان معادياً لأطروحات ماركس، يصبح الآن أكبر المتزلفين لها.

في باريس، تجري المصادقة على قانون مجانية التعليم الابتدائي، والقانون الذي يسمح بالتجمعات العامة، وتنشر رواية (بوفار إي بيكوشيه) بعد موت فلوبير بقليل؛ بوفار وبيكوشيه اللذان يُذكِّر بحثهما عن المعرفة الشاملة ببحث ماركس، فكر العالم. وتلتحق جيني لونغيه بزوجها. وبعد شهر، يستقر بول لافارغ هو أيضاً في العاصمة الفرنسية، دون لورا في

البداية. وفي الآونة ذاتها يأتي الشاب كوتسكي إلى لندن، حيث يتعرف بكارل وبإليانور ولورا وإنجلز، ولدى عودته إلى فيينا سيخطب ممرضة من فيينا، تدعى لويز سترامر، وسيتزوجها. وسنراهما كليهما قريباً، يقومان بدور هام في التصرف بتركة ماركس.

ويتابع كارل باهتمام تأسيس فيدرالية لندن الديمقراطية، من قبل المدعو هنري ماييرز هيندمان التي تتحمس إليانور لها، فتنتسب إليها وتقدم إلى أبيها هيندمان الذي يكتب عن هذا اللقاء: «في البداية، كان جانبه العدائي، غير المتسامح، والفكري في الأساس، متغلباً؛ ولم يظهر اللطف والطبيعة الدمثة اللذان كان يخفيهما مظهره الخشن إلا فيما بعد». وهكذا يدخل ماركس باحتشام الحياة السياسية الإنجليزية. وسنرى تأثيره على اليسار البريطاني ينتشر على نطاق واسع.

ويهتم كارل دائماً بالهند، ملاحظاً أن أوروبا لم تع بعد خطورة وضخامة المجاعات التي تجتاح الهند، بينما أبدى الرأي العام في لندن وفي باريس استهجانه منذ قرن، وقت مجاعة البنغال في 1770. فيفسر هذه اللامبالاة باتفاق الدعاية الاستعمارية.

ويعمل على عدة مشروعات لكتب حول العلوم الطبيعية والرياضيات وتاريخ التكنولوجيا؛ كما يملأ أربعة كراسات سميكة بملاحظات لخطوط أولى لـ(تاريخ العالم)، تحدوه هذه الرغبة الدائمة في الكتابة عن تاريخ كل مجال يستهويه حتى يحدد أسسه. وأكب، ليس على اثنين، بل على ثلاثة مجلدات إضافية، من (رأس المال)، على أن يخصص الأخير لتاريخ المذاهب الاقتصادية. ويظل على ولعه بالتقدم التقني الذي لا يزال يمثل في نظره الثورات الحقيقية؛ فيهتم هكذا بفكرة فيرنان فوريست في استعمال البترول وقوداً في المحرك ذي الأربعة أشواط، وبأول تراموای كهربائي يسير في برلين.

في تشرين الثاني / نوفمبر 1881، يزداد مرض جيني خطورة. ويكشف الفحص عن سرطان في الكبد. وكارل مريض جداً أيضاً

(بالتهاب الصفاق مرفوقاً بذات الجنب) حتى إنه لا يستطيع إلا مرة واحدة القيام من سريره للذهاب إلى الغرفة المجاورة حيث توجد زوجته. ويكتب لافارغ: «كان مستحيلاً عليه، أثناء مرض زوجته الأخير، الاهتمام بأعماله العلمية المعتادة؛ ولم يكن يتمكن من الخروج من الحالة المؤلمة التي كانت تتسبب له فيها عذابات رفيقته إلا بالاستغراق في الرياضيات. وفي فترة العذاب النفسي هذه، كتب مؤلفاً حول حساب التفاضل والتكامل، يؤكد الرياضيون الذين يعرفونه بأنه ذو قيمة عظيمة». وهو مؤلف لم ينشر قط، ولم يبق منه شيء، هذا إذا وجد حقاً.

وتوافي جيني المنية في 2 كانون الأول / ديسمبر، بحضور كارل وبناتها الثلاث وصهريها اللذين عادا من باريس للسهر عليها. «إنها تموت، كما ينقل لافارغ، شيوعية ومادية كما كانت عاشت دائماً. فلم يكن الموت يخيفها. وعندما شعرت بأن النهاية تقترب، صرخت: «كارل، لقد تحطمت قواي»».

ولم يستطع كارل لشدة مرضه حضور مراسم الدفن في مقبرة هايغات: ضمن الجزء المخصص للملحدين. وهي مراسم دفن أخرى غاب عنها، بعد مراسم أخيه وأبيه وحميه وأمه. وفقط بعض الأصدقاء الحميمين يشيعون جيني إلى المقبرة، حيث يلقي إنجلز كلمة. وسيكتب لافارغ الذي كان إلى جانب لورا وإليانور وجينيشن وشارل لونغيه: «لم يكن لدى أحد أكثر مما عندها من شعور بالمساواة، مع أنها ولدت ونشأت في عائلة أرستقراطيين ألمان. إذ لم تكن الفوارق والتصنيفات الاجتماعية موجودة لديها. وكانت تستقبل في منزلها وعلى مائدتها العمال بثياب العمل بأدب وحفاوة وكأنهم كانوا أمراء. (..) لقد تركت كل شيء لتتبع كارلها، ولم تندم قط، وحتى في أيام شدة الفاقة، على ما فعلته».

في اليوم التالي للدفن، تعود جينيشن التي تبدو مريضة فجأة أيضاً مع زوجها، وبول لافارغ إلى باريس. ويبقى كارل وحيداً مع لورا والصغرى إليانور التي تلتقي في اجتماعات حزب هيندمان صحافياً

يدعى إدوارد أفيلينغ. وهو متزوج، وأكبر منها سناً بكثير. مثل أبيها بالضبط، مرة أخرى.

وفي تلك السنة، يواصل كارل العمل. ويضيف مزيداً من التوضيح لما يراه في إمكان ثورة بروسيا. إذ يكتب في مقدمة الطبعة الروسية الثانية لـ(بيان الحزب الشيوعي): «إن روسيا اليوم (..) هي في ريادة الحركة الثورية بأوروبا (..). إذ إننا نرى في روسيا، إلى جانب الخديعة الرأسمالية في كامل ازدهارها، والملكية العقارية البورجوازية المتنامية، أن أكثر من نصف الأرض هي ملكية جماعية للفلاحين. ويمكن منذئذ طرح السؤال: هل تستطيع الـ(أوبشتشينا) الروسية، كشكل عتيق لملكية الأرض الجماعية، بينما تهتز بقوة، الانتقال مباشرة إلى الشكل الأعلى، إلى الشكل الشيوعي في الملكية الجماعية؟ أم أن عليها قبل ذلك المرور بعملية الانحلال ذاتها التي تميز التطور التاريخي للغرب؟ وهذا هو الجواب الوحيد الذي يمكن تقديمه الآن على هذا السؤال: إذا ما أعطت الثورة الروسية الإشارة لثورة بروليتارية في الغرب، وإذا ما تكاملت الثورتان، فإن من الممكن للملكية الجماعية الحالية في روسيا أن تستخدم نقطة انطلاق لتطور شيوعي».

وهذا ما يسمح إذاً بإزالة التناقض بين مجموع عمله ورسالته في السنة الفائتة: فلا يمكن لثورة روسية أن «تستخدم نقطة انطلاق لتطور شيوعي» إلا «إذا ما أعطت الإشارة لثورة بروليتارية في الغرب»، أي إذا ما أصبحت عالمية. وسيجري التكتم على هذه الجمل الشديدة الأهمية، خلال قرن، من قبل لينين وخلفائه، وسيبذلون قصاراهم، كما سنرى، لحمل الناس على الاعتقاد بأن ماركس أعطى موافقته على فكرة انتقال مباشر إلى الاشتراكية في روسيا وحدها.

أما وقد التحقت لورا لافارغ بزوجها في تموز / يوليو 1882، بباريس، فإن كارل وحيد منذئذ مع إليانور، وكذلك مع إنجلز الذي يتأمل ضمن مقدمة لطبعة لـ(البيان)، في تسمية «شيوعي». ففي 1848، كما

يكتب، «كان كل الأطباء الاجتماعيين الدجالين يريدون، بمساعدة علاجات شتى، ومع كل أنواع التلفيق، القضاء على صنوف البؤس الاجتماعي دون أقل مساس برأس المال ولا بالربح؛ وكان هذا الجزء من العمال الذين باقتناعهم بعدم كفاية مجرد التغييرات السياسية، يطالبون بتحويل عميق للمجتمع، يسمون عندئذ شيوعيين: فلم نكن نستطيع التردد لحظة واحدة في التسمية التي كان علينا اختيارها».

وكارل لا يقدر على العيش دون جيني. فهو ضائع. والصور الفوتوغرافية لأبيه وزوجته وجينيشن المريضة أكثر فأكثر لم تعد تغادره. وهو يتألم من حنجرته ومن رئتيه. فيقول له الأطباء بأن مناخاً جافاً فقط يمكن أن يخفف آلامه. وتلك كانت «الموضة» عندئذ، لدى الأطباء الإنجليز، بتوجيه مرضى الصدر صوب الكوت دازور وإيطاليا والجزائر. وينصحه أطباء إنجلز بالذهاب إلى ما وراء البحر المتوسط. فيذهب وحيداً، في سفر طويل.

ويعطيه لونغيه عنوان صديق موظف في الجزائر العاصمة، هو القاضي فيرميه المستعد لتأدية دور الدليل له. فيجتاز كارل فرنسا، ويركب السفينة في مرسيليا، ليقيم في الجزائر العاصمة من 20 شباط / فبراير إلى 2 أيار / مايو 1882. ولم يكن الأجنبي الوحيد: إذ يمر عندئذ ألف وخمسمائة إنجليزي بالجزائر سنوياً، وهو ما تشهد عليه أسماء فنادق فيكتوريا، إنجلترا، إنجلترا والشرق..

وعندما يصل ماركس الجزائر العاصمة، كانت المدينة تعد خمسة وسبعين ألف ساكن، ولا شيء يرشح إليها من الثورة في الجنوب، حيث تتعاقب الإعدامات دون محاكمة، وتصادر المواشي، وتحرق القرى، وتُتلف الزراعات. ويجهل كارل أيضاً الانتفاضة في منطقة وهران التي بدأت في 1881، وستتواصل خلال إقامته حتى أيار / مايو 1883، على التخوم الجزائرية المغربية. ولا يعلم بوفاة داروين في 19 نيسان / أبريل 1882. ولا يرى شيئاً من الجزائر، فالجو ماطر وبارد، ويظل محبوساً

طيلة اليوم في فندقه، الفيكتوريا، في ضاحية مصطفى بأعالي المدينة البيضاء، يفكر في جيني وفي بناته. وفي غضون ذلك، يقرأ صحيفة محلية (لوبتي كولون) (المستوطن الصغير)، وهي صحيفة مملوءة بالأخبار الكاذبة، تنعت الثورات بأنها عمليات «قطع طرق»، حتى وإن كانت هذه الصحيفة أكثر اعتدالاً بكثير من (لوكوربيه دالجيه) أو (لو منيتور دالجيه). ويشرح له القاضي فيرميه الوضع عبر الإيديولوجية الاستعمارية التي لا يتمكن كارل من فك رموزها. ولم يقم إلا بجولة واحدة، ويكتب ست عشرة رسالة تسع منها لـ«فريد»، والأخرى لبناته، لا تتكلم إلا عن صحته وعن حالة الجو. والذكر الوحيد لنقد، ورد في رسالة إلى إنجلز في 8 نيسان / أبريل 1882، عندما يلاحظ كارل: «يحكي لي فيرميه أن نوعاً من التعذيب يمارس «بانتظام» لانتزاع اعترافات من العرب؛ والشرطة هي المكلفة بهذا بالطبع؛ ومن المرفوض أن لا يعلم القاضي عنه شيئاً».

ثم إن كارل يخنقه الحزن والوحدة. فيكتب إلى لورا التي استقرت لتوها مع بول لافارغ في إنغيين، بأنه سيأتي لـ«الراحة» في باريس؛ وأنه سيقيم لديها حتى لا يضايق جينيشن المريضة التي تقيم الآن قريبة، في أرجانتوي. ويكتب في هذه الرسالة هذه الجملة الرائعة والمؤثرة: «أقصد بالراحة «الحياة العائلية»، والأصوات الطفولية، وكل هذا «العالم الصغير الميكروسكوبي، الأكثر إمتاعاً بكثير من العالم الأكبر».».

«أكثر إمتاعاً بكثير من العالم الأكبر».. يا له من حكم مؤثر من هذا الذي ضحى بكل شيء، بما فيه حتى ثلاثة من أبنائه، من أجل دراسة العالم والتأثير فيه.

ويصل إلى مارسيليا في 5 أيار / مايو 1882، في الوقت الذي تغادرها حملة من سبعمائة رجل إلى تونكان، وحيث يؤسس ديروليد عصبة الوطنيين.

وحينما يصل إلى بيت لورا، يعلم أن جينيشن في أسوأ حال.

فيذهب من الواحدة إلى الأخرى، ويكاد يفقد صوابه، ويتناقش في السياسة مع لونغيه ولافارغ الذي يترك مع غيد في تشرين الأول / أكتوبر الحزب العمالي لتأسيس الحزب العمالي الفرنسي (POF)، في مؤتمر روان. ويؤسس منشقون عن الـ (POE) فيدرالية الشغيلة الاشتراكيين التي تضم فوضويين وإصلاحيين، لقبوا بـ«الإمكانيين» (Possibilistes)، ويظهر في تلك السنة لأول مرة بالفرنسية مصطلح «ماركسية»، المستخدم منذ وقت طويل ضمن الدولية؛ إذ يستعمله بول بروس في (الماركسية ضمن الدولية). ويتوفى لويس بلان في كان؛ فتمنحه الجمهورية الثالثة مراسم جنائزية وطنية. فقد أصبح للاشتراكية منذئذ حق المواطنة.

ويتحمس كارل لتجارب مارسيل ديبريز الجديدة الذي يحقق لأول مرة نقل الطاقة الكهربائية بعيداً بخط ذي توتر عالٍ بين ميسباخ وميونخ. إذ يرى فيه مستقبل الاشتراكية، ويكتب هذا إلى إنجلز. ويعلم أيضاً باكتشاف روبرت كوخ لعصيات السل. لكنه يعرف بأن الأوان فات بالنسبة له.

في نهاية تشرين الأول / أكتوبر، يغادر كارل ابنتيه الكبريين للالتحاق بابنته الصغرى المنهارة التي ذهبت إلى فيفي للراحة. فيترك جينيشن مشرفة على الموت، للقاء إليانور وهي على شفا الانتحار. ويذهب الأب والابنة معاً إلى جزيرة وايت. وتسوء حالة ماركس حتى إنه لم يعد يستطيع ابتلاع أي شيء، ويتقيأ يومياً، كما كان منذ شبابه. وكان لا يزال في وايت، عندما يعتقل في كانون الأول / ديسمبر، غيد ولافارغ من جديد بتهمة إلقاء خطابات هدامة، ويعودان إلى السجن لستة أشهر، بتهمة «التحريض على الحرب الأهلية». إذ يقول غيد أمام المحكمة: «إنها الثورة التي أعطتنا المساواة أمام القانون؛ وثورة أخرى أعطتنا الاقتراع العام؛ وأخرى، أعطتنا الشكل الجمهوري في الميدان الاقتصادي. ولست إلا منطقياً باعتمادي على ثورة جديدة للحصول على المساواة في وسائل

الإنتاج، والاقتراع في المصنع، والجمهورية في الميدان الاقتصادي». وهو ما يوحي لماركس برسالة مديح إلى لورا عن زوجها، يثني فيها على مقالاته الأخيرة، وعلى «معركته الشجاعة ضد السلطات القائمة، التي تجعل هذا الإنسان جذاباً». وهو لا يزال في وايت مع إليانور عندما تموت جينيشن في 11 كانون الثاني / يناير 1883، وهي في الثامنة والثلاثين، تاركة خمسة أطفال، منهم هاري الجد مريض. ويغادر ماركس وايت مع إليانور، اليوم ذاته، عائداً إلى لندن، حيث تستقبله هيلين ديموث، وتبلغه بوفاة جينيشن وسفر إنجلز لحضور الجنازة. وكما فعل في مراسم دفن جيني، يلقي إنجلز كلمة لدى دفن ابنة ماركس البكر: «لقد فقدت البروليتاريا مناضلة شجاعة. وما يعزي أباها الحزين على الأقل، هو معرفته بأن مئات الآلاف من الشغيلة في أوروبا وأمريكا يشاطرونه حزنه».

في 20 كانون الثاني، يناير، يعود إنجلز من باريس، ليبقى إلى جانب صديقه حتى النهاية. فيتحدثان عن الكتب القادمة، وعن المخطوطات، وعما لم ينشر بعد. ويتحدثان أيضاً عن البنتين لورا وإليانور اللتين يعد إنجلز بمواصلة مساندتهما مالياً.

وفي 14 آذار / مارس، يقضي كارل ماركس نحبه ضحية لمرض السل، على مقعده، بحضور إليانور، بينما تغيب إنجلز عن الحجرة لبضع لحظات. لقد التقيا منذ أربعين عاماً، وما من يوم مضى منذئذ، كان الواحد فيه دون الآخر، بالكتابة على الأقل.

ويأخذ الرجل من جيب صديقه صور أبيه وزوجته وابنته البكر، وبعد ثمان وأربعين ساعة سيضعها في نعشه.

ودفن كارل إلى جانب زوجته، في مقبرة هايغات، ولم يشيعه إلا أحد عشر شخصاً: ابنتاه، إليانور ولورا، وصهراه بول لافارغ الخارج لتوه من السجن، وشارل لونغيه الذي يشرف أحد أبنائه على الموت، وهيلين ديموت، وستة من أتباعه الخلص، منهم إنجلز الذي يلقي كلمة

تأبين، هي عبارة عن نص طويل كتب بعد إمعان تفكير، يبشر، فيما وراء الحزن العميق الذي يشعر به الصديق الحميم، بالماركسية:

«في 14 آذار / مارس، الساعة الثالثة إلا ربع بعد الظهر، توقف أعظم المفكرين الأحياء عن التفكير. لم يكن وحيداً إلا دقيقتين، وعندما عدنا وجدناه نائماً نومه الأخير، في مقعده. وهي خسارة فادحة للبروليتاريا المناضلة في أوروبا وأمريكا، وللعلم التاريخي، موت هذا الرجل. وسيشعر الجميع قريباً بالفراغ الذي تركه رحيل هذا العقل العظيم. فكما اكتشف داروين قانون التطور الطبيعي، اكتشف ماركس أيضاً القانون الذي يُسيِّر حركة نمط الإنتاج الرأسمالي الحالي، والمجتمع البورجوازي الذي خلقه (..). وكان ممكناً أن يكفي هذان الاكتشافات لحياة ما. وسعيد الإنسان الذي كان بإمكانه القيام بواحد فقط. إلا أن ماركس في كل الميادين التي درسها، وقد درس منها الكثير وبعمق، في كل الميادين، وحتى في الرياضيات، قام باكتشافات. فهكذا كان رجل العلم. ولكنه لم يكن حتى النصف منه. إذ كان العلم دينامية تاريخية، وقوة ثورية. وفيما وراء ابتهاجه باكتشاف قوانين نظرية لا يمكن توقع نتائجها إلا بصعوبة، كان أيضاً طرفاً فاعلاً في التغيير الثوري ضمن الصناعة (..). لأنه كان أولاً وقبل كل شيء ثورياً. وكانت رسالته في الحياة الإسهام، بشكل أو بآخر، في تقويض المجتمع الرأسمالي والمؤسسات التي خلقها، من أجل تحرير البروليتاريا الحديثة التي كان أول من حدد شروط تحررها. والكفاح كان ميدانه. فكان يكافح بحماس وعناد ونجاح منقطعة النظير (..). وكان ماركس الرجل الذي كُره وافتري عليه أكثر من غيره في زمانه. إذ نفته الحكومات الاستبدادية أو الجمهورية. واجتمع ضده

المحافظون أو الديمقراطيون. لكنه لم يهتم بكل هذا إلا عند الضرورة القصوى. ومات وسط محبة وإجلال وبكاء الملايين من الرفاق الثوريين، من مناجم سيبيريا حتى كاليفورنيا، وفي أوروبا وأمريكا. وحتى لو كان له الكثير من المعارضين، فلم يكن له أعداء شخصيون. وسيخلد اسمه عبر العصور، وكذلك أعماله».

بعد أربعة أيام، يدفن في المدفن ذاته هاري لونغيه، أحد أبناء جينيشن الذي مات في الرابعة من عمره.

الفصل السابع

فكر العالم

في (ليمبو) رواية الخيال العلمي العظيمة التي كتبت في 1952، يروي بيرنارد وولف، حارس تروتسكي الشخصي السابق، قصة جراح متخصص بالدماغ، هو الدكتور مارتين. فبما أنه على رأس مستشفى ميداني أثناء حرب عالمية ثالثة يُفترض وقوعها في 1970 بين بلده هينترلاند وبقية العالم، يشعر بالتقزز من اضطراره لقطع أطراف جرحى الحرب بالجملة. ولذا يسجل في مذكراته الخاصة، أنه ما كان ليفعل ذلك لو كان بنو الإنسان منذ الولادة دون ذراعين ولا ساقين، وغير قادرين هكذا على ممارسة العنف. ثم إنه يفر ويلتجئ إلى جزيرة منسية، يسكنها الماندونجي، وهي قبيلة تمارس منذ أقدم العصور عملية خزع الفص الطقوسي المسماة (ماندونغا). وتشتد الحرب الناشبة إلى درجة تنقطع فيها العلاقات بين الجزيرة وسائر العالم. وبعد ثمانية عشر عاماً، تنزل إلى الجزيرة قوات من هينترلاند، الدولة المهيمنة، وهي تتكون من أناس غربيين، عُوضت أطرافهم بأطراف صناعية. فيكتشف مارتين عندئذ أن بلده تحت حكم أنصار سلام ينادون بقطع الأطراف الإرادي لكبح الغريزة القتالية. ولدى عودته متخفياً إلى وطنه، يفاجأ بأن صورة له وهو شاب تزين كل الأماكن العامة: فقد استولى أحد معاونيه القدامى على السلطة في هينترلاند، مقدماً نفسه على أنه الرسول الذي جاء يجمل الأقوال الطيبة لمسيح اختفى، هو الدكتور مارتين؛ وأضحت مذكراته الخاصة

الكتاب المقدس لإيديولوجية شمولية، تقاس قيمة الإنسان فيها بعدد الأطراف التي عمل على قطعها. فيشرع عندئذ في الكفاح ضد أطروحاته الخاصة في هذه الهينترلاند التي باتت شمولية، حالماً بجزيرة الماندونجي التي غدت الأمل الأخير في ولادة جديدة للحرية.

إن (ليمبو) أكثر من مجرد رواية عظيمة مجهولة أكثر من اللازم. فهي قرار اتهام ضد الطريقة التي تستحوذ بها السلطات على الأساطير والأديان والنظريات العلمية أو على المذاهب الفلسفية لتصنع منها إيديولوجيات؛ وهي أيضاً نقد لخرافة (الإنسان الجديد) «نصير السلام بعنف» أكثر فأكثر، الذي يتطلع كل مجتمع شمولي إلى خلقه؛ وهي أخيراً رواية التمرد على خيانة العقل من قبل القوة.

إذ يتكلم وولف هنا بالطبع عن ماركس وعن وجهه الكاريكاتوري الذي أمر باغتيال تروتسكي، ستالين، وهو في أوج سلطته. لأن ماركس، مثل الدكتور مارتين، لم يرد هذه الفظاعة، حتى وإن كان على الرغم من كل شيء مسؤولاً عنها على الأقل جزئياً.

وقد كان بإمكان وولف الكلام أيضاً عن المسيح وعن محمد وعن داروين أو نيتشه، الذين شوه الكثير من أتباعهم تعاليمهم - من محاكم التفتيش إلى الخمير الحمر، ومن الموحدين إلى النازيين - ليصنعوا منها أدوات لسلطتهم.

واليوم، وقد كادت النظم المعتنقة للماركسية تزول جميعاً من على سطح الأرض، تلوح في الأفق انتحالات من النمط ذاته. ولذا ينبغي أكثر من أي وقت مضى فهم كيف صار كارل ماركس، وهو الرجل الوحيد، الملاحق من كل شرطة القارة القديمة، المقوت حتى في معسكره الخاص الذي كانت جل أعماله مبعثرة حتى مماته مخطوطة في فوضى، بعد خمسين سنة من مراسم جنازته، المعبود المطلق لنصف البشرية، يُرغمون على إجلال كتاباته وعلى الانحناء أمام صورته المرفوعة على كل الأماكن العامة.

ذلك أن دراسة هذا التمجيد بعد الوفاة ستسمح بملاحظة أنه حتى يشكل كتاب ما أو مذهب ما أو دين ما أو رجل ما القاعدة المُبَرِّرة لأي نظام شمولي، ينبغي توافر ستة شروط؛ مثلما توافرت للدكتور مارتين لماركس، وهي: عمل يقدم رؤية كلية للتاريخ تشتمل على تمييز جلي بين حاضر كارثي ومستقبل مشرق؛ وما يكفي من التعقد والثغرات للسماح بعدة تفسيرات؛ وممارسة ملتبسة بما يكفي تتيح إمكان الاستحواذ السياسي؛ وصديق (أو عدة أصدقاء) له من الشرعية ما يكفي لاختزال العمل إلى مبادئ بسيطة؛ وقائد ذو ألق شخصي (كاريزمي) لحمل الرسالة أبعد من التلاميذ الأوائل، معتمداً على منظمة تدين له بالولاء؛ وأخيراً، وضع سياسي يسمح بالاستيلاء على السلطة.

فالرؤية الكلية للعالم هي رؤية (البيان) و(رأس المال)؛ والثغرات التي تتيح عدة تفسيرات هي التي تواكب كل أعمال ماركس. والممارسة المتسمة بالحرية والديكتاتورية في آن، هي ممارسته أيضاً. والصديقان اللذان سيدفنانه تحت عدة طبقات متعاقبة من التبسيط، ثم من الأكاذيب، كانا إنجلز وكوتسكي. والقائدان الكاريزميان، كانا لينين وستالين، وهما يعتمدان على الحزب الشيوعي والكومنترن. أما الوضع السياسي الذي أتاح استيلاء الماركسية على السلطة فكان الحرب العالمية الأولى، في روسيا وبروسيا، باعتبار هذا البلد وذاك الوارثين المنحرفين لهيغل وماركس، ولنزعة توجيهية وطنية، ولاشتراكية أممية. إذ هناك سيولد الانحرافان الرهيبان للقرن العشرين: النازية والستالينية.

وماركس عند مماته، يترك عملاً ضخماً، واضحاً وتتخلله الالتباسات في آن.

فرؤيته للعالم ترتكز في المقام الأول على التنديد بالعمل، وبتجريده، وبما يفضي إليه من انتزاع للمرء من نفسه وللآخرين. والعمل هو الذي ينتج التاريخ بحمله لصراع الطبقات الذي يلد هو نفسه الرأسمالية؛ والرأسمالية مدفوعة بطبيعتها إلى النمو عالمياً، وإلى المزيد

من استغلال عمل بني الإنسان، وإلى تحويل قسم من الخدمات أكثر فأكثر إلى منتجات صناعية، وإلى التكالب على البحث عن ربح يصعب أكثر فأكثر الحصول عليه، وإلى المطالبة بفضل قيمة مرتفع أكثر فأكثر لتعويض ارتفاع تكلفة الاستثمارات التي تجعلها المنافسة ضرورية. والرأسمالية عند ماركس محضِّرة («إذ لا تعني فكرتا حرية الاعتقاد والحرية الدينية إلا سيادة المنافسة الحرة في ميدان المعرفة»). وتقوم البورجوازية نفسها في نظره بدور ثوري: إذ تفجر طاقات البشرية، وتكسر عزلة الأمم، وتشجع «الهجرة الريفية إلى المدن، وهو ما يشكل تقدماً عظيماً، لأنها تقي بهذا قسماً كبيراً من السكان من غباوة الحياة في الحقول..».

والرأسمالية شرط مسبق لا بد منه للشيوعية «لا غنى عنه بتاتاً، فمن دونه تصبح الندرة عامة، ومع الحاجة سيعود الصراع من أجل الضروريات من جديد، وسنسقط حتماً في الوحل القديم». ولن تتمكن البروليتاريا من إحراز نصر حقيقي على البورجوازية إلا عندما «تكون مسيرة التاريخ هيأت العوامل المادية التي ستخلق ضرورة وضع حد للطرائق البورجوازية في الإنتاج، وبالتالي، للهيمنة السياسية للبورجوازية». فمن الضروري إذن التعجيل في تعميم الرأسمالية، وتشجيع العولمة والتبادل الحر: «إن النظام الحمائي اليوم عموماً محافظ، بينما التبادل الحر مدمر، إذ يحطم الأمم القديمة ويدفع بالصراع بين البروليتاريا والبورجوازية إلى أقصاه. فالتبادل الحر، بكلمة مختصرة، يعجل بالثورة، وفي اتجاه ثوري. أيها السادة، أصوت إلى جانب التبادل الحر».

والرأسمالية تحفر قبرها بنفسها بتغريب الشغيلة واستغلالهم. فهي تغربهم بافتراقهم عن الأشياء التي ينتجونها، وبالفتنة التي يمارسها عليهم المال؛ وهي تخلق إذاً عالماً «مُخيِّب الآمال» كل فرد فيه مغترب بالوجود نفسه للسلع التي يستهلكها وينتجها. وتستغل المنتجين بتحويل

قوة عملهم إلى سلعة، ثمنها (الأجرة، المتناسبة مع صيانة وتجديد قوة العمل) أدنى من القيمة التي تستطيع خلقها - والتي لا تستطيع إلا قوة العمل خلقها، لأن الآلات لا تضيف إلى الشيء الذي تصنعه من القيمة أكثر مما تحتوي. والفرق بين القيمة التي يخلقها العمل والقيمة المصروفة لإنتاجه - فضل القيمة - ملك لرأس المال، الذي يسعى إلى زيادتها بتخفيض رواتب الأجراء، وبتشكيل «جيش احتياطي صناعي» مؤلف من العاطلين في البلدان المصنعة ومن السوق الاستعمارية، وبزيادة إنتاجية العمل: «مهما كان معدل الأجور، عالياً أو منخفضاً، فلا بد لظروف العامل من أن تسوء بقدر ما يتراكم رأس المال». وذلك هو إفقار الطبقة العاملة.

وتحت هذه الضربات تزول الطبقة الوسطى. وتميل المنشآت الاقتصادية نفسها إلى التناقض بفعل منافستها الجامحة: «يغدو احتكار رأس المال عقبة أمام نمط الإنتاج الذي كبر معه وازدهر. فجماعية العمل ومركزية كل وسائله المادية تبلغان حداً لا تستطيعان فيه البقاء ضمن غلافهما الرأسمالي. إذ يتفجر هذا الغلاف إلى شظايا. وهكذا فإن نازعي الملكية، تُنزع ملكيتهم بدورهم». ويصبح رأسماليون أكثر فأكثر بروليتاريين. ومع أن كل منشأة تبذل جهدها للحفاظ فردياً على معدل الربح الذي تدره، إلا أن المعدل الكلي لا بد له من الانخفاض، نظراً لتزايد الاستثمارات، وهو ما يفضي بالضرورة إلى أزمات، ثم إلى ثورة، هي الوحيدة القادرة على تحويل طبيعة المجتمع، وخلق المجتمع الذي سيزول منه الاغتراب والاستغلال في آن: المجتمع الشيوعي.

وستسمح الديمقراطية البرلمانية بنشوء وعي البروليتاريا السياسي الضروري لقيام الثورة وللانتقال إلى الشيوعية. فكل ثورة عنيفة، كعهد «الرعب»، لا تخدم إلا البورجوازية. «إن الطريق المؤدية إلى السلطة السياسية في إنجلترا، على سبيل المثال، مفتوحة للطبقة العاملة. وسيكون التمرد حماقة حيث يمكن للنشاط السلمي تحقيق كل شيء بسرعة

وأمان». وما إن تستلم السلطة بالأسلوب الديمقراطي حتى يتوجب على الأكثرية الاحتفاظ بها، بفضل «ديكتاتورية البروليتاريا»، وهي تتلخص باستعمال وسائل الديمقراطية في خدمة الأكثرية «لإسقاط الآلة القمعية» مع الإبقاء على الحريات الفردية، وفصل السلطات وحرية الصحافة. أما في البلدان التي لا توجد فيها ديمقراطية ولا رأسمالية، وبخاصة في روسيا، فلا يمكن لأية ثورة أن تنجح إلا إذا اندلعت في الوقت ذاته ثورة عالمية: «إذا ما أعطت الثورة الروسية الإشارة لثورة بروليتارية في الغرب، وتكاملت الاثنتان كلتاهما، فإن من الممكن للملكية الجماعية في روسيا أن تستخدم نقطة انطلاق لتطور شيوعي».

وحتى يحصل مثل هذا الوعي لدى الطبقات العمالية، يجب أن تُنظم أحزاب تمثلها، وتتقدم للانتخابات وتكسبها؛ ويمكنها بلوغ ذلك، حتى وإن كانت الإيديولوجية المهيمنة هي إيديولوجية سادة الاقتصاد، لأن الفعل والفكر البشريين ليسا حبيسين للبنى الاقتصادية. فكما يمكن لأعمال فنية حرة أن توجد، دون صلة بعلاقات القوة الاقتصادية، يمكن أن يوجد فكر سياسي حر. ويستطيع المضطهَدون التمرد بانفتاحهم على «وعي طبقي». إذ إن الأفراد هم الذين يصنعون التاريخ، وليست الجماهير.

ما إن تزال الدولة، حتى تقوم الشيوعية. وسيتمتع كل واحد فيها بحرية استعمال وقته كما يروقه، وستكون السلع متاحة بوفرة، مجاناً، ووسائل الإنتاج مملوكة للجماعة. ولن تكون الشيوعية إذاً مجتمعاً جامداً بصفة نهائية، بل «حركة» دؤوب نحو حرية فردية، ينبغي افتكاكها دون هوادة، وابتداعها، بحيث يحقق كل فرد تطلعاته: «ففي مجتمع شيوعي (على سبيل المثال)، لن يكون هناك فنانون رسامون، بل على الأكثر أناس، سيقومون بالرسم، من بين أشياء أخرى». وسيتم فيه التوافق بين الحرية والمساواة من طريق المساواة الحقيقية وليست النظرية في الحقوق والحريات الفردية.

ولا يمكن للشيوعية أن تكون إلا على نطاق عالمي؛ فلا تستطيع ثورة أن تنجح بصفة مستدامة في بلد واحد لأن «البروليتاريا لا تستطيع أن توجد هكذا إلا ضمن التاريخ العالمي؛ ونشاطاتها على غرار الشيوعية، لا يمكن أن يكون لها سوى وجود تاريخي – عالمي». وهكذا يجعل ماركس من «الاشتراكية» مجيئاً عالمياً جديداً للمسيح، يتصالح الإنسان فيه مع عمله، ويبلغ فيها الخلود من خلال طبقته التي، باستلامها السلطة، تتحقق وهي تنفي ذاتها.

وكل المستقبل يكمن في هذا الإبهام المخيف. لأن مذهب ماركس يتضمن ما يكفي من الالتباسات، بحيث يسمح بالعديد من التفسيرات. فماركس، على غرار من قبله ومن بعده، يخطئ في التواريخ وفي الآجال. ولدى كل أزمة جديدة، يجد نفسه مضطراً لإقحام مرحلة إضافية فيما بين التوسع غير المتوقع والانهيار المحتوم، كما أنه لا يوضح أيضاً كيفية قياس فضل القيمة ومعدل الربح. ولا يقول كيف، ولا إلى كم من الوقت، ستتمكن الرأسمالية من تأخير أزمتها النهائية. ولا يفسر ما إذا كانت ديكتاتورية البروليتاريا لا رجوع عنها، وكيف يتم ذلك، وبعبارة أخرى ما سيحدث عندما ترغب أكثرية شعبية – مع التباس في كلمة شعبية – قطع مسيرة الثورة. ولا يقول شيئاً أيضاً عن طبيعة المجتمع الشيوعي، ولا عن الأسلوب الذي سيجري به تملك المنشآت الاقتصادية جماعياً، ولا عن دور الدولة المتبقية: إذ يجعل الجواب على هذه الأسئلة تابعاً لدراسة كل حالة بعينها. أخيراً، ثمة التباس أخير، عندما يمجِّد العامل مع اعتباره العمل، من حيث طبيعته، وأياً كان المالك، اغتراباً لا يطاق في حد ذاته.

ومن جهة أخرى، فإن سلوكه الشخصي المتسم بالحرية عموماً، على مسافة سنين ضوئية أحياناً من مثله الأعلى. فبما أنه صحافي قبل كل شيء، هو يعد حرية الفكر – وإذاً الديمقراطية البرلمانية التي تزدهر فيها – أكثر الحقوق تقديساً. ويختار طوال حياته تفضيل الحرية، ومواجهة أفكاره بالوقائع، ويرفض أن يتجمد مذهبه وأن يعتبر صاحب

إيديولوجية. وهو على وعي بأخطائه الخاصة: إلا أنه وهو الذي يراهن على طيبة الإنسان ويدعو إلى تسليمه مفاتيح مجتمع حر، يعرف كيف يبدو مزدرياً وعلى «غطرسة مهينة، لا تطاق». فهو يشتم (كما في «بؤس الفلسفة»)، ويطرد (كما في «المنشور ضد كريغ»)، وهو يلعن (كما في «العائلة المقدسة»). وهو يهين رفاقه، مثل أوغست فون ويلليش؛ ويتخلى لنزاعات إيديولوجية عن صداقات (مع أوتو بوير، موزس هس، أو أرنولد روج)؛ ويصل إلى حد القيام بتحقيقات بوليسية حول أعدائه (مثل باكونين أو اللورد بالمرستون). ويترك أطفاله يموتون من الفاقة دون أن يبذل قصاراه لكسب معيشته.

إنه يدرج نظريته عن قصد ضمن الكفاح، بتصور حياته وبنائها كجيئة وذهاب باستمرار، فيما بين الفعل الذي يستهويه والكتابة التي تلح عليه، جاعلاً من الاقتصاد السياسي أداة لتمرد الفقراء والمضطهدين والمستضعفين؛ وهو مادي يؤمن بقوة العقل، وفيلسوف يرى أن الاقتصاد يحرك التاريخ، والفعل في نظره يسبق النظرية؛ وهو متشائم يولي الإنسان ثقته. وقريباً، سوف يشوه آخرون نظريته لوضعها في الممارسة، بمحاولة تقليد سلوكه كالقرود.

هؤلاء الآخرون، هم: إنجلز الذي اخترع مفهوم حزب الطليعة؛ وكوتسكي الذي شوه نظرية ماركس الاقتصادية؛ ولينين الذي سيستورد الماركسية إلى روسيا كاستراتيجية لتغريب بلد متخلف؛ وستالين الذي سيجعل من ديكتاتورية البروليتاريا، ديكتاتورية تُمارس على البروليتاريا بعد تصفية الطبقات الأخرى.

وستجري أفعالهم على أربعة مسارح: بريطانيا العظمى التي لم تحتفظ من ماركس إلا بالممارسة الاجتماعية - الديمقراطية، دون اسمها؛ وفرنسا التي لن تحتفظ منه إلا بالمصطلح، دون الممارسة السياسية؛ وألمانيا وروسيا، اللتان ستحققان شكلين كاريكاتوريين من مشروعه: فستختار ألمانيا شمولية وطنية ضد الأممية الشيوعية؛ وستعوض روسيا

شمولية وطنية بشمولية أخرى مستندة إلى الشعارات الأممية. وكلتاهما الوريثتان لبسمارك (أي للديكتاتورية البروسية)، أكثر مما هما لماركس (أي لمنطقة الراين وللثورة الفرنسية).

ولبناء أداة الاستيلاء على سلطة الدولة التي كان ماركس يرتاب بها منذ شبابه، سيتوجب على هؤلاء الأتباع إعادة كتابة مسيرة حياته بعناية، ثم تطهير أعماله حتى يلائموها مع الشكل الكاريكاتوري الذين هم بحاجة إليه؛ وسيتوجب عليهم أخيراً رفع كتاباتهم إلى مستوى كتاباته ذاته، حتى يدّعوا الحق في التعبير باسمه.

بعد وفاة ماركس، كان فريدريك إنجلز وابنتي كارل الوحيدتين القادرتين على قراءة ما خطه في أوراقه، «هذا الخط، وهذه الاختزالات لكلمات ولجمل كاملة». وتمضي إليانور ستة أشهر في إخراج حزم المخطوطات والرسائل والكتب من العلب والرُّزَم. ولحسن الحظ، لا يزال عقد إيجار منزل 41 ميتلاند رود، سارياً لعام آخر، ولديها الوقت لذلك، حتى وإن استقرت في الوقت ذاته عند إدوارد أفيلينغ، الصحافي الاشتراكي الذي تصاحبه منذ عام ولم يتم طلاقه بعد. ولا تساعدها أختها لورا التي تقيم في باريس إلا قليلاً. وهي تنشغل على وجه الخصوص بأبناء أختها جينيشن الخمسة. بينما يواصل إنجلز مساندة ابنتي كارل مالياً كما فعل مع الأب، وفاءً بالعهد الذي قطعه لصديقه قبل وفاته.

ويعيش أخوات كارل الأربع أبعد من أن يستطعن الاهتمام بمصير أعماله: فالأولى في إفريقية الجنوبية، والأخريات لويز وصوفي، تعيشان في هولندا، والرابعة، إيميل في تريفز. وتترك هيلين ديموث المنزل لتعمل مدبرة لدى إنجلز. وابنها فريدريك، يتقرب من إليانور التي لا تزال تجهل كل شيء عن قرابتهما.

وتنشر إليانور في عدة صحف لندنية ودولية إعلاناً يطلب من الأشخاص الذين كانت بحوزتهم رسائل أو وثائق من ماركس أن يوصلوها

إليها «لنسخها توطئة لنشرها». فتقرأ ابنة صوفي، أخت كارل الكبرى، واسمها ليناسميث، في ماستريشت، هذا الإعلان في الصحافة الهولندية، وتعثر في أوراق أمها التي ماتت بُعيد ماركس، على رسالة من خالها، الوحيدة التي حُفظت: وهي رسالة كارل الجد هامة إلى أبيه في 1837، المذكورة في مستهل هذا الكتاب. وكانت صوفي حصلت على هذه الرسالة من أمها التي تركتها لها قبل وفاتها. وهو ما يدل على الأهمية التي كانت تكتسبها بالنسبة للعائلة. وهو يدل أيضاً على أنه مع نفور شقيقات ماركس الظاهر من أفعاله، إلا أنهن كن على غرار والدتهن يشعرن بفخر مكتوم إزاء شقيقهن. لكن إليانور تتساءل إذا ما كان أبوها يحب نشر هذا النوع من المراسلات الخاصة، وتحتفظ بها لنفسها.

وسط هذه الفوضى العارمة؛ يأخذ إنجلز من بيت ماركس، بموافقة إليانور، المخطوطات المكمِّلة للكتب الثاني والثالث والرابع من (رأس المال) التي ينوي نشرها، كما اتفق مع صديقه قُبيل وفاته. ولا يقرب المخطوطات الأخرى، المتعلقة بالمؤلفات السابقة غير المنشورة. لكنه يجد صعوبة في تنظيم هذا الخليط. إذ يكتب إلى القائد الاشتراكي الألماني بيبل الذي يبدي قلقه، في 30 آب / أغسطس: «لو كنت أعلم، ما كنت لأتركه هادئاً ليلاً أو نهاراً قبل أن يَتِم العمل ويُطبع». فلماذا يكتب هكذا لرئيس الحزب الاجتماعي – الديمقراطي الألماني؟ ذلك لأن قادة الحزب الألماني، في اليوم التالي نفسه لرحيل ماركس، يعبرون عن اهتمامهم بأعماله التي يرغبون في الاستحواذ عليها ونشرها. فعبقري الاشتراكية ألماني؛ ويجب بالتالي أن يسود أولاً في ألمانيا.

وهكذا يغدو ماركس رهان معركة ألمانية أولاً، قبل أن تصير روسية. ولن تكون أبداً إنجليزية ولا أمريكية. ولن تكون فرنسية إلا بصفة هامشية.

في تشرين الأول / أكتوبر، يلازم إنجلز السرير مريضاً لثمانية أسابيع، فيدرك أنه يحتاج لمساعدة لإنجاز المهمة. وفي هذه اللحظة،

وبمناسبة عيد ميلاده، يأتي كارل كوتسكي لزيارته في لندن. والشاب عندئذ مساعد لبيبل في برلين، وقد أسس لتوه (نيو زيت) المجلة النظرية للحزب الألماني، وهو عدو لأتباع لاسال، ومعجب بماركس وبإنجلز، وقارئ شديد الحماس لـ(المضاد لدوهرينغ) ولـ(رأس المال). ترى هل يأتي إلى لندن بملء رضاه؟ وهل أرسل من قبل بيبل؟ و«يعلّمه» إنجلز، على كل حال، قراءة مخطوطات ماركس ويقدمه لإليانور التي تطلعه على رسالة 1837 من كارل إلى أبيه. فيود كوتسكي نشرها في (نيو زيت)، لكن إليانور تعترض على ذلك، لأن الرسالة شديدة الحميمية. ويقترح إنجلز على كوتسكي المجيء للعمل معه على نشر أعمال ماركس. وكوتسكي يعد بالتفكير في الأمر، ويعود إلى برلين.

في السنة التالية (1884) تغادر إليانور مع رفيقها إدوارد أفيلينغ والكاتبين ويليام موريس وصموئيل بتلر، الفيدرالية الديمقراطية لهنري هيندمان التي تصير الفيديرالية الاجتماعية – الديمقراطية؛ ويؤسسون عندئذ العصبة الاشتراكية. وفي الآونة ذاتها تُنشأ مع جورج برنارد شو حركة اشتراكية إنجليزية أخرى، هي الجمعية الفابية، نسبة إلى اسم القائد الروماني فابيوس الملقب بـ«المتريث» نظراً لرفضه لأية معركة مواجهة مقابل هانيبال. فهناك عندئذ ثلاثة تيارات يسارية في إنجلترا، مستوحاة جميعها من ماركس: التيار الاجتماعي الديمقراطي، والاشتراكي والفابي. وهذه الجمعية الفابية التي تنادي بـ«تشرُّب» المجتمع بالأفكار الماركسية دون ثورة، سيولد منها بعد عشرين سنة حزب العمال الحالي.

وفي تلك السنة، يؤسس مهاجر روسي هو جورج بليخانوف، في جنيف، أول مجموعة ماركسية روسية هي تحرير العمل. فيترجم (العمل والأجرة ورأس المال)، النص التبسيطي الذي كتبه ماركس في بروكسل 1847 موجهاً للعمال، ويوصله إلى روسيا.

فيوعز إنجلز عندئذ لهيلين بنقل جل المخطوطات الباقية في منزل

ماركس إلى بيته، ولا تحتفظ إليانور إلا بالرسائل الشخصية وما كُتب بالإنجليزية.

في 1885، يقبل كوتسكي الذي أمضى الشهور الفائتة في جمع ذكريات من شهود ألمان عن ماركس، عرض إنجلز، ويأتي للإقامة في لندن مع زوجته لويز، الممرضة النمساوية. وهو في الواقع مبعوث من قبل الحزب الألماني؛ وهدفه الوحيد استرجاع مخطوطات ماركس إلى وطنه لتشكل الأساس الإيديولوجي للحزب الاشتراكي الألماني. فيجد إنجلز لويز جذابة («لديها جسم صغير جميل» كما يقول) ويجعل منها مدبرة لمنزله. وسرعان ما يسيطر الزوجان على «الجنرال العجوز» (إنجلز)، وعلى المخطوطات، وفي النهاية على «الماركسية»، إذ سينشر كوتسكي فيما بعد الروايات الأولى حول ماركس في (نيو زيت)، مسهماً بهذا في صنع أسطورته، وهي: (ذكريات عامل عن كارل ماركس) لشخص يدعى فريدريك ليسنر، صادفه في برلين؛ ومقال لسورج عن كارل ماركس؛ وبخاصة (الذكريات الشخصية) لبول لافارغ التي ذكرناها كثيراً هنا، وطلبها كوتسكي نفسه من زوج لورا، وتمثل النص الأول عن سيرة مؤلف (رأس المال).

ومنذ وصوله إلى لندن، خلال صيف 1885، يكتب كوتسكي بعض الملاحظات مع نُذُر مرعبة حول الحزب الاشتراكي الألماني لكتاب تبسيطي عن الماركسية، يقوم بتهيئته: «لا يحلم كل مفكري الحزب تقريباً إلا بالفكرة الوطنية، وببعث الماضي الجيرماني القديم وبالمستعمرات، ولا يفكرون إلا بالتزلف للحكومات، واستبدال صراع الطبقات بسلطة «العدالة»، وإبداء نفورهم من التصور المادي للتاريخ – هذه العقيدة الماركسية، كما يسمونها». ويسهم هذا في الانحراف الذي سيقود، بعد ثلاثين سنة، إلى تشكيل الحزب الوطني – الاشتراكي (النازي).

وينكب الرجلان من فورهما على العمل، وينشران نهاية العام الكتاب الثاني من (رأس المال) لدى أوتو ميسنر. ومقدمة إنجلز منذ

البداية كاذبة: «اكتشف ماركس القانون الأول الذي ليس كل الصراعات التاريخية، سواء جرت في الميدان السياسي أم الديني والفلسفي أو في أي ميدان إيديولوجي آخر، طبقاً له في الواقع إلا التعبير الجلي إن قليلاً أو كثيراً عن صراعات الطبقات الاجتماعية» - بينما بيَّن ماركس دائماً أن الأفكار والفنون كانت مستبعدة من صراع الطبقات. ثم هذه الكذبة الثانية: «ولهذا القانون، بالنسبة للتاريخ، الأهمية ذاتها لقانون تحول الطاقة في العلوم الطبيعية». إذ تصبح «الماركسية» هكذا بقلمه، حقيقة غير قابلة للنقاش، بينما كانت النظرية الاجتماعية بالنسبة لماركس، كما رأينا، علماً مفتوحاً، و«حركة» في خدمة السياسة التي يجب أن تتوارى أمامها.

وفي السنة ذاتها، يقف إنجلز إلى جانب النقابات النسائية التي تشرع في الدفاع عن مصالح النساء الخاصة في عالم الشغل.

وهو ليس الوحيد في تشويه حقيقة ماركس. فإليانور نفسها لا تفعل أقل منه. وهكذا، تنشر السنة ذاتها رسالتي أبيها الهجائيتين الموجهتين ضد بالمرستون (التاريخ الديبلوماسي للقرن الثامن عشر، وقصة حياة اللورد بالمرستون)، حاذفة منهما الفقرات الأشد عدائية لروسيا كي لا تضايق أصدقاء أبيها الروس. أما في باريس، فتترجم لورا الأكثر وفاء (بيان الحزب الشيوعي) إلى الفرنسية، مباشرة عن الألمانية هذه المرة. وحيث كانت الترجمة الأولى (من الإنجليزية إلى الفرنسية) تقول: «نحن ملاحقون من قبل شبح، شبح الشيوعية» تكتب لورا: «إن طيفاً يتسلط على أوروبا هو طيف الشيوعية». وفي تلك السنة أيضاً، تساند لورا زوجها وغيد اللذين يمثلان للمرة الثالثة أمام المحاكم، لأنهما تكلما هذه المرة عن «البندقية المحرِّرة». وعلى سبيل الدفاع، يصرح غيد: «لا أتنكر إلى أي من كلماتي. لكن هذه البندقية لم تكن مصوبة ضد رجل لا تهمنا حياته لا قليلاً ولا كثيراً (..). لقد كانت بندقية أيامكم العظيمة، أيها السادة البورجوازيون، بندقية 14 تموز / يوليو و10 آب / أغسطس،

بندقية 1830 و1848، بندقية 4 أيلـول / سـبتمبر 1870 التـي حملـت إلـى السلطة الطبقة الوسطى. وستحمل إليها - ومـع الحقـوق ذاتها - الطبقـة العاملة». وعلى عكس ما حدث قبل عامين، برأت لجنة المحلفين الشعبية جول غيد وبول لافارغ، لأن الأحوال تتغير؛ ويستطيع الاشتراكيون الكلام بحرية أكبر. حتى إنه من الممكن تماماً، منذئذ، نشـر أعمال مـاركس فـي باريس دون خشية الرقابة. إذ ينشر المدعو غابرييل دريفيل خلاصة أولى بالفرنسية لـ(رأس المال) في (لمحات حول الاشتراكية العلمية).

ويواصـل إنجلـز فـرز مخطوطاتـه الخاصـة ومخطوطـات كـارل بمساعدة الزوجين كوتسكي، وفكرتهما الثابتة العثور على اللحظة المناسبة لإعادة مخطوطات مـاركس ومسـودات كتبـه ومسـودات الكتـب التـي لـم ينشرها إلى ألمانيا. وفي السنة التالية، يعمل إنجلز على إصدار (إحدى عشرة أطروحة حول لودفيغ فويرباخ) ويدخل فـي مقدمته تعبير «المادية الديالتيكية» حيث كان ماركس يتكلم من جهته على «الديـالكتيك المـادي». والفرق بين التعبيرين ليس ضئيلاً: فالديـالكتيك منهج؛ والمادية فلسفة. لكن ها هي الفلسفة نفسها تتحول إلى ديالكتيك، أي معرضة لقبول كل التناقضات الداخلية. وهو ما سيحاول بليخانوف، أول الماركسيين الروس، التنظير له في صيغة يكفي غموضها للسماح بكل التأويلات: إن «المادية الديالكتيكيـة» نظريـة مؤداهـا أن ثمـة «تنـاقض بـين الطـابع المتصـوَّر بالضرورة مطلقاً للفكر الإنساني، ووجوده بـالفعل فقـط لـدى أفراد ذوي فكر محدود، وهو تناقض لا يمكن حله إلا في التقدم اللانهائي». وبعبارة أخرى، إن التنـاقض ضمن الفكر مشـروع إذا مـا اسـتهدف التوفيـق بـين الطوبائية والممارسة. وبعبارة أخرى أيضاً، إن الاستبداد مشروع إذا خدم الثورة، فها هـو مـاركس وقـد حُـرِف بعمـق بـهذا الانـزلاق الخفيـف فـي التركيب اللغوي.

وإليانور المستمرة في ولعها بالمسـرح، الـذي تـرى فيـه وسـيلة لنشـر الاشتراكية، تترجم إبسن عن النرويجية، و(مدام بوفـاري) عن الفرنسية.

وتعمل في ترجمة إنجليزية جديدة لـ(رأس المال) انطلاقاً من الطبعة الألمانية الثالثة، بمساعدة إدوارد أفيلينغ الذي تعيش معه، وصموئيل مور (المتخصص بالقانون، صديق ماركس، الذي كان رفض استقبال لاجئي الكومون). ويراجع إنجلز الترجمة. وبما أنها لا تزال على شفا الانهيار، لعجزها عن جعل رفيقها يطلق زوجته، فهي تقدم على محاولة الانتحار.

ويرى إنجلز أن الوقت حان من جديد، لكل الطبقات وكل الشعوب المضطهدة لـ«تلتحم في دولية اشتراكية، كعائلة جديدة، وهوية للشعوب جديدة، تجمع عمالاً وأقليات من كل صنف في المعركة ذاتها ضد البورجوازية». ولقلقه من الأضرار التي تبدأ معاداة السامية (الكلمة ابتدعت لتوها) في إحداثها ضمن الطبقة العاملة الألمانية، فهو يأسف لاستعمالها «سلاحاً للدعاية البورجوازية لتحويل الجماهير العمالية عن مشاعرها المضادة للرأسمالية». ويخشى من «استخدام كراهية اليهود لصرف غضب الطبقات المستغَلة المشروع ضد أرباب العمل، وإبعادهم عن الأحزاب الثورية». مضيفاً: «إن الطبقات البورجوازية بتحريض العمال على معاداة اليهود، تتجنب أن تُوجَّه المطالب العمالية ضدها». ويعرِّف الأحزاب العمالية على أنها طليعة الطبقة العاملة.

في 1887، لا تجد الطبعة الإنجليزية الجديدة لـ(رأس المال) الصادرة لدى سوان سونينشاين، عملياً أي قارئ. وإذا ما بيعت خمسة آلاف نسخة في الولايات المتحدة، فذلك لأن الناشر، كما تقول بعض المصادر، روج للكتاب بين رجال المصارف بتقديمه كمنهج لكسب الثروة!

في هذه السنة ذاتها، ينشر كوتسكي الذي لا يزال مقيماً لدى إنجلز أول كتاب تبسيطي له، (مذهب ماركس الاقتصادي). وفي 11 أيار / مايو، من هذه السنة أيضاً، المدعو ألكسندر أوليانوف، الأخ الأكبر للينين المستقبلي، يشنق بأمر من القيصر. فيكتب الفوضوي الروسي كروبوتكين بسويسرا في صحيفة (لوريفولتيه) [المتمرد]: «إن من الوهم الاعتقاد بأن من الممكن الانتصار على تحالف المستغِلين ببضعة كتب متفجرة».

فـي السـنة التاليـة (1888) يمـوت القيصـر غليـوم الأول وخليفتـه فريدريك الثالث، الذي يترك عرش بروسيا لابنه، غليوم الثاني. وينتهي عهد بسمارك. فيستعيد حـزب بيبـل الاجتمـاعي - الديمقراطـي حريـة النشـاط، ويقيم هياكل ثابتـة بعد إلغاء القوانـين التـي كـانت ترغمـه علـى العمل السري. والمناضلون الذين عـانوا مـن المرحلـة السـابقة، وقـاوموا المحاكمات والسجن، يصلون إلـى مراتـب المسـؤولية ويصبحـون دائمـين، معتقدين بأن الثورة وشيكة الوقوع. إلا أنـه مـن غير الممكـن بعـد، نشـر أعمال ماركس في ألمانيا.

في هذه السنة أيضاً، يطرد محررو صحيفة (سـوزيال ديموكـرات) من سويسرا؛ فيُرسَل الشاب الذي يديرها، إدوارد برنشتاين، من قبل بيبل إلى لندن لمساعدة كوتسكي، ليصبح غريمه لدى إنجلز، بينما يصبح طبيب يعتني بإنجلز، هو الدكتور فريبرجر، غريم كوتسكي لدى لويز.. أما إنجلز فمشغول تماماً بتهيئة ثأره من الماضي: إذ ينوي، بعدمـا أضحـت الأحـزاب الاشتراكية مشروعة، إقامة الدولية والاضطلاع بالدور الذي أداه مـاركس بدونه في الأولى..

وفـي تمـوز / يوليـو 1889، يتجمـع اشـتراكيون فـي بـاريس بمناسـبة العيـد المئـوي للثـورة الفرنسـية. ويعـرض كـل منـدوب لتقـدم الأفكـار الاشـتراكية فـي بلـده. فيتطـرق بليخـانوف، منـدوب المجموعـة الماركسـية تحرير العمل إلـى الوضـع الروسـي: «إن حكومتنـا، مدفوعـة بالحاجـة إلـى المـال، تسـهم بكل قواهـا فـي تقـدم الرأسـمالية فـي روسـيا. وليـس لـهذا الجانب من نشاطها إلا أن يبهجنا نحن الاشتراكيين، لأن الطبقة المستبدة، تحفر بهذه الوسيلة قبرها. وستوجه البروليتاريـا التـي هـي قيـد التشكل عقب انحلال المجتمع الزراعـي الضريـة القاضيـة للحكم المطلق. وإذا مـا كـانت مهمـة مثقفينـا الثوريـين تقـوم، بنظـر الاجتمـاعيين - الديمقـراطيـين الروس، على استيعاب نظريات الاشتراكية العلمية الحديثة، وإشاعتها بين العمال، واقتحام قلعـة الحكـم المطلـق بمسـاعدتهم، فإنـه لا يمكـن للحـركـة

الثورية الروسية أن تنتصر إلا بصفتها حركة ثورية للعمال. فما من حل آخر، ولا يمكن أن يكون ثمة حل آخر». وبعبارة أخرى، لا تفتح الماركسية، كعلم للاشتراكية، الطريق إلى الثورة إلا إذا ترسخت الرأسمالية.

ويضع المندوبون الأسس لدولية جديدة، ستُعرف قريباً باسم الدولية الاشتراكية. تنادي مثل الأولى بأولوية العمل البرلماني، وتندرج ضمن الاتجاه الماركسي، معتزمة ضم أحزاب، ولكن أيضاً نقابات. لكن بخلاف الأولى، في المقابل، يتمتع كل فرع وطني باستقلال ذاتي كلي؛ ذلك أنها تريد أن تكون فيدرالية لأحزاب وطنية، مع هياكل قليلة، دون أمانة عامة. والفوضويون الذين ينبذون العمل السياسي، مستبعدون منها.

وتنصب النقاشات الرئيسة على الاختيار بين الثورة والإصلاح، وعلى النزعة الاستعمارية. وانسجاماً مع الحملة التي أطلقتها في الولايات المتحدة فيدرالية العمل، تقرر أن تنظم في 1 أيار / مايو من السنة التالية، تظاهرة دولية من أجل تحديد العمل بثماني ساعات يومياً.

ولعزم إنجلز على متابعة تشكيل الأحزاب الاشتراكية ووضع البرامج عن كثب، يعمل على أن يُنتخب رئيس شرف للدولية الجديدة. فيؤكد من جديد في 18 كانون الأول / ديسمبر من هذه السنة 1889، ضرورة خلق أحزاب شيوعية قوية، وخاصة في ألمانيا، تكون طليعة للطبقة العاملة، إذ يكتب إلى صديق ألماني: «حتى تكون البروليتاريا يوم الحسم قوية بما يكفي للانتصار، لا بد أن تتكون كحزب مستقل، حزب طبقي واعٍ، منفصل عن سائر الأحزاب. وهو ما لم ننفك أنا وماركس عن الدفاع عنه منذ (البيان) في 1848».

وكوتسكي الذي يواصل مع برنشتاين فك رموز الكتابين الثالث والرابع من (رأس المال)، يطلق لويز التي تعود إلى فيينا لاستئناف عملها كممرضة. فيقترح بيبل عندئذ على كوتسكي أن يتفرغ للحزب، ويستلم أعلى المناصب الإدارية، منصب الأمين العام، فيعود إلى ألمانيا راجياً استعارة مخطوط الكتاب الرابع - «لمواصلة العمل فيه»، كما يقول - دون

غيره، لكن إنجلز يرفض التخلي عنه. ويحل برنشتاين محله للتكفل بالمهمة نفسها، أي: إعادة مخطوطات ماركس إلى ألمانيا.

وفي برلين، تلك السنة، يغير الحزب الاجتماعي - الديمقراطي لشغيلة ألمانيا اسمه، ليصبح (الحزب الاجتماعي - الديمقراطي SPD)، وهو الاسم الذي لا يزال يحمله إلى اليوم؛ ويهيئ عندئذ بإشراف ليبكنيخت برنامجاً، يقدم إنجلز الذي يتدخل في كل شيء يد المساعدة فيه، ويتضمن: الاقتراع العام والضمان الاجتماعي والتقاعد للجميع وحماية العاطلين والاعتراف بالنقابات؛ وتُقترح ملكيات جماعية، لكن دون تعدادها بالتفصيل. وفي 20 آذار / مارس 1890، يقدم المستشار بسمارك استقالته؛ ويكسب الحزب الاجتماعي - الديمقراطي في انتخابات تلك السنة أصواتاً.

خلال رسالة إلى بول لافارغ في 27 آب / أغسطس، ينقل إنجلز القول الذي كرره ماركس عدة مرات في نهاية حياته: «أنا، لست ماركسياً». وفي برلين، يتزوج كوتسكي لويز أخرى.

وفي 18 تشرين الثاني / نوفمبر، تموت هيلين ديموث بالسرطان؛ وطبقاً لوصية ماركس وجيني، تدفن في مدفن آل ماركس نفسه إلى جانب الزوجين والصغير هاري، بمقبرة هايغات. وبعد أربعة أيام، يكتب إنجلز عنها في صحيفة الميثاقيين القديمة: «فيما يتعلق بي، إن العمل الذي استطعت القيام به منذ موت ماركس يرجع الفضل في الكثير منه إلى الشمس والمساندة اللتين كان يمثلهما حضورها في المنزل». ويقدم أحد الشهود، وهو ف. ليسنر، الأمر بطريقة أخرى: «إن فقدان هيلين ديموت كان مؤثراً جداً على إنجلز. ولحسن الحظ، اتخذت السيدة لويز كوتسكي، أعني السيدة فرايبرجر اليوم، القرار بمغادرة فيينا والمجيء إلى لندن لتدبير منزل إنجلز». وواقع الحال، أن الأمر يجري بطريقة أخرى أيضاً: إذ إن بيبل وليبكنيخت هما اللذان يعيدان لويز إلى لندن، لأنهما يريدان «أحداً منهم»، في هذا المنصب، ولم تعد لهما ملء الثقة

ببرنشتاين الذي يسمح لنفسه بنقد ماركس أكثر قليلاً مما يروقهما. «فمن واجبه إزاء الحزب أن يقيم هنا»، كما يشرحان للويز، وكما تكرره هذه لدى وصولها، لإليانور التي تبلغه للورا برسالة في 19 كانون الأول / ديسمبر 1890. أما مهمة لويز فهي مهمة كوتسكي وبرنشتاين ذاتها: إعادة مخطوطات ماركس إلى ألمانيا، ما إن يصبح ذلك ممكناً.

في 1891، تشارك في المؤتمر الأول للدولية الاشتراكية المنعقد في بروكسل، كونفيدراليات نقابية، وتعاونيات عمالية، وأحزاب. وبعد ذلك بقليل في السنة ذاتها، يوجز كارل كوتسكي في المؤتمر الأول للحزب الاجتماعي - الديمقراطي المجتمع في إرفورت، رأي الاشتراكيين الألمان، مصرحاً بأن التطور التلقائي للرأسمالية ينبغي أن يفضي إلى التفجر الثوري. ويظن الجميع أن انتصار الاشتراكية منذئذ ليس موضع شك، وأنه من طبيعة الأشياء؛ وستؤول السلطة إليهم في القريب العاجل.

ويخشى القادة الليبراليون والمسيحيون ذلك أيضاً، إذ يطلب البابا ليون الثالث عشر، في السنة ذاتها، ضمن منشور بابوي، من الدول «أن تقوم بما يلزم بصفة خاصة حتى لا يعوز العامل العمل في أي وقت من الأوقات، وأن يكون هناك صندوق احتياط مخصص ليس فقط لمواجهة الحوادث المفاجئة والعارضة المتصلة بالعمل الصناعي، بل أيضاً المرض والشيخوخة وضربات سوء الطالع».

وينظم الاشتراكيون الفرنسيون، على غرار رفاقهم الألمان، وطبقاً لنمطهم، حزبهم ويدخلون البرلمان. أما الحزب العمالي الفرنسي الذي يقوده غيد ولافارغ، فلا يعد عندئذ إلا ألفي عضو؛ وصحيفته (لوسوسياليست) [الاشتراكي] قليلة التوزيع. وهدفه أن يكون «المثقِّف والداعية» للاشتراكية الثورية، وهو ما يحتاج إلى صحف ونشرات واجتماعات، وإلى وقت. فيصرح غيد: «نحن لا نعرف إلا أمتين: أمة الرأسماليين والبرجوازية والطبقة المالكة، من جهة، ومن الأخرى، أمة البروليتاريين، وجماهير الفقراء والطبقة العاملة. ومن هذه الأمة الثانية،

نحن جميعاً، نحن الاشتراكيين الفرنسيين، وأنتم الاشتراكيين الألمان. نحن أمة واحدة: ويشكل عمال كل البلدان أمة واحدة معارضة للأخرى، التي هي واحدة أيضاً في كل البلدان».

وفي 8 تشرين الثاني / نوفمبر 1891، انتخب بول لافارغ نائباً عن الدائرة الأولى في مدينة ليل.

وفي 1893، ثمة صفحة تطوى: إذ يغادر بروسبير أوليفييه ليساغاراي صحيفة (لاباتاي) [المعركة] وينسحب من الحياة العامة؛ بينما أصبح كتابه حول الكومون، منذ ظهوره، عمدة في موضوعه.

وثمة طرفة تلقي الضوء على ذهنية إنجلز، تلك السنة: ففي نيسان / أبريل، يرغب طالب روسي مهاجر إلى لوزان، هو أليكسي فودن، في الذهاب إلى لندن، للعمل في تاريخ لـ«الفلسفة الإنجليزية»؛ ويطلب من بليخانوف رسالة توصية إلى برنشتاين وإنجلز؛ وإذا برئيس الماركسيين الروس «يمتحنه حسب الأصول في فلسفة التاريخ لدى ماركس وهيجل، وفي الشعبويين الذاتيين، وفي الكتاب الثاني من (رأس المال)، وفي برودون (دون اللجوء إلى «بؤس الفلسفة») وفويرباخ وبوير وستيرنر..» وبرضاه عن أجوبته، يسلمه رسالته طالباً منه أن ينسخ له من المتحف البريطاني مقتطفات طويلة من كتاب (العائلة المقدسة). ولدى وصوله إلى لندن؛ يستجوبه إنجلز الذي يعمل عندئذ في الكتاب الثالث من (رأس المال) حول الشعبويين الروس وخلافهم مع بليخانوف؛ ويشرح إنجلز «إنه كان يود رؤية الروس – وغيرهم، على كل حال – يفكرون مثلما كان فكر ماركس في مكانهم، عوضاً عن ترديد مقتطفات من ماركس وإنجلز. فليس إلا بهذا الشرط كان لكلمة «ماركسي» مبرر للوجود (..). وفي المرة التالية، كان الموضوع حول مؤلفات ماركس وإنجلز الأولى. ما هي مؤلفات الشباب لماركس وله التي تهم بليخانوف وأصدقاءه، ولأي سبب؟ وقدم (فودن) كل الحجج لصالح نشر كل أعمال ماركس الفلسفية، وللمؤلفات التي عملا فيها معاً، بأسرع ما يمكن. فيقول له إنجلز إنه سمع أكثر من مرة الشيء

ذاته من بعض الألمان، لكنه يسأله أن يقول له بكل صدق عما يعتبره الأكثر أهمية: أن يمضي إنجلز بقية حياته في نشر مخطوطات مهملة، ترجع إلى سنوات الأربعينيات، أم أن يتفرغ بعد صدور الكتاب الثالث من (رأس المال) لنشر مخطوطات ماركس التي تعالج تاريخ نظريات فضل القيمة (..)؟ فيحث إنجلز على إخراج جل مؤلفات ماركس الأولى على الأقل، على الرغم من كل شيء، من نسيان لا تستحقه، لأن (فويرباخ) وحده، كان قليلاً جداً. ويقول إنه حتى يعي المرء كل هذا التاريخ القديم، كان من الواجب الاهتمام بهيجل الذي لم يكن أحد يهتم أو بوجه أدق «لا كوتسكي ولا برنشتاين» به، في الوقت الحاضر».

وهكذا ندرك أن «الجنرال العجوز» واعٍ تماماً بمناورات من يحيطون به، ويترقبون موته، وهو مصمم تماماً على جعلهم ينتظرون أطول وقت ممكن!

في هذه السنة ذاتها 1893، يقرر مؤتمر الدولية الاشتراكي المجتمع في زيوريخ فصل المعركة السياسة عن النضالات النقابية. ويؤسس الحزب الاشتراكي الديمقراطي الثوري الدولي؛ محدداً بهذه العبارات شروط قبول العضوية: «إن المؤتمر يعتبر عضواً في الحزب الاشتراكي الديمقراطي الثوري الدولي كل المنظمات والجمعيات التي تقر بصراع الطبقات، وبضرورة اشتراكية وسائل الإنتاج، وتقبل أسس المؤتمرات الدولية الاشتراكية». لكن الحزب الدولي لن يتجسد في الواقع كثيراً. ويعلن كوتسكي الذي يلقب في برلين الآن بـ«بابا الماركسية» نظراً لعمله التبسيطي، أن الاشتراكية لا محيد عنها، ولا تتطلب فعلاً لكي تأتي. وسيغدو هكذا الحارس لـ«راديكالية سلبية». إذ يكتب: نعلم أنه من غير الممكن بلوغ أهدافنا إلا بثورة؛ ونعلم أيضاً أنه ليس في مقدورنا القيام بهذه الثورة، ولا في مقدور خصومنا منعها. ولهذا، لا نعبأ بالتهيئة لها أو بالشروع فيها».

وفي السنة ذاتها أيضاً، تجتمع بعض المنظمات النقابية ومنها

اتحادات العمل الإنجليزية على حدة، وتقيم دولية نقابية متميزة عن الأحزاب، نجد فيها نقابات إصلاحية وأخرى ثورية. ويحرز الحزب العمالي الفرنسي، من جهته، نجاحاً انتخابياً جلياً في الانتخابات التشريعية: إذ يعد خمسين نائباً في الجمعية الوطنية. منهم غيد، لافارغ، ميللران، ونائب جديد عن الدائرة المنجمية في كارمو، هو جان جوريس، منافس غيد المستقبلي.

في 1894، يصدر إنجلز الكتاب الثالث من (رأس المال) الذي يعرض الأطروحات المذكورة آنفاً، والذي هيأه مع برنشتاين؛ موضحاً في مقدمته: «كان من المفروض أن يهدى الكتابان الثاني والثالث، طبقاً لما قاله لي ماركس عدة مرات، إلى زوجته» ويضيف: «سيلاحظ القارئ، أنني في كل هذه الكتابات، وبخاصة في هذا الأخير، لا أصف نفسي أبداً بـ«اجتماعي - ديمقراطي»، بل بـ«شيوعي» (..). فمن المستحيل تماماً، سواء بالنسبة لماركس أم بالنسبة لي استعمال مصطلح مطاط كهذا للإشارة إلى تصورنا الخاص..» وتبسيط ماركس هكذا يجري قدماً.

وفي أيلول / سبتمبر، تتفجر «القضية» التي سوف تقسم اليسار الأوروبي بعمق، وتلعب دوراً في مصائر الماركسية: فألفريد دريفوس الذي اشتبه به في تشرين الأول / أكتوبر، وحوكم في كانون الأول / ديسمبر، أرسل إلى منفى الأشغال الشاقة في كانون الثاني / يناير. وفي الآونة ذاتها ينشر القائد الرئيسي لحزب اشتراكي خاص باليهود، الحزب العمالي اليهودي (البوند) هو كرامر، مع اشتراكي يهودي آخر يدعى مارتوف (في الاضطراب) الذي يلخص تجربة البروليتاريا اليهودية. وجرى ذلك في «منطقة الإقامة اليهودية»، بأوكرانيا، وهي غيتو ضخم جُمِّع فيه يهود روسيا. ويغادر مارتوف روسيا عندئذ ليصبح أحد قادة الماركسية الروس الأوائل، ثم المعارض الرئيس للينين.

وتبدو إليانور معزولة. إذ تخشى سيطرة لويز كوتسكي وزوجها الجديد، الدكتور فرايبيرجر، على إنجلز العجوز، المريض، وعلى ما

تدعوه (كنز المخطوطات الأبوية). إذ يشغل الزوجان فرايبيرجر الآن قسماً من منزل إنجلز حيث وضعا لوحة باسمهما حتى، ويبدوان متحكمين فيه كما كان كوتسكي وزوجته من قبل. فتفاتح إليانور شقيقتها في ذلك، لكن لورا (التي تستفيد شهرياً من سخاء إنجلز) لا تجاريها في هذا الأمر، ولا تجيبها إلى طلبها الملح في المجيء والتأكد من الوضع بنفسها. وتبقى إليانور هكذا وحيدة تجتر مخاوفها التي يشاطرها إياها إدوارد برنشتاين. بينما يوصي كوتسكي زوجته السابقة التي بقي على علاقة طيبة معها، بالحذر من هذا الذي أرسله في مكانه؛ إذ يرى في برنشتاين هذا فكراً حراً أكثر من اللازم..

وتسوء صحة إنجلز. ويشعر بدنو أجله. فيطلب من كوتسكي مخطوط الكتاب الرابع الذي أخذ إلى برلين، «للتحقق من بعض النقاط في الكتاب الثالث». ويكتب إلى لورا وإليانور في 14 تشرين الثاني / نوفمبر، لإبلاغهما بعزمه على ترك كل مكتبته، بما فيها الكتب التي تلقاها لدى موت ماركس والمخطوطات معها إلى الحزب الاجتماعي - الديمقراطي الألماني.

وفي 26 آذار / مارس 1895، يكتب إنجلز ملحقاً لوصيته، يقضي بأن تعاد كل الرسائل التي في حوزتهن وكتبت لماركس أو من قبله (باستثناء الرسائل التي تبادلها ماركس معه) إلى إليانور. ويترك لبرنشتاين في لندن، ولبيبل في برلين، من أجل الحزب، مخطوطاته الخاصة ومراسلاته مع ماركس وحقوق المؤلف الخاصة به. ويقرر أن توزع ممتلكاته الشخصية بين لورا وإليانور ولويز التي أفلحت هكذا في التسلل بين الورثة؛ وستتلقى الممرضة الجميلة أيضاً أثاث وملابس المتوفى، وإمكان انتقال عقد إيجار المنزل الذي تعتزم سكناه. ويترك إنجلز مائتين وخمسين جنيهاً لمنفذي وصيته، ومنهم برنشتاين، وألف جنيه لبيبل من أجل تمويل حملات الحزب الاجتماعي - الديمقراطي الانتخابية. وستحاول لويز من جديد التلاعب بالرجل العجوز، لوضع يدها على

مخطوطات ماركس، لكنه يرفض التدخل لدى ابنتي ماركس حتى يسلماها إياها.

ويرغب إنجلز، قبل موته، نشر بعض مخطوطات ماركس بإشرافه. لكنه باختيار غريب وذي مغزى، يقرر نشر نص ماركس حول ثورة 1848، أولاً في صحيفة الحزب الرسمية (فورفارتز)، مسبوقاً بمقدمة طويلة منه، يلح فيها على أهمية الثورة في العمل السياسي. ووعياً منه بخطر الرقابة، يميز في هذه المقدمة بين الثورة، كطريقة عمل عامة للبروليتاريا، والحذر الذي يوصي به البروليتاريا الألمانية. فيرى كوتسكي أن النص راديكالي أكثر من اللازم، ويحذف منه. وإذا بإنجلز وقد استشاط غضباً يكتب إليه في 1 نيسان / أبريل 1895: «أرى اليوم مستغرباً في الـ(فورفارتز) مقتطفات من مقدمتي، نشرت دون علمي، ورُتبت بأسلوب أبدو فيه كعاشق هادئ للشرعية بأي ثمن. ولهذا أنا في أشد الرغبة أن تنشر المقدمة دون حذف في الـ(نيو) حتى يزال هذا الانطباع المخجل. وسأقول بوضوح شديد رأيي في هذا الموضوع، لليبكنيخت الذي لا يزال على رأس الحزب، ولكل الذين أعطوه هذه الفرصة لتشويه رأيي، أياً كانوا». وفي اليوم ذاته، يكتب إلى بول لافارغ في الموضوع ذاته: «لقد عمل معي W.. (ليبكنيخت) لتوه مقلباً جميلاً. إذ أخذ من مقدمتي لمقالات ماركس عن فرنسا 1848 – 1850، كل ما أمكن أن يخدمه لمساندة تكتيكه السلمي والمضاد للعنف بأي ثمن، الذي يروق له التبشير به منذ بعض الوقت، لا سيما في هذه الآونة التي تُهيأ فيها القوانين القمعية في برلين. لكنني لا أبشر بهذا التكتيك إلا بالنسبة لألمانيا اليوم. أما لفرنسا وبلجيكا وإيطاليا والنمسا، فلا يمكن إتباع هذا التكتيك في مجمله، وقد يصبح غير قابل للتطبيق في ألمانيا غداً». وإنجلز لا يذكر روسيا: فهي لا تشكل في نظره جزءاً من الصورة، وما من ثورة يمكن تصورها هناك.

بعد ثلاثة أشهر، في مطلع تموز / يوليو، يتحمس إنجلز الذي كان

جد مريض لأولى الإضرابات الجماهيرية في سان - بطرسبورغ. ويعلم أيضاً بتأثر كبير أن أحد أبناء جينيشن - أحد أحفاد ماركس -، جان لونغيه («جوني») يوجد في 24 تموز / يوليو، وهو في الثالثة والعشرين، بين المائة وعشرين مندوباً الفرنسيين للحزب العمالي لزوج خالته لافارغ وغيد، ممثلاً لفيديرالية باس - نورماندي الإقليمية في مؤتمر الدولية الرابع بلندن. ويقيم «جوني» لدى خالته إليانور مع زوج خالته لافارغ الذي يخالطه كثيراً بعد وفاة أمه؛ وتغدو لورا بالنسبة له كأم ثانية. فيأتي الجميع لرؤية «الجنرال العجوز»، كما تسميه البنات وكان الجميع لا يزالون في لندن عندما يموت إنجلز في 5 آب / أغسطس 1895.

وسيتقرر مصير الماركسية منذئذ فيما بين ألمانيا وروسيا. ولن تكون في فرنسا إلا نسخة شاحبة عما تكونه في ألمانيا؛ أما إنجلترا فلن تكون إلا ملاذاً يقصده هاجرون سعياً إلى ملجأ واستراحة دون أن يؤثروا على المجتمع البريطاني.

بعد اثني عشر يوماً من وفاة إنجلز، تطلب إليانور التي استعادت كل مخطوطات أبيها الإنجليزية من كوتسكي استئناف العمل في الكتاب الرابع. وتشرع في مفاوضات مع الناشر دييتز الذي يقترح على ميسنر شراء حقوق الكتب المنشورة قبلاً.

وهو الوقت الذي تكشف لويز لإليانور فيه أن ماركس هو الوالد الحقيقي لفريدي. وتكون علمت ذلك من إنجلز وهو على سرير الموت. ولا شك أن لويز تريد الحصول من إليانور على المخطوطات. فتقترب إليانور عندئذ أكثر من أخيها غير الشقيق الذي تعتقد أنها تشاطره نوعاً من الشقاء المقدر. وربما كان لهذا الخبر تأثير على القرار الذي تتخذه هي ولورا معاً: إذ تقرران تسليم مخطوطات أبيهما إلى كوتسكي، لأنه يبدو لهما الأكثر قدرة على الدفاع عن ذكراه. ولا تحتفظ إليانور إلا بمقالات أبيها باللغة الإنجليزية، وتخبر لويز، الموجودة في لندن مبعوثة من بيبل، رؤساءها أنها هي التي حصلت على ما كانوا يرغبون به منذ وقت طويل.

فيشكرها الحزب على ذلك دون أن يكلف نفسه عناء شكر ابنتي ماركس! وتُصدم إليانور لهذا، لكن الأوان فات، وتمت الهبة.

غير أنه من غير الممكن مغادرة مخطوطات ماركس وإنجلز إنجلترا، نظراً للقوانين الألمانية القديمة المعادية للاشتراكية التي تمنع عودتها. وتبقى أوراق ماركس لدى إليانور، وأوراق إنجلز تحت وصاية برنشتاين وبيبل المزدوجة وتوضع بطلب من هذا الأخير، في قبو أحد المناضلين من لندن، يدعى جوليوس موتيلر، ضمن صندوقين خشبيين مجهزين بقفل مزدوج: برنشتاين يملك مفتاحين ولويز فايديرير تملك مفتاحين آخرين. ولا يستطيع أي منهما فتحهما دون موافقة الآخر. فالثقة سائدة إذن..

وإليانور المتعلقة أكثر فأكثر بهويتها اليهودية التي لا تربطها بالإيمان الديني بصفة خاصة، تقترب أكثر من الكاتبة المسرحية أمي ليفي التي تنشر (روبن ساكس)، وهي رواية حول صعوبة ذوبان اليهود في المجتمع الإنجليزي، ثم تضع حداً لحياتها بعدما أعادت قراءة التجارب الطباعية لأجمل قصائدها (ذي لوندون بلان تري)، وتلك صدمة أخرى لإليانور التي تفقد أفضل صديقاتها.

ويحرر موت إنجلز برنشتاين الذي يشعر بأنه إصلاحي فأكثر فأكثر، فيكتب في 1896 إلى كوتسكي من لندن: «نحن لا نشكل، عملياً، إلا حزباً راديكالياً؛ ولا نقوم إلا بما تقوم به الأحزاب البورجوازية الراديكالية، إلا أننا نخفيه تحت أقوال غير متناسبة كلياً مع نشاطاتنا ومع وسائلنا». ويعتقد برنشتاين أن النظام الاقتصادي الرأسمالي سيتكيف منذئذ، وأنه قادر على إصلاح نفسه. فيمكن للاشتراكية إذاً أن تتحقق بالتدريج. ويجرؤ حتى على نقد ماركس، زاعماً أن مؤلف (رأس المال) قد استخف بقدرات المجتمع الصناعي على التكيف، من طريق توسعة السوق، وانتقال السلع بسرعة أكبر، وتكوين منشآت كبرى (وهو ما توقعه ماركس بالفعل، كما رأينا). ويرفض برنشتاين فكرتي صراع الطبقات وقلب الرأسمالية على السواء. ومستشهداً بصرخة ماري ستيورات لشيللر: «لتجرؤ على

الظهور كما هي!»، يطلب أن يعترف الحزب الاشتراكي بأنه حزب إصلاحي.

ها هو من أوصى له إنجلز إذاً بأن يكون أحد منفذي وصيته، وببعض مخطوطات ماركس، وقد انتقل إلى العدو! فيبدي الاشتراكيون في برلين قلقهم. وكوتسكي يستشيط غضباً، وكذلك بولونية شابة انضمت لتوها إلى الحزب، وتبدو رئيسة للجناح الأكثر راديكالية، وهي: روزا لوكمسمبورغ، إذ تتهم هذه برنشتاين بارتكاب الخطأ ذاته الذي ندد به ماركس لدى برودون: «فهو لا يرى أن لا عقلانية النظام الظاهرية هي في أس هذا النظام، ويحاول أن يستبدلها من طريق الإصلاح برأس مال «أكثر عدالة» أو «أكثر عقلانية»». وعلى عكس برنشتاين، ترى روزا لوكسمبورغ أن الحلول التي تجدها الرأسمالية من أجل للبقاء غير مقبولة، وبخاصة نهب الرأسمالية للبلدان المستعمَرة. ولا يمكن لهذا التوسع، في رأيها، أن يستمر إلى ما لا نهاية، «لأن الأرض كروية» وإذاً متناهية، ونمط الإنتاج الرأسمالي يجري إلى كارثة نهائية. وتترسخ الماركسية في كل أرجاء أوروبا عقيدة لليسار. وهي في كل مكان تُجتزأ وتُشوه وتختزل شيئاً فشيئاً إلى ثنوية تبسيطية: فالسلطة لا تطيق شكوك العالِم.

ففي باريس، يكتب مُبسِّط ماركس، دريفي، في مؤلفه (المبادئ الاشتراكية): «إن الاشتراكية التي تفرض نفسها في فرنسا، كما في كل مكان، هذه الساعة، هي الاشتراكية الناجمة عن نقد ماركس الاقتصادي. وسواء أردنا أم لم نرد، فكل ما هو اشتراكي اليوم منقاد إلى النظرية الماركسية».

في الآونة نفسها، 10 تشرين الثاني / نوفمبر 1896، تنشر صحيفة (لوماتان) صورة طبق الأصل للبيان الذي يبرئ دريفوس.

وتواصل إليانور فرز مسودات رسائل أبيها بالإنجليزية التي استعادتها من إنجلز. وبرسالة إلى أختها، في 12 تشرين الثاني /

نوفمبر، تكتب: «كل الرسائل في فوضى. أعني أن الرزم التي عملها الجنرال العجوز غير مرتبة بتاتاً، وليس فيما يتعلق بالتواريخ فقط: إذ يحدث أن توجد أوراق رسالة بعينها في رزم مختلفة». وهي لا تهتم بالمخطوطات التي يبقى مصيرها معلقاً؛ وتشمل كل المسودات التي كتبها ماركس ولم ينشرها أو يرمِها.

أما في روسيا، فيحلم الشاب لينين لهذا البلد بدولة على النمط البروسي، وبحزب كالحزب الاشتراكي الألماني. وينتقد فلاديمير أوليانوف الذي يعيش منذئذ على ضفة لينا (ومنها لقبه «لينين»)، بليخانوف، الماركسي اللاجئ في سويسرا، على «استهانته بالطابع الثوري للفلاحين، ومبالغته في أهمية دور البورجوازية الليبرالية، وعدم تواصله مع الحركة العمالية». وهو السؤال ذاته دائماً: هل من الممكن في روسيا تجاوز تأسيس الرأسمالية وترسخ طبقة الأجراء لإقامة الاشتراكية اعتماداً على الفلاحين؟

في باريس، نهاية 1898، يعرب الملازم بيكار عن اعتقاده ببراءة دريفوس وإدانة ضابط فرنسي آخر، هو الرائد استيرازي. فينشر إميل زولا، في 13 كانون الثاني / يناير، «أتهم» على الصفحة الأولى من صحيفة (لورور)، وهي صحيفة كليمنصو، للدفاع عن دريفوس. وينقسم اليسار الأوروبي حول «القضية». فبالنسبة لغيد الذي يعتقد، مثل زولا، بأن دريفوس ضحية للقضاء العسكري، لا تعني هذه المعركة الاشتراكيين. وروزا لوكسمبورغ، من الرأي ذاته: ذلك أن «القضية» نزاع داخلي ضمن البورجوازية، وهي ليست من شأن الطبقة العاملة. بينما يرى جوريس أن الواجب هو الكفاح ضد الظلم حيثما وجد. وفي تلك السنة، يستعير القائد الاشتراكي (جوريس) قول ماركس في 1850 للدعوة إلى «تطور ثوري».

في 27 حزيران / يونيو 1897، وبينما يلفظ بسمارك أنفاسه الأخيرة، كئيباً منسياً، تقوم إليانور باكتشاف مذهل: فرفيقها إدوارد

أفيلينغ الذي تعيش معه منذ خمسة عشر عاماً، والمريض الذي تمرضه، تزوج بأخرى سراً، قبل عامين، باسم مزور! إذ لم يجرؤ على تركها خوفاً من أن تنتحر.

وإليانور، الصغيرة «توسي»، ابنة كارل الصغرى التي طالما أحاطها برعايته، لأنه كان يرى فيها نسخة ثانية عن ابنه إدغار، هذه التي طالما تحدثت طوال حياتها عن الانتحار، تنتقل إلى التنفيذ. ولا تخطئ الهدف.

بعد ثلاثة أيام، تهرع لورا إلى لندن لدفن أختها في مدفن والديهما. وتعود إلى فرنسا ببعض مخطوطات أبيها. بينما تظل المخطوطات التي كانت بحوزة إنجلز تحت سيطرة برنشتاين ولويز اللذين يكره أحدهما الآخر أكثر وأكثر، بينما يريان المخطوطات التي طمعا بها تتسرب إلى فرنسا.

ويموت إدوارد أفيلينغ بعد خمسة أشهر من انتحار إليانور.

كانت الذكرى الخمسين لنشر (بيان الحزب الشيوعي) في 1848، فرصة للعديد من المناقشات ضمن اليسار الأوروبي. ففي برلين، تشرح روزا لوكسمبورغ في (إصلاح اجتماعي أو ثورة) بأن «المشكلة الكبرى للحركة الاجتماعية - الديمقراطية» هي أن إشراك «معركة كل يوم مع الإصلاحات الكبرى في العالم (..). والأسلحة النظرية المقدمة قبل نصف قرن» من قبل ماركس، يتعين عليه أن تسمح بتجنب خطري «دولة الطائفة، والحركة الإصلاحية البورجوازية». وفي باريس، يكتب جان جوريس، في الموضوع عينه (كيف ستتحقق الاشتراكية؟): «يخدع المرء نفسه بنفسه بترديد الأجوبة التي صنعت منذ نصف قرن آباءنا ومعلمينا (..). وفضل ماركس الحاسم هو أنه قرَّب الفكرة الاشتراكية من الحركة العمالية، ومزجها بها». وعلى العكس من غيد، ينشر جوريس نفسه في 11 تشرين الأول / أكتوبر، بصحيفة (لابتيت ريبوبليك) مقالاً، عنوانه «الأدلة» يتصدى فيه للدفاع عن دريفوس.

في 2 أيلول / سبتمبر 1898، تبلغ لويز فرايبرجر أوغست بيبل بما

كشفه إنجلز لها على سرير موته، بشأن حياة ماركس الخاصة، وبخاصة أبوته لابن هيلين ديموث. لكن المؤرخة الإنجليزية إيفون كاب التي استطاعت قراءة هذه الرسالة، تظن أنها غير قابلة للتصديق لأنها تكشف عن «تنويعات من نسج الخيال، تسمح لويز فرايبرجر لنفسها بها حول الحياة الزوجية للزوجين ماركس، في وقت ما كان لها أن تطلع عليها». ومع ذلك، يبدو أن أبوة ماركس لفريدريك اليوم لا نقاش فيها.

وفي هذه السنة ذاتها، تُقدَّم الماركسية من قبل مجموع القادة الاشتراكيين الفرنسيين، أساساً لإيديولوجيتهم ولبرنامجهم. فبالنسبة لأحدهم، وهو جورج سوريل، «إن ما هو جوهري في نظرية ماركس، هو تصوره لآلية اجتماعية مكونة من الطبقات، تعمل على تحويل المجتمع الحديث رأساً على عقب تحت تأثير الأفكار والانفعالات المهيمنة هذه الأيام». وكذا جوريس في «الاشتراكية والحرية» الذي يُنشر في 1 كانون الأول / ديسمبر 1898 لصحيفة (لاريفودو باري)، إذ يجعل من جماعية وسائل الإنتاج مثله الأعلى، ومن ماركس مرجعه، باقياً على وفائه لحرفية نص هذا الأخير: فالثورة في فرنسا، ينبغي أن تمر بالعمل البرلماني، وبه فقط. ويجب عليها، طبقاً لقول ماركس، أن تكون «تطوراً ثورياً».

في حزيران / يونيو 1899، يصدر الرئيس لوبيه عفواً عن دريفوس الذي لم يبرأ مع ذلك. وتستمر «القضية» إذاً. ويتعارض جوريس وغيد عندئذ في كل شيء، فأن يكون المرء اشتراكياً، بالنسبة للأول، يعني أن يكون مع ماركس الديمقراطي، ويتدخل في «القضية». والاشتراكي، لدى الثاني، يعني اختيار ماركس الثوري، وعدم التدخل في «القضية». وفي تشرين الأول / أكتوبر 1899، يقف المؤتمر الاشتراكي المنعقد في قاعة جابي، بباريس، إلى جانب جوريس، بل ويقر مبدأ مشاركة الحزب الاشتراكي في السلطة مع أحزاب اليمين «ضمن ظروف استثنائية». وهذا يعني بكل وضوح: في حالة حرب ضد ألمانيا، يتمناها الجميع لاستعادة الألزاس واللورين.

وفي هذه السنة، يجرؤ إدوارد برنشتاين، المقيم في لندن دائماً، مجابهة ببيل وكوتسكي علناً، إذ ينشر في ألمانيا (مقدمات الاشتراكية ومهمات الاجتماعية – الديمقراطية)، حيث يقترح تحويل الحزب الاشتراكي إلى حزب إصلاحي. فيرد كوتسكي بـ(الماركسية ومنتقدها برنشتاين).

في لندن، يتخلى الشعبوي الماركسي دانييلسون، الملقب الآن بـ(نيكولاي – أُن)، والمترجم الروسي لـ(رأس المال) عن الفكرة الشعبوية القائلة بـ«الاستحالة «المطلقة» للرأسمالية في روسيا» لينضم إلى الفكرة التي قرأها في كتابات ماركس، في «استحالة تطور رأسمالي «عضوي عادي» في روسيا». وهو ما يعني لديه أن الرأسمالية الروسية موجودة، وأن ثورة هناك ممكنة، بشرط أن تحدث متزامنة مع ثورات في أماكن أخرى على النطاق العالمي. وهذا ما يعتقده لينين أيضاً، ويكتبه في (تطور الرأسمالية في روسيا).

ويهاجر لينين عندئذ إلى سويسرا. وفي الدائرة الضيقة للمهاجرين الماركسيين، يلتقي مارتوف، هذا الشاب الخارج من البوند الأوكراني الذي تحدثنا عنه آنفاً. ومعاً يُنشئان صحيفة (إيسكرا) «الشرارة». ويتعرف لينين هناك أيضاً بدافيد ب. ريازانوف، وهو ماركسي حليف لبليخانوف، يعمل بين مجموعة من المثقفين الروس، ويتعاون مع (إيسكرا). وهذا الشاب المثقف ثقافة عالية، ذو الشخصية القوية، يدرس عندئذ كتابات ماركس عن روسيا، وتاريخ الدولية الأولى، وهو من سيأتي، بعد عشرين عاماً، بمخطوطات ماركس إلى روسيا بعدما صارت سوفيتية.

في السنة التالية (1900)، يذهب يارزانوف إلى برلين، حيث مقر الحزب الاجتماعي – الديمقراطي ليبحث في الأرشيف من أجل عمله البحثي. فيكتشف فيه مذهولاً مخطوطات ماركس في فوضى، ومكتبة إنجلز التي وصلت لتوها، بعدما أعطي الإذن بمغادرتها لندن، ولكن

جزئياً، لأن برنشتاين نجح في الاحتفاظ بقسم منها في حوزته! فهناك كنوز لم يكن أحد يعرف بوجودها، ولا بكيفية فك رموزها، لعدم توافر الوقت والإذن لذلك.

وسيروي ريازانوف فيما بعد: «أذكر أنني رأيت في 1900، ببرلين هذه المكتبة المتناثرة دون أي نظام في عدة حجرات (..). وهكذا اختفت عدة آلاف من المؤلفات المنتمية لمبدعيّ الاشتراكية العلمية. حتى إنه لم يجر التحقق مما إذا كانت تحتوي، على الهوامش، ملاحظات أو تعليقات، وبعض الآثار عن العمل الفكري لماركس أو لإنجلز». ويضيف: «إن جزءاً من المخطوطات التي كان من المفروض أن ترسل إلى أرشيف الحزب الاجتماعي - الديمقراطي في برلين، احتفظ بها برنشتاين، وبقيت مراسلات إنجلز مع القسم الأهم من الأعمال التي ظلت مجهولة، في لندن». وسيُعرف فيما بعد أن قسماً من مكتبة ماركس وإنجلز، وكذلك ما لا يحصى من المخطوطات بقيت بالفعل بين يدي آل فايديرير اللذين سيعيدان بعضاً منها وسيساومان على البعض الآخر.

في هذه السنة ذاتها، 1900، وبينما يدرك الموت ليبكنيخت، ويخلفه ابنه الأصغر كارل، يعتمد جان جوريس في فرنسا، ضمن مؤلفه (أسئلة في المنهج)، على برنشتاين الذي لا يزال في لندن، لرفض دكتاتورية البروليتاريا، وفكرة الاستيلاء على السلطة من قبل أقلية نشيطة واعية بدورها التاريخي. وثمة شاب سيكثر الكلام عنه قريباً، هو ليون بلوم، يوافقه في ذلك: «ما من أحد يجهل (..) أن ميتافيزيقا ماركس قليلة القيمة، (..) وأن مذهبه الاقتصادي تتقطع كل يوم حلقة من حلقاته»، يكتب في 1 كانون الثاني / يناير، بصحيفة (لاريفو بلانش).

في الآونة ذاتها، بإنجلترا، وبينما ينضم الفابيون إلى حزب العمل المستقل، يؤسس مؤتمر النقابات وحزب العمل المستقل لجنة التمثيل العمالي، مع رامزي ماكدونالد سكرتيراً أول، وبرنامج يقوم على إرادة

النهوض بمصالح الطبقة العاملة، ورفض صراع الطبقات، وتأكيد دور الطبقات الوسطى الإيجابي.

في 28 تشرين الثاني / نوفمبر، وأمام ثمانية آلاف شخص، تجمعوا في ميدان السباق بمدينة ليل، ولدى استخلاصهما نتائج قضية دريفوس، وتطور اليسار الموزع بين الإصلاح والثورة، يتجابه جوريس وغيد بقسوة؛ وتتفاقم الانقسامات بين الاشتراكيين. وبعد مؤتمر عُقد في ليون، يضم الحزب الاشتراكي الفرنسي (PSF) «المستقلين» ومنهم جوريس، بينما يضم حزب فرنسا الاشتراكي (PSDF) أنصار غيد وفايان.

وتشهد السنة 1901، نهضة جديدة لعلم الاقتصاد الليبرالي. فعوضاً عن الانطلاق من الإنتاج، كما فعل ماركس، ينطلق من التبادل. وعوضاً عن الانطلاق من المصنع، ينطلق من السوق. من التاجر، وليس من الصناعي، بل وليس من الأجير الذي لم يعد يذكر إلا كمستهلك، إذ يُطور ليون والراس، ثم ويلفريدو باريتو، خليفته في كرسي الاقتصاد بلوزان، نموذج توازن اقتصادي، ينتج منه أن بإمكان العالَم السير بأسلوب متوازن. ويتصدى باريتو لماركس، فيتعرض له في (الأنظمة الاشتراكية)، مندداً بالحقيقة المزورة للإيديولوجية التي ليست إلا دفاعاً عن مصلحة طبقة، بينما لا تصلح النظرية الاقتصادية في نظره إلا إذا استجابت لقواعد الصدقية المطبقة على النماذج الرياضية للعلوم الفيزيائية.

في انتخابات 1902 التشريعية، بفرنسا، يحصل الحزب الاشتراكي الفرنسي على 37 منتخَباً، ويحصل حزب فرنسا الاشتراكي على 14. فيبدو أن اليسار الفرنسي يخضع لتجارب قاسية، وليس من شأن الدولية أن تتدخل في ذلك.

في الآونة ذاتها، يعود برنشتاين إلى ألمانيا مع مخطوطات إنجلز التي تسمح السلطات الألمانية أخيراً بإدخالها. ويُنتخب في 1902 نائباً عن الحزب الاجتماعي – الديمقراطي، مع أنه لم يعد يؤمن بنظريات حزبه ولا بتقسيم المجتمع إلى طبقتين، ولا بسقوط الرأسمالية.

وفي الوقت الذي يعود الماركسيون الألمان إلى بلادهم، يؤسس الروس الموجودون في المنفى بسويسرا حزباً، هو الحزب الاجتماعي - الديمقراطي العمالي الروسي (PSDOR). وينشر لينين المقيم دائماً في زيورخ (ما العمل؟). وهو يقتبس هنا عنوان رواية طوباوية روسية نشرت قبل أربعين عاماً لنيكولاي تشيرنيتشيفسكي، بعنوان ثانوي هو «أناس جدد» - وهي رواية أثرت بعمق في كل الثوريين الروس. وتظهر حينئذ المبادئ اللينينية التي تجعل من الطبقة العاملة طليعة للبروليتاريا مع السلطات، إذ يوصي فيها بضرورة طليعة ثورية، وحزب طليعي، لأن العمال، كما يقول، لا يحلمون بانقلاب ثوري. ويتعين على هذا الحزب أن يتسلح بمعرفة علمية للمجتمع، كي يصير المصدر الشرعي الوحيد للمبادرة السياسية، وينظم «ديكتاتورية حزب على الطبقة العاملة وعلى المجتمع كله». وأي تجزئة أو اختلاف في الآراء ضمن الحزب هو علامة على الضعف. فالأمر لم يعد متصلاً بديكتاتورية بروليتاريا، إنما بديكتاتورية حزب، وديكتاتورية رجل على الحزب لتأمين وحدته. وينتوي فلاديمير أوليانوف تنظيم الثورة الروسية طبقاً لنموذج الكومون. وحتى يهيء نفسه لذلك، يدرس نصوص ماركس حول ثورتي 1848 و1870، فيستخلص عبرة كبرى، هي: أهمية التحالف مع الفلاحين. أي عمل كل شيء لكسبهم، وعدم فعل أي شيء دونهم. ويجمع أصدقاءه حول الصحيفة الأسبوعية، (لوسوسياليزم)، التي تجذب ثوريين روس أكثر فأكثر إلى الماركسية.

وفي 30 تموز / يوليو 1903، ببروكسل، وخلال المؤتمر الأول للحزب الماركسي الروسي الجديد (PSDOR)، يشرح مارتوف وتروتسكي أن الثورة البروليتارية تظل مستحيلة في روسيا، وأن من المناسب ترك البورجوازية تقود تغيير النظام، لأن الفلاحين غير قادرين على فهم أين تكمن مصالحهم الحقيقية، والطبقة العمالية لا تزال أضعف من أن تقود البلاد. أما لينين، فيرى على العكس، أن البورجوازية في روسيا غير قادرة على

القيام بثورة ديمقراطية، لأنها لا يمكن أن ترغب في تحطيم ملكيات الأراضي الكبيرة، ولا في خلق الظروف لدخول الزراعة ضمن اقتصاد السوق. والتحالف بين الفلاحين والعمال ممكن لديه: «إن ديكتاتورية ديمقراطية للبروليتاريا وللفلاحين» هدف، يسمح بوضع «برنامج في حده الأدنى»، أي: جمهورية ديمقراطية، تأميم الأراضي، إلغاء الجيش الدائم. إذ يكتب: «لا تُعلِّم الماركسية البروليتاريا الابتعاد عن الثورة البورجوازية، ولا عدم الاكتراث بها، ولا التخلي عن قيادتها للبورجوازية، بل على العكس، الإسهام فيها بقوة، والكفاح بعزم من أجل الديمقراطية البروليتارية المنطقية، ومن أجل إتمام الثورة. ونحن لا نستطيع الابتعاد عن الإطار البورجوازي للثورة الروسية، لكننا نستطيع توسيعه إلى حدود بعيدة؛ ونحن نستطيع، ويجب علينا، في هذا الإطار، الكفاح من أجل مصالح البروليتاريا، ومن أجل حاجاتها العاجلة ومن أجل تأمين الظروف التي ستتمكن فيها من تهيئة النصر النهائي».

والنزاع في ختام المؤتمر على أشده. ويجري الاقتراع وسط الفوضى، فيمنح أنصار لينين أنفسهم اسم «البَلشفيك» («الأكثرية» باللغة الروسية) واصفين خصومهم (مارتوف وتروتسكي) بـ«المُنشفيك» («الأقلية»)، وهكذا يتوصل لينين إلى إعطاء عمله صبغة ديمقراطية.

وفي تلك السنة، يموت شارل لونغيه، الذي ظل اشتراكياً وصحافياً طوال حياته، تاركاً أربعة أبناء، ربتهم بصفة أساسية لورا لافارغ، أخت زوجته، وهم: جيني، مارسيل، إدغار وجان - وهذا الأخير هو المناضل الاشتراكي النشيط الوحيد منهم.

وفي 1904، يتعرف اشتراكيون على منزل ماركس في تريفز، فينشئون جمعية تعاونية اجتماعية - ديمقراطية، ويبتاعون المبنى المجاور ليعملوا منه مقراً للحزب والنقابة. وفي فرنسا، لا تخف حدة الانشقاقات بين الاشتراكيين، إذ تضعف الدولية الاشتراكية التي تستنكر في مؤتمرها السادس المنعقد بأمستردام في شهر آب / أغسطس، كل تعاون مع

الأحزاب «البورجوازية» وتحث الفرنسيين على جمع قواهم «لمصلحة البروليتاريا الدولية، المسؤولين تجاهها عن العواقب الوخيمة لمواصلة انقساماتهم». وهو انتصار لجول غيد على جوريس.

يوم 22 كانون الثاني / يناير 1905، سيسمى في روسيا «الأحد الأحمر»: فعشرات الآلاف من المضربين يتظاهرون صامتين في سانت - بطرسبورغ، أمام قصر الشتاء، وهم يحملون أيقونات، لتقديم استرحام للقيصر، عندما يطلق الجيش النار على الجماهير، مخلفاً مئات القتلى. ويعد نيقولا الثاني في الحال بانتخابات، وبحرية الصحافة، وبالاقتراع الشامل وبدستور - لكن لا شيء يتحقق. وفي نهاية السنة، يسجن الماركسيون والثوريون القلائل في البلاد، ويجري حل الدوما (البرلمان). ولينين لا يزال في المنفى: ولا مجال عنده في «الاستيلاء على السلطة من أجل الثورة الاشتراكية». لكن هذا التمرد المخفق يحثه على التفكير في دور الإضراب العام في الاستيلاء على السلطة.

في 23 - 25 نيسان / أبريل 1905، اجتمع في قاعة غلوب، بولفار دوستراسبورغ، بباريس، مؤتمر لتوحيد الاشتراكيين الفرنسيين، تطبيقاً لإيعاز الدولية. فيتبنى المائتان والستة وثمانون مندوباً «ميثاق وحدة» بتعبيرات ماركسية صريحة: «إن الحزب الاشتراكي حزب طبقي غايته اشتراكية وسائل الإنتاج والتبادل، أي تحويل المجتمع الرأسمالي إلى مجتمع ذي نظام جماعي أو شيوعي، ووسيلته التنظيم الاقتصادي والسياسي للبروليتاريا. والفرع الفرنسي للدولية العمالية، بغايته وبمثله الأعلى، وبالوسائل التي يستخدمها، وهو يتابع تحقيق الإصلاحات العاجلة التي تطالب بها الطبقة العاملة، ليس حزب إصلاح، بل حزب لصراع الطبقات وللثورة». وتصبح (لومانيتيه) الصحيفة الناطقة باسمه.

أما في ألمانيا، فكوتسكي الذي أفلح في جعل برنشتاين يسلم بعض المخطوطات التي في حوزته إلى الحزب، يصدر عندئذ، بعدما نال موافقة

إليانور المسبقة، الكتاب الرابع من (رأس المال) مع مجموع نظريات ماركس حول فضل القيمة، تحت عنوان (تاريخ المذاهب الاقتصادية).

في 1906، بلندن، تتخذ لجنة التمثيل العمالي التي أنشئت منذ ست سنوات اسم حزب العمال؛ ويتغلب ضمنه الاتجاه الفابي الذي يقوم على تشرب المجتمع التدريجي بالماركسية.

في 12 تموز / يوليو، تلغي محكمة التمييز «دون تسريح» الحكم بإدانة دريفوس. وتنتهي «القضية». وجوريس الذي حمل لواءها، يصبح زعيماً للاشتراكيين الفرنسيين. ومع ذلك يظهر تلك السنة، في صحيفة للحزب الاشتراكي، هي (لوموفمان سوسياليست) [الحركة الاشتراكية] مقال، بعنوان «إفلاس الدريفوسية أو انتصار الحزب اليهودي»..

في 1908، وبمناسبة الذكرى الخامسة والعشرين لوفاة ماركس، تنشر روزا لوكسمبورغ التي تؤمن بثورة قريبة في ألمانيا، مقالاً في (لوسوسياليزم) يعلن أن روسيا، على الرغم من إخفاق ثورة 1905، تصبح هي أيضاً ميداناً ممكناً للاستيلاء على السلطة: «لا يُعترف عموماً بالقيمة العلمية لكبار العلماء إلا بعد موتهم. لأن الزمن يعطيها كل مداها. واليوم، بعد ربع قرن من موت ماركس، يؤذن رعد الثورة الروسية بأن أرضاً واسعة قد أُلحقت لتوها بالفكر الماركسي. بفضل الرأسمالية».

في 1910، وبينما كان كوتسكي الذي لا يزال يدير مجلة (نيوزيت) ينقب في الأرشيف الذي أتى به برنشتاين، يكتشف مخطوطات لماركس لم يكن يعلم أحد بوجودها، وكان برنشتاين يخفيها، وهي: عمله التحضيري لـ(نقد فلسفة الحق لدى هيغل)، و(مخطوطات 1844) و(نقد الاقتصاد السياسي). وهو اكتشاف هام، يقيم الصلة بين (الإيديولوجية الألمانية) وأعمال سن النضوج. ويلتقي كوتسكي ريازانوف، إذ جاء المهاجر الروسي الشاب الذي يدرس كتابات ماركس، لاستجوابه، مثلما كان سأل بيبل وبرنشتاين من قبل. وسرعان ما أدرك موقف برنشتاين الملتبس. وهو ما يقربه تلقائياً من كوتسكي الذي يترك في نفسه انطباعاً قوياً، لمعرفته

بأعمال ماركس، ومستواه الفكري العالي. ويحدثه كوتسكي عن اكتشافاته المذهلة، ويجعل منه سكرتيراً له؛ ويعهد له بمهمة إعادة ترتيب مراسلات ماركس توطئة لنشرها. فيقبل ريازانوف، إذ ليس ثمة أفضل من العمل على التعريف بنصوص المعلم، عندما يكون المرأ ثورياً. وسيكتب ريازانوف: «سأقول بضع كلمات عن الحالة التي وجدت فيها هذا المخزون. فهو مهمل منذ موت إنجلز. وما كان ليصيب إنجلز سوء حظ أكثر من الذي أصابه نتيجة لترتيبات الوصية المتعلقة بهذا المخزون. ولو لم تكن له أية وصية لحظيت مكتبته بحماية أكبر (..) وقد أسيء التعامل مع هذا المخزون، حتى إن مكتبة ماركس وإنجلز الضخمة ضاعت كلها تقريباً (..). ولم يكلف الورثة أنفسهم العناء حتى في معرفة ما إذا كان المخزون كله نقل إليهم..» وهكذا تنتقل أرشيفات ماركس من أيدٍ ألمانية إلى أيدي الروس - أو بصفة أدق من أيدي بعض الألمان الذين لم يعودوا يهتمون بها حقاً إلى يدي روسي يهتم بها كثيراً.

ويهتم ريازانوف بها جداً حتى إنه، أثناء صيف 1910، يُمضي عدة أسابيع في درافيل، ليس بعيداً عن باريس، لدى آل لافارغ الذين «تكرموا بوضع الأوراق والرسائل التي تركها ماركس، بتصرفي». ويجد هناك العديد من المراسلات والمخطوطات السياسية، ومخطوطات أقل أهمية كالأجوبة التي رد بها ماركس على أسئلة «الاعترافات» لنانيت في هولندا، قبل ستين عاماً، ويأخذ عنها نسخة. لكنه لا يستشعر شيئاً عن المأساة المنذرة بالحدوث لدى مضيفيه، ويقفل راجعاً إلى برلين.

فيوم الأحد 26 تشرين الثاني / نوفمبر 1911، تقدم لورا على الانتحار، مثل أختها قبل اثني عشر عاماً، وهي في الخامسة والستين، وزوجها بول لافارغ في السبعين، الذي يلحق بها في فعلها، إذ إنها السن التي اختاراها ليموتا، «قبل الشيخوخة التي لا ترحم»، عن طريق الحقن بأسيد السيانهيدريك، بدرافيل. فتوصي لورا بأوراق أبيها للاجتماعيين - الديمقراطيين الألمان. ويحضر لينين مراسم تشييعهما، ملقياً كلمة التأبين.

ويعود ريازانوف على الفور إلى درافيل، لكنه «لا ينجح، كما يروي، وهو يتلقى من الورثة أوراق ماركس التي تعود اليوم للاجتماعيين - الديمقراطيين الألمان، في العثور على تلك الاعترافات ولا على بعض الوثائق: إذ إن أيدٍ غريبة امتدت إليها».

في 1913، أي بعد ثلاثة أعوام من شروعه في العمل، ينشر ريازانوف في برلين مجموعة أولى من رسائل ماركس، تتضمن اقتطاعات عديدة أرغمه برنشتاين وميرينغ، أحد القادة الاشتراكيين، على القيام بها «إذ لا يمكن أن يوضع كل شيء بين كل الأيدي».

في 28 حزيران / يونيو، يُغتال ولي عهد الإمبراطورية النمسوية - الهنغارية في سراييفو من قبل إرهابي صربي هو، غاويلو برانسيب، فتعلن النمسا الحرب على صربيا، الثلاثاء 28 تموز / يوليو، وفي اليوم التالي يبرق الإمبراطور الألماني غليوم الثاني الذي يشعر بقدوم الكارثة، عدة مرات إلى قيصر روسيا لإثنائه عن مساندة صربيا، تضامناً مع السلاف. لكن لعبة التحالفات تعجل في الكارثة. وفي 30 منه، يأمر القيصر نيقولا الثاني الذي تلقى قبل ثلاثة أيام في موسكو، مساندة رئيس الجمهورية الفرنسية، ريموند بوانكاريه، ورئيس مجلس الوزراء، رينيه فيفياني، بالتعبئة العامة. ويُستقبل بوانكاريه وفيفياني لدى عودتهما بصيحات «تعيش الحرب!». وفرنسا بأسرها - ما عدا قلة قليلة، منها جوريس وكايو - مع دخول الحرب. وبعد شهر، في 31 تموز / يوليو، وفي إحدى مقاهي باريس، (لوكرواسان) يغتال الفوضوي راؤول فيّان، جوريس (وسينال البراءة بعد خمسة أعوام).

والسبت 1 آب / أغسطس 1914، يعلن الإمبراطور ومستشاره بيتمان - هولويغ، في برلين، الحرب على قيصر روسيا. والعاصمة الإمبراطورية التي أسسها بطرس الأكبر، تحت الاسم الألماني (سانكت بطرسبورغ) تصبح بيتروغراد. كما تعلن فرنسا بدورها التعبئة العامة، لكن بوانكاريه الذي لا يزال يريد أن يبدو مُطَمئناً، يصرح: «إن التعبئة لا

تعني الحرب». ويتنازع القادة الاشتراكيون في كل مكان حول الموقف الذي يجب اتخاذه. وباستثناء الروس والصرب، مع أنهم المعنيون في المقام الأول، فإنهم يصوتون لصالح الاعتمادات العسكرية التي طلبتها حكوماتهم.

في 3 آب / أغسطس، تعلن ألمانيا الحرب على فرنسا. وفي 4 منه، يصوت الحزب الاجتاعي – الديمقراطي لصالح الاعتمادات العسكرية؛ ويصرح رئيس مجموعته البرلمانية، هوغو هاس: «لن نتخلى عن الوطن ساعة الخطر». ويساير كوتسكي إدارة حزبه، فيساند الحرب. لكن بعض مناضلي الحزب يظلون أوفياء للسلام، ومنهم روزا لوكسمبورغ، جوليان بورشاردت، مُبَسِّط ماركس، وكارل ليبكنيخت ابن ويلهلم. فعلى أوروبا، بالنسبة لروزا لوكسمبورغ، أن تختار بين «الاشتراكية أو البربرية». ومن سخرية القدر أن أنصار السلام يُستبعَدون من الدولية الثانية التي لم تعد تضم مع ذلك إلا أحزاباً في حالة حرب بعضها ضد بعض! ويسمون عندئذ «شيوعيين»، في مقابل رفاقهم السابقين «الاشتراكيين» الذين لا يزالون يرجعون إلى ماركس. وهكذا تفقد الدولية عندئذ كل مبرر لوجودها، فيؤسس الشيوعيون مجموعة على حدة هي (الدي أنترناسيونال).

وفي اليوم ذاته، يصف المستشار الألماني بـ«ممسحة ورقية» بروتوكول 1831 الضامن لحياد بلجيكا، وهو ما يلقي بإنجلترا في الحرب، لدهشة غليوم الثاني الكبيرة.

أما في باريس، فالتحريض على الحرب في أوجه: إذ تكتب اليومية الاشتراكية (لومانيتيه) التي أسسها جان جوريس، في 10 آب 1914: «من صميم الشعب، وكذا من أعماق البورجوازية الصغيرة والكبيرة، يغادر آلاف من الشباب، يتأججون حماساً، دون ضعف ولا تردد، عائلاتهم لينضموا إلى قطعاتهم، واضعين حياتهم في خدمة الوطن الذي يتعرض للخطر». وعلى الرغم من معارضته لأي مشاركة للاشتراكيين في حكومة

بورجوازية، يشارك غيد في «الاتحاد المقدس» ليصبح وزيراً دون حقيبة في حكومة الاتحاد الوطني.

وفي 23 آب / أغسطس، تعلن اليابان، حليفة إنجلترا، الحرب على ألمانيا. وفي 29 تشرين الثاني / نوفمبر، يدخل السلطان محمد الخامس الحرب إلى جانب حليفته، ألمانيا.

وهنا تنشأ الكذبة الثالثة المحرِّفة لفكر ماركس: فبعد إنجلز وكوتسكي، ها هو لينين الذي بعدما استحوذ على عمل الألمان، يشرع بدوره في تزييف هذا الإرث. إذ بعد ابتداع الحزب - القائد في (ما العمل؟)، يكتب في منفاه السويسري، من تموز / يوليو إلى تشرين الثاني / نوفمبر 1914، خمسة وأربعين صفحة حول كارل ماركس، أو بالأحرى حول «الماركسية» لـ(معجم جمعية الأخوة غرانا الموسوعي). وكل شيء في هذا النص تزوير أو على الأقل تشويه، يجذب مؤلف (رأس المال) إلى منحى الثورة التي يهيئ لها. ومقصود لينين البرهنة على أن الثورة في روسيا وهي تجمع الفلاحين والعمال تحت قيادة الحزب العمالي، ستشكل المفتاح للثورة العالمية: «لقد مهدت الماركسية الطريق للدراسة الكلية والشاملة لسيرورة ولادة، ونمو وأفول تشكيلات اقتصادية واجتماعية، بتفحص مجموع الاتجاهات المتناقضة، وبإرجاعها لشروط وجود وإنتاج مختلف طبقات المجتمع، موضّحة بجلاء، وبإبعاد الذاتية والتعسف في اختيار أفكار «موجِّهة» أو في تفسيرها، باكتشافها مصدر كل الأفكار والاتجاهات المختلفة، دون استثناء، في حالة القوى المنتجة المادية. لقد أعطت الماركسية السلك الموصل الذي يسمح، في هذه المتاهة وهذه الفوضى الظاهرية، باكتشاف وجود قوانين، أي: نظرية صراع الطبقات». ويسكت لينين عن الصعوبات التي تبينها في نظريته: «إن الفارق بين السعر والقيمة ومساواة الربح، وهي وقائع لا تنكر ومعروفة من قبل الجميع، فُسرت جيداً من قبل ماركس، بفضل قانون القيمة، لأن مجموع قيم كل السلع مساوٍ لمجموع أسعارها». فالاشتراكية إذاً، كما

يزعم، لا مفر منها اقتصادياً: «يَخلص ماركس إلى التحول المحتوم للمجتمع الرأسمالي إلى مجتمع اشتراكي، انطلاقاً من القوانين الاقتصادية لحركة المجتمع الحديث، بصفة كلية وحصرية. إن جماعية العمل التي ما تفتأ تتقدم بسرعة بأشكال شتى تبدت خلال النصف قرن الذي انقضى منذ وفاة ماركس، بامتداد الإنتاج الكبير، والاحتكارات، والنقابات الرأسمالية، وكذلك بالتنامي الهائل لحدود وقدرة رأس المال».

ويشرع في الدفاع عن فكرة الاشتراكية في بلد وحيد: فينبغي، كما يقول، التوقف عن التفكير على النطاق العالمي؛ فالعمال ينتمون إلى أمة، وفي إطار أمتهم يتوجب عليهم القيام بالثورة، لأن «الأمم هي مُنتج وشكل لا محيد عنه للعصر البورجوازي في تطور المجتمعات. وما كان للطبقة العاملة أن تقوى وتعتاد على الكفاح وتتأهل دون «أن تنتظم في إطار أمة»، دون أن تكون «وطنية» (ليس بالمعنى البورجوازي للكلمة)». وأنسب مكان للتحرك بالنسبة للعمال، طبقاً لماركس، هو روسيا، كما يدعي: «لنُشر إلى بعض الأفكار العميقة لماركس (المهمة بصفة خاصة للبلدان المتخلفة كروسيا) حول تطور الرأسمالية في الزراعة. فبعد تحول الريع العيني إلى ريع نقدي، تتكون بالضرورة في الوقت ذاته، بل ومن قبل، طبقة من المياومين غير المالكين، يعملون مقابل أجر (..). ولا يمكن للتعاونيات، أي جمعيات صغار الفلاحين التي تؤدي دوراً بورجوازياً جد هام بالتدريج، إلا إضعاف هذا الاتجاه، وليس القضاء عليه؛ كما لا يجب أن ننسى أيضاً أن هذه التعاونيات تعطي الكثير للفلاحين الميسورين، والقليل أو لا شيء تقريباً لجماهير الفلاحين الفقراء، لتنتهي هذه الجمعيات هي نفسها إلى استغلال العمل المأجور».

وقضي الأمر هكذا: فينبغي قيام الثورة في روسيا بإشراك العمال والفلاحين، يقودهم حزب واحد. ولكن، بما أن من الواجب تسويغ هذا الحزب، يجعل لينين من إنجلز نداً أو من يترجم فكر ماركس على الأقل: «فيما يتصل بموقف اشتراكية ماركس إزاء الفلاحين الصغار الذين

سيظلون موجودين حتى حينما تُنزع ملكية نازعي الملكية، من المهم التنويه بهذا التصريح لإنجلز الذي يعبر عن فكر ماركس..» يعقبه نص لإنجلز لا علاقة له بفكر ماركس.

ويكمل لينين سيرة الحياة الموجزة التي يخصصها لفريدريك إنجلز، بإكليل غارٍ، قائلاً: «مكافح عظيم ومربٍ للبروليتاريا، سيعيش إلى الأبد (..). وبعد صديقه كارل ماركس (..) كان إنجلز العالم الأكثر بروزاً، والمربي للبروليتاريا المعاصرة في العالم المتحضر بأسره. ومنذ اليوم الذي جمع القدر كارل ماركس وفريدريك إنجلز، أصبح عمل كل حياة الصديقين ثمرة لنشاطهما المشترك (..)، إذ كان ماركس وإنجلز، في أعمالهما العلمية، أول من بيَّن أن الاشتراكية ليست سراباً، بل الهدف النهائي والنتيجة الضرورية لتطور القوى المنتجة في المجتمع الحالي»..

في هذه الأثناء، نهاية 1914، تتقهقر الجيوش الروسية أكثر من 500 كيلو متر داخل الأراضي الروسية، وتفقد ما يزيد عن مليوني جندي. وتستقر الحرب لتدوم بعدما قام الجيش الألماني باختراق الخطوط الفرنسية في الشمال، وأوقف في فيردان.

وتعتقل روزا لوكسمبورغ، ببرلين في 18 شباط / فبراير 1915، لكتاباتها المناوئة للحرب التي تقوم بها ألمانيا. وتؤسس في 15 منه مجلة (الأنترناسيونال) [الدولية]، وهي «مجلة شهرية للنظرية الماركسية وممارستها»، تنشر تحت اسم «جونيوس» المستعار، رسائل روزا من السجن إلى مجموعتها، التي تتخذ لتوها اسم «سبارتاكوس»: «إن الدولية التي تعبر عن مصالح البروليتاريا، لا يمكن لها أن تولد إلا من نقد البروليتاريا الذاتي، في وعيها بقوتها الذاتية، هذه القوة التي انحنت، في 4 آب / أغسطس، كقصبة مترنحة».

في 1916، وبينما تغوص الحرب في وحل الخنادق، ويستأنف الجيش القيصري بقيادة الجنرال بروسيلوف الهجوم في بولونيا، بمواجهة قوات هندنبرغ، يكتب لينين، إن الإمبريالية هي «أعلى مراحل

الرأسمالية». وفي طبعة جديدة ظهرت بعد أربعة أعوام، سيوضح: «ليبيّن هذا الكتاب أن حرب 1914 - 1918، كانت من الجهتين حرباً إمبريالية (أي حرب احتلال ونهب وسلب)، حرباً لتقاسم العالم، ولتوزيع وإعادة توزيع المستعمرات، و«مناطق النفوذ» للرأسمال المالي، إلخ. ذلك أن الدليل الحقيقي على الطابع الاجتماعي أو، بصفة أدق، على الطابع الطبقي للحرب، لا يكمن بالطبع في التاريخ الدبلوماسي لهذه الحرب، بل في تحليل الوضع الموضوعي للطبقات الحاكمة لكل القوى المتحاربة. ولتوضيح هذا الوضع الموضوعي، لا يجب أخذ أمثلة، ولا معطيات معزولة (فالتعقد الشديد لظواهر الحياة الاجتماعية يسمح دائماً بالعثور على أمثلة ومعطيات معزولة بقدر ما نشاء لدعم أية أطروحة)، بل مجموع المعطيات حول أسس الحياة الاقتصادية لكل القوى المتحاربة، وللعالم أجمع».

في 14 آذار / مارس 1916، تقرر قيادة الاجتماعية - الديمقراطية، طرد الذين يعارضون الحرب. وفي 30 آذار / مارس، تكتب روزا لوكسمبورغ في إحدى رسائلها: «كل شيء موضوع رهان: النضال من أجل الحزب، وليس ضد الحزب. والشعار، ليس انقساماً أو وحدة، وليس حزباً قديماً أو جديداً، بل إعادة الاستيلاء على الحزب من أسفل، بتمرد الجماهير التي عليها أن تأخذ في أيديها المنظمات ووسائلها، ليس بالكلمات، بل بأعمال التمرد. فالنضال الحاسم من أجل الحزب بدأ». حتى إنها تذهب إلى حد كتابة أنه، بالنسبة للقيادة الاجتماعية - الديمقراطية، «هيندينبرغ (الذي يقود العمليات العسكرية) أضحى منفذ وصية ماركس وإنجلز»! وهي القطيعة: إذ ينضم إليها قسم من الحزب الاجتماعي - الديمقراطي الذي يقوده برنشتاين، كارل ليبكنيخت، فرانز ميرينغ والروسية كلارا زيتكين، ويؤسس حزب (USPD) (الحزب الاجتماعي - الديمقراطي المستقل) المرتبط بمجموعة سبارتاكوس، الذي تكتب روزا لوكسمبورغ برنامجه من سجنها. بيد أن برنشتاين باعتباره مناصراً للسلام لكنه غير ثوري، سرعان ما ينفصل عنهم، مبدياً حزنه لأن

«شخصاً يملك مواهب روزا لوكسمبورغ الفكرية، وتكوينها العلمي (قامت بدراسات لامعة في ثانوية وارسو) أمكن له أن يسهم في كتابة» هذا البرنامج، «كهجائية شريرة، غامضة بقدر ما هي ديموغاجية ومستفزة».

وتشكل الحرب أكثر فأكثر عبئاً ثقيلاً تصعب مساندته، فبينما تقف الطبقة العاملة في فرنسا، بمجموعها تقريباً، صفاً وراء الجيش (ما عدا استثناءات نادرة)، تنمو في ألمانيا موجة ثورية تدعمها وتثيرها مجموعة سبارتاكوس. إذ يُضرب عمال الحديد والصلب في برلين وليبزيغ احتجاجاً على الحرب والجوع.

وفي الفترة ذاتها، وبمغامرة خارقة للعادة، في شباط / فبراير 1917، وفي خضم الحرب بين روسيا وألمانيا، بينما تمتد الجبهة على عدة آلاف من الكيلومترات، يغادر ريازانوف برلين، ويصل إلى روسيا حاملاً في أمتعته مخطوطات لماركس وإنجلز، ومجموعات من (فورفارتس) و(رينيش زايتونغ) لعامي 1842 - 1843، ومن (نيويورك دايلي تريبيون) للسنوات التي كان ماركس يكتب فيها، وكذا صوراً لوثائق من الأرشيفات الألمانية. وهو يفعل ذلك ولا ريب مع الموافقة الضمنية للقادة الاجتماعيين - الديمقراطيين الذين لا يمتعضون لرؤية أوراق قديمة تذهب.. وكل ما يمكن أن يزعزع القيصر مفيد للجيش الألماني.

ففي 8 آذار / مارس 1917، يُضرب عمال مصانع بوتيلوف، في بيتروغراد، احتجاجاً على الجوع، وينضمون إلى مسيرة نُظمت بمناسبة يوم المرأة. وقلة هم الذين يصيحون: ليسقط القيصر!» وتتجدد المظاهرات في الأيام التالية. والجيش يطلق الرصاص، يوم الأحد 11 منه، مخلفاً أربعين قتيلاً. لكن الجنود والعمال سرعان ما يتآخون، وينشئون (سوفييت) («مجلس») لعمال وجنود بيتروغراد، وينضم إليهم بعض النواب المينشفيك في الدوما، يقودهم محامٍ، يدعى ألكسندر كيرينسكي، ويطلبون في 15 منه، إلى نبيل ليبرالي، هو الأمير لفوف، وإلى ميليوكوف، تسلم رئاسة الحكومة. وفي المساء ذاته، يتنازل القيصر

عن العرش، لكن الحرب تتواصل. ويشارك مينشفيك مارتوف في الحكومة الجديدة.

في 27 آذار / مارس، وأثناء الفتن الشيوعية في برلين وفي بيتروغراد، تستأجر حكومة إمبراطور ألمانيا قطاراً مصفحاً، وتؤمن عبور لينين وبعض رفاقه الآتين من سويسرا إلى روسيا، مثلما أمنت قبلاً عبور ريازانوف، أملاً في أن يزعزع البُلشفيك الحكومة الجديدة في بيتروغراد.

وبالفعل، لا يتوصل كيرينسكي في 29 حزيران / يونيو 1917، بسرعة إلى تهدئة الاضطرابات التي يدبرها لينين ضده. فيأمر باعتقال القادة البلشفيك، ويحظر صحفهم مثل (البرافدا)، ويرسل القوات القريبة من البلشفيك إلى الجبهة. ويفر لينين إلى فنلندا. وفي بداية تموز / يوليو يبدو الوضع ناضجاً كفاية لبعض الشيوعيين من أجل الثورة؛ لكن لينين يعارضهم. وتعلن حكومة كيرينسكي انتخابات قريبة لتعيين مجلس تأسيسي.

ويستأنف كيرينسكي الذي أخذ مقاليد الحكم من يدي ميليوكوف شن الحرب؛ فيهزم الجنرال بروسيلوف الذي لا يزال يقود الجيوش الروسية الألمان في 1 تموز / يوليو بالقرب برزيزاني. ويواصل كورنيلوف الذي يخلفه إحراز انتصارات. ثم يتفكك الجيش الروسي. وفي أيلول / سبتمبر، يهاجم الألمان في الشمال، ويحتلون ريغا في 3 منه، ثم جاكوبستاد في 21.

ويشكل (الاشتراكيون - الثوريون) القريبون من الفلاحين، الغالبية في المجلس التأسيسي، حيث يحصلون على 419 مقعداً، مقابل 168 للبَلشفيك، و18 للمنشفيك و17 لـ K-D و81 لباقي الاتجاهات.

وريازانوف الذي كان عين في نيسان / أبريل، مفوضاً من الشعب للاتصالات في أوديسا، ينتخب ممثلاً لهذا الميناء الأوكراني في المجلس التأسيسي، وعضواً في اللجنة التنفيذية لاتحاد عمال السكك الحديدية.

ومن فنلندا، يكتب لينين في 28 أيلول / سبتمبر، إلى اللجنة المركزية لحزبه التي بقيت في بيتروغراد، طالباً تهيئة الانتفاضة سراً. ولاستحواذ مصير الكومون على فكره - إذ لم تصمد إلا اثنين وسبعين يوماً - ولقراءته لنداء ماركس الثالث، وكذا لنصه حول انقلاب نابليون الثالث، يعلم أنه لن يستولي على السلطة ويحتفظ بها إلا إذا عقد تحالفاً مع الفلاحين. لكن ديكتاتورية البروليتاريا، تعني عنده ديكتاتورية مستدامة. فيكتب عندئذ رسالة إلى لجنته المركزية، كنص مؤسِّس لثورة أكتوبر، يحاول فيها تأسيس تحليل تكتيكي محدد فيما يجب فعله، على تفسير مزور لماركس الذي ينسب إليه مديحاً للثورة بأي ثمن («الثورة كفن») لا يوجد في أيٍ من نصوصه.

«كان أستاذ الانتهازية الكبير، برنشتاين، اكتسب صيتاً سيئاً بتوجيه تهمة البلانكية(*) إلى الماركسية (..). اتهام الماركسيين بالبلانكية لأنهم يرون التمرد كفن! هل ثمة تشويه صارخ للحقيقة أكثر من هذا، في الوقت الذي لن ينكر أي ماركسي أن ماركس بالذات هو الذي تحدث عن هذه النقطة بالأسلوب الأكثر دقة والأكثر جلاءً والأكثر جزماً، عندما صرح بالضبط أن التمرد فن، وقال إن من الواجب التعامل معه كفن، ويجب (افتكاك) النجاحات الأولى، والتقدم من نجاح إلى نجاح دون توقيف (المسيرة) ضد العدو، باغتنام حالة الارتباك التي تصيبه؟ وحتى ينجح التمرد، ليس عليه أن يعتمد على مؤامرة ولا على حزب، بل على الطبقة الطليعية. ويجب أن ينبثق التمرد في (منعطف) من تاريخ الثورة الصاعدة، حيث يكون نشاط طليعة الشعب على أشده، ويكون الارتباك على أشده في صفوف العدو، وفي صفوف أصدقاء الثورة الضعفاء والمترددين الغارقين في التناقضات. فرفض اعتبار التمرد، منذئذ، كـ(فن)، يعني خيانة الماركسية، وخيانة الثورة. ولهذا كان التمرد في 3 و4 تموز / يوليو يشكل خطأ: فما كان بإمكاننا

(*) البلانكية: نسبة إلى موريس بلان. (المترجم)

الاحتفاظ بالسلطة: لا مادياً ولا سياسياً. مادياً، مع أن بيتروغراد كانت في أيدينا لبعض الأوقات، لأن عمالنا وجنودنا ما كانوا ليقبلوا أن يقاتلوا ويموتوا للاستيلاء على بيتروغراد عندئذ، فلم يكن هناك حينئذ هذا «السخط»، وهذه الكراهية الشديدة (..). وأنصارنا لم يكونوا تمرسوا بعد بخبرة القمع ضد البلشفيك بمشاركة الاشتراكيين - الثوريين والمُنشفيك (..). أما اليوم، فالوضع تبدل تماماً. لأن معنا غالبية الطبقة التي هي في طليعة الثورة، طليعة الشعب، القادرة على قيادة الجماهير. ومعنا أيضاً غالبية الشعب، لأن (..) الفلاحين لن يتلقوا الأرض من الكتلة الاشتراكية - الثورية (ومن لا من الاشتراكيين - الثوريين أنفسهم). وتلك هي النقطة الجوهرية، التي تعطي الثورة طابعها الوطني. ولدينا لصالحنا مزية وضع يعرف الحزب فيه طريقه، في مواجهة الارتباكات الشديدة التي تعرفها كل الإمبريالية وكل كتلة المنشفيك والاشتراكيين - الثوريين. وأمامنا نصر محتم».

وللحصول على تبني وجهة النظر هذه، يعود لينين إلى بتروغراد في 23 تشرين الأول / أكتوبر، وينال قبول مبدأ انتفاضة مسلحة من أجل إقامة «ديكتاتورية البروليتاريا»، على أن يطور البُلشفيك ثلاثة شعارات: «السلام الفوري» لاستمالة الجنود وضمهم، «الأرض للفلاحين» من أجل سكان الأرياف، «كل السلطات للسوفييت» من أجل العمال. ثم يقفل راجعاً إلى فنلندا، تاركاً لتروتسكي الذي عينه معاوناً له، مهمة التحضير للانتفاضة. ويعود في 29 تشرين الأول / أكتوبر، ويحصل على القرار ضد كامينيف وزينوفييف اللذين يخشيان الإخفاق ويريدان تأخير الهجوم. وفي ليلة 6 - 7 تشرين الثاني / نوفمبر (طبقاً للتقويم الغريغوري) يستولي البلشفيك على مراكز القرار الرئيسة في بيتروغراد، ويعتقلون الوزراء المجتمعين حينئذ في قصر الصيف. ويستلم لينين قيادة الحكومة، معلناً الحركة العمالية الروسية «طليعة للبروليتاريا العمالية». ويعين تروتسكي مفوضاً من الشعب للشؤون

الخارجية. وهو يأمل الاحتفاظ بالسلطة اثنين وسبعين يوماً، على غرار الكومون. ولا يفتأ يكرر قول ماركس: «إن مبادئ الكومون خالدة، ولا يمكن القضاء عليها. وستنبعث من جديد دائماً حتى تتحرر الطبقة العاملة». لكنه سيفرض منذئذ تصوراً لديكتاتورية البروليتاريا أبعد ما يكون عن تصور ماركس: فبينما دكتاتورية البروليتاريا لدى ماركس تعني الحكم المؤقت لأغلبية واسعة، تحترم حقوق الناس، وحرية الصحافة، وأحزاب المعارضة، وفصل السلطات. ينظر لينين إليها كديكتاتورية نهائية لأقلية بعينها.

وفي اليوم التالي، يطلب الزعيم البلشفي السلام. وهو مستعد لكل التنازلات لأنه مقتنع بأن الألمان لن يلبثوا أن يلحقوا بالروس على طريق الثورة البروليتارية.

وتكمم في روسيا الصحافة «البورجوازية». وتُنشأ الشرطة السياسية (تشيكا) في 7 كانون الأول / ديسمبر، ويُحظر الإضراب في 20 منه. كما يُحظر الحزب المعتدل K-D (أو الحزب الدستوري - الديمقراطي).

وفي 19 كانون الثاني / يناير، منذ تسلمه منصبه، يحل لينين المجلس التاسيسي. وفي 30 آب / أغسطس، بعدما اتهمت دورا كابلان، المناضلة من الاشتراكيين - الثوريين، بأنها دبرت اعتداء، حُظر آخر حزب معارض للبلشفيك، ولوحق أعضاؤه وأرسلوا إلى المعسكرات. ويؤسس ريازانوف مركز أرشيفات البلاد، ويصبح أستاذاً في جامعة سفيردلوف، ويسهم في تأسيس الأكاديمية الاشتراكية.

وفي 3 آذار / مارس 1918 يُوقع في بريست - لوفيسك وقف للقتال بين روسيا والقوى المركزية التي تمنح أوكرانيا استقلالها، فتسارع هذه إلى إعطاء ملاذٍ للقوات «البيضاء» المناوئة للحكومة الشيوعية.

والحزب البلشفي الذي لا يزال يسمى حزب روسيا العمالي

الاجتماعي – الديمقراطي، يغدو الحزب الشيوعي في مؤتمر آذار / مارس 1918.

لكن الاشتراكيين الألمان شديدو الانقسام فيما يتصل بأحداث روسيا. فروزا لوكسمبورغ تتلقى بحماس ثورة أكتوبر، مع إبداء قلقها من التصور اللينيني لديكتاتورية البروليتاريا. إذ تكتب في نص فَطِن: «إن حرية تقتصر على أنصار حكومة، وعلى أعضاء حزب، مهما كانوا كثيرين، ليست هي الحرية. فالحرية دائماً، هي حرية من يفكر بطريقة مختلفة (..). والمهمة التاريخية التي تقع على كاهل البروليتاريا ما إن تستلم السلطة، هي إقامة الديمقراطية الاشتراكية، في مكان الديمقراطية البورجوازية، وليست إلغاء كل ديمقراطية». وهي، مثل ماركس، ترى في ديكتاتورية البروليتاريا «الكيفية في تطبيق الديمقراطية، ليس في إلغائها، بل في تدخلات نشيطة وحاسمة، وفي الحقوق المكتسبة، وفي العلاقات الاقتصادية للمجتمع البورجوازي، التي لا يمكن بدونها تحقيق التحول الاشتراكي. لكن على هذه الديكتاتورية أن تكون عمل الطبقة وليست عمل أقلية قليلة تقود باسم الطبقة، وبعبارة أخرى، عليها أن تخرج خطوة فخطوة من المشاركة الفاعلة لجماهير، وتكون تحت تأثيرهم المباشر، وخاضعة لمراقبة الرأي العام، ونتاجاً للتربية السياسية المتنامية للجماهير الشعبية».

وفي الآونة ذاتها، ينضم كارل كوتسكي إلى عدوه القديم برنشتاين، للتنديد بما يُقام في روسيا. فتأميم الاقتصاد، بالنسبة إليه، يفضي إلى سلطة مستبدة على النمط الشرقي. «لا يمكن لهذه التجربة الحمقاء أن تنتهي إلا إلى سقوط مريع»، ولا يمكن للنموذج البلشفي أن «يؤدي إلا إلى الثورة المضادة».

فيرد عليه لينين في (الثورة البروليتارية وكوتيسكي المرتد)، بقول مزور لماركس: «أصبح هذا العنف ضرورياً بالخصوص، كما فسره ماركس وإنجلز عدة مرات، وبالأسلوب الأكثر جلاءً (في «الحرب الأهلية في

فرنسا» وفي مقدمة هذا المؤلَّف)، بوجود النزعة العسكرية والبيروقراطية». والحال أن ماركس، كما رأينا آنفاً، يقول العكس بالضبط. ولوعيه بهذا التحوير، يضيف لينين كذبة أخرى: «والحال أن هاتين المؤسستين بالذات: في إنجلترا وفي أمريكا، لم تكونا موجودتين في سنوات السبعينيات من القرن التاسع عشر، أي الحقبة التي قام ماركس بملاحظته حولها. والآن هما موجودتان في إنجلترا وفي أمريكا». مستطرداً: «وكلا الاثنين (برنشتاين وكوتسكي) ثوريان وماركسيان بالكلام، ومرتدان بالفعل: يبذلان جهودهما للتهرب من الثورة. ولا يوجد لدى هذا ولا ذاك أقل أثر مما توحي به الأعمال الكاملة لماركس وإنجلز، ويميز الاشتراكية الحقيقية عن شكلها الكاريكاتوري البورجوازي، أعني التحليل الثوري في مقابل المهمات الإصلاحية، وتحليل التكتيك الثوري في مقابل التكتيك الإصلاحي، وتحليل دور البروليتاريا في القضاء على نظام العبودية المأجورة، في مقابل دور بروليتاريا القوى «الكبرى» التي تتقاسم مع البورجوازية قطعة من الربح المفرط والغنيمة المفرطة الإمبريالية لهذه الأخيرة».

في أيار / مايو 1918، في موسكو التي أصبحت العاصمة، يقيم لينين احتكار الدولة للزراعة الصناعة، ويؤمم المنشآت الاقتصادية الكبرى، ويجعل الزراعة جماعية.

وفي الآونة ذاتها، ببرلين، وبينما يتجه الجيش الذي يقوده لودندورف إلى الهزيمة، تحت ضربات المناضلين الماركسيين، وتحت قنابل المدافع الفرنسية على السواء، يفضح المؤرخ أوزوالد شبينغلير، في نص هام وغير معروف، (البروسية والاشتراكية) اشتراكية ماركس، على أنها معادية للألمان، لأنها يهودية، أما الاشتراكية «الحقة» في نظره، فبروسية ووطنية. ويقدم هكذا أساساً إيديولوجياً لليمين الألماني، ومن بعده في الغد، لليمين المتطرف وللوطنية - الاشتراكية، لمقاومة الماركسيين والأنجلو - سكسون، في آن، لأنه يتهم الماركسيين والرأسماليين بالتحالف ضد

ألمانيا. وينبغي اقتباس هذا النص مطولاً، لأنه يقدم في هذه السنة الرهيبة 1918، توضيحاً لما سيقود إلى ولادة أسوأ بربريتين على الإطلاق، وكلاهما وُلدتا في بروسيا.

«إنه فريدريك – غليوم الأول، وليس ماركس، الذي كان عن قصد أول اشتراكي. فمنه، كشخصية مثالية، تنطلق هذه الحركة العالمية..» بينما، كما يقول شبينغلير، الرأسمالية إنجليزية. «في ذروة الثقافة الأوروبية – الغربية، تطورت مدرستان فلسفيتان كبيرتان، الإنجليزية، مدرسة الأنانية والحسية، والبروسية، مدرسة المثالية (..). وبينما بالنسبة لنا نحن البروسيين، ستظل المعارضة البناءة دائماً هي القيادة والطاعة ضمن جماعة منضبطة بحزم، تسمى دولة، حزب، طبقة عاملة، سلك الضباط أو موظفين، جماعة يكون كل عضو من أعضائها دون استثناء خادماً لها (..)، يفهم شعب الجزر (البريطانية) عبر غريزة القرصان لديه، الحياة الاقتصادية بشكل مختلف تماماً. فالأمر يتصل بصراع وبغنيمة – وبصفة أدق، الغنيمة التي ستعود إلى كل واحد (..). إن هدفهم هو تشييد ثروات فردية، وموارد خاصة، والقضاء على المنافسة الخاصة. واستغلال الناس بوساطة الإعلان، والسياسة (..). وكل الصراعات بين أرباب العمل والعمال في الصناعة الإنجليزية للعام 1850، تتعلق بسلعة «العمل» الذي يريد هذا الاستيلاء عليه رخيصاً بينما يريد الآخر التفاوض على بيعه بسعر أغلى». وماركس نتاج للرأسمالية الإنجليزية، ولا يمكن لنظريته أن تطبق في ألمانيا. «إن كل ما يقوله ماركس بغضب مثير للإعجاب، عن نتائج «المجتمع الرأسمالي» صالح للغريزة الاقتصادية الإنجليزية، وليس لغريزة الإنسان عامة (..). وفقط الرأسمالية من الطراز الإنجليزي تناظر الاشتراكي من الطراز الماركسي. أما الفكرة البروسية في تسيير الحياة الاقتصادية من منظور فوق فردي، فقد حولت عن دون قصد، انطلاقاً من التشريعات الحمائية للعام 1879، الرأسمالية الألمانية إلى أشكال اشتراكية بمعنى نظام للدولة (..). وهكذا يوجد مبدآن اقتصاديان كبيران

اليوم وجهاً لوجه. فالفايكينغ أضحى مدافعاً عن التبادل الحر؛ والفارس، من جهته، موظف في الإدارة. وما من توفيق ممكن بينهما؛ ولأنهما كليهما جرمانيين ورجال فوستيين(*) من المرتبة الأولى، لا يعرفان حداً لرغبتهما، ولن يعتقدا بأنهما بلغا الهدف إلا عندما يخضع العالم بأسره لفكرتهما، ستقع الحرب حتى ينتصر فيها أحدهما نهائياً».

نص مخيف وتنبؤي يُختم هكذا «هل ينبغي أن يكون الاقتصاد العالمي استغلالاً أم تنظيماً للعالم؟ وهل على قياصرة هذه الإمبراطورية المستقبلية أن يكونوا من أصحاب الملايير أم موظفين؟ وهل يجب أن تكون شعوب الأرض، طالما جمعت بينهم هذه الإمبراطورية من الحضارة الفوستية، موضعاً لسياسة الاحتكارات أم لسياسة بني الإنسان، كما تشير نهاية فصل (فاوست) الثاني؟ ذلك أن الأمر متصل بمصير العالم..».

وشبينغلير يثني هنا، دون أن يدرك، على الاتحاد السوفييتي، حيث «سيكون القياصرة موظفين»، وعلى الرايخ الثالث المستقبلي، حيث سيكون القيصر (فوهرراً)، ومرشداً.

في الوقت الذي تتواصل المجازر في الخنادق، تنادي مجموعة سبارتاكوس مع راديكاليي اليسار في بريم بإنشاء «جمهورية اشتراكية ألمانية تكون متضامنة مع الجمهورية الاشتراكية الروسية» في 7 تشرين الأول / أكتوبر 1918. وفي 1 تشرين الثاني / نوفمبر، تندلع الثورة، وتتهاوى الملكية، فيتنازل الإمبراطور عن العرش، وتعلن الجمهورية، وتنتهي الحرب. وتصبح سبارتاكوس عصبة باسم «الحزب الشيوعي الألماني - عصبة سبارتاكوس»، وتتحالف مع الجناح اليساري من الحزب الاجتماعي - الديمقراطي المستقل لـ(USPD). ونستطيع أن نقرأ في نشرتها (الراية الحمراء) «إن التاريخ هو المعطي الوحيد والحقيقي للدروس؛ والثورة هي أفضل مدرسة للبروليتاريا».

(*) نسبة إلى فاوست وهو ساحر يبيع روحه للشيطان في مقابل متاع الدنيا. وكان موضوعاً لأعمال أدبية عديدة أشهرها: مسرحية فاوست، لغوته. (المترجم).

وبينما كان الفرنسيون يحتفلون بعد المذبحة الرهيبة، يبدأ لينين في هيكلة الدولة وجعل المنشآت الاقتصادية جماعية والتجهز بوسائل القمع، ناسياً أن أول مهمة عهد بها ماركس لديكاتورية البروليتاريا كانت على العكس «القضاء على الأجهزة القمعية». أما بالنسبة للاقتصاد فالقرار حاسم: وهو المذهب الجماعي في الصناعة. إذ يقول لينين عندئذ إن الاشتراكية هي: «السوفييتيات زائد الكهربة». ويختلق الاقتصادي بريوبراجينسكي تصور «التراكم الاشتراكي البدئي» لإعادة بناء بلد مخرب، على شكل رأسمالية الدولة، بينما كان على الاشتراكيين الروس، طبقاً لتعاليم ماركس، أن يستلهموا الجماعة الفلاحية السلافية (أوبسجنا). لكن لينين، لكي يفلت سواء من الديمقراطية البرلمانية أم من الشعبويين، في تحديد الأسس الإيديولوجية للنظام الجديد، ولإظهار قيمتها «العلمية ودعمها بكل التاريخ الأوروبي في تحرر الشعوب»، يحتاج إلى الاستشهاد بماركس مرجعاً.

ولذا، كان أحد أول أعمال ثورة أكتوبر - المحاصرة من قبل أعداء الداخل والخارج، المنهمكة في المهمة الهائلة المتمثلة في الاستيلاء على سلطة دولة في حالة حرب، وفي الكفاح ضد قسم منشق من الجيش - هو إقامة نُصُب في طول البلاد وعرضها.. تمجيداً لألمانيين - أي لعدوين - مجهولين من الشعب الروسي: ماركس وإنجلز! وهي أولوية غريبة في بلاد مخربة، عليها إعادة البناء انطلاقاً من لا شيء، لدولة ولنظام اجتماعي جماعي، لا نظير له في العالم.

ففي 9 تشرين الثاني / نوفمبر 1918، أي قبل يومين من التوقيع على وقف القتال الفرنسي - الألماني في روتوند، وبينما يحاول الشيوعيون الألمان الاستيلاء على السلطة في بارفاريا التي دبروا انفصالها، يفتتح لينين نفسه أول هذه النصب لماركس وإنجلز في موسكو التي غدت العاصمة الروسية في آذار / مارس 1918، فيلقي بهذه المناسبة خطاباً هاماً، يُنشر ملخص له، ملحقاً بالعدد 242 من (البرافدا):

«نحن نفتتح نصباً لزعيمي الثورة العمالية العالمية، ماركس وإنجلز (..). وفضل ماركس وإنجلز العظيم، ذو الأهمية التاريخية العالمية، هو أنهما برهنا بتحليل علمي، على إفلاس الرأسمالية المحتوم والانتقال المحتوم إلى الشيوعية، حيث لن يعود ثمة استغلال الإنسان للإنسان؛ (..) وبيَّنا للكادحين في كل البلدان دورهم، ومهمتهم، أي: أن يكونوا البادئين في الكفاح ضد رأس المال، ويجمعوا حولهم في هذا الكفاح، كل الشغيلة وكل المستغَلين. ونحن نعيش وقتاً بهيجاً، بدأ توقع عظماء الاشتراكيين فيه يتحقق. ونرى جميعاً كيف يبزغ في مجموع من البلدان فجر ثورة البروليتاريا الأممية الاشتراكية. وفظائع المجزرة الإمبريالية للشعوب تؤدي في كل مكان إلى الوثبة البطولية للجماهير المضطهدة، وتضاعف قواها في الكفاح من أجل التحرر. وعسى أن تذكر النصب المشيدة لماركس وإنجلز ملايين العمال والفلاحين دائماً بأننا لسنا وحيدين في كفاحنا. فإلى جوارنا ينتفض عمال البلدان الأكثر تقدماً. ولا تزال تنتظرنا معارك مريرة، هم ونحن. إذ بالكفاح المشترك سيُنزع نير رأس المال، وتنتصر الاشتراكية نهائياً!».

والجملة الهامة هي: «لسنا وحيدين في كفاحنا». فلينين يريد، من خلال ماركس، الاتصال بالعلم وبالتاريخ، ولكن أيضاً بالأمل الذي يلوح بثورة في ألمانيا.

وعلى المسلة التي أقامتها أسرة رومانوف في 1913، احتفاء بالذكرى الثلاثمائة لملكها، يأمر لينين بنقش أسماء عشرين من رواد الشيوعية إلى جانب ماركس وإنجلز، منهم توماس مور، كامبانيللا، فورييه، وتشيرنيتشيفسكي. فبما أن روسيا وحيدة في المكان؛ هي تبحث لها عن حلفاء في الزمان.

في الآونة ذاتها، يعود ريازانوف إلى مهنته، أي دراسة ماركس. فبعدما أسس مركز الأرشيفات، حيث جمعت وثائق الاشتراكية الروسية والألمانية، وأسهم في تأسيس الأكاديمية الاشتراكية، يتولى فيها الإشراف

على «قسم الماركسية» الذي سرعان ما يحوله إلى معهد ماركس - إنجلز، يودع فيه كل ما جلبه من أجل ألمانيا ومن فرنسا في خضم الحرب: مخطوطات لماركس وإنجلز، وصور عن وثائق في الأرشيف الألماني. ثم يعود إلى ألمانيا مدة شهر، ويسعى للحصول على مخطوطات ماركس وإنجلز التي لا تزال باقية في الحزب الاجتماعي - الديمقراطي أو لدى برنشتاين. وعلى الرغم الفوضى السائدة عندئذ، يدافع كل عن مصالحه بين الاشتراكيين. فلا ينوي برنشتاين تسليم ما لديه، ويدعي أنه أعار فصلاً من (الإيديولوجية الألمانية) غير منشور، يطالبه به ريازانوف، إلى ميرينغ، القائد الاشتراكي الآخر، وأنه لم يعده له. ولدى الشيوعيين بعض النصوص؛ والاشتراكيون المستقلون لديهم بعضها الآخر. لكن ريازانوف يعلم أن مخطوط (الإيديولوجية الألمانية) موجود، وهو يريده. وسيشكو الروسي فيما بعد «من كل العناء الذي لقيته لإخراج مخطوط بعد الآخر من أرشيف برنشتاين خلال هذه الأسابيع الأربعة. واضطررت للاستعانة بكل المصادر المطبوعة التي كنت أعرفها، ولم يطلعني إلا بعد عدة أيام من المناقشة على القسم الثاني من المخطوط. ونتيجة الرحلة التي قمت بها إلى برلين لهذه الغاية، هي التالية: بعد كثير من العناء، نجحت أخيراً في إخراج (الإيديولوجية الألمانية) إلى النور، وأمتلك له صورة طبق الأصل».

ويعود ريازانوف للتنقيب في أرشيف الحزب الاجتماعي - الديمقراطي الألماني، ليكتشف فيه «مخطوطاً على جانب من الأهمية يبدأ في الصفحة 5» - وهو (نقد فلسفة هيجل في الحق)، أول مؤلَّف لماركس وكان يظن أنه فقد -، ومخطوطاً آخر حول العمل المأجور و«جزءاً من دراسة لماركس عن الفلسفة اليونانية»، أي أطروحته. وهناك أيضاً مخطوطات نهاية سنوات 1850 الاقتصادية، والكراسات الثلاث والعشرون التي استخدمت لكتابة (رأس المال)! «والعمل الضخم في تصوير المخزون الذي في حوزة برنشتاين، والمخطوطات الاقتصادية الأكثر أهمية، منعني

من تصوير كراسات ملاحظات ومقتطفات ماركس، لكن من الواجب مع ذلك عمله..». ثم يذهب إلى فرانكفورت، إلى معهد البحوث الاجتماعية في الجامعة، التابع منذ نهاية الحرب للاجتماعية - الديمقراطية الألمانية، لمحاولة التفاوض معهم لنشر أعمال ماركس وإنجلز الكاملة بصفة مشتركة. والألمان يقبلون، لكن الأحداث ستحول دون ذلك.

وكانت تلك ساعة لكل ضروب الجرأة النظرية؛ إذ يحاول عدة اقتصاديين تطبيق نظريات ماركس حرفياً. وهكذا يحاول اقتصاديان سوفييتيان، يُدعيان سميت وكليبيروف، بدعم من لينين شخصياً، العمل على طريقة لتحديد الأجور طبقاً لما يحتويه العمل المبذول من طاقة. فيصرح لينين بهذا المعنى: «باتباعنا الطريق الذي خطته نظرية ماركس، سنقترب أكثر فأكثر من الحقيقة الموضوعية (دون أن نستنفدها مع ذلك أبداً)؛ وأياً كانت الطرق الأخرى التي نتبعها، فإننا لن نصل إلا إلى الغموض والكذب».

في الصين، تلك السنة، ينظم لي داتساو، وشن دوكسيو، مجموعات للدراسات العلمية حول أعمال ماركس التي اكتشفاها في المنفى بفرنسا. وماوتسي تونغ عضو في إحدى هذه المجموعات بمنطقة الهونان. فقد أضحى المفكر الألماني فكر العالم حقاً.

وفي 18 كانون الأول / ديسمبر، بألمانيا، يتوحد الحزبان الاجتماعيان - الديمقراطيان الـ(SPD) والـ(USPD) لوضع رئيس الـ(SPD)، فريدريك إيبرت، في منصب المستشار، والوقوف ضد صعود الحزب الشيوعي الذي يغدو أيضاً هدفاً رئيساً لليمين المتطرف. ويشغل القادة الرئيسيون الاجتماعيون - الديمقراطيون، كوتسكي، برنشتاين، هيلفيردينغ، نوسكه وشيدمان المناصب الهامة في أول حكومة ديمقراطية ألمانية.

وينطلق في كانون الثاني / يناير 1919، السبارتاكيون في تمرد على غرار التمرد الذي نجح لتوه في روسيا. وتعارض روزا لوكسمبورغ هذه

الحركة، شاعرة بأن ميزان القوى في البلاد ليس مواتماً. فيقمع التمرد بأوامر الاشتراكيين، نوسكه وسيدمان. وتعتقل روزا. وفي 15 كانون الثاني / يناير، تُغتال مع كارل ليبكنيخت. على رصيف نهر سبير، من قبل ضباط قوات المتطوعين. وكانا كلاهما في الأربعين. ويحتج برنشتاين ضد «هذا الاغتيال الغاشم والجبان» لابن صديقه ولروزا. ويبدي قلقه بالخصوص من النزعة الانتقامية لدى العسكريين الذين يعتقدون بأنهم لم يُهزموا في الحرب، بل طُعنوا في الظهر من قبل الشيوعيين، وسينضمون سريعاً إلى صفوف النازيين.

ويعود ريازانوف إلى موسكو، حيث يؤسس في السنة ذاتها 1919، مجلتين: (أرشيفات ماركس- إنجلز) و(الحوليات الماركسية). وينشر أيضاً عدة مجموعات لمقالات عن الماركسية: (البروليتاريا الدولية والحرب، جورج بليخانوف والعصبة من أجل تحرير العمل، لمحات من تاريخ الماركسية، مهمات النقابات قبل وأثناء ديكتاتورية البروليتاريا، ماركس وإنجلز). ويشرع في إصدار «المكتبة الماركسية»، و«مكتبة المادية» (غاسيندي، هوبز، لاميتري، هيلفيسيوس، دولباخ، ديدرو، تولاند، بريستلي، فويرباخ) وعدة أعمال فلسفية لهيجل، وترجم كل ذلك بكد واجتهاد على قدم وساق.

ولحرص لينين الدائم على تجنب العزلة لروسيا، بينما أضحى حزبه «شيوعياً»، يؤسس في آذار / مارس 1919، الدولية الثالثة، التي ستسمى قريباً «كومنترن»، لتوحيد الشيوعيين الذين يطبقون، وفقاً للنموذج البُلشفي، منطق التطهير من كل انشقاق، ومساندة الثورة الروسية. فيكتب لينين عندئذ بأن «مهمة هذه الدولية هي تطبيق وتحقيق المثال الأعلى العريق للاشتراكية وللحركة العمالية، وترجمة تعاليم الماركسية في الحياة». وتنص المادة الأولى من الدولية على: «أن الدولية الجديدة توحد الأحزاب الشيوعية في حزب عالمي، من أجل تأسيس اتحاد عالمي للجمهوريات الاشتراكية السوفييتية». ولمزيد من الوضوح،

تضيف «إن «الجمعية الدولية للشغيلة» الثالثة تتطابق منذ الآن إلى حد ما مع اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية». وبعبارة أخرى: على الأحزاب الشيوعية الأخرى أن تضع نفسها أولاً في خدمة اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية، وهو الاسم الجديد الذي سوف تتخذه روسيا قريباً.

الدولية الثالثة مهيكلة حول مؤتمر عالمي، يشكل «الجهاز الأعلى»، تنبثق عنه لجنة تنفيذية قوية تجتمع كل شهر، وجمعية عامة، وترتكز اللجنة التنفيذية على «أقسام عمل». ويقام نشاط دعائي مكثف، بينما تقوم مصالح النشر بترجمة وطبع وإذاعة المؤلفات الأساسية للماركسية. وتُصدر مصالح الصحافة بأربع لغات (الدولية الشيوعية)؛ وتكوِّن مدارس الكومنترن الأطر القائدة للأحزاب الشيوعية. وللانضمام إليها، على كل حزب أن يستوفي واحداً وعشرين شرطاً. لكن الدولية الثالثة الغنية في البداية بالنقاشات، تصطف تدريجاً مع الأجهزة السوفييتية، وتختزل الماركسية إلى عقيدة. أي إلى الطائفة التي كان يندد ماركس بها لدى باكونين.

ويُنذَر الاشتراكيون في كل مكان بأن يختاروا. ففي ألمانيا، يختار الحزب الشيوعي الألماني الانضمام إلى الدولية الجديدة، بينما يختار الحزب الاجتماعي – الديمقراطي الامتناع. وفي فرنسا، يحتدم النزاع بين أنصار الدوليتين الثانية والثالثة. إذ يكتب ليون بلوم الذي انتخب لأول مرة نائباً عن باريس في 1919، بصحيفة (لومانيتيه): «سنظل اشتراكيين ثوريين. ولا أختار لا ويلسون ولا لينين. بل أختار جوريس».

عندما تنهار، في أيار / مايو 1919، جمهورية المجالس في بافاريا، مع اغتيال رئيسها كورت إيسنر، تنحسر الموجة الثورية. ويتضاءل الحزب الشيوعي الألماني على الرغم من اندماجه مع الجناح اليساري للحزب الاجتماعي – الديمقراطي المستقل (USPD). وإذ يحاول، في كانون الثاني / يناير، تمرداً جديداً، تأمر الحكومة الاجتماعية – الديمقراطية بإطلاق

النار على الجماهير، مخلفة أربعين قتيلاً، وتحظر صحافته فيتعقل الحزب الشيوعي عندئذ، ويدخل البرلمان الوطني وكذا البرلمانات الإقليمية. لكن هذا لا يمنع روسيا من الإبقاء على أملها في مساندة ألمانيا لثورتها.

في 1920، ينشر معهد ماركس – إنجلز الذي يديره ريازانوف، تحت عنوان «الكتاب الخامس من (رأس المال)»، ملاحظات متفرقة لا علاقة لها مع هذا المؤلَّف، ومقتطفات اختيرت بعناية من المراسلات بين ماركس وإنجلز. ويذرع رازيانوف أوربا حتى يجمع وينتزع، بل ويسرق أكبر عدد من مخطوطات ماركس، أصلية كانت أم منسوخة. وينشئ معهداً للأساتذة الحمر، يكوِّن أساتذة للفلسفة الماركسية، والاقتصاد السياسي، وتاريخ الحزب، من أجل تأهيل الجهاز الحزبي وكبار الموظفين. وطبقاً لهذا النمط، تكون عدة جامعات منذئذ الأطر الشيوعية: كجامعة سفيردلوف في موسكو (حيث يدرِّس ريازانوف)، وجامعة زينوفييف في لينينغراد، وجامعة صن يات – صن لشعوب الشرق وجامعة مارشليفسكي للشعوب الغربية من أجل الشيوعيين الأجانب. ويشرع ريازانوف بحرية كبيرة في بحوث حول حياة ماركس وحتى موارده المالية. فيوعز على وجه الخصوص بعمل جرد للمبالغ التي تلقاها ماركس ويمكن تبينها من مراسلاته. وفي هذه الأثناء، يتقدم العمل الجماعي في روسيا على قدم وساق؛ ولتدبير أمر ندرة المواد بالتقنين وليس بالأسعار، يلغي لينين حتى التعامل بالنقد.

ويعقد الحزب الاشتراكي الفرنسي مؤتمراً بمدينة تور، في 25 كانون الأول / ديسمبر 1920، للتداول بشأن انضمامه للدولية الجديدة. ويوصي المقترح المسمى «كاشان – فروسار» بالانضمام؛ وأنصار المقترح المقدم من قبل جان لونغيه، حفيد ماركس، يتقبلونه ببعض التحفظات، قبل أن ينضموا إلى بلوم الذي يرفض مع أقلية نشيطة مبدأ حزب تُقوليه الشروط الإحدى والعشرون للقبول في الدولية الشيوعية. وفي خطاب

يظل شهيراً، يصرح بأن البلشفية «ترتكز على أفكار خاطئة في حد ذاتها ومناقضة لمبادئ الماركسية الجوهرية والثابتة و(..). إذا ما ظننتم أن الهدف هو التحول، وأن التحول هو الثورة، فإن كل ما يهيئ لهذا التحول، حتى في إطار المجتمع البورجوازي، يغدو عملاً ثورياً. وإذا ما كانت الثورة هنا، فإن الجهد الدعائي اليومي الذي ينجزه المناضل، هو الثورة السائرة قدماً كل يوم. فكل ما هو تنظيم ودعاية اشتراكية (..). وكل ما هو امتداد داخل المجتمع الرأسمالي (..)، كل هذا ثوري. وحتى الإصلاحات نفسها، إذا ما أفادت في تدعيم سيطرة الطبقة العاملة على المجتمع الرأسمالي (..)، ثورية (..). إن هذه الاشتراكية الجديدة (البلشفية) ترتكز على خطأ جسيم، من حيث إنها قامت على تعميم (..) بعض المفهومات المستقاة من تجربة الثورة الروسية نفسها (..). فعوضاً عن الإرادة الشعبية، وهي تتشكل في القاعدة لتصعد درجة فدرجة، يتضمن نظامكم المركزي تبعية كل هيئة للهيئة الأعلى منها في التراتبية؛ وفي القمة، لجنة مديرة يرتبط بها كل شيء، أي نوع من الأوامر العسكرية، تصاغ من أعلى وتُنقل من رتبة إلى رتبة حتى المناضل البسيط، حتى الجماعات البسيطة (..). وبهذا المعنى، ليست الوحدة هي التي تسعون إليها بل التناسق والتجانس المطلق (..). إذ إن موسكو تطالب بتطهير كلي وجذري لما هو حتى الآن الحزب الاشتراكي». ويختم بلوم: «نحن مقتنعون بأنه في الوقت الذي تجرون وراء المغامرات، لا بد من أحد يحرس المنزل القديم».

في هذه الآونة، يتدهور الوضع في روسيا، حيث لم تُكسب المعركة بعد ضد الجيوش البيضاء. ولتعرض سكان المدن للمجاعة والأوبئة، فإنهم يغادرون المدن. ولم يعد البلشفيك يسيطرون على البلاد. ففي 3 آذار / مارس 1921، ينتفض بحارة في كرونستادت، هاتفين: «تعيش السوفييتات! ويسقط البلشفيك!» ويرد النظام بالقمع، لكن لينين في المؤتمر العاشر للحزب الشيوعي، يستخلص الدروس من الوضع بإعلانه السياسة الاقتصادية الجديدة، ضد تروتسكي الذي ينادي بمواصلة «شيوعية

الحرب». إذ يقول لينين: «نحن أغبياء وضعفاء؛ لقد اعتدنا أن نقول لأنفسنا إن الاشتراكية خير، والرأسمالية شر. لكن الرأسمالية ليست شراً إلا بالنسبة إلى الاشتراكية؛ أما بالنسبة للعصر الوسيط الذي تتوقف فيه روسيا، فالرأسمالية خيرا» وهكذا يتذكر أخيراً ماركس بعدما أخفاه زمناً طويلاً. وينوي لينين إعادة بناء اقتصاد على النمط الرأسمالي (خصخصة) ولمدة «محدودة»، في «بعض» القطاعات (الزراعة، الصناعة الحرفية، تجارة المفرق، الصناعة الصغيرة)، وبناء قطاع اشتراكي بالتوازي، في النقل والمصارف والصناعة الكبرى، وتجارة الجملة والمبادلات الخارجية. فهي نهاية المصادرات في الأرياف التي استبدلت بضريبة عينية؛ وهي أيضاً نهاية توزيع الأراضي. وتعود التجارة الداخلية حرة؛ وتجري الاستعانة بالرساميل والطرق والتقنيين الأجانب. وتستبدل التشيكا Tcheka بالغيبيو Guepeou مع سلطات أكثر تحديداً.

في 23 تموز / يوليو 1921، يدعو الحزب الشيوعي الصيني بشانغهاي إلى أول مؤتمر له الذي يجعل ماركس مرجعاً و«تحقيق الشيوعية بوساطة ديكتاتورية البروليتاريا» هدفاً. فماركس حاضر الآن في عقول كل الثوريين في العالم بأسره. فقد كفى لبلد زراعي كبير هو روسيا أن يتبناه رمزاً للتحديث حتى يفعل الآخرون الشيء ذاته، مشيدين بمذهب معادٍ للرأسمالية، لعدم استطاعتهم بعد الوصول إلى حقائق الرأسمالية. إذ إن الماركسية هكذا بديل للرأسمالية.

في 1922، وبينما بدأ لينين يعاني من المرض الذي سيودي به، تنظم روسيا التي غدت اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية ديمقراطيتها كمسرح خيال الظل. إذ تقرر المساواة بين القوميات، والاعتراف بحقها في تقرير المصير، لكنه حق وهمي تماماً بالطبع. ويُعهد بالسلطة التشريعية، الوهمية هي أيضاً، إلى مؤتمر لسوفييتات الاتحاد (مكوّن من غرفتين: مجلس الاتحاد، ومجلس القوميات) يعين لجنة مركزية. وطبقاً لهذه النصوص، تُمارس السلطة التنفيذية من قبل اللجنة المركزية ومجلس

مفوضي الشعب. لكن واقع الحال، أن أحد معاوني لينين، وهو الجورجي ستالين، بعدما رُفِّع إلى منصب الأمين العام للحزب لدى موت لينين، يجعل منه المنصب الأكثر أهمية في البلاد، بتصفية كل منافسيه تدريجاً.

وريازانوف، الذي ينشر عندئذ النصوص الكاملة للرسائل التي عثر عليها، وكأنه في عجلة من أمره، قبل أن يأتوا لاعتقاله، يروي في خطاب مؤرخ ببداية 1923 (حول الميراث الأدبي لماركس وإنجلز)، الذي لن ينشر في الاتحاد السوفييتي، بل في ليبزيغ، بعد سنتين، سراً، قصة المحن التي لاقتها مخطوطات ماركس. ويعبر عن شعوره بالفخر للعمل الذي خصص له ما يقرب من ثلاثين سنة من حياته بالرغم من كل شيء.

«إن الطبعة المعترف بأن المسؤولين عنها هما برنشتاين وميرينغ معيبة. فالفقرات العديدة التي كانا حذفاها دون تقديم أي إيضاح، أعيدت الآن إلى مكانها، (..) فيما يتعلق بالرسائل التي تمكنت أنا نفسي من مضاهاتها بالأصل على كل حال. وما من رسالة لم تمتد هذه الأيدي العابثة لها بالتعديل. فتعبيرات ماركس وإنجلز القاسية نوعاً ما قد خففت أو شطبت من النص. وعندما ينعت ماركس أحداً بأنه «حمار»، ها هما منافقانا يشعران بالحاجة إلى استبدال هذه الكلمة بـ«حيوان» أو «أحمق»». وهكذا هذه المراسلات «تشابه رسائل راهبات طيبات. وفي المقابل، لم يحذف شلن ولا حتى بنس مما أرسله إنجلز إلى ماركس من مانشستر. ولم يهملا أي جزئية يمكن أن تسيء إلى صورة ماركس لدى أصحاب العقول الضيقة. وإذا ما كان الناشران عملا كل شيء لإنقاذ سمعة ليبكنيخت العجوز أو لاسال، بإعادة صياغة التعبيرات القاسية نوعاً ما، فإنهما لم يراعيا قط حياة ماركس الشخصية. قبل الحرب، كنت حصلت من بيبل على مراسلات ماركس وإنجلز في السنوات المتصلة بمؤلَّفي (تاريخ الدولية). فقد قلت لبيبل إنه من المستحيل علي مواصلة عملي دون هذه الرسائل، لأن من المعيب استخدام مراسلات منقحة. وبضغط من بيبل، اضطر برنشتاين لتسليمي إياها. وقبل إعادتها، عملت

عنها صوراً، دون أن أبلغ أحداً. وهذا ما وجب علينا فعله أيضاً مع بقية المراسلات».

ويعبر ريازانوف عن نفسه هكذا لأنه يعلم بأن أيامه معدودة. وبأن هناك مزور آخر على الباب. وهنا، ليس عن برنشتاين يتكلم بل، من طرف خفي، عن ستالين الذي سيجر البلاد إلى جنونه، ودائماً بانتحال اسم ماركس، وتقديم نفسه كأفضل مفسريه، ثم كمفكر عظيم.

في 1923، يعاد تشكيل الدولية الثانية التي عُلقت أثناء الحرب، مع الاجتماعيين - الديمقراطيين الأوروبيين، والاشتراكيين النمساويين الذين أسسوا لوحدهم ما سمي تهكماً «دولية الاثنين والنصف». ولم ييأسوا بعد من دمقرطة الاتحاد السوفييتي، كما لا يرفضون التحالف مع الشيوعيين ضمن كل بلد.

ومع ذلك، تبدأ في ألمانيا حرب أخوة بين الاشتراكيين والشيوعيين، وهم جميعاً ورثة ماركس، لا تعود بالفائدة إلا على اليمين المتطرف.

وجدير بنا اقتفاء أثر هذه القصة، لأنها تفسر كيف انحرفت الماركسية عن مسارها لتلد مسخين، أنذر بحدوثهما وخشيهما ماركس نفسه.

فبينما كان يشير في 1843 إلى كل الأديان (ومنها اليهودية) وإلى الرأسمالية، كسبب لتعاسة بني الإنسان، ها هما ديكتاتوريتان تقومان في وقت واحد للقضاء، ليس على الرأسمالية، بل على الرأسماليين؛ وليس على الأديان، بل على اليهود. وتمتد جذورهما عميقاً في بروسيا هيجل وبسمارك التي طالما ندد ماركس بها.

إذ تبدأ المعركة في الاتحاد السوفييتي حول لينين المشرف على الموت، بين ستالين وتروتسكي، أي بين الذين يريدون مواصلة دفع الثورة إلى آفاق «الدولية»، والذي ينوي تعميقها في روسيا وحدها. وإذ تنخفض أسعار المحصولات الزراعية، وترتفع أسعار المصنوعات، فإن أيام

المستفيدين من السياسة الاقتصادية الجديدة في المدن، وأيام ملاك الأراضي الصغار (الكولاك) في الأرياف معدودة.

في ألمانيا، يفلح الحزب الشيوعي في 1923 بتأليف حكومة اتحاد مع أحزاب عمالية في ولايتي تورينج وساكس. لكن الحكومة المركزية الألمانية التي خرج الاشتراكيون لتوهم منها، لا تتحمل مثل هذا الوضع، وترسل الجيش لطرد الشيوعيين من الحكومتين المحليتين. ويعقب ذلك تمرد. سرعان ما يسحق، يستفيد منه، هذه الأثناء، هتلر لمحاولة الاستيلاء على السلطة في بافاريا ضد الشيوعيين. فيبرز هتلر هكذا كتحقق لنبوءة شبينغلير: إذ يدعي هو أيضاً إسعاد بني الإنسان بفضل فعل الدولة، بالقضاء على الطفيليين، وأعداء الشعب، والمستغلين. وهو يدين في كتابه (كفاحي) الماركسية الغربية، كما يقول، عن هوية الجماعة؛ فهي تضعف الأمة، وهي «حفار قبر» الشعب الألماني والإمبراطورية الألمانية. و«المشكلة الأكثر أهمية التي ينبغي حلها» هي إذاً القضاء على الماركسية، «الدمل الذي يقرض جسد الأمة». «واليوم الذي ستُحطم فيه الماركسية بألمانيا، سترى هذه الأخيرة قيودها تتحطم إلى الأبد». وما (رأس المال) بالنسبة لهتلر إلا تعبير عن رأس المال الدولي، مرتبط بالديمقراطية التي «تؤكد أن إنساناً مساوٍ للآخر». ويوجه فوهرر المستقبل الإزدراء ذاته لليهودية والديمقراطية والرأسمالية والماركسية: «إن مذهب الماركسية اليهودي يرفض المبدأ الأرستقراطي الذي أقرته الطبيعة: ويضع مكان المزية الأبدية للقوة والقدرة أسبقية العدد ووزنه الميت. فالماركسية تذكر القيمة الفردية للإنسان، وترفض أهمية الهوية القومية والعرق، وتحرم الإنسانية هكذا من الشرط المسبق لوجودها ولحضارتها». إذ نجد هنا ثانية أفكار شبينغلير الرافض للرأسمالية والماركسية في آن، على أنهما إرث أنغلو - سكسوني.

ويعتقل هتلر عندئذ ويرسل إلى السجن، حيث يستقبل الزوار وكأنه مقيم في فندق. أما الحزب الشيوعي الألماني الذي يغدو إرنست

ثالمان رئيساً له، فهو تحت نفوذ الكومنترن أكثر فأكثر الذي يدفع به إلى التوافق في كل شيء مع الاتحاد السوفييتي.

وفي ألمانيا التي تجتاز أزمة مالية حادة، تشتري الصحيفة الاجتماعية - الديمقراطية (فولكسواشت) في تريفز المحلات التجارية في طابق منزل ماركس الأرضي، ثم يبتاع الحزب نفسه المنزل.

في كانون الثاني / يناير 1924، توافي لينين المنية. وبينما يشيد تروتسكي بـ«الثورة العالمية»؛ ينادي ستالين بتمتين الاشتراكية في بلد واحد. وتروتسكي مناوئ للسياسة الاقتصادية الجديدة التي يساندها مؤقتاً غريمه. ويشكل ستالين، زينوفييف وكامينيف قيادة جماعية («ترويكا»)، لكن الأخيرين يصطفان وراء تروتسكي. ويترك ستالين تجربة السياسة الاقتصادية الجديدة تتواصل. فهو بحاجة إلى تأليه لينين كما كان لينين بحاجة لتأليه ماركس وإنجلز. وهكذا يأمر بوضع صورة مؤسس الاتحاد السوفييني في كل مكان إلى جانب مؤسسي الماركسية، بالترتيب التالي: لينين، إنجلز، ماركس. وحتى يسبغ عليه مزيداً من القداسة(بينما يطرد كل الذين أحاطوا به)، ينشر مؤلفات تُنظِّر لأعماله: (مبادئ اللينينية) ثم (ثورة أكتوبر وتكتيك الشيوعيين الروس المتعلق بمسائل اللينينية، ونتائج عمل المؤتمر التاسع عشر للحزب الشيوعي الروسي، وأسئلة وأجوبة، إلخ).

ويستعمل الدولية ليضمن لنفسه مساندات عبر أوروبا. ففي ألمانيا، وفرنسا، والنمسا، وفي كل مكان فيه أحزاب شيوعية، يفتح الكومنترن مدارس للأطر. ويدعى المثقفون والعلماء والفنانون والكتّاب لتبيان أن أفكارهم أو أعمالهم مطابقة لقوانين الديالكتيك. كما تُنشر محاضرات تدعى «فلسفية» لستالين حول لينين، وتُكرر مرة بعد مرة.

في إيطاليا، حيث تغلب موسوليني في 1922 على الشيوعيين، يكتب الفيلسوف غرامشي في 1926، (رسائل من السجن)، ينتقد فيها الجهل الاقتصادي لدى الشيوعيين، حاملاً بصورة خاصة على مفكر نظري ذائع

الصيت في الاتحاد السوفييتي عندئذ، هو بوخارين. ويندد من طرف خفي بالانحرافات الستالينية.

ومن تشرين الثاني / نوفمبر 1923 إلى حزيران / يونيو 1929، يظل الحزب الاجتماعي - الديمقراطي في ألمانيا الذي يرأسه هيرمان موللر خارج الحكومة، لكنه يساندها. ويمثل أكثر من ثلث الأصوات في الانتخابات، ويستطيع الاعتماد على نقابة عمالية قوية، هي الـ(ADGB) وعلى حركة محاربين قدامى، هي راية الرايخ. ويختار خطاً إصلاحياً ويقبل أن تدفع البلاد ثمن الهزيمة. أما المستشار في تلك الحقبة فهو رجل من الوسط يدعى ويلهلم.. ماركس!

في 1927، يتظاهر أنصار تروتسكي في موسكو. فيعمد ستالين بدعم من مولوتوف وكالينين إلى طرد تروتسكي وزينوفييف من الحزب الشيوعي للاتحاد السوفييتي. ويُرسَل الأول إلى ألما آتا ثم ينفى. ويُصفّى الثاني. ومن ثم سيتخلص ستالين من ريكوف ومن بوخارين. وينشر ريازانوف الذي لا يزال على رأس معهد ماركس - إنجلز المجلدين الأولين من أرشيف ماركس - إنجلز، ثم المجلدات الخمسة الأولى من أعمال ماركس وإنجلز الكاملة، وقد وُضعا منذئذ على قدم المساواة - في المستوى ذاته للينين وقريباً جداً.. لستالين.

في نهاية سنوات 1920، يرحّل ستالين المعارضين بأعداد كبيرة إلى معسكرات العمل، ويضع حداً للسياسة الاقتصادية الجديدة، ويشرع في سياسة تأميم منظمة. ويُنظّر لنهجه تحت تسمية «الماركسية - اللينينية» التي لا علاقة لها بماركس، وتقوم على: بناء الاشتراكية في بلد واحد، أولوية تنمية الصناعة الثقيلة وصناعة السلاح، و«المركزية الديمقراطية» ضمن الحزب، أي الديكتاتورية المطلقة لرجل على المجتمع، وسيطرته الشديدة على قادة «الأحزاب الشقيقة». ففي ألمانيا، على سبيل المثال، وبينما يأخذ الوضع الاقتصادي بالاستقرار مع نهاية المطالبات بدفع ديون الحرب، يندد الكومنترن في رسالة مفتوحة بتاريخ 19 كانون الأول /

ديسمبر 1928 بـ«خطر اليمين» ضمن الحزب الشيوعي الألماني الذي احتج قسم منه على انحياز الحزب المطلق إلى الاتحاد السوفييتي. فاتهم قائدا هذه المجموعة، وهما تالماير وبراندلر بـ«نزعة التصفية اليسارية»، و«بالانحراف المنشفيكي» وبـ«الخروج عن مبادئ اللينينية» وبأنهما «انتهازيان» و«مهادنان». وبما أنهما عضوان في الحزب الشيوعي للاتحاد السوفييتي، فقد أعيدا إلى الاتحاد السوفييتي، وجرت تصفيتهما.

في تلك السنة، يموت في لندن عامل اشتراكي يدعى فريدريك ديموت، وهو في الثامنة والسبعين دون أن يعرف أن من الممكن أن يكون كارل ماركس أباه.

ويعود الحزب الاجتماعي - الديمقراطي في ألمانيا إلى السلطة، فيعلن أن منزل ماركس سيصبح قريباً متحفاً لماركس - إنجلز. وحدة هجومات الشيوعيين ضد الاشتراكين عندئذ لا حد لها. إذ تكتب صحيفة الحزب الشيوعي الألماني (العلم الأحمر) في 13 نيسان / أبريل 1929، ضمن نداء للعمال: «إن الاجتماعية - الديمقراطية عدوكم (..). فقد أججت الاجتماعية - الديمقراطية العداوة ضد المنظمات الثورية للبروليتاريا. وتزيد الاجتماعية - الديمقراطية عبء الضرائب التي يرزح تحتها الشعب العامل، والهدايا للدولة الرأسمالية بأكياس مملوءة بالمال. وتسمح الاجتماعية - الديمقراطية ببناء سفن مدرعة من قبل وزارتكم. إن الاجتماعية - الديمقراطية هي أفضل جيش للدفاع عن البورجوازية الألمانية، وهي أصلب رأس حربة للفاشية والإمبريالية..». وفي 1 أيار / مايو 1929، يأمر قائد الشرطة البرلينية، الاجتماعي - الديمقراطي زورجييل، بإطلاق النار على مائة ألف متظاهر شيوعي. فيتهم الحزب الشيوعي في مؤتمره بحزيران / يونيو 1929 الاجتماعية - الديمقراطية بـ«التحضير لإقامة الديكتاتورية الفاشية»، آخذاً عليها كونها «أقوى مساند لصعود الفاشية». وهكذا يشكل الاشتراكيون بالنسبة للحزب الشيوعي الألماني أعداء أكثر خطورة من النازيين. والأزمة الاقتصادية

التي تتفجر في الولايات المتحدة في تشرين الأول / أكتوبر 1929، تؤذن بنهاية استقرار الاقتصاد النسبي في أوروبا، لتعود البطالة والمظاهرات من جديد: ففي برلين يستقيل الاشتراكي هيلفيردينغ من منصبه وزيراً للمالية في نهاية السنة.

ولتسويغ تصور بناء الاشتراكية في بلد واحد، يميز ستالين عندئذ، في مقال بعنوان «المسألة الوطنية واللينينية» الأمم الاشتراكية داخل الأمم البورجوازية التي ستزول مع الرأسمالية. وانطلاقاً من 1930، يعلن الجيورجي نفسه مفسر ماركس الوحيد المسموح له بذلك. إذ يُعتقل ريازانوف في 1931. وقد كان يتوقع هذا منذ ثمانية أعوام. وفي السنة التالية، ينشر المعهد الذي أسسه أعمال ماركس في شبابه التي كان يهيئها حتى اليوم الأخير.

في الغرب، حيث تبدأ أزمة جد عميقة، يرى البعض بداية احتضار الرأسمالية في النزعة الكينزية وتدخل الدولة. إذ يصف جون ماينارد كينز (رأس المال) لماركس بأنه «كتاب اقتصاد مدرسي عفا عليه الزمن (..)، فهو ليس خاطئاً فقط من وجهة النظر الاقتصادية، بل أيضاً دون أهمية ولا تطبيق في العالم الحديث». ويبدأ البعض، وهم قلة، في الظن بأنه لا ينبغي البحث عن الاشتراكية (فيما وراء) الرأسمالية، بل (إلى جانبها). ليس كذروة للرخاء المادي، بل كإعادة نظر في مفهوم التقدم التجاري ذاته. فيقترح والترينجامين في 1930، العمل على «مادية تاريخية تكون أزالت من نفسها فكرة التقدم». وعوضاً عن أن تكون الثورة «قاطرة للتاريخ» عليها أن تعمل، كما يرى، كـ«كابح إنذار» يحول العالم عن الكارثة.

في 1931، يحرز الحزب النازي أول نجاحاته الانتخابية ذات الدلالة، بينما لا تتوقف البطالة عن الازدياد. ولا يقدر الحزب الشيوعي الألماني تفاقم الشعور الوطني لدى البورجوازية الصغيرة التي تمر بمرحلة هبوط، ويستمر في اعتبار الحزب الاجتماعي - الديمقراطي عدوه

الرئيس، إذ يكتب الزعيم الشيوعي تالمان، في تموز ؛ يوليو 1931: «لأن النازيين استطاعوا إحراز نجاح انتخابي هام، يقلل بعض الرفاق من أهمية كفاحنا ضد الاجتماعية - الفاشية (..). وتبدو في هذا ولا شك مؤشرات على انحراف عن خطنا السياسي الذي يوجب توجيه الضربة الرئيسة ضد الحزب الاجتماعي - الديمقراطي؛ وطالما لم يتخلصوا من تأثير الاجتماعيين - الفاشيين، فإن هؤلاء الملايين من العمال (الاشتراكيين) يمثلون خسارة للكفاح ضد الفاشية (..). وفي المرحلة الحالية لانتشار الفاشية التدريجي، يصبح كل تخفيف لكفاحنا ضد الاجتماعية - الديمقراطية خطأ فادحاً». وينشئ الحزب الشيوعي الألماني الجبهة الحمراء، واتحاد المحاربين الحمر، ممعناً في مناوءة الاشتراكيين، بينما تتنامى كتائب الحزب النازي (SA) بفضل دعم الصناعيين المالي، ويبلغ عدد العاطلين عن العمل في شباط / فبراير 1932 الستة ملايين. وينظم الحزب الشيوعي الألماني مئات الإضرابات. ويفوز النازيون في انتخابات آذار / مارس 1932، ثم يخسرون أصواتاً في انتخابات تشرين الثاني / نوفمبر التالية. بينما لا يحصل الحزب الاجتماعي - الديمقراطي إلا على 18.3٪ من الأصوات، ويرفض الإضراب العام الوحدوي الذي اقترحه الحزب الشيوعي.

يدعى هتلر لاستلام السلطة من قبل هيندنبورغ، في 30 كانون الثاني / يناير 1933. وفي الآونة ذاتها يعبث النازيون بمنزل ماركس. ولم يعد هناك مجال لأن يُجعل منه متحفاً. ويستخدم حريق الرايشستاغ ذريعة للحزب النازي لكي يحظر الحزب الشيوعي والحزب الاجتماعي - الديمقراطي، الإخوة الأعداء، وكذلك كل المنظمات العمالية الأخرى. وتالمان، الذي أدرك أخيراً خطأه، يصرح في شباط / فبراير، ضمن اجتماع سري للجنة الحزب الشيوعي المركزية: «ليس فقط تصفية كل ما بقي من حقوق للعمال، وليس فقط حظر الحزب، وليست فقط عدالة الطبقة الفاشية، ولكن أيضاً كل أشكال الإرهاب الفاشي، وما بعده، حبس

الشيوعيين بالجملة في المحتشدات، وملاحقة واغتيال مقاتلينا الشجعان ضد الفاشية، وبخاصة القادة الشيوعيين - تلك هي الأسلحة التي ستستعملها الديكتاتورية الفاشية ضدنا». وهو على حق: إذ سيعتقل - ومعه آلاف من المناضلين الشيوعيين. وسيعدمون جميعاً في 1944.

ذلك أن الشيوعيين في تلك الحقبة يُغتالون، سواء في ألمانيا النازية أم في روسيا الستالينية. فيُعتقلون ويُعدمون رمياً بالرصاص في ألمانيا لأنهم دافعوا عن حريتهم، ويُفعل بهم الشيء ذاته في روسيا السوفييتية حيث يتحول الانحراف الستاليني إلى جنون. وتمتلئ المعسكرات في البلدين بعلماء وأساتذة ومثقفين وبقادة الحزب. وحتى العلم يُفسَد بالخوف. وأسماء كبرى في البحث، وفي الأدب أو الفن ستصنع لها مكاناً في هذا النظام أو ذاك، بعضهم بتمجيد صورة كاريكاتورية لماركس والآخرون بانتقاده بطريقة شوهاء.

ففي شباط / فبراير 1935، خلال المؤتمر الثاني لـ«مزارعي الطليعة الممثلين للمزارع الجماعية»، يصرح المدعو ليسينكو الذي يدعي أنه عالم بالزراعة، بأن «كولاك العلم هم أعداء الشيوعية». مضيفاً: «إن عدو الطبقة هو دائماً عدو، سواء كان عالماً أم لا». فيهتف ستالين الموجود في القاعة: «أحسنت، يا رفيق ليسينكو! أحسنت!» ويمنحه كل السلطات لتطوير نظرياته: إذ يؤكد ليسينكو أن الصفات المكتسبة وراثية، منكراً أي دور للجينات والصبغيات في نقل الصفات.

وتتواصل في ألمانيا المذابح. ففي 1936، يعتقل 11.000 شخص، بتهمة «نشاطات شيوعية مخالفة للقانون» ويعتقل 8.000 أيضاً في السنة التالية.

وفي ربيع 1937، تنطلق المطاردة الأخيرة لأعداء الحزب الواحد، في روسيا كما في ألمانيا. إذ يندد ستالين بـ«وجوه الضعف داخل الحزب، وفي الإجراءات الواجب اتخاذها لتصفية التروتسكيين والخونة». كما يندد ليسينكو، ويده اليمنى، الفيلسوف بريزنت بـ«علماء الوراثة كمخربين

وغير أكفاء أو كأعداء للبروليتاريا (..)، يركعون على ركبهم أمام آخر الإدعاءات الرجعية للعلماء الأجانب..».

في 1938، يعدم ريازانوف رمياً بالرصاص في معسكر ساراتوف، ويموت تلك السنة كوتسكي في أمستردام، ويؤسس تروتسكي الدولية الرابعة. أما الدولية الاشتراكية فتتوقف عن الوجود بعدما أوهنتها الخلافات بين أحزاب أوروبا الشمالية المناصرة للحياد والأحزاب الفرنسية – الإنجليزية المناصرة لسياسة التجنيد. بينما يوقع مولوتوف وريبينتروب على ميثاق عدم اعتداء بين الديكتاتورين.

وفي آذار / مارس 1939، يبلغ الأمر بستالين في المؤتمر الثامن عشر للحزب الشيوعي السوفييتي أن يوقع ماركس في الحفرة، حتى إنه لم يعد يتكلم إلا عن «كلاسيكيات الماركسية»: «لا يمكن مطالبة كلاسيكيات الماركسية، وتفصلها عن عصرنا خمسة وأربعون إلى خمسين عاماً، أن تكون توقعت في مستقبل بعيد كهذا، كل تحولات التاريخ في كل بلد على حدة. وسيكون من السخف مطالبة كلاسيكيات الماركسية أن تكون هيأت لنا حلولاً جاهزة لكل المشكلات النظرية التي قد تطرأ في كل بلد على حدة خلال خمسين أو مائة عام، حتى نتمكن نحن وارثي كلاسيكيات الماركسية من البقاء متكئين نجتر حلولاً جاهزة».

ثم تنشب الحرب، ومعها المحرقة، كنهاية لسيرورة طويلة لـ«تدمير العقل»، لم يكن لأحد أن يتوقعها في ضوء صراع الطبقات.

في 1940، يُغتال تروتسكي من قبل عميل لستالين. بينما تُنشر في الاتحاد السوفييتي الذي يتهيأ لدخول الحرب (مبادئ نقد الاقتصاد السياسي)، الذي كتبه ماركس قبل ما يقرب من قرن. وفي 1942، يعتقل في ألمانيا 9916 شخصاً بتهمة الشيوعية، ويرسلون إلى المعسكرات، كما يحدث لليهود في ألمانيا، وللفلاحين والمثقفين في روسيا.

وتتصادم الدكتاتوريتان بعنف، بعد فسخ الميثاق الذي وقعه مولوتوف وريبنتروب، في 22 حزيران / يونيو 1941. وما كان للبلدان

الديمقراطية أن تهزم دون شك أبداً عدو الماركسية اللدود في 1945، دون تحالفها مع بلد الستالينية.

ولدى نهاية الحرب، يُعثر في تريفز، بالمنطقة التي احتلتها فرنسا من ألمانيا، على منزل ماركس الحالي سليماً. وقامت لجنة دولية برئاسة ليون بلوم بجمع أموال لترميمه. وبينما يظل الشيوعي محظوراً في القسم الغربي من ألمانيا، يغدو إيديولوجية الدولة في الشرق، من برلين إلى صوفيا.

بعد اكتشاف المعسكرات النازية، بينما يحاول أدورنو وهوركهايمر إعادة تذهن الماركسية في ضوء أوشويتز، في (ديالكتيك العقل)، ويحاول هربيرت ماركوس في (إيروس والحضارة) وفي (الإنسان الأحادي البعد) إعادة تحليلها في سياق بروز التحليل النفسي. ولكن لا هذا ولا ذاك يفلحان في العثور ضمن صراع الطبقات على أسس الهمجية النازية ولا على إدخال بواعث التحليل النفسي فيها.

ويكتب أراغون في 1946: «لم يعد الإنسان الشيوعي نظرة للفكر، إنما هو موجود لأنه ضحى بدمه». فما زالت فكرة إنسان جديد، الآتية من الثورة الفرنسية، تعيث فساداً.

إذ يبلغ الجنون الستاليني في الاتحاد السوفييتي أوجه. فيجري تطهير التعليم، باسم ماركس دائماً. وتُعلق معاهد للبحوث. ويتسلم ليسينكو وأنصاره المراكز الهامة في البيروقراطية العلمية السوفييتية. وعلم الوراثة محظور عملياً. ويزمع ليسينكو «بفضل ماركس» على تحويل القمح إلى شَيْلَم، والشعير إلى شوفان، والملفوف إلى لفت، مؤكداً أن الشيوعية سوف تنتصر على الطبيعة، وأن الشعوب التي تحظى بستالين زعيماً ستعرف عصراً ذهبياً جديداً، و«رخاءً غير محدود».

في 1947، يعيد ستالين تكوين الدولية الثالثة تحت اسم «الكومنفورم». وفي خريف 1948، يكشف عن مخطط لنقل زراعات من الجنوب إلى الشمال بـ(تحويل طبيعتها)، وزيادة محاصيل الربيع على

حساب محاصيل الشتاء، وخلق أحزمة غابية واسعة في المناطق الجنوبية لحمايتها من الرياح الجافة القادمة من الشرق. وفي خطاب ألقي في الدورة الرسمية لسوفييت موسكو في 6 تشرين الثاني / نوفمبر 1948، يحيي مولوتوف، وهو وزير الخارجية منذ 1939، انتصار «علم حقيقي مرتكز على مبادئ المادية، في مقابل آثار الرجعية والمثالية الباقية ضمن العمل العلمي». وفي الآونة ذاتها، يكتب أراغون بشأن ليسينكو في مجلة (أوروبا): «لم يحدث في أي بلد ولا في أي عصر من التاريخ البشري أن حصلت مناقشة علمية على مثل هذه الدعاية، وتتبعها هكذا ملايين الرجال والنساء (..). فلأول مرة يُشرَك عمل شعب بكامله بالبحث العلمي»..

وفي 21 أيلول / سبتمبر 1949، يستولي الشيوعيون على السلطة في الصين، ويرجعون هم أيضاً إلى ماركس الذي يرون فيه الأب للاشتراكية العلمية العالمية. وبمناسبة ذكرى ميلاد ستالين السبعين، في 26 كانون الأول / ديسمبر، بُلغ في حفلة غير معقولة أوج الهذيان الماركسي، طبقاً لتقرير رسمي يومئذ: إذ يصرح الأكاديمي م. ب ميتين في قاعة محاضرات قسم تاريخ الفلسفة: «لقد قدم ج. ف ستالين، تلميذ لينين المخلص، ومتابع قضيته، إسهاماً لا يقدر بثمن لتطور اللينينية. (..) إن الرفيق ستالين يلح على وحدة وديمومة وكمال تقدم تعاليم ماركس ولينين. وقد أكد أن أساس اللينينية هو الماركسية، وأنه دون البدء بالماركسية، ودون فهمها، من المستحيل فهم اللينينية (..) ومن الخطأ البيِّن، من جهة أخرى، اعتبار الفلسفة الكلاسيكية الروسية أساساً نظرياً للينينية إلى جانب الماركسية. فاللينينية، كما أشار الرفيق ستالين عدة مرات، لها أساس نظري واحد، وهذا الأساس هو الماركسية (..). إن الرفيق ستالين يلح على ديمومة وكمال وتقدم تعاليم ماركس ولينين. وقد أكد على واقع أن أساس اللينينية هو الماركسية، وإذا لم يُبدأ بالماركسية، وإذا لم تُفهم، من المستحيل فهم اللينينية. وبعد هذا، لفت الرفيق ستالين

الانتباه إلى ما هو جديد، وما هو مرتبط باسم لينين، وبيَّن ما أسهم به لينين في تطور النظرية الماركسية، انطلاقاً من تعميم التجربة الجديدة في الصراع الطبقي للبروليتاريا في زمن الإمبريالية والثورة البروليتارية. (..) ج. ف. ستالين، طور إلى الأمام، ورفع إلى أعلى مستوى، تعليم المادية الديالكتيكية والتاريخية. ويندرج في مصاف الأعمال الكلاسيكية للماركسية – اللينينية، مثل (رأس المال) لماركس، و(المضاد لدوهرينغ) لإنجلز، و(المادية والنقدية التجريبية) للينين. وبهذا العمل العبقري، يعرض أسس المادية الديالكتيكية والتاريخية بطريقة بالغة الوضوح والإيجاز. فقد عمد الرفيق ستالين في هذا العمل إلى تعميم إسهامات ماركس وإنجلز ولينين على تعليم المنهج الديالكتيكي والنظرية المادية. وأفاض في كل هذا على قاعدة النتائج الأكثر جدة في العلم وفي السياسة الثورية (..). فأصبحت تعاليم ماركس وإنجلز التي رفعها لينين وستالين إلى مستوى لم تبلغه قط، في زماننا، القاعدة العلمية لتحويل العلاقات الاجتماعية والتكنولوجيا وحتى الطبيعة ذاتها. إن جوزيف فيساريونوفيتش ستالين، متابع عمل ماركس وإنجلز الخالد، صديق فلاديمير إيليتش لينين ورفيقه في السلاح، ومتابع أعماله العبقرية، هو أعظم مفكر في عصرنا الحديث، وكنز للعلم الماركسي – اللينيني». وهكذا يبلغ الهذيان ذروته.

ويبدأ في ألمانيا الشرقية، نشر أعمال ماركس الكاملة الذي سيظل غير مكتمل.

في مؤتمر فرانكفورت، العام 1951، يعيد أنصار حزب العمال البريطاني إنشاء الدولية الاشتراكية الثانية التي تقر بالماركسية مرجعاً اشتراكياً من بين مراجع أخرى، لكنها تستبعد الشيوعية، «غير المتوافقة مع الروح النقدية للماركسية». وتختار الاتجاه الأطلسي: إذ إن الأحزاب الأعضاء، وجلها أوروبية، هي أحزاب البلدان الأعضاء في حلف شمال الأطلسي، ولا تتعارض فيما بينها إلا فيما يتصل بتصفية الاستعمار.

عندما تدرك ستالين المنية في1953، يموت معه نظامه المرتكز على الرعب. إذ تتخلى الأحزاب الشيوعية في أوروبا الشرقية واحداً بعد الآخر عن نظرية الإفقار المطلق للبروليتاريا، وتمنع حتى كل ذكر لستالين في 1956، في الوقت الذي تسحق ثورة في هنغاريا، دون أن يتدخل الغرب. وماركس بالنسبة لبعض المتمردين آنئذ مصدر إلهام، بينما يلعنه آخرون. وفي تلك السنة، يوضع تمثال نصفي لماركس على قبره، في مقبرة هايغات بلندن. ومعسكرات الغولاغ التي مات فيها الآلاف من (الزكس) Zeks، باسم ماركس ولينين، تفتح شيئاً فشيئاً.

أما صين ماوتسي تونغ، وألبانيا أنور خوجا فيواصلان موالاتهما لستالين. إذ ينص نظام الحزب الداخلي في بكين على أن: «الحزب الشيوعي الصيني يتخذ الماركسية - اللينينية، وفكر ماوتسي تونغ دليلين في نشاطاته». ومن فييتنام إلى غانا، ومن غينيا إلى الجزائر: توالي أكثر حركات التحرر الماركسية أو أحد رموزها المعاصرين، من هوشيه مينه إلى شي غيفارا. مع أن الماركسية بمعنى الكلمة لم تعد موجودة، ولا ماركس أيضاً. ولم يعد أحد يرجع إلى النصوص الأصلية المدفونة تحت طبقات متتالية من الأكاذيب والتمويه.

و«الانفراج» يتبدى في كل مكان؛ وماركس ضحيته غير المباشرة، إذ عُد مسؤولاً عن الفظاعات التي ارتكبت باسمه.

ففي باد غودسبرغ، العام 1959، تتخلى الاجتماعية - الديمقراطية الألمانية، على غرار نظيراتها الاسكندينافية، عن كل مرجعية إلى الماركسية. كما تتخلى عن التأميمات وعن التخطيط للارتقاء بالتسيير المشترك. وينص برنامجها على: «المنافسة بقدر المستطاع، والتخطيط بحسب الضرورة».

ويظل الوضع في الاتحاد السوفييتي شديد التقلب. ففي حزيران / يونيو 1964، بموسكو، لا يزال ترشيح أحد أنصار ليسينكو، وهو ن. ن. نوجدين، مقبولاً من قسم البيولوجيا في أكاديمية العلوم. ولكن، لدى

انعقاد الجمعية العامة لهذه الهيئة، ينهض فيزيائي شاب، هو أندريه ساخاروف، محتجاً: «أدعو الأشخاص الحاضرين، من جهتي، إلى الاقتراع بشكل تتحمل فيه الأصوات «الموافقة» فقط، مع نوجدين وليسينكو، مسؤولية هذه الفترة المخزية والمؤلمة من تاريخ العلم السوفييتي التي تشرف لحسن الحظ على نهايتها». إذ إن الديكتاتورية على الفكر التي أقيمت من قبل أتباع ماركس تشرف على نهايتها، كما يبدو..

ويغادر غيفارا كوبا في 1964، لأنه لم يعد يؤمن بالثورة في بلد واحد. وفي شباط / فبراير 1965، يعفى ليسينكو من منصبه مديراً لمعهد علم الوراثة في الأكاديمية، وينسحب إلى مزرعته. وفي أيار / مايو 1968، يصبح منزل ماركس في تريفز متحفاً، في اللحظة ذاتها التي تندلع انتفاضة باسمه في باريس، وفي روما، وفي براغ. وفي 1971، يشهد مؤتمر إيبيناي الاشتراكيين الفرنسيين، يحتفظون بمرجعيتهم الماركسية، حتى إن فرانسوا ميتران يعتبر نفسه بطيبة خاطر ماركسياً، ولكن ليس لينينياً، شارحاً أن بناء أوروبا، يأتي في نظره، قبل إنجازات الاشتراكية في بلد واحد. وبعد موت ماو في 1976، تتخلى الصين ثم ألبانيا عن المرجعية اللينينية.

في الاتحاد السوفييتي العام 1983، وبينما الأنظمة الموالية للماركسية لا تزال تغطي أكثر من نصف البسيطة، يكتب مؤلفو طبعة مصورة لقسم من أعمال كارل ماركس، نشرت بمناسبة ذكرى وفاته المئوية من قبل معهد الماركسية - اللينينية التابع للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي، بشأن لينين: «لقد جعل لنفسه قاعدة لا يحيد عنها هي «الإصغاء» لماركس، ودراسة مؤلفات ماركس وإنجلز بفكر مبدع، وتُطور أعماله العلم الماركسي في كل جانب من جوانبه: الفلسفة، المذهب الاقتصادي، الاشتراكية العلمية. فقد خلق مذهباً متماسكاً للحزب، وسلح الحزب بنظرية في الدولة الاشتراكية. وكان لينين ينطلق لحل كل هذه المسائل من نظرية ماركس وإنجلز..».

وكانت الماركسية - اللينينية لا تزال باقية عندئذ في كمبوديا الخمير الحمر، وفي البيرو بين صفوف الدرب المضيء، ونيبال، وفرنسا ضمن مجموعات صغيرة. أما الماركسية فتظل حية في الغرب. إذ يلح ألمان مدرسة فرانكفورت (مثل ماركوس وأدورنو)، والفرنسيون (مع ألتوسر) على البعد الإيديولوجي لسيطرة رأس المال على المجتمع؛ ويعودون في هذا إلى الذي يسمونه «ماركس الأول»، محاولين خلق تمايز - اصطناعي، كما رأينا - بين أعمال شبابه، وتلك التي ستتلوها. فالماركسية حية إذاً في الاقتصاد والتاريخ وفي الفلسفة. وبعض علماء الاقتصاد يفهمون أهمية نظرية التراكم، والدور الذي تقوم به الاحتكارات في تكوين الأسعار؛ ويفلح بعضهم في التوفيق بين نظرية الأسعار ونظيرتها في فضل القيمة. ويؤسس البعض الآخر على أعماله نظريات في الرأسمالية الحديثة التي تهيمن عليها المنشآت الضخمة التي تسيطر عليها البنى التقنية. وآخرون أيضاً يطورون نظريات تحاول أن تؤسس على أعمال ماركس تحليلاً للعلاقات شمال / جنوب، («التبادل غير المتكافئ» لسمير أمين)، أو نظرية في التاريخ («القلوب» لوالرستاين) أو فضحاً لـ«المركب» العسكري - الصناعي (باران وسويزي)؛ ويعثر آخرون على طريقة حل مشكلة تحويل القيمة إلى سعر، التي طالما شغلت ماركس. ويحاول آخرون، أخيراً، أن يؤسسوا على كتبه ممارسة سياسية لحزب شيوعي في بلد عصري (نظرية الرأسمالية الاحتكارية للدولة، لبوكارا). لكن غالبية علماء الاقتصاد الأمريكيين والأوروبيين ينتقدون نظريته بأنها لا تقوم على أساس علمي، وهي إيديولوجية محض. فالماركسية لديهم ليست إلا إيديولوجية محض، دون أساس علمي ولا مبدأ.

وفي الوقت الذي تعيد الديكتاتوريات في الشرق اختراع ماركس لإضفاء الشرعية على نزواتها، يستعيد البعض في الغرب سيرة حياته ليجعلوا منه شيطاناً وينزعوا الثقة بأفكاره. إذ يُقدَّم على أنه أناني بصفة

مخزية، ودنيء لا يطاق، وشديد الكسل، وقاس بشكل مخيف على أبنائه، وبورجوازي عنيد، ويؤخذ عليه أنه ملحد، أو على العكس، أنه مؤمن مستتر. ويأخذ عليه آخرون حتى أنه عميل للشيطان يريد الانتقام من الله وتدمير البشرية: ويجدون علامات هذا، في لحيته، في كتاباته وفي موت أبنائه المأساوي (ثلاثة منهم ماتوا من الفاقة وانتحرت الأخيرتان). وعلى العكس من ذلك، يروي آخرون، مثل بول لافارغ، فريدريك إنجلز، كارل ليبكنيخت، فرانز ميرينغ، بوريس نيكولايسكي، لينين، حياته كأنها حياة شبه نبي مرسل.

في الولايات المتحدة، وبعد الماكارثية التي طاردت الماركسية وتخيلتها في كل مكان، تستقر الماركسية في المدن الجامعية، يتبعها بضعة آلاف من الأساتذة، يفضلون وصف أنفسهم بـ«الراديكاليين». إذ يسيطر المؤرخان الماركسيان أوجين جينبوفيز وويليام أ. ويليامز، على منظمة المؤرخين الأمريكيين. أما في صفوف الكنيسة الكاثوليكية، فيظل نفوذ المذهب الماركسي ملحوظاً عندئذ؛ ويعتنقه قسم من رجال الدين في القاعدة، حتى إن المجلس المسكوني للكنائس (وليست الكنيسة الكاثوليكية عضواً فيه) أداة لسياسة اليسار المحلي، مع بعض «رجال لاهوت التحرر». والبروليتاريا التي شهد ماركس ولادتها وتنبأ بسيطرتها، هي بالنسبة إليهم أيضاً كمسيح جديد.

في هذه الأثناء، لا يفلح المجتمع السوفييني لما بعد الستالينية، في التوفيق بين الديكتاتورية والتقدم: إذ يتبين أن الديمقراطية والسوق والابتكار ضرورية جميعها. وإذا كان الاتحاد السوفييتي ينفتح قليلاً، فإنه لا يتمكن من إنتاجية تكفي ليبقى تنافسياً؛ وحاجات جيشه تحتكر جل موارد البلاد، تحت ضغط السباق إلى التسلح، وبصفة خاصة «حرب النجوم» التي أطلقها الرئيس ريغان في 1984. والنظام الذي أسسه لينين وخلفاؤه، وأنهكته المصروفات العسكرية الباهظة، والتبذير الجنوني للموارد، والتخطيط العبثي، يزول في 1989، بإرادة أحدهم، ميخائيل

غورباتشيف، الذي يختار عدم التصدي بالقوة لإرادة التحرر البولونية التي تقودها حركة التضامن (سوليدارنوش). وفي 1991، يترك السلطة لبوريس بيلتسين ولأربعة عشر قائداً شيوعياً شرعيين، بعد محاولة لانقلاب عسكري يائسة، وهي نهاية الاتحاد السوفييتي.

وفي كل مكان، بأوروبا الشرقية، يجري فك تماثيل ماركس وإنجلز ولينين. وما من بلد في العالم اليوم يرجع إليهم، فيما عدا - وبشكل رمزي نوعاً ما، وعرضي - الصين، كوريا الشمالية، وكوبا. والجميع يستبدلون شيئاً فشيئاً بالاشتراكية، وطنية السوق.

وهكذا تكتمل هذه الحقبة المعترضة الطويلة التي ابتدأت لدى وفاة ماركس.

في 1883، كان العالم ملآن بالوعود: فالديمقراطية كانت تبزغ، والعولمة تلوح تباشيرها الأولى في الأفق، وكان التقدم التقني يتفجر. ثم أخذ الناس يشعرون بالخوف من المستقبل؛ فاستخدم بعضهم عمل المفكر الأكثر عولمية، فكر العالم، كذريعة لبناء قلاع بربرية. أما اليوم، فليست ممارسات الاتحاد السوفييتي وكمبوديا والصين وكوبا، وغيرها، قد هوت بمنزلته فقط، بل يبدو أن أسس نظريته تجاوزتها الأحداث.

فلم يعد ممكناً تحديد الطبقات الاجتماعية؛ إذ لم تعد البورجوازية والبروليتاريا مجموعتين اجتماعيتين في تعارض مطلق؛ والأجراء أنفسهم منقسمون إلى مجموعات تتنوع أكثر فأكثر؛ والبعض منهم منذ الآن مساهمون؛ وأطر يسيرون منشآت دون أن يكونوا أصحاباً لها، ويحصلون على نصيب من الربح، وينال المبتكرون والفنانون أهمية مالية. وإلى جانب المال، تغدو المعرفة رأس مال حاسم؛ فعنها ينتج القسم الأكبر من الربح، ومن المستحيل معرفة تكلفة إنتاج مشروع بساعات العمل اللازمة لإنتاجه. أخيراً، إن قياس فضل القيمة مشكوك فيه أكثر فأكثر.

وعلى الرغم من هذا، تستعيد نظرية ماركس كل معناها في إطار العولمة اليوم التي تنبأت بها، فنحن نشهد تفجر الرأسمالية، وانقلاب

المجتمعات التقليدية، وتنامي الروح الفردية، وإفقار ثلث العالم إفقاراً مطلقاً، وتركز رأس المال، ونقل المنشآت من مكان إلى آخر، والتسليع(*)، وتفشي عدم الاستقرار، وتقديس السلع، وخلق الثروات بالصناعة لوحدها، وانتشار الصناعة المالية التي تهدف إلى الاحتياط من مخاطر عدم الاستقرار. وكل هذا، تنبأ به ماركس. إذ تظل تكلفة العمل، كما أشار، المتغير الأساس في الاقتصاد؛ ويظل معدل المردودية الهدف الأكبر؛ وللحفاظ عليه، بل وتنميته، تواصل الأجور ارتفاعها بسرعة أقل من سرعة ارتفاع الإنتاجية، وتواصل الدولة التكفل بنصيب متزايد من النفقات الاجتماعية وتكاليف البحث.

وفي الغد - إذا لم يُعَد النظر مجدداً في العولمة - لا يمكن للإبقاء على مردودية رأس المال أن يتم بشراكة عالمية في الخسارة، لعدم وجود دولة عالمية؛ بل يتم إذاً بتخفيض تكلفة العمل، أي بنقل المنشآت من مكان إلى آخر، وبتفكيك الحماية الاجتماعية، والاستبدال السريع لبعض الخدمات بمنتجات صناعية، توخياً لتخفيض تكلفة إعادة إنتاج قوة العمل. أي بأتمتة خدمات الترفيه والصحة والتربية.

وإذا ما أصبح الإنسان هكذا سلعة، مع الوقت، سيُستنسخ كما هو، على الرغم من الحواجز القانونية الوهمية التي تبذل بعض البلدان جهدها لإقامتها؛ ولن يستطيع أحد إرادة أن يكون شيئاً آخر سوى سلعة. وطغيان الجديد مع تقديس الاستهلاك الذي طالما تكلم عنه ماركس، سيؤخر - وربما إلى الأبد - في الافتتان بنظر السلع التي تتجدد بلا نهاية، قيام الثورة، التي أصبحت هي نفسها مشهداً يقوم به بعض الإرهابيين أمام بقية العالم.

وعندما تكون الرأسمالية استنفدت هكذا تسليع العلاقات الاجتماعية، واستعملت كل مواردها، يمكن لها أيضاً، إذا لم تدمر البشرية، أن تفتح لاشتراكية عالمية. وبعبارة أخرى، يمكن للسوق أن يترك

(*) التسليع: معاملة كل المناشط الإنسانية معاملة السلعة. (المترجم).

مكانه للأخوة. ولا بد لنا حتى نتخيل شيئاً كهذا من العودة إلى المبادئ التي كان ماركس يذكرها عندما كان يحلم باشتراكية شاملة: المجانية، وفن «الفعل» وليس «الإنتاج»، ووضع السلع اللازمة لممارسة الحريات والمسؤوليات («السلع الضرورية») تحت تصرف مشترك ومجاني. وبما أنه ليس ثمة دولة عالمية ينبغي الاستيلاء عليها، فهذا لا يمكن أن يتم بممارسة السلطة على نطاق عالمي، بل بانتقال في فكر العالم - هذا «التطور الثوري» الجد عزيز على ماركس. بانتقال إلى المسؤولية والمجانية. وسيصير كل إنسان مواطناً عالمياً، وسيكون العالم أخيراً معمولاً للإنسان.

علينا عندئذ إعادة قراءة كارل ماركس؛ إذ سنستمد منها أسباباً لعدم تكرار أخطاء القرن الماضي، وعدم الإذعان لليقينيات الزائفة؛ والإقرار بتداول أية سلطة، وبأن الخير المطلق هو مصدر للشر المطلق؛ وأن على الفكر أن يظل منفتحاً، لا يفسر كل شيء، ويقبل وجهات نظر متعارضة، ولا يخلط قضية بمسؤولين، ولا آليات بأطراف فاعلة، ولا طبقات بأشخاص. ليظل الإنسان في المركز من كل شيء.

ولبلوغ هذه الغاية، ستتذكر الأجيال القادمة كارل ماركس المنبوذ الذي وهو يبكي أطفاله الموتى في بؤسه اللندني، حلم بإنسانية أفضل. وسيرجعون عندئذ صوب فكر العالم ورسالته الرئيسة: يستحق الإنسان أن يكون محطاً للأمل.

شكر وعرفان

كلود دوران أوحى لي بفكرة هذا الكتاب.

جان أوزينيه، إليزابيث كوفاكس، يان دورديه، دوني مارافال، وكلود دوران، تلطفوا بمراجعة النسخ التمهيدية العديدة له. واستفدت كثيراً من تعليقاتهم.

جان أوزينيه وموريل كليريه قامتا بترتيب المراجع.

موريل كليريه ورشيدة عزوز وكوليت لودانوا، قمن بالصياغة النهائية لعشرات المخطوطات المتعاقبة.

فلهم جميعاً شكري وعرفاني.

الفهرس

صدر عن دار كنعان من 2000 إلى 2008

م	عنوان الكتاب	المؤلف / المترجم
1	شعرية التمرد	جان جنيه
2	قضايا وشهادات / سعد الله ونوس	مجموعة باحثين
3	السيرة المفتوحة للنصوص المغلقة ج1 +ج2+ج3+ج4	خالد آغة القلعة
4	ياءٌ.. وعد على شفة مغلقة	إسماعيل الرفاعي
5	من قريب من بعيد	كلود ليفي شتراوس
6	اعترافات عربي طيب	يورام كانيوك
7	شرك الدم	إعداد مصطفى الولي
8	قصيدة هيروشيما	وفيق خنسة
9	مواعيد	محمد صارم
10	موكب البط البري	علي الكردي
11	إسرائيل وحرب المياه القادمة	المحامي ظافر بن خضراء
12	على غفلة من يديك	هنادي زرقة
13	سيكلوجية الحب والعلاقات الأسرية	سيرغي كوفالوف
14	دلمونيات	علي الجلاوي
15	قبلة في مهب النسيان	سوسن دهنيم
16	طقوس حافية	نجيب عوض
17	اللاجئون الفلسطينيون في سورية ولبنان	نبيل السهلي
18	الخديعة المرعبة	تيري ميسان
19	الجنرال	آلان سيلتو
20	العقلانية العملية	بيير بورديو
21	بابل والكتاب المقدس	جان بوتيرو
22	الرقص مع الذئاب	نك يانغ
23	البحث عن السيد جلجامش	محمد سيف
24	وعليك تتكئ الحياة	ممدوح عدوان
25	بيان ضد الأبارتايد	د محمد حافظ يعقوب
26	القيمة والمعيار	يوسف سامي اليوسف
27	من دولة الإكراه إلى الديمقراطية	عماد شعيبي
28	القلم والسيف	إدوارد سعيد
29	بين الإسلام والغرب	مكسيم رودنسون
30	صعود وأفول فلسطين	نورمان ج. فنكلستين
31	ومض الأعماق	ت د علي نجيب إبراهيم
32	رائحة الأنثى	أمين الزاوي
33	بؤس العالم (ثلاثة أجزاء)	بيير بورديو
34	المرأة في الإسلام	د. برهان زريق

35	الخيال والحرية	يوسف سامي اليوسف
36	ساعي البريد	ممدوح عدوان
37	الضغينة والهوى	فواز حداد
38	جنجر وفريد	فيدريكو فيلليني
39	التباس «نافذ»	ماهر منزلجي
40	الدُعابة المرة	محمد القيسي
41	محطات الانتظار	محمد توفيق
42	حوارات المنفيين	برتولد بريشت
43	بوح في المتاح	إلياس شوفاني
44	استمرارية التاريخ	عمانوئيل فاليرشتاين
45	باب الحيرة	أنيسة عبود
46	مقال في الرواية	يوسف سامي اليوسف
47	جماليات اللفظة	د. علي نجيب إبراهيم
48	عباس كياروستامي / فاكهة السينما الممنوعة	فجر يعقوب
49	متى يصبح الإنسان شجرة	د. ماهر منزلجي
50	شتاء البحر	غزالة درويش
51	زمن يحترق	غزالة درويش
52	عام مضى والانتفاضة تتجذر	تيسير قبعة
53	سورية واللاجئون الفلسطينيون	ظافر بن خضراء
54	كارل ماركس	سربست نبي
55	جزيرة الهدهد	صبري هاشم
56	همس / الجثة لا تسبح ضد التيار	يحيى علوان
57	أطياف الندى	صبري هاشم
58	التدريب على الرعب	خيري الذهبي
59	الحصار	مازن النقيب
60	نساء في الحرب	جواد الأسدي
61	فلامنكو البحث عن كارمن	جواد الأسدي
62	آلام ناهدة الرمّاح	جواد الأسدي
63	مداريات حزينة	كلود ليفي شتراوس
64	الكلمة الخرساء	جاك رنسيير
65	صفر واحد	رفيق عنيني
66	الريح والملح	الفارس الذهبي
67	الوجه السابع للنرد	فجر يعقوب
68	عالم مختلف	د. ماهر منزلجي
69	اليوم الأخير لبيت دمشقي	طه حسين حسن
70	الحضارة الأوروبية في عصر الأنوار	بيير شونو
71	حنين العناصر	عائشة أرناؤوط

72	الاتجاهات النقدية الحديثة	عمر كوش
73	السياسة الأمريكية وصياغة العالم الجديد	د. عماد فوزي شعيبي
74	امرأة.. مرآتها صياد أعزل	فراس سليمان
75	مرايا الرماد	سهيل بدور
76	الغاوي	بهيجة مصري ادلبي
77	عشاق الدير	د. محمد الدروبي
78	حمار المسيح	ت. إسماعيل دبج
79	تراتيل القيثارة	محمد خميس
80	هيبياس الأكبر	أفلاطون
81	سمعت صوتاً هاتفاً	وليد إخلاصي
82	فيروز والفن الرحباني	محمد منصور
83	السينما الصهيونية شاشة للتضليل	محمد عبيدو
84	درامية التغيير	بروتولت بريشت
85	الليل	محمد ملص
86	الحقيقة والشريعة في الفكر الصوفي	د. عبد السلام نور الدين
87	تصفيق بيد واحدة	د. ماهر منزلجي
88	وعي السلوك	د. محمد الدروبي
89	تحولات السينما البديلة	عدنان مدانات
90	أرواح تائهة / القناع في الطباع	سمير طحان
91	رعشة المأساة «مقالات في أدب غسان كنفاني»	يوسف سامي اليوسف
92	التلفزيون وآليات التلاعب بالعقول	بيير بورديو
93	النقد والمجتمع	فخري صالح
94	ذكريات ممنوعة	إيله شوحاط
95	عجوز البحيرة	تيسير خلف
96	الزهرة والحجر	ماهر اليوسفي
97	أشياء لا تُشترى	فتحية القلا
98	المرأة.. الحب والجنس	جبارة البرغوثي
99	أتباع الشيطان	جبارة البرغوثي
100	هيك وهيك	عصام حسن
101	اقتسام العالم	كبير مصطفى عمي
102	بينوني	كونت هامسن
103	أملاك المغاربة في فلسطين	ظافر بن خضراء
104	النار/التحليل النفسي لأحلام اليقظة	جاستون باشلار
105	خان الحرير	نهاد سيريس
106	العين الثالثة	سمير طحان+أنطوان طحان
107	كتاب في الخوف	حكم البابا
108	الصندوق الأسود للديكتاتورية	محمد منصور

109	خان الحرير	نهاد سيريس
110	تلك الأيام	يوسف سامي اليوسف
111	حديث الكمأة	صبري هاشم
112	الجولان في مصادر التأريخ العربي	تيسير خلف
113	تجوال «رواية»	جان رولان
114	أيها القناع الصغير أعرفك جيداً «قصص قصيرة»	صبري هاشم
115	معارك قيس وليلى	ت. غزوان الزركلي
116	فضيحة مدوية «رواية»	د. إياد ناجي
117	أخت وأخ «رواية»	أولا لينتسه
118	الحريديون والمجتمع والسياسية في إسرائيل	إيلان شاحر
119	على حافة الجنون «قصص قصيرة»	إسماعيل دبج
120	بنى النص ووظائفه	فاطمة ديلمي
121	حرب على الأكواخ سلام على القصور	فولكر براون
122	نفي العقل ج 1	أديب ديمتري
123	نفي العقل ج2	أديب ديمتري
124	محنة البيت القديم «رواية»	د. محمد الدروبي
125	حكواتي ليس إلا «رواية»	د. محمد الدروبي
126	الحب والأسرة عبر العصور	يوري ريوريكوف
127	ماذا عن غد؟..	جاك دريدا+اليزابيث رودينيسكو
128	في غابة المرآة	ألبيرتو مانغل
129	كازانوفا الرائع	فيليب سولير
130	مجمع العمرين	سمير طحان
131	مقدمة كرومويل	فيكتور هيغو
132	أقودك إلى غيري	عائشة أرناؤوط
133	إغراء	ماهر منزلجي
134	دروب الفرار	حفيظة قاره بيبان
135	الموت نثراً	أكثم سليمان
136	الحالات	سمير طحان
137	الإرهاب الغربي	روجيه غارودي
138	أزهار الجليل	إسرائيل شامير
139	نجمة واحدة	سميح شقير
140	وهم السلام	أديب ديمتري
141	خلف الجدار	عبد الباقي يوسف
142	لا العسل تشتهيه نفسي ولا النحل	سافو
143	أجواء عابثة	سامر سكيك
144	موت	حسين ناصوري
145	مصنع الأحلام	إيليا هرنبورغ

146	مائة سونيتة حب	بابلو نيرودا
147	لولا النهر والمرايا	ثامر مهدي
148	المطعون بشرفهم	وفيق يوسف
149	الحياة سابقاً	حسن عبد الرحمن
150	الباب المفتوح	ت. ناضر ونوس
151	أصل الطيور	مجموعة
152	المسيح في الجولان	تيسير خلف
153	تاريخ الخليج العربي	جبارة البرغوثي
154	المشروع الحضاري العربي الإسلامي	د. برهان زريق
155	في عشق جيفارا	آنا ميناندس
156	الجنك	سمير طحان+أنطوان طحان
157	التعقيد	ت. فيصل دراج
158	الانقلاب الكبير	روجيه غارودي
159	كالبذور المنثورة «رواية»	شوكت دلآل
160	من وجد ديوان الوجد	خير الله سعيد
161	أصابع الموز «قصص قصيرة»	غسان الجباعي
162	امرأة واحدة «مجموعة قصصية»	كمالا قاسم العتمة
163	في السينما والتلفزيون «تأملات سينمائي»	قاسم حول
164	روزا «رواية»	كنوت هامسن
165	منظومة الفنون الجميلة	آلان

كارل ماركس أو فكر العالم

أمران في هذا الكتاب يثيران الفضول: أولهما أنّ كاتبه لم يكن شيوعياً ولا ماركسياً، إن لم يكن في طرف آخر لم يُعرف بتعاطفه معهما، ذلك أنّ جاك أتالي كان قريباً من «الأحزاب الاشتراكية الأوربية»، التي اشتهرت بعدائها لـ «المعسكر الاشتراكي» السابق. وثاني الأمرين: أنّ الكتاب ظهر بعد السقوط التاريخي للماركسية وأحزابها. وعلى الرغم من هذه المفارقة فإنّ «أتالي» أنجز كتاباً عن الماركسية في وجوهها المختلفة، رصد فيه مسار ماركس وتكوّن أفكاره، وانتقال هذه الأفكار من حيّز النظرية إلى حيّز التطبيق.

ينطوي هذا الكتاب على غايات ثلاث واضحة: إعادة قراءة الماركسية اليوم، بعيداً عن «التحزّب الأيديولوجي» السابق، الذي كان يساوي بين النظرية الماركسية وتطبيقاتها المستبدة الهجينة، وبين كتاب «رأس المال» والمعتقلات الستالينية. وهو أيضاً إعلان عن الإمكانيات النظرية الواسعة التي تمتعت بها الماركسية، التي لا تزال قادرة على تقديم تفسير لآليات المجتمع الرأسمالي وتطوّراته وآفاقه.



وسواء كانت الماركسية أفقاً لا يمكن تجاوزه، كما كان يقول سارتر، أو أفقاً قابلاً للتجاوز، فإنها ما زالت، حتى اليوم، منهجاً نظرياً أساسياً لا يمكن إنكاره. ترمي الغاية الثالثة إلى الاحتجاج على الواقع الإنساني المعيش اليوم والمطالبة بإصلاحه، وإلى البرهنة عن أنّ الإصلاح المنشود لا يستقيم دون الاستفادة من تاريخ الماركسية في وجهيه النظري والعملي معاً.

د. فيصل درّاج

دار كنعان
للدراسات والنشر
والخدمات الإعلامية

تصميم الغلاف: م. جمال الأبطح